الدَّعْوَةُ الإِسْلامِيَّةُ

أصولها - وسائلها - أساليبها
في القرآن الكريم

تأليف
أ.د / أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

مؤسسة الرسالة
ناشرون



الدعوة الإسلامية

أصولها - وسائلها - أساليبها

في القرآن الكريم

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٥٦٦٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 17 - 2119 - 4

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الجديدة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد،

فإنه منذ أكثر من ثلاثين عاماً صدرت الطبعة الأولى من كتابى " الدعوة الإسلامية أصولها .. ووسائلها من القران الكريم " وكرر الناشر طباعتها أكثر من مرة، بلا اتصال بى مع أنى كنت أتمنى أن أضيف إليها، وأنقح فيها بما يفتح الله على به من مستجدات البحث، وتنوع القراءة، واتساع الرؤى، وبما يتلاءم مع التطور الحضاري والعلمي للناس .

ومضى الوقت ولم يحدث هذا الاتصال الذي كنت أنتظره، وسعيت إليه كثيرا، ولم أتمكن منه .

وقد استقبل طلاب العلم الطبعة الأولى بالاهتمام، واقتبسوا منها كثيراً في أبحاثهم، وصحح بعضهم ما رآه يحتاج منها إلى تصحيح فسعدت لذلك، ورأيت ضرورة إصدار طبعة منقحة، أتدارك فيها ما فاتني، وأستفيد بآراء من نقدني، وأضيف ما منّ الله به عليّ من رأي جديد، وقضايا تحتاجها الدراسة الدعوية المنهجية .

ولذلك وجدت نفسي أمام ضرورة نشر الكتاب بما جد فيه، الأمر الذي حتم تغييراً في العنوان وفي المحتوى، ليكون العنوان على قدر المعنون له .. وليتناسب الكتاب مع التطور، والتقدم الذي شاهدته الحركة العلمية بصورة عامة، وعلوم الدعوة الإسلامية بصورة خاصة .

ولقد ظهر التطور واضحاً، وعميقاً في المؤسسات التعليمية المهتمة بعلوم الدعوة الإسلامية، فبعد أن كانت قسماً في الدراسات العليا يمنح شهادة التخصص "الماجستير" تابعاً لكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية، تحت مسمى " تخصص الوعظ والإرشاد " صار أقساماً عديدة، وكليات كثيرة، متخصصة

تعرف بأقسام، وكليات الدعوة في مصر، وفي العالمين العربي والإسلامي، واهتم سائر العلماء بهذه الدراسة لأهميتها، حتى أصبحنا الآن أمام معاهد لإعداد الدعاة، وتوجيه الدعوة، في كافة أقاليم العالم الإسلامي .

كما عقدت المؤتمرات العلمية في مختلف أوطان العالم الاسلامى لوضع مخطط للدعوة، وتطوير الخطاب الديني لملائمة العصر مع المحافظة على الثوابت الاسلامية.

إن العلوم جميعاً في تطور دائم، من ناحية وسائلها، وأساليبها، وتأليفها، وبخاصة في العلوم الإنسانية، وعلى رأسها العلوم التي لها صلة بالمذاهب والأديان .

وقد أحيطت " علوم الدعوة الإسلامية " بهذا التطوير، فبعد أن كانت هذه العلوم منذ خمسين عاماً تقريباً تقدم للناس على أساس أنها علم واحد صارت عدداً من العلوم، لكل منها طريقته ومؤلفاته، وأصبحنا اليوم أمام مصطلحات لم تكن موجودة بالأمس ... وبعد أن كانت المفاهيم المستعملة في الحركة بالدعوة يتداخل بعضها في بعض، ويسمى بعضها باسم الآخر، نجدها قد تميزت عن بعضها تميزا كليا لدرجة أن كلا منها صار علما خاصا في إطار علوم الدعوة.

إن المنهج له مفهومه، والوسائل لها معناها، وللأساليب دلالاتها ومبناها، وأصبح الفصل والتمييز بين المصطلحات العلمية في إطار العملية الدعوية ضرورة للفهم والحركة، وأساس نجاح البلاغ على وجهه الصحيح.

إن الفصل بين المفاهيم الاصطلاحية يساعد على التفرقة بين ما هو ثابت، وما هو متغير، ويوضح أن الثابت صالح في كل زمان ومكان، وأن المتغير يخدم الأصول الدائمة، والهدف المطلوب، ويحافظ عليهما بصيغ جديدة، ووسيلة تلائم الواقع الحديث .

كما أن التميز بين المفاهيم الاصطلاحية يؤدي إلى ظهور علوم جديدة لدراسة موضوعات مستقلة، وفى هذا إثراء للعلم، وخدمة للدعوة والدعاة .

ولم يعد مقبولاً في مجال علوم الدعوة القول بغموض أصولها، التي هي

مدار الدعوة وأساسها، لأن هذا الغموض نوع من الجهل، لا ترضاه الدعوة لنفسها .

وليس من المتصور أن يعمل للدعوة من لا يفرق بين المنهج والوسيلة، ولا يميز بين الوسيلة والأسلوب، لأنه بذلك يضع الشئ في غير موضعه، ويعجز عن جعل الحركة في مسارها لتصل بموضوعها إلى هدفه المنشود .

إن الهدف العام لعملية الدعوة إلى الله تعالى هو إيصال الحق إلى الأفهام والعقول، وتحويل حياة الناس إلى تطبيق لدين الله عن رضي واقتناع، ومغالبة أعداء الله في الأرض لتكون كلمة الله هي العليا، ولا يتم ذلك إلا بالمعرفة الدقيقة، والتربية المنظمة، والوضوح التام لكل جوانب نظرية الدعوة بكل مكوناتها .

إن غياب المنهج الشامل عن أذهان الدعاة، والمسئولين عن الدعوة يؤدى إلى ضياع جهود كثيرة، تذهب هباءً من غير قصد، ولذلك كانت أهمية المنهج، وضرورة وجود نظرية متكاملة للدعوة إلى الله تعالى أمام الدعاة والمسئولين عن الدعوة ليعرف كل دوره ومسئولياته ويلتزم به أمام الله والناس .

إن منهج الدعوة أصبح نظرية متكاملة تقوم على دعائم متينة، وأسس راسخة تصور كافة أركان العملية الدعوية بما يمكنها من تقديم الإسلام للناس بصورة مشرقة، ومقنعة، وصادقة .

إن الدعوة إلى الإسلام في العصر الحاضر تحتاج إلى معرفة القضايا التالية :

١) التعريف بالإسلام، أصل الدعوة، ومدار عمل الدعاة بما يتضمنه من عقيدة، وشريعة، وخلق، مع بيان وحدة الأصول الدينية في سائر الأديان وتوضيح أن الإسلام دين شامل تام يحقق الخير والسعادة لكل الناس.

إن الحاجة إلى فهم الإسلام بصورة كلية مسألة ضرورية للدعاة، ليتمكنوا من تبليغه إلى الناس، على وجهه الذي يريده الله تعالى ولابد لهذا البلاغ أن يكون شاملاً للاقتناع العقلي، والإثارة الوجدانية، وأن يجذب من يستمع إليه للنظر والتدبر، والإيمان .

ومما يجلى الإسلام وضوحاً وبياناً وضعه في إطار واحد مع دعوات رسل الله السابقين، لكشف ما بينها وبينه من صلة ، ولإظهار ما في الإسلام من تميز وسبق .

٢) تبليغ الإسلام للناس ضرورة دينية، وواجب شرعي، وهو أمر يحتاج إلى خطة دقيقة ونظرية محكمة ليصل للمدعوين على الوجه المطلوب.....ولا يصح أن يترك شأن تبليغ الإسلام للمصادفة في زمن يعتمد على التخطيط والنظام في كل شيء.

٣) وفي هذا المجال يجب ذكر الخصائص العامة للإسلام لبيان صلاحيتة لكل زمان ومكان،وذلك لأن الخصائص هي روح الإسلام وتوجهه، وبمقدار سمو خصائصه يكون تمكنه من تحقيق مقاصده.

٤) توضيح المقاصد الكلية للإسلام، فقلد جاءت تعاليمه كلها للمحافظة على حاجات الإنسان الضرورية بصورة شاملة، وبشكل جميل .. وأيضا فلقد وضع الله تعالى دينه، ودعوته في إطار يتناسب مع الناس، ويلتقي مع قلوبهم، وعواطفهم، ويحقق آمالهم، وأمانيهم ... وقد تمكن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام من تأكيد هذه الحقائق أمام الناس .

٥) التعريف بوسائل الدعوة التي عاشها المسلمون الأول، والتي يمكن أن يعيشها المعاصرون مصبوغة بروح العصر، ومستجداته، لأن تقدم وسائل الاتصال في العصر الحديث حتمت ضرورة الاستفادة بها في تبليغ دين الله تعالى، وبخاصة حين ندرك مدى جذبها للناس، وولع الجماهير بها، مع تنوعها، وكثرتها .

٦) بيان الأطر الفنية التي تقدم الأساليب البلاغية التي ألفها العلماء لتمكين الدعاة من بعدهم ومعهم من وضع كل إطار مع وسيلته، وليتخيروا لكل إطار ما يناسبه من أساليب اللغة، وأوجه البلاغة .

٧) إيراد صور للأساليب البيانية لبيان مدى ملائمتها لموضوعها، لأن للكلمة مقاماً مفهوماً مع صاحبتها لتكوين معنى يصـــل إلى العقـــل، ويؤثر في

النفس، ويحرك الحياة .

٨) الدعاة هم أساس الحركة بالدعوة ولابد لهم من فهم دقيق وعلم واسع، وإيمان أصيل، وتمكن واع في نشر الإسلام وتبليغه على وجه صحيح مشروع لدرجة أن قيل : **إن الدعاة هم وسيلة الوسائل، وأساس التبليغ ومحور الحركة بالدعوة كلها، وبدونهم لا يتحقق من البلاغ شيء**، إنهم هؤلاء النفر الذي يمتص روح الإسلام وحقيقته، ويحوله إلى غذاء للروح ومدد للبدن، وتوجيه للناس إنهم يتعبون ليستفيد الناس، ويعلمون ليتعلم الآخرون ..وما أشبههم بالنحلة تجمع رحيق الأزهار من مكانها ثم تصبه شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس.

إن منهجية الدعوة الإسلامية تعنى التوجه إلى الإنسان لإحداث إنفعال نفسي، وإيجاد إقناع عقلي بالموضوع الذي يتضمنه التوجيه المقصود ... ولا يتم ذلك إلا بوجود إنسان يدرك المسئولية فيحيط بأركان الدعوة ، ويخلص لها، ويشعر أن مهمته أن يحقق لدينه الذيوع والانتشار بالجهد الصادق، والفهم الأمين، والولاء لله ورسوله، وللناس أجمعين .

وحينما يوجد هذا الإنسان يمكننا أن نقول : لقد وجدنا الداعية الذي به سينتصر الدين، وتحيا به الأمة، وبواسطته سنصل للناس، ونوصل لهم الإسلام نقياً كما نزل من عند الله تعالى .... ولسوف يحتاج هذا الداعية علماً يمكنه من فهم واقع الناس، وطبائعهم ومذاهبهم، واتجاهاتهم ليأتيهم من حيث ما يرغبون، ويخاطبهم بما يحبون، ويقنعهم بصدق الإسلام، ويجذبهم إلى نور الإيمان واليقين بالحكمة واللين

لذلك كله كان لابد من وضع خطة منهجية معاصرة، توضح أركان الدعوة، وتحدد مسار الدعاة، وتمكن للدعوة بين الناس، ولابد لهذه المنهجية أن تستفيد بتطورات العلم، و مستجدات الحضارة، ليبقى الإسلام في حركته حياً نابضاً متجدداً يفهم الواقع، ويسمو به إلى دين الله تعالى.

إن الناس في حاجة لدين الله تعالى، فقد نزل لإسعادهم، وتحقيق الخير لهم، ولذا كان تفسير أسباب تباعد الناس عن تطبيق الإسلام غير مفهوم، لأن

النظرة الدقيقة تؤكد ملاءمة دين الله تعالى للفطرة البشرية، كما تؤكد أن الفطرة السوية تجد بغيتها في دين الله تعالى .

إن الذي يبعد الناس عن الإسلام غشاوات مادية، وضلالات فكرية، تصنع حاجزاً يمنعهم من رؤية الحق، ويحيل الأمر إلى نقيض ما هو فيه ، ويظهر الصورة بلون يختلف عن حسنها، وجمالها .

وقد يكون السبب من المسلمين أنفسهم حين يقصرون مع الدعوة، ويهملون واجبهم، ولا يقومون بمسئوليتهم إزاءها، فيلعب بهم الشيطان، ويفقدهم الفهم والإدراك ويزين لهم الهوى والضلال ، حتى يعيشوا راضين بما هم فيه من سلبية وبهتان .

إن الدعوة إلى الله تعالى هي أعدل قضية بين الناس، غير أنها لا تجد الحامى لها، الذي يبرزها في ثوب لائق بها، ويظهرها في صورة جميلة حسنة تلتقي مع التطور الحضاري، والتجديد الحيوى الواجب لها .

إن مذاهب الباطل تعرض اليوم في زخرف وزينة، وتحاط بالمغريات الجذابة، وتحاول أن تلتقى مع طبقات الناس، كل بما يناسبه، وبما يرضيه .

ولذلك كان من الضرورى أن تتطور الحركة بالدعوة وتستفيد بمستجدات العصر، وتصل إلى الإنسان حيث هو – ثقافة، وحضارة، واتجاهاً ... إلخ .

وإن لا فإن المسئولية ثقيلة، والحساب شديد، ولن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن سائر ما كلف به .

إن الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو صاحب الدين، وذلك سر التكامل بين الإنسان، والدين .

إن الإنسان مكون من عقل معنوى، وجسد مادى، وعاطفة وجدانية، وكل عنصر من هذه العناصر، له خصائصه، وله مجاله، وله رغباته، وطموحاته، وأمانيه.

فالعقل جوهر، مفكر، مدبر، لا يقف عند المحسـوس، وله قـدرة علـى التجريد، والتخيل، والاستنباط، يربط المعلول بالعلة، ويبحث عن السبب عندما

يرى الأثر .غذاؤه الفكر، ونماؤه المعرفة، وبه يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات يربط الماضي بالحاضر، ويوجه الحاضر للمستقبل، ويبحث عن العلة ويوصلها بالمعلول .. يسعد بالفكرة ويرضى بالدليل والبرهان .

والجسد هو وعاء كافة المعانى الإنسانية، محسوس كطبيعته، متصل بالشهوات، مرتبط بالغرائز، يتأثر بالحركة، والعمل، ويتغذى بالطعام على اختلافه، ولا يستغنى عن الماء يشربه، والملذات يفرح بها، وينشط لها ولابد له من قيد يربطه، وحدود ترسمه حتى لا يضيع بين الشهوات، وينسى ما عليه من واجبات.

وعواطف الإنسان ترتبط بالأحاسيس الخفية، وتعيش مع القيم النبيلة، وتسعد بحسن الخلق، وتستثار بالمعانى،وتتأثر بالجمال المادى ، والروعة الكونية ، ولها أثرها الكبير في تحقيق الرضا والهدوء وهذه العواطف تصفو فيعرف صاحبها الرقة والحساسية، وقد تتبلد فيخضع صاحبها للعبث والهوى، وحينئذ تخرج النفس عن طبيعتها وشفافيتها .

إن الإنسان بعناصره الثلاث تلك يحتاج إلى من يتعامل معه على أساس هذه العناصر، والاستفادة بها، وتحقيق الإشباع المتوازن بينها، حتى لا تطغى واحدة على غيرها، أو يشبع عنصر ويهمل سواه .

لقد حاولت فلسفات كثيرة إسعاد هذا الإنسان وعملت على إرضائه، لكنها جميعاً لم تصل بالإنسان إلى الغاية التى عملت لها، ولم تتعامل مع الإنسان بصورة كلية متكاملة .

فأحياناً تتعامل مع عقله، وتقدم له الفلسفات العديدة والأفكار المجردة، والمناقشات المتنوعة كما فعل الاغريق والرومان وكلها خالية من وضع حلول مقنعة لما تثيره من قضايا، و في نفس الوقت تهمل حاجة الجسد ولا تحافظ عليه وحينئذ تنطلق شهواته وغرائزه في حرية، لا تعرف الحدود والقيود، وتنقلب العواطف البشرية إلى صراع نفسى، وتتحول القيم إلى اضطراب، وحقد، ومنافسة، مع الغلو، والقصور، ويتحول الإنسان إلى أنانية بغيضة لا يرى إلا نفسه، ولا يتمنى إلا ما يحب ويرضى، بعيداً عن مقاييس العدل، والسلام .

وأحياناً أخرى تتعامل المذاهب البشرية مع جسده المادى، فتغرقه بالشهوات، وتمتعه بالملذات، وتبيح له كافة رغباته، وأمانيه – فيتدنى في سلوكه كالحيوان الضائع، الذليل ... فلا هو حافظ على جسده .... ولا هو صان عقله وفكره .. !!

وأحيانا تدعو بعض المذاهب إلى زهد قاتل فتحرم الجسد وتقيد الروح ، وتوجه العواطف إلى المتاهة والخيال ولا تفيد شيئا .

لم تصل المذاهب البشرية إلى حلول تحقق للإنسان السعادة والأمان، الأمر الذي أدى إلى الأمراض النفسية، والعصبية، والعضوية، وكثر المنتحرون، وامتلأت الدنيا بالشذوذ في كافة جوانب الحياة .

وحينما نعود إلى دين الله تعالى الذي أنزله للناس نجده يرضى كافة عناصر الإنسان، بطريقة متوازنة، ويتعامل معها بالوجه الذي تتأثر به، وتستفيد معه، وتقوم بدورها في حسن وأمان .

إن الإسلام يراعى وضع الإنسان في خطابه، وأحكامه، وتشريعاته .

ولذلك كان التكامل بين الإنسان والدين، ولعل ما يوضح هذا التكامل هو كشف منهجية الدعوة الإسلامية وهي تتقدم لهذا لإنسان، وتتعامل معه .

إنها منهجية شاملة تمثل نظرية متكاملة تتضمن الموضوع المحدد، وتعرف الغاية المقصودة، وتسمح بالوسائل الممكنة، وتدعو إلى اختيار الأسلوب الحسن الجميل .

إن الإسلام في منهجيته يحافظ على الثوابت، ويقدمها بشكل مقبول وصورة حسنة، وفي نفس الوقت يضع الضوابط الشرعية للمتغيرات، ولا يعارض الاستفادة بأقصى الممكن منها .

إن الإسلام في منهجيته لم يتعارض مع الواقع أبداً، ولم يجعل المتغيرات تلبس صورة الجمود والتخلف، ولم يسمح للثوابت أن تختفي وتضيع .

إن الإسلام بمنهجيته يرضى الضمير، ويقنع العقل ، ويسعد الوجدان، وفي نفس الوقت يشبع الجسد، ويتعامل مع الغرائز على أساس أنها دوافع فطرية ضرورية لابد من إشباعها بأسلوب مهذب مشروع، لتقوم بدورها في صنع الحياة، وتقدم المجتمع .

إن الوحى جاء من الله تعالى ، لينشئ ديناً كاملاً ، ويربى إنساناً فاضلاً، ويؤسس حضارة راقية ، وليجعل من الإنسان إنساناً نقى الباطن، طاهر الظاهر، يقوده عقله، ويحمله جسده، ويتحرك بكليته نحو الخير الذي امتلأ به وحركه.

إن هناك مجموعة من الحقائق يجب أن تكون واضحة لمن يبحث، أو يقرأ في منهجية الدعوة إلى الإسلام، لأنها تعد من الثوابت الخالدة في عملية الدعوة، وأهم هذه الحقائق ما يلى :

الحقيقة الأولى : الإسلام دين الله تعالى الذي بعث به للناس محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وهو دين كامل تام، ثابت يحدد للعالمين أركان العقيدة، وجوانب الشريعة، ومحاسن الأخلاق، كما جاءت من عند الله تعالى، وسيظل على صورته التى نزل بها إلى يوم القيامة، وأى تجديد، أو معاصرة لا صله لها بحقيقة الإسلام ومبادئه، وثوابته الدائمة لا قيمة لها، ولن تكون أبداً من التجديد المباح ، ولا من الاجتهاد المشروع ... إن الاجتهاد المشروع يجب أن يدور في إطار المبادئ الإسلامية لاستخراج أحكام شرعية لما يجد من أحداث، ووقائع ... وكلما جد للناس أقضية وجب استنباط حكم لها من مبادئ الإسلام، وقواعده .

الحقيقة الثانية : يهدف الإسلام تحقيق مقاصد كريمة يحتاج إليها الناس جميعاً، ومن أجل توضيح هذه المقاصد، وإزالة أية شبهه تثار حولها ، وبيان فائدتها للعالمين لابد لها من دعاة فاهمين، وعلماء مثقفين ، يملكون الاستعداد للتعامل مع الناس، ومحاورة المجادلين، وإظهار محاسن الإسلام، ومزاياه وإيصال الفكرة نقية على وجهها الصحيح .

إن هؤلاء الدعاة ضرورة يحتاج إليها الإسلام، وبخاصة في عصر كثرت فيه المهاترات الكلامية، وتعددت وتنوعت الأكاذيب، وصار من المألوف إتهام إنسان برئ لمصاحبته أو معرفته إنساناً آخر، وإلقاء اللوم على فكرة ما لأن شخصاً ما قال بها، ولو نطق بها غيره لكانت برداً، وسلاماً، وتقدماً .

الحقيقة الثالثة : إنسان العصر إنسان مستهدف من كافة وسائل التوجيه، بقصد التأثير عليه، وصبغه بصبغة بعيدة عن روح الإسلام، وتعاليمه تحت

مسميات عديدة، وبراقة، وواجب أن يكون للإسلام في هـذا العـصر صـوته الصادق القوى، يتعامل به مع الواقع بما يناسبه، ويحببه في الإسلام، ويقدم دين الله تعالى جميلاً مزيناً للناس أجمعين .

وليس من المعقول أن نترك الإنسان المسلم يضيع بين مختلف الـرؤى، وكثرة المغريات، ولا نعرفه بالإسلام، ونقويه بالدين الذي آمن به، وانتسب إليه

وليس من المعقول أبداً أن نترك مسئولية تعريف الناس بدين الله تعـالى للصدفة والتلقائية، فتلك خيانة وضعة !!

وليس من المعقول أيضاً أن يعزل الإسلام عن الناس وقد جـاء لهـم ، ونزل من أجلهم !! وغايته العظمى أن يتحول بالناس إلى عمل وحركة وحياة.

وهل يغفل المسلمون عن تبليغ الإسلام مع أنه يحقق حرية الإنسان فـي الاختيار، ويؤكد كرامته في المعاملة، ويطلب مخاطبته بالحسنى حيث لا إكراه في الدين ؟؟!!

إن الإسلام يتعامل مع الواقع بإيجابية وواقعية، فهو يدعو إلى التعاون في إطار صيانة الحقوق وأداء الواجبات، وينادي بالمحبة والرحمة والعفو بعيداً عن الظلم والعدوان، وينشر السلام في ظل قوة عادلة، ويحقق السعادة مـع العمـل والنشاط، ويوجد الحرية بعيداً عن الفوضى والتسلط ... وكل هذا يجعل المسلم يعتز بدينه، ويعمل له، ويشعر بالمسئولية معه .

إن هذه المسئولية ضرورة شرعية .. كما أنها ضرورة حياتيه لأن من يتأمل دعاة التنوير، وأنصار العولمة ورجال العلمانية والتحرير وغيرهم، وهم ينشرون أفكارهم بين الناس يندهش لهذا النشاط الواسع ، في وقت ينادون هـم وغيـرهم بوقف الدعوة الدينية بزعم أنها دعوة عصبية ورجعية، ومعادية للآخرين

إن العالم المعاصر صار قرية واحدة، وجدت فيه المنظمات الإنسانية التي تعمل في إطار العالم كله، لخدمة الناس جميعاً، مثل منظمات حقوق الإنـسان، والصحة العالمية، ورعاية الطفولة والأمومة ... وهكذا .

إن العالم يرحب بهذه المنظمات لما فيها من نفع للناس، وفائدة للإنسانية كلها

ألا يدعونا هذا إلى أهمية توضيح الإسلام، بحقيقتـه السمحة، وروحـه العالمية، وإرادة الله فيه ليرحب به العالم بعد البيان والتوضيح ؟!!

ولم لا يتأثر المسلمون بهذا الواقع العالمى ليعملوا على تبليغ الإسلام فـي إطار واضح من أجل إسعاد البشرية، ونشر الأمن والسلام ، وترقية الإنـسان بإنقاذه من عبادة المادة والهوى، وإدخاله في عبادة الخالق العظيم ؟!

إن العالم الحر سوف يرحب بالإسلام إذا وصل إليه بحقيقته وسـماحته، وفيها الكثير من عوامل الإقناع والرضى .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على الخلق الحسن، وتكرم الإنسان في كافة خطاباتها، وتعاليمها ... و ليس فيها ما يسئ إليها حتى تهمـل، أو تتـرك ... والأمة المسلمة مسئولة مع العلماء والدعاة عن مواصلة الدعوة، والتحرك الجيد بالإسلام، بصورة تلائم عظمة الإسلام، وتتوازى مع شموخه الفكرى والعملى، وتلتزم بنور الحق، والإخلاص الصادق، والخلق الكريم .

الحقيقة الرابعة : لم يترك الله تعالى دينه لاجتهادات عقلية مجردة، ولـم يسمح بفلسفة فكرية أن يكون لها مدخل فيه، لا من ناحية الموضوع، ولا مـن ناحية الحركة بالموضوع، فجاء الوحي بالدين محكماً، ومفصلاً، كمـا اشـتمل على طريقة وأسلوب الحركة به .

وكان فضل من الله تعالى حين قدم للمؤمنين منهجاً كـاملاً للـدعوة فـي القرآن الكريم ، وبين رسول الله ﷺ لمن بعده طرق الاستفادة بـالمنهج خـلال الحركة بالإسلام، كاستفادتهم بالإسلام وهم يطبقونه.

والقول بنزول الوحى بالإسلام كله موضوعاً وحركـة، يطمـئن العقـل البشرى على صحة الموضوع، وسلامة الطريق، ونبل الغاية، لأنها مـن الله، وإلى الله، لا تخدم شيئاً، ولا تتعصب لفريق، وإنما هي خير للناس أجمعين .

الحقيقة الخامسة : واقعية الإسلام – موضوعاً وحركة – تحتـاج إلـى تعامل مباشر مع الجديد، ومعاصرة الخطاب للمستمعين، والاستفادة بالدراسات الإنسانية في مجال علوم الاتصال، والاجتماع والنفس، والتربية .... لأن هـذه

العلوم تحاول كشف حقائق الإنسان ظاهراً، وباطناً، وتحدد المؤثرات فيه لتتمكن من توجيهه وتكوينه، وتبين طرق الاتصال به، ومخاطبته على الوجه الأكمل .

وفي هذا فائدة كبرى للدعوة إلى الإسلام، وليس فيها خلط الإسلام بغيره، لأنها تتصل بالوسيلة، والأسلوب وطرق الخطاب، وتلك جوانب في حركة الدعوة تحتاج إلى اجتهاد العلماء وفق ضوابط الشرع، وأصوله ... وفيها من المصلحة ما يقتضيه شرع الله، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، وهو أحق الناس بها، وللمسلمين في ذلك أسوة برسول الله ﷺ فلقد استقبل الوفود، وأرسل الرسائل، ولم يمنعه من ذلك وجودها في دولتى الفرس والروم ... بل أنه ﷺ حفر الخندق يوم الأحزاب بمشورة سلمان الفارسى ﷺ التى نقلها من حروب الفرس .

والتعامل مع الإنسان بصورة مطلقة يقتضى مخاطبته بقدر عقله، وبما يفهمه، وبلغته، وبالدليل الذي يلتقى مع مشاهداته، ورؤاه .

إن العربى في البادية خوطب بالجمل والجبل، والأرض، والسماء، وخوطب غيره بالبحر، والماء، والزرع، والضرع، والأفلاك، والمعادن .... وما ذلك إلا لتلتقى الفكرة مع العقل، ويحدث انفعال نفسى يجذب المستمع لما يقال له، ويعرض أمامه .

الحقيقة السادسة : الإسلام وحى كله جاء للبشر ولذلك فحركته بين الناس تأخذ طبيعة حياة البشر، **ومن هنا** يشعر كل مسلم بمسئوليته الدينية بالقدر الذي يستطيعه، وهو في هذا الإطار مسئول أمام الله تعالى، فالرجل مسئول عن أهله، وصاحبته، وبنيه، والمسلم مسئول عن جاره، وصاحبه، وأخيه ... وبهذا يكون التناصح سمة المسلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معلماً بارزاً في المجتمع الإسلامى كله.

ولنا أن نتصور مجتمعاً يلتقى كل أفراده على الخير، ويتعاونون على البر والتقوى، ويجاهدون الهوى، والفتون، إنه مجتمع عظيم، رائع .... وحين يتسع هذا المجتمع ليشمل العالم كله فإنه يصير عالماً إنسانياً راقياً، يعمل للخير والمصلحة والتقدم .... إنه مجتمع الإسلام الحنيف .

ليس في الإسلام ما يخفيه، وليس في الإسلام ما هو مستور عـن العقـلاء والمنصفين، وفضل الإسلام وخيريته شهادة نطق بها الكثيرون من غير المسلمين .

وأداء للأمانة، وإتماماً للدراسة التى بدأتها منذ ثلاثين سـنة أقـدم هـذه الدراسة عن " الدعوة الإسلامية " في صورة منهجية معاصرة مـع المحافظـة على كل الحقائق العلمية التى جاءت في الطبعة المكررة السابقة .

ومن خلال هذه المقدمة أرجو من العلماء والدعاة وفيهم الخير الكثيـر أن يهتموا بعلوم الدعوة على مختلف تنوعها لتقوى بأفكارهم، وتنمـو بمؤلفـاتهم، وتثبت بمواقفهم وجهودهم .

إن العلوم تزداد ثراء كل يوم، ويتولد منها الجديد كـل حـين، والعلمـاء المتخصصون يعملون بلا كلل ولا ملل وعلماء الإسلام هم الأجـدر، وعلـوم الدعوة تحتاج إلى المزيد ... ولأجل ذلك كتبت هذا الرجاء .

وأملى في الله أن يفتح لهذه الدراسة التي أقدمها في هذا المؤلَف العقـول والقلوب، وأن تنزل في الحياة نفعاً ونوراً للناس ... وأن يجعلها لى الله خيـراً في الدنيا، وذخراً في الآخرة، ونوراً أسير به إلى الفردوس الأعلى، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير .

وعلى الله قصد السبيل ... إنه حسبي ... وهو نعم المولى ونعم النصير

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

مدينة نصر في { أول المحرم سنة ١٣٩٩هـ
١٢ يناير سنة ١٩٧٨م }

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى المكررة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد،

ففي أوائل القرن السابع الميلادي وعلى حين فترة من الرسل ظهرت الدعوة الإسلامية من أجل تصحيح المسار الإنساني والبعد به عن مزالق الهاوية، وهدايته إلى طريق الله المستقيم .

وكان من رحمة الله بالإنسانية أن جعل دعوته شاملة لسائر الناس، ودائمة على الزمن كله، وبث فيها من التعاليم ما يضمن تحقيق السعادة في الدنيا وفي الآخرة .

إن البشر في حاجة ملحة إلى دعوة الله هذه، وبدونها لا استقرار ولا سعادة، وذلك لأنها وضع إلهي للبشر، والوضع الإلهي دائماً يحتوى على المصلحة المتفقه مع الإنسان المخلوق، ولا غرابة في هذا لأن الخالق سبحانه وتعالى يعلم سر المخلوق المحدود بالذات، والزمان، والمكان فيوجهه بعلمه وحكمته، وبرشده إلى ما فيه المصلحة دائماً .

إن الإنسان يظلم نفسه ببعده عن تعاليم الدعوة الإسلامية، ولا نعلم لذلك سبباً معقولاً، فرغم أن الإسلام دين ميسر، وعلى قدر طاقة البشر، وفي مصلحتهم، رغم ذلك فإن كثيراً من الناس قد أعماهم الهوى، ولعب بهم الضلال، فوقفوا من الدعوة موقف الترك أو المعارضة، وبعدها عاشوا في اضطراب وتنازع، وانحلال، وقلق، ولم ينفعهم الغنى والجاه والقوة .

ونحن نقدم الدعوة الإسلامية لسائر الناس من أجل خلاص حقيقى للبشر ولتحقيق سعادة أصيلة وشاملة للناس أجمعين، لأنه لا خلاص في غيرها، ولا سعادة في سواها . ولسنا بهذا متعصبين أو مغالطين، وإنما نريد أن نكرم الإنسانية بالحق الذي ارتضاه الله للعالمين، نريد أن نكرمها بالدعوة الإسلامية،

لتتآخى بالحق والعدل، وتتعاون على البر والتقوى، وتزيل غشاوة التعصب والاستعلاء، وتتقبل الحقائق على هدى الفطر، وبصيرة الفكر، وتقدير البشر

إن الدعوة الإسلامية من تنزيل رب العالمين، وذلك دليل قدرتها على تحقيق السعادة، وإيجاد الخلاص المطلوب .

وسوف نقتصر في هذه الدراسة على حقيقة الدعوة الإسلامية ووسائلها من القرآن الكريم لما لها من أهمية وفائدة للأسباب التالية :-

١) القرآن الكريم دستور الدعوة، وكتابها، وسجلها الأمين ومرجعها الثابت الصادق، وكله بيان لحقيقة الدعوة ووسائلها حتى آيات الأحكام فيه تأتي في هذا الإطار .

٢) القرآن الكريم يمثل عصر التكوين الحقيقي للدعوة في العصر الأول

٣) لا جديد عن الدعوة ووسائلها في غير القرآن الكريم، وكل آت من غيره لابد أن يأخذ منه القاعدة والأساس .

وقد اقتضت الدراسة أن تتكون من أربعة أبواب[1] حيث تدرس في **الباب الأول الدعوة الإسلامية** من ناحية تعريفها وبيان أركانها ومعرفة أهدافها – ومدى عناية الله سبحانه وتعالى بها .

وفي الباب الثاني : نتكلم عن الدعوات السابقة وصلتها بالدعوة الإسلامية وذلك بإيراد موجز عن هذه الدعوة مع بيان السمات العامة للدعوات الإلهية، وفائدة إيرادها للإسلام، وتوضيح مزايا الدعوة الإسلامية عن سائر الدعوات الإلهية السابقة .

وفي الباب الثالث : نتكلم عن تبليغ الدعوة الإسلامية مع بيان أهمية التبليغ وحكمه الشرعي، وحكم من لم تبلغ الدعوة، وتوضيح أن التبليغ يعتمد دائماً على العقل والحرية .

وفي الباب الرابع : يتناول الحديث عن وسائل تبليغ الدعوة ببيان ملامحها

---

(١) غايرت الطبعة الجديدة هذا التبويب بصورة كلية حيث جاءت في ستة أبواب وكثرت فيها الفصول، وتعددت المباحث وفق ما اقتضته الدراسة المعاصرة .

الرئيسية وأهم صورها في القرآن الكريم مع وضع صورة الداعية المثالى باعتباره أساس الوسائل والناطق بها .

وأخيراً تأتى الخاتمة .

وقد اتبعت في هذه الدراسة أسلوباً يتفق مع يسر الدعوة ووضوحها أملاً في أن ينفع الله به ويوقظ الهمم لنصرة دين الله في الناس .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، وأن يتقبله منى ليكون لى نوراً في الأرض، وذخراً في السماء، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

مدينة نصر في { أول المحرم سنة ١٣٩٩هـ
١٢ يناير سنة ١٩٧٨م }

التمهيد
في
تحديد المفاهيم الدعوية



التعريفات

ليكن البدء بالتعريف وبعده يأتي الشرح والتوصيف، لان التعريف يحدد مسار العمل ، ويوضح موضوع العلم، ويضع الكاتب والقارئ معا في جو الموضوع وأهميته، ومن هنا كان الحرص الدائم للعلماء أن يبدأوا دراستهم في كل فن بتعريف الموضوع الذي يريدون دراسته .

والمصطلحات الواردة في الدراسات الدعوية عموماً، وفى هذا الكتاب على وجه الخصوص تحتاج إلى تعريف وتحديد، وبخاصة أنها تدور حول مفاهيم جديدة كانت متداخلة وما زال البعض يعبر عنها كمفهوم واحد ... لقد كتب كثيرون عن منهج الدعوة وهم يقصدون الوسيلة، كما كتبوا في وسائل الدعوة وهم يريدون الأسلوب ولهؤلاء عذرهم بسبب طول المدى الذي تعامل فيه العلماء على أن هذه المصطلحات تعني معنى واحدا .

ومن هنا كان تعريف هذه المصطلحات له أهميته في دراسة علوم الدعوة وأبحاثها

وهو بالضرورة تعريف مجمل لأنة يشير إلى الموضوع، ويبين الهدف، ويرسم الطريق في كلمات مع أن هذه الكلمات هي عنوان البحث كله ، ومع هذا فان التعريف مع إجماله مهم للدراسة المنظمة الصحيحة.

وحين ننظر في عنوان الدراسة ونتأمل في أبحاث الدعوة نرى أننا في حاجة إلى تعريف المصطلحات الآتية :-

١) الدعوة الإسلامية.

٢) أصول الدعوة الإسلامية.

٣) وسائل الدعوة الإسلامية.

٤) الداعية الإسلامي .

٥) أساليب الدعوة الإسلامية.

٦) المدعوون .

٧) المفهوم المعاصر لمنهجية الدعوة الإسلامية.

وبعد الانتهاء من التعريفات تأتى الدراسة التفصيلية في إطار خطة علمية كاملة وشاملة بإذن الله تعالى .

أولا

تعريف الدعوة الإسلامية

يهتم الفرد كما تهتم الجماعات والأمم بإثبات وجودها ، والتعريف بذاتيتها، وتقديم نفسها للآخرين جميلة مقبولة ، والإسلام جاء للناس جميعاً من عند الله تعالى ، ولذلك كان خطابا للآخرين من أول لحظة ، ودعوة للغير منذ نزول الوحي به .. دعا به رسول الله ﷺ أصحابه، ودعا الصحابة من وراءهم ، واستمر مسار الدعوة على هذا النمط حتى بلغ الناس أجمعين ... على نحو ما قال ﷺ: " **تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ** "[1] وهكذا يتجلى الإسلام دينا للعمل والتطبيق ، وخطة للتبليغ والإرشاد .

وقد سمى الله تعالى الإسلام دعوة لما فيه من حقائق لابد من تجسدها في حياة الناس وحركتهم ، ولما يلزمه من طلب الإيمان به والدعوة إليه ، والالتزام بما فيه .. فهو منهج عملي تطبيقي ، وهو كذلك دين لابد من تبليغه ونشره وإيصاله للناس أجمعين .

ويحسن بي قبل البدء في الدراسة أن أحدد المعني المقصود من الدعوة الإسلامية كمصطلح علمي يدل على دراسات تخصصية معينة وبخاصة بعد تعدد معناها وكثرة استعمالاتها .

- ١ -

التعريف اللغوي للدعوة

للدعوة معان عديدة في لغة العرب ، وقد ذكرها العلماء تمهيداً لبيان المعاني الاصطلاحية للدعوة ، وأصولها ، ومنهجها ، وهكذا .... وذلك لأن المعانى اللغوية أساس تقوم عليه المفاهيم الاصطلاحية ، ومن هنا سأورد بمشيئة الله تعالى أهم المعانى اللغوية لكلمة الدعوة لنتمكن من تعريف الدعوة اصطلاحاً ، ونقف بعد ذلك على ما يتصل بالدعوة من معارف وعلوم .

جاء في معجم مقاييس اللغة : أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد

---

(١) مسند الإمام أحمد كتاب – ومن مسند بني هاشم – باب – باقي المسند السابق – رقم ٢٩٣٩ .

ومعناه أن تميل الشئ إليك بصوت وكلام يكون منك ، أو بغير ذلك كالإشارة والصورة والعمل ، تقول دعوت أدعو دعاء أي قمت بمحاولة الإمالة.

والدَّعوة إلى الطعام تكون بالفتح، والدِّعْوة إلى النسب بالكسر، ومنه داعية اللبن، وهو ما يترك في الضرع ليطلب ما بعده، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأن الأول يدعو الثاني ويميله نحوه .

ودواعى الدهر صروفه، لأنها تأتى متعاقبة، وكأن الأول يدعو الثانى فيميله وهكذا [١].

وجاء في المصباح المنير: دعوت الله أدعو دعاء ، ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله ، والجمع دعاة وداعون ، والنبي داعي الخلق إلى التوحيد [٢] .

وجاء في أساس البلاغة : ودعوت فلانا ناديته ، والنبي داعي الله ، وهم دعاة الحق ، ودعاة الباطل ، ودعاة الضلال [٣].

ويفهم مما ذكر أن الدعوة تعنى في اللغة إمالة شئ لشئ ، وطلب تحقيق شيء مع شيء وربط الثاني بالأول ؛ مادياً كان الربط أو معنوياً ، يتم بجهد أو بطريقة تلقائية، في أمر خير أو غير ذلك.

وجاء في لسان العرب : الدعوة المرة الواحدة من الدعاء ، والدعاء واحد الأدعية ، وأصله دعو، لأنه من دعوت ، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت .

وتقول للمرأة : أنت تَدْعِين، وفيه لغة ثانية : أنت تَدْعوُين ، وفيه لغة ثالثة أنت تدعيين، بإشمام العين الضمة ، والجماعة أنتن تدعون ، مثل الرجال سواء، قال ابن برى : قوله في اللغة الثانية أنت تدعوين لغة غير معروفة ، أي شاذة .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة "دعا" جـ٢ صـ٢٣٩

(٢) المصباح المنير ، مادة "دعا " .

(٣) أساس البلاغة ، مادة " دعا "

والدَّعاَّءة : الأنملة يدعى بها ، كقولهم السبابة ، كأنها هي التى تدعو ، كما أن السبابة هي التى ترفع حين المخاصمة كأنها تسب .

وقوله تعالى ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾[١] أى لله الإسلام الذي هو دعوة الحق .

قال الزجاج: جاء في التفسير أن دعوة الحق شهادة أن لا إله إلا الله، وجائز أن يكون المراد من دعوة الحق دعاء العبد لله خاصة ، لأن من دعا الله موحداً استجيب له دعاؤه لأنه حق .

وفي كتابه ﷺ إلى هرقل " **أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ** "[٢] أى بدعوته ، وهي كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة ، وفي رواية : بداعية الإسلام، وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة .

ومنه حديث عمير بن أفصى : ليس في الخيل داعية لعامل ، أى لا دعوى لعامل الزكاة فيها ، ولا حق يدعو إلى قضائه ، لأنها لا تجب فيها الزكاة .

ودعا الرجل دعواً ودعاءً : ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً أى صحت به واستدعيته .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقدم الناس في أعطياتهم على سابقتهم ، فإذا انتهت الدعوة إليه كبر، أي وصله النداء والتسمية ، وتداعى القوم دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا .

ودعاه إلى الأمير ساقه وناداه، وطلبه إليه وقوله تعالى ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[٣] أي منادياً لدين الله ، و داعياً إلى توحيد الله ، وما يقرب منه .

والدعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ، واحدهم داع ، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة .

والنبي ﷺ داعي الله تعالى ، وكذلك المؤذن ، وفي التهذيب : المؤذن داعي الله والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته ، قال الله عز وجل مخبراً

---

(١) سورة الرعد الآية ١٤ .

(٢) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء رقم ٤٥٥٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٦ .

عن الجن الذين استمعوا القرآن حين ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [(١)] قالوا ما حكاه الله تعالى عنهم ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [(٢)].

ويقال لكل من مات : دعى فأجاب ، ويقال : دعـاني إلى الإحسـان إليك إحسانك إلى، وفي الحديث " **الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ وَالْحُكْمُ فِي الْأَنْصَارِ وَالدَّعْوَةُ فِي الْحَبَشَةِ** "[(٣)] أراد بالدعوة الآذان ، جعله فيهم تفضيلاً لمؤذنه بلال ﷺ

والداعية: صريخ الخيل في الحروب، لدعائه من يستصرخه، يقال : أجيبوا داعية الخيل .

وداعية اللبن : ما يترك في الضرع ، ليدعو ما بعده ، يقال للجارية دعي في الضرع : أي إبقى فيه داعية اللبن [(٤)] .

وقد وردت كلمة الدعوة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ، ومعان متعددة كذلك ، فقد جاءت **فعلاً ماضياً :**

يقول الله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ [(٥)].

ويقول سبحانه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [(٦)].

ويقول سبحانه ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [(٧)].

ويقول سبحانه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ ﴾ [(٨)].

ويقول سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[(٩)].

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٩

(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٠

(٣) مسند الإمام أحمد كتاب مسند الشاميين باب حديث عتبة بن عبد السلمي أبي الوليد رضي رقم ١٧٢٠١ .

(٤) لسان العرب مادة " دعا "

(٥) سورة آل عمران الآية ٣٨

(٦) سورة فصلت الآية ٣٣

(٧) سورة مريم الآية ٩١

(٨) سورة نوح الآية ٥

(٩) سورة إبراهيم الآية ٢٢

وجاءت **فعلاً مضارعاً** :

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١).

ويقول سبحانه ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ ﴾ (٣).

وجاءت فعل أمر :

يقول الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٤).

ويقول سبحانه ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ ﴾ (٥).

وجاءت مصدراً :

يقول الله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ ﴾ (٦).

ويقول سبحانه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٧).

وبالنظر في دلالات اللغة ، وألفاظ القرآن الكريم نرى أن معانى الدعوة اللغوية تنحصر في بذل محاولات حسية، أو معنوية، لربط شئ بشئ، وإلحاق أمر بأمر، لتحقيق غاية، في خير أو في شر، تساوى الطرفان أو لم يتساويا، ولا فرق أن يتم هذا الإلحــاق بجهــد، أو بصـــورة تلقائية وقد تحقق المحاولة

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨
(٢) سورة الجن الآية ١٨
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٤
(٤) سورة النحل الآية ١٢٥
(٥) سورة غافر الآية ٦٠
(٦) سورة الرعد الآية ١٤
(٧) سورة غافر الآية ٤٣

مرادها ، وقد لا تصل لشيء .

فتداعى الأحداث ، والأفكار ، والمعاني جزئيان تترابط ، ودعوة النسب إلحاق الفرع بأصله ، وداعية اللبن والتوالد جذب يقوم به الموجود لما سيوجد بعده ، والدعوة إلى الدين محاولة ربط العابد بالمعبود ، وإلحاق الناس بدين الله تعالى ... والاستغاثة والطلب ، والرجاء تعنى تعلق العبد بالرب ليحقق له ما يتمنى ، ويرجو ... وفي كل هذا المعنوي والمحسوس ، والقائم على جهد وتعب، والذي يحدث بصورة تلقائية عادية .

والدعوة حين تطلق في الإطار العلمي والديني تنصرف إلى الدعوة الإسلامية وهي المصطلح الذي يحتاج إلى تعريف لأنه أساس الدراسة والبحث وبخاصة أن مقصد التأليف هنا التعريف بالإسلام في بعض نواحيه .

-٢-

المعنى الاصطلاحي للدعوة

حينما نرجع إلى دلالات اللغة ، وألفاظ القرآ الكريم ، وكلمـات السـنة النبوية واستعمالات العلماء لمصطلح الدعوة الإسلامية ، نرى أنها تأخذ مسارين مختلفين هما :

المسار الأول :

يعنى هذا المسار أن الدعوة الإسلامية هي الإسلام ، دين الله تعالى بما حوى من عقيدة، وشريعة، أخلاق .

يقول الله تعالى ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [١] أى لله دينه ، وهو الإسلام .

و يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[٢] أي تعبدون فالدعوة هي العبادة ، والعبادة هي الدين .

يقـول الله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ

---

(١) سورة الرعد الآية ١٤

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٤

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[1] يقول مجاهد ﷺ أى يصلون الصلوات خضوعاً، واستسلاماً لله تعالى[2] .

ويقول النبى ﷺ " **أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ** "[3] ، أى لدينه .. ويقول ﷺ : "**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ** "[4] فالحصر يفيد أن الدعاء هو العبادة .

ومن استعمالات الناس قولهم ... أمنت بالدعوة، أى صدقت بدين الله تعالى

المسار الثانى :

يعنى هذا المسار أن الدعوة الإسلامية ، هي حركة تبليغ الإسلام ، ونشره بين الناس ، والتذكير به ، والدفاع عنه ، والعمل على أن يكون منهج الحياة لكافة الأفراد وسائر المجتمعات ، وهذه الحركة تتضمن الوسائل والأساليب والقائمين عليها والمخاطبين بها وهكذا .

يقول الله تعالى ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾[5] أي بلغ وأرشد .

ويقول سبحانه ﴿ **يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ** ﴾[6] أي ليستجب المنادون للداعي مبلغ الدين، وحامله للناس، ومن استعمالات الناس قولهم : أنا من رجال الدعوة ، أى من الدعاة الذين يحملون الإسلام، ويبلغونه للناس .

والمسار الثاني هو الوعاء الحامل للمسار الأول، والغاية من المســار الثاني خدمة الإسلام ، وتبليغه للناس .

ويلاحظ أن بين المسار الأول ، والمسار الثانى ترابط من جهة ملازمة كل منهما للإسلام ، واتباع تعاليمه ... ويختلفان فيما عدا هذا ، **لأن المسار الثانى** عملية توجيهية فنية ، تحمل الفكرة ، وتوصلها لأناس يحتاجون إليها على وجه

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) تفسير مجاهد

(٣) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء رقم ٤٥٥٣ .

(٤) سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة القرآن رقم ٢٩٦٩ .

(٥) سورة فصلت الآية ٣٣

(٦) سورة الأحقاف الآية ٣٠

مقبول ، ومفهوم ، لتكون دستور العمل ، ومنهج الحركة ... **بينما المسار الأول** هو الفكرة نفسها ، وهو المنهج ، وهو الدستور ... ويختلفان كذلك في مناط مسئولية الناس إزاءهما، فالمسار الأول مسئولية كل إنسان عاقل مكلف ... والمسار الثانى مسئولية أولى الأمر والخاصة ، وكل قادر على القيام به ، أو المساهمة في القيام به ... فالمسار الأول واجب عينى ، والمسار الثانى واجب على الكفاية عند الجمهور .

وعلى هذا فإن الدعوة تعرف بتعريفين اصطلاحيين ، تبعاً للمراد بها .

فمن تعاريف الدعوة بمعني الإسلام نذكر منها :-

١) **الدعوة الإسلامية** : هي الخضوع لله ، والانقياد لتعاليمه بلا قيد ولا شرط، ومن المعلوم أن الانقياد لله دليل الخضوع له وهو غاية الإسلام ومقصده.

٢) **الدعوة الإسلامية** : هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ ، وحفظها في القرآن الكريم ، وبينها في السنة النبوية.

٣) **الدعوة الإسلامية** : هي النظام العام والقانون الشـــامل لأمور الحياة ، ومناهج السلوك التى جاء بها محمد ﷺ وحياً من ربه ، وأمره الله بتبليغها إلى الناس ، وبيان ما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة .

٤) **الدعوة الإسلامية:** هي الصراط المستقيم الذي أنزله الله تعالى لتحقيق السعادة للناس في الدنيا والآخرة .

٥) **الدعوة الإسلامية** : هي الدين الذي جاء به محمد ﷺ وختم به سائر الأديان .

وهذه التعاريف ليست متعارضة ، بل إنها تتعاون في إعطاء صورة الإسلام الذي هو الدعوة الإسلامية ... **ويمكن لكل مسلم فاهم أن يضع تعريفاً للدعوة الإسلامية اعتماداً على تصوره المستمد من المصادر الإسلامية ومن فهمه لدين الله تعالى .**

والإسلام بهذه التعاريف ، أو بغيرها يتكون من أصول ، وفروع كأى دين، **لأن الأصل** هو أساس الشئ ، ومبدؤه ، ولابد منه لتحقيق الدين ووجوده ، **أما**

الفرع فهو جزئيات تؤكد الأصل ، وتدل عليه ، وليس للفرع أهمية في الدين كالأصل ولكل منهما دوره ، وحكمه في شرع الله تعالى .

وتتفق أصول الدعوة الإسلامية مع أصول سائر الدعوات الإلهية السابقة لأنها من مصدر واحد، وترتبط بالحقيقة الثابتة الدائمة يقول الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [١].

ويقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [٢].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٣] .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٤] .

ففي هذه الآيات يوضح الله تعالى أن الدين الذي شرعه سبحانه وتعالى ، وأنزله وحياً على رسوله محمد ﷺ هو نفسه الدين الموحى به إلى الأنبياء السابقين ، والآيتان الأخيرتان تتضمنان أمراً وإخباراً بأن على المسلمين أن يؤمنوا بما آمن به السابقون .

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣

(٢) سورة النساء الآية ١٦٣

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٤) سورة آل عمران الآية ٨٤

يذكر الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره أن الآيات التى تدل على التباين بين الرسالات كما في قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[١] إشارة إلى الفروع الخاصة بكل دين، أما الآيات والأحاديث التى تدل على أن دين الله واحد فهي تتعلـــق بالأصول فقط [٢].

ومن الواضح أن الأصول الواحدة في سائر الأديان هي أركان العقيدة، وأن الفروع هي الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة وشرائع كل ملة منضبطة بمجموعة من الضوابط الدينية التى تحقق للشريعة حركة متلائمة من الأصول الدينية .

إن الإسلام يحتم تعانق العقيدة والشريعة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلاً يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة، أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة لا يكون مسلماً عند الله ، ولا سالكاً في حكم الإسلام طريق النجاة، ولابد للعقيدة والشريعة من أخلاق تبرزهما في صورتهما الحسنة الجميلة تحقيقاً للسعادة والأمان .

أما تعريف الدعوة بمعنى النشر والبلاغ فإننا نذكر :

إن عملية تبليغ الإسلام تحتاج إلى جملة من العناصر التى لابد منها .

فلابد لها من موضوع تتحرك به، وتحمله إلى غايته، على أن يتميز هذا الموضوع بالوضوح والفهم، ولابد لها من جهود قائمة على الإقناع ، وقادرة على إثارة داعية النظر والتفكير .

ولابد لها من طرف يقوم بها ويحملها للناس سواء كان فرداً، أو جماعة أو غير ذلك .

ولابد لها من التجديد ، لتستفيد من مخترعات العصر ، وتطورات المدنية في إطار المبادئ الإسلامية .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨

(٢) تفسير الرازى جـــ٣ صـــ٦٠٨ ط الحلبي

ولابد فيها من التنوع ، لتتلاءم الدعوة مع تنوع الناس الذين تتوجه إليهم .

ولابد لها من الارتباط بمبادئ الإسلام ، وتوجيهاته في مجال التبليغ والإرشاد وبمراعاة هذه الضرورات يمكن أن أضع تعريفاً للدعوة بمعنى النشر والبلاغ آملاً أن يكون جامعاً مانعاً فأقول بتوفيق الله تعالى :

الدَّعوة الإسلامية هي :

" **العلم الذي به تعرف أسس وتطبيقات كافة جوانب العمليات الفنية، المتنوعة** التي يقوم بها **القادر على تبليغ الإسلام على الوجه المشروع وتحقيق انتشاره بين الناس وفق خطة علمية مدروسة** " .

وبالنظر في هذا التعريف نلحظ فيه ما يلى :-

أولاً : الدعوة بمعنى النشر علم مستقل له موضوعه ، وخصائصه ، وهدفه ويمكن لهذا العلم أن يتحول إلى علوم عديدة إذا أصبح لكل جانب في عملية الدعوة دراسات خاصة ، وجهد معين وهذا أمر ضروري لتجديد عملية الدعوة، حتى تلائم العصر والتطور .

ثانياً : يتضمن هذا العلم الأسس ، والمبادئ النظرية للدعوة ، كما يحدد الطرق العملية للتبليغ ، والإرشاد .

ثالثاً : يتضمن هذا العلم كافة العمليات التى يستفاد بها في التبليغ سواء كانت قولاً ، أو فعلاً ، أو حالاً ، أو صورة ، أو غير ذلك .

رابعاً : يشير التعريف إلى أن هذه العمليات تعتمد على فنية التأثير ، وبلاغة الخطاب ، لإيصال الإسلام إلى كافة الناس كاملاً ، تاماً .

خامساً : يتضمن هذا التعريف ضرورة تنوع عمليات التبليغ لتناسب الناس جميعاً، وتلتقي مع كل منهم حيث تتجه إلى العقل، وإلى العاطفة ، وإلى الوجدان

سادساً : يحدد التعريف هدف علم الدعوة بأنه تبليغ الإسلام للناس، مع المحافظة على الأسس الشرعية، وتجنب كل ما يتعارض مع هذه المشروعية .

سابعاً : يشير التعريف إلى أن عملية تبليغ الإسلام تحتاج لخطة علمية تحدد مسار كل جزئية في عملية الدعوة ، وهذه الخطة ضرورة عصرية حيث

يتحرك العالم كله وفق نظريات وخطط ، ولا يصح أبداً أن تترك الحركة بالدعوة للعشوائية في وقت لا مجال فيه إلا للتخطيط والدقة والنظام .

ثامناً : يشير التعريف إلى القائم بالدعوة لأنه الركن الأساسي في عملية الدعوة وهو القادر بفضل الله تعالى على التبليغ والتأثير ولابد له من التنشئة والتربية والإعداد ليتمكن من القيام بمهمته نيابة عن أمته، ولتكون حركته في إطار خطة عامة تضعها وتشرف عليها هيئات كبرى مسئولة .

تاسعاً : يشير التعريف إلى ضرورة الاهتمام بمن توجه إليهم الدعوة رجاء إيمانهم واستقامتهم على منهج الله تعالى .

وعلى هذا فإن موضوع الدراسة يدور حول الدعوة الإسلامية بمعنييها المذكورين .

فمن ناحية كون المراد بالدعوة الإسلام – وهو المعنى الأول – توضح الدراسة الحقيقة الإسلامية بصورة مجملة وتبين مدى اتحاد أصول الإسلام مع أصول الأديان جميعاً .

وتبين سمو غايات الإسلام وروعة مقاصده وأهدافه وتشير أيضاً إلى أهم الخصائص التي يتميز بها الإسلام مما يجعله دين الإنسانية والخلق الكريم .

كما توضح مدى توافق الإسلام مع كل الظروف والمجالات التي ظهر فيها قديماً وحديثاً مما يجعله صالحاً على الزمن كله ، وللناس أجمعين .

كما تتضمن بيان أهمية تبيلغ الإسلام، ووجوبه الشرعي، وضرورة إيصاله إلى الناس أجمعين بوجه مقبول، وببرهان يحرك الذهن، ويدعو المستمع إلى الفهم والتفكير .

وبالنسبة للمعنى الثاني المتضمن معنى النشر والتبليغ فإن الدراسة تشمل التعريف بالوسائل على اختلافها .. مثل الخطبة، والندوة والمحاضرة والصحيفة والإذاعة ، والملصقات ، والكتاب ، والرسائل الهاتفية والبريدية .

كما يشمل الدراسات المتصلة بتكوين الداعية ، وحركته في التبليغ ، ومدى إحاطته بالدعوة ، وصلته بالله تعالى .

وتتضمن كذلك معرفة الصور الفنية للأسلوب المؤثر المفيد ، الذي يتلاءم مع المدعوين ، مع التعرف عليهم ومخاطبتهم بما يناسب أحوالهم ، وواقعهم .

ويشتمل على الدراسات التي تمكن الدعاة من معرفة من توجه إليهم الدعوة من ناحية مذاهبهم ، وثقافتهم ، واتجاهاتهم العامة والخاصة ، وعاداتهم ، وكافة المؤثرات في حياتهم ليتم التعامل معهم بذكاء، ودعوتهم بما يؤدى إلى النفع، والفلاح.

وبهذا يلاحظ أن تبليغ الدعوة يقوم على أركان عدة ، يتضمنها ما جاء في التعريف من أنه يشمل "**كافة جوانب العمليات**" وإذا ما استقل كل ركن بالدراسة وصار علماً مستقلاً (**وهو ما يجب أن يكون**) فإن التعريف ينطبق على كل ركن منها ، بعد قصر التعريف على عمليات هذا الركن ليكون دالاً عليه ، لأن قولنا في التعريف " كافة العمليات " شامل لكل أركان البلاغ والتوجيه .

وستوضح الدراسة ضوابط تبليغ الإسلام للناس وأهم الأساليب، وخصائص الخطاب الديني كما جاء بها القرآن الكريم مع إيراد صور لأنواع هذا الخطاب، وإبراز الجوانب الفنية الموجودة للوقوف على مدى تصويرها للمدعوين وتأثيرها فيهم، وذلك في الأبواب والفصول التي تتضمنها هذه الدراسة .

ثانيا
تعريف أصول الدعوة

الأصول جمع أصل ويراد به أساس الشيء ومبدؤه ، وهو العماد الذي يقوم عليه صاحبه، فأصل المبنى قواعده ، وأساس كل شيء أصله....ولا يتصور وجـود أمر ما بلا أصل له.

والشجرة أصلها جذورها لأنها هي التي تحفظها ، وتمدها بأسباب النماء ، وبها تثبت وتثمر. يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [1] والآيات واضحة الدلالة في أن الـشجرة تثبـت بأصلها ، وتعلو وتثمر بوجوده، فإذا فقدت أصلها تسقط وتتخلع ... والآية تـشبه كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة الثابتة بأصلها المنجذر في الأرض، لأن التوحيد يقين ثابت في القلب . أما الشرك فانه كالشجرة الخبيثة التي سرعان ما تسقط لأنها بلا جذور تنميها، أو أساس يحميها، فهي تتخلع حيث لا قرار لها .

جاء في لسان العرب أن اصل الشيء أسفله الذي يثبتـه، يقـال استأصـلت الشجرة، أي ثبت أصلها.....ويقال أصّل الشيء أي قتله علما حتى وصل لأساسه ... ورجل أصيل أي له اصل متين، وعقل ثابت، وفكر راجح......ورأى أصيل أي له أساس يعتمد عليه ، ويقوم به.

ومن هذا المعنى اللغوي نرى الصلة بين علمي الفقه والأصول ، حيث يعتمد الفقه على أصوله ، وتؤخذ الأحكام التكليفية العملية من الأدلة الأصولية ولا تستقيم الأحكام إلا بهذه الأصول ، ولا يعتد بها شرعا إلا إذا بنيت علـى أسـس الـدين ومبادئه، يقول الرهاوى: والأصل في اللغة ما يبتنى علية الشيء ، ويكون أساسـا لهذا الشيء، وللأصل عند الأصوليين معان كثيرة ... فقد قـالوا: الأصـل هـو القاعدة الكلية ، وهو الدليل ، وهو الحقيقة ، وهو العلة ، وحجتهم في هـذا أن

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٤-٢٦

القاعدة الكلية تنبني عليها القاعدة الجزئية ، والدليل أساس للحكم المدلول عليه، والحقيقة أساس للمجاز ، والعلة أساس للمعلول .

وأكد العلماء رأيهم هذا بأن الصلة بين الأساس وما قام علية تكون حسية كابتناء السقف على الجدار، وتكون معنوية كابتناء الحكم على الدليل ، وتكون جامعة للحسي والعقلي معا كابتناء الفكرة على النص ، واستنباط الحكم بالاستقراء التجريبي .

وجاء في المنجد أن الأصل هو أسفل الشيء وبدايته، والوالد أصل لولده ويراد بأصل الإنسان حسبه ونسبه .

ويرى علماء اللغة أن الأصل والأساس بمعنى واحد ولذلك يقولون: **الأساس هو الأصل** لكل شيء ، يقال : أساس البناء أي قاعدته ، وأصله الذي يقوم عليه كما قالوا: **الأصل هو الأساس** .

يقول ابن منظور: الأساس أصل كل شيء ، وأس الإنسان قلبه، لأنه اصل الصلاح والهدى ، وهو أول ما يتكون في الرحم .

وقد يكون للأصل أصل آخر يسبقه ، وحينئذ يكون الأصل الثاني فرع للأول ، وأصل لما بعده ، كالوحي فان أصله من الله ، والوحي أصل للدين كله، والتوحيد أصل للأركان بعده ، والأركان أصل للفروع .

ويلاحظ أن كلمة "**الأصل**"مفردة أو جمعا لابد لها من أن تأتى مضافة إلى ما يبتنى عليها ، لتكون جميلة مفيدة ، وتؤدى معنى مقصودا ، كما يقال أصول الفقه، وأصل البناء، وأصل الفكرة، وهكذا،ومنه قولنا"**أصول الدعوة**"والمراد به أساس الدعوة، وقاعدتها التي تبتنى عليها فروع الإسلام من شريعة، وخلق، ونظم، وحياة

ويمكن اعتبار الأسس التي يقوم عليها تبليغ الإسلام ، وإيصاله إلى الناس أصولا لذلك...لأن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ، والنطق بها ، والعمل بمقتضاها ، كمسائل التوحيد ، والصفات والقدرة ، والنبوة ، والمعاد....وإما أن تكون أدلة بيان هذه المسائل ، وإثباتها[١].

---

(١) أصول الدعوة صـ ٢٩ .

ـ ثالثا ـ

وسائل الدعوة

تعنى عملية الدعوة نقل الفكرة من موطنها إلى طرف آخر ليؤمن بها، ويطبقها، فالفكرة لا تتحرك وحدها وإنما تحتاج إلى طاقة عملية تحملها في صورة ما إلى الطرف الآخر المراد إقناعه بالفكرة المقصودة .

والفكرة في أثناء التحرك بها تحتاج إلى اطر مادية تحملها، وتنقلها إلى الغير.

هذا الحامل هو الوسيلة ، ولابد للوسيلة من أن تكون مادية ظاهرة يحركها صاحب الفكرة إلى الطرف الآخر .

ووسائل الدعوة هي الكيفية العملية التي تنتقل الدعوة خلالها من مصدرها إلى من يراد إيصالها إليهم بأساليب مختلفة، وهي القنوات والأدوات التي توصل الأساليب إلى الطرف المتلقى لتحقيق غاية مقصودة .

ويخلط كثير من العلماء بين الأسلوب والوسيلة لما بينهما من تشابك وارتباط في كثير من الصور[١].

وقد جرى الحديث طويلا بين العلماء بلا تفرقة بين الأسلوب والوسيلة وحتى الآن نجد من يسمي الخطبة مثلا أسلوبا ووسيلة على اعتبار أن الكلمات الدالة على الدعوة انتقلت إلى الطرف الآخر في شكل معين هو الخطبة ....ومثل ذلك يقال عن المقالة ، والدرس ، والكتاب....وغير ذلك من الصور، ولذلك سماها البعض وسيلة، وسماها آخرون أسلوباً بلا تفرقة بين معنى كل مسمى .

ومع التقدم العلمي والتطور الاصطلاحي يجب الفصل التام بين الأسلوب والوسيلة وبخاصة في هذه الصور الدعوية ليتميز كل منها بمفهوم خاص،

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور / عبد الكريم زيدان في كتابه (**أصول الدعوة**) والدكتور/ توفيق الواعي في كتابه (**الدعوة إلى الله تعالى الرسالة، الوسيلة، الهدف**) والدكتور / محمد خير يوسف في كتابه (**الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب**) وحين كانت الطبعة الأولى **من كتابي هذا لم أفرق بين الوسيلة والأسلوب** ولذلك تداركته في هذه الطبعة .

وموضوع خاص، وذلك بتحديد زاوية النظر والتحليل ، فالخطبة وغيرها قـد ينظر إليها من ناحية هيكلها العام، وصورتها الفنية، وأقسامها العلمية وحينئـذ فهي وسيلة للدعوة ... أما إذا نظرنا إلى كلمات الخطبة وأسلوبها وما إلى ذلك من ملاءمة اللفظ ، ودقة المعنى ، ووضوح الدلالة ، وحسن الخطـاب فهـي الأسلوب حينئذ .

وبهذا تتميز الوسيلة عن الأسلوب، ويستقل كل منها بالبحث والدراسـة ، وبذلك يتمكن العلماء والدعاة من تحقيق التجديد والتطوير في كل منها .

إن الأسلوب تحمله الوسيلة ، وقد يتحرك أسلوب واحد من خلال عدد من الوسائل، فالكلمة تظهر مكتوبة، ومنطوقة ومصورة، وأيضاً فإن الأسلوب قـد يوجد في عالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة تؤخـذ قبل الإعداد وبعده .

إن كلمات القران الكريم أسلوب للدعوة يتم حملها إلـى النـاس بوسـائل عديدة، وكذلك ألفاظ السنة النبوية وما أثر عن السلف الصالح ... وقـد تتعـدم الوسائل في بعض الأوقات وتتوقف بلا تأثير على الأسلوب لوجوده قبلها غير مرتبط بها .

ووسائل الدعوة من المتغيرات الشرعية، فهي قابلة للتجديد والتطور، بـل إن استفادتها من مستجدات العصر ضرورة دينية، وليس للإسلام تقييد على الأسلوب إلا بما يجعلها في إطار المشروعية الدينية لتحقيق الخير والفلاح .

ووسائل الدعوة عديدة وغير منحصرة، ويمكن وضعها في أشـكال رئيـسية عامة، وهي :

١) الوسائل العملية :

وهذا النوع من الوسائل لا يعتمد على الكلمات والأساليب والـصور، وإنمـا يظهر في العمل والحركة، ومن خلال الوسائل العملية يتم نقل الفكـرة بالقـدوة، والمثال .

وهذا النوع من الوسائل يحتاج إلى المعاشرة الطويلة مع القـدوة الطيبـة .. وأثره كبير وواسع، فالوالدان قدوة لأبنائهم، والمدرس قدوة لطلبته، والراعي قدوة للرعيّة.

ولذلك قيل : إن الناس على دين ملوكهم ... وقد أخبر الله تعالى بأن هلاك الناس يقع بوجود قدوة ضالة فيهم يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [1].

والتربية الحديثة تهتم كثيراً بهذه الوسيلة وهي تعمل على إيجاد القدوة في المربين، وتنادي الآباء ليكونوا قدوة لأبنائهم لأن الصغار يقلدونهم من حيث لا يشعرون .

إن التلميذ الصغير يأخذ من أستاذه الدين والخلق أثناء تلقيه المعرفة والعلم، ويأخذ من الكبار في بيئته العادات وصور السلوك .

وقد انتشر الإسلام في مواطن عديدة بواسطة التجار والعمـــال ، لأنهـــم عاشـــوا الإسلام عملياً، وكانوا قدوة لمن تعاملوا معهم والتقوا بهم .

إن الإنسان يندهش حين يرى سلوكاً عجيباً غير معهود، سواء كان حسناً أو سيئاً، ويبحث عن سببه فيجده في القدوة، وحين يعرفه يتمناه إن كان السلوك طيبـــاً ... وينفر منه إن كان العمل سوءاً، وبذلك تعمل القدوة في الناس بلا حديث أو مقال .

وكثيراً ما نرى تأثير السلوك في الآخرين فقد تصلح الجماعة أو تفسد بسبب واحد من بنيها أثَّر فيها، ونقلها إلى المحيط الذي يعيش فيه .

ولقد كان ﷺ صورة عملية لما كان يدعو إليه .

ويرى البعض أن القدوة أسلوب للتربية والدعوة ... وهذا صحيح .

فإن قيل : **كيف يكون العمل وسيلة وأسلوباً ؟**

نقول : **العمل والهيئة في صورته الحركية وسيلة، أما الدلالة المعنويـــة المستفادة من العمل فهي الأسلوب الذي ينقل المعنى للمدعوين .**

٢ـ وسائل المواجهة المشافهة :

يعتمد هذا اللون من الاتصال، على وسيلة المواجهة المباشرة بـــين الـــداعي والمدعو، حيث تنقل الرسالة، بواسطة هذه الوسيلة .

والاتصال المواجهي أقدم أنواع الوسائل، وأكثرها تأثيراً فلقد وجد مع آدم

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٦ .

عليه السلام وزوجته، ووجد بينهما وبين إبليس اللعـين، وتعمـل المعاشـرة الطويلة، وكثرة اللقاء والاتصال على إيجاد الثقة بين الأطراف .. الأمر الـذي يساعد على التأثير والاستجابة .

والاتصال المواجهي يشمل الاتصال الذي يتم بين فرد وفرد، أو بين فرد وجماعة، أو بين جماعة وجماعة، ما دام كل منها يتم بصورة شفوية مباشـرة بلا واسطة بين الطرفين .

ومن صور الاتصال المواجهي ما يلي :-

أ) المحادثة البسيطة : وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو مجيباً، كأفراد الأسـرة، والجيـران، وزملاء الدراسة والعمل ... وهكذا ... وتتم المحادثة البسيطة بصورة تلقائيـة وبلا أدنى إعداد لها، ولا يحيط بها قيد مكاني أو زماني .

ب) المناظرة : وهي اشتراك عدد من العلماء لمناقشة موضوع ما بحيـث يتخذ بعضهم اتجاهاً معارضاً للآخرين، ويحاول كل منهم إثبات رأيه ورد رأى الآخر .

ج) المناقشة :وهي فن من فنون التربية والدعوة، وتتم مشافهة بين عـدد من الأشخاص، حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش .

والمناقشة تحتاج لإعداد مسبق مـن ناحيـة تحديـد الموضـوع، واختيـار الأشخاص، وتعيين المكان، وكيفية النقاش وهكذا ، وتختلف المناقشة عن المناظرة لأن المتناقشين يسيرون في اتجاه واحد، بينما المتناظرون يسيرون فـي خطـوط متعارضة، كما أن المناقشة تتم بأعداد بسيطة، وبإعداد قليل، بينما المناظرة تقـوم على الإعداد الواسع، والإعلان المسبق ويحضرها عدد كبير من المستمعين .

د) الخطبة : الخطبة بكافة أنواعها، لها دورها في الحضارات القديمة، وما زال لها هذا الدور، وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح، لأنها تخاطب العواطـف والوجدان، وتدور حول موضوعها، وتقدم العديد من البراهين، في صور بيانية مؤثرة .

والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب، ولذلك وجب على من يقوم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية، وقواعدها العلمية لكي يحقق الهدف الذي يرجوه من وراء عمله .

هـ) الندوة : وتقوم على الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من المتحدثين تدور حول موضوع واحد .

وتحتاج الندوة إلى جمهور مثقف متمكن من المتابعة.

وتتنوع الندوة **إلى ندوة مفتوحة** وفيها يفتح للجمهور باب التعليق ليساهموا بآرائهم مع المتحدثين الأساسيين في الندوة ... وإلى **ندوة مغلقة** يكون الحديث فيها لعلماء الندوة فقط، ولا يسمح للجمهور بالمشاركة .

والندوة المفتوحة أكثر تأثيراً وأعظم فائدة لأنها تشد المستمع إليها، وتدفعه إلى دقة المتابعة، وتشجعه على المشاركة إثراء للموضوع وبحثاً عن الحقيقة .

و) المحاضرة : وهي لون من الاتصال المواجهي يعتمد على التحليل العلمي، والبراهين القوية، وهي وسط بين الخطبة والندوة لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد، والمستمع جمهور عريض، وتأخذ من الندوة المفتوحة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

ز) الدرس الديني : وهو لون من الاتصال الديني يتم في المساجد غالباً، وهو اتصال يتسع الموضوع فيه، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة، وله أثره الكبير في نشر الدين، والتعريف بقضاياه .

٣ـ الوسائل المكتوبة والمطبوعة :

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ولكن بصورة بدائية، فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب على الجلد، وورق الشجر، وورق البردى، وما شاكل ذلك، وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار، وأوصلها إلى غيره، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده .

وهذه الوسيلة هي التي عرَّفت الناس حديثاً بالحضارات القديمة، وسجلت ما وقع لها من حروب وأحداث، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفى عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة، الأمر الذي ساعد على إعطاء صور عديدة، وأشكال متعددة لنقل الفكرة والدعوة إليها إذ يمكن إبراز الرسالة في شكل كتاب، أو في نشرة، أو في صحيفة، أو في خريطة، وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي :-

أ) تقوم على الرأي المدروس، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل، ويحاول أن يصوغها في قالب بياني مشوق، دال على معناه، بيسر وسهولة.

ب) تسمح للقارئ بتكرار قراءتها، والتحكم في ظروف التعرض لها مكاناً وزماناً، وبذلك يتمكن من فهمها، واستيعاب المراد منها، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها لأن الرسالة الشفهية سرعان ما تنسى، وقد يعود المستمع ويتساءل عن أمور سمعها فلا يجد من يرد عليه، أما الرسالة المكتوبة فالرجوع إليها أمر ممكن في كل وقت كما أن العودة لمصدرها أمر سهل ميسر .

ج) تتمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير المتخصصة، والصغيرة الحجم لقلة تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخرى .

د) تساعد الرسالة المطبوعة على الإقناع، لأنها لا تخترق السمع، ولا تفاجئ العين، وإنما يقدم القارئ عليها مختاراً راضياً مما يجعله جزءاً من موضوعها فيتخيل، ويفسر، ويرضى أو يرفض، وتلك هي مراحل الاقتناع .

هـ) تؤدي الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق الهادئ، لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات، ويمكنه أن يجزئ قراءتها، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث والتحري والتأمل .

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع النشر، وضخامة التوزيع مما جعلها بحق وسيلة للاتصال الجماهيري العريض.

٤- الوسائل المسموعة :-

ويقصد بها الوسائل التي توصل الكلمة إلى الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة، وهي المذياع، تلك الوسيلة العجيبة التي تحمل الكلمة المذاعة بمختلف أشكالها وفنونها إلى أي مكان في العالم في ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلي :-

أ) يتميز المذياع بقدرته على اختراق أي مكان في الكرة الأرضية في زمن وجيز بلا عائق أو حاجز .

ب) يتميز المذياع بقدرته على مخاطبة كافة الفئات مهما اختلفت ثقافتهم وأعمارهم وأجناسهم .

ج) لا يحتاج المذياع إلى التفرغ التام من المتلقي لأن من الممكن الاستماع إلى المذياع خلال الاشتغال بعمل آخر .

يقول ايريك بارنو : (إن المذياع هو الوسيلة الوحيدة التي لا تستحوذ على العين، أي أنه يمكن أن يخدم جمهوراً نشطاً أثناء تناوله الطعام، وقيامه بالعمل المنزلي، وأثناء نهوضه من النوم، واستحمامه وأثناء أداء متطلباته وهكذا [١] .

د) تتميز الرسالة المرسلة بالمذياع باشتمالها على المؤثرات الصوتية، والحوار البناء، وهذا يجذب المستمع ويربطه بالرسالة الإعلامية .

هـ) يتميز المذياع بنقل رسائله فور وقوعها، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية في وقت الأزمات، وحين وقوع حروب وصراعات .

و) التكرار في الرسالة الإعلامية بواسطة المذياع تكون مقبولة غير مملة، لأنها تتخذ صوراً متعددة، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .

وقد أدى التطور الحضاري إلى قيام المذياع بالترفيه بجانب قيامه بالخير والتثقيف .

---

(١) الأسس العملية لنظريات الإعلام صـ ٣٦٤ .

٥ ـ الوسائل المسموعة المرئية :ـ

تجمع هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثرة في المستمع وهي الصوت، والحركة، والصورة، وبذلك تتمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور.

إنها أعظم وسيلة إعلامية معاصرة، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى شريطة أن تبتعد عن الصور المحرمة، وتلتزم بما شرعه الله تعالى من حلال مباح

٦ـ الوسائل الإلكترونية الحديثة :ـ

توصل العقل الحديث على إيجاد وسائل اتصالية ترتبط بالفضاء، وتنقل مرادها بالصورة والصوت مع التشويق والإثارة .

ومن هذه الوسائل المستحدثة الهاتف المحمول بما يمكنه من إرسال واستقبال المكالمات والرسائل والصور في سرعة عالية، ودقة عجيبة .

ومنها ما يعرف بالبريد الإليكتروني الذي يمكنه حمل الرسائل والمؤلفات إلى من يريده في العالم كله في ثوان قليلة بلا حاجز ولا مانع .

ومن خلال هذه الوسيلة يمكن نقل الكتب والمؤلفات والصحف والمجلات التي يمكن الإطلاع عليها بالصورة والقراءة والاستماع إليها بالنطق والعبارة .

وبهذه الوسيلة يحدث التعارف بين الناس، والإطلاع على ما يرغب الإنسان فيه ويمكن بها مخاطبة الناس على مختلف أماكنهم وزمانهم ولغاتهم .

ويمكن للعلماء والمسئولين عن الدعوة والمهتمين بها الاستفادة بهذه الوسيلة وغيرها لتحقيق نجاح لدعوتهم، والوصول بها إلى حيث يجب أن تبلغ .

والأمل معلق بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل، ووضعها في الأطر الشرعية، لتكون طريقاً لإيصال الإسلام كما نزل من عند الله إلى كل مكان في العالم أداء الأمانة، وتحقيقاً للذات، وتأسيساً لحضارتهم التي يعمل الإسلام لتحقيقها والمحافظة عليها.

وليس من المقبول في عالم اليوم أن يعيش المسلمون – وهم المسلمون – تابعين لغيرهم مقلدين وهم يملكون الأصالة والحياة ، ويستمر معهم التخلف ودينهم دين التقدم والعلا، ويرضون بالضعف مع أن الضعف جريمة يحاسب الله عليها، ويعاقب من يركن إليه ويرضى به ولا يسعى للحق بقوة وشجاعة.

- رابعاً -
الداعيــة

الداعية هو المحور المحرك للدعوة، وبواسطة مزاياه الإنسانية يتمكن من نقل الدعوة من خلال الوسيلة إلى المدعوين .

وقد وضع علماء الإعلام والاتصال نظريتهم عن الاتــصال بالجمــاهير ورأوا أن أركان نظرية الاتصال خمسة هي :

" الرسالة، والمرسل، والوسيلة، والأسلوب، والمستقبل " ... وكأنهم بــذلك عاشوا مع نظرية الدعوة ففيها الموضوع وهو أصول الدعوة، وفيها الداعيــة وهو المرسل، وفيها الوسيلة، وفيها المستقبل وهو المدعو .

ومن هنا صح لنا أن نستفيد بالدراسات الحديثة عن المرسل الداعية وعــن ما وضع له لينجح في توصيل رسالته وفكرته .

والداعية هو حامل الرسالة الدينية، ويجب عليه أن يقيمها وأن يعدها إعداداً جيداً ... وأن يضعها في قوالب فنية، وأساليب جذابة ليقبل المستمع إليه، ويقتنع بما يقول .

والداعية في إطار النظرية الإسلامية ركن رئيسي في حركة الدعوة كلها، فهو الذي يتلقى الموضوع، ويفهمه، ويدرك كافة جوانبه، ويصوغه في صــور معينة، ويرسله في وسائله ويخاطب به الناس .

لهذا كان من الضروري أن يتمتع بمواصفات عقلية، ودينية، وخلقية تمكنه من القيام بدوره ... وتحتاج هذه المواصفات إلى إعداد مسبق، ومتابعة دائمة، وعون مستمر .

- خامسا -
أساليب الدعوة

يطلق الأسلوب في اللغة ويراد به عدة معان، فهو المذهب والطريق، وهو المنهج والوسيلة وغير ذلك .

جاء في لسان العرب أن الطريق الممتد الموصل لأمر ما أسلوب إليه ... والأسلوب بضم الهمزة هو الوجه، و المذهب، والأسلوب فن القول وجمعه أساليب[١] وسُلُب .

وحين نريد معنى الأسلوب في الاصطلاح الدعوي نري أنه لابد من تمييزه عن أي مصطلح مشترك معه في المعنى لِيستقل كل منهما بموضوعه ومعناه .. ولذلك وجب أن نبعد معنى الأسلوب في المصطلح الدعوي عن معني المنهج والوسيلة .

إن الأسلوب هو الكلمة ينطق بها متكلم عبر وسيلة تحملها، في إطار منهج كلي، وفلسفة شاملة لعملية الدعوة كلها .

وقد عرف العلماء الأسلوب بأنه الألفاظ المختارة المركبة في صيغ مؤلفة للتعبير عن المعاني المراد إيصالها إلى الغير قصد الإيضاح والتأثير، والأداة الناقلة للأسلوب هي الوسيلة .

يقول الجاحظ : إن المعاني القائمة في صدور العباد المتصلة بخواطرهم، الحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، مكنونة معدومة عن الغير، لا تعرف إلا ببيان يظهرها، وأسلوب يوضحها، وكلما كانت دلالة الألفاظ أوضح، وإشارة الكلمات أفصح كان المعنى أنجح وأنفع .

والألفاظ بدلالتها هي البيان الذي هو اسم جامع لكل ما يكشف لنا قناع المعاني، ويبرز حجب الضمير، حتى يفهم السامع الحقيقة، ويدرك ما خفي وغاب[٢].

وقد عرّف العلماء علم البيان بأنه إظهار المعنى الواحد بأساليب مختلفة

---

(١) لسان العرب مادة " أساليب " .

(٢) البيان والتبين جـ١ صـ ٧٥ باب البيان طـ الهيئة العامة .

للتوضيح والتعريف ... وعلوم البلاغة هي علوم الأساليب العربية كلها .

والأسلوب المعبر عن المعنى يتركب من كلمات، أو من إشارات، أو من أحوال، والكلمات تكون مكتوبة أو منطوقة، والإشارات تكون مع لفظ أو بدونه، والأحوال تكون بسيطة أو مركبة .

فالألفاظ تحسن المعنى، وتزينه في القلوب، وتثير داعية النظر والتدبر، وهي ترجمان العلم، وبها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، والصوت عنوان اللفظ، وطريقه إلى آذان المستمعين وعقولهم .

وقد تكون الكلمة مكتوبة ولذلك قالوا : **القلم أحد اللسانين .**

والكلمة المكتوبة أوسع انتشاراً، وأبقى زمناً، وتتعامل مع من يقرؤها في كل حالاته، وأوقاته، والقارئ حر في تناولها يقرؤها مرة واحدة أو على فترات أو يكرر قراءتها .

والإشارة تكون بإحدى الجوارح أو بما يستعمله الإنسان من آلات كالقلم والسيف .

وأحياناً تلتقي الإشارة مع اللفظة في الإفادة والبيان وحينئذ يكون وقعهما أبلغ، ودلالتهما أوضح .

والإشارة تفيد في بعض المواقف التي لا يصح فيها التصريح، ويضر فيها التوضيح ... ومن هنا قال الشاعر :

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

والأحوال دلالات ناطقة بلا لفظ، وبرهان بيّن بلا حديث، مشيرة بلا يد، وذلك ظاهر في كل مخلوقات الله تعالى ففي كل منها آية دالة على وجود الله تعالى .

يقول الفضل بن عيسى : سل الأرض فقل : **من شق أنهارك؟ ومن غرس أشجارك؟ ومن جنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً** [١].

ولقد كانت حياة النبي ﷺ العملية أسلوب واضح في تعليم أمته بالأسوة وإرشادهم بالعمل والأحاديث الناقلة لأفعاله ﷺ المصورة لأحواله ﷺ عديدة ومنها :

---

(١) الحيوان جـ١ صـ٣٥ .

– عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يقوم من الليـــل حتـــى تتفطر قدماه، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقـــدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال ﷺ : " **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟** " (١).

– وعن أنس رضى الله عنه قال: " **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ يُفْطِرُ مِنْ الشَّهْرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يَصُومَ مِنْهُ وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يُفْطِرَ مِنْـــهُ شَيْئًا وَكَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنْ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ** "(٢).

– وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه (٣).

– ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول : **وَاللَّـــهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً** (٤).

– وعن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: **إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّـــي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ** " (٥).

– **عَائِشَةَ قَالَتْ مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ يُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا دَعَا أَوْ قَالَ فِيهَا سُبْحَانَكَ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي اغفر لي** (٦) .

– وهذه فاطمة ابنة رســـول الله ﷺ ورضى الله عنهـــا، التي يقـــول عنها رسول الله ﷺ : " **فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** " (٧) ويقول كذلك ﷺ : " **فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي ما أرابها ويؤذيني ما آذاها** " (٨).

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ١٦٩/٦ ومسلم كتاب صفات المنافقين ٢١٧٢/٤ .

(٢) صحيح البخاري أبواب التهجد جـ٢ صـ٦٥ .

(٣) صحيح البخاري جـ١ صـ١٦٣ ، مسلم كتاب الحيض جـ١ صـ٢٨٢ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الدعوات جـ٨ صـ٨٣ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء جـ٤ صـ٢٠٧٥

(٦) صحيح مسلم كتاب الصلاة جـ١ صـ٣٥١ .

(٧) صحيح البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي جـ٥ صـ٣٦

(٨) صحيح البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي جـ٥ صـ٣٦ .

لما جاءته تسأله خادماً من سبي أصابه وكلها إلى الله عز وجل، ودلها على أن تذكر الله سبحانه وتعالى عند النوم بالتسبيح والتحميد والتكبير يغنيها عن ذلك [(١)].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما في وصف جود رسول الله ﷺ " قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ " [(٢)].

- وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا [(٣)] .

- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ [(٤)].

- وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا [(٥)].

وهكذا كانت دلالة أفعال النبي ﷺ ناطقة بالمطلوب فعله لأن دلالة الحال أبلغ في كثير من الأحيان عن دلالة المقال .

وعلوم البلاغة هي المورد الفياض، والمعين الوافر الذي يجلي مزايا الأسلوب، ويحدد الأسس لحسنه وجماله، وبيانه .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الخمس جـ٤ صـ١٠٢ ، كتاب فضائل أصحاب النبي جـ٥ صـ٢٤ .

(٢) صحيح البخاري كتاب كيف كان بدء الوحي جـ١ صـ٥ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الفضائل جـ٤ صـ١٨٠٥ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب جـ٨ صـ٢٩ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الأدب جـ٨ صـ٣٦-٣٧.

وقد نزل القرآن الكريم، بلسان العرب ذروة عالية في بلاغة العرب، ولذلك كان هو المرجع الدائم للدعاة وهم يتخيرون أساليب دعوتهم، **(وقد أخذ الحديث عن أساليب الدعوة في القرآن الكريم حيزاً كبيراً في هذه الدراسة كما سيأتي)**

إن الإنسان صاحب الفطرة السليمة يتأثر بالمعنى الدقيق إذا وضـــع فـــي أسلوب جميل، وبيان لطيف ... ولذلك كان العربي يتأثر حين يستمع لكلام الله يقـــول الله تعـــالى﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] ويقول سبحانه ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [2].

ولعل ما حكاه لنا التاريخ عن كفار مكة أنهم كانوا يتخفتون لسماع القرآن الكريم لحلاوة أسلوبه، ودقة معانية، وملامسته للعقل والعواطف معـــاً دليـــل واضح على ما للأسلوب من تأثير، يروي ابن إســـحاق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيتـــه، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكـــان صـــاحبه، فبـــاتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريـــق، فتلاومـــوا، وقـــال بعضهم لبعض، لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثـــم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل مـــا قالوا أول مرة، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣٨ .

نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يــراد بهــا، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنــده حتى أتى أبا جهل، فدخــل عليه بيته، فقــال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الــشرف، أطعمــوا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنــا كفرسى رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هــذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

فقام عنه الأخنس وتركه [1].

وهكذا يكون التأثير بجمال العبارة وحسن التركيب، ودقة المعنى، وظهور البيان، الأمر الذي نسوقه للدعاة ليجعلوه أسلوبهم في الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) السيرة النبوية جـ١ صـ٣١٥ .

ـ سادساً ـ
المدعوون

المدعوون هم مقصد العملية الدعوية كلها، وهم الغاية التي يراد إحـداث تأثير فيهما .

وحتى يتحقق التأثير المطلوب في المدعوين يحتاج الدعاة إلى معرفة مسبقة بالمدعوين تمكنهم من الالتقاء بهم، وإحداث نوع من التجاذب والتجاوب معهم .

إن الإنسان عموماً ينظر لغيره بمرآته، ويفسر ما يرى بطبيعته ومشاعره، ويقبل على من يحرص عليه، ويسمع من يخاطب عواطفه وقلبه .

هذه الحقائق الفطرية المتصلة بالإنسان تحتم معرفته قبل المجـيء إليـه، وإعداد الموضوع الذي سيعرض عليه، وصياغة الأسلوب المناسب لخطابـه، وباللغة التي يفهمها ... وبواسطة هذا الإعداد يمكن الوصول الجاد للمدعوين .

إن معرفة خصائص الجمهور النفسية والفكرية ليس أمراً سـهلاً، ولكنـه يحتاج إلى دراسات نظرية وميدانية توضح جوانب معينة في المدعوين تتصل بأنواعهم وأجناسهم وأمزجتهم وثقافتهم، وأديانهم .... إلخ .

فقلد اختار الله لكل أمة رسولاً من بينها بعد أن عايشهم وخبرهم، وأحـاط بمذاهبهم وأخلاقهم، وذلك من صناعة الله وتقديره، نلحظ ذلـك فـي قـصص القرآن الكريم حيث أن نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم جميعـاً صلوات الله وسلامه قد أرسلوا إلى أقوامهم بعد أن عاشوا بينهم مدة مـا قبـل الرسالة، ولذلك كان رسل الله عليهم السلام يدعون قومهم إلى التوحيد، وبعدها ينتقلون مباشرة إلى توجيههم نحو الصواب ووجوب التخلص من الرذائل التي كانت متفشية فيهم .

إن الرسل كانوا يتحركون بوحي من الله تعالى، ومع ذلك فقـد جعـل الله حركتهم أسوة للمؤمنين يتخذونها منهجاً للدعوة ودستوراً للعمل الخيّر الأمين .

ـ سابعاً ـ
المنهجية المعاصرة

المنهج في اللغة هو الطريق الواضح، يقول العباس لم يمت رسول الله ﷺ حتى ترككم على طريقة ناهجة[1] ويقول الله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] أي طريقاً واضحاً .

ودلالة اللغة على الطريق تعني وضوح الخطة، واشتمال الطريق على كل ما تحتاجه الحركة خلاله، فهو طريق شامل لخطة متكاملة، ولذلك كانت الخطة الكاملة ضرورة في أي نظام تام ... وتعرف هذه الخطة بالمنهج ... يقال منهج التعليم، ومنهج الحكم، ومنهج القضاء ... وهكذا .

ولذلك عرّف العلماء المنهج **بأنه الخطة الشاملة الموضوعة لتحديد أطر أي نظام** فمنهج الحكم إطار يحدد مسئوليات الراعي والرعية، وطرق التعامل، وكيفية الاختيار والمساءلة ... وهكذا فكل شئون الحكم تخضع للإطار الموضوع، والمنهج المحدد لها ... فكأن المنهج هو الدستور وهو المبدأ والأساس .

ومنهج الدعوة يعني الأطر الموضوعة المحددة لمسار حركة الدعوة بكل جزئياتها .

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة، وبها تتحدد مهام كل جانب، وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدة جوانب هي :-

أ) مضمون فكري هو الإسلام بما حوى من عقيدة، وشريعة، وأخلاق .

ب) أسلوب يحتوي على الفكرة، ويتحرك بها، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس، وقد يكون الأسلوب قولاً، أو عملاً، أو حالة معبرة، أو غير ذلك .

ج) أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه، ومحتواه .

د) شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة لتصل بها إلى

---

(١) لسان العرب مادة " نهج "

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨

المدعوين، رجاء إيمانهم، وهدايتهم .

هـ) أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة، واضحة، مقنعة، بأسلوب مناسب، وأدوات ملائمة، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم .

إن هذه الجوانب هي علوم للدعوة إلى الله، ويجب أن يهتم العلماء بها، بوضع القواعد، وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية، والنظام العام الذي يحدد الإطار لكل هذه الجوانب، ولسائر هذه العلوم لتترابط وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذي يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة، وينسق بينها لتتكامل وتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح .

وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت .

تقول اللغة : إن المنهج يعني الخطة المرسومة، والنظام الموضوع، والمحدد للسير عليه، واتباعه لتحقيق هدف معين، والوصول إلى غاية محددة[١].

وعلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه ويرون أن المنهج هو الطريق الواضح، البين[٢].

ويقول الدكتور / أحمد بدر، وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [٣].

ويقول الدكتور / رشاد على : والمنهج في المفهوم العلمي العام هو الإطار الكلي المنظم لكل أنواع التفكير الانعكاسي وأساليب الاستقصاء والفحص .

---

(١) مناهج الدعوة إلى الله د/ جلال البشار صـ٢٩، وهذا المعني استنباط من كتب اللغة وهي تبين معني نهج ومنهج، المدخل إلى علم الدعوة – د/ محمد البيانوني صـ٤٥ .

(٢) انظر معنى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ في تفسير الطبري والرازي، وفى كتب السنة عند شرح قوله ﷺ (ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) فتح الباري جـ١ صـ١٠، والفتح الرباني جـ٢٣ صـ١٠ .

(٣) أصول البحث ومناهجه صـ ١٥ .

والتفكير الانعكاسي هو عملية شاملة تحكم موضوعها من أول الإحساس به وتحديد وصيانة ووضع فروضه وتفسير هذه الفروض للوصول إلى النتائج المطلوبة.

ويقصد بأساليب الاستقصاء والبحث الوقوف على كل افتراضة متـصورة في الموضوع وتحليلها[١].

وبهذا المفهوم العام للمنهج يتضح أن المراد منه الخطة الـشاملة للتعامـل العلمي مع أي مسألة وأي قضية .

إن المنهج خطة كاملة، ونظرية تامة، تحدد الـدعوة ومـسارها، وطـرق الإقناع بها وأسلوب الخطاب لها، وتحقيق أهدافها في كافة جوانب الحياة .

وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح، أو كعلم خاص، يـشتمل علـى نظريـة شاملة للدعوة بكل جوانبها، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب، أو على الوسيلة، أو على الموضوع، أو غير ذلك، إلا على وجه المجاز من بـاب تسمية الجزء باسم الكل، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعـالى مـن كافـة جوانبه لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة، وغايتها ثابتة مفصلة في أغلبها.

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل، والأساليب، وصفات القـائم بالـدعوة، وأحوال المدعوين، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس، والـشروط مـع تـرك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة فقط، لأن الحركة تعني الـصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس، والمنهج أعم من ذلك .

وعلى أساس التسليم بهذا الفهم نجد أنفسنا **أمام عدد من علوم تبليغ الإسـلام** ، ولكل منها تعريف يوضحها ، ويحدد المراد منها ، وكلها تندرج فى **أن أصـول كل منها تعنى دراسة الأسس ، والمبادئ التـى تـؤدى إلـى قيـام الـدعاة والوسائل ، والأساليب بدورهم فى نشر الإسلام ، وإيصاله للناس على وجهه**

---

(١) علم نفس الدعوة صـ٢١ بتصرف يسير .

المشروع بعد الوقوف على أحوال الناس من كافة الوجوه ليتعامل الدعاة مــع واقع المدعوين ، ويستفيدوا به .

وهكذا تتعدد أصول عملية التبليغ تبعاً لتعدد علومه ، وأركانه.

إن الدعوة فى العصر الحديث تحتاج إلى هذه الدراسات المتعددة ، لتــصل إلى إنسان العصر معبرة عن دين الله تعالى بمنهج قويم ، وخطة متكاملة ، ولو أجاد المسئولون عن الدعوة ، والمشرفون على حركتها العمل فى توضيح هذه الأسس وإيجادها فى عالم الواقع التطبيقى لتحقق خير كثير للناس ، ولوصلت الدعوة بوضوحها ، وصفائها ، وحجيتها للعالم كله .

وحينئذ نقول مطمئنين : لقد وصل الخطاب الصحيح الصادق إلى مستقره بنجاح وأمان ، وبلغ الإسلام إلى كل إنسان فى هذا الوجود .

إن العالم المعاصر يموج بالفكر ، وتتعارض فيه المصالح ، والكل يــدافع عن نفسه ، ويثبت حقه بحجج المنطق ، وطرق الحوار .... وكثيراً مـــا تعقــد المؤتمرات والندوات، وجلسات الخبراء، والعلماء، للدراسة، والبحث، وسندهم هو الكلمة والحجة.

ولذلك اهتم العالم كله بعلوم الاتــصال، وتطــوير مؤســساته، وتطبيــق النظريات العلمية فى عملية التوجه للغير، ومخاطبته فى القضايا التــى يــراد الوصول بها إلى غاية معينة .

ولم يعد فى العالم ما هو مستور عن الناس ، فكل ما يحدث ينتشر ، وما يقرر يذاع، حتى صار العالم مثل قرية صغيرة، يعلم ساكنوها كل ما فيها، والدعوة الإسلامية يجب أن تستفيد من هذا الفكر المعاصر، وتمشى إلى العالم كله بأسلوبها لتصل بقضيتها إليه .

ولن يتم للدعوة ذلك إلا إذا استعدت ، وتأصلت .

والدعامة الأساسية للتأهيل هو العلم بكل الجوانب التى لا بد منها للدعوة ، وعلومها .

وحينما نصف المنهجية بالمعاصرة، فإن ذلك يعني أن تحتــوى الدعــوة

وسيلة وأسلوباً على مفاهيم العصر، وتتعامل مع مستجدات الحضارة بما يتفــق وتوجيه الخطاب الديني في صورة لائقة، ووجه مقبول .

إن أفكار اليوم تتحرك في صورة براقة، وألوان متنوعة وتظهر محاطـــة بهالة من الفخامة، والنظام، وتتجه إلى كل طاقات الإنسان وعناصـــره فتثيـــر العاطفة، وتشبع الجوارح، وتخاطب العقل، كل ذلك في إطار خطة مدروســـة وهدف مقصود .

انظر إلى المحطات الفضائية وقد تعددت ألوانها، وتنوعــت غاياتهـــا ... وتأمل فيما أنفق وينفق عليها من أموال ... وتدبر عدد الأفراد الذي يشتركون في إنجاز برنامج واحد من مخرجين ومصورين ومقدمين ومحدثين ، وعش مع المؤثرات الصوتية، والتصويرية، والبيئية ... انظر إلى كل ذلك لتعرف مـــدي ما يبذل من جهد ومال للوصول للناس لنشر فكرة، وتحقيق غاية .

وانظر إلى كثرة المطبوعات من صحف وكتب ومنـــشورات، وإعلانـــات لتقف على الفكر المعاصر وما يحيط به من اهتمام واتفاق ودراسة .

وتأمل الرسائل اللاسلكية وسرعة انتشارها في المناسبات والأحداث لترى دور هذه الرسائل لتحقيق الاتصال، ونشر ما يراد من أفكار .

وشاهد ما يتحرك في البريد الإلكتروني بضخامته، وسهولته وسرعته لتتأكـــد من روعة المخترعات الحديثة، وأهمية الاستفادة منها في الدعوة إلى الله تعالى .

إن عالم اليوم يتحرك بتخطيط مركز، وعلم مدروس ويـــضحي بـــالكثير لتحقيق أهدافه وغاياته .

ومع هذا نرى تصارع الأفكار، وتنافس الآراء والمـــذاهب، كـــل يبغـــي السيطرة والتفرد، ويعمل على العلو والبقاء .

والدعوة إلى دين الله تعالى رسالة إلهية نزلت لإسعاد البشرية كلها، وبلغها رسول الله ﷺ إلى الناس وتركها في المسلمين أمانه يؤدونهـــا إلـــى غيـــرهم لتستمر بين الناس إلى يوم القيامة .... هذه الرسالة يجب أن تستفيد بكل جديـــد مفيد ... ولا يصح أبداً أن تترك وسائلها للتخلف، وتمشي إلى الناس بأسلوب

باهت هزيل .

لقد صار وضع خطة كاملة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى ضرورة شرعية، وإنسانية، وحضارية .

وتتجلى الضرورة الشرعية في توجيه الله الناس وقد حملوا أمانة الـدعوة إلى أهمية مخاطبة الناس بلسانهم، وعلى قدر عقولهم، وبما يقنعهم ويرضـيهم، وذلك لا يتأتى إلا بوضع تخطيط دقيق لتحقيق أمانـة الـدعوة علـى الوجـه المطلوب .

أما الضرورة الإنسانية فإن الدعوة إلى الله تعالى تعمل على سعادة النـاس ونشر السلام بينهم، ووضعهم في قيم الإنسان العليا المرتبطة بقيم العقيدة، ونبل الشريعة، ورفعة الأخلاق ... وتلك غايات إنـسانية لا تتحقـق علـى الوجـه المطلوب إلا بنظام تام يتحرك في إطار نظرية كاملة .

والحضارة والمدنية بجانبيهما المادي والمعنوي يحتاجان إلى روح الإسلام يملؤهما، ويدعمهما ليقوم التقدم على الخير، ويـتم الرقـي بـالخلق الكـريم والإنسانية العالية .

وهكذا ..

تتضح المصطلحات العلمية لعلوم الدعوة ويوضع كل مصطلح في موضعه خلال البحث والدراسة .

وهنا لابد من إشارة سريعة إلى أن معاصرة المنهج الدعوي يبين ضرورة التخطيط الجاد لوضع هذا المنهج بصورة كاملة .

إن التخطيط الجاد للدعوة يربط الحاضر بالماضي، حيث يأخذ من الماضي عبره ودروسه، ويجعل الحاضر امتداداً لعصر السلف الإسلامي الـصالح ... ويعمل على تنشئة الداعية القادر عل القيام بمهمته، واستخدام الأسلوب الأمثـل لمخاطبة مستمعه، وييسر للدعاة كافة الوسائل، وكل ما يحتاجون إليه في أمـن وسلام .

ولابد للتخطيط المنهجي أن يعتمد على الدراسـات النفسية والاجتمـاعية

والإعلامية والسياسية ليكون شاملاً لكل أركان الدعوة .

إن صعوبة الدعوة تحتاج إلى مواجهة علمية جادة تقوم على الدراسة والبحث، بكل ما يعنيه البحث من جوانب .

ولنا في ضرورة الإعداد ووضع المنهج أدلة شرعية .

يقول الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[1] والإعداد يعني التهيئة، وبذل الجهد المناسب لأي عمل يقدم عليه الإنسان .

ويقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾[2] وأخذ الحذر هو دراسة الواقع، والإحاطة بالأحداث، لاتخاذ الموقف المناسب، الموصل للفوز والنجاة .

وهذا موسى عليه السلام حين كلفة ربه بدعوة فرعون وملإه، نظر إلى حاله، ووجد حاجته إلى عون، واستعداد، وتهيئة، فطلبها من الله تعالى قائلاً ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[3] فتجده عليه السلام يطلب من ربه أن يمده بزاد يمكنه من النجاح، ويساعده على الدعوة والإبلاغ.

لقد أمد الله موسى عليه السلام بالمعجزات، وكلمه مشافهة، ونزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي، وتلك عوامل ثقة في النصر، رغم ذلك يطلب الإعداد المنظم، والعون الإلهي لدعوة فرعون وملإه، إنه يطلب شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة القول، وشد الأزر ليقبل على الدعوة في ثبات وثقة .

وقد أيد الله تعالى موسى عليه السلام في طلبه فقال ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[4]

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٧١ .

(٣) سورة طه الآيات من ٢٥ إلى ٣٢ .

(٤) سورة طه الآية ٣٦ .

ليكون درساً باقياً على الزمن كله، يدل على ضرورة التخطيط والإعداد للدعوة.

إن كل عمليات الدعوة في عصر الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة، والتابعين قائمة على التخطيط الجيد، والإعداد السليم، ولذلك كان الفوز والنصر في جميع الحالات .

ومن أجل تحديد المنهج الذي تحتاجه الدعوة يجب القيام بدراسات حول الإنسان، والبيئة، والمذاهب، والسياسة، والثقافة، واتجاهات الرأي العام ... إلخ.

إن البيئة في المجتمع الأوربي مثلاً تختلف عن بيئة الرجل الشرقي، بل قد تتعدد البيئات في المجتمع الواحد، فهناك البدو، والحضر ... وهناك الأغنياء والفقراء، وهناك من مهنتهم الزراعة ومن هم تجار وصناع، وهكذا .

والبيئة الطبيعية تؤثر في أهلها بوضوح، يقول ابن خلدون بعد كلام طويل عن أثر الهواء في أخلاق البشر، ودور الخصب والجوع في اختلاف أبدان الناس، وأجسامهم يقول " هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل ويمكن للإنسان أن يغير بيئته الطبيعية، وتطور العمران والناس شاهد واضح على هذا .

إلا أن التغيير يحتاج إلى قيم وخلق يقوم عليها ليتجه بالمجتمع إلى الرقي والتسامح .

وهناك بيئات صناعية يوجدها النشاط الإنساني، وتخضع هويتها لمن يقوم بها، كالبيئة الدينية، والبيئة الإلحادية، والبيئة الصناعية ... وهكذا .

ومن البيئات البسيطة، المنزل، والمدرسة، والشارع والرفاق، ولكل ذلك أثر في التنشئة والتكوين .

إن هذا التنوع البيئي يؤكد ضرورة تحديد المنهج على ضوء واقع الناس .

إن فهم حقائق المجتمعات يحتاج إلى علماء قد تخصصوا في دراسة النفس الإنسانية، والاجتماع البشري، والتاريخ العام ... وعلى هؤلاء العلماء أن يقدموا تعريفاً متكاملاً لكل بيئة نريد دعوة أهلها إلى الإسلام لأن التعريف الدقيق بأي مجتمع بشري يجعل أهل التخصص قادرين على تحديد القضايا التي يحتاجها هذا المجتمع، وأيها يقدم أولاً، ويمكنهم كذلك تحديد الوسيلة المؤثرة في

هؤلاء الناس، فقد يتأثرون بحسن المعاملة، أو بالقول البين، أو بالترغيب، أو بالترهيب، ويقومون أيضاً بإعداد الداعية بمواصفات تناسب المجتمع الذي يدعوه لأنه لا يصح مثلاً أن نرسل للمجتمع الهندي رجلاً يتكلم العربية فقط، ولا يعلم عن هذا المجتمع شيئاً .

إن دعاة من هذا الطراز القاصر كان يرسل إلى أواسط أفريقيا وهو يجهل البيئة التي أرسل إليها، ولذلك لم يفعل للإسلام أي شيء .

ولو تركنا البيئة الهندية، وجئنا إلى بيئة عربية، بل ولو جئنا إلى بيئة ريفية بدوية نجد أن أغلب الدعاة موجودون في وسط هذه المجتمعات ولا أثر لهم بسبب جهلهم بالمجتمعات، وكيفية التعامل معها .

وكم رأيت دعاة في الريف المصري لا هم له إلا تضييع الوقت، ولا فائدة في أكثرهم لأنهم يعملون بلا خطة، ويتصرفون بلا منهج وبلا دليل .

إن وضع المنهج لا يقوم به فرد واحد، ولا تستطيعه جماعة صغيرة، إنه يحتاج إلى جهد الأمة، وعلمائها ... ليؤسسوا هيئة ضخمة كبيرة تقوم بمهمة وضع المنهج العام للدعوة والدعاة .

إنهم يحتاجون إلى ميزانيات ضخمة، وإلى تدعيم كبير، وهذه مسئولية الأمة كلها وإنها لأمنية أتخيل حدوثها، وما ذلك على الله بعزيز، وبخاصة أن المسئولين في الأمة مسلمون، يعرفون الواجب عليهم .

وأتصور أن تكون هذه الهيئة عالمية، يساهم العالم الإسلامي كله في تأسيسها، وتمويلها، وتنظيم أعمالها، وتحديد أهدافها، لأن دعاة الإسلام اليوم ينطلقون من هيئات عديدة، تتنافس في أهدافها، وسياستها، وأنشطتها، وكثيراً ما تختلف وتتعارض، الأمر الذي يؤدي إلى الضعف، والعجز، والقصور .

لقد قام الأزهر الشريف يوم أن كان هو الهيئة الوحيدة المشرفة على الدعوة الإسلامية في العالم كله بمجهودات رائعة، وخالدة، في الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما تغير الحال وصار الإشراف على

الدعوة لعديد من الهيئات والمؤسسات المختلفة منهجاً، وهدفاً، ضعف العمل وقل التأثير .

ومن هنا ننادي بضرورة وجود هيئة عالمية تشرف على حركة الدعوة الإسلامية في العالم كله، إشرافاً يبدأ من التهيئة إلى ظهور النتائج .

الباب الأول

الإســـــلام

والدعوات الإلهية السابقة

تمهيد :

يموج العالم بالمذاهب والأديان، وتتنوع فيه الملل والنحل ، وقد أدى التقدم الحضاري، والغنى المادي إلى اشتداد التنافس والصراع بين الأفكار والمعتقدات، وأخذ الأقوياء يعلون بقوتهم، ويوجهون ما يملكون لقهر الضعفاء، وإزاحة ما يخالفهم من مذهب أو دين، ناسين أو متناسين ما يرفعونه من شعارات المحبة والسلام، وضمان حقوق الإنسان .

وشاءت إرادة الله أن يكون المسلمون هم الأضعف في عالم اليوم ، الأمر الذي أدى إلى توجيه السهام إلى الإسلام للقضاء عليه، وإدخال أتباعه في متاهات اللهو والضلال ، وهذا سر الحملات الشديدة التي توجه للإسلام وللمسلمين من كل فريق .

إلا أن الإسلام دين الله تعالى يملك قوته في ذاته، وتحفظه عناية الله تعالى، وقدرة الله غالبة رغم أنف أعداء الله الضالين، حتى أننا نرى كثيراً من علماء الغرب ومفكريه يؤمنون به، ويتحولون إلى دعاة له بعد معرفتهم بحقيقته مع إطلاعهم على أحوال المسلمين

إن الإسلام دين العالم كله، ويجب أن يصل إلى الناس أجمعين ، ومن الضروري أن يعمل المسلمون لنشره مهما كان وضعهم ، وعليهم أن يتيقنوا من قوة دينهم ، وأحقية ما فيه ، وصموده شامخاً أمام الأباطيل التي تسود حياة الناس وإن تزينت وتزخرفت .

إن معرفة حقيقة الإسلام، والوقوف على أصول الأديان السابقة يظهر اتحاد جميع الأديان في أصول ثابتة الأمر الذي يؤكد صدق الإسلام، ويشهد بأنه موحى به من عند الله تعالى.

إن الوحدة الدينية عامل رئيس في انتشار الإيمان بالإسلام، لأن من يؤمن بالإسلام يرى نفسه تلقائياً يؤمن بما دعا إليه الرسل جميعاً، لأن الإسلام يوضح أن المسلم مؤمن بالرسل جميعاً وبما دعوا إليه يقول الله تعالى ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ**

بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١].

وفي هذا الباب سيكون الحديث عن الإسلام لشرح حقيقته، وتوضيح ترابطه مع الأديان الإلهية السابقة، وعدم تعارضه في أصوله مع أصولها وذلك لبيان الآثار التي يجب أن تترتب على هذا الترابط .

إن الإسلام نزل من عند الله متوافقاً مع الحياة البشرية ، وكل حيثية عاشها توافقت معه، حتى إن البشرية المعاصرة في تقدمها وتطورها تجد أملهـا فـي الإسلام الذي تلتقي أهدافه مع رغبات النفوس وآمال وأحلام العقلاء ، ويحافظ على حقوق الجميع رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، صغاراً وكبيراً ولهذا **سوف يتضمن هذا الباب الفصول التالية :**

الفصل الأول : **الإسلام دين الله تعالى .**

الفصل الثاني : وحدة الأصول بين الإسلام والديانات الإلهية السابقة.

الفصل الثالث : **الفوائد المترتبة على ذكر الدعوات الإلهية .**

الفصل الرابع : **الإسلام دين يتوافق مع الناس .**

والله الموفق ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

الفصل الأول

الإســــلام

دعـّوة اللّه تعالى

تمهيد :

يشمل دين الله الأعمال الباطنة والظاهرة ، ومرادنا بالأعمال الباطنة تصديق القلب وبالأعمال الظاهرة أفعال الجوارح ، وبعبارة أخرى فإن الأعمال الباطنة هي العقيدة والأعمال الظاهرة هي الشريعة، والأثر الذي يثمرانه هو الأخلاق .

ومن هنا يمكننا أن نحدد عناصر الدين الإسلامي بالعقيدة والشريعة والأخلاق، **يبين ذلك ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ ؟**

قَالَ ﷺ : الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ .

فقَالَ جبريل : مَا الْإِسْلَامُ ؟

قَالَ ﷺ :الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ .

فقَالَ جبريل : مَا الْإِحْسَانُ ؟

قَالَ ﷺ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

فقَالَ جبريل : مَتَى السَّاعَةُ ؟

قَالَ ﷺ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (١) .

ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ ﷺ : رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ ﷺ : هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ (٢) .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤

(٢) صحيح البخاري جـ١ صـ١٩،٢٠ كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عليه السلام .

وبالنظر في هذا الحديث نرى أنه يتضمن الدين كله ، لأن كل ما سأل عنه جبريل كان هو الدين ، فليس الدين جزءاً مما جاء في الحديث ، وإنما الدين هو مجموع ما ورد فيه وقد صرح بذلك رسول الله ﷺ في قوله **(جاء يعلم الناس دينهم)** ولم يقل إن شيئاً منها هو الدين .

وقد أنزل كثير من المحدثين هذا الحديث بالنسبة للسنة النبوية منزلة سورة الفاتحة بالنسبة للقرآن لاشتماله على مضمون الدين كله .

يقول القرطبي : هذا الحديث يصلح أن يقال أم السنة لتضمنه كل ما جاء فيها.

ويقول القاضي عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً ، ومن أعمال الجوارح ، ومن إخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه [1] .

ونلاحظ أن جميع ما ورد في هذا الحديث راجع إلى العقيدة أو إلى الشريعة أو إليهما معاً ذلك أن الإيمان بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وبالبعث راجع إلى العقيدة.

وعبادة الله وحده، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان راجع إلى الشريعة.

والإحسان يكون في العقيدة والشريعة معاً ، وبالإحسان توجد الأخلاق المثالية عند المسلم ، فهي أثر لازم وضروري للعقيدة والشريعة فكأن العقيدة أصل للشريعة، والشريعة أصل للأخلاق، والأخلاق كمال لهما معاً .

وعلى ذلك فإن الحديث عن أركان الإسلام ينحصر في العقيدة والشريعة والأخلاق **وهذا ما سوف نتبعه في المباحث التالية حيث يتضمن كل مبحث واحدا منها .**

ومعنى (**إذا ولدت الأمة ربها**) أن يعق الولد أمه فيتحكم فيها كأنه سيدها ، ورواية (إذا ولدت الأمة بعلها) واضحة في ذلك وهناك معان أخرى ، إلا أن ما أوردناه أرجحها .

ومعنى (**إذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان**) أي يسيطر أهل الفاقة على المدن ، وينشرون الإسلام فيها ويقيمون البنايات الشاهقة ، وهو إشارة إلى اتساع دين الإسلام ، لأن حملة الإسلام هم الفقراء في البداية .

وقد ظهر جبريل في صورة دحية الكلبي ﷺ ، وجلس أمام النبي ﷺ وسأله الأسئلة المذكورة .

والإسلام هو الاستسلام والانقياد الظاهر ، ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطني ، واسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطني لأن الاستسلام لا يتم إلا به.

(عمدة القاري جـ١ صـ٢٩١،٢٧٩).

(١) عمدة القاري جـ١ صـ٢٩١

المبحث الأول

العقيدة

العقيدة : هي عقد القلب على علم بمعلوم عقداً قوياً مؤكداً معتمـداً علـى اليقين التام والتمكين الحق و أركانها في دين الله ستة هي :

-١-

الإيمان بالله تعالى

أساس العقيدة هو الإيمان بوجود الله تعالى ، بل إن ذلك هو الدين كلـه ، لأن الإيمان الحق يدفع الإنسان إلى التصديق بكل ما أخبر به الله تعالى ، وتنفيذ كل ما أرشد إليه سبحانه من أمر ونهي .

ووجود الله تعالى حقيقة قررها الحكماء في القديم والحديث بأدلة الإمكـان والحدوث ، وأكثر القرآن الكريم بطريقته من البراهين الدالة علـى وجـود الله تعالى، بل إن الفطرة الإنسانية تستشعر ذلك وتتيقنه .

جاء في دائرة المعارف " أن اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسـره فـي الخالق سبحانه وتعالى هو اعتقاد ضروري نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يحـدد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التـي نـشأت صـامتة ، وصار لها أكبر الآثار في حياته ، فقد حدثت هذه العقيـدة فـي أنفـسنا ككـل المدركات الرئيسية على غير علم منا .

إن الناظر في تاريخ الرسالات يعلم أن الأمم قد آمنت بوجـود الله فطـرة منها ، وما كان ضلالهم جميعاً إلا في اتخاذ معبـودات مجـسمة كالأحجـار والبيوت والكواكب متصورين أنها الطريق الموصل لله الكبير .

وإيمان الإنسان بوجود الله ناشئ من رؤيته للحياة من حوله ، وقـد أورد الإمام الرازي في تفسيره صوراً من هذه الرؤى وقدمها أدلة ناطقة على وجود الله تعالى وها هي بعضها :

صورة أولى :

هجم بعض الكفار على أبى حنيفة يريدون قتله ، فقال لهم : أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا معي ما شئتم .

فقالوا له : هات .

فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة بالأثقال، احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟

قالوا : هذا شيء لا يقبله العقل .

فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر، مستوية من غير متعهد، ولا مجر ... فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وسعة أطرافها ، وتباين أكفافها من غير صانع وحافظ ؟!

فبكوا جميعاً ، وتابوا وقالوا له : صدقت .

صورة ثانية :

– سأل بعض الملاحدة الإمام الشافعي ﷺ عن الدليل على وجود الله تعالى ؟

فقال لهم : ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها واحد عندكم ؟!!

فقالوا : نعم .

فقال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم ، ويأكلها النحل فيخرج منها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر، وتأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟! إنه الله رب العالمين ، فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا [١] .

والقرآن الكريم يقدم عديداً من الآيات الكونية، ويبرز واقعها شاهداً على وجود الله تعالى ودافعاً للإنسان كي يراها ويؤمن بها، وإليك بعض هذه الآيات :–

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١ صـ٣١٤ بتصرف .

- يقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

- ويقول سبحانه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

- ويقول سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

- ويقول سبحانه ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (٤) .

إن في كل جزئية أشارت إليها الآيات دليل واضح على وجود الله تعالى وإثبات قدرته وسائر صفاته سبحانه وتعالى .

وهناك آيات كثيرة تشير إلى الأدلة الكونية العديدة الدالة على وجود الله وقدرته منها :-

- خلق قشرة الأرض على نحو يصون الإنسان، ويحفظ الحياة، فلو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثاني أكسيد الكربون، والأكسجين، ولما أمكن وجود الحياة، ولو كانت أرق من ذلك لانبعثت منها الحمم والنيران .

- مقدار الهواء وحركته حول الأرض فلو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي تشعل كل شيء قابل للاحتراق في الأرض .

- ارتفاع الشمس عن الأرض بمقدار معين ، وإرسال كمية مقــدرة مــن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤

(٢) سورة الذاريات الآية ٢١

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٠

(٤) سورة الطارق الآية ٥-٧

الإشعاع سبب لبقاء الحياة، فلو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رماداً منذ زمن بعيد .

- دور المطر في تحقيق الحياة بقدرة الله في كل شيء فلو انعدم المطر أو قل لما كانت حياة، ولكانت الأرض صحراء .

- ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة .

- ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة .

- ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ، ولا ماء، ولا شجر ، ولا حيوان ، ولا نبات، ولا هواء، ولا طعام .

- ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كان مثل هذه القشرة صالحة للحياة [١]

إن المتأمل في كل موجود يدرك صناعة القدر الإلهي العجيب، الذي لا يقدر عليه إلا الله، مما يدفع إلى ضرورة الإيمان بالله، والتسليم بكل ما جاء من عنده سبحانه وتعالى .

إن الإيمان بالله فطرة مركوزة في الطبع يقر به العقل المجرد، ويؤكده النظر السليم، ويؤكده فكر كل مفكر لبيب ، ويعجز عن مقاومته ورده كل مفتر كذوب .

---

(١) يورد علماء الكلام الأدلة العديدة على وجود الله تعالى ويمكن إجمالها فيما يلي :

أ- **دليل الحدوث وهو دليل** قائم على فكرة أن العالم حادث، وكل حادث له محدث، والمحدث للعالم هو الله تعالى .

ب- **دليل الإمكان وهو دليل** يقوم على فكرة أن العالم ممكن، وكل ممكن يعتمد في إيجاده على واجب ، وواجب الوجود هو الله تعالى .

ج- **دليل الدقة وهو دليل** يعتمد على حقيقة أن كل ما في الكون دقيق في صنعه ، وهذا يدل على أن له صانعاً ويستحيل أن توجده الصدفة ، وهذا الصانع هو الله سبحانه وتعالى .

د- **دليل الغاية** ويقوم هذا الدليل على أن كل المخلوقات وجدت لهدف وغاية ، وذلك لا يكون إلا من خالق عالم قادر مريد هو الله تعالى .

هـ- **دليل العناية** يقوم هذا الدليل على أن العناية التامة أحاطت بالإنسان حيث خلقت أجزاء جسمه المختلفة ، كل لوظيفة ، وسخرت له كل ما في الكون، وهذه عناية من الله تعالى تدفع إلى الإيمان به .

والدليلان الأولان هما أدلة المتكلمين والفلاسفة ، والأدلة الثلاثة مستنبطة من النظر في آيات الكون وآيات القرآن الكريم وقد أشار إليها ابن رشد في كتابه " منهاج الأدلة "

لازم الإيمان بوجود الله :

الإيمان بوجود الله يستلزم التوحيد المطلق للألوهية والربوبية معاً ذلك أن المشركين فصلوا توحيد الألوهية عن توحيد الربوبية فتراهم يسلمون بتوحيد الربوبية ويقرون بوجود الله خالقاً مالكاً رازقاً ، كما يقول الله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[1] .

وكما يقول سبحانه ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [2] .

ومع هذا الإقرار نجد المشركين يتخذون الأصنام ويعبدونها من دون الله فيعددون بذلك في الألوهية ثم يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[3] وهذا هو الشرك الذي يجب أن تبرأ منه عقيدة المسلم ، وهو نفس الشرك الذي هدمته رسالات السماء كلها حين دعت إلى قصر العبادة لله تعالى، يقول سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [4] .

وتوحيد الربوبية الذي آمنوا به يستلزم توحيد الألوهية بالضرورة، لأن الإقرار بقدرة الله ومالكيته وعلمه ونعمه على خلقه يستوجب أن يعبد وحده شكراً على نعمه، واستزادة من عطاياه ، وطلباً لتزكية النفس ، لأن العبادة تكون لذلك ، وذلك لا يقدر عليه غير الله ، أما الاتجاه بها إلى من لا يملك ولا يقدر فهو عبث يأباه العقل السليم وتنكره الأعمال الهادفة، ولذلك يخاطب القرآن الكريم الناس بهذه الحقيقة فيقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[5] .

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٥

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٨ ، ٨٩

(٣) سورة الزمر الآية ٣

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٥) سورة الحج الآية ٧٣

والإيمان بوجود الله يستلزم – كذلك – أن يكون الله وحده حاكماً فأمره الأمر ونهيه النهي لأن ترك أمر الله إلى أمر سواه ، أو فعل ما نهي عنه بأمر سواه نوع من العبادة لسواه ، وبذلك يكون الشرك .

يروي الترمذى بسنده عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1].

قَالَ ﷺ : أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ [2].

وقد وصل الإسلام في تنزيه التوحيد من كل شائبة إلى حد جعله يأمر الناس بعدم اتخاذ المقابر مساجد ، وبترك الحلف بغير الله ، والنهي عن الذبح بغير اسم الله والأمر بعدم إطراء الإنسان، أو تعظيمه، أو التوجه إليه، ليكون التعظيم كله لله، والاتجاه كله له ، فهو سبحانه المستحق لكل ذلك .

والتوحيد الحق يستلزم – أيضاً – كمالاً مطلقاً للواحد الأحد سبحانه وتعالى وعلى المعتقد أن يؤمن بذلك وينزه الذات العلية عن كل نقص، ويثبت لها كل كمال ، ولا يسمى الله إلا بالأسماء الحسنى الواردة في النصوص الثابتة من قرآن وسنة .

وعلى المعتقد كذلك أن يثبت لله كافة الصفات اللائقة بذاته سبحانه وتعالى [3].

وعلى المسلم أن يرمز إلى هذا الإيمان اليقيني بـــ " شهادة أن لا إله إلا الله" والشهادة تعني العلم والإعلام والإخبار بالاعتقاد الثابت في القلب ، وهذه الشهادة مستلزمة لكل ما ذكرنا من لوازم توحيد الله تعالى .

---

(١) سورة التوبة الآية ٣١

(٢) سنن الترمذي

(٣) صفات الله أنواع : نفسيه وسلبية ومعاني ، ومعنوية ، وللمتكلمين مناقشات حولها لا مجال للخوض فيها هـ .

- ٢ -
الإيمان بالرسل

النقطة الثانية في العقيدة : هي الإيمان بالرسل وهي ركن من أركان العقيدة، والرسل هم الذين اصطفاهم الله، وأنزل عليهم وحيه، وأرسلهم إلى الناس لرسم طريق السعادة ، وهداية البشر على وفق شريعة الله ، وهؤلاء الرسل بدئوا بآدم عليه السلام وختموا بسيدنا محمد ﷺ فهم عديدون ، منهم من قصه الله في القرآن الكريم ، ومنهم من لم يقصصه ، والواجب أن يؤمن المسلم إجمالاً بأن رسل الله عديدون، ويؤمن تفصيلاً بمن ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، ويؤمن بأن رسل الله متمتعون بكل كمال يليق بهم .

وسيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل ، وقد ثبتت رسالته بالمعجزات التي تحدى بها ، وهي عديدة كانشقاق القمر، وحنين الجذع ، والإخبار بالمغيبات إلا أن المعجزة الخالدة الكبرى هي القرآن الكريم الذي عجز العرب عن الإتيان بأقصر سورة منه، بعد أن تحداهم النبي ﷺ بأن يأتوا بمثله، ثم بأن يأتوا بمثل عشر سور منه ثم بأن يأتوا بسورة من مثله ، لكنهم عجزوا عن كل ذلك فدل عجزهم على صدق محمد ﷺ في رسالته .

وثبوت نبوة سيدنا محمد ﷺ إثبات لمن سبقه من الرسل ، كما أن الإيمان بهم دافع لثبوت نبوته فهم بشروا به ، وهو الذي روى قصصهم الصادقة في القرآن الكريم الذي نزل عليه، ولولا ذلك لاستمر قصص كثير من الأنبياء في غياهب التاريخ

والإيمان بنبوة محمد ﷺ يستلزم طاعته فيما أمر به أو نهي عنه لقول الله تعالى ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[1] .

وأيضاً فإن رسالته لم تجيء لمجرد الرواية والتاريخ ، وإنما جاءت لإصلاح العالم ، ومحاربة الفساد ووضع أسس الحضارة القائمة على العدل والحق والحرية والمساواة ولم تأت رسالته ﷺ لأمة بعينها أو لزمان بعينه ،

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

وإنما أتت شاملة لسائر الناس ، ومستمرة على الزمن كله ، ومن هنا كان القرآن الكريم دستور الرسالة وأساس التشريع ، والمدد المحفوظ بإرادة الله يوجه المؤمن إلى ضرورة طاعة رسول الله فيقول تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[١] .

والإيمان بالنبي ﷺ يستلزم – كذلك – أن تتعلق القلوب به حباً وإعجاباً فهو ﷺ ﴿ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[٢] وهو ﷺ ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]

وهذا الحب يقتضي احترام سنته وطاعتها ، وعدم معارضتها بآراء فاسدة، لأنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٤] .

ويقتضي كثرة الصلاة والسلام عليه ، والخشوع عند ذكره، ويقتضي الوفاء الدائم له، وعدم إيذائه بالمعصية .

ويعتبر لفظ " وأشهد أن محمداً رسول الله " رمزاً على الإيمان برسالة الرسول ولوازمها المذكورة ، ويأتي هذا اللفظ دائماً مع الشهادة بالتوحيد حتى أن كثيراً من العلماء يعبر عن الشهادتين بشهادة التوحيد فقط .

-٣-

الإيمان بالكتب المقدسة

الكتب المقدسة هي الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله مشتملة على كافة أوامره ونواهيه ، وهي الكتب التي نزل الوحي بها إلى الناس منذ آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ... والإيمان بهذه الكتب ركن من أركان العقيدة الإسلامية

والإيمان بالكتب المنزلة تفصيلي وإجمالي أما الإيمـــان التفصيلي فهو متعلق بالكتب التي تكلم القرآن الكريم عنها وحدد أسماءها وهي التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى والألواح .

---

(١) سورة الحشر الآية ٧

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨

(٤) سورة النجم الآية ٣ ، ٤

وأما الإيمان الإجمالي فهو التسليم بنزول كتب عديدة على رسل الله وأنبيائه لا يعرف عددها إلا الله تعالى يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1] .

وليس من مقتضى الإيمان بالكتب المقدسة الإيمان بما حرف منها ، بل يجب على المؤمن أن يعمل فكره في معرفة المحرف من الصحيح على أساس عقلي سليم ، وإنزال الكتب أحد لوازم إرسال الرسل لأن في الكتاب الصادق دين الله المنزل وشرعه إلى رسول الله الموحى إليه به .

-٤-

الإيمان بالملائكة

النقطة الرابعة في العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالملائكة، والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة، وهم عباد لله مكرمون، مطيعون معصومون، وأنواعهم كثيرة: منهم حملة العرش، ومنهم رسل الوحي، ومنهم الكتبة والحفظة، والموكلون بقبض الأرواح ورئيسهم ملك الموت، والموكلون بالأرزاق ورئيسهم ميكائيل، والموكلون بالجنة ورئيسهم رضوان، والموكلون بالنار ورئيسهم مالك .

وطريق الإيمان بالملائكة هو السمع وحده ولا دخل للعقل في الوصول إلى ذلك

وعلى المسلم أن يصدق بأنواع الملائكة إن ذكروا بأنواعهم ، وبأشخاص الملائكة إن ذكروا بأشخاصهم ، وأن يصدق بسائر الأوصاف الخاصة بهم والتي وردت الأدلة الشرعية بها .

-٥-

الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخر هو يوم القيامة ، وموعد بدايته أحد الغيبيات التي استأثر الله بعلمها فهو وحده عنده علم الساعة ، وأخره عندما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٦

النار النار، وعلى ذلك فيوم القيامة يشتمل على ما يأتي :-

١) **البعث** : وهو إحياء الله الموتي في قبورهم ليلقي كل منهم ما يستحق من عذاب أو نعيم .

٢) **الحشر** : وهو سوق الناس إلى مكان الحساب .

٣) **الحساب** :وهو توقيف الناس على أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم وفي الحساب يكون الميزان ، والصحف ، والشهود ، ومن توابعه تكون الشفاعة .

٤) **الصراط** : وهو جسر ممدود على ظهر جهنم يمر به الأولون والآخرون كل بحسب عمله ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالجواد ، ومنهم من يزحف وهكذا .

٥) **الحوض** : لكل نبي حوض يرده أتباعه المؤمنون الطائعون وحوض النبي ﷺ أكبر الأحواض وأعظمها .

وليوم القيامة علامات تسبقه وهي نوعان صغرى وكبرى وفي كل ذلك تفصيلات محلها كتب التوحيد .

- ٦ -

الإيمان بالقضاء والقدر

من أركان العقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، ومعناه أن يتيقن العبد أن كل ما يقع هو فعل الله تعالى بعدما قدره وقضى به، وعلى المؤمن أن يرضى بما فعل الله تعالى خيراً كان أو شراً، حلواً كان أو مراً .

وهذا الإيمان يستلزم الصبر على المكاره، والشكر على المفارح، وإن يقر المؤمن دائماً بحكمة الله في أفعاله كلها .

كما يستلزم الأمن والهدوء لتكون الحياة كلها خيراً .

وقبل أن ننتهي من هذه العجالة عن العقيدة الإسلامية نذكر أن منكر واحد منها منكر للباقي، وهو في حكم الإسلام كافر ، لأنه أنكر أمراً دينياً ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه .

ويجب أن يكون واضحاً كذلك أن للعقل مدخلاً في الوصول إلى الإيمان بالله وفيما عدا ذلك فالأمر وقف على السمع وحده ولا مدخل للعقل فيه ، وهذا ما جعل الشيخ محمد عبده يقول : للإسلام في الحقيقة دعوتان دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ على أن الاعتقاد بالله يتقدم على الاعتقاد بالنبوات وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

المبحث الثاني
الشريعة

الشريعة هي الطريقة الموضوعة، للسير عليها، والمراد بها التكاليف الظاهرة التي تؤدى بالجوارح القائمة على دليل شرعي .

والتكاليف أنواع متعددة وأعظمها العبادات التى رسم الله حدودها وبين دقائقها كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وتلك فروض عينية واجبة الأداء على كل فرد يأثم بتركها ويثاب على فعلها .

وهناك فروض الكفاية كالجهاد والعلم وأعمال الصناعة والزراعة وغيرها وهي واجبة على المجموع إن أداها البعض سقطت عن الباقين ، وإن تركها الجميع أثموا جميعاً .

والشريعة في الإسلام نظمت سائر علاقات البشر بالله، وجعلتها أسساً لكافة العلاقات البشرية .

إن الإنسان وهو وحده، أو في أسرة، أو في جماعة، أو في وطن، وهو حاكم أو محكوم، وهو طفل أو كبير، وهو ذكر أو أنثى هذا الإنسان تحيطه نظم الشريعة راسمة له المنهج السوى ، وطريق النجاة الحقيقى في الدنيا وفي الآخرة .

والشريعة لا تنفك عن العقيدة لأن كليهما وجهان لعملة واحدة كما يقولون ، فمن دان بالشريعة وأنكر العقيدة فهو كافر ، ومن آمن بالعقيدة وأهمل الشريعة فهو غير سالك طريق الناجين عند الله .

إن العقيدة ثابتة بالأدلة القطعية ، وكذلك ما حدد من عبادات الشريعة وما ثبت بدليل قطعي لا تغيير فيه ، أما ما عدا العقيدة والعبادات فإن الشريعة قد وضعت له الأصول الثابتة والكليات العامة وتركت فروع التطبيق للناس، لأن هذه الفروع تختلف باختلاف الزمان والمكان .

والفقهاء المجتهدون، هم أولى الخلق بإيجاد أحكام شرعية للحوادث الجديدة لضبط هذا الجديد بشرع الله، وتحديد مساره على المنهج الإلهي القويم .

والإحسان في العقيدة والشريعة يكون ببذل الجهد والإخلاص فيهما وبتوافق الظاهر والباطن ، وأن يجمع الدين والعقل والجوارح بلا تناقض أو اضطراب .

المبحث الثالث
الأخــــلاق

الأخلاق هيئة في النفس راسخة تصدر منها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فهي ليست افتعالاً مؤقتاً أوردة فعل طارئة، ورسوخها في النفس أمر ضروري، وظهور العمل الخلقي من الإنسان إذاً أمر تلقائي عادي لا يتخلف ولا ينشأ بفكر حسابي أو لغاية مقصودة .

ومعنى ذلك أن الأخلاق انفعال الظاهر بحركة الباطن وإرادته ، وهذا ما يجعلنا نربط الأخلاق بالشريعة والعقيدة معاً .

وتظهر أهمية الأخلاق في الإسلام بقول النبي ﷺ : **بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ** [1].

ذلك لأن الأخلاق هي الجانب التطبيقي للمسلم في سائر علاقاته ، والسمو بهذه العلاقات هو الهدف الأساسي للدين ومن هنا كان للإيمان بالله أثر واضح في الأخلاق، لأن الإسلام كله دعوة خلقية شاملة للناس أجمعين .

ولو نظرنا في أغلب الأوامر الأخلاقية لوجدناها موجهة للمؤمنين لأنهم أهل الطاعة وهم الحريصون على إيمانهم وصيانته ومن أمثالها قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2] .

إن العبادات المشروعة في دين الله أعمال مكررة من أجل أن يتعود فاعلها على الأخلاق الفاضلة ، ويتجنب الرذائل والمفاسد، وكأنها مدرسة للتدريب الخلقي، وآيات القرآن تعبر عن ذلك بوضوح .

فالصلاة المشروعة الحقيقية تنهي عن الفحشاء والمنكر، والزكاة للناس تطهرهم وتزكيهم، وفرض الصوم عليهم لعلهم يتقون، والحج أعمال أخلاقية فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وعلى هذا النحو يرسم الإيمان، وترسم العبادات أخلاق المسلم لأنها الهدف الأساسي من صناعتها للإنسان .

---

(١) موطأ مالك بشرح الزرقاني، باب ما جاء في حسن الخلق جـ٤ صـ١٢ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٩

إن الإنسان وإسلامه يقاسان عند الله بأخلاق صاحبهما، فأحب العباد إلى الله أصحاب الخلق الحسن، لأنهم بحسن الخلق يحافظون على حقــوق الله وحقوق العباد، ويعيشون سعداء بالإسلام الذي يحييهم بالخلق الكريم، ويحضهم عليه .

يقول عليه الصلاة والسلام : **إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا** (١).

لقد كان الصحابة رضوان الله عنهم يتتبعون أخبار رسولهم ليتأسوا به ولذلك سألوا عائشة رضى الله عنها عن أخلاق رسول الله فقالت لهم: **كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ** (٢).

ومعنى ذلك أن لفظه وهمسه وظاهره وباطنه وعمله وصمته كان وفق القرآن ونابعاً منه ، ومن هنا نتفق مع الحقيقة حين نقول : إن القرآن الكريم هو دستور أخلاق المسلم، وهو حياة رسول الله ﷺ .

والأخلاق في الإسلام لها أصول رئيسية تعرف بأمهات الأخلاق ويمكن حصرها في **الأمانة، والعفة، والصدق، والعدل** ، وهذه الأصول الأربعة يمكن لها أن تشمل كافة الجوانب الأخلاقية في حياة الإنسان .

وتربية المسلم على الخلق الإسلامي يبدأ في الصغر ويستمر حتى لقاء الله، فالطفل يرث من والديه بعض الصفات النفسية كالهدوء واللين وخفض الجناح، ويكتسب منهما الكثير بعد مولده، إن الولد وهو يرضع لبن أمه يرضع معه الخلق والدين ... وأحوال الآباء تنعكس على الوليد بعد ولادته ... فإذا ما شب الولد يبدأ الاستفادة من حركة البيت، وزملاء الشارع، وأصدقاء المدرسة ولذلك كان اكتساب الأخلاق الكريمة ممكن بالقدوة الطيبة، وبالصحبة العاقلة، وبالبيت المسلم، وبالمدرسة المستقيمة .

وقد وضع علماء النفس والجماعة وسائل كثيرة للاستعلاء بالغرائز أو تبديلها أو تركها ، لكننا نرى أن التطبيق الدقيق للإسلام خير طريق لتكوين الأفراد على أخلاق سامية في كل البيئات، وفى سائر الأزمان .

إن المسلمين الأول اتخذوا الرسول أسوتهم ، وعملــوا في حياتهم على أن

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب حسن الخلق جـــ٩ صـــ٢٢٨

(٢) مسند الإمام أحمد كتاب باقي مسند الأنصار باب حديث السيدة عائشة رضي الله عنها رقم ٢٤٠٨٠ .

يطبقوا سائر تعاليم الإسلام ، فظهرت أمانتهم في القول والعمل والمال ، ولم تتبدل في حال ، وكانت عفتهم عن سائر المحارم، وكان صدقهم التام، وكان العدل يملأ حياتهم، وبذلك كان كمالهم الذاتي مع أنفسهم ومع الناس، لقد آمنوا بأنه لا إيمان لمن لا أمانة له، وأن الصدق يهدي إلى الجنة، وأن الحياء لا يأتي إلا بخير، وأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، وأن المسلم أخو المسلم، وأن المسلم ليس بلعان ولا فحاش ولا بذئ، وأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل ذلك كان عملهم وفق إيمانهم، ومن هنا كانوا المؤمنين بحق، فطبقوا الإسلام كله بوفاء وكمال .

* * *

هذا هو الإسلام في حقيقته، وبساطته، وبراهينه وأدلته لا يسع كل منصف إلا أن يؤمن به، ويصدق بالأصول التي دعا إليها ويؤمن بما يتبعها من فروع وأخلاق .

وسبب بساطة الإيمان بالإسلام أن حقيقته تعبير عن الواقع الصادق حيث تلتقي حاجات الفطرة مع تشريعه، وتشبع حاجات الناس بتعاليمه، وتزين الحياة بالخير والجمال كما يريدها الله تعالى .

إن الإنسان مكون من عقل وجسد ووجدان فهو بعقله يحلل وينظر ، ويتدبر ويرى أن الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، والمعلول يشير إلى علة وكل سبب له مسبب ، وهكذا يصل العقل إلى خالق الخلق ، وموجد الحياة ، فيؤمن ويعتقد .

والجسد له رغباته، وغرائزه، وحاجاته، وهذا يحتاج إلى نظم وقوانين، ولذلك جاء الإسلام بالتشريع .

والإنسان بوجدانه وروحه محب للجمال، مدرك للحسن ، يتمني الأمن والسلام، ويسعد بالرضى والخير، ولذلك كانت الأخلاق في الإسلام صانعة الحسن والجمال للناس .

ومن الإعجاز الإلهي أن الإسلام هو الدين الذي يقنع العقل، ويشبع الجسد، ويرضى الوجدان بعدل لا عدوان فيه ، وباستقامة لا عوج معها ... مع صيانة حقوق سائر الناس ، وتحديد واجبات الجميع .

ومن قدر الله أن غير الإسلام من المذاهب تعجز عن تحقيق شيء من ذلك فما بالك بجميعها ... وأن استطاعت شيئا فلمدة قصيرة سرعان ما تنتهي وتزول .

إن مصادر الديانات السابقة تعرضت للتحريف والتغيير بعدما أهملها اتباعها، ولم ينقلوها مباشرة عن رسلهم ... فلما تركوها جاءها معارضوهم وأدخلوا فيها ما ليس منها لغايات يقصدونها لأنفسهم .

إن أعداء الإسلام لا يمكنهم الطعن في الأصول الدينية الإسلامية لعدة أسباب :

١) أصول أديان الله جميعاً واحدة ... والطعن فيها طعن في الأديان كلها، ولذلك اكتفى الأعداء بالطعن في التشريع والنظم الإسلامية بإثارة شبه لا معنى لها،ونشر أباطيل يسهل إسقاطها وإبطالها .

٢) الأصول الدينية ثابتة بالبرهان النصي والعقلي، وما يثبت بالعقل لا يمكن نقضه .

٣) براهين الأصول الدينية متجددة، ومازال العلم والعقل يكتشفان الحجج والأدلة، ولعل ما نراه من أصحاب الفكر المنحرف وهم يجهدون أنفسهم لإخضاع انحرافهم لهذه الأصول وإلباسها ثوبا منظماً برهان آخر على ثبات هذه الأصول، وقوتها الحقيقة .

ولذلك سأورد في هذا الباب فصلاً يبين وحدة الأصول الدينية وهو الفصل التالي.

الفصل الثاني

أصول الدعوات الإلهية السابقة



تمهيد :

تعددت الرسالات إلى البشر وتنوعت الرسالات فيهم، وأتتهم التعاليم الإلهية خلالها، ومع البعد الزمنى بين ظهور الرسالات نراها في أصولها كأنها رسالة واحدة، وما اختلفت الرسالات إلا في مناهجها .

وترجع وحدة الأصل إلى أن المصدر لكل الرسالات هو الله الذي أراد أن يوجه البشر إليه، ويعرفهم طريق سعادتهم الكامنة في دين الله الموحى به على ألسنة الرسل عليهم السلام .

ويرجع الاختلاف المنهجي في الدليل، وتوجه الخطاب، وعمق الجدل إلى تنوع المدعوين، واختلاف طبائعهم، وتغاير رذائلهم ، وتطور فكرهم مما يشير إلى ضرورة اختلاف التوجه والخطاب تبعاً لاختلاف من توجه إليهم الدعوة، ليكون الإيمان أسرع، والاقتناع بالدعوة أعمق .

أما الإتحاد في الأصول فإنه يرجع إلى أنها ثابتة ، لا تغيير فيها ، لاتصالها بحقائق دائمة ... وأيضاً فإن إدراك هذه الأصول سهل على الإنسان منذ وجد ، فهي ظاهرة التصور لا تحتاج لتطور الفكر ، وتقدم الناس .

لقد عاين آدم عليه السلام حقيقة هذه الأصول قبل أن يخرج إلى الأرض، حيث عاش في الجنة، وعاشر الملائكة، وتعامل مع إبليس، وعلم الخير والشر، وأتاه وحى الله تعالى.

وفي هذا الفصل سنتكلم عن الأصول الواحدة في جميع الرسالات السابقة بعدما بينت الأصول الإسلامية في الفصل السابق لتظهر وحدة الأصول في الأديان الإلهية كلها ولسوف أفصّل في أدلة الرسل ومناقشيهم كما جاءت في القرآن الكريم لأنها أدلة الإسلام وحتى تكون أمثلة يستفيد بها الدعاة وسوف يتكون الفصل من المباحث التالية :

المبحث الأول : الإيمان بالله تعالى .

المبحث الثانى : ضرورة الرسالة وإثباتها .

المبحث الثالث : إثبات اليوم الآخر .

المبحث الرابع : إثبات أصول العبادات .

المبحث الخامس : الاهتمام بمكارم الأخلاق .

وذلك في عدة مباحث تأتى متتابعة على النحو التالى :

ـ المبحث الأول ـ
الإيمان بالله تعالى

تعتبر قضية الألوهية هى المحور الهام في الدعوات الإلهية كلها، لأنها أصل لسائر الأصول، وقد بذل الرسل عليهم السلام جهوداً متواصلة ، من أجل تصحيح اتجاه المكلفين بعد انحرافهم هذه المسألة،وسنتكلم عن نقطتين هما :

١) عقيدة البشر قبيل الرسالات .

٢) دعوة الرسل إلى توحيد الله وأدلتهم عليها .

وذلك فيما يلى :-

ـ ١ ـ
عقيدة البشر قبيل الرسالات

ظلمت البشرية نفسها ، وسادها ضلال مبين ، وابتعدت في أغلب فتراتهـا عن الطريق المستقيم ، فرغم أنها كانت منذ بدايتها أمة واحدة على الهدى ، إلا أنها كانت سرعان ما تختلف ، وتجحد حق الله تعالى في التوحيـد والعبـادة ، وتتخذ آلهة متعددة تتقرب إليها بالنسك والقرابين .

وكان من رحمة الله بالبشر أن أرسل لهم بين الحين والحين رسولاً يبلغهم الوحى، ويهديهم للتى هى أقوم ، وينقذهم من الضلال الذى شاع فيهم .

والبحث في أحوال الناس قبيل كل رسالة ، يوضح ركون جميع الأقوام إلى عبادة آلهة أخرى غير الله تعالى ، كالأصنام المصورة ، والأوثان المنصوبة ، والكواكب السيارة ، والمظاهر الطبيعية ، وفي الوقت نفسه يذكرون الله تعالى، ويعلمون حقيقته بأوصافه المعلومة لهم ، فهو الخـالق القـادر ، ومـا الآلهـة الشركاء عندهم إلا شفعاء تقربهم إلى الله زلفي ، وهى واسطتهم التى تـربطهم بالله تعالى، وبنى الناس ظنهم هذا في الآلهة على أساس أن آلهتهم صـغيرة ، ضعيفة ، فهم صانعوها ، والموجدون لها ، وهى محسوسة لديهم ، يرونهـا ، ويعيشون معها ، ولابد لهم مع ذلك من إله كبير موجد ، يسعون إليه عن طريق هذه الأصنـام ، والأوثان التى تتوسط لهم عنده .

وهكذا تكونت عقيدة البشر منذ قديم .

أشار الكلبى إلى أن الأصـنام حدثت بعد آدم عليه السلام بعشرة قـرون، وكانـت أولاً صوراً لأشخاص صالحين ، أقامها أهلوهم ، تقديراً لهم ، فلما جـاء الجيـل الثانى عظموهم أكثر ، فلما جاء الجيل الثالث قال بنوه : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم ، وعظموا أمرهم [١].

أتاهم نوح عليه السلام وهم على ذلك فدعاهم إلى توحيد الله الرب العظيم ، والمعبود الحق ، وطلب منهم أن يتركوا دعاواهم الباطلة ، لكن الكفار اسـتكبروا وأخـذ رؤساؤهم يحرضون أتباعهم على عدم ترك الأوثان يقول الله تعـالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [٢]

وتمسكوا بآلهتهم العديدة ، واهتموا بالأصنام الخمـسة المـذكورة علـى الخصوص لأنها أعظم أصنامهم ، وأخذوا يواجهون نوحاً عليه السلام بسفه من الكلام، وقالوا ما حكاه الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣] .

وإنما قالوا ذلك لأن نوحاً في نظرهم قد بعد عـن الحـق وضـل عـن الصواب، وادعى ما ليس له وقد صور القرآن معارضتهم بقوله تعالى ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٤]

وبقوله تعـالى ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾[٥] .

---

(١) الأصنام صـ٥١ ، ٥٢

(٢) سورة نوح الآية ٢٣

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٠

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٢٤ ، ٢٥

(٥) سورة هود الآية ٢٧

فهم في أقوالهم ، ومعارضتهم ، لا يتصورون أن يكون الرسول بــشراً ، لأن الملائكة في نظرهم أعظم من البشر ، وأسهل على الله أن يرسل ملائكة ، فلو أرسل الله رسولاً لاختاره من الملائكة .

وأيضاً فإن آباءهم لم يقصوا لهم شيئاً عــن إرســال البــشر، وإمكانـــه ، وتركوهم يتيهون في متاهات الفكر، وضلالات التصور الساذج.

ومن هنا كفر قوم نوح عليه السلام بدعوته ، وداوموا على عباد ة الأصنام، وكل ما تصوروه هو أن نوحاً عليه السلام قد أصابه جنون ، أو جن ، وأتباعه هم الضعفاء الأراذل، الذين لا شأن لهم .

وهذا الرأي منهم ضلال وهوى ، إذ أبوا النبوة لبشر يدرك ويفهم ، وسلموا للأصنام أن تكون آلهة، مع أن البون شاسع بين البشر والصنم .

يقول الزمخشرى: ما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببــشر وقــد رضوا للألهة بحجر[١] .

وعاد هى الأخرى نسيت الله تعالى فأشركت معه أصناماً عديدة .

في أثر رواه ابن عباس أنهم كانوا يعبدون صنماً يقال له "**صمود**" وآخر يقال لها "الهتار" فلما بعث فيهم هود عليه السلام دعاهم إلى نبذ عبــادة الأصـــنام، والتمـــسك بالتوحيد في الألوهية والربوبية، لأنه لا فاصل بينهما في الحقيقة، لكنهم أنكروا هذه الدعوة منه، وتعجبوا من قصره الألوهية على إله واحد، بحجة أن الأباء عــدوا الألهة، وعبدوها مع الله[٢] ولذلك قــالوا لهــود منكــرين ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٣]

وهكذا كبر عليهم أن يخصوا الله بالعبادة، وقــالوا اســتهتاراً بهــود عليه السلام "أَجِئۡتَنَا" للإشارة إلى أن من يدعوهم بهذا النداء لم ينشأ بينهم وإنما جاءهم بعد غياب، بعد فيه عن أصنامهم فنسيها، ولذلك أتى بغير المعهود والمعقول فاستحق

---

(١) تفسير الكشاف جـــ٢ صـــ٨٧

(٢) المغازى جـــ٨ صـــ٤٩٧

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٠

السخرية في نظرهم .

يقول الزمخشري في معنى المجيء في قوله تعالى "أَجِئْتَنَا " أوجه ، منها أن يكون لـــ"هود" عليه السلام مكان منعزل عن قومه، كان يتخنث فيه، فلما أوحى الله إليه جاء قومه يدعوهم .... ومنها أنهم يريدون الاستهزاء بـــه، لأنهـــم كـــانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكـــة ، فكــــأنهم قـــالوا أجئتنـــا مـــن الســـماء كما يجئ الملك ولا يريدون حقيقة المجئ [١] بل يريدون عدم معرفته بما هم عليه .

ولقد وصلوا في استهزائهم ، وتمسكهم بأصنامهم ، أن اتهموا هوداً بخفة العقل، والإخبار بغير الواقع الحقيقى ، وبالغوا في اتهاماتهم له ، وقالوا له في وضوح ما حكاه الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [٢].

فجعلوا السفاهة ظرفاً له ، كأنه متمكن فيها ، غير منفك عنها ، وهو بذلك أحد الكاذبين، وردوا سبب ما حل به – في نظرهم – إلى قدرة آلهتهم التى ألحقت به الضرر والأذى، حيث قالوا ما حكاه الله تعالى ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾[٣] .

وهكذا وصل بهم الجهل المفرط إلى أن اعتقدوا أن حجارة تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا لها أن تعاقب هوداً كانوا يجيزون لها القدرة على إثـــابتهم، وتحقيـــق الخير لهم ، وللعابدين لها معهم [٤].

ويبدو أن هذه العقيدة كانت متأصلة فيهم لتوارثها عمن سبقهم من الأولين ولذلك قالوا لـــ"هود" عليه السلام ما حكاه الله تعالى ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٨٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦

(٣) سورة هود الآية ٥٣

(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى صـ٢١

﴿ مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١) فلقد واجهوه ﷺ صراحة ، وبينوا له عدم جدوى دعوته لهم، مهما بذل فيهم ، لأنهم يقلدون آباءهم ، ويسيرون على خطاهم، ويؤكدون أن ترك ما كان عليه الآباء معرة، وبوار، ولذلك فهم لن يبالوا بوعظه وإرشاده، وسيستمرون على عبادة آلهتهم فهي عاداتهم التي توارثوها جيلاً عن جيل .

وثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يعبدون آلهة غير الله ، فلما دعاهم صالح عليه السلام إلى التوحيد ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٢) .

كان صالح موطن أمل ورجاء لقومه قبل النبوة، لما بدا فيه من رجاحة عقل وصفات كمال، وخير، لكنه لما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤهم شكوا في دعوته ، وكفروا بها ، وقالوا له : خاب ظننا ، وضاع الأمل الذي كنا ننتظره منك .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام رأى قومه يعبدون غير الله مع تنوع وكثرة، فهم يعبدون الكواكب، والأشخاص، والأصنام، وكان على إبراهيم عليه السلام أن يجابه أتباع جميع هذه المعبودات فقام بما وجب عليه، وكان له مع كل منهم موقف، وحوار

ففي بيته الذي نشأ فيه كانت صناعة الأصنام ، وعبادتها ، ولذلك طلب سيدنا إبراهيم من أبيه أن يترك عبادة الأصنام لأنها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تغني شيئا، كما أن عبادتها تفتح الباب لعذاب الرحمن أن يمسه ، وحينئذ فلن يحميه مجرد أنه عرف الله، لكن هذا الطلب مع وجاهته لم يحرك عند الأب ساكناً بل رد على إبراهيم وقال له ما حكاه الله ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٦ ، ١٣٧

(٢) سورة هود الآية ٦٢

(٣) سورة مريم الآية ٤٦ وقصة إبراهيم مع أبيه مفصلة في الآيات من ٤١ إلى ٥٠ من سورة مريم .

فاعتزل إبراهيم عليه السلام أباه إلى غيره من المشركين ، وأخذ يدعوهم إلى توحيد الله، وقصر العبادة له سبحانه حيث كانت الأصنام منتشرة في كل مكان .

ويبدو أن قوم إبراهيم قد اشتهروا بالجدل، والمراء، والمكابرة، مع السفه والمغالطة، ولذلك وقف منهم إبراهيم موقفاً عملياً بعد أن سألهم أسئلة محددة قال لهم ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [١] .

فسؤاله عليه السلام يعنى أنه فاهم حقيقة معبوداتهم ، وعالم بمدى عجزها عن الإحساس والتأثير ، لأنها جماد لا يعي ، ومصنوع لا يقدر ، ولذلك سألهم عليه السلام عن حقيقة الأصنام ، وعن قدرتها على السمع ، والنفع ، والضر ، ولكنهم بكبريائهم يردون بأنها صنم ، وسنستمر في عبادتها ، وهو أحد ما توارثناه من آبائنا فلما علم عليه السلام أنه لا فائدة من جدلهم لجأ إلى الأصنام وحطمها ، يقول الله تعالى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [٢] وقصته عليه السلام مفصلة في القرآن الكريم ، وفي كتب تاريخ الدعوة [٣].

ومع عبدة الكواكب والنمرود كان إبراهيم عليه السلام يسلم برأيهم ظاهراً لينقضه بعد ذلك [٤] .

والمهم هنا أن نثبت أن سيدنا إبراهيم بعث في أمة كانت تعبد من دون الله آلهة أخرى عديدة اتباعاً للآباء ، وتأثراً بمعاشريهم من الأمم .

يقول العقاد : إن الناس في زمن إبراهيم عليه السلام كانوا يؤمنون بإله عظيم خلق الألهة الصغار ، وقدر لها منازلها في السماء ، وأشهرها القمر "تانار" وبعده يأتي المريخ "مردوخ" و الزهرة "عشتار" ومن قديم كانت الشمس "شماس "

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٠ إلى ٧٤

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٨

(٣) وقد فصلتها الآيات الواردة في سورة الأنبياء من آية ٥١ إلى الآية ٧٠ فليرجع إلى تفسيرها من أراد التفصيل .

(٤) انظر الآيات من ٧٤ إلى ٨١ من سورة الأنعام .

معبودة عند الخاصة[١] وينقل قول "دولى" وهو من أشهر علماء الأحافير في كتابه عن إبراهيم " إن الآلهة كانوا عند السامريين على ما يظهر ثلاث طبقات : **الآلهة العظيمة** التى تخصص لها هياكل الدولة ، **والآلهة التى دونها** وهى التى تقام لهـا المعابد ، وتوضع في مسالك الطرق ، **ودون ذلك آلهة الأسرة** .

والآلهة العظيمة عندهم هي التي تمثل قوى الطبيعـة كالـشمس والقمـر ، والماء، والنار، وغيرها، ولقد كانت عبادة الملوك موجودة عندهم [٢] .

والرسل جميعاً عليهم السلام قابلوا هذا الفساد المتتابع ، والبادئ فـي تـرك أقوامهم التوحيد الحق، إلى عبادة آلهة أخرى متنوعة ، ودفاعهم الجاد عن عقائدهم هذه مع بطلانها .

فشعيب قال له قومه دفاعاً عن أصنامهم ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [٣] بل وهددوه ومن معه من المؤمنين بـالإخراج حيـث قالوا ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [٤] .

ويوسف عليه السلام قال لرفيقيه في السجن مصوراً عبادة قومه مـا حكـاه الله تعالى وهو يقول ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ ﴾ [٥]

وموسـى عليه السلام جابهه فرعون بقولـه ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[٦] وقال للناس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾[٧].

فأشار بذلك إلى أن تأليه البشر أيام موسى كـان موجـوداً بجـانب تأليه

---

(١) الله صـ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) الله صـ٢٠٦

(٣) سورة هود الآية ٨٧

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٨

(٥) سورة يوسف الآية ٣٩

(٦) سورة الشعراء الآية ٢٩

(٧) سورة القصص الآية ٣٨

الأصنام والبيوت ، والنجوم ، فلقد رأى موسى عليه السلام عبادة البشر بعد تجاوزه البحر والقوم معه يقول الله تعالى ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١) .

ومن هنا كان نهى التوراة عن عبادة الأصنام في مثل قولها " **لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسمعوا لهن ولا تعبدوهن** (٢) وتقول " **أنا الرب إلهكم لا تلتفتوا إلى الأوثان ، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم** " (٣).

وتقول " **أحب الرب إلهك، واحفظ حقوقه، وفرائضه، وأحكامه ووصاياه، احترزوا أن تنغوى قلوبكم فتزيغوا ، وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها، البركة لكم إذا سمعتم لوصايا الرب إلهكم ، واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن وصاياه** (٤).

ودواد وسليمان وعيسى عليهم السلام رسل الله إلى بنى إسرائيل ، جاءوا لهدايتهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الشركاء ففي الأناجيل نقرأ " يقول المسيح لتلاميذه " **فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض ... لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين** (٥) .

ونقرأ " **وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته** " (٦) .

يسجل القرآن الكريم حقيقة دعوة المسيح في قوله تعالى ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨

(٢) سفر الخروج ، الإصحاح العشرون ، الفقرات ٣، ٤ ، ٥

(٣) سفر اللاويين ، الإصحاح التاسع عشر ، الفقرات ٣ ، ٤

(٤) سفر التثنية الإصحاح الحادى عشر ، الفقرات ١ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٨

(٥) إنجيل متى ، الإصحاح السادس ، الفقرات ٧ ، ٩ ، ١٣

(٦) إنجيل يوحنا ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة ٣

مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ (١) .

ولما جاءت الدعوة الإسلامية ، وجدت واقع الناس على سنن ســوابقهم ، من كثرة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأشخاص ، وعبادة النار ، إلا أنهم بسبب تطورهم مع الزمن وضعوا لرب نسكهم أقاويل بليغة ، وفلسفات عقلية عقيمة .

ومع ذلك فإن صورة الضلال كانت واحدة عند جميع الأمم بعــدما بعــدوا عن توحيد الإله، وأشركوا معه آلهة أخرى وقصروا العبادة عليها .

ومن هنا كان المحــور الرئيسي في جميع الدعوات هو مقاومة الشــرك، والدعوة إلى التوحيد ، وتفهيم الناس أن العبادة مطلقاً يجب أن تكون لله وحده ، لأنه الإله الحق، وما عداه زيف وباطل .

- ٢ -

مفهوم التوحيد وأدلة الرسل عليه

ذكرنا أن الناس كانوا دائماً قبيل الرسالات على شرك في عقيدتهم ، مــع تيقنهم بأن هناك فوق آلهتهم العديدة إلها أعظم من الجميع، وهو الأقدر، والأحكم والأعلم، ولذلك كانوا يعبدون الأصنام، والظــواهر المحــسوسة بجــوارحهم ، لتقربهم إلى الله الأكبر، وتكون وسيلة الشفاعة لديه، والاتصال به وتلك كلهــا عقيدة خاطئة، جاءت الرسالات لتصحيحها، وإثبات الحــق فيهــا ولتأكيــد أن التوحيد في حقيقته يتضمن الإقرار بوحدة الرب الخــالق ، وإفــراده بالعبــادة الخالصة بلا أدنى شائبة تَوجُّه لغيره، وتأكيد أن العباده الحقة يجــب أن تكــون مشتملة على التعظيم الكامل، مع الخوف التام، الأمر الذى يؤدى إلى التسليم لله، والانقياد لحكمه وعدم معارضة تعاليمه بأى تعاليم غيرها مهما كان مصدرها .

يقول الشيخ محمد عبده : **العبادة ضرب من الخضوع ، بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود، لا يعرف منشؤها ولا يدرك كنههــا وماهيتهــا ، وقصارى ما يعرف صاحبها منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه** (٢) .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٧

(٢) المنار جـ٢ صـ٥٧

وهكذا لابد للعبادة من أن تتركب من عنصرين هما **غاية الذل لله ، وغاية المحبة له**، والعنصران ينشآن حتما للعابد الحقيقى الذى يؤمن بـأن قـدرة الله، شاملة وعلمه محيط ، ووجوده أزلى أبدى ، وكل ما عداه فهو من خلقه وإيجاده

أما هذا التوحيد الذى كان موجوداً قبيل الرسالات ففيه قصور كبير، فهـو منكر لقدرة الله في الحقيقة ، ذلك لأنهم في الوقت الذى يوحدون الله ، ويذكرون قدرته وخلقه للموجودات يعبدون الشركاء معه، ويثبتون لهم بعـض القـدرة، ويعطونهم جزءاً كبيراً من التعظيم والتقديس، فجاء الرسل على مـدى الـزمن ليبينوا للناس ما يجب أن يكـونوا عليه في عقيدتهم، فيوحدوا الله ، ويخـصوه وحده بالعبادة والتعظيم لأنه لا إله سواه .

ومن هنا كان أول صوت نادى به الرسل أقوامهم هو قوله تعالى ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (١) فنراهم صلوات الله وسلامه عليهم فـي نـدائهم يقرنون التوحيد بالأمر بالعبادة ، لأن التوحيد كما يقول الرازي كالعلة للعبادة ، لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره ، كان كل ما حصل عندهم من وجوه الإحـسان ، والنفع ، والعطف ، والبر ، حاصلاً من الله ، ونهاية الإنعـام توجـب نهايـة التعظيم ، فوجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا هو(٢).

ويجب أن يكون واضحاً أن المراد من الإله المدعو إليه في دعوات الرسل هو الإله المستحق للعبادة حقاً دون سواه ، لأن الأقوام قبل الرسـالات كـانوا يعتبرون الأصنام والأوثان آلهة ، ويعبدونها على هذا الاعتبار فكان الخطأ في العبادة تابعاً للخطأ في التأليه (٣) ولذلك كان على الرسل أن يـصححوا نظـرة الناس في التأليه، والعبادة ليعبدوا في إخلاص الإله الواحد ، الذي لا شريك له . إن العبادة رمز الامتثال الحق، ودليل توحيد الله بصدق، وهى فرع أصلها هـو التوحيد .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٢) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٢٦١

(٣) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ١٧١

والتوحيد والعبادة أمران متلازمان في الحقيقة ، وتأكيداً للازمية العبادة للتوحيد جاءت آيات كثيرة تأمر بالعبادة والتوحيد من غير أن تفصل بينهما بكلام آخر، لأن التوحيد بيان وتفسير لعلة اختصاصه تعالى بأن يعبد [١] وقدمت بعض الآيات التوحيد على العبادة، وربطت بينهما بالفاء كقوله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [٢] وكقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [٣] وذلك لأن الفاء تفيد التعقيب فكان الربط بها تأكيداً لهذه اللازمية بين توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإشارة إلى أن العبادة تكون مع التوحيد مباشرة وملازمة له .

ولأهمية الخلوص في العبادة، والصدق في التوحيد سلك الرسل عليهم السلام في التدليل على وجوب توحيد الله وإفراده بالعبادة طرقاً ثلاثة :

الأول : تذكير القوم بنعم الله عليهم في أنفسهم .

الثاني : تذكير القوم بالنعم المبثوثة في الكونيات القريبة من حولهم .

الثالث : التخويف من العواقب التي سينالها من لم يوحد الله تعالى .

هذا هو سيدنا نوح عليه السلام يخاطب قومه بهذه الطرق، ويبرهن لهم بها، ويطلب منهم أن يعبدوا الله تعالى وحده، فتراه يبين لهم أحياناً نعم الله عليهم في أنفسهم، فهو خالقهم على أطوار سبعة بدأت بالتراب، وانتهت بإنسان عاقل، سوى، يسمع، ويبصر، ويعرف فقال لهم ما حكاه الله تعالى ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [٤] .

وأحياناً أخرى يوجه نظر قومه إلى السماوات العلا ، وما خلق فيها من قمر منير ، وشمس مضيئة ، يتتابعان في الظهور لا يسبق أحدها الآخر ،

---

(٤) البحر المحيط جـ٤ صـ٤٢٥

(٢) سورة طه الآية ١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٤) سورة نوح الآيتان ١٣، ١٤

والكل في فلك يسبحون ، وجه نوح عليه السلام نظرهم إلى هذا علهم من ملاحظة هذه القدرات الإلهية يعبدون ربهم ، ويوحدونه فقال لهم ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (١) .

ووجه نظرهم عليه السلام كذلك إلى الأرض، التى نشأوا من ترابها، واستخدموها في معاشهم ، والتى سيرجعون إليها بعد موتهم ، وسيخرجون منها حين البعث والنشور يوم القيامة، هذه الأرض التى ذللها الله، وسخرها للإنسان يستغلها كيف يشاء حسب قواه، وتبعاً لنشاطه وسعيه، وجه نوح عليه السلام نظر قومه إلى ذلك فقال لهم ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾(٢) .

ومع تذكيرهم بنعم الله في أنفسهم ومن حولهم كان سيدنا نوح عليه السلام يذكر قومه بالموت، والبعث، والحساب، ويخوفهم من عذاب يوم القيامة الذى سوف ينزل بهم إن لم يوحدوا ربهم ويخصوه بالعبادة دون سواه، فقال لهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣)

وقال لهم ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(٤) .

وقال لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٥)

وهكذا دلل سيدنا نوح عليه السلام على وجوب توحيد الله واختصاصه بالعبادة بهذه الأدلة السهلة، الدقيقة ، التى تقصد اللب لا الشكل ، وتعرض القضية مباشرة بلا تعقيد، أو مبالغة، وتعرف الإنسان بكمال قدرة الله، وكمال عنايته

---

(١) سورة نوح الآيتان ١٥ ، ١٦

(٢) سورة نوح الآيات من ١٧ إلى ٢٠

(٣) سورة نوح الآيات من ٢ إلى ٤

(٤) سورة هود الآية ٢٦

(٥) سورة الشعراء الآيات من ١٠٦ إلى ١٠٨

ورحمته ، وكمال علمه وإحاطته، ولأنها أدلة تجعل الإنسان ينظر في كل شـئ حوله من أرض ، وزرع، وليل، ونهار، وشمس، وقمر ليراجـع نفسه فـي معبوداته المصنوعة ، ليعلم أنها ليست إلا مخلوقاً من هذه المخلوقات، لا تملك لنفسها ولا لغيرها أية فائدة، ولا تستطيع عمل أى شئ، لأنها لا تحس ولا تدرك ولا تتحرك، وهى بذلك لا تستحق التأليه أو العبادة ... والواجب هو إفراد الله، المالك لكل شئ بالعبادة والتعظيم .

وبمثل ما استدل به نوح ﷺ استدل هود ﷺ وهو يدعو قومه " عـاداً " إلى توحيد الله وعبادته، فبين لهم أن الله جعلهم أقوياء في أجسادهم، وأعطـاهم الملك والحضارة ومكنهم من تأسيس البنايات الشاهقة العظيمة ، وهذا يتـضح من قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [١]

يروى أنه كان لعاد ابنان هما شداد، وشديد، فملكا، وقهراً، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد ودان له الملوك، وبنى مدينة عظيمة عاليـة لا يـضاهيها بنيان آخر [٢] .

وعلى الجملة لم يأت مثل عاد في قوتهم ، وطول قامتهم ، ولم تظهر مدينة في جميع بلاد الدنيا مثل مدينة "**شـداد**" ولذلك ذكرهم هود ﷺ بـنعم الله فـي أنفسهم فقال لهم ما حكاه الله تعالى في قوله : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣] .

وقـال لهـم أيـضاً : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة الفجر الآيات من ٦ إلى ٨

(٢) تفسير النسفي جـ٤ صـ٣٥٤ ، ٣٥٥ بتصرف

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٩

(٤) سورة هود الآية ٥٢

وقال لهم ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (1) .

وقد صور هود في هذه الآيات نعم الله في قومه عاد، يقول أبو السعود : إن المراد من البسطة هى طول القامة ، والقوة الجسدية فإنه لم يكن في زمانهم من يماثلهم في عظم الأجرام، حتى قالوا عارفين ذلك : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾(2) ومع هذه البسطة كانوا في غنى اقتصادى، ورخاء زراعى عجيب بسبب المطر الذى كان يأتيهم بغزارة ولذلك قال لهم هود عليه السلام ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (3) لأن نزول المطر مرغب هام يضاعف تحققه فيهم قوة فوق قوتهم الكبيرة، ويحافظ على حضارتهم التى كانوا فيها .

وأكبر دليل على قوتهم المادية والبدنية أنهم اتخذوا في كل مرتفع بناء ، وشيدوا القصور الشاهقة ، وبطشوا جبارين بغيرهم اعتماداً على قوتهم ، فذكرهم هود بهذه النعم في أنفسهم ، ليندفعوا بها إلى الإيمان بالله ، وتوحيده ، وعبادته، ويطيعوه في دعوته، وينفذوا أمره (4) لهم، وقال لهم ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(5) ،وكذلك دلل هود بطريق آخر حيث عرفهم بنعم الله عليهم في الزراعة التى قامت حضارتهم عليها فقال لهم ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾(6) .

وحثهم على أن يتذكروا هذه النعم الواضحة في أولادهم ، وديارهم ، وأملاكهم ليعبدوا الله الذى أمدهم بها ، وأعانهم عليها .

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٠

(٢) سورة فصلت الآية ١٥

(٣) سورة هود الآية ٥٢

(٤) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ١٧٤

(٥) سورة الشعراء الآية ١٢٦

(٦) سورة الشعراء الآيات من ١٣٢ إلى ١٣٤

وخوفهم هود عليه السلام من العواقب إن هم تركوا توحيد الله وعبادته ، فقال لهم ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[١] وهكذا كانت أدلة هود لقومه دائــرة حول الطرق الثلاثة التى دلل بها نوح عليه السلام .

وعلى نمط أدلة نوح وهود عليهما السلام نادى صالح عليه السلام في قومــه فقال لهم ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[٢] وقال لهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾[٣] .

جاء في كتاب دعوة الرسل إلى الله " أن نبى الله صالحاً أخذ يذكر قومه بنعم الله التى أمدهم بها، حيث جعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران، وألهمهم كثيراً من فنون الصناعة، وهندسة البناء، ودقة النجارة، وعلمهم فن النحت ورزقهم القوة والصبر حتى تمكنوا من نحت بيوتهم الفارهة في الجبل يسكنونها فــي الــشتاء، وأقدرهم على تشييد المساكن في السهول ، يقيمون فيها أثناء الصيف، وكل هــذه النعم أمدها الله لــ"ثمود" في أنفسهم وحياتهم، وفي الآفاق من حولهم، فأنشأهم من الأرض، ومكنهم فيها، وسهل لهم استغلالها، وعرفهم بقيمة السهل والجبل، ولذلك ذكرهم صالح بها لكى يوحدوا الله ويعبدوه فهو صاحب الفضل كله كما خوفهم من مخالفتهم، وعدم إيمانهم، وتماديهم في الشرك، واستمرارهم في عبادة غيــر الله تعالى"[٤] فقال لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[٥] وقــال لهم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾[٦]

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٥

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٣) سورة هود الآية ٦١

(٤) دعوة الرسل إلى الله تعالى صـــ٢٨

(٥) سورة الشعراء الآيات من ١٤٢ إلى ١٤٤

(٦) سورة هود الآية ٦٤

بهذا المنهج في التدليل سار الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه في دعـوة أقوامهم إلى التوحيد ، ونبذ الشرك، وترك عبادة الأصنام والأوثان .

وأدلة الرسل على كل حال أدلة بسيطة تعتمد على المحسوس ، ولا تحتاج إلى دليل مركب ، أو منطق متفلسف ، لأن ذلك هو الذى كان يناسب بـساطة القوم ويتمشى مع فكرهم يومذاك .

انظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الذى حاور كثيراً من الناس، وجادل عديداً من الطوائف ، تلقاه لم يتخط الأدلة المجسمة، المنظورة، لإفحام مجادليه ، فحـين جادل عبدة الأصنام ذكروا له أن الأصنام آلهة آبائهم ، ولن يتركوها فلم يناقشهم في حقيقة الآلهة ، وأحقية الآباء في عبادتها ، وإنما أتاهم بإظهار عجز هذه الآلهة مما يفقدها القدرة، وهي أول صفات الإله، وأشار إلى أن الركون إلـى الأصـنام ضلال واضح ، ثم استعمل الدليل المفيد ، المعتمد على الحواس فكسر الأصنام ، ليثبت لعبدتها أنها لا تنفع نفسها فكيف تؤله وتعبد ، وكذلك حينما رأى عليه السلام بعض الناس يعبدون الكواكب لم يدخل معهم في نقاش وجدل ، وإنما وافق رأيهم ، وأشعرهم أنه معهم في عبادة الكواكب مجاراة لهم ، لأن الموافقة في العبارة عـن طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج [١].

ومن هذه الموافقة أنه لما رأى كوكباً قال ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ ﴾ ثم رأى ﴿ ٱلۡقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ثم رأى ﴿ ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكۡبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [٢] .

ومن الدقة في المجاراة أنه اعترض على الأفول دون الطلوع ليتأكدوا من موافقته لمذهبهم لأنه لو اعترض على الطلوع لما بدت هذه الموافقة .

ومما يؤكد أن هذه الموافقة مجاراة فقط قوله ﴿ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى ﴾ يقول

---

(١) الملل والنحل جـ٢ صـ٥٦

(٢) سورة الأنعام الآيات من ٧٦ إلى ٨٧

الشهرستاني : إن الإيمان بأن الهداية من الرب تعالى هي غاية التوحيد، ونهاية المعرفة، والواصل إلى غاية النهاية لا يكون أبداً في مدارج البداية [١].

ولما جاء ﷺ للنمرود يدعوه إلى الله الذي يحي ويميت قال النمرود ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ [٢] ومع وضوح المغالطة في رد النمرود لم يناقش إبراهيم ﷺ في أصل الإحياء ، وطريقة الإماتة ، وإنما ترك هذه المناقشة إلى استدلال منظور فقال ﷺ له ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [٣] وهنا عجز النمرود ولم يجد جواباً يرد به ، فأمسك عن الحوار ... وكان صمته دليلاً على صدق دعوة إبراهيم ﷺ ، وبرهاناً على أن الدليل المباشر ، السهل، المستمد من الواقع من أقوى البراهين وأشد الأدلة في التأثير.

ولم يبعد إبراهيم ﷺ عن المسالك الثلاثة التى اتبعها الرسل مع مدعويهم، فقد استمد حديثة من واقع الحياة وحوادث الكون القريب والبعيد .

إن مناقشات إبراهيم ﷺ مع عبدة الكواكب أو مع عبدة الأصنام أو مع الملك (النمرود) تشير إلى نوع من الترقية عن الأدلة سابقتها مع أنها أيضاً بسيطة ، لأن الإنسان في عهد سيدنا إبراهيم كان قد ترقى أكثر من ذى قبل ، بحكم طول الزمن ، ومجئ رسالات كثيرة إليه .

وعلى هذا النمط جاءت أدلة الدعوة الإسلامية مناسبة لرقى الإنسان الذى كان قد وصل إلى مستوى كبير ، وجاوز مرحلة الطفولة العقلية إلى مرحلة نضجها وكمالها ، ولذلك كانت أدلة الإسلام تعتمد على توجيه النظر إلى نعم الله في نفس الإنسان وفي الآفاق مع الترغيب في الجنة والترهيب من النار .

وذلك بأوجه متعددة بالإضافة إلى مخاطبة العقل المجرد ، والمقارنة الدقيقة والمجادلة الفكرية والإخبار بالغيب ، وتأصيل الأخلاق، والآداب كما سنرى فيما بعد، ومن هنا صلحت الدعوة للعالم كله ، وعلى طول الزمن .

---

(١) الملل والنحل جـ٢ صـ٥٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨

ـ المبحث الثانى ـ
إثبات الرســـالة

اصطدمت الدعوات الإلهية السابقة جميعــاً حــين ظهورهــا بالمعارضــين المعاندين الذين حاولوا بجدية هدمها، ورد كل ما يأتي به الرسل، وكان سبيلهم في ذلك هو إنكار رسالة الرسول، لأن الرسالة أصل للدعوة ، ومصدر ظهورها للناس ، ولولا الرسول ما كان الوحى ، وما كان دين الله تعالى ، ومن هنا رأينا الرســل عليهم السلام يدعون أقوامهم إلى توحيد الله ، وقصر العبادة له بينما المعانــدون يوجهون إنكارهم إلى الرسالة ، بدعوى أن الرسول لا يصح أن يكون بشراً مــن الناس ، وعجبوا ، واستهزأوا لأن من يدعوهم إلى الله بشر من بينهم ، وقد جوبه الرسل أجمعون بمثل هذا الإنكار والاستهزاء ، فكان عليهم أن يردوه بأدلة سهلة ، ومقنعة ، ولذلك اعتمدوا في ردهم على دليلين :

الأول : بيان مشابهة رسالتهم الرسالات السابقة .

الثانى : ذكر أن الرسالة اختيار إلهى محض يختص الله به من يشاء .

وقد وضح القرآن الكريم هذا الإنكار والرد عليه .

فعن الإنكار قال قوم نوح حينما أرســل إليهم نوح عليه السلام ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [١] وقال قوم هود عليه السلام ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٢] وعلى نمط هذا التكذيب كان سائر الأمم ، وقد أخذ الرسل في إثبات الرسالة بالدليلين المــشار إليهمــا سابقا، فهم جميعاً كانوا يذكرون أقوامهم بالرسالات التى سبقتهم ، ويعرفونهم أن الرسالة نعمة خصهم الله بها .

انظر إلى عاد فقلد رد عليهم هود عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [٣].

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٩

وثمود هى الأخرى قال لهم صالح عليه السلام قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾[١].

ومدين قال لهم شعيب عليه السلام قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴾ [٢] وقوله تعـــالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[٣].

وهكذا بين الرسل لأقوامهم أن الرسالة سنة الله في الناس منذ القديم، وما دام هكذا الأمر فعلى الناس أن يسلموا به، فقد ثبت في الواقع، وتأكد منه السابقون.

وأثبت الرسل رسالتهم بالدليل الثانى كذلك ، فبينوا أن النبوة نعمة الله ورحمة يختار لها من يشاء من البشر ، تبعاً لمميزات وضعها الله فيمن يختاره، ثم يكمله بالوحى، وبذلك يستطيع أن يقوم بواجبات الرسالة على الوجه الأكمل ومن هذا القبيل ما قاله نوح عليه السلام لقومه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾[٤].

وما قاله صالح عليه السلام لقومه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [٥] .

و ما قاله شعيب عليه السلام لقومه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ ﴾ [٦] .

فإن المراد بالرزق الحسن ، والرحمة المؤتاه ، هى النبوة التى بعثوا بها ، وعارضهم الناس فيها .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤
(٢) سورة الأعراف الآية ٧٩
(٣) سورة هود الآية ٨٩
(٤) سورة هود الآية ٢٨
(٥) سورة هود الآية ٦٣
(٦) سورة هود الآية ٨٨

وهكذا أثبت الرسل رسالتهم بطريقة واقعية لأنهم أعادوا القوم إلى التاريخ المنظور والمعروف ، ليتدبروا فيه ويعتبروا به ، ويصدقوا بالرسالة بعد ذلك ، فإن كذبوا بعد ذلك فهو تكذيب بكل الرسالات وإن صدقوا فهو إيمان بجميعها

والإنسانية هي الإنسانية لأن القوم قابلوا الرسول الخاتم بمثل هذا الإنكـار فرد عليهم بمثل ردود الرسل السابقين ، وكان الأولى أن يعتبروا مـن تلقـاء أنفسهم ، ويصدقوا بما سمعوا ، لكن هكذا كانوا ، وكل شئ عنده بمقدار .

ـ المبحث الثالث ـ
إثبات اليوم الآخر

يوم القيامة وما فيه من فوز للمطيعين ، وعقاب للعصاة بعد بعث الخلائق وحسابهم، أمر أجمعت الدعوات الإلهية على تأكيد إثباته حتى يشعر الإنسان بالمسئولية الدائمة في كل شئ، ويعلم أن كل ما يفعله في حياته الدنيا سوف يلقاه في الآخرة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

والعلماء يسمون اليوم الآخر بأحد أجزائه، ويطلقون عليه يوم البعث، أو يوم الحساب، أو يوم الدين أو يوم الحشر، وذلك جائز في لغة العرب من باب تسمية الشيء بجزء منه.

إن الإنسان بفطرته يحس أن حياته ليست جسداً فقط ينتهى بالموت وأن له مع الجسد روحاً لا تفنى ، ولكنها تنتقل إلى مكان آخر ، تسعد فيه أو تشقى ، وتنعم بأعمالها أو تعذب .

إن المصريين القدماء كانوا يحنطون أجساد الموتى لتبقى "في ظنهم" مع الروح الخالدة ، ولذلك وضعوا أجساد الموتى في الأهرامات الضخمة ، والمقابر الكبيرة ووضعوا مع الأجساد نماذج الحساب الأخروى كما بينته أوراق البردى، وعلى نمط المصريين كان البراهمة في نظرتهم إلى الأرواح وخلودها.

هذا الإحساس الفطرى عند الناس كان إحساساً واقعياً اعتمدته جميع الرسالات السماوية، وحددت حقيقته ووضحته بنصوصها المقدسة ، وبينت أن البعث الأخروى أمر مؤكد ، وأن الناس في يوم القيامة سوف يحاسبون بأعمالهم ، ويجزون على الطاعة ، ثواباً خالداً ، ونعيماً مقيماً، وعلى العصيان العذاب الأليم .

وكان صوت الرسالات دائماً يهتم بإثبات اليوم الآخر، فهذا هو سيدنا نوح عليه السلام منذ اللحظات الأولى في دعوته يبين لقومه إنه يخاف عليهم من يوم القيامة حيث يبعث الله الناس، ويعذب العصاة الكافرين فقال لهم ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[1] وقال ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴾[2] وبهذا خوفهم من

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٢) سورة هود الآية ٢٦

عذاب عظيم مؤلم نازل على الطغاة والظالمين الذين لا يوحدون الله ، ولا يعبدونه، ولسوف يرونه في يوم الطوفان في الدنيا، أو في نار جهنم يوم القيامة كما أشار إلى ذلك المفسرون، **إلا أن أبا السعود يرجح** أن المقصود بهذا العذاب هو عذاب يوم القيامة، ذلك أن عذاب الطوفان كان مؤلماً وعظيماً إلا أن عذاب يوم القيامة أشد وأعظم بسبب دوامه وتنوعه ، والصيغة تتناسب مع هذه المبالغة في الشدة والعظم حيث أسندت الأليم والعظيم وهما صيغة مبالغة إلى اليوم كما في قولنا نهاره صائم ، وليله قائم ، وأيضاً فإن الغرق ليس نهاية عذابهم وأقصاه، فقد ذكر الله تعالى أنهم بعد إغراقهم في يوم الطوفان يحرقون فقال تعالى ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ (١) مما يجعلنا نتساءل عن هذه النار أهي نار في الدنيا أم نار في يوم القيامة؟

وقصة إهلاكهم المفصلة في السور القرآنية خلت من الإشارة إلى هذا الإحراق مما يدفعنا إلى الإيمان بأنها نار الآخرة ، ونتابع في ذلك إحدى روايات أبى السعود عن هذه النار فقد ذكر أنها نار جهنم ، تنزل بهم لا محالة ، وتحققها ضرورى ، ولعل عطف إدخالهم النار على الإغراق بالفاء لبيان هذه الضرورة المحققة ، وكانها تعقب الإغراق (٢) ولا مانع من تكرر عذابهم بها في الدنيا والآخرة .

وكون المراد هو عذاب يوم القيامة لا يمنع حدوث العذاب في يوم الطوفان الذى أنذرهم به سيدنا نوح ﷺ وخاف عليهم من وقوعه، وقد جاء في الجلالين أن العذاب المراد هو عذاب الدنيا والآخرة معاً (٣).

وهكذا نجد سيدنا نوح ﷺ يخوف الناس من المعاد وما فيه ، فآمن به الضعفاء، وصدقوا بملاقاة الله في يوم القيامة ، وأيقنوا بالبعث والحساب ، فلما جاء المستكبرون إلى نوح يطعنون في هؤلاء الضعفاء ، ويطالبونه بطردهم من حوله قال لهم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ (٤) أي أنهم مصدقون

---

(١) سورة نوح الآية ٢٥

(٢) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١٩٩

(٣) تفسير الجلالين جـ١ صـ١٠٦

(٤) سورة هود الآية ٢٩

بلقاء الله، موقنون بذلك، عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، ولذلك فلن أطـــردهم مـــن حولى بعد هدايتهم وإيمانهم [١]

ولما أكثر المعرضون من العناد والتكبر عرفهم نـــوح عليه السلام بـــأن الله يملـــك أمـــرهم في الدنيا والآخرة ، فكما أنه المتصرف في الدنيا فهو المتصرف في يوم القيامة، ولسوف يرجعون إليه ليحاسبهم فقال لهم ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٢] فأســـلم الأمر إلى الله، وعرفهم أنهم سيرجعون إليه يوم القيامة للحساب والمؤاخذة

وقد بيّن القرآن الكريم أن الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر جاء مقترنـــاً بالـــدعوة إلـــى التوحيد في أول كل دعوة كما هو واضح من الآيات بما للإيمان باليوم الآخر من أهمية

ولعل الهدف من بيان حقيقة البعث وإثباته أولاً عند الناس هو تخويفهم مـــن الإهمال ، وتحذيرهم من العصيان ، ذلك أن الرسل صـــلوات الله علـــيهم قـــدموا التخويف والتحذير في دعوتهم ، وذكروا بهما قبل أى شئ آخر ، وأعظم التخويف يكون هو بالبعث ويوم القيامة ، وإنما قدم الرسل ذلك لأن غالبية القوم مقلـــدون ، والمقلد لا ينظر في الدليل ، ولا يعتبر بالآيات إلا إذا خاف.

يقول الرازى: إن المقلد إذا خوف خاف، وما لم يحصل الخوف في قلبـــه لا يشتغل بالاستدلال، ولهذا السبب قدم الرسل التخويف دائماً كما أشارت لذلك سورة الشعراء حين كان الرسل يقدمـــون ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ على ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[٣]

وقد تتابع الرسل بعد نوح عليه السلام وكلهم يثبت الميعاد ويؤكده ويخوف قومه منه فلقد خوف "هود" عليه السلام قومه من عذاب يوم عظيم وقدم لهم قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ليشعرهم بالخوف من عذاب الله الذى سينزل بهم، وخاصة في الآخرة فلما أصروا على الكفر والضلال بين لهم أنهم استحقوا التأنيب واللعن في الدنيا والآخرة وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ صـ١٦٦

(٢) سورة هود الآية ٣٤

(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازى جـ٦ صـ٥٣٣ ط الحلبى

إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (١) .

ولقد كان من أوضح أسـباب اللعنة أنهم كفـروا بالبعث الذى ذكـره الله لهـم، وعارضوا هوداً في هذا المجال في دهشة واستغراب، وقال السـفهاء منهم لنظرائهم ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ (٢).

ولم يكتفوا بهذا الاستفهام الإنكارى بل أنكروا البعث صراحة واستبعدوا كل ما وعدهم به من أمور الآخرة فقالوا ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾(٣) فلا عجب إذا بعد هذا الإنكـار والاستهزاء أن تتابعهم اللعنات في الدنيا وفي الآخرة .

وسيدنا شعيب عليه السلام خوف قومه من يوم القيامة ، ودعـاهم إلـى العمـل الصالح من أجل الفوز فيه فقال لهـم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٤) وإنما قال هذا رجاء أن يستجيبوا لدعوته ويؤملوا في ثواب يوم الآخرة .

وأيضاً فقلد بين سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الإيمان باليوم الآخر جزء من العقيدة لا تتم إلا به ولا ينزل الخير والأمن في الدنيا إلا على أساس الإيمان كله، بين ذلك وهو يدعو ربه قائلاً ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

فتراه عليه السلام يقصر دعوته بالخير والأمن على من يـستحقها مـن النـاس والمستحق هو من آمن بالله واليوم الآخر ، أما الكافر بهما فهو إن تمتع فإنمـا

---

(١) سورة هود الآية ٦٠

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣٥

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٤) سورة العنكبوت الآية ٣٦

(٥) سورة البقرة الآية ١٢٦

يتمتع قليلاً في الدنيا لكنه في الآخرة سوف يعذب بعذاب النار وبئس المصير .

إن سيدنا إبراهيم دعا إلى البعث في لــين، ولــم يــصطدم بعتــو القــوم وجبروتهم وحينما كان يلجأ إلى التمثيل كان يمثل بنفسه، يقول لهم ﷺ مشيراً إلى القدرة الإلهية ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾ (١) ليكون إيمانهم بــالله مــشتملاً على التسليم بقدرته الشاملة للإحياء والإماتة، والمراد بالإماتة الإماتة في الدنيا ، والمراد بالإحياء المجازاة على الأعمال (٢) ، وقد نظمت الآية الإماتة مع الإحياء في سمت واحد كما ذكر أبو السعود لأنها قد نيطت بجميع أمور الآخرة بما يأتى بعدها من البعث وغيره(٣) ومن تمثيله ﷺ بنفسه قوله ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾(٤) حيث قال أطمع بينما هو ﷺ مسلم بالمغفرة ، وأسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا ، وما فعل ذلك إلا تعليماً للأمة ليعرفوا أن أثر المغفرة على الخطيئة إنما يظهر حتماً يوم القيامــة ولــم يخطئ إبراهيم ﷺ قط (٥) .

إن المؤمنين يسلمون باليوم الآخر ، ويصدقون بالبعث ، ويعملون الصالحات من أجل النجاة في الآخرة ، وهم لا يؤثرون أى عمل على طاعة الله ، انظر إلــى سحرة فرعون لما آمنوا قالوا لفرعون ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِى هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾(٦)

وقالوا أيضاً ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (٧) فإنهم بذلك أعلنوا إيمانهم الذى لا يعبأ بالدنيا وعذابها، وإنما ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب، وجزاء وفق ما أرشدهم سيدنا موسى ﷺ فلقد نقل إليهم قول الله تعالى له ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

---

(١) سورة الشعراء الآية ٨١

(٢) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٥٢٦

(٣) تفسير أبي السعود جـ٤ صـ١١٠

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٢

(٥) انظر مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٥٢٧ ، البحر المحيط جـ٧ صـ٢٥ ، تفسير أبي السعود جـ٤ صـ١١٠

(٦) سورة طه الآية ٧٢

(٧) سورة الزخرف الآية ١٤

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[١]ونقل كذلك قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[٢] فالإخراج من الأرض بالبعث ، وعودة الروح إلى الجسد من أجل الحساب والجزاء على الأعمال، وقد ذكر لهم موسى ذلـك ليثبت لهم البعث الذى هو من أصول دعوته، وأحد الأركان التى يقوم عليها الإيمان .

إن المؤمنين من أتباع موسى ﷺ كانوا لشدة يقينهم بالقيامة كانوا يخوفـون أهاليهم من أهوالها ، كالرجل الذى آمن منهم ونادى فيهم قائلاً ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [٣] ويوم التناد هو يوم القيامـة حيـث ينـادى بعـضهم بعـضاً للاستعانة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب النار وأصحاب الجنة، أو يند بعضهم من بعض على قراءة التشديد ، وعن الضحاك إذا سمع الكفار زفير النـار ندوا وهربوا فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فبينما هـم يمـوج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً يناديهم أقبلوا إلى الحساب[٤].

والبعث هو أول ما نطق به عيسى ﷺ وهو في المهد إذ قـال ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[٥] وكان يقول لليهود الـصدوقيين الذين ينكرون البعث " **وأما جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبـل الله القائل: أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء فلما سمعوه بهتوا من تعليمه** [٦] .

ولقد حفلت الدعوة الإسلامية بإثبات المبعث وبينت أنه أحد أركان العقيدة الإسلامية والإيمان به ركن رئيسي فى الإيمان .

---

(١) سورة طه الآية ١٥

(٢) سورة طه الآية ٥٥

(٣) سورة غافر الآية ٣٢

(٤) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ٩

(٥) سورة مريم الآية ٣٣

(٦) انجيل متى الإصحاح الثانى والعشرون فقرات ٣١ – ٣٣

- المبحث الرابع -

إثبات أصول العبادات

كان لاتفاق الرسالات في إثبات وحدانية الله أن اتفقت بالضرورة في حتمية التوجه إلى الله الواحد بالعبادة الخالصة التى تشعر الإنسان المخلوق باحتياجه إلى الله الخالق ، وضرورة العيش في حقيقة العبودية وصدقها .

جاء في محاسن التأويل " العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، والطريق المذلل للسير يسمى طريقاً معبداً ، وما سمى العبد بالعبد إلا لذلته لمولاه ، وفي العبودية تحرير النفس لله ، وتخليصها لعبادته وحده لا يشركه شئ ما، لا في حبه ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا في التوكل عليه والتقرب منه "[١].

يقول الشيخ محمد عبده : العبادة ضرب من الخضوع ، بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، واعتقاده بسلطة للمعبود لا حدود لها لا يعرف منشؤها، ولا يدرك كنهها، ولا يحيط بماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه[٢] .

إن العبادة تعتمد أساساً على فطرة التدين في الإنسان ، والتى تبدو في الإحساس الخفي بوجود سلطان غيبى ، فوق قوى الكون ، وفوق الأسباب ، وصاحب هذا السلطان هو خالق السماوات والأرض، وما فيهما ، وهو مصدر النفع والضر، والمستحق لأن يعظم ويقدر .

إن الرسالات جاءت لتؤكد هذه الفطرة ، وترسم طريق استقامتها ، حتى لا تنحرف كما انحرفت من قبل حين اتجهت إلى عبادة صنم ، أو وثن ، تحسب أن له دخلا في هذا السلطان الكبير ... وبذلك أخذت الرسالات الناس إلى طاعة الله ، وتسليم الأمر له، وخلوص العبادة له وحده سبحانه وتعالى .

ولعل اهتمام الرسالات بالعبادات على أساس هذا المفهوم هو الذى سهل

---

(١) محاسن التأويل جـ٢ صـ٩ ، ١٠

(٢) تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده صـ٣١ ، ٣٣

للعابدين من اتباع سائر الرسل أن يتسموا بالمسلمين لما في عبادتهم من صدق ويقين فنوح ﷺ يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] .

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [2]

وإبراهيم ويعقوب يوصيان أولادهما ويقولان ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

ويوسف ﷺ يقول لربه ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[3]

وسليمان ﷺ يرسل إلى بلقيس قائلاً ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[4]

فلما أسلمت قالت ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5]

وإبراهيم ﷺ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[6] .

وحواريو عيسى ﷺ قالوا ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[7] .

ولا غرابة في هذه التسمية لأنها تتفق مع مفهوم العبادة في كثير من الجوانب إذ الأصل اللغوى لمادة الإسلام تحتمل معان ثلاثة :-

<u>أحدها : الانقياد والمتابعة :</u> وفي الحديث " أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ [8]" أى انقاد لى وكف عن وسوستى .

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[9] أى لا تقولوا ذلك لأنه صار منقاداً لكم ومتابعاً .

---

(١) سورة يونس الآية ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٨

(٣) سورة يوسف الآية ١٠١

(٤) سورة النمل الآية ٣١

(٥) سورة النمل الآية ٤٤

(٦) سورة آل عمران الآية ٦٧

(٧) سورة آل عمران الآية ٥٢

(٨) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب صفة الجنة والقيامة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ج١٧ صـ١٥٧

(٩) سورة النساء الآية ٩٤

الثاني: السلامة والأمانة : قال الأزهرى: المسلم من دخل في باب السلامة.

الثالث : قال ابن الأنبارى : المسلم معناه المخلص لله في عبادته ، فالإسلام هو الإخلاص لله في عبادته (١).

هذه المعانى المحتملة من لفظة الإسلام هى نفسها المعانى المستفادة من العبادة لأن العبادة فيها انقياد كامل لله ، وإخلاص للمعبود ، عن رغبة مستلزمة للأمن والسلامة ، يقول ابن تيمية " : إن العبادة تتضمن معنى الذل ومعنى الحب معاً، وأول مراتب الحب العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ثم العشق وآخره التتيم، يقال تيم الله أى عبده، فالمتيم هو الدليل المعبد لمحبوبه (٢) ويقول الرازى عند قوله تعالى ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾(٣) أي أسلمت وجهى لله فلا أعبد غيره، ولا أتوقع الخير إلا منه، وحبي كله له ولا أخاف إلا من قهره وسطوته، ولا أشرك معه غيره في العبادة (٤) .

وبذلك يتضمن إسلام الوجه الإخلاص ، وكمال العبودية ، وقصرها على الله وحده ، فدعوة الرسل إلى العبادة دعوة إلى الإسلام في الحقيقة .

والعبادات التى دعا إليها الرسل نوعان :

النوع الأول : محدد ، مقدر ، مكيف بنص مقدس ، لا يقبل التغيير والتبديل .

النوع الثانى: ليس كذلك ويدخل في دائرة الأخلاقيات المشتملة على كل ما هو حسن وصالح .

أما عن النوع الأول فيقول الغزالى عنه: إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة (٥).

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٦٣٨

(٢) رسالة العبودية لابن تيميه صـ٥

(٣) سورة آل عمران الآية ٢٠

(٤) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ٦٣٠

(٥) المنقذ من الضلال صـ١٨٥

ويقول العقاد عنها : أنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها[١].

والعبادات المحددة هي التى ما يلتمس أثرها ، ولا يطلب سرها، كالصوم والصلاة، والزكاة، والحج قد اتفقت الدعوات السابقة في وضع أصولها للناس حتى يتحقق الانقياد العملى ، ويظهر الإخلاص لله تعالى بها .

هذا هو سيدنا إبراهيم ﷺ دعا ربه أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة فيقول تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾[٢]

ومن الأوصاف التى استحق بها سيدنا إسماعيل ﷺ المدح إقامته للصلاة يقول الله تعالى ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[٣]

وحينما كلف الله موسى ﷺ بالرسالة كان أول ما أمر به هو الصلاة ، حيث قال الله تعالى له ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[٤]

وأمر هو وأخوه هارون بها، قال الله تعالى ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥] .

ومن وصايا لقمان لابنه قوله تعالى ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [٦] .

والصلاة أول ما نطق به عيسى في المهد إذ قال ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[٧] .

فترى الرسل قد كلفوا بإقامة الصلاة وبلغوا هذا التكليف .

إن الصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكررة ، في مواعيد ثابتة،

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ١٠٨

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٠

(٣) سورة مريم الآية ٥٥

(٤) سورة طه الآية ١٤

(٥) سورة يونس الآية ٨٧

(٦) سورة لقمان الآية ١٧

(٧) سورة مريم الآية ٣١

تحتاج إلى تدبر، وتذكر، وخضوع ولها هيئات خاصة كما يدل على ذلك لفـظ إقامة الذى أسندت إليه الصلاة وكيفية هذه الصلاة من ناحيـة الإحاطـة بهـا تحتمل رأيين :

الأول : أن يُطْلِع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة ، وتفاصيلها وهيآتها لتكون معلومة لديه ، ويعرفها لأمته ليعبدوا الله بها .

الثانى : أن لا يطلع الله الرسل على التفاصيل، وإنما يعرفهم بها في إجمال

وهذان الرأيان ذكرهما الرازى عند تفسيره لقولـه تعـالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ وقد ذكر الرازى في تفسير سورة لقمان: إن هذه الكيفيـة للـصلاة اختلفت هيأتها من رسالة إلى رسالة ، وإن اتحدت في حقيقتها وغرضها [١].

وسواء كانت الصلاة الإسلامية معلومة للرسل ، أو غير معلومة ، فإنه لا يمنع أن يكون هناك اشتراك في بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبلـة ، وإن اختلفت فلقد ثبت أن اليهود كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس في الـصلاة وثبتت مشاركة النبى ﷺ لهم في هذا الاتجاه بعد الهجرة سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحول إلى الكعبة في مكة[٢] ، وكالركوع ، والسجود فإن إبـراهيم عليه السلام قال ﴿ وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [٣] .

ومريم نوديت ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٤]

وداود عليه السلام ﴿ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴾[٥] .

وكتأدية الصلاة في مكان طاهر ، كالمسجد ، والبيع ، والكنائس.

والزكاة أيضاً بمعناها البسيط الذى هو إعطاء المحتاج جزء مـن المـال معونة له جاءت أصولها في الرسالات السابقة .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٦ ، صـ١٨ ، جـ٦ صـ٨٦٣
(٢) لباب النقول في أسباب النزول جـ١ صـ٢٣ ، ٢٤
(٣) سورة الحج الآية ٢٦ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٤٣
(٥) سورة ص الآية ٢٤

فعن إبراهيم وابنه إسحاق يقول تعالى ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [١]

ومن صفات إسماعيل عليه السلام وصلاحه ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [٢] .

ومن أقوال المسيح في مهده ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[٣]

وجاء في العهد القديم " **أنصفوا المسكين، والبائس، نجوا المسكين، والبائس** "[٤].

وجاء أيضاً " **من يرحم الفقير يقرض الرب** "[٥] .

وجاء في العهد الجديد " **بع أملاكك وأعط الفقراء فسيكون لك كنز في السماء**[٦] " وجاء فيه أيضاً " **تعالوا يا مباركى أبى ، ورثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لأنى جعت فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى، كنت غريباً فآويتمونى، عرياناً فكسوتمونى ، مريضاً فزرتمونى ، محبوساً فأتيتم إلى .**

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ؟ أو عطشاناً فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك؟ أو عرياناً فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟

فيجب الملك ويقول : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر في فعلتم [٧] .

والصيام معروف في الرسالات السابقة يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٨] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٣

(٢) سورة مريم الآية ٥٤

(٣) سورة مريم الآية ٣١

(٤) مزامير دواد الإصحاح ٧٣ فقرة ٤

(٥) الأمثال إصحاح ١٩

(٦) إنجيل متى الإصحاح ١٩ فقرة ٢١

(٧) إنجيل متى ، الإصحاح ٢٦ فقرة ٣٤ - ٤٠

(٨) سورة البقرة الآية ١٨٣

والحج منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام معـــروف للناس بعد أمر الله له ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[١]

وعلى هذا فأصول العبادات موجودة في جميع الرسالات السابقة ، وبيان وجودها منذ القديم يفيد تقبلها عن المتأخرين، لأن العبادة تكليف ومشقة والشئ الشاق إذا عم سهل تحمله والأمر الذي سلم به البعض ييسر للبعض الآخر التسليم به، يقول أبو السعود: في ذكر العبادات تأكيد للحكم وترغيب فيه، وتطييب لأنفس المخاطبين [٢].

وكما سبق من اختلاف كيفية القول في الصلاة فالقول في كيفية باقي العبادات على نمطها.

إن جميع الرسالات جعلت الصوم إمتناعاً عن المفطرات في وقت معلوم، والتشبيه الوارد في قوله، ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يفيد المماثلة في أصل الوجوب أو في الوقت، أو في المقدار، وقد رجح الفخر الرازى أن المماثلة في أصل الوجوب فقط، لأن الكيفية تختلف على حساب استعدادات المكلفين وقدراتهم [٣] .

ويكفي أن تعلم أن الكيفيات التى وضعت فيها العبادات سابقاً كانت تتضمن الإنقياد لله، والامتثال المطلق لأمره في النفس، والمال، وكافة ما يستطيعه البشر

والعبادات الإسلامية تتحد مع أصول العبادة عموماً ، وتقصد أهدافها تماماً وقد جاءتنا مفصلة الهيئات، معروفة بدقة من ناحية الوقت، والكيفية، والمقدار .

---

(١) سورة الحج الآية ٢٧

(٢) تفسير أبي السعود جـــ٦ صـــ١٠٤

(٣) مفاتيح الغيب جـــ٢ صـــ٦٧١

- المبحث الخامس -

الاهتمام بمكارم الأخلاق

تعتبر الأخلاق جانباً حيوياً وهاماً في كل رسالة سماوية ولم تكتف واحدة منها بتصحيح العقائد والشرائع بل وصل اهتمامها بالأخلاق أن ظهرت الدعوة إليها مقترنة بظهور الدعوة إلى التوحيد، وكانت المناداة بالأخلاق متزامنا مع الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله .

ومن المعروف أن صدق التوحيد ، وإخلاص العبادة ، يستتبعان بالضرورة أخلاقاً نقية عالية .

والرسل صلوات الله عليهم خير للناس، اصطفاهم الله تعالى لنشر المكارم الأخلاقية، وركز في طباعهم السمو النفسى والأخلاقى الذى جعلهم مستعدين للقيام برسالتهم .

يحدد الرسول الخاتم ﷺ منزلة الخلق في الرسالات فيقول ﷺ " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [١] .

فهو ﷺ متتم لمن سبقه من الرسل ، وكأن الهدف من كل رسالة هو نشر جانب أخلاقى ما ، وجاءت الرسالة الخاتمة متممه لهدف هذه الرسالات بتكميل مكارم الأخلاق كلها .

وقد بدأ الرسل دعوتهم إلى الأخلاق مع بدء الدعوة إلى التوحيد ، حتى يصنعوا بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهواتها ، والقلب وهواه ، ويرسموا للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل والصلاح .

وإنما بدأوا هكذا لأن الإيمان بالله قرين الأخلاق، كلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً، وطاعة مطلقة لله تعالى، وتجنب المظالم، وإنصاف النفس من كل ما يشينها ويرديها، وكلاهما يستوجب أن يتحلى بالآخر، ولا يكمل الآخر إلا مع الأول، ولذلك لم يبعث الله رسولاً إلا إلى قوم فسدت أخلاقهم وضلت عقائدهم، وعاثوا في الأرض فساداً واستكباراً، في هذا الوقت تعمل الرسالة على إصلاح هذا

---

(١) موطأ مالك بشرح الزرقاني باب ما جاء في حسن الخلق جـ٤ صـ١٢

الحال مع الدعوة إلى الإيمان .

هذا هو سيدنا نوح ﷺ بعث في قوم ضلت عقائدهم وفسدت أخلاقهم ، وأخذوا في تلقين ناشئتهم هذه المبادئ الضالة في العقيدة والأخلاق ، يبينها سيدنا نوح ﷺ في قوله لربه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[١] .

ويقول تعالى ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[٢]

فمن هذه الآيات نعلم أن قوم نوح كانوا أئمة في الضلال ، ورؤساء في الكفر ولذلك نادى نوح ربه أن لا يدع أحداً منهم ، لأنه إن تركهم أضلوا عباده، وإن ولدوا نشأوا أولادهم على الشرك والمعصية ،ولا غرو فقد استمرأوا المعصية وألفوها.

يقول أبو السعود: إنهم أصروا على المعاصي والكفر، واستكبروا استكباراً شديداً عن الإتباع والطاعة[٣] ولوضعهم هذا طلب الرسول منهم أن يعبدوا الله ويتركوا المعاصي وقال لهم ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤]

وهود ﷺ دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[٥].

وفي نفس الوقت، أمرهم بأن يتوبوا عن المعاصي ويستغفروا الله عن

---

(١) سورة نوح الآية ٧
(٢) سورة الحج الآية ٢١ إلى ٢٤
(٣) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١١٧
(٤) سورة نوح الآيتان ٣ ، ٤
(٥) سورة هود الآية ٥٠

الذنوب، ولا يصروا على الإجرام والظلــم، فقال لهم ما حكاه الله تعالى فى قوله سبحانه ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾(١) .

ولقد دعا هود قومه إلى التوبة ، والاستغفار مع دعوتهم إلى التوحيد ، لأنهم عتوا عتواً كبيراً ، واستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا غروراً وتعالياً ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؟

وصالح ﷺ بعثه الله لقومه فطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد وينبذوا فاسد الأخلاق ويتوبوا عنها ، فقال لقومه ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾(٢) .

فطلب إليهم أن يوحدوا الله ويعبدوه ويرجعوا عما كانــوا يباشــرونه من القبائح الأخلاقية ، وقد جاء النظم في الآية مهتماً بالتوبة حيث ذكر العلة الباعثة عليها وهى أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها وجعل عقبها مباشرة الغاية المرجوة ﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ (٣) .

ووضح صالح ﷺ أن هذه الغاية وتلك العلة داعيتان إلى توحيد الله وعبادته، والبعد عن الضلال والسفه بصورة تلقائية ، فقد وضعتهما الآية حول الأمر بالتوبة للإشارة إلى أهمية هذا الأمر ، وضرورته للتوحيد ، ولبيان مدى ما يترتب عليها من فائدة .

وقد أخذت التوبة هذه الأهمية لأن قوم صالح عتوا عتواً كثيراً ، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، في الوقت الذى تمتعوا فيه بنعم من الله وفيرة إذ خلفوا عاداً وطالت أعمارهم، وكثر رخاؤهم، ونحتوا من الجبال بيوتاً وحصوناً،

---

(١) سورة هود الآية ٥٢

(٢) سورة هود الآية ٦١

(٣) تفسير أبى السعود جـــ٣ صـــ٣١

واتخذوا من السهل قصوراً ومساكن ، فكان لابد أن يذكرهم بهذه النعم عند دعوتهم كما قال لهم ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(١) .

وهكذا دعا صالح عليه السلام قومه إلى التوحيد وفي نفس الوقت دعاهم إلى ترك الفساد والاستكبار .

وشعيب عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد واستقامة الأخلاق حيث قال لقومه ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢) فنراه عليه السلام قد بدأ بإصلاح العقيدة وقفي عليها بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ،والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا ، وأن يبتعدوا عن كل إفساداتهم بعد ذلك ، جاء في دعوة الرسل إلى الله تعالى أن المراد بالبخس النقص، والأشياء أعم من المكيل، والموزون كالمواشى والمعدودات .... ويشمل البخس المساومة، والغش ، والحيل ... والإفساد في الأرض يتضمن أكل أموال الناس بالباطل، والبغى، والعداون على الأنفس والأرض وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة، والباطنة، وقد نهاهم شعيب عن كل هذا وختم قوله لهم بقوله ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وكأن مقتضى الإيمان يستلزم التمسك بالطيب الحلال ، والبعد عن الخبيث المحرم (٣).

وهكذا جمع شعيب في أول دعوته بين المناداة بالتوحيد والمناداة بالأخلاق كسائر الرسل عليهم السلام .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٥

(٣) دعوة الرسل إلى الله صـــ١٥٥إلى ١٥٧ بتصرف

و"لوط" عليه السلام يبدأ دعوته بأن يستنكر على قومه مفاسدهم، فطالبهم بتنقية أخلاقهم مع مطالبتهم بالتوحيد ، ذلك لأنهم كما ذكر صاحب قصص الأنبياء كانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله ، حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء ولا يرون في ذلك سوءاً أو قبحاً فيعلنونه ولا يستترون[١] فهم في هذا الباب فريدون لا سابق لهم ، وقد بين الله لهم هذه الحقيقة بقـوله تعـالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] .

فهم يعلنون الفاحشة الظاهر قبحها من دون سائر الناس ، ولا يرتدعون أبداً، ولقد وصفهم لوط بسبب هذا بصفات عدة ، إنكاراً منه لعملهم ، وتوجيهاً لهم إلى الخير فقال لهم ، مشيراً إلى إسرافهم في الفاحشة وتجاوزهم الحد المعقول ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[٣] .

وأشار إلى تعديهم حدود العرف والعقل فقال لهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[٤]

وعرفهم ببعدهم عن الحقيقة وجهلهم فقال لهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[٥]

فهم في الواقع سفهاء ، ومسرفون ، وجهلاء ، وقد حاول لوط عليه السلام أن يوقظ فيهم حمية الشرف والكرامة بأوجه متعددة .

فسألهم أولاً على وجه الإنكار وقال لهم ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦]

وذلك ليثير في أنفسهم محاولات فهم موضوع السؤال ، **ذلك أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه**، مما يؤدى به إلى استكراه ما يفعلون ، وكان عليه السلام يسألهم ويعرفهم أنه

---

(١) قصص الأنبياء صـ١١٣

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٨

(٣) سورة الأعراف الآية ٨١

(٤) سورة الشعراء الآية ١٦٦

(٥) سورة النمل الآية ٥٥

(٦) سورة الشعراء الآية ١٦٥

لا نظير لهم ، فيقول ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، ويشير ﷺ في سؤالهم إلى ضرورة أن يعملوا فكرهم وبصرهم فيسأل ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[2]

ووجههم ثانياً إلى وجوب التسامى بغريزتهم وبذلها في حلال ، لأن الشهوة إن بذلت في موضعها المشروع فهى صفة حسن ، وإن بذلت في غير المشروع فهى فحشاء وصفة قبيحة، وقد أراد ﷺ أن يعودهم التسامى بالشهوة لينتقلوا بها من الفحشاء إلى الحسن، فقال لهم عند حضور أضيافه وقد أرادوا الاعتداء عليهم قال لهم : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[3] يقصد ﷺ أن يتزوجوهن بالطريق المشروع، ومما يؤكد هذا المقصد لفظ " أَطْهَر " لأن لقاء البنات والنسوة لا يكون طاهراً إلا بالمشروع، ومن سفه القول أن يتصور أحد أنه ﷺ يريد استبدال اللواطة بالزنا، حتى لو أريد ببناتى بنات الكفار مع قومه ، لأن الرسول لا يستبدل خطأ بخطأ ، وإنما يجتث الخطأ من جذوره .

وأيضاً كون المقصد هو الزواج المشروع أولى من أن يكون المقصد هو البنات بلا زواج ، عن طريق عرض سريع بلا إلحاح ، ليبين لهم فساد ما هم عليه ويستدرجهم إلى الفضيلة في نهاية عرضه ، لأن عرض البنات هكذا مؤد إلى الخجل فينصرفوا ، ويتركوا أضيافة .

وإنما قلنا إن القصد الأولى بالاعتبار هو الزواج المشروع لأنهم قوم فقدوا الحياء كلية، وامتلأوا سفها وجهلاً وعدوانا، يأتون المنكر في ناديهم، ويهددون رسولهم بالطرد، وهؤلاء لا حياء عندهم ولا خجل كما أن استدراجهم إلى الفضيلة لا يفيد، وقد عرف الله لوطاً بحقيقة القوم فكيف ينتظر منهم ﷺ حياء ولا خجلاً ؟

وبذلك تعين أن يكون قصد لوط ﷺ هو الزواج المشروع كما نص عليه

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٠

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٥

(٣) سورة هود الآية ٧٨

أبو السعود في تفسيره ، واستبعد أو ضعف ما عداه [١].

وهكذا اتجه لوط إلى تعليم قومه الأخلاق مع دعوتهم إلى التوحيد ولا عجب فإن الرسل جميعاً اهتموا بالأخلاق .

ومن بعد سيدنا لوط رأينا موسى عليه السلام يدعو إلى الأخلاق ويقول لفرعون ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[٢] فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر والطغيان عن طريق خشية الله ، وقد خاطبه بأسلوب الاستفهام ليستدعيه بالتلطف في القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[٣] .

وعيسى عليه السلام لما سأله أحد الفريسيين قائلاً : " **يا معلم أية وصية هى العظمى في الناموس ؟ فقال له يسوع : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هى الوصية الأولى العظمى ، والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ، فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس ، كله والأنبياء** [٤].

وهكذا دعاهم إلى الله ومكارم الأخلاق وقد وضح ذلك في القرآن الكريم وهو يحكى إجابة عيسى لله تعالى فيقول ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٥] .

وقد ضمنت آيات كثيرة التوحيد والخلق معاً وجاءت أمراً إلى الأمة الإسلامية ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٣ صـ٣٦

(٢) سورة النازعات الآيتان ١٨ ، ١٩

(٣) سورة طه الآية ٤٤

(٤) انجيل متى الإصحاح الثاني والعشرون الفقرات ٣٧ - ٤١

(٥) سورة المائدة الآية ١١٧

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١] .

ومثل هذه الآية كثير في القرآن الكريم، وكله يوضح الاهتمام بالخلق مع التوحيد .

وكان الرسل صلوات الله عليهم في دعوتهم إلى الأخلاق يبدون صورة عملية لما يدعون إليه، ولذلك امتازوا بالأخلاق الفاضلة التى قصها لنا القرآن الكريم .

فالأمانة وهى من أمهات الأخلاق اتصف بها جميع الرسل قبل بعثتهم وبعدها، وظهرت معهم كلازمة من لوازم حياتهم ، واشتهروا بها بين أقوامهم ولذلك رأينا الرسل حينما يقابلهم الناس بالتكذيب والإيذاء يذكرون لهم ما عرفوا به لديهم ، من أمانة واضحة قبل الرسالة ، وهى معهم بعد الرسالة بالضرورة، وقد قال كل رسول لقومه ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[٢] يقول أبو جيان هذه الآية علة معلولها ما تقدمها من عرض الرسول تقوى الله عليهم، وعلة هذا معلولها تقتضى أن تكون معروفة، ومعهودة، لدرجة تدفع إلى الإيمان بالمعلوم فالرسول مشهور بين قومه بالأمانة[٣]وكأنه يقول لهم بهذه الآية: **كنت أميناً من قبل فكيف تتهمونى اليوم ؟**[٤] لأن الكفار لا يستطيعون إنكار ما اشتهر به رسولهم ، ولذلك حاولوا إزالة الصفات المعروفة عن الرسل بدعوى حدوث أمور عارضة منعت استمرار هذه الصفات المسلم بها من قبل، كدعوى الإصابة بالجنون، أو بالمس بالشياطين [٥].

من أمثال قول قوم نـــوح عنه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٦] فذكروا أنه أصيب بجنون .

وأيضاً قال قوم هود ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٧

(٣) البحر المحيط جـــ٨ صـــ٣١

(٤) تفسير أبي السعود جـــ٤ صـــ١٢٣

(٥) مفاتيح الغيب جـــ٦ صـــ٥٣٣

(٦) سورة المؤمنون الآية ٢٥

ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[١] واكتفي قوم صالح بتذكيره بأنه كان قبل البعثة محل رجائهم وأملهم وقالوا ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[٢]

وهكذا كانت الأمانة أولى الصفات التى ظهرت في أعمال الرسل وحياتهم لشمولها وأهميتها ، ولذلك حاول المعارضون ردها ، وعقدوا من أجل إبطالها المؤتمرات والاجتماعات ، كما فعل القرشيون مع محمد ﷺ الذى اشتهر بالأمانة فإنهم اجتمعوا من أجل وضع وصف له يشيعونه بين الناس والأعراب ليصدوهم عن استماعه ، اجتمعوا ولم يجدوا إلا الاتهام بالسحر وقالوا عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[٣] .

ورغم كل هذه الدعاوى المفتراه والسفاهة الواضحة من المعــارضين لســائر الرسل لم نجد إلا لينا وتسامياً من الرسل عليهم السلام فلم يردوا على معارضيهم بقول غليظ، أو عمل شديد وكل ما ردوا به هو نفي التهمة المستحدثة، وبيان أنهم رسل الله، وذلك كرد نوح عليه السلام حيث قال ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤] وكرد هود حيث قال ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥]وأما صالح عليه السلام فإنه تولى عنهم ﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٦] وكذلك كان لين شعيب حيث استمع إلى معارضة قومه وتهديداتهم ثم كانت النهاية ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[٧] .

---

(١) سورة هود الآية ٥٤
(٢) سورة هود الآية ٦٢
(٣) سورة المدثر الآية ٢٤
(٤) سورة الأعراف الآية ٦١
(٥) سورة الأعراف الآية ٦٧
(٦) سورة الأعراف الآية ٧٩
(٧) سورة الأعراف الآية ٩٣

وسيدنا إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾[١] وعلى نمط هذا اللين والتسامح كان سيدنا محمد ﷺ .

وكما اشتهر الرسل بالأمانة اشتهروا كذلك بالعفة فلم يمدوا أيديهم على شئ عند الناس ولم يحسدوا أحداً على ما آتاه الله من فضله ، ولم يأخذوا أجراً على دعوتهم ، ولم يكونوا عالة على أحد قط ، فلقد رعى جميعهم الغنم يتكسبون لمعاشهم ويستغنون بها عن عطاء الناس ، يبين النبى ﷺ ذلك حين سأله جابر رضي الله عنه : **أَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ ؟**

قَالَ ﷺ : نَعَمْ وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَاهَا [٢] .

يقول السهيلى وإنما جعل الله هذا –رعى الغنم– في الأنبياء ليكونـــوا رعاة الخلق بعد ذلك، وليكون الخلق الكريم ديدنهم[٣]، هذا وقد أكد الرسل جميعاً لأقوامهم أنهم لا يأخذون أجراً على دعوتهم، ولا يطلبونه البتة، وذكروا ذلك في وضوح حيث قالوا جميعاً لأقوامهم ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤] .

وكما جبلوا على الأمانة والعفة اشتهروا بالصدق ومن أجل تأكيد صدقهم أتتهم المعجزات الخارقة للعادة لتكون دليل صدق على البلاغ .

يقول صاحب المواقف: أجمع أهل الملل والشرائع على عصمة الأنبياء من تعمد الكذب فيما دل على صدقهم فيه ، كدعوى الرسالة فيما يبلغونه عن الله[٥] ، ولابد من صدقهم في هذا لئلا تبطل فائدة الرسالة إذ لو جاز كذب النبى في الأحكام التبليغية لبطلت دلالة المعجزة على صدقه فيما أتى به من الله مع أن دلالة المعجزة على صدقه دلالة عادية قطعية [٦] .

ولقد مدح القرآن سائر الرسل وأظهر صدقهم فقال تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) سورة مريم الآية ٤٧

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب يعكفون على أصنام لهم جـ٤ صـ١٩١ ط الشعب .

(٣) الروض الأنف جـ١ صـ١٧٨

(٤) سورة الشعراء الآية ١٠٩

(٥) شرح المواقف جـ٢ صـ٢٠٤

(٦) شرح العلامة عبد الحكيم جـ صـ٤٦٧

إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[١] وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[٣] .

وهكذا وصفهم القرآن بالصدق بصيغة المبالغة ، مع تقديم هذه الصفة في الذكر على النبوة ، لأن النبوة متوقفة عليها ، ولن تكون بدونها ، ولم يحدث عملياً أن كذب نبى قط، وما جاء من أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات مثل ما روى مسلم والبخارى عن أبى هريرة من عدة طرق أن رسول الله ﷺ قال – واللفظ للبخارى – " **لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلُهُ إِنِّي سَقِيمٌ وَقَوْلُهُ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا وَقَالَ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنْ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ مَنْ هَذِهِ ؟**

قَالَ : أُخْتِي .

فَأَتَى سَارَةَ قَالَ : يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي [٤] .

هذا الذى جاء منافياً للصدق الدائم لرسل الله يجعلنا نحمله على معاريض القول .

والمعاريض نوع من البديع، معناه أن يدل اللفظ على معنيين أحدهما صدق ينويه المتكلم في نفسه ، والثانى كذب يسكت المتكلم عن نفيه إسكاتاً للمجادل ، وحمل الحديث على المعاريض يجعلنا لا نكذب الحديث ولا نكذب إبراهيم عليه السلام وتأويل الكلمات على مفهوم المعاريض ممكن لأن معنى "**إنى سقيم**" مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع على الكفر ، ومعنى قوله " **بل فعله كبيرهم هذا** "

---

(١) سورة مريم الآية ٤١

(٢) سورة مريم الآية ٥٤

(٣) سورة مريم الآية ٥٦

(٤) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق ، باب "واتخذ الله إبراهيم خليلا " جـ٤ صـ١٤١ ، صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب إبراهيم عليه السلام جـ١٥ صـ١٢٣

إسناد الفعل إلى نفسه لا إلى الصنم .

يقول الزمخشرى : إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه[١]، وقوله "هى أختى" أى أختى في الإسلام، وقد ورد في لفظ رواية مسلم " **فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ** "[٢] .

هذا وقد قال الرازى في تفسيره ، إن الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض[٣] ومن المعلوم أن ما في المعاريض من صور الكذب ليس كذباً في الحقيقة وقد جمع البخارى صوراً منها وترجم لها بعنوان " باب المعاريض مندوحة من الكذب [٤] " .

وهكذا كان الأنبياء صادقين ، وأمناء ، وأصحاب عفة ، وقد جمعوا سائر الأخلاق الفاضلة فلما جاء خاتمهم محمد ﷺ أتم الأخلاق بكل جديد أتى مع التطور وقال : " **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ** "[٥].

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٥٧٧ (هامش صـ٦٨ من أصول الدعوة)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب إبراهيم عليه السلام جـ١٥ صـ١٢٤

(٣) تفسير الرازى جـ٦ صـ٩٨

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب الأدب جـ٨ صـ٥٩ باب المعاريض مندوحة عن الكذب .

(٥) موطأ مالك باب ما جاء في حسن الخلق جـ٤ صـ٩٢

الفصل الثالث

الفوائد المترتبة

على ذكر الدعوات الإلهية

تمهيد :

تعرضت الدعوة الإسلامية بعد ظهورها لسيل من التكذيب، وتلقى المسلمون ألواناً كثيرة من التعذيب، ولم يقف الخصوم عند حد فأنكروا النبوة، وكذبوا النبي ﷺ وعذبوا المسلمين، ومنعوا أتباعهم من الإيمان، واضطهدوا من يجرؤ ويدخل في الإسلام، فكان من حكمة الله تعالى أن بين في القرآن المكي ما يؤيد الدعوة، ويفيدها، وذلك بذكر الدعوات السابقة، وبيان موضوعها، وموقف الناس يومئذ منها، وكيف انتهى الأمر بينهم وبينها، ليبين كذلك خطأ ما عليه معارضو الإسلام، وقد أبقى الله هذا الذكر خالداً في القرآن الكريم ليستمر أثره، وتدوم فائدته .

وفى العصر الحديث نجد اليهود والنصارى في مقدمة أعداء الإسلام رغم أن الإسلام جاء مصدقاً لرسالة موسى وعيسى عليهما السلام، ومكملاً الدين بوحي الله تعالى، وكان الأمل أن يكون أهل الكتاب في مقدمة المؤمنين بالإسلام لأنهم بالإسلام يزدادون إيماناً برسلهم، ويصدقون بدعواتهم ويضيفون إليها كمالاً وجمالاً آتاهم من عند الله تعالى .

لكن هذا الأمل لم يتحقق إلا قليلا ... بل نجد من أهل الكتاب هجوماً شرساً على الإسلام، وعدم استجابتهم لدعوته ولذلك سأحاول أن أبين في هذا الفصل الآثار والفوائد التي يتصورها العقل السليم حين يقف على وحدة الأصول بين الأديان جميعاً، وسوف أتناول أهم هذه الفوائد في هذا الفصل حيث أعقد لكل فائدة منها مبحثاً خاصاً والفوائد هي :-

١) إظهار الترابط بين الإسلام والدعوات السابقة .

٢) إثبات النبوة والرسالة لمحمد ﷺ .

٣) تثبيت النبي ﷺ والدعاة من بعده .

٤) دفع الناس إلى الإيمان .

٥) ضرورة استمرار الدعوة إلى الإسلام .

وسنذكر هذه المباحث على النحو التالي :-

المبحث الأول
إظهار الترابط بين الإسلام والأديان السابقة

تتفق الأديان الإلهية كلها في محاولة النهوض بالإنسانية عن طريق تحقيق السعادة وإقرار السلام، ولأن الهدف في الجملة واحد عند سائر الأديان فإنها ترابطت في دقة، وتماسكت في تعاون واضح، وبدت كسلسلة متشابكة مكونة من مجموعة من الحلقات، حيث يمثل كل دين حلقة فيها، وهي مع زميلاتها تعطي تكوينا متكاملاً يستفاد به، ولذلك قامت كل دعوة بدورها في هذا الترابط حيث تكمل ما سبقها وتصدقه، وتمهد لما سيأتي بعدها، لأن كل رسالة قبل الإسلام كانت تصدق بسابقها وتكمل بما يطاق، وتمهد للاحق الآتي من رسالات الله[١] فلما جاء الإسلام كمل الرسالات وختمها، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا التكامل بقوله " **مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ** " [٢] وهكذا فصاحت الدار هو الله سبحانه وتعالى والأنبياء برسالاتهم لبنات فيه والنبي ﷺ ودعوة الإسلام تمام هذا البناء وآخر اللبنات، واللبنات كلها تتضافر في إعطاء البيت كماله الدقيق، وجماله اللافت للعقول المدركة، والحسن الجميل والإبداع الدقيق في تلاقي كل اللبنات في بناء واحد كامل وتام، ونهاية الحسن والجمال يكون باللبنة الخاتمة في بناء الله العظيم الذي جعله الله دعوة النبي محمد ﷺ ،واتحاد الدعوات بهذه الصورة يظهر مدى الترابط بينها، ولذلك لما تم الدين بالإسلام قال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[٣].

فاستعمال لفظ الكمال والتمام يشيران إلى اشتمال الدين على مجموعة من الأجزاء إذا وجدت جميعاً تحقق الكمال والتمام، فكمال الدين يفيد تحقيق معانيه وذاته بلا نقص، وتمام النعمة يفيد اجتماع الأجزاء كلها.

---

(١) المدخل إلى دراسة الأديان صـــ١٣ .

(٢) صحيح مسلم جـــ٧ صـــ٦٤ و ٦٥ كتاب الفضائل باب ذكر أن النبي ﷺ خاتم النبيين .

(٣) سورة المائدة الآية ٣ .

وقد أشارت كتب أهل الكتاب إلى هذا الترابط وهي تحكي أقوال الرسل عليهم السلام لأقوامهم، جاء على لسان عيسى عليه السلام " **لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل**[١] " وعلى لسانه عليه السلام يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٢] فنرى أن عيسى لم يهدم ما سبق بل صدقه، وحاول إتمامه، وبشر برسول يأتي من بعده اسمه " أحمد "[٣].

والكتب بدورها لأنها لسان الدعوات لا تعارض بينها في قواعدها وأهدافها فعن التوراة يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾[٤].

وعن الإنجيل يقول الله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٥].

فشأن الإنجيل تصديق التوراة واشتماله على الهدى والرشاد الملائم لعصر نزوله، وكذلك القرآن يقول الله تعالى عنه ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾[٦].

فالقرآن الكريم لا يكذب كتاباً سبق وإنما يصدقها جميعاً ويهيمن عليها، لأنه يرقبها، ويشهد لها بالصحة والثبات، ويبطل ما دخل عليها من تحريف وزيف، ويذكر أصول شرائعها وفروعها الدائمة وبعض المؤقتة، فهو بذلك حافظ

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس فقرة ١٧ .

(٢) سورة الصف الآية ٦ .

(٣) أحمد افعل تفضيل من الحمد أي أن له حمداً كثيراً كما يفيد مسماه وهو مفهوم لفظ "فارقليط" المبشر به في الإنجيل انظر قصص الأنبياء صـ٣٩٨ .

(٤) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٥) سورة المائدة الآية ٤٦ .

(٦) سورة المائدة الآية ٤٨ .

وحارس ومهيمن عليها جميعاً، وتلك هي ميزة القرآن الكريم وحده[١] من بين سائر الكتب .

ولا ينقض كون الكتاب يصدق الكتب التي سبقته ما يرى من مخالفات في بعض الجزئيات بين هذه الكتب لأنها ليست مخالفة في الواقع، ويكفى أن كل جزئية في عصرها كانت حقاً ولأن الجزئيات من قبيل الشرائع المتغيرة تبعاً لتغير البيئات والعصور، كل ذلك ما لم تكن المخالفة بسبب التحريف .

والمعجزات التي تظهر على يد الأنبياء لا تتناقض هي الأخرى يقول ابن تيميه: إن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة نبي آخر، وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه، ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً، فما أتى به الأول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به، وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم "[٢].

إن الإحاطة بهذا الترابط الحقيقي توجد فوائد متعددة للدعوة الإسلامية فهي تظهر حقيقتها، وتناسبها في السلسلة الواحدة، وعدم تناقضها مع أية دعوة سماوية أخرى، بل إن إقرارها لمبادئ الدعوات السابقة يسهل لأهل الكتاب أن يؤمنوا بها لأنهم سيجدون أنفسهم معها مؤمنين بسائر الرسل، وبكافة الكتب، وبكل الأساسيات التي آمنوا بها من قبل لأن المسلمين بحق هم الذين يوصفون بقوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٣].

أما الذين يفرقون بين الأديان فهم الكافرون يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٣٢ بتصرف

(٢) النبوات صـ٢١ ، ١١٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥

وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1].

وما دام المسلمون هم هؤلاء الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله بلا تفرقة فإن الشأن يقتضى أن يندفع أهل الكتاب إلى الإسلام .

ويتعجب الشهرستاني من موقف أهل الكتاب وعدم إسلامهم ويقول : "**ومن العجب أن من رأى غيره يصدق ما عنده ويكمله ويرقيه من درجة إلى درجة كيف يسوغ له تكذيبه**"[2].

إن ذكر الدعوات السابقة في القرآن تعريف بالدعوة الإسلامية أولاً، وتحقيق جو صالح للإيمان بها عند المؤمنين برسالة سابقة ثانياً، ثم إن وضعها في إطارها الموضوعي يحقق لها التجانس مع الفكر البشري، والملاءمة مع دين الله الواحد الذي تنزل من قديم، وهذا يحقق لها كثيراً من القبول والتأييد .

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) الملل والنحل جـ١ صـ١٩٥ .

المبحث الثاني
إثبات الرسالة والنبوة لمحمد ﷺ

النبوة أساس الدعوة وسبيلها، وطريقها المؤدي إلى تنزل الوحي الأعلى على البشر في الأرض، وكان العرب في مكة يعتقدون أن الواسطة ضرورة للإتصال بالإله فاتخذوا أصنامهم لتقربهم إليه، فلما ظهرت الدعوة الإسلامية ونودي في الناس أن محمداً هو النبي المختار لتلقي الوحي من الله، أنكر العرب أن تكون النبوة لبشر، وأن تكون لمحمد من بين سائر البشر، وبنوا إنكارهم على فكرتين توهموهما صواباً هما :

الأولى : النبوة شرف كبير، ومنزلة خاصة لا ينبغي أن تكون للبشر، وشأنها أن تكون خاصة بالملائكة وحدهم .

الثانية : وحتى لو جاءت النبوة لبشر فإنه لا يصح أن يكون من أقلنا بل اللازم أن يكون من أغنيائنا، وسراتنا، ولتوهمهم الصدق في أفكارهم أخذوا يجادلون عنها ويتعجبون ويثيرون من حولها المناقشات الساخرة، وقد صور القرآن الكريم موقفهم فقال تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾[١]

والناس هم كفار مكة، وقد اتخذوا العجب من هذا الشأن ملهاة دائمة، وأمراً يتكلمون فيه ليلاً ونهاراً مما جعل القرآن يؤثر اللام بدل عنه في قوله " **للناس** " يقول الرازي : إن اللام تفيد أن القوم جعلوا الإنكار لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها، نصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه[٢] حتى صار نشاطهم له خاصة وركزوا عجبهم في كون الرسول رجلاً، وفى أنه منهم.

ولم يكن مصدر هذا كله عندهم إلا لأن المبعوث بشر من جنسهم، يروي الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً[٣]. وهذا مصداق قوله تعالى حاكياً

---

(١) سورة يونس الآية ٢ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٧٧٧

(٣) تفسير ابن كثير جـ٥ صـ٩٦ هامش الجامع لأحكام القرآن جـ٨ صـ٣٠٦ .

مـــوقفهم ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[١]
ومصدر عجبهم أن الرسول بشر، وهو واحد منهم، ولذلك عجبوا حالاً، ومقالاً
وقالوا ﴿ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وتوقفوا عن الإيمان بنبوة البشر ابتداء وتـساءلوا فـي
إنكار قائلين ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[٢] بل أنكروها صراحة ﴿ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾[٣].

ولم يكتفوا بالإنكار بل طالبوا أن يكون الرسول ملكاً تؤهله طبيعته للرسالة
والوحي، ورأيهم هذا قائم على جهل بالحق والواقع، فهم يضعون إرادتهم فـي
موضع إرادة الخالق " وحاشاه " ولم يفكروا في كيفية اتصال الملك بهم، فلمـا
بحثوا عن كيفية اتصالهم بالملك اقترحوا اقتراحاً وسطاً، وهو أن ينزل الله مـع
البشر إذا أرسله ملكاً، يشاركه الرسالة، ويصدقه في دعوته، فقالوا ما حكاه الله
في قوله ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[٤].

ومع هذا الاقتراح أنكروا أن يكون البشر هو محمد ﷺ لأنه فقير يتيم،
رعى الغنم بأجر، وتاجر في أموال الناس بمقابل، وذكروا أن البشر الرسول
يجب أن يكون غنياً، ذا وجاهة في الناس واقترحوا بديلاً لمحمد في أحد عظماء
مكة أو الطائف ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٥].

وعينموهما في الوليد بن المغيرة المخزومي، وعروة بن مسعود الثقفي، أو
في غيرهما ممن جمع العظمة بالجاه والمال .

ولم يتضمن قولهم هذا اعترافاً بالقرآن الكـريم، ولكنهم يردونه متعللين

---

(١) سورة ق الآية ٢

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٩١ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٧ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٣١ .

بالسبب، وهو أنه لو كان قرآناً لنزل إلى أحد هؤلاء، لتتناسب جلالة الرسالة مع جلال الشخص من حيث المال والجاه[١] .

ولم يتركهم القرآن في غيهم وإنكارهم بل رد عليهم، وأفحمهم، وعرفهم أن الرسالة تقتضي تجانساً بين الرسول والمرسل إليهم لكي يفهم مشاعرهم وخواطرهم، وحتى تتحقق بينهما وحدة في الخطاب، وفى الفهم، وفى كافة الأحاسيس، وما دام المرسل إليهم بشر فلابد أن يكون الرسول بشراً، ولا يكون ملكاً إلا إذا بعثه الله إلى الملائكة، يقول الله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[٢].

وهذه بديهية مؤداها أن الله لو بعث إلى البشر ملكاً فلابد أن يتشكل الملك بالبشرية ليتمكن من دعوتهم وليتحملوا رؤيته وإلا لما استطاعوا رؤيته، ولأصيبوا بالضرر إن رأوه على صورته الأصلية، ولعجزوا كذلك عن استماع دعوته، وإن ظهر الملك في الصورة البشرية فكيف يؤمن هؤلاء أنه ملك وهم يرونه كواحد منهم، وهكذا تبقى شبهتهم وتستمر في دروانها بلا انتهاء يقول الله تعالى مشيراً إلى هذه البديهية ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[٣] وما دام رأيهم يستلزم هذا الإشكال فعليهم أن يؤمنوا بالرسول البشر

ورد القرآن عليهم أيضاً في ظنهم أن الرسالة يجب أن تكون لغني ذي جاه كما طلبوا، لأنهم بنوا هذا الطلب على أساس خاطئ مؤداه أن جلال الرسالة يستلزم غنى الرسول وتمتعه بجاه كبير، وهم بذاك الوهم ما دروا أن الرسالة رتبة روحية، وسمو نفسي لا يجعلها الله إلا لذوي النفوس الزكية، المؤيدة بالقوة القدسية، وقد أبطل الله وهمهم بقــوله تعــالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ صـ٤٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٩ .

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[١].

فأنكر الله عليهم قسمة النبوة لأنه سبحانه لم يترك لهم قسمة المعـــاش الدنيوي فكيف يترك قسمة النبوة لهم وهي أعظم؟ وأيضاً فإن تفاوت درجات الناس في الغني ليس أمراً اختيارياً فكيف تكون النبوة التي هي خير من كل مال الدنيا اختياراً بشريا [٢].

إن النبوة منحة إلهية يعطيها الله لمستحقها من البشر، وخير الناس محمد ﷺ الذي ينكرون نبوته ومع ردود القرآن المنطقية على كفار العرب فإنهم حاولوا وما آمنوا، فكان لابد من رد أكثر إفحاماً لهؤلاء المعاندين، وهو إثبات المسألة بالواقع المحسوس لأن العقول البشرية بطبعها تصدق بما له نظير، ولذلك لم يكتف القرآن بالرد العقلي النظري، وإنما أخذ يبين لهم أن إنكارهم باطل بالنظر إلى حقيقة الواقع الذي حدث في الزمن قبلهم، فلقد ثبت أن الله أرسل إلى الناس رسلاً من البشر على فترات مكررة منذ أن خلق الله الناس إلى زمن عيسى ﵇ وما دامت النبوة قد تحققت هكذا في الجنس البشرى فليس بدعاً أن تتكرر، ولا تستحق منهم كل هذا العجب والاستهزاء، ولقد بين الرسول ﷺ للناس هذه الحقيقة حينما ذكر لهم أمـــر الله إليه في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٣] فبين لهم بذلك أن الشأن هو الشأن، ولا جديد في أن يكون المبعوث بشراً لأن واقع الماضي أثبتته الحقيقة، وقرره البادي والمشاهد وهذا أكبر دليل على إثباته في الحاضر.

وحتى تثبت النبوة بهذا الطريق العملي اهتم القرآن المكي به، وأورده على ألسنة الرسل عليهم السلام وهم يثبتون الرسالة عن طريق إثبات الرسالات السابقة عليهم وهذا أسرع طريق في الإثبات .

إن السور المكية هدفت إلى هذا الموضوع بوضوح، وقلما تجد سورة مكية

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢ .

(٢) تفسير النسفي جـ٤ صـ١١٧و ١١٨ بتصرف .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٩ .

خلت من هذا الاتجاه وكثيراً ما تشير السور المكية، وهي تثبت الرسالات السابقة، إلى أن القصد الأساسي هو الرسالة الخاتمة من أجل إثباتها ورد منكريها .

والقرآن المكي يثبت ذلك بأكثر من اتجاه، ولنأخذ سورة ونلقي نظرة سريعة على محتوياتها في هذا الشأن ولتكن هي سورة الأنعام المكية[١] حيث نجدها تقصد إثبات الرسالة للبشر، وتؤكد أن ذلك جار على السنن الإلهي منذ قديم، ولكي تصل إلى غرضها هذا تتنوع في اتجاهها.

فنراها تارة تعرض شبهة القوم وترد عليهم بما يبطل شبهتهم ويثبت الرسالة للبشر.

وترد أحياناً بجواب عقلي مقنع.

وتشير أحياناً أخرى إلى الرسل السابقين وبعض ما حدث لهم.

وتبين في مكان آخر أحوال متبعي الرسل لإثبات مدعاهم.

ولا تبعد عن أعداء الرسالات فتذكرهم، وتصفهم، وتبين منطقهم المخادع .

وتختم هذه الاتجاهات بحديث عن وحدة الأديان وحديث آخر موجز عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

على هذا الحال سارت سورة الأنعام، وقد لاحظنا أن أكبر أهدافها هو إثبات الرسالة لمحمد ﷺ .

إن الرسالة إذا ثبتت وآمن الناس بها فإن بقية العقائد تثبت عن طريقها بالنص المسموع الذي نزل الوحي به على لسان الرسول الكريم الذي ثبتت رسالته .

إن إثبات الرسالة بالواقع الماضي لدليل أكيد الأثر في الناس ولذلك ركزت عليه السور المكية .

ولننظر سريعاً في بعض آيات سورة الأنعام التي أخذناها نموذجاً لبقية السور حيث لا تختلف السور عنها إلا في القليل .

---

(١) سورة الأنعام مكية إلا ثلاث أيات من قوله (قل تعالوا ...) الإتقان في علوم القرآن جـ١ صـ٩ .

يقول الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(1).

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(2).

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾(3).

ويقول تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(4).

وقال عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(5).

ويقول ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(6).

ويلاحظ أن هذه الآيات ليست هي كل ما في السورة لإثبات الرسالة، لكنها شواهد رئيسية تدل على منهج السورة في عمومها، وعلى منهج السور المكية الأخرى وهي تتناول هذا الموضوع .

إن اتجاهات هذه الآيات التي اخترتهـا تدور على ما يلي :

---

(1) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .

(2) سورة الأنعام آية ٣٤ .

(3) سورة الأنعام الآية ٤٢ .

(4) سورة الأنعام الآية ٩١ .

(5) سورة الأنعام الآية ١٥٩ .

(6) سورة الأنعام الآية ١٦١ .

١)تثبت أن القوم أنكروا نبوة محمد ﷺ لكونه بشراً، وادعوا أن المبعوث لابد أن يكون من الملائكة، أو يجب على الأقل أن ينزل مع البشر ملك يصدقه، ويعينه، وتبنوا هذا الادعاء كما بينته الآية ٨ .

٢) تشير إلى أن الأمم السابقة قد كذبوا رسل الله إليهم وآذوهم، لكن الرسل صبروا واحتملوا حتى جاءهم نصر الله الحتمي لرسله، وهذا الشأن في الناس أجمعين آية ٣٤، وتشير آية ٤٢ إلى أن المكذبين أخذوا بشدة بالغة لكي يعرفوا عاقبة تكذيبهم وعساهم أن يعتبروا .

٣) تبين أن القوم في عصر الرسول ﷺ ليسوا على صواب في طلبهم أن يكون الرسول ملكاً لأنه لو لكان ملكاً لحصل كما تشير الآية ٩ أن يظهر الملك في صورة بشرية تمكنه من الاتصال بالناس .

وفى هذه الحالة ينشأ لبس فى أفهام المعاندين حيث يظنونه بشراً حقيقياً فلا يزول الإشكال إذاً ويبقى طلبهم بلا انتهاء .

٤) تخطئ القوم في إنكارهم رسالة البشر وزعمهم أن الله لم ينزل على البشر كتاباً قط ... ويكفي لتخطيئهم أن يوجه إليهم سؤال مؤداه، ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ كما في آية ٩١، وهنا سيعترفون بأن الله هو منزل الكتاب على موسى البشر الذي لا يزيد عن محمد في شيء أبداً فكلاهما بشر .

٥) تبين أن دين الله واحد تتشابه سننه ولا تختلف تطبيقاته، ومن أجل هذا تشير آية ١٦١ إلى أن دين النبي محمد ﷺ هو ملة إبراهيم عليه السلام الحنفية فدعوتهما صورتان لدين واحد ظهر في زمانين مختلفين .

وعلى الجملة فذكر الرسالات السابقة طريق أكيد لإثبات الرسالة المحمدية وإمكان بعث البشر للناس.

يقول ابن تيمية في هذا المجال : يقرر الرب سبحانه وتعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصص الأنبياء فهو سبحانه وتعالى يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء حتى يثبت نبوة محمد ﷺ من باب أولى[1].

---

(١) النبوات ص ٢٣ و ٢٤ .

وهكذا فإن سبق الحدث وتكرره أكبر دليل على إمكان حدوثه من جديد، والبشر دائماً يصدقون بما صدقـوا بمثيله مسـبقاً، ولذلك قال مؤمن آل فرعـون ينذر قومه ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾[١] فخوفهم بالمماثلة الماضية ليكونوا إلى تصديقه أسرع .

ومن هذا الباب ما قاله ورقة بن نوفل حينما ذهب إليه رسول الله ﷺ مع عائشة رضى الله عنها يستفتيه في أول الوحي إذ قال: " **هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى** "[٢].

ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة وحاول القرشيون إعادتهم واستمع النجاشي إلى رأي المهاجرين ومندوبي قريش قال عن رسالة الإسلام " **إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة** "[٣].

فعامل المماثلة هو الذي أدى بهؤلاء إلى التصديق بما صدقوا به، ومن هنا كان إيراد السور المكية للرسالات السابقة طريقاً سهلا في إثبات الرسالة الخاتمة، وكثيراً ما تذكر هذه السور علة تفصيلها عن الماضين وأسباب ذكرها للرسالات وتشير إلى أنه يهدف الأمة التي نزل القرآن الكريم لها، ومن هذا الذكر قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٤].

ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

ومنه قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

---

(١) سورة غافر الآيتان ٣٠، ٣١ .

(٢) صحيح البخاري — كيف كان بدء الوحي جـ١ صـ٤ .

(٣) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٣٥٩، ٣٦٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٠٣ .

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

وعلى هذا النمط تدور السور المكية من أجل هدف واضح وهو أن يؤمن الناس بالرسالة التي بين أيديهم، فهي بهذا موعظة ونجاة وعبرة وإنذار وآية ورجاء أن يؤمن الناس، ويرجعوا إلى الله تعالى، وما دامت النبوة قد ثبتت للبشر فإثباتها لسيدنا محمد ﷺ سهل خاصة وأنه أظهر للناس قرآن الله المعجز وتحداهم فلم يقدروا .

وأما اعتراضهم بأن الرسالة لا يصح أن تكون لرجل فقير لا جاه له كمحمد فهو اعتراض مردود، لأن النبوة اختيار إلهي يخص بها الله من يستحقه من الناس بسبب سمو نفسه، وطهارة كيانه، وتمتعه بكمال يمكنه من الاتصال بالملأ الأعلى، أما المال فهو ظل زائل، لا يعطي للنفس كمالا غير كمالها، كما أن أمر المعاش كله بيد الله يبسطه بإرادته لمن يشاء، ويقدره إن أراد عمن يشاء، واختياره سبحانه وتعالى للنبوة وقسمته للمال والمعاش تابع لعلمه المحيط وحكمته الدقيقة، وكل شيء عنده بمقدار .

يقول أبو السعود: والذي تقتضيه الحكمة أن ينزل الوحي على الخواص المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بكلا العالمين الروحـــاني والجســـماني ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب [٢].

وإن كان سبب اعتراض المعاندين هو أن الرسول منهم فالرد سهل كذلك لأن إرسال الرسول وسط قومه أمر عادي، فلقد أرسل الله إلى عاد أخاهم هودا، وأرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً، وأرسل إلى مدين أخاهم شعيباً فلا مانع أن يبعث محمد ﷺ في العرب أولاً لينطلق منهم إلى العالم كله، خاصة وأن محمدا ﷺ بينهم سباق إلى إحراز الفضائل منذ عرف قبل النبوة، وأخلاقه المعلومة لهم تحوي كثيراً من صفات الكمال والصفاء، وهكذا فسبقه بالرسل واشتهاره بالفضائل يرد كل اعتراض ويدفع إلى إثبات الرسالة له ﷺ .

إن ذكر الرسالات تثبت الرسالة الخاتمة وتؤكدها لمحمد الإنـــسان ﷺ الـــذي تحـــدى بالقرآن المعجز، وأخبر في ثناياه عن هذه الرسالات دفعاً للناس إلى الإيمان بـــدعواه، والتصديق برسالته، وهكذا تستفيد الدعوة الإسلامية وتثبت الرسالة .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٣٠٦ .

المبحث الثالث
تثبيت قلب النبي ﷺ والدعاة

جوبة النبي ﷺ ممن دعاهم في مكة بصلابة قاسية وموقف متشدد ويكفي دليلاً على قسوتهم وشدتهم أن المعارضين منهم أخذوا في إلحاق كافة التهم لما يظهره ويبديه لهم من غير اقتصار على المجادلة العقلية والنقد النزيه، بل إن عدداً منهم بالغوا في إيذائه ﷺ حتى اكتسبوا اسماً سماهم الله به هو اسم المستهزئين .

وقد أشار إليهم أبو السعود عند تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[1] فذكر أنهم كانوا خمسة من أشراف مكة هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحرث بن قيس بن الطلاطلة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب وهم الذين بالغوا مبالغة شديدة في إيذائه ﷺ فخصوا بهذا الاسم دون سواهم"[2] وكان غالبية القوم على وتيرتهم ضد رسول الله ﷺ حيث عارضوه في أمور هم أول المؤمنين بها، وسبب ذلك هو التعنت والعناد فنجدهم حينما دعاهم إلى توحيد الألوهية عارضوا وأنكروا وقالوا كما حكى القرآن عنهم ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[3] فتعجبوا من توحيد الألوهية وهم الذين سلموا به بشعارهم المشهور عن أصنامهم والذي حكاه القرآن عنهم بقوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[4].

فنراهم يقرون بأن كافة الأصنام والأوثان تقرب إلى الله ومع ذلك أنكروا على محمد ما آمنوا به سابقاً، وما اتخذوا هذا الموقف خوفاً من قصور الإله الواحد حيث أنهم كما يقول أبو السعود : لا يدعون لآلهتهم علماً أو قدوة، أو مدخلاً في حدوث الأشياء مع إيمانهم بأن العلم والقدرة وإحداث الأشياء هي لله

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٥ .

(٢) تفسير أبو السعود جـ٢ صـ١٥٩ .

(٣) سورة ص الآية ٥ .

(٤) سورة الزمر الآية ٣ .

تعالى الذي اتخذوا معه شركاء هم زلفى إليه ووسطاء عنده حتى يلزم من نفي ألوهيتهم تحقق قصور ما، ولكنهم اتخذوهم تقليداً وعادة[١].

وقد بالغ الخصوم في معارضتهم لدرجة أنهم تجاوزوا المعارضة في المدعى إلى إلحاق التهم بالرسول نفسه فوصفوه بالكذب والسحر على وجه يفيد المبالغة فيهما، وحكوا اتباعه لأساطير الأولين التي كتبها وأخذها من كاهن في مكة[٢] وسجلوا هذه الاتهامات في أقوالهم التي نقلها القرآن عنهم فقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[٣] وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[٤] وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[٥].

جاء في مفاتيح الغيب أن الله تعالى جمع كل ماعول عليه الكفار في إثبات اتهامهم لرسول ﷺ في شبه ثلاث :

أحدهما : ما يتعلق بالإلهيات .

الثاني : ما يتعلق بالنبوات .

الثالث : ما يتعلق بالمعاد .

وثلاثتها شبه واهية .

لأنهم في الأولى قاسوا الغائب على الشاهد فأنكروا وحدانية الإله لما رأوا أن العمل العظيم لا يستقل به رجل واحد مهما كان شأنه ولابد له من مساعد ومعين.

وفى الثانية والثالثة أنكروا قياس الغائب على الشاهد فنفوا النبوة مع سبقها بنبوات غيرها، واستبعدوا المعاد مع أنه أسهل من الخلق أول مرة[٦].

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ صـ٢٨٢ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٦ صـ١٩٩

(٣) سورة ص الآية ٤ .

(٤) سورة الصافات الآية ٣٦ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٥

(٦) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ١٧٥ و ١٧٦ بتصرف .

إن المعارضين قصروا نشاطهم على معارضة الرسول عناداً وجدلاً حتى يمنعوا دعوته من الانتشار، ويصنعوا سداً بينه وبين الناس بباطل هم أعرف الناس بحقيقته، وكان أملهم أن يتسرب اليأس إلى قلب النبي محمد ﷺ فيتوقف عن دعوته **من ذلك ما حدث من الوليد بن المغيرة حين اجتمع معه نفر من قريش وقال لهم : يا معشر قريش قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم "محمد " فاجتمعوا على أمر واحد في شأنه حتى لا يكذب بعضكم بعضاً ، قالوا : نقول كاهن.**

قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : نقول مجنون

قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه فما هو بالشعر.

قالوا : فنقول ساحر .

قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فماذا تقول يا أبا عبد شمس ؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم من هذا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجه وعشيرته، فتفرقوا من عنده إلى السبل يحذرون الناس على نهج ما علموا من الوليد[1].

وفى الوليد نزل[2] قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ

---

(١) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) لباب النقول جـ٢ صـ١٠٠ هامش الجلالين .

﴿ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[(١)] فنراه فكر كثيراً، وأخذ يتابع آيات القرآن عله يجد فيها مطعناً، لكنه لما لم يجد تألم وتعالى وادعى أن القرآن قول بشر، وأنه سحر مأخوذ عن الأولين .

وقد أطال تدبره وفكره ونظره وأخيراً قال لهم: "إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ " كما يفيده حرف العطف " **ثم** " فهو فكر، ثم نظر، ثم عبس، ثم أدبر، وما ذلك إلا لتضليل القوم والوفود الآتية إليهم مما يجعلهم لا يصدقون بالقرآن، وفى نفس الوقت لا يصدقون بالرسول، لأن القرآن هو لسانه الذي يتضمن دعوته للناس، وفى الصد عنه صد عن الرسالة كلها وتكذيبه تكذيب للدين كله .

وهذا الموقف صورة لمواقف عديدة وقفها المعارضون من رسول الله ﷺ وكان من آثارها على النبي ﷺ أن نفسه كانت تتألم لما يرى، وكانت مواقفهم منه ﷺ تجعله يحزن ويتأسف الأسف البالغ الذي قد يضر بحياته نفسها، وما ذلك إلا شفقة على الناس، ورحمة بهم، وخوفاً على هؤلاء القوم الذين لا يفكرون في عاقبة مواقفهم، ولولا الحصانة الإلهية مع رسول الله ﷺ أثناء هذا الألم والأسف لتغيرت مسيرة الأمور، لكن الله الذي أحاط علماً بكل شيء علم ضيق الرسول البالغ، وتأزم نفسه من التكذيب المستمر المنصب على شخصه الفاضل، ودعوته السامية، علم ذلك وذكره في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[(٢)] وبينه فى قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[(٣)].

ففي الآية الأولى أكد الله تعالى تحقيق الضيق، وأفادت صيغة الاستقبال استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة الدائرة حول الشرك والطعن في القرآن الكريم والرسول ﷺ[(٤)] .

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١٨ إلى ٢٥ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩٧
(٣) سورة الكهف الآية ٦ .
(٤) تفسير أبي السعود جـ٣ صـ١٥٩ .

وفي الآية الثانية أفاد أن النبي ﷺ لحزنه وغضبه كاد أن يهلك نفسه غماً وأسفا على عدم إيمانهم بالقرآن الكريم لولا عناية الله، نعم لولا عناية الله به وعصمته إياه، فهما اللذان ثبتاه على ما أرسل به، ومنعاه أن يركن أدنى ركون إلى الكفار كما قال تعالى ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾[1].

فتثبيت الله له هو الذي **أبعده عن الركون الذي هو أدنى ميل وأيسره مع قوة الداعي الناشئ من حيل القوم وخدعهم ومؤامراتهم وأذاهم لكن عناية الله أقوى وأقدر.**

وكان من بين قدر الله في تثبيت النبي ﷺ أن يقص عليه قصص السابقين من الأنبياء لينظر في أحوالهم، ويتبصر فيما جرى لهم، ويعرف العاقبة المؤكدة للرسل ودعوتهم، والعاقبة السيئة للمكذبين المعارضين .

وعلى الجملة يأخذ النبي من ذكر الدعوات السابقة في القرآن مدداً يمكنه من الدعوة إلى الله بشكل كامل، وبرغم العصمة التي تمتع بها النبي ﷺ فإن منهج العناية الإلهية جرى على سنن البشر، لأنه بشر أرسل إلى بشر بدعوة تصلح الناس وتغير حياتهم، ومن شأن دعوة كهذه أن تكون محفوفة بالمخاطر، محوطة بالأشواك والآلام، وقد تؤدي هذه المخاطر والآلام إلى تثبيط همة الداعي، وتسرب اليأس إلى نفسه، فكان من الخير أن يحال بين اليأس وبين الداعي بأن يعلم أن العقبات والشدائد لا غنى عنها، وأنها سنة من سبق، وأن المصلح ينجو من هذه الشدائد لأن التثبيت الإلهي يحول بين النفس والشهوة، وبين القلب والهوى، ويرسم طريقاً جديداً غير الطريق المألوف، ويؤدب النفس بالفضائل، ويهذب القلب بالإيمان والدين[2].

ولهذا كان ذكر ما جرى للدعوات السابقة تثبيتاً لقلب النبي محمد ﷺ ، وتقوية لهمته، وطرحاً لليأس من طريقه قال الله تعالى ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٤ .

(٢) دعوة الرسل إلى الله، المقدمة بتصرف

أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

فأخبار الرسل السابقين مقصود منها تثبيت النبي محمد ﷺ وتقويته، ولذلك قص الله أنباءهم، وقد سلك القرآن طريقاً واضحاً ومركزاً إلى هدفه، ففي وقت تكذيب القوم للنبي ﷺ وادعائهم أنه ساحر أو مجنون يحكي القرآن ما حصل للرسل من مثل هذا الاتهام بالذات فيقول تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[٢].

يقول الرازي : هذه الآية دليل على أن كل رسول قد كذب، فكأن الله تعالى قال لمحمد ﷺ : لا تيأس على تكذيب قومك فإن أقواماً قبلك كذبوا ورسلاً كُذبوا[٣] وهذا الاتهام المتتابع سببه الطغيان والإثم، لكن تتابعه أظهرهم في ثوب أقوام تواصوا جيلاً بعد جيل بأن يتهموا رسلهم بالتكذيب والسحر، وينكروا الدعوة التي تأتيهم من قبل رسولهم .

ونظرة تفصيلية إلى الأمم السابقة في هذا الموقف ترينا تشابههم فهؤلاء قوم نوح قالوا له ﷺ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[٤].

وهؤلاء قوم هود ﷺ يقو الله عنهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٥].

وهؤلاء قوم صالح ﷺ يقول الله عنهم ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٦].

ومثلهم قوم لوط ﷺ يقول الله عنهم ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٧].

ونفس الموقف كان من آل فرعون يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .
(٢) سورة الذاريات آية ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٦٧٤ .
(٤) سورة هود الآية ٢٧ .
(٥) سورة الأعراف آية ٦٦ .
(٦) سورة الشعراء الآية ١٤١ .
(٧) سورة الشعراء الآية ١٦٠ .

ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[١].

وهكذا يخبر القرآن النبي ﷺ بما كان من قبل مع الدعوات والرسل، وذلك ليصبر على ما يجرى، ويتحمل ما يقوله المعاندون له، فما قولهم هذا إلا إلف الكافرين الذي واجهوا به كل رسل الله السابقين، ومن هنا يجب الصبر والتحمل، ولذلك قال الله تعالى لرسوله مهوناً عليه الأمر ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢].

فمن أجل صبر الرسول وتحمله الأذى، وإبعاد الضيق عن نفسه، وسد أبواب اليأس أن تقرب من حياته قال الله له هذه الآية " مَّا يُقَالُ لَكَ " **ومصدر القول، إما أن يكون هم الكفار** وحينئذ فالمعني أن كفار قومك يقولون لك مثل ما قال الكفار السابقون لرسلهم من الطعن في الرسالة والكتب وغير ذلك، **وإما أن يكون مصدر القول هو الله** ويصبح المعنى أن الله يأمرك كما أمر كل الأنبياء قبلك بالصبر على سفاهة الأقوام وعدم التأثر بأقاويلهم الباطلة [٣].

إن رسل الله السابقين تحملوا كثيراً من أذى قومهم وصبروا عليها، وشأن الرسول هو شأنهم، وها هي قضيتهم تعرض عليه ليكون مثلهم صبرا وتحملاً، وقد أمره بذلك فقال الله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٤] وقال تعالى له ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة القمر الآيات من ٤١ إلى ٤٣ .

(٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٣٧٨ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

فشأن الرسل أنهم ذو عزم دائم، وقوة صلبة، يتحملون بهما تكذيب القوم وآذاهم وفى النهاية يأتي نصر الله لرسوله، وتقع الهزيمة على أعدائه لا محالة.

هكذا مع كل رسول بلا تخصيص ومن هنا يرجح أن تكون " **من** " في قوله "مِنَ ٱلرُّسُلِ" في الآية الأولى بيانية، وضعف أن تكون تبعيضية، وأيضاً فإن الرسل جميعاً كذبوا، وجميعهم تحمل وصبر، ولم يتحدث القرآن عن نبي وصل إلى النصر بلا عناء ومشقة أو استقبله قومه بالتصديق والإيمان لأول وهلة .

فلزم أن يتخلق كل رسول بالعزم والقوة، وإن تفاوت الرسل فيهما فإن تملك الجميع لأصل هاتين الصفتين مؤكد وضروري حيث لا يختار الله من الناس إلا الكفء للرسالة، ومن الكفاءة في الرسول أن يكون قوياً ذا عزم وجلد.

ولم يكتف القرآن بمجرد ذكر صبر الرسل، وتحملهم، ولا بمجرد أمر الرسول بذلك، وإنما أخذ يبين للرسول حقيقة من الحقائق الثابتة التي تدفع إلى الصبر والتحمل، هذه الحقيقة أن النصر الألهي حتمي، وعلى الرسول أن يصبر حتى ينتصر، وهذا النصر سوف يأتيه بلا ريب، وحتى يكون التأميل في النصر مسلماً هو الآخر يذكر القرآن أن النصر واضح من انتصار الرسل ودعواتهم بعد كل ما تحملوه، يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1].

وهكذا الشأن مع كل الرسل السابقين حيث نصرهم الله وجعل جندهم غالباً، وهزم المعارضين المعاندين .

والدعوة تبين ثبات هذه الحقيقة فمع نوح نقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

ومع هود نقرأ قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[3].

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٧١ إلى ١٧٣ .

(٢) سورة هود الآية ٤٩ .

(٣) سورة هود الآية ٥٨ .

ومع صالح نقرأ قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[١].

ومع شعيب نقرأ قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[٢].

وهكذا اتبع القرآن في تثبيت قلب النبي ﷺ من خلال ذكره للدعوات السابقة **ما سبق من أمره بالصبر والتحمل كالرسل السابقين**، والتأميل في النصر بعد الصبر، وتسهيل كل المشاق عليه بسبب هذه المشابهة بينه وبين إخوانه السابقين .

ولئن كان هذا درساً للرسول فهو درس كذلك للدعاة يبين الطريق ويعرف بالنصر ويؤكد أن الفوز بالصبر، والنجاح بالتحمل والعمل، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين .

إن على دعاة الإسلام أن يسيروا على ما سار عليه رسول الله ﷺ ، فلقد تحمل كثيراً، وصبر طويلاً على عديد من ألوان الأذى والعدوان ... واستفاد بما ذكره الله به من قصص السابقين .

والقرآن الكريم بين أيدينا يحفظ كلام الله ووصاياه لمحمد ﷺ لتكون درساً للدعاة من بعده حتى يتمكنوا من مواجهة الصعاب، ويصبروا على تحمل الاتهامات الكاذبة ولا يتأثروا بما يقال عنهم وعن الإسلام ليكونوا بذلك صورة لرسول الله ﷺ

والعصر الحديث يؤكد هذه الفائدة لأن الإسلام يتعرض في هذا الزمان لهجوم شرس من الحاقدين عليه الذين يحاولون التشكيك في القرآن الكريم، وفى السنة النبوية وفى شخصية الرسول ﷺ وفى الشريعة الإسلامية .. وكلها محاولات ساقطة باهتة تحتاج إلى الشجاعة في المواجهة، والثبات في الرد، والتيقن من حقيقة الإسلام وأحقيته، وعلى الدعاة أن يتحملوا هذه البذاءات، وعليهم أن يعلموا أن هذه سنة الله في الناس حتى يثبتوا ويصبروا .. والنصر لهم ولدينهم في النهاية.

---

(١) سورة هود الآية ٦٦ .

(٢) سورة هود الآية ٩٤ .

المبحث الرابع
دفع الناس إلى الإيمان

أكثر القرآن من ذكر الدعوات السابقة وفصل كيفية ما حدث مع الناس من طاعة أو عصيان، وما جاء هذا التفصيل الذي نلمحه في ذكر الدعوات التي كررها القرآن الكريم وأتي بقصصها مطولاً في موضع، وموجزاً في موضع آخر، ما جاء بها هكذا إلا لتصل إلى أفهام الناس وعقولهم .

والتكرار في القصص لا يسير على نمط واحد، ولا يدور كل مرة حول هدف واحد، وإنما يتغير أسلوبه، وتختلف أحداثه، وتتنوع وسائله، وتتعدد شخصياته ليفيد في كل مرة فائدة جديدة يحتاج إليها محمد ﷺ والدعاة من بعده في دعوتهم الناس لدين الله تعالى.

والملاحظ أن كل سورة تتجه اتجاهاً خاصاً حين تذكر الدعوات وشئونها مع القوم والرسل وتقصد هدفاً معيناً .

وعلى سبيل المثال نرى سورتي الأنعام والأنبياء قد آتياً بذكر الأنبياء على طريقة **العد والإيجاز من غير إشارة لدعوتهم**، أو ذكر لقومهم، وإطالتهما معاً عند ذكر دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام فقط بياناً لمنزلته، وإيضاحاً لنماذج مجادلته مع الخصوم، وهذا الاتجاه نحو العد في السورتين يشير إلى أن الهدف في السورتين بيان الوحدة بين الرسل، ولذلك كانت الآية التالية لذكر الرسل في الأنعـــام هي قوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾[(١)] التي بينت أن دين الرسل وطريقهم واحد ويجب أن يستمر هكذا في وحدته، وفى سورة الأنبياء كانت الآية التالية لذكر الرسل هي قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[(٢)].

وتوضح **سورة مريم إنعامات الله على الرســل** ممـــا يشير إلى أن هدفها هو

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

بيان فضل الله وتأكيد نصره للرسل، ولذلك ختمت السورة حديثها عنهم بقـوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[1].

وقد اهتمت سورتا العنكبوت والصافات بالإشارة إلى امتحان المؤمن، وجزاء من صدق، وعاقبة من كذب .

وهناك سور تقص بتوضيح وتفصيل حيث تورد المناقشات التي دارت والنهايات التي انتهت إليها دعوات الله وذلك كسورتي الأعراف وهود وذلك لتوضيح حجج القوم، وأسلوبهم في عرض هذه الحجج، وإبطال الرسل لهذه الحجج وأدلتها لتوضيح حقيقة النفوس، وطرق التفكير، وكيفية الجدل والحوار .

وسواء أكان ذكر القرآن للدعوات موجزاً في كمه وكيفيته، أم كان مطولاً مفصلاً فإن بعض الهدف هو خلق تأثير لدى المطلع قارئاً أو مستمعاً يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة، ويدخل في الإسلام دين محمد ﷺ لأن الحقيقة الدينية قد عرفت، والمسألة من خلال ما سمع قد وضحت وهي أن سنة الله بمن يؤمن أو يكفر لا تتخلف ، وسريانها على أمة محمد ﷺ أمر حتمي فمن آمن نجا ومن كفر هلك، ولقد استمع المكيون للقرآن المكي يتلو فيهـم قول الله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[2] والآيات تعرض موقف كفار مكة بوضوح بيّن، فلقد أقسموا بكل قدرتهم أن يؤمنوا بالرسول الذي سيبعث فيهم، ويسبقون غيرهم في الإيمان به،

---

(١) سورة مريم الآية ٥٨ .

(٢) سورة فاطر الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

فلما جاءهم الرسول ﷺ لم يقفوا عنه حد التردد في تصديقه بل بالغوا في التكذيب، وزادوا في الكفر والضلال، فلقد كانوا يكفرون بالله وحده قبل مجيء الرسول، ولهم عذرهم حيث لا رسول يعرفهم، ومن بعد مجيئه صاروا كافرين بالله، وبالرسول، وبالقرآن، وبالدعوة، ولا عذر لهم لأن الرسول فيهم يبلغ ويدعو، وقد نسوا إقسامهم، وحينئذ ينفذ فيهم حكم الله المؤكد والقاضي بإهلاك الكافر، بسبب عصيانه، وإنجاء المؤمن بسبب طاعته، ولن يبدل الهلاك إلى نجاة، ولن يحول الهلاك إلى غير الكافر.

وقد أضافت الآية هذه السنة إلى الأولين في قوله "سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ " رغم أنها ليست سنتهم، ولكنها سنة الله فيهم لشهرة هذه السنة فيمن سبق، حتى صارت خاصة بهم، وبها يتميزون، ولتأكيد وقوعها عليهم قوية قاهرة أسندها الله بعد ذلك إلى ذاته وكـــرر هذا الإسناد في قوله تعالى ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[(١)].

وهكذا فسنة إهلاك الكافرين لن تتبدل من سيء إلى حسن، ولن تتحول إلى غير مستحقيها من البشر[(٢)].

إن هذا التحذير نزل عليهم في مكة منذ البداية حينما بدا كفرهم، فقد أخرج بن أبي حاتم عن بن أبي هلال أن قريشاً كانت تقول " **لو أن الله بعث منا نبياً ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا اسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فنزل قول الله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ..... الآية ﴾**[(٣)] ولم يبق هذا التحذير مجملاً بل جاء تفصيله في القرآن الكريم، ووجه الله الناس إلى معرفته بعقولهم، ورؤيته ببصرهم عن طريق السير في الأرض والتأمل في أحوال الأمم السابقة ليعلموا بكل يقين ما حل بالعصاة، وما تمتع به المؤمنون .

وعلى البشر أن يسيروا، وينظروا، ويتدبروا في الأمم التي خلت ليدركوا

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٣ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٥٥ بتصرف

(٣) لباب النقول جـ٢ صـ٥٥ هامش الجلالين .

عن يقين واطمئنان صدق هذا التحذير .

ولقد جاء التوجيه إلى السير والنظر ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم منها ما ورد بالأمر صراحة، ومنها ما يفهم الأمر من سياقها، وكلها تأتي بعد الأخبار بالقصص تأكيداً لوقوعها بالرؤية، وتكميلاً بالتدبر والتفكير .

ولا يكتفي القرآن بالحكاية ولا يوردها مجردة عن أغراضها، بل نراه يطلب إلى جانب الأخبار **(مع أن في مجرد الذكر مدخلاً كبيراً للاعتبار)** نراه يحث على الرؤية البصرية، وعلى التدبر القلبي، وإعمال الفكر والاستنباط، حتى يكمل الاعتبار ويتم، ولذلك جاءت الأوامر كلها بعد الأخبار عن الأمم السابقة، وفيها أمر بالمسير والرؤية، وحث على الاعتبار والتفكير، وقد جاء الأمر الصريح في ستة مواضع هي :

يقول الله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[١].

ويقول سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢].

ويقو الله تعالى ﴿ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣].

ويقول الله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[٤].

ويقول تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٥].

ويقول تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١١ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٤) سورة النمل الآية ٦٩ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٢٠ .
(٦) سورة الروم الآية ٤٢ .

وفى هذه المواضع الستة أمر واضح للناس بالسير في الأرض حيث مواطن الأمم السابقة لينظروا ما حدث لهم ويتأكدوا من سنة الله الخالدة في الناس، ويعرفوا عاقبة المكذبين المشركين .

وأما المواضع السبعة الباقية فهي في قوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾(٢).

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٣).

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾(٤).

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾(٥).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٣) سورة الروم الآية ٩ .

(٤) سورة فاطر الآية ٤٤ .

(٥) سورة غافر الآية ٢١

مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[١].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾[٢].

ويلاحظ أن هذه المواضع السبعة قد جاءت بإحدى صيغتين هما "**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟**" أو " **أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟** " وكلاهما يتضمن محذوفاً بين الهمزة والواو، أو بين الهمزة والفاء تقديره، أجهلوا فلم يسيروا فينظروا، وهذا مشتمل على الحث على السير مع التدبر، لأن الصيغة كما يقول الرازي تحتمل أمرين وهي **أنهم أهملوا المسير فحثوا عليه، أو ساروا ولم يعتبروا فأمروا بالاعتبار الذي هو المهم**[٣] وقد اكتفى أبو السعود بذكر الاعتبار الثاني ليرددوا فكرهم في كل ما يرون، ويخرجوا بدروس وعبر .

إن الأمم التي سبقت كانت أكثر من قريش مالاً وولداً وأشد منهم قوة حيث عمروا الأرض بالزرع والصناعة والنشاط، وملأوها قصوراً ومصانع، ومع ذلك لم يفلتوا من الهلاك والتدمير لما كفروا، وحكايتهم في القرآن الكريم تؤكد عنصر القدرة والقهر، وهو الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى خاصة عند مجيء أمره بإنجاء المتبعين وإهلاك المخالفين، وهذا يجعل الناظر فيها عالماً بأن العاقبة لم تحكم بأمر طبعي عادي، بل أن الله تعالى عندما يعاقب يأخذ أخذ عزيز مقتدر، انظر ما حدث لقوم نوح حيث اجتمع المؤمنون في سفينة عامت على سطح الطوفان ونجت بهم في الوقت الذي غرق بهذا الطوفان كل الكافرين وكانت نهايتهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[٤].

وكذلك ما حدث لعـــاد وثمـــود ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ

---

(١) سورة غافر الآية ٨٢

(٢) سورة محمد الآية ١٠

(٣) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٢٤١ .

(٤) سورة يونس الآية ٧٣ .

فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[١].

هذه النتائج الظاهرة الشديدة تمثل دافعاً قوياً عند المستمع وتدفعه إلى الإيمان بالدعوة الخاتمة، والدخول في الإسلام .

إن الدعوة الصادقة تقوم على الترغيب والترهيب لتتلاقي مع الإنسان الذي يحب الفوز ويكره الضرر، والترهيب بما حدث في الماضي أكثر تأثيراً لأن تصور ومعرفة وقوعه أمر ممكن، وتصور حدوثه مره أخرى أمر سهل ... ولذلك اعتمد الرسل السابقون والدعاة إلى الله تعالى على التخويف بالأمر السابق في الأمم قبلهم[٢] كما قال مؤمن آل فرعون ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾[٣].

وقال شعيب ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[٤].

وكل ما تضمنه هذا القصص من وعد للمطيع ووعيد للعاصي هو من الترغيب والترهيب الذي أشار إليه صاحب هداية المرشدين[٥] بقوله " **ما من خبر أو قصة عن نبي وعن موقف قومه من رسالته إلا وهو يقصد به الترغيب والترهيب** " ومثل الآيات كل الأحاديث التي ترغب في الطاعات وتخوف من المعاصي .

إن معرفة عواقب المدعوين بالدعوات السابقة عبرة وعظمة لأمة الدعوة المخاطبة بهذه المعرفة، والقرآن الكريم نفسه أشار إلى مقصده في العبرة فقال

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٥ إلى ٧ .
(٢) النبوات آية ١١١
(٣) سورة غافر الآيتان ٣٠ ، ٣١ .
(٤) سورة هود الآية ٨٩ .
(٥) هداية المرشدين صـ١٩٣ .

تعالى بعد قصه الموجز لدعوة نوح ﷺ ﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَصْحَبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَلَمِينَ ﴾[١].

ومعناها كما جاء في الجلالين جعلناها عبرة لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسلهم[٢] والضمير في جعلناها للسفينة، أو القصة أو الحادثة لتشير إلى القدرة الإلهية التي أمرت بصنع السفينة، وإنجائها من الرياح الهوجاء، والحيوانات المؤذية، ولتكون عبرة للناس بعد ذلك.

وقوم لوط لما أتاهم الهلاك والعذاب أبقى الله من آثار قريتهم ما يفيد العبرة والعظة كما يفيد ذلك قول الله تعالى ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

فهذه الآية البينة قصة عجيبة لقوم يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار والذي بقى منها كما ذكر المفسرون ديارها الخربة، أو الحجارة الممطورة، أو الماء الأسود، نعم لا يعتبر بهذه القصص التي يسوقها القرآن إلا قوم ذو بصر وتدبير يعلمون أن نجاتهم في اعتبارهم الذي يوجههم الله إليه ومن أجله أبقى آثار إهلاكه ليطلع عليها الأقوام بعد ذلك، وكما أبقى الله آثاراً من قوم لوط فقد أبقى جسد فرعون بعد إغراقه للعبرة والعظة كما قال تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[٤].

ففرعون وقومه عندما غرقوا في اليم نزلت أجسادهم جميعاً إلى قاع البحر إلا جسد فرعون فإنه طفى على وجه الماء عارياً من اللباس، كاملاً لـم يتمزق منه شيء ليكون آية يعتبر بها بنو إسرائيل وهم معاصروه، وكل من يأتي من الأمم بعدهم.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٥ .

(٢) سورة تفسير الجلالين جـ٢ صـ٥٥ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٣٥

(٤) سورة يونس الآية ٩٢ .

يشير أبو السعود إلى أن ما حصل لفرعون وقومه عبرة ونكال لمن وراءهم أو من يأتي بعدهم من كافة الأمم[١] وليس هذا هو هدف قصة فرعون وحدها وإنما هذا كل أهداف سائر القصص .

ولذلك نجد سورة الشعراء تكرر عقب قصصها قوله تعالى " إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً".

يشير الزمخشري إلى روعة الآيات بقوله : وأية آية لا توصف وقد شاهدها الناس وشاع أمرها فيهم [٢] وعليهم أن يعتبروا ويتفكروا .

قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٣]، وقال عز وجل ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٤] .

فلو تفكروا لفعلوا، ولو كانوا أصحاب عقل لاتعظوا واعتبروا، ولاندفعوا إلى الإيمان بالدعوة الخاتمة، ولتركوا الجدل الخالي من الهدف وبعدوا عن الخصومة المتعصبة والمعارضة من غير واقع ودليل .

---

(١) تفسير أبو السعود جـ٢ صـ٣٤٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ صـ١١٥ .

(٣) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٦

المبحث الخامس

ضرورة استمرارية الدعوة إلى الله

دائماً يختلف الناس حول الحق ولا يجتمعون عليه، وهم منذ ظهورهم على الأرض مختلفون، فمنهم من يؤمن بالحق ويتبعه، ومنهم من يعيش في الغي والضلال .

وقد أرسل الله رسله عليهم السلام لهداية الناس للحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

واستمرت المسيرة النبوية، وتتابع بعث الرسل وسجل القرآن الكريم قصصهم لتكون عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ ومن الفوائد الهامة المستفادة من الدعوات السابقة ضرورة استمرار الدعوة إلى الله تعالى وعدم اليأس مهما اشتدت المعارضة، وكثر الأعداء، ومهما كانت نتائج الصراع والمنافسة، وعلى الدعاة أن يدركوا أن الله اختارهم لدينهم، وحملهم ريادة الدعوة إلى دينه، وهي أمانة ثقيلة، عليهم أن يقوموا بها باستمرار ومتابعة ... لأنهم إن توقفوا عنها صاروا عوناً لأعداء الله، وأعداء دينه .

ولهم في هذه العبرة قدوة في رسل الله عليهم السلام الذين تحملوا العديد من الأذى والاضطهاد، ولم يتركوا ما كلفوا به من الدعوة لدين الله تعالى .

فها هو نوح عليه السلام يستمر في دعوة الناس مدة طال مداها بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يؤمن به خلالها إلا ثمانون فرداً على أكثر الأقوال ... وبقي قومه جميعاً على معارضته والنفور منه، ومعهم ابنه وزوجته .... وكانوا – لعنهم الله – يسخرون منه، ويتهمونه بالكذب، ويتهمون أتباعه بالضعف ويهددونه بالأذى والضرر ليتوقف عن دعوته .

وكان عليه السلام يقدر الأمر حق التقدير، ولذلك استمر في دعوة الناس بكل وسيلة ممكنة، وفى جميع الأوقات .

يقول الله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ

وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[1] .

ورأينا رسل الله جميعاً يداومون الدعوة مخلصين لله، لا يخافون من اضطهاد، ولا يثنيهم أذي، فهود عليه السلام وصالح عليه السلام ولوط وموسى وعيسى وسائر الرسل عليهم صلوات الله وسلامه لاقوا الكثير من الأذى ومع ذلك استمروا على الطريق، وها هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام حاور أباه آزر، وجادل النمرود، وكسر الأصنام، واستمر في دعوته إلى أن ألقي في النار فنجاه الله .

ورسولنا محمد ﷺ تعرض للإغراء والتهديد والقتل ولم يتوقف، وهاجر بدينه إلى المدينة المنورة ، فنصره الله تعالى .

وللحق دائماً أعداؤه ومعارضوه، ولم يخل زمان من معارضين للحق، يتربصون به، ويعملون على إزهاقه، يقول الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[2] .

إن أعداء الإسلام في العصر الحديث يقومون بهجمة شرسة على المسلمين يحاولون النيل من عقيدتهم ونبيهم وشريعتهم ... ويعملون على محاصرة المسلمين في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ويغرونهم بالشهوات المادية، ويثيرون فيهم حب الدنيا، وينشرون الجهل والخلق الردئ بينهم .

وتلك عادة المعارضين دائماً، وواجب المسلمين وفى مقدمتهم الدعاة أن يشدوا عزمهم، ويضاعفوا العمل لخدمة دين الله تعالى، وأن يستمروا في الدعوة الجادة على بصيرة تامّة، ومنهج قويم .

وعلى قادة المسلمين أن يهتموا بشئون الدعوة، ويتحركوا وفق خطة علمية مدروسة أشرت إليها حين تكلمت عن المنهجية المعاصرة للدعوة الإسلامية .

---

(١) سورة نوح الآيات من ٥ إلى ٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٢ .

الفصل الرابع

مرونة الإسلام وتجدده



تمهيد :

ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي، وحمله العرب إلى العـــالم كلـــه، وأخذت مسيرة الإسلام في التعمق كماً وكيفاً حتى وصلت إلى الناس أجمعـــين، وما زالت المسيرة الإسلامية في حركتها وتوسعها إلى يومنـــا هـــذا، وســـوف تستمر بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة .

وأصحاب الهوي وأعداء الحق يكيدون للإسلام، ويحاولون وصفه بما ليس فيه، ويعملون لإزاحته عن حركته العالمية، ويثيرون شبهاً واهية ضده .

يقولون : إن الإسلام ظهر في القرون الوسطى ولذلك فهو غيـــر صـــالح للعصور الحديثة .

ويقولون : إن الإسلام ظهر بين العرب ويجب أن يختص بهم .

ويقولون : إن الإسلام يرتبط بجغرافية ظهوره ولا يجوز أن يكون دينـــا لكافة الأمكنة والأزمنة إلى يوم القيامة .

لقد تعجب بعض الناس من ظهور الإسلام بين العرب أولاً لأنهم كـــانوا أمة فقيرة مفتتة، لا تعرف نظاماً إدارياً، ولا تتبع حكماً واحدا، وكانت أضـــعف الأمم يومذاك .

كما تعجبوا من ظهور الإسلام في جزيرة العرب وكلها صحراء جرداء لا خيـــر فيها ولا ماء، وقد رحل أبناؤها نحو الشمال والجنوب من أجل المعاش والحياة .

وتساءلوا عن سر ظهور الإسلام في أوائل القرن الـــسابع المـــيلادي ... والحكمة في اختيار هذا الوقت بالذات .

وحاول أعداء الإسلام إبراز هذه الحيثيات التي واكبت مجيء الإسلام ظنـــاً منهم أنّ توافق الإسلام مع هذه الحيثيات يعني عدم توافقه مع المتغيرات الحضارية خلال الأزمنة الطويلة والأماكن البعيدة، الأمر الذي يجعل الإسلام دينـــاً خاصـــاً بالحيثيات التي ظهر فيها، وما دروا أن الله سبحانه وتعالى ضمّن هذه الحيثيـــات أموراً تساعد على خدمة عالمية الإسلام وتسهل عملية تبليغه للعالم كله .... فـــي إطار يمكّن للحاضر وينفع للمستقبل، ويجعل الإسلام دين العالمين والله حكيم خبير

نعم ظهر الإسلام أولاً بين العرب وفى جزيرتهم وفـــى القـــرن الـــسابع الميلادي لاختصاص هذه الجوانب بأمور تفيد في انطلاقة الإسلام إلـــى العـــالم كله، وعلى الزمن كله، **لأن ظهور الدين لابد أن يبدأ في مكان واحد، على يـــد رسول واحد، في زمان واحد بلغة واحدة، شأن الأديان جميعاً ... وبعد ذلـــك يكون تبليغه وانتشاره بين الناس أجمعين زماناً ومكاناً .**

ولا يمكن تصور ظهور فكرة ما إلا في بيئة معينة، ومكان معلوم، وشخص يحملها ... والاعتراض على هذه الجوانب مستمر إذا تغيرت وتبدلت إلى جوانب غيرها .... والأولى هو البحث عن الحكمة في اختيار هذا المكان، وهذا الزمـــان، وهؤلاء الناس ومعرفة مدى صلاح الدين للناس، وفى طول الزمن .

ومحاولة الوصول إلى السر في هذا الاختيار لاكتشاف ما فيه من مزايـــا تؤدي إلى معرفة الفكرة وانتشارها، والاستفادة بهذه المزايا في استمرار الفكرة، والمحافظة عليها .

إن الإسلام دين الله تعالى و ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] ولذلك كان اختياره سبحانه وتعالى لهذه الجوانب من أجل تحقيق المصلحة والمحافظة على دينه .

وفى هذا الفصل سأبين بمشيئة الله تعالى، أن الإسلام في حقيقته قابل لكل جديد، وأنه جاء متوافقاً مع كافة الحيثيات التي ارتبط بها أولاً، وإن طبيعته تقبل هذا التوافق مع الإنسانية كلها وعلى طول الزمن .

وسوف يتضمن الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التطور والتجديد في الدعوة الإسلامية .

المبحث الثاني : التوافق بين الإسلام ومكان ظهوره .

المبحث الثالث : التوافق بين الإسلام وزمن ظهوره .

المبحث الرابع : التوافق بين الإسلام وأمة الدعوة الأولى .

المبحث الخامس : استمرارية التوافق بين الإسلام والمتغيـــرات فـــي الكـــون والناس والحياة .... وذلك فيما يلي :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

المبحث الأول
المعاصرة والتجديد
في الدعوة إلي الإسلام

حركة الناس لا تقف لحظة واحدة ، ومنذ القدم والإنسانية في تطور دائم في كافة جوانبها ....إنه تطور يشمل الإنسان ظاهراً ، وباطنـــاً ، ويـــشمل الحركة مظهراً ، واتجاهاً ، ويشمل الفكر عمقاً ، وهدفاً ، ويشمل المادة صورة، ووظيفة، وطاقة، إنه تطور ملموس تنطق به الحضارات ، ويشهد له ما تركـــه الإنسان من آثار وعمران، وأفكار، وعلوم .

وما زال التطور ماض في طريقه ، لا يمكن لقوة ما أن تمنعه ، أو تصده وبخاصة في عالم تلاقت فيه الأفكار ، وتلاحمت خلاله الحضارات والمفاهيم ، وصار ما يحدث في أقصى الأرض يتردد صداه في كافة أرجاء الكـــون بعـــد ثوان معدودات .

والخالق العليم بخلقه وعباده يعلم ما يحدث للنـــاس ، والـــدين إرادة الله سبحانه وتعالى لهم ، وقدره فيهم ، لذلك عدد الرسل إليهم ، ونوع الـــدين الـــذى أوحى به إليهم، وجعل لكل رسول رسالة ، تتضمن دين الله تعالى لقومه خاصـــة ليناسب ما هم فيه من فكر عقلى ، وحضارة مادية ، وضرورات يحتاجون إليها يقول الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [1]

إن كوكبة الرسل والأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ بلغت عدداً لا يحصى حيث ذكر الله تعالى بعضهم في القرآن الكريم ولم يذكر الآخرين ... وكل رسول منهم دعا بدين لله تعالى خص به قومه، يقول الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١).

فرسل الله جميعاً جاءوا بوحي الله تعالى، وبلغ كل منهم دين الله لقومه خاصة كما أمره الله تعالى ... والسبب في هذا التنوع هو اختلاف كل قوم عن غيرهم بسبب ما نالوه من تطور، أو تغيير، أو وعى وإدراك .. فلو كانت البشرية على نمط ثابت لا يتغير لاستمرت دعوة نوح عليه السلام صالحة لهذه البشرية الثابتة ، ولما احتاج الناس إلى دين جديد ، ورسالة جديدة .

لكن التطور فرض نفسه كما أراد الله له ، ولذا تعددت الرسالات، وجاء الرسل وصار لكل قوم دين خاص بهم، يرتبط بهم، ويعد تجديداً لدين الله تعالى الذي جاء به الرسول السابق، ولو كان تكراراً حرفياً لما دعت الحاجة إليه .

إن الدين في مجمله عقيدة، وشريعة، وأخلاق، وليست كلها تتأثر بالتطور، والتغيير، لأن العقيدة تدور حول أركان ثابتة لا تتغير أبداً، فوحدانية الله لا تكون عدداً، وصفاته العلى لا تتغير، ولا تتبدل، وهو سبحانه رب العالمين، ومنزل الكتب، ومرسل الرسل، وإليه أمر الناس في الدنيا والآخرة، إن هذه أمور لا تتغير ولذا جاء الرسل جميعاً بعقيدة واحدة ، تتضمن أركاناً واحدة ، هذه العقيدة هى الدين المشار إليه في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٢) .

وفي قـــوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٣) .

وأســـاسيات هـــذه العقيدة هى توحيد الله تعالى ، وإخلاص العبـــادة له

(١) سورة النساء الآيات من ١٦٣ حتى ١٦٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٣) سورة الشورى الآية ١٣ .

سبحانه وتعالى، ولذلك رأينا كل رسول من رسل الله عليهم السلام يدعو إلى توحيد الله تعالى، وإلى أن تكون العبادة له خاصة وإلى التعريف بما لله من صفات تليق به سبحانه وتعالى، وما يتصل بالتوحيد من إيمان بالرسل، والملائكة والكتب الإلهية، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره حلوه ومره، وقد سبق توضيح أصول الإيمان عند دراسة وحدة الأصول في الأديان الإلهية .

فقضية العقيدة إذاً ثابتة خالدة، والدعوة إليها ضرورة حتمية، ومصلحة اجتماعية، وفطرة إنسانية، وكان ضلال الناس دائماً في عقيدتهم بعدما لعب الشيطان بهم، وزين لهم الهوى، فعددوا الآلهة، وألفوا لها نسكاً ، وعبدوها من دون الله فمنهم من جعل إلهه صنماً ، ومنهم من اتخذه وثناً ، ومنهم من أقامه بيتاً، ومنهم من أشعله ناراً، ومنهم من عبده شخصاً، أو شجراً، أو نجماً ... وهكذا .

ولذا تعددت الرسالات، وخاطب كل رسول قومه بما فيهم من علة ، وبما يناسبهم من حديث ، وبما يقنعهم من دليل ، حتى تكون الرسالة واضحة بينة كما أراد الله لها ..

إن هذا التغاير بين الرسالات لا يمس جوهر العقيدة ، وإنما يدور مع الأعراض التى تؤيدها ، وتثبتها إنه يكون في الوسائل، والأساليب، والكيفيات، واللسان .

إن واقع كل فريق من الناس ، واختلاف كل قوم عن غيرهم ، أدى إلى تغاير الرسالات في هذه النواحى، لأن مراعاة حال الناس أمر ضروري حين التوجه إليهم إذ لابد من لسان يفهمونه، وخطاب يدركون معناه، وسلوك يقبلون عليه، وخلق يلتقي مع عواطفهم واتجاهاتهم ونفسياتهم وثقافتهم .

إن من يبني بيتاً لابد أن يلاحظ طبيعة الأرض التي يبني عليها ليتفق عمله مع جغرافيتها، وتكوينها، ويؤسس للبناء الذي يريده بما يناسبه حتى يدوم ويفيد .

لقد تغيرت شخصية كل رسول عن الرسل السابقين حيث كان اختيار كل واحد من قومه ليكون أعرف بطبائعهم، وأعلم بأحوالهم ، واتجاهاتهم .....

وليتمكن من تبليغهم، ومحاورتهم بما يليق بهم .

والقرآن الكريم واضح في تأكيد هذه الحقيقة وهو يبين أن كل رسول بعث لقومه، بعد اختيار الله له وتكليفه بالرسالة ، وقد تميز بين قومه بتسامى الخلق، وكمال الرشد، وصدق التوجه، والإخلاص لدعوته قومه إلى الله تعالى .

لقد أدى تغير الناس إلى تغير شخصيات الرسل ، فمنهم أولو العزم الذين أبلوا بلاءً حسناً، وصبروا صبراً جميلاً في الدعوة، وعاشوا وسط معارضات عديدة، ومتميزة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيســى، ومحمــد عليهم صلوات الله وسلامه، ومنهم غير أولى العزم وقد أدوا ما كلفوا به حسب مراد الله تعالى .

ولعل سر تغير المعجزات ، وتنوعها كان لملاءمة من ظهرت لهم المعجزة، لأنها تدعوهم إلى الله بلسان الحال ، وتؤكد صدق الرسول في دعوى الرسالة، وتؤيد سائر القضايا التى ينادى بها ، وكأن الله تعالى يقول للناس : صدق عبدى فيما يبلغ عنى ، ولهذا كانت المعجزات الحسية هى الغالبة مع رسل الله تعالى ، فلما تغير الناس ، ونضجت الأفكار ، وترقت العقول جاء القرآن الكريم

لقد كانت المعجزة مع كل قوم من جنس ما تفوقوا فيه لتكون أدعى إلى التصديق ، وأقوى في البرهنة على الحق ، وأشد تأثيراً في القلوب والعقول، وأيسر في التسليم، لأن القوم سيقارنونها بما عندهم من شأن يشبه المعجزة، وحينئذ تؤدى بهم المقارنة إلى اكتشاف أن المعجزة التى يشاهدونها خارقة لمألوف علمهم، وعاداتهم ، الأمر الذى يجعلهم يسلمون بصدق الرسول في دعوته .

إن قوم موسى عليه السلام تفوقوا في السحر ولذلك كانت المعجزة إليهم جعل العصا ثعباناً، وإخراج اليد من الجيب بيضاء لامعة من غير مرض، أو ضر لقول الله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۞ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۞ وَٱضْمُمْ يَدَكَ

إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾[(١)]

وكانت معجزة عيسى ﷺ إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى لتفوق بنى إسرائيل في الطب ، وتمسكهم بالمادة يقول الله تعالى ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٢)]

وكما تنوع الرسل، واختلفت المعجزات، تعددت اللغات التى جاء بها الرسل، وبلغوا بها دين الله تعالى ، وذلك أمر لابد منه لأن وحدة اللغة طريق الفهم ، وأساس الاستماع يقول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٣)]

وحين ننظر إلى الإسلام دين الله تعالى الذى ختم به الرسالات والرسل نلمس حقيقة ما احتوى عليه من مزايا جعلته صالحاً لكافة الظروف التى ظهر فيها ، من ناحية المكان، والزمان، والناس، قابلاً للتجديد والمعاصرة لما فيه من مرونة وسعة، ولذلك التقى مع المدعوين، ودخل قلوبهم ، ووجدوه لباساً يتوافق مع رغباتهم وأمانيهم، ويفتح أمامهم باب الخير والسلام ، ويهديهم للتى هى أقوم .. وهكذا في كل عصر ومع سائر الناس .... ومزايا الإسلام هذه هي التي تجعله صالحاً على الزمن كله وللناس أجمعين .

إن الإسلام دين الله تعالى جاء متوافقاً مع الحيثيات الكونية ، والإنسانية التى ظهر فيها وأثناءها ، وفي نفس الوقت وضع الله فيه من عوامل الحيوية ، والتجديد ما يجعله صالحاً على الزمن كله، وفي سائر الأمكنة ، وكلف المؤمنين أن يؤدوا واجبهم تجاه الإسلام لتستمر صلاحيته .

---

(١) سورة طه الآيات من ١٧ إلى ٢٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤ .

ولأن التطور لا ينتهي، وتغيير الأحوال أمر دائم ومستمر نزل الوحي بتعاليم الإسلام على صورتين هما :

الصورة الأولى : وهي تتعلق بالأمور الثابتة التي لا تقبل تغييراً، لأنها بذاتها وحقيقتها صالحة لكل الناس في كل زمان ومكان، وقد جاءت تعاليمها واضحة مفصلة محددة ليستمر تطبيقاتها واحدة لا تتغير، ويشمل أركان العقيدة والعبادات المفروضة المحددة وبعض تشريعات الأسرة .

الصورة الثانية وهي تتصل بالأمور المتغيرة القابلة للتطور تبعاً لما يعتري الناس من تغيير، وقد نزل الوحي لها بوضع المبادئ العامة والأسس الكلية التي تضبط شرعية المتغيرات ليستمر لها حكم في دين الله تعالى .

إن اشتمال الوحي على هاتين الصورتين يوضح قابلية الإسلام للتطور والتجديد، وهذا ما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان .

إن هذه الحقائق تؤكد قضية ثابتة وهي أن الإسلام جاء متفقاً مع واقعه الذي ظهر فيه أولاً، وفى نفس الوقت اشتمل على أساسيات التجديد، ومبادئ الالتقاء مع تطور المدنية، ومستجدات الفكر والحضارة كما أراد الله تعالى .

ولسوف تتضح هذه الحقائق أكثر حين الحديث عن خصائص الإسلام ومزاياه .

المبحث الثاني
التوافق بين الإسلام
ومكان ظهوره

قضت إرادة الله أن يظهر دينه في وسط القرن السابع الميلادى، وأن يختار لتبليغه محمداً ﷺ وأن يجعل الجزيرة العربية مكان ظهوره ومركز انطلاقه إلى العالم كله .

وهذه الحيثيات التى قدرها الله تعالى تؤكد الملاءمة التامة، والتوافق الدقيق بين الإسلام وبين سائر الحيثيات التى كانت موجودة يومذاك، وذلك قدر إلهى خالص أحاط به الرسالة الخاتمة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

نلحظ ذلك في مكان ظهوره الأول ، حيث رأينا قدر الله – وحكمته في توجيه مسار الأحداث نحو التمكين لدينه بين الناس .

لأن الحجاز وبخاصة مدنها الوسطى مكة والمدينة تتميز بما يلى :

١) تقع الجزيرة العربية بوجه عام في نطاق منطقة الحرارة القصوى ، ويرجع الجغرافيون ذلك إلى أن قسماً كبيراً من الجزيرة العربية يقع في منطقة الزهو المدارية ذات الضغط العالى ، والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب [1] ولقد أدى هذا الوضع إلى حالة جدب شديدة ، نشأت من قلة المطر ، وندرة سقوطه ، لدرجة أن المطر لا يسقط في بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات ، أو أربع .

وبجانب قلة المطر لا توجد أنهار في الجزيرة تمد الأرض بالرى ،وتيسر للناس معاشهم ، وتمدهم بأسباب الحياة .

هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء ضاجين بالاستغاثة، ضارعين بالدعاء ، كما جاء في القول الفصل من أن العرب تأتيهم الأمطار في أوقات، وتنقطع عنهم في غيرها ، فكانوا لذلك شديدى التعلق بها ، وتراهم كثيراً

---

(١) الشعراء الصعاليك صـ٦٢ .

ما يقلبون وجوههم في السماء جهة المطر، وذلك من أعظم المذكرات التى تذكرهم بالله، وحاجتهم إليه[١] خاصة وهم يعرفون من دعوة إبراهيم عليه السلام أن الله هو مصدر الرزق ، وسبب الخلق كله ، وكثيراً ما مر عليهم سحاب واختفى ، ولمع في السماء برق وانطفأ ، لكنه دائماً يترك في نفس العربى عواطف ملتهبة تدور حول الألم والأمل ، الألم من رهبة شره والأمل في إنزال مطره ، هذه العواطف صورها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** ﴾ [٢] كان العرب يخافون على أنفسهم، وعلى الرزق الموجود عندهم من البرق، ويطمعون في أن ينزل عليهم مطر يأتيهم برزق جديد ، وقدمت الآية الخوف على الطمع لأن الخوف كان على رزق متيقن وهو في أيديهم ، والطمع كان في رزق يتمنون إتيانه ، وشتان بينهما[٣] وهكذا جمع البرق للعربى بين الطمع والخوف يقول المتنبى :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى   يرجى الحيا منه ويخشى الصواعق[٤]

وقد عرف العربى قدرة الله وهو ينظر إلى السماء يرقبها وينتظر خيرها ، فلم يكن جديداً عليه أن يدعى إلى الإيمان بالله ، والإسلام له بدليل هذه الأحساسيس التى يدرك حقيقتها ويجهل سببها ، ولعل ذلك يبين كثرة توجيه القرآن نظر العرب إلى السماء، والأرض، والليل، والنهار، والماء، و المطر ، وغيرها من مظاهر الطبيعة لتكون داعية إلى الإيمان بالله ، **لأنها أدلة واقعية ، يعيشون فيها ، ويستفيدون بها ، ويتعاملون معها في كل حياتهم .**

٢) جعلت حالة الجدب المذكورة غالبية العرب بعيدة عن الترف والنعيم، منغمسة في الفقر والحاجة، وجعلت الطبقة الثرية قليلة العدد، متميزة بخلق الطبقة الغنية الفخورة بوضعها، المشهورة بالاستعلاء على الناس، والاستغلال

---

(١) القول الفصل فيما للعرب من فضل جـ٢ صـ١٤٦ .

(٢) سورة الرعد آية ١٢ .

(٣) تفسير أبي السعود جـ١ صـ١٠٠.

(٤) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ١٣٩ .

لبقية الفقراء، والمحتاجين، وكان من مفاسدها أن نشرت الربا الفاحش في مكة، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلى، وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى وهو ينهى المؤمنين عنه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١]

يقول الزمخشرى : كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله ، زاد في الأجل حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله [٢] .

وأيضاً فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشئون الاقتصادية بها ، فاشتروا الرقيق ، واستعبدوا الفقراء في توجيه قوافل التجارة الضخمة .

وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائياً لدعوة عادلة قائمة على المساواة، وتحريم الظلم، وإحساس الفرد، أيا كان بحقه وواجبه مما جعلهم يندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التى تمنوها لخلاصهم، واستشعروها من قبل في أنفسهم وخيالاتهم .

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة ، ويتدبرونها وهو شأنهم دائمة، أما المترفون الأثرياء فهم أعداء كل إصلاح، وهم معارضو الرسالات دائماً، حفاظاً على وضعيتهم واستغلالهم.

وقد اصطدم النبى ﷺ من أول يوم بالمترفين يعارضون ويعاندون، ورأى الفقراء يؤمنون ويتبعون، وهكذا شأن الناس مع الرسل جميعاً، يقول الله تعالى تسلية لرسوله ﷺ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾[٣]

فالمترفون يكفرون بما يأتيهم من غير سند نقلى أو عقلى وإذا سئلوا عن ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [٤]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صـ٤٦٣ .

(٣) سورة سبأ الآية ٣٤ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٢٣ .

فتراهم يهربون من الإجابة إلى تمسكهم بالتبعية والتقليد، وإلغاء التدبر والتفكير، ومع ذلك يستعملون قوتهم في الضغط على الفقراء المستذلين .

ولولا موقف القلة المترفة في مكة لدخل الجميع في الإسلام من أول لحظة، لكنهم وقفوا وصدوا غيرهم عن الإيمان بالتخويف والإيذاء، متمسكين بما ورثوه عن آبائهم يقول الرازى: إن الداعى إلى التقليد هو حب التنعم بالشهوات والكسل، وبغض تحمل المشاق في النظر والاستدلال، وكلها صفات المترفين (١)

وأيضاً فقد أدى هذا الجدب إلى تقليل الطبقة المترفة التى سرعان ما انهارت أمام الدعوة فدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح، يقول ابن خلدون: إن الترف يبدو في بدايته قوة لكنه في النهاية ضعف يمضى ولا أثر له(٢) **، وبالفعل ضاعت الطبقة المترفة ولم يبق لها أثر ، وآمن الفقراء والضعفاء .**

٣) لقد أدى هذا الجدب بالعرب وأهل مكة إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش فكانت التجارة، وقد نظموها في رحلتين إحدها إلى الشمال صيفاً، وثانيتهما إلى الجنوب أثناء الشتاء، وقد أدى اختلاط العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش، خلال جولات التجارة أن أخذوا كثيراً من نظمهم ، ونقلوها إلى الجزيرة العربية .

وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم وعقائد العالم كلها، حتى قال البعض: أن دار الندوة بنظامها منقول عن البلاط الرومانى ، كذلك تعلم العرب فن الكتابة من هذا الاختلاط (٣) وقد نقلوا كثيراً من معتقدات هؤلاء الناس، لدرجة أن سائر المعتقدات كان لها وجود عند العرب .

كان في العرب الدهريون ، وعبادة الأصنام، والأوثان، وعبادة الحيوان، والنار والكواكب، كما وجدت فيهم النصرانية، واليهودية، والمجوسية، وقد أتتهم هذه المذاهب، والنحل مع اليهود النازحين، أو الرقيق المجلوبين للتجارة، أو

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٣٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ صـ٤٩٢ .

(٣) بلوغ الأرب جـ٣ صـ٣٦٨.

للخدمة، وقد أدى احتواء بلاد العرب لسائر النظم، والمعتقدات أن بدت تعاليم الإسلام وهى تواجه العرب كأنها تواجه البيئة العالمية كلها، عن طريق هذا التمثيل ولو بعدد قليل .

ويلاحظ أن مكة على الخصوص ضمت بينها هذا العدد المتنوع من الملل والأعراف، بسبب وقوعها في مكان تلتقى فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات .

فالطريق الغربى الذى يبدأ من ظفار جنوباً ، وينتهى عند تيماء يمر بمكة .

والطريق الشرقى الذى يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهى عند "صور" بسوريا، يتصل بمكة بواسطة طريق عرضى ، يبدأ من مكة وينتهى عند القطيف [١].

وتتصل مكة أيضاً بالبحر الأحمر عن طريق مينائها "جدة " .

وبذلك كانت مكة معبراً رئيسياً للقوافل الآتية من الشمال، أو الجنوب أو من الشرق أو من الغرب، فتأثرت بأوضاعهم، وأخذت بعض عاداتهم وآمنت بشيء من نحلهم وكأن الله أودع في بيئة الدعوة الأولى **(مكة) ما جعلها كبوتقة ضمت كل عناصر البشر، ومكوناتهم يومذاك لتبقى مرجعاً واقعياً للملل والنحل إلى يوم القيامة .**

وقد ساعد هذا الأمر على وضع الأسس الإصلاحية التى لا تختلف من مكان إلى مكان ، وتناسب كل الأجناس ، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها، وليتحقق أخيراً ما أراد الله من بروز دين الحق ، وإظهاره على الدين كله، ولو كره المشركون ، ومن هنا نزل القرآن الكريم في مكة والمدينة ، ومع ذلك تحدث عن البحر، والنهر، والحديد والمعادن والزروع، وســائر المعتقدات، وتكلم عن أجناس الناس، والمترفين، وأشار إلى مجادلات الدهرية، والنصارى، واليهود، وعبدة الأوثان ، والأصنام ، إصلاحاً للموجود منها في مكة ، وعلى مثيله يصلح العالم كله في زمان البعثة، وفي كل حين إلى يوم القيامة .

٤) أدى التأخر الاقتصادى في الجزيرة إلى وجــود طبقة عــرفت بطبقة

---

(١) الشعراء الصعاليك صــ١٢٥ .

الصعاليك، وقد اتخذت هذه الطبقة لنفسها مراكز في الخلاء الواسع، ومنه تغير لتنهب، وتسرق لتعيش، بسبب أنها كانت تعيش في ضنك دائم، وجوع مستمر [١] .

ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة ببنيها حتى مع وجود التجارة ومن هنا نستطيع فهم السبب في الهجرات التى خرجت من الجزيرة العربية في أفواج متتابعة .

وقبيل الإسلام حاول الكثير من أبناء الجزيرة أن يهاجروا منها بحثاً عن الكسب، وهرباً من الفقر والحاجة، إلا أن ثقل القوة في العالم ، وتمركزها في دولتى الفرس والروم اللتين استوليتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية حبست القبائل في مكامنها المضطربة ، الأمر الذى أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص، والصعلكة، فقامت المنازعات المتكررة بينهم، وعجزوا عن تأسيس قوة سياسية موحدة لها نظامها الواحد ، وجيشها المسلح ، وكان لكل قبيلة نظام يختلف ، ولو نسبياً عن نظم سائر القبائل .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذا الوضع فلم تصطدم بتكتل واحـد يطغى بقوته عليها، وكان هناك دائماً صوت مع النبى ﷺ من القبائل أثناء ضعف المسلمين، وقلتهم .

واستفادت الدعوة كذلك من هذا الاختلاف بأن أزالت ما بين العرب من تعارض، وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم، فتوحدوا سلوكا، وعملاً ، وغاية وكونوا قوة الإسلام وأمته .

ثم عمقت الدعوة الإسلامية عند العرب فكرة الدين، وخاطبت عقولهم، وأرواحهم حتى خالطت شغاف قلوبهم، فشعروا أنهم بها قوة يتمكنون من السيطرة على أنفسهم، وعلى الحياة من حولهم، مع التخلص من كثير من أسباب فقرهم، وحاجتهم، وبذلك خلقت الدعوة الإسلامية للرجل العربى

---

(١) الشعراء الصعاليك صـ١٣٤ والصعاليك طبقة نشأت ابتداء من أفراد منبوذين من القبائل، طردوا إلى الصحراء ، فكونوا بعد تلاقيهم مجموعات ضمت أفراداً عديدين من سائر القبائل ، ونشأت بهم طوائف عاشت في الصحراء لها نظمها وتقاليدها، وكانوا هم طبقة الصعاليك المذكورة .

اتجاهات جديدة، وعلمته مناهج السلوك الممتاز ، مما جعله يحمل الدعوة مؤمناً بها ومنطلقاً بكل خصائصه ليبلغها إلى كل مكان في العالم[١] .

٥) تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي سرة العالم ، لأنها تقع في وسطه ، وتتصل بكل أجزائه ، وأقاليمه .

ففي شرقها توجد الدولة الفارسية .

وفي شمالها توجد الدولة الرومانية .

وفي غربها توجد مصر والحبشة .

وفي جنوبها توجد الهند وبلاد جنوب شرق آسيا .

وأحيطت بلاد العرب بموانع طبيعية من المياه، والجبال تحتاج إلى خبرة وممارسة للتغلب عليها حين السفر والتنقل .

وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار ، أن العربى كان على خبر كامل بشعابها ، وطرق مواصلاتها ، فكثيراً ما جابها راكباً إبله في قوافل التجارة ، وأسواق العرب .

وأيضاً فلقد ركب العربى البحر إلى الهند ، والحبشة ، ولذلك لم تقف هذه الموانع الطبيعية أمام إرادة العربى حينما أراد أن يخرج منها إلى العالم، ولم تكن عائقاً يمنع العربى المسلم من الإنطلاق بدينه ، إلى العالم كله يدعو إليه ، ويعرف به .

ومن هنا سهل تبليغ الدعوة من موطنها العربي الأول إلى العالم بإرسال الرسل، والكتب، واستقبال الوفود، وبعث الجيوش إلى كل مكان، من غير جهد، أو عناء .

٦) أحيطت الجزيرة العربية بحواجز طبيعية منيعة، لأن المياه توجد في ثلاث من جهاتها، والجهة الرابعة مرتفعات تقع في الشمال، وهى عبارة عن حواجز تحتاج في عبورها إلى تدريب، وتمرس شاق، ما تعلمها العربى إلا لحاجته ، أما غيره فليس له إلى ذلك حاجة ، وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد

---

(١) من بحث للدكتور سليمان حزين قدمه للمؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية .

قوى أمام المجموعات الغازية من الفرس، أو من الروم، ولم تمكنهم من اختراقها ، فعاشت الجزيرة تبعاً لهذا بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس، أو الروم، عسكرياً أو عقائدياً [١] وكثيراً ما حاول الفرس ، والروم الوصول إليها في وسطها ، لكنهم عجزوا ، فاكتفوا بالاستيلاء على أطرافها في الجنوب، والشمال، وإرسال الجواسيس إلى مكة، كعاملين في بيوت تجارية من قبل الدولة الرومانية ، أو الأحباش [٢] .

وقد ترتب على منع الغزاة من الوصول إلى سرة الجزيرة العربية آثار هامة ، حيث احتفظ العربى بسجيته ، وفطرته، ولم تداخله تناقضات الفكر ، ولا متاهات الفلسفة، والجدل، وكذلك اهتم بقوميته ، فأحيا الشعور الجاد تجاهها، في كل أرجاء الجزيرة ، وانتهز الفرص لإعلانها ، فلما كان يوم قدوم أبرهة بجيشه الذى قصد مكة في أول محاولة عسكرية تتجه إلى مكة لهدم الكعبة تصدى له في الطريق منذ خروجه العرب في البوادى، لأنهم شعروا أنه بتوجهه إلى الكعبة ومكة موجه ضد مشاعرهم ومناسكهم في نفس الوقت .

يقول الأزرقى : **أن أبرهة لما خرج بجيشه يريد البيت الحرام ، خرج له رجل من أشراف اليمن ، وملوكهم يقال له " ذو نفر " فدعا قومه ، لمجاهدة "أبرهة" وقتاله ، لكنهم انهزموا [٣] وفي منصف الطريق عند " خثعم " تصدى له نفيل بن حبيب الخثعمى وقبيلته ، لكنهم انهزموا كذلك .**

ولما وصل أبرهة إلى مكة ، وهلك جاءت التهنئة لأهل مكة من كل مكان تحمل أشعاراً مطولة، أوردها مؤرخوا السير [٤] .

ولقد وقف العرب ضد حملة " أبرهة " لمعرفتهم أن القصد منها ليس هو تأديب من عبث بـــ "القليس" والانتقـــام لها ، ولكن المقصود هو الاستيلاء على

---

(١) حياة محمد صـــ٧١ .

(٢) أسواق العرب صـــ٢٥ .

(٣) أخبار مكة جـــ٤ صـــ٨٧ .

(٤) كثير منها في سيرة النبى ﷺ جـــ١ صـــ٥٩-٦١ .

مكة ، والإفادة بما تدره تجارتها[1]، ومن هنا كانت المجابهة العربية ضد الحملة قومية شاملة لعرب اليمن، والأعراب في البوادى، ولأهل مكة .

وفي أكثر من موقف ظهر هذا الشعور القومى ففي يوم طرد الأحباش من اليمن، وعودة الملك إلى " حمير " عمت الفرحة سائر الجزيرة العربية يقول الأزرقى : **إن وفود العرب جميعاً خرجت لتهنئة " سيف بن ذى يزن " فخرج وفد من قريش ووفد من ثقيف وعجز هوازن، وهم نصر، وجشم، وسعد بن بكر ومعهم وفد عدوان، ووفد غطفان، ووفد تميم، ووفد قبائل قضاعة، والأزد** [2] وقد ساعد على نمو هذا الشعور القومى، واستمراره شعور العربى بأن الروم والفرس يرقبونهم وينتظرون فرصة يهتبلونها ضدهم .

وأيضاً فقد خلط العرب هذا الشعور القومى بنزعتهم الدينية، وتجارتهم، وأعمالهم وأبرزوه في عمل ملموس يرتبط بمكان معيشتهم ، ويدور مع الزمن بانتظام ، حيث جعلوا من أشهر السنة أربعة أشهر يحرم الصراع فيها ، وأثناء هذه الأشهر تقام الأسواق حول مكة ، فتختلط التجارة وهى عملهم ، بالحج وهو عقيدتهم ، بالشعر والخطابة وهما رمز قوميتهم وفخرهم ، جاء في أخبار مكة أنه " **إذا جاء موسم الحج خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بـ " عكاظ " يوم هلال ذى القعدة فيقيمون عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، والناس يبيعون ، ويشترون ، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى " مجنة " فأقاموا بها عشراً ، أسواقهم قائمة ، فإذا رأووا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز فأقاموا بها ثمان ليال أسواقهم قائمة ثم يخرجون يوم التروية إلى عرفة آخر أسواقهم** [3] .

وكان القصد من إقامة هذه الأسواق في موسم الحج وبجوار مكة هو حضور أكبر عدد من سكان المناطق النائية، لكى يزودوهم بالشعـر القومى ،

---

(١) التاريخ الإسلامي العام صـ٤٩ .

(٢) أخبار مكة جـ١ صـ٩٤ - ٩٦ .

(٣) نفس المرجع جـ١ صـ١٢١-١٢٢ .

والنماء الاقتصادى ويؤكدوا الرابطة بين سائر العرب .

وفي خلال الأسواق كانت تقام المسابقات الأدبية، ويتبارى الشعراء والخطباء، في مفاخر قبائلهم، وسمو لهجتهم، تحت شعار الأمن والسلام ، الذى حتمته الأشهر الحرم، وقد أدى كل هذا إلى تقوية اللهجات، واتحـاد العرب في لغة واحدة، وفي وضع الأصنام متجاورة في مكان واحد .

وهذا كله أفاد الدعوة الإسلامية **إذ تمكنت من صهر النزعة الدينية عند العرب وتحويلها إلى معبود واحد ، كما أن النزعة القومية أعطت العرب روح الغيرة، والحماس، والاندفاع، تبعاً لمشاعرهم .**

وبالدعوة الإسلامية تحولت هذه الخصائص إلى مصلحة الإسلام، وفي خدمته، وأيضاً فإن بعد الروم والفرس عن وسط الجزيرة مكن الدعوة من النمو التدريجى، على سنة البشر قبل أن تتمكن أى قوة من قهرها، أو كبتها . هـذا...

ولو قارنا سائر الأماكن بالمكان الذى اختير لظهور الدعوة لوجدناها غير صالحة لأن تظهر الدعوة فيها، فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية أخمدا بها كثيراً من الثورات في عنف وقسوة، وأدى نظام الطبقات فيهما إلى جعل الرجل العادى يفقد شعور الحماس تجاه الدولة، ويتمنى زوالها في وقت لا يملك فيه نزعة إلى شئ ما، وأيضاً فإن سائر الأمم في هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها، ولم يحدث أن جمعت واحدة منها ما جمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل، والعقائد، وحرمت كافة البيئات أبناءها من النشاط الذى اكتسبه العربى بسبب خصائص بيئته ، وأيضاً فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب بسبب مكة والكعبة، وتميزت الجزيرة العربية بوقوعها جغرافيا في وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز في كل جوانبها.

هذه العوامل مجتمعة لم تتحقق لأى مكان غير الجزيرة العربية ، ولذا كان **قدر الله تعالى** بظهور دينه أولاً فيها ليحدث التـوافق بين الإسـلام وسـكانها، **وليكون الانطلاق** منها إلى العالم كله أمراً ميسراً على المسلمين فيما بعد .

وأخيراً نقول : إن المكان الذى ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموع من الظروف الطبيعية جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الخاتمة العامة للجميع ، ومن المستحيل أن تجتمع هذه الظروف في بيئة أخرى من كونها وسطاً ، ومحصنة، ودافعة بنيها إلى الهجرة والتأمل، وتكوين نزعة دينية وإحساس أخوى سليم يفيد الدعوة تماماً ، وقد كان فتحولت النزعة إلى عقيدة، ونظم الشعور الأخوى في قوة انطلقت دفاعاً عن الدعوة وفي خدمتها .

وحين ننظر في الفوائد العصرية المستنبطة من اختيار الجزيرة لظهور الدعوة فإننا نرى ضرورة الاتصال بالله تعالى في صدق وإخلاص، والإحاطة بقدرته وعظمته، في خشوع وتذلل .. كما نرى ضرورة التواصل مع الآخرين، ومعرفة عاداتهم ومذاهبهم ليكون التعامل معهم بكيفيات تناسبهم ... ولابد من تعود الحركة والسفر والانتقال إلى الناس حيث هم لتبليغهم دين الله تعالى .

ويجب على الدعاة أن يبعدوا دينهم عن أي شائبة تلحق به من المذاهب الوضعية، والأساطير المخترعة ليبقى للإسلام نقاؤه وصفاؤه ... ويجب أن يمتلئ المسلم حباً لدينه، وإخلاصاً لدعوة الله تعالى .

وهكذا أفاد المكان الإسلام حين ظهوره، ويفيده بدروسه وعبره على الزمن كله .

المبحث الثالث
التوافق بين الإسلام
وزمن ظهوره

في أوائل القرن السابع الميلادى وعلى حين فترة من الرسل ظهرت الدعوة الإسلامية هداية للناس أجمعين، وخاتمة لكل الرسالات و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقد تجلت حكمة الله تعالى في اختيار هذا الزمان الذى تميز بالخصائص التالية :-

١) تعدد الصراع :-

ساد العالم في هذا الزمان صراع عام، فلم تخل أمة، أو منطقة منه، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها، وأهم ما تميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسى، أو اقتصادى ، أو دينى ، تبعاً لاختلاف البيئات .

ففي البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة والرئاسة، وبخاصة بعد أن وزع " قصى " الأعمال بين القبائل، وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفي البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر في الدين، والسياسة، والسلطة.

وفي الفرس كان السبب هو الدين حيث عبادة البشر، وتأليه الإنسان .

وفي الحبشة كان السبب هو الاختلاف حول طبيعة المسيح .

وفي الهند كان السبب هو نظام الطبقات الموجود في البرهمية .

إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع فإن هناك ظواهر عامة كانت موجودة في سائر الأمم من أمثال **ظاهرة الرق التى أخذت** شكلاً عاماً، وسادت العالم كله، وأوجدت بين الناس طبقة مستذلة، لا تملك من أمر نفسها شيئاً وتباع وتشترى كالحيوان والمتاع تماماً ، وقد انتشرت أسواقهم في العالم كله ، وتعمقت هذه الظاهرة بعد أن أخذت الطابع المقدس في كثير من الأقاليم .

كما ساد الصراع الداخلى سائر الأمم، ففي الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة من أشهرها ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التى طالبت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة، وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً(١) .

وفي الدولة الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية، وقامت ثورات عدة، وحروب كثيرة من أشهرها في بلاد الغال " فرنسا " حيث ظهر الصراع بين كلوفسى وسيجاريوس ، والثورنجيين ، والبرجنديين ، واللألَيمان وكان هناك صراع في إيطاليا كما وجد صراع بين البربر في شمال أفريقيا (٢).

وعند العرب كانت أيامهم، كيوم داحس والغبراء الذى استمر مدة طويلة، وحرب بعاث بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلام .

وفي فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب والابن ، ومما ساعد على ازدهار الصراع في الفرس ظهور مذهب " مانى " القائم على الشيوعية المطلقة في المال، والمرأة .

ومع الصراع الإقليمى وجد الصراع الدولى بين الفرس والروم، إذ كانت الحرب مستعرة بينهما على الدوام في أطراف الجزيرة العربية جنوباً في اليمن، وشمالاً بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدى حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، سواء كانت هذه التغييرات متجهة إلى التقدم أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء الاجتماع بضرورة هذه التغيرات إلا أنها تتجه عندهم في النهاية إلى التطور والتقدم يقول إيمانول كانت : إن القوة التى تدفع التاريخ إلى التطور هى الصراع ، وهيجل يرى أن التعارض هو أهم العلاقات الإنسانية ، وأن حركة التطور الاجتماعى ما هى إلا النماء المستمر للأضداد، ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة في التطور(٣) .

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية صـ٦٠ – ٦٣ بتصرف .

(٢) المسلمون والجرمان صـ٢٥، ٣٠، ٣٧ .

(٣) أصول علم الاجتماع صـ٨٥ ، ٢٢٠ .

ومن التغييرات التى يمكن أن تحدث بعد أى صراع ظهور قوى جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة، كما أن التفتح الذهنى يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشئ معين، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هى فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا لأن القوى الجديدة التى ظهرت في مكة، كانت ركيزة لإنطلاق الدعوة وفكرها ، وكان اتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التى لا تتعصب لمواريث قديمة لهم، كما أن الأفراد الأقوياء كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب كان لهم دورهم في الدعوة.

وأيضاً فإن الانفتاح الذهنى، وذوبان التعصب يخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها ، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية ، ورغبة الضعفاء في التخليص من الظلم الواقع عليهم دفعاً إلى الدخول في الإسلام ولذا فإن الضعفاء هم أتباع الدعوة في العرب وفي كل مكان، لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق، وذل الطبقية، وضعة المنبوذين، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما لا ينالهم منه سوى الظلم، والجبروت، والتعالى، وإنما يتجهون إلى الله الخالق، صاحب النعم كلها، الذى يملك الخلق كله، ويحيط به علماً وإرادة وقدرة، ويوزع رحمته على جميع الناس، ويأمر في الدعوة بالقيم الراقية، والسلوك الممتاز، ويحث على إقامة أخوة صادقة، ومساواة حقيقة، وعدل في الكسب والعمل، ويتعامل مع الجميع بالخلق والتكريم .

إن وضعية الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ومبادئها ، كما أن المتصارعين يجدون بغيتهم في الدعوة ، لأنها تهدم سبب صراعهم ، وتؤاخى بينهم بالحسنى وتعودهم على الألفة والخير ، ومن هنا لجأ المتحاربون من الأوس والخزرج إلى النبى ﷺ في مكة ليؤمنوا بدعوته ويسلموا له كى ينتهى الصراع، وقد كان، فتم بعد الهجرة انتهاؤه، وتسلم المهاجرون الأمر في المدينة،

وتآلف الأوس والخزرج بحق تحت لواء الإسلام .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق حيث انتشرت في العالم كله، بشكل مستمر ومتجدد، كما أنها لامست سائر حياة الناس، وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول، وهذا العمق، **فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذرى في المجتمع، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس، وتحرير العبيد، والمنبوذين ، والأجراء من وضعهم البائس، ووضعهم في الإطار النظيف الذى وضعته للناس أجمعين بما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة .**

لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

ومن هنا فإننا لا نعدو الحقيقة حين نذكر أن صراع هذا العصر كان من حكمة ظهور الدعوة فيه ، وجلت حكمة الله القدير – وحاشاه – أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة ، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة والمتعلقة بكل شئ تنبع من قوله تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

٢) تمام النضج الفكري للناس :

شاهد القرن السادس الميلادى تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الأستاذ محمد عبده [1] .

ولعل المراد من النضج العقلى المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلى المنظم، الذى يستنتج من المحسوس ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها، وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل والنقد، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم ، ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط تنبهر بالعجائب، وتسحر

---

(١) رسالة التوحيد صـ١٥٥ .

بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة ، فإن الخوارق إليهم كانت حسية، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين، كما حدث لما أحيا المسيح شاباً في مدينة " نابين " أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين " **قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه** "[١] .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافقه عصر نضج عقلى واضح ساد العالم كله، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان متجهاً إلى الناحية الدينية، وأوهامها، ولم يجد الناس مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أممهم وأديانهم .

ففي العالم النصرانى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية من أمثال **المناداة بألوهية المسيح ، وتركبه من طبيعتين،** مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً من قبل الإله الواحد وأحاطه بالخوارق التى لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه .

وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال.

إن تصور مذهب الطبيعتين ينهار أمام النظرة الفاحصة، وقد حدثت له المعارضات التي صاحبتها أحداث خطيرة في كل العالم المسيحى .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً، يقول ابن البطريق" إن **الذنب ليس على أريوس " وهو راس المنادين بالتوحيد ، بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير " أريوس" الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية**[٢] وهذا دليل على نضج عقلى وجدبين المسيحيين على سعة فيهم ، جعلهم يحاولون، إصلاح معتقداتهم، بل إن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا هم أيضاً بعقلهم، وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية في صورة تشبيه عقلى، وهذه إن دلت فإنها

---

(١) إنجيل لوقا الإصحاح السابع فقرة ١٤-١٦.

(٢) محضرات في النصرانية صـــ١٢٣ .

تدل على تقدم ذهنى، وفهم فيه نوع من التجريد والعقل، يقول الشهرستانى _ عنهم : " **ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد أراء منهم من قال: انطبع الأب في الابن انطباع النقش في الشمع ، ومنهم من قال: " ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى، ومنهم من قال: تدرع اللاهوت بالناسوت، ومنهم من قال: مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء والماء باللبن**(١) " فهذه الأدلة مع ما فيها تدل على تقدم معين، ويكفي أنها من أنصار التعصب المسيحى الذين آمنوا بألوهية المسيح، وحاولوا جعل هذه الألوهية فكرة مستساغة أمام العقل فأتوا بهذه التشبيهات ليقربوا فكرة اتحاد ألوهيته مع إنسانيته .

ولو تركنا عالم المسيحين إلى غيرهم ، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة " بوذا " على الهند وكية في بعض تعاليمها، ومحاولتها تبسيط العقائد، والاهتمام بالأخلاق، والعودة إلى الفطرة، بل إن الهنود قبل الدعوة الإسلامية كانوا يتجهون لواحد من الآلهة **ويخصونه باسم " رب الأرباب " " وإله الآلهة** (٢)" وهذا نوع من التوحيد لم يعهده الهنود من قبل فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة، ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة بلا التفات إلى حقيقتها ، أو فهم لمعنى عبادتهم لها إلا أنهم في هذا العصر بسبب النضوج تمكنوا من تخطى الردة العقلية وقرب بعضهم من توحيد الآلهة .

وفي الجزيرة العربية وعلى الرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام ، وتعظيم الحجر فإن النضج الذى اتسم به العصر بدأ يظهر في العرب إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام ويقلل الصراع والشرور ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة فأحاطوا بفصولها ونظموا التجارة على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أماكن الجزيرة، وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب المادى ، وتقوية للشعور القومى ، وللتسابق اللغوى والأدبى وكأنها

---

(١) الملل والنحل جـ١ صـ٢٠١ .

(٢) ملامح الهند وباكستان صـ١٤٣ .

مؤتمرات تمهد لوحدة مقبلة .

وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمكنة والأزمنة ، **فعن الأمكنة** وزعوها في ملتقى جميع أبناء الجزيرة ، **وعن الأزمنة** ، جعلوها في الأشهر الحرم [١].

وبهذه الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة، والقول الجرئ، والنقد الحر وكل هذه أسباب ، تجعل العقل ينمو باطراد ، وخصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلوا سوق " عكاظ " في أول شهر ذى القعدة و " المجنة " في آخره، وذى المجاز وعرفه في شهر ذى الحجة ربطاً للدنيا بالدين، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة والكعبة فيعيشون هذه الأسواق ويكتسبون مع شعورهم الديني بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلى عند العرب **ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس، ويرون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق، والطريق إليه،** مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، وليل داج ، ونهار ساج ، وقد وصلت هذه الجماعة برجاحة عقلها إلى بعض شريعة إبراهيم عليه السلام .

وفي الحق لقد وصل النضج الفكرى إلى مستوى ممتاز ، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التى جعلها الله في قرآنه الكريم الذى نزل للناس يؤمن بالكلمة، ويخاطب العقول، ويهتم بالمعانى والأفكار، وينقل الإنسان من عالم الحس، إلى عالم الغيب والإيمان به، مع اشتماله على أساليب بيانية تتعدد أمام الفكر، تبين وتؤكد وتجادل، وتقرب، قاصدة الإقناع العقلى، واليقينى النفسى، والثبات مع الروح والوجدان أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقول الشيخ رشيد رضا : إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها ، وفي موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لإتباع من

---

(١) أخبار مكة جـ١ صـ١٢١، ١٢٢.

تصدر منهم أمور مخالفة للنظام الكونى ، وإنما جعل الله حجة نبيه كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه ، وبإعجازه اللفظى والمعنوى ، ليربى البشر على الترقى مما هعم فيه من إسفاف إلى ما هم مستعدون له من الكمال [١].

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية .

ودائماً يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول في دعواه، وينظرون إلى ما جاءهم به، ويعلموا أنه وحى من الله ، ودليلهم المعجزة التى يعرفونها يقيناً حيث تفوقوا في جنسها ونوعها كما ظهرت لهم.

إن معجزة موسى عليه السلام في قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً، وإخراج اليد بيضاء من تحت الجناح.

ومعجزة عيسى عليه السلام إلى قوم اشتهروا بالطب هى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

فكان لزاماً أن تأتى معجزة الإسلام على هذه السنة، وما دام العالم كله على وجه العموم في موجة رشيدة من النضج الفكرى لزم أن تكون معجزة الإسلام متجهة للعقل تقنعه بدقة، وتسمو به بنبل وتتعامل مع الإنسان على اعتبار تميزه وتقدمه .

وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان وعلوم البلاغة والفصاحة ولذا كانت المعجزة هى القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج، ومراعية للبلاغة والفصاحة، ليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم، مقدرين نضجه الذى ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة [٢].

ولو تساءلنا بعد ذلك عن الأثر المستفاد من واقع ذاك الزمان في عالم اليوم فإننا نرى أن صراع اليوم قد اشتد، ويجب أن يستفيد المسلمون منه بالترقي والعلم، والتخلص مما هم فيه من ضعف وهوان ... وليعلموا أن قوى

---

(١) الوحي المحمدي صـ٦١ .

(٢) توضيح العقائد صـ١٧٢ بتصرف .

الجهل تنهزم دائماً أمام شجاعة الحق وأن الأوهام لا تعيش طويلاً أمام نور الحق، وبزوغ الصواب .

إن جند الباطل يعمل، وينقاد لشيطانه ... بينما أهل الحق يعملون لله، وينصرون الخير، ومعهم الإسلام يمدهم بالزاد، ويعينهم بقدرة الله تعالى، والله على كل شيء قدير .

المبحث الرابع
التوافق بين الإسلام
وأمة الدعوة الأولي

ظهرت الدعوة الإسلامية أولاً في الأمة العربية وبواسطة هؤلاء العرب انطلقت إلى العالم كله، وذلك لمميزات وضعها الله في العرب، واختارهم من أجلها ليكونوا أمة يبعث النبى فيها ، وبلسانها ، وينزل القرآن بلغتها، مراعياً جانب التفوق العربى في إعجازه، ودقته ، ولابد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها، واتجاهه إليها عند كل صلاة ، وحج، وعلى قدره تحمل مسئولية إبلاغ الدعوة إلى كل الآفاق ، وفق منهج مقدس ، ونحن هنا نتلمس البحث عن بعض مميزات هذه الأمة لنعرف حكمة الله في اختيارها لتحمل الإسلام للعالم وتتركه في الناس أجمعين ويمكننا أن نجمل هذه المزايا في أمور نذكرها فيما يلى :-

١) إن دول الحضارة يومذاك كالفرس والروم والهند عاشت مع صفات الحضارة كلها من بعد عن الفطرة الخيرة، بسبب الإكثار من فنون الملاذ والترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتها، وانتشار الفحش في القول والعمل بين الصغار والكبار، وانصرافهم عن كل أمر ذى بال كتركهم أمر المعتقدات يوجهها نفر منهم ، ولم يقفوا ضد أى تغيير حتى ولو كان خطأ ما دام لا يتعارض مع عاداتهم الفاسدة، وأمراضهم النفسية المتفشية[١].

وقد كان ذلك هو الواقع في دول الحضارة حيث انتشر في الدولة الرومانية دين ملوكها، واتبع الناس عقيدة السلطة حتى العلماء في المجامع المقدسة، سواء كانوا من أنصار الطبيعة الواحدة، أو الطبيعتين، جميعهم كانوا يخضعون لآراء السلطة، وكان المؤمل فيهم أن يتبعوا نهجاً حراً في أبحاثهم، ونتائج اجتماعاتهم في الأمور الهامة التى تمس العقيدة، لكنهم عاشوا مع اتجاه السلطة وفسادها .

وفي دولة الفرس استسلم الناس لتقديس القيصر، وخضع له الجميع على

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ صـ٤١٤.

أساس صلته بالإله، وقربه منه .

وفي الهند وجدت الطبقات باسم الدين وكان ذل الطبقات الدنيا، وخضوعها لغيرها يعد عملاً مقدساً يتعبد به الهنود ويتقربون به لآلهتهم من البشر .

كذلك انتشر في دول الحضارة **نظام الإقطاع** الذى أضعف روح العصبية والترابط بين الأفراد، وجعل الرقيق والمزارعين جزءاً من الأرض، يباعون إذا بيعت وإذا بقيت بقوا، ومثل هذه المجتمعات لا تكون إلا شخصاً يعيش للتبعية ، وتنفيذ الأمر المتلقى ، ولا يحمى عقيدة دينية ، ولا يدافع عن مبدإ مقدس ، مما جعلهم غير أهل لنزول الدعوة فيهم ، لأن العقيدة الدينية تحتاج في كل أحوالها إلى عصبية الأفراد حتى يمكن أن يحملها الكل .

يقول ابن خلدون : إن كل أمر تحمل عليه الكافة فلابد له من عصبية ، وكان حال الأنبياء عليهم السلام في دعواتهم إلى الله بالعشائر والعصبية ، وهم المؤيدون عن الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة من أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم[١]، وذلك لأن الدعوة بلا عصبية تكون عرضة لأن تموت في مهدها حينما يهاجمها المترفون أعداؤها .

ومن المعلوم أن الحضارة تفتت العصبية ، وتميت الشجاعة بسبب أن أفرادها يكلون أمر المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، وإلى الحاكم الذى يسوسهم ، وينامون خلف الأسوار التى تحوطهم، والحرز التى تحول دونهم ودون غيرهم، فلا تهجعهم هيعة فهم غافلون آمنون[٢] **إن الطبقة المترفة في دولة الحضارة بعد فقدها للعصبية والشجاعة تبذل قصارى حيلها لتحافظ** على مزاياها، ومن هذه الحيل تنصيبها لمجموعة من الكهنة تخدع الناس وتلهيهم ، وقد تحدثت الكتب السماوية عن بعض هؤلاء الكهنة فذكرت أنهم بسبب عيشتهم الحضرية، وتمتعهم بمزايا الطبقة، ومن أجل المحافظة على أوضاعهم حاربوا النبوات ، وأنكروها .

---

(١) مقدمة بن خلدون جـ١ صـ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٢) المرجع السابق جـ٢ صـ٤١٨ .

جاء في العهد القديم الذى حرفه هؤلاء الكهنة " **يقول رب الجنود إنى أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضاً والروح النجس من الأرض** " [١] .

فتراهم ينسبون إلى الرب أنه سيزيل الأنبياء من الأرض أيضاً كالأصنام ، والروح النجس ، بل إن الكاهن " أميعا " كان أول من تصدى للنبى " عاموس " من أجل الملك .

ومن أجل المحافظة على وضعه ، وميزته وشى بعاموس عند يربعام تقول التوراة : " **أرسل أميعا كاهن بيت " إيل " إلى " يربعام " ملك إسرائيل قائلاً: قد فتن عليك الملك عاموس في وسط بيت إسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله ، وقال له عاموس "مباشرة " اذهب اهرب إلى أرض يهوذا وهناك كل خبزاً وهناك تنبأ وأما بيت " إيل " فلم تعد لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك**[٢] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود الذين يتزعمهم هؤلاء الكهان فذكر أنهم كانوا ﴿ يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٣]
وكانوا ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٤]

فإذا ما انضاف إلى فقدان العصبية، والشجاعة، وفساد الكهنة، ودورانهم في خدمة سادتهم، وسلطانهم، إذا ما انضاف إلى ذلك تفشى الترف، والفساد، وخاصة بين هؤلاء الممتازين في المجتمع الحضرى الذى تعالوا فيه على من دونهم، وبعدوا عن مشاركتهم حياتهم، أو الاستماع لفكرهم، أو الإصغاء لأية دعوة تأتى من قبلهم ، **تحقق ما نهدف إلى إثباته من أن أمة الحضارة ليست هى الأمة المثالية لحمل الدعوة وإبلاغها .**

ولا يرد هذا الإثبات ما ظهر في أمم الحضارة من نظام إدارى ، وفكر سياسي ، أو ظهور حكماء وفقهاء كحكماء الهند وفقهاء الروم ، **ذلك لأن الدعوة**

---

(١) سفر زكريا ، الإصحاح الثالث ، فقرة ٢ .
(٢) سفر عاموس الإصحاح السابع فقرات ١٠ ، ١٢ ، ١٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٢١ .
(٤) سورة المائدة آية ٧٠ .

الدينية وإن احتاجت إلى النظام، والحكمة، والفقه، إلا أنها تحتاج أكثر إلى غير هذه الصفات كاحترام فردي، وشجاعة دافعة ، واستقلال معين تجعل النبى يدعو فرداً، فرداً، وتسمح للفرد أن يتخذ قراره بنفسه كما حدث في مكة مثلا، فلقد كانت الدعوة فردية دائماً أما حينما دعا ﷺ الحضارة فإنه ﷺ لاحظ خصائصها، فوجه رسله، وكتبه إلى الأمراء، والملوك، وحملهم إثم رعاياهم لأنهم في حوزتهم وتحت حمايتهم ورأى العامة تابع لهم .

هذا عن أمم الحضارة أما البدو الخلص ففيهم عصبية وشجاعة ونخوة يكتسبونها من حياتهم ونظام معيشتهم ذلك لأنهم يعيشون دائماً لرد غارة أو على استعداد له، وما هدوءهم إلا اتفاق مدبر يتجنبون به شر الحياة، ويبتعدون به عن القتال والحروب التى يتوقعونها في كل وقت، وأيضاً فإن البدوى يعيش منفرداً عن المجتمع، بعيداً عن الحامية العامة ومن هنا يقوم بالدفاع عن نفسه وماله، يحمل السلاح وهو يتلفت إلى جوانب الطرق[1] مخافة صعلوك مغير أو منبوذ ثائر، إلا أن البدوى مع هذه الصفات يرحل دائماً، وينتقل تبعاً لمورد ماء ووجود عشب، وهذا يجعله غير ميسر لأن يخضع لنظام معين، وهو لا يثق فيمن يجاورهم لفترة محدودة، ولا يستمع لدعواهم، ومن هنا اقتصر البدو على بداوتهم وانعزلوا عن كل جديد يأتيهم ، ولم يستمعوا إلى صوت الإيمان لأنهم لا يثقون في غيرهم ، **وهذا كله لا يجعل البداوة الخالصة بيئة مثالية لظهور الدعوة فيها، وإبلاغها للناس كالحضارة الخالصة تماماً .**

إن الدعوة الدينية لابد لها من حماس معين يحقق الإندفاع الذاتى وراء المعتقد، والالتزام به على أنه حياة، ولابد لها كذلك من تفتح العقل والفكر والفهم ليكون مع الحماس بساطة التصديق، وعمقه بلا تفاق أو تردد ، ولابد لها أيضاً من إيمان قوى مبنى على الاقتناع، مع عصبية واعية ليس همها الحرب والغارة، ولكن أهم أهدافها نشر الإيمان والدفاع عنه ، ولابد لها من سهولة التغيير والتصديق، وصعوبة التبديل والارتداد لتسهل طاعتها ويستحيل

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ١ صـ٤١٨ .

الردة عنها ، وكل هذه ضرورات تحتاج إلى شئ من صفات الحضر وشئ من صفات البدو فيفيدها من البدو الحماسة والعصبية وسهولة التغيير وصعوبته فليس أكثر من التغيير في حياة البدوى، لأنه دائماً على عزم السفر والترحالّ وليس أكثر من الثبات عنده يحافظ على عهد الآباء والأجداد، وتستفيد الدعوة من الحضارة والاستقرار والتصديق التكيف مع القواعد المنظمة في المعاملة .

وهذا الخلط من الصفات البدوية والحضرية لا يتحقق إلا لقوم سكنوا مدناً وسط الصحراء، تمر بها القوافل، ويأتيها الناس من جميع الألوان لأهداف دينية أو دنيوية، ومثل هذه المدن تجد فيها بعض الصفات البدوية التى حافظت عليها منذ نشأتها وبسبب موقعها الذى لم يتغير وسط الصحراء التى سكنها البدو من حولهم في كثير من الأوقات ، ونجد فيها كذلك بعض الصفات الحضرية المكتسبة من الوفود التى أتت إليها، أو من سفر أبنائها إلى مناطق الحضر ، وهذا شئ بدهى لأن الإنسان دائماً يتأثر ويؤثر فيمن يختلط بهم ويراهم .

ومكة والمدينة والطائف مدن من هذا الطراز لأنها جميعاً تقع وسط صحراء مجدبة يسكنها أهلوها منذ القديم، وتأتيهم القوافل من سائر الأقطار للتجارة وللحج، وللإشتراك في الأسواق، وهم ينتقلون أيضاً إلى المواطن البعيدة متاجرين، ولذلك وقفت هذه المدن الثلاث بين الحضارة والبداوة في صفاتهم وأخلاقهم ومن هنا كان أهلوها هم أمثل الأمم لحمل الدعوة الإسلامية وإبلاغها إلى الناس أجمعين، وإنما كانوا أمثل الناس لأنهم يمتلئون حماياً وتوثباً وشجاعة ويتمسكون بمواريثهم حتى الفناء، ويندفعون فداء من أجل عرض يمس، أو كرامة تهان، ومع هذا كانوا يحافظون على قواعد حماية الكعبة، وإكرام أضيافها، واستقروا حولها مستفيدين من التجارة والقوافل التى ترد إليهم، أو يقومون بها إلى غير بلادهم، ووضعوا نظام إصدار الحكم في دار الندوة، وكان حلف الفضول أساساً لوضع الحق في نصابه، ومحاربة الظالم أيا كان ، كل ذلك فطرة سليمة وكبرياء عجيب .

ثم إن أصحاب هذه المدن الثلاث قد تركوا التعصب الديني، وقد رأينا أنه لم يحدث صراع قط بسبب الأصنام والأوثان بين العرب، كما أن المشرفين على الآلهة لم يكتسبوا ميزة ما، ولذلك لم يرد لطبقة دينية أى ذكر لأنها لم توجد

إن البعد عن التعصب بهذا النمط يجعل الآذان مفتحة لسماع الدعوة التى تأتيهم كما أن إنعدام الطبقة الدينية يجعل الفراغ واضحاً أمام من ينظر إليه ويتأمله، وليس معنى هذا أن ساكنى هذه المدن خلوا من كل عيب ففيهم من عيوب الحضر وجود قلة مترفة مستغلة تبغى السيطرة والسيادة، وتحارب كل ما يعارض مرادهم، لكن وقوع هذه المدن على مقربة من البداوة جعلها لا تخضع لطبقة واحدة، لأن كل قبيلة تمثل دولة لها نظامها في الحكم والرئاسة والتحكم، وبذلك انحصرت القلة المترفة في عدد نادر لا يؤثر كثيراً ولا يستمر طويلاً أمام الدعوة الجادة .

وهذه القلة هى التى وقفت أمام الرسول ﷺ في مكة تجادله، وتضع العراقيل الممكنة في طريقة وتصد الغالبية الفقيرة عن أتباعه .

وفي يوم القيامة سوف تظهر هذه الحقيقة حيث سيتجه بعض هؤلاء الأتباع لربهم ويقولون له ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾[١]

فالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون لأمرهم في الدنيا ويقتدون بهم ولذلك يطلب الضعفاء أن يضاعف الله عذابهم ويلعنهم لأنهم ضلوا وأضلوا غيرهم ، بل إن هؤلاء الأتباع يتناقشون مع سادتهم يوم القيامة على النمط التالى كما ذكره القرآن الكريم ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾ [٢]

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨.

(٢) سورة سبأ الآية ٣١ .

فيرد السادة ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[1]

فيرد المستضعفون ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ﴾ [2]

ومن هذه المناقشة التى أوردها القرآن يظهر دور السادة في إضلال القوم وصدهم، ولولاهم لأسلموا، وكانوا في صدهم يتبعون وسائل كلها الخديعة والحيلة من غير فتور أو كسل فهم يأمرون بالكفر في السر والعلن، ليلاً ونهاراً، ولكثرة ذلك منهم أسند المكر إلى الليل والنهار ليفيد مداومة السادة على الإضلال والإصرار عليه .

بل إن هؤلاء السادة رغم قلتهم كانوا يعقدون الاجتماعات، ويطلبون من القوم أن يطلقوا الإشاعات التى يؤلفونها لهم فهم الذين اجتمعوا ذات يوم في مكة ليخترعوا وصفاً منفرداً ضد القرآن الكريم، وبالفعل اختاروا وصفه بالسحر وقالوا ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [3]

ونادوا في الناس ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[4]

لكن هذه القلة لم تدم طويلاً فإنها انزاحت في المدينة في حرب "بعاث" وانزاحت في مكة بعد الهجرة بوقت وجيز يوم "بدر" وكان زوالها إيذاناً بدخول الناس في دين الله تعالى، ورغم أن هذه الجماعة أطبقت بقسوتها على مكة قبل الهجرة فإنها ما لبث أن ضاع سلطانها، وحينئذ وجد الضعفاء متنفساً لهم بزوال سـلطان هؤلاء السـادة يوم فتح مكـة فدخلوا في دين الله تعالى بأعداد كثيفة معترفين بالحق من غير التواء أو غضاضة .

يقول الزمخشرى عند تفسـيره لقوله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٢ .

(٢) سورة سبأ الآية ٣٣.

(٣) سورة المدثر الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) سورة فصلت آية ٢٦ .

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [١] إن الدين كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين[٢] .

ولقد تأخر المستضعفون في مكة عن إعلان إســلامهم حتى يوم الفتح بسبب ضعفهم فقط، وكثيراً ما آمنوا بالله خفية وسراً وفي يوم الحديبية أشار الله تعالى إلى ما كان من هؤلاء المستضعفين بقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [٣] فهؤلاء الرجال والنساء أسروا إسلامهم ولم يحيطوا به أحداً خوف الإيذاء والاضطهاد، ومن أجلهم منع الله القتال يوم الحديبية، وكتب السلام بين الفريقين لأن المسلمين لو دخلوا مكة لفتكوا بهؤلاء المستضعفين من غير علم بهم فيكون العار وهم لا يعلمون [٤].

وفي هذه المدن التى جمعت من صفات البدو والحضر بعض عيوب البدو كعصبيتهم الحادة التى جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً لا يخضع لغير قبيلته فلم تقم لهم بذلك دولة واحدة ، وكان الرئيس فيهم كواحد منهم، بل كان يتقرب إليهم بالحيل وتحسين المعاملة كسباً لودهم، وفوزاً برضاهم عنه ، وعن رئاسته.

وهذه العصبية فاقت حدها فانقلبت إلى ضد المطلوب منها، لكن ما فيهم من سلامة الطبع، وبعدهم قليلاً من البداوة جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية على أساس أن الوازع في هذا الخضوع لم ينشأ بسبب قهر بشرى، أو استذلال سلطان، وإنما سببه من داخل أنفسهم كما أنه ليس خضوعاً لفرد، أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله الذى يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء، وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب في الإباء والشمم فذكر أنهم لا يجتمعون على ملك إلا بصبغة دينية[٥]والدين هو الذى يتولى

---

(١) سورة النصر الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ صـ٢٩٤ .

(٣) سورة الفتح الآية ٢٥.

(٤) تفسير سورة الفتح صـ٥٧ .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ٢ صـ٤٤٦، ٤٤٧ .

بدوره إذهاب التنافس والتحاسد بينهم ويقصرها على الوجه الحق .

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية في أمة جمعت بين البدو والحضـــر هى أمة العرب فحملتها بكفاءة ومقدرة وبلغتها إلى الناس أجمعين .

٢) تمتع العرب بصفات إنسانية عديدة أهلتهم لتحمل مسئولية الدعوة فلقد عرفوا بالشجاعة والجرأة والكبرياء العنيد ، كبرياء الرجل الحر حتى صار العرب كما جاء في الشعراء الصعاليك أشجع الجنس البشرى[١] ويكفي أن العربى لم يسمح بمرور قوافل أجنبية للتجارة في أرضه إلا تحت إمرته وبعد موافقته[٢] ولقد كان لأيام العرب التى نشبت قبيل ظهور الدعوة واستمرت طويلاً في أماكن متعددة أثر في تنشئة العرب على الشجاعة والتحمل وقبول المخاطر.

إن الجيل الذى عاصر ظهور الدعوة من العرب هو الجيل الذى ولد ونشأ بين حديث الدم وصوت الرماح، ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحة في تخريج حملة الدعوة الأقوياء.

ومع الشجاعة في العرب كان الحلم الواسع والوفاء الرائع وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل في موضعها، وتظهر حين يستدعيها المقام، ولا تبدو في تهور أو طغيان وإنما تكون حماية للشرف، وصيانة للمنزلة والعز والسلام .

وظهرت ملامح حلمهم في القول والعمل، وما الكناية في كلامهم ولغتهم إلا حساسية مرهفة، وصيانة للسان من القول البذئ يستعان بها في الأسلوب عوضاً عن التصريح بالقبيح وما يستكره، وقد كان عندهم كلمة يقولونها في مواطن الثورة والغضب، فيسكن الغضب، وتهدأ الثورة هذه الكلمة هى: **إذا ملكت فاسجع** [٣].

ومن حلمهـــم العملى **مـــا روى أن قيس بن عاصـــم المنقرى كان يحدث**

---

(١) الشعراء الصعاليك صـــ٧٣ .

(٢) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم صـــ٢٨ .

(٣) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب جـــ١ صـــ١٠١ .

أصحابه يوماً وهو جالس حبواً فجاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف فقالوا: إن هذا قتل ابنك هذا فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته ، ولما فرغ من حديثه التفت إليهم وقال : أين ابنى فلان ؟ فجاء .

فقال : يا بنى قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه [١].

وأما وفاؤهم فهو يعد دليلاً على سمـــو نفسياتهم، واســـتقامة شجاعتهم، واعتدال حياتهم فما نقضوا عهداً أو خالفوا وعداً وكانوا يرون أن الغدر من كبائر الذنوب فحكموا بذلك قوتهم وسيطروا على أنفسهم ، ومن أمثله هذا الوفاء العربى العظيم ، مـــا روى **من أن الحارث بن عباد أســـر عدى بن ربيعة ولم يعرفه فقال له : دلنى على عدى بين ربيعة فقال ، إن دللتك عليه أتؤمنى ؟**

فقال : نعم .

قال : فليضمن ذلك عوف بن سليم فأمره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث إذا دله على عدى فقال عدى ، أنا عدى فخلاه وأوفي بوعده[٢]

وهكذا التزم الحارث بكلمته، وأطلق سراح خصمه، تنفيذاً لوعد قطعه على نفسه، وكان يمكنه أن يتحلل منه، لكنه الوفاء الصادق الذى امتاز العرب به ، وقد أشار النعمان إلى وفاء العرب وهو يناقش كسرى فارس فقال عنهم : **إن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإماءة فهى عهد وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وهم يجيرون من استجار بهم** [٣].

إن اجتماع الشجاعة، والحلم، والوفاء، في أمة يجعلها بعيدة عن الاستذلال، وعن الاعتداء، وعن الضرر، وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة، ونالوا التقدير واستحقوا التصديق في كل ما يقولون ، وهكذا كان العرب هم الأمة التى ظهرت فيها الدعوة فحملتها إلى الناس، في كل أرجاء الأرض، تصحبهم ثقة الناس، ومعهم في كل مكان التقدير، والتصديق، والأمان .

---

(١) المرجع السابق جـ١ صـ١٠٢ .

(٢) بلوغ الإرب جـ١ صـ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق جـ١ صـ٢٤٩ .

٣) تمتع العرب بفكر عقلى متقدم، جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب فجميعهم أقر بالإله الأعظم، الذى يعلو كافة الآلهة التى هى وسطاؤهم عنده، وشفعاؤهم لديه، وقد أقر العرب بألوهية الله عن وعى كامل بقدرته، ولولا بقية طفيفة من ضباب لكفر العرب بكل آلهتهم المدعاة، وآمنوا بالإله الواحد العظيم ، وقد حدث أن جماعة من العرب هم الحنفاء، وصلوا إلى الحق في هذا الموضوع فسخروا من الأصنام، والأوثان، واتجهوا إلى الله الواحد.

وتعتبر ظاهرة الحنفاء دليلاً على مستوى التقدم العقلى عند العرب، فلقد خطب الحنفاء في المجتمعات بأفكارهم، ولم يقف في وجوههم عربى، بل إن المشركين العرب كانوا يعتزون ببقايا دين إبراهيم ﷺ ويعتبرون خدمة البيت، وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم .

ويبدو سمو العرب جميعاً في فكرتهم عن الله الأعظم حين نقارنهم بسـائر الأمم في إيجاز، ذلك لأننا نرى الروم رغم أن المسيحية دين توحيد فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد، واشتغل مفكروهم بفلسفات جوفاء، عقدت الدين، وحرمته من بساطته الأصلية، وجعلت العامة في حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة لذات المسيح، أو الطبيعتين وقدسية مريم العذراء وبشريتها إلى غير ذلك .

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة، لا يجمعها إلا الإيمان بعنصرية جنس مقدس، هو العنصر اليهودي، ولا يوحد أتباعها إلا شعار الخداع لكل البشر.

والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة على أساس أنهما رمزان للخير والشر أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما إلهان اثنان، ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية.

والهنود قد ارتضوا لأنفسهم عبادة الحيوان، والمظاهر الطبيعية، وقد علمهم "بوذا " أن يهتموا بالأخلاق، ويهملوا العقيدة .

أما العرب فقد تطور فكرهم حتى تمثلوا أصنامهم صورة روح خفية، وعبدوها لتقربهم إلى الله الأعظم، ولم يتحمسوا ضد الحنفاء، وحينما ظهر رسول الله ﷺ لم يعارضوه بشكل مطلق، بل رجوه أن يصدق بأصنامهم، ويجعل

لها موضعاً في عقيدته، ليؤمنوا جميعاً بالدعوة الإسلامية على هذا الاتفاق، يبين رجاءهم هذا آيات في سورة "ن" وهى من أوائل السور المكية يقول الله تعالى مبيناً هذا الرجاء ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (١) فإن المعنى تمنوا أن تلين لهم فيلينون لك، وطلبوا أن تؤمن بآلهتهم مدة فيؤمنوا بإلهك مدة أيضاً (٢).

ولقد برز هذا النضج العقلى عند العرب بسبب ذكاء فريد بدا في مجتمعهم بفهم سريع، وحفظ متين، وبيان فصيح، عاشوا له وقدروه .

أما فهمهم فيكفي أن العربى يفهم باللمحة ويعرف بالإشارة من ذلك ما رووا أن فزارياً ونميريا تسايرا فقال الفزارى للنميرى : غض لجام فرسك .

فقال التميري : إنها مكتوبة .

وإنما أراد الفزارى ما قيل في بنى نمير :

فغض الطرف أنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا(٣)

وعنى النميرى ما قيل في بنى فزارة :

لا تأمن فزارياً خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار

وكانوا كذلك يستدلون باللفظة على الأمر الجليل ، ومن غريب ما يروى في ذلك ما ذكره المرزبان من أن رجلاً كثير المال صحب عبدين في سفر ، فلما توسطا الطريق هما بقتله فلما صح ذلك عنده قال لهما : أقسم عليكما إذا كان لابد لكما من قتلى أن تمضيا إلى دارى وتنشدا ابنتى هذا البيت :

من مبلغ ابنتى أن أباهما ... لله دركما ودر أبيكما

فلما قتلاه جاءا إلى داره وأخبرا ابنته الكبرى بالبيت، فاستدعت أختها الصغرى فلما أسمعتها البيت خرجت حاسرة وقالت هذان قتلا أبى، والدليل أن المصراع الأول يحتاج إلى ثان، والثانى يحتاج إلى آخر ، ليكونا كالآتى :

من مبلغ ابنتى أن أباهما ... أمسى قتيلا في الفلاة مجندلاً

---

(١) سورة القلم الآية ٩

(٢) لباب التأويل جـ٤ صـ٢٢٦ .

(٣) بلوغ الإرب جـ١ صـ٢٢، ٢٣ .

لله دركما ودر أبيكما　　　　لن يبرح العبدان حتى يقتلا

فلما استخبر العبدان كان الأمر كذلك[١].

ومن حدة فهم العرب ما أظهره بعض الصحابة يوم نزول سورة النصر إذ فهموا منه قرب أجل النبى ﷺ .

وأما قوة حفظهم فهى بادية من محافظتهم التفصيلية على أيامهم وحروبهم وشعرهم وخطبهم وكأنها طبعت في خواطرهم بنصها كما كانت لتمثل كتاباً ناطقاً للناس من بعدهم .

ومن ذلك ما روى أن الصحابى عبد الله بن عباس استمع إلى الشاعر الشيطان عمر بن ربيعة في قصيدة غزل تزيد على السبعين بيتاً فحفظها من أول مرة قيل له أو قد حفظتها قال له : أو منكم من يسمع شيئاً ولا يحفظه [٢].

وكان الشاعر يصحب معه راوية ليحفظ كل ما يسمعه حتى حفظ الرواة اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب [٣].

وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة، ويبدو أن سببه هو أميتهم التى أعجزتهم عن كتابة ما يحتاجون إليه فاضطروا إلى حفظه، وعلى الأيام صار الحفظ ملكة لديهم توارثوها جيلاً عن جيل .

ولقد ساعد العرب على الحفظ والرقى بلغتهم أنهم كانوا ينظرون إلى بيانهم نظرة إجلال وتقدير فمن أجله عقدوا المسابقات الأدبية، وكان نتاجها المعلقات السبع التى علقت في جوف الكعبة تقديراً لأصحابها، وتشجيعاً للتقدم البيانى بين العرب، ولحكمة من الله كانت معجزة الدعوة هى القرآن الكريم الذى يحتاج إلى الفهم الواعى لمعانيه، والحفظ الدقيق لألفاظه مع اشتماله على بيان سحر العرب وقادهم من لسانهم، ونزل فيهم منزلة الفطرة الغالبة فيهم وسيطر باللغة على عقولهم وأرواحهم وقد أشار قوله تعالى ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [٤] إلى هدف من

---

(١) المرجع السابق جـ١ صـ٣٩ .

(٢) نظرات في القرآن صـ٣٠ .

(٣) بلوغ الإرب جـ١ صـ٢٩ .

(٤) سورة الزمر الآية ٢٨ .

أهداف استقامة القرآن على العربية وهو لعلهم يتقون الكفر والتكذيب بسبب ما يرون فيه من فصاحة عجيبة بعيدة عن التنافس، وقد أشار الزمخشرى إلى أن لفظ ذى عوج يفيد خلو القرآن من التناقض أصلاً، فهو أبلغ من مستقيم ومعوج ويختص بالمعانى [(١)].

ولقد ثبت بما رواه ابن هشام من أن العربى كان يؤخذ ببيان القرآن الكـــريم من ذلك ما روى **أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليستمعوا القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى في بيته ليلاً فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتـــى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لــبعض : لا تعــودوا ولكنهم عادوا مرتين بعد ذلك إلى ما تناهوا عنه**[(٢)].

وما جذبهم إلا بيان القرآن وفصاحته حتى أن رؤساءهم من أجل صد النـــاس عن القرآن قالوا لهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[(٣)] .

يقول مجاهد معناه وألغوا فيه بالمكاء والتصدية والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ وكانت قريش تفعله[(٤)].

ويقول الرازى إن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى وفي اللفــظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى بأنه كلام حق واجب القبول فدبروا تدبيراً في منع الناس عنه فقال بعضهم لبعض لا تسمعوا لهذا القرآن إذا قرئ وتشاغلوا عن قراءته برفع الأصوات بالخرافـــات والأشـــعار الفاسدة، والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه[(٥)].

ومن هذا ما فعله الوليد بن المغيرة فإنه بعد أن حكم على القرآن بأن لـــه حلاوة وأن عليه طلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه رجع عن الإيمان به عنـــاداً،

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ صـ٣٩٦ .

(٢) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٦.

(٤) تفسير ابن كثير جـ٩ صـ٨٩ هامش فتح البيان .

(٥) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٣٦٨ .

وأخذ في تدبير اتهام كاذب للقرآن عساه به يغلب فقال : **إنه سحر منقول عــن الأولين وهو قول بشر لم ينزل به وحى ما .**

ورغم هذه المعارضات فإن العرب لم يلبثوا طويلاً في عنادهم بل آمنــوا بالدعوة والقرآن، وأسلموا أمرهم لله، فصنع الإسلام منهم في وقت قصير خير أمة أخرجت للناس، تتحلى بمكارم الأخلاق وعظائم السلوك، وتسعى في كــل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم .

يقول الرافعى " فالقرآن بتحكمه في فطرة العرب البيانيــة علــى وجهــه المعجز قد نزل منهم منزلة الزمان الطويل في عمله وآثاره، لأن الذى أنزلــه بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه فهدم ما في نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها[١].

وعلى الجملة فإن الدعوة أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية حيــث ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية، حيث جاءت الدعوة إلى كــل هذه المزايا فنشطتها وسمت بها ، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية، ويعطــون شجاعتهم وإمكانياتهم لأمر رسول الله ﷺ في خدمة دعوته، فتحركوا إلى كــل مكان من أجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم وأصبح تعصبهم إنــدفاعاً لتنفيــذ أوامر الدعوة وتعاليمها ، وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالــدعوة ويفيدونها، يقول الشيخ ولى الدين هلال الــدهلوى، وأراد ســبحانه أن يزكــى العرب بحضرة النبى ﷺ ويزكى سائر الأقاليم بالعرب فلــزم أن تكــون مــادة الشريعة على رسوم العرب وعاداتهم، وإذا نظــرت إلــى الــشريعة الحنيفيــة ولاحظت رسوم العرب وعاداتهم لتأيد لك أن الشريعة تقــوم بــدور التــسوية والإصلاح، وبهذا نزل القرآن على عادات العرب فسواها حتى استقام أمرها .

وهذه الحقائق تبين ما تحتاجه الدعوة من أبنائها على الزمن كله لتبقى على

---

(١) إعجاز القرآن صـــ٩١ .

حيويتها، وجديتها ... إنها تحتاج من الأمة أن تستمر على شجاعتها، وذكائها، وفهمها ... وتستمر على أخلاق الطهـــارة والرفعـــة، وأن توجـــه حميتهـــا لله ورسوله، وتحمل أمانة الله رجالاً أقوياء إلى العالم كله وبذلك يشبهون آبـــاءهم، ويورثون أمر الدعوة لأبنائهم وأحفادهم، والله على كل شهيد[١].

وهكذا وضح الله السر في اختيار الأمة العربية لتظهر الـــدعوة فيهـــا أولاً والله أعلم حيث يجعل رسالته .

---

(١) محاسن التأويل جـ٢ صـ٢٦٩ .

المبحث الخامس
استمرارية التوافق
بين الإسلام والمتغيرات في الكون والناس

جاء الإسلام متوافقاً مع من دعاهم في عصر نزوله، ملائمـاً لفطـرتهم، متوازنا مع واقعهم ووضعهم، مناسباً لمكان تواجدهم، وصورة حضارتهم .

وتأكد الناس يومذاك من حاجتهم إلى الإسلام ، لأنهم برغم ما تمتعوا بـه من رقى فكرى ، وتقدم حضارى ، وتذكر لدين إبراهيم ﷺ ... بـرغم ذلـك كانوا في أمس الحاجة إلى دين الله تعالى يجلى لهم الخفايا، ويوضـح أمـامهم الحقائق، وينير الطريق بمنهج الله تعالى الذى لا يمكن للبشر أن يـصلوا إليـه بعقولهم .

ولقد عاشت الإنسانية قبيل ظهور الإسلام حضارة راقية أبدعتها عقولهم ، لكنها اتسمت بخصائص التفكير البشرى المحدود بحدود بيئته، وثقافته ومذاهبه.

ومن هنا تعددت النظم، وتناقضت التشريعات، وكثر التغيير والتبديل فـي شئون الحياة كلها ... وما كان يعجب فريقاً كان يرفضه غيره ، وما عمل بـه في الأمس يهدم اليوم .... وهكذا حرم الناس من الثبات ، والاستقرار ، وعاشوا صراعاً في الفكر ، وحول الزعامة ، وغابت أصول الاستقرار ، ولـم يعـش البشر يومذاك سعادة وأمناً .

ولهذا كان لابد من دين يجمع الإنسانية كلها على مبادئ واحـدة، ونظـام واحد ، وقوانين ثابتة .

وكان لابد أن تنبع المبادئ من مصدر يقره الجميع ويعلو عليهم ولا يكون خاصـاً لجماعة دون غيرها .

وكان لابد أن يحيط المصدر بكافة المتغيرات، ليـصنع قواعـد التعامـل بحكمة وتوازن وعدل .

وكان لابد لهذا المصدر أن يحيط بالواقع البشرى بدقـة لا خلـل فيهـا ، ليتعامل مع الحقيقة الأصيلة ويلتقي التشريع مع المصلحة والحق .

وقد تحقق هذا المصدر وهو الله تعالى فأنزل دينه، وأتم شريعته ولذلك لا نرى في التشريع الإلهى ما يتعارض مع المصلحة العامة والخاصة ، أو يقصر عن إدراك كافة جوانب الموضوع الذى يتعامل معه .

وقد تعامل الوحى الإلهى مع الضرورات الحتمية للإنسان، فجاء الإســلام كما اختاره الله تعالى ، وبعث الله به محمداً ﷺ مبشراً ، ونذيراً وداعياً إلــى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

جاء الإسلام من عند الله تعالى داعياً إلى عبادة الله الخالق الذى تتساوى عنده الخلائق كلها ، فهو خالقهم من أب واحد ، وأم واحدة ، وجعلهما أصلاً تناسلت منه البشرية كلها يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] .

وقضى الله للإسلام أن يستمر ديناً للعالم كله ، إلى يوم القيامة فحفظ كتابه، وصان سنته، وهيأ الأفراد والجماعات والدول، ليكونوا أوعية جادة، تحفظ الوحى كما نزل، وتحيطه بالشرح، والتحليل، وتبين منهج ملاءمته للحياة العامة، والخاصة وتوضيح كيفية تحقيقه للأمن، ونشره للسلام، وإيجاد سعادة راقية يتمناها البشر أجمعون .

إن حفظ الإسلام باد من هذه الكوكبة المتتابعة من العلماء الأفذاذ الذين جاهدوا في فهم الإسلام وتعليمه للناس من لدن عهد رسول الله إلى يومنا هذا وحتى تقوم الساعة .

ولننظر إلى القرآن الكريم ونعرف جمعه في عهد أبى بكر الصديق ﷺ وفي عهد عثمان بن عفان ﷺ ، وفي تعدد صور الاهتمام بحفظه في العصر الحديث، وبجانب الحفظ نجد الدراسات العديدة حول تفهم القرآن الكريم، وبيان دلالته على عقيدة الإسلام وشريعته وأخلاقه .... والجهد ممتد إلى قيام الساعة .

---

(١) سورة النساء الآية ١

وكما حُفظ الكريم حُفظت سنته النبوية ، وصدق الله تعالى وهو يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وهكذا بقى الإسلام موصولاً بمنبعه وهو وحى الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ، الأمر الذى ينفي عنه الانحياز لجماعة ، ويؤكد أنه للخلق أجمعين .

والله سبحانه وتعالى هو خالق الناس جميعاً ، فهو بهم عليم، وبواقعهم محيط، خبير بالمستقبل كما هو خبير بالحاضر والماضى ، ومن هنا كان توافق الإسلام مع البشر في كل زمان ، ومكان .

وقد يتساءل بعض الناس عن مدى صلاحية الإسلام الدائمة على الزمن كله، وتوافقه مع البشر أجمعين، مع أنه وحى نزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وقد حدث تغيير واضح في كافة جوانب حياة الناس ، ولم يبق من صور حياة العصور الأولى للمسلمين إلا القليل من نماذج المعاملة ، وصور التعامل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات .

قد يتصور البعض أن الإسلام كان صالحاً لزمان مضى وانتهى، أو أنه جاء لجماعة خاصة دون غيرها ... ولذلك كانت مقالة البعض أن الإسلام دين العرب وحدهم ... أو أنه دين العصور الوسطي فقط .... أو أنه دين لا يلائم التطور في العصر الحديث ... أو أنه لا يشرع لكافة جوانب الحياة ...

وهكذا .... كما يقول بعض الحاقدين .

إن الحكم على الشيء يحتاج إلى تصور موضوعي له ليكون الحكم عليه مرتبطاً بحقيقته خالياً من أي مؤثر خارج عنه، كما يحتاج إلى عقل محايد ينظر في الشيء بدقة واعية، متفحصاً كافة جوانبه ليصل إلى نتيجة صحيحة، وحكم سديد.

---

(١) سورة الحجر الآية ٩

(٢) سورة النحل الآية ٤٤

ويجب عزل موضوع الحكم عن أي ملابسات تحيط به حتى لا يتأثر الحكم بما ليس في الموضوع أصلاً، فمثلاً السيارة في حركتها تقوم بوظيفتها بصورة عادية .... وقد يعطلها عن أداء مهمتها قائد جاهل، أو انعدام الوقود، أو وجود رواسب تسد حركة التوصيل ... أيجور حينئذ أن نحكم بخلل السيارة ، وعدم صلاحيتها ؟

أم نحدد موضع الخلل أولاً ثم نحكم في كل شأن بما يستحقه ؟!!

والمتحاملون على الإسلام يلجأون إلى الأعراض الطارئة ويرونها الإسلام، ويكثرون من الحديث عنها ونقدها ، ويتصورون أنهم بذلك نقدوا الإسلام وهم واهمون .

إنهم ينقدون الإسلام بانحراف شخص مسلم، وبتخلف مجتمع المسلمين ويتصورون الإسلام في شخص أناس لا يربطهم بالإسلام إلا أسماؤهم ... وأيضاً يرون الإسلام هو العالم الإسلامي المعاصر في تخلفه وهوانه ... وليس شيئاً من ذلك بصحيح .

إن الإسلام صالح بصلاح حقائقه، واضح بيسر مصادره، وهيمنته مقررة على الحياة والأحياء ، يربي الإنسان ويوجهه ، ويصحح الخطأ ، وينشر الحق ، ويبني السلام ، فإذا وجد انحراف في التطبيق ، أو فساد بين الناس ، أو بعد عن منهج الإسلام ... فتلك وأمثالها عوارض يوجه النقد لها ويطلب منها أن تعود إلى الإسلام والحق ... أما أن تترك ويوجه النقد إلى الإسلام فذلك أمر يدل على سوء القصد، وعدم اتباع الحق، والانحراف عن الخط الصحيح .

ومن هنا ، صار واجباً تحديد المبادئ الكلية للإسلام ، والوسائل المتبعة في نشر وتحقيق هذه المبادئ ، وتحديد مواطن النقد ليبرأ الإسلام من أخطاء المتحاملين عليه ويوضع في موضعه الصحيح النابع من مصادره .

لو قتل مسلم غيره فهو قاتل يقام الحد عليه ، ولا يرتضى الإسلام فعلته ولو انحرفت جماعة تدعى الإسلام فإن اللوم يجب أن يوجه إلى هذه الجماعة وليس إلى الإسلام .... ويجب تبيين خطإ من يدعي الإسلام زوراً ببيان الحقيقة

الدينية كما عاشها رسول الله ﷺ والمسلمون الأوائل ... وهكذا .

إن بعض الناس يعيش هذه القضية ، ويتصور نفسه مصلحاً ، ويدعى أنه يعمل للنهضة، والتنوير ، مع أن كل ما أثار هو وأمثاله من شبه لا يثبت أمام الحقيقة أبداً .

إن الإسلام ثابت بثبوت مصادره ، وحقيقته معروفة واضحة، لا خفاء فيها، وكل من يعرفه بحياد وموضوعية يدرك توافقه التام مع الإنسان المعاصر كما كان متوافقا مع إنسان العصور السابقة، ولسوف يستمر في توافقه هذا مع الناس إلى يوم القيامة، أينما كانوا، وكيفما كانوا .

وسر هذا التوافق الدائم بين الإسلام والناس أنه منزل من عند الله العزيز الحكيم الذي قضى له بأن يستمر جديداً متجدداً، صالحاً لكل زمان ومكان، متلائماً مع كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم .

وهذا التوافق لا يوجد في غير الإسلام، لأن ما عداه من وضع العقل البشرى ولذلك كان دائم التغيير والتبديل لا يستقر له أمر إلا في زمن قصير .

إن الله سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان دائم التطور فكرياً وحضارياً وسلوكياً وفي كافة أساليب الحياة ... مع وجود ثوابت إنسانية تتصل بوجوده، وكيانه، فهو عاقل يفكر، يحب الحياة ، ويتمنى الخلود النسبي، ويغار على عرضه وماله، وولده، وتتملكه غريزة التفوق وحب التفرد .

جاء الإسلام من عند الله تعالى مراعياً حقيقة الإنسان وخصائصه جميعاً، ما هو ثابت فيه، وما هو متغير الأمر الذى مكن له من الاستمرار والدوام مع الناس .

إن الثوابت العقلية والنفسية والفكرية في الإنسان دعت إلى إيجاد ثوابت في الإسلام لا تتغير أبداً ، والعقل راضٍ بها، وسعيد بتطبيقها ... وحينما ننظر في هذه الثوابت نجدها الأمور الموجودة في أديان الله كلها منذ آدم عليه السلام وهي أساس دعوة الرسل جميعاً رغم تباعد الزمان، وتنوع الناس، واختلاف الأماكن .

وهذه الثوابت الدينية ترتبط ابتداءً بالجانب العقلي في الإنسان وتحقق لنفسه

الهدوء، وتملأ عواطفه بحب الإيمان، والرضى بقضاء الله تعالى، والصدق في النية والتوجه .

وقضي الله بحكمته في الحوادث المتغيرة، والأمور التى تتأثر بالزمان والمكان والتطور بما يتوافق مع هذا التغيير، فوضع لها الأطر الكلية ، والأسس العامة وجعل هذه المبادئ أساس الحركة والتشريع في إطار مجموعة من الضوابط التي تحدد مسار الحوادث الجديدة في نسق المشروعية الإسلامية .

لقد أمر الله بالتعاون على البر والتقوى ولم يحدد مجال التعاون، ولم يعين صوره وأشكاله ، ولذلك اشتمل الأمر الإلهي على كل تعاون ممكن، وفي كل مجال يعيشه الناس .... قد يكون التعاون في إطار أسري، أو أممي أو قبلي وقد يكون علما أو عملاً ... وقد يكون في الزراعة أو فى الصناعة أو فى غيرها .... لقد أمر الله به بصورة مطلقة وقيده بالبر والتقوى ... ولذلك كان الأمر بالتعاون مبدأ عاما يحكم مسار كافة الحوادث المتجددة ... والأصول كثيرة في كل ما هو قابل للتغيير .

وبهذا كان التوافق بين الإسلام والإنسان مستمراً إلى يوم القيامة .

ومما يؤكد هذا التوافق ما نراه في الإسلام من حقائق ومسلمات تدعم هذا التوافق وتحتمه، حيث نرى وحدة الأصول الدينية التى لم تتغير مع سائر الرسل عليهم السلام، ووحدة الغايات والمقاصد التى تنشد تحقيق السعادة، ونشر السلام، ووحدة المبادئ والأصول الكلية التى تعد أساس التشريع والتنظيم .

وحيث نرى أيضاً تنوع الوسائل والأساليب واختلاف طرق الاتصال ، وصور الحركة بالإسلام، الأمر الذي مكن للجوانب الثابتة من الحركة، ويسّر فهمها، وأوجدها في الحياة العملية للناس، ومع وجود الضوابط الشرعية للمتغيرات كان التكامل الدقيق والترابط الوثيق بين الأصول الثابتة والأحكام الشرعية الجزئية للحوادث الجديدة والمتغيرات الحادثة .

لقد أباح الإسلام لأتباعه الكون كله، فيه يعملون ويتحركون ودعاهـم إلى بذل الجهد في استخراج خبراته والاستفادة من ثرواته الظاهرة والكامنة،

ودعاهم إلى الاجتهاد والبحث ومعرفة كل جديد ممكن ... وحدد لهم الحلال والحرام ليتحركوا في إطار شرعي واضح ... وبذلك يمكنهم التعامل الإيجابي مع مستجدات العصر، ومتغيرات الحضارة .

لقد شرع الإسلام للناس نظماً تيسر لهم أمر الدنيا، وتجلب لهم الخير في الآخرة، وتتضمن هذه النظم سائر ما يحتاجه الإنسان وما يرضيه .

لقد تحدث العلماء عن الضرورات التي لابد منها للإنسان مطلقاً ليعيش سعيداً راضياً، وحصروا هذه الضرورات التي يحتاجها الإنسان فرداً، وفي جماعة .... ونادوا بضرورة صيانة عقله ودينه، وحماية نفسه وماله، والمحافظة على عرضه وولده ... وتأملوا في هذه الضرورات، وعلموا أن تحقيقها يحقق السلام العام وينشر السعادة بين الجميع .

وجاءوا للإسلام فوجدوه يحافظ على هذه الضرورات ويقدم من تعاليمه ما يصونها ... ويحميها في إطار أي تطور يحدث ... ومع أي مدنية يحياها الإنسان، والمهم أن يكون الإسلام مطبقاً في حياة الناس .

لقد أدى اختلاط الحضارة الحديثة بالعالم الإسلامي إلى مشكلات عديدة ساعد عليها وجود العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية، وانتشار المبشرين في أرجائه، ونشر أفكار الاستشراق الخبيثة بين شبابه ومفكريه .

استغل أعداء الإسلام هذه المشكلات – مع أنهم صانعوها – وأخذوا يشيعون عدم ملاءمة الإسلام للعصر الحديث، وأكثروا من الأقاويل في هذا المجال، واعتمد المبشرون عليها في نشاطهم، ومزاعمهم .

ورد هذه المشكلات سهل بين لقيامها على الأكاذيب، وليها للحقائق ... وقد فندها العلماء في القديم والحديث .



الباب الثاني

أهداف الدعوة الإسلامية
وعوامل تحقيقها



تمهيد :

ظهر الإسلام في عالم كثرت مظالمه، وامتلأ بفساد شامل لكل مناحي الحياة، في العقيدة، وفى النظم، وفى الأخلاق، وفى كل نشاط يقوم به الناس .

وللناس عذرهم قبل مجيء الإسلام حيث لا دين يهديهم، ولا نبي يزكيهم ويعلمهم، ولذلك بعث الله رسوله ﷺ مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وعمل رسول الله ﷺ بوحي الله تعالى في هذا العالم المضطرب ليغير هذا الضياع، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، وينشر بينهم العدل، والأمان، ويعيد للفرد توازنه وصلاحه، وللجماعة تعاونها على البر والتقوى، وللعالم كله الخير والأمان .

وقام رسول الله ﷺ بما بعث به، وأدى الرسالة على وجهها الصحيح ... وتحمل كثيراً من العنت والعدوان من أعداء الحق الذين ساءهم أن تتحطم وضعيتهم الظالمة، ويتحقق للناس العدل والمساواة في إطار دين كريم، يربطهم بالله العظيم ويجعل عملهم وإخلاصهم لله رب العالمين، بعيداً عن تسلط الإنسان، وطغيان المادة، وسفاهة الخضوع للكهان والسدنة .

إن الإسلام يعمل على نجاة الإنسان من المهالك ويناديه بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1] .

إن شريعة الإسلام تحاول أن تنقذ الإنسان من متاهات الضلال، وتعمل لتخرجه من ظلمات الجاهلية بما فيها من فساد خلقي، وانحراف طبقي، وعدوان شامل على الإنسان الذي أكرمه الله، وميزه على كثير مما خلق إلى نور الحقيقة الساطع بالخير، والعدل والسلامة في الدنيا وفى الآخرة، يقول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٤ .

ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1]

والإنسانية في كافة أماكنها وأزمنتها في حاجــة للإســلام ليتحقــق لهــا الاستقرار، وتعيش في سعادة وسلام .

وما نراه اليوم من نزاعات بين الأمم، ومن حروب داخل الوطن الواحــد، ومن ضياع الحق بين الأفراد والجماعات .... حيث لم يبق في حياة النــاس إلا الأدواء والعلل، وصاروا في حاجة ماسة إلى مصحة قادرة تعيد لهــم الحيــاة، وتنشر بينهم السلامة والأمان .... وليس ذلك إلا في الإسلام بنظمه، وتعاليمه .

إن الإسلام يبني الإنسان ظاهراً وباطنــاً، ومخبــراً وجــوهراً، ويــصلح الجماعة بشريعة عادلة، وعمل مستقيم ويربط الدنيا بالآخرة في تناسق وانسجام.

وفى هذا الباب سأتناول بالبحث أهداف الإسلام الكلية، وأهم الــنظم التــي وضعها لتحقيق هذه الأهداف في عالم الواقع .

وسوف يأتي هذا الباب بإذن الله تعالى مكوناً من فصلين هما :

الفصل الأول : أهداف الدعوة الإسلامية .

الفصل الثاني : عوامل تحقيق أهداف الدعوة .

وذلك فيما يلي :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

الفصل الأول

أهـداف الدعوة الإسلامية



تمهيد :

اشتملت الشريعة الإسلامية على عديد من النظم تيسر بها أمـــر الحيـــاة، وتحقق بواسطتها للناس أهداف الإسلام التي يجعل الناس بها سعداء مؤمنين .

إن الإسلام يحقق الخير دائماً، ويهدف إلى المصلحة بصورة مطلقة، ومن تعاليم الإسلام ما عرفت حكمته، ومنها ما خفي عن مدارك الناس .

والمسلم يؤمن إيماناً مطلقاً بوجود حكمه في كل مخلوق حيث لا عبث في خلق الله تعالى يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾(١).

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾(٢)

وعلى الإنسان طاعة الله، والالتزام بشريعته وإن خفيت الحكمة عليـــه لأن الله قدر كل شيء أوجده، وهداه لوظيفته، وأنزل دينه بعلم وإتقان، وهو سبحانه غالب على أمره، وكل أمر ونهي في دين الله موزون .

والأهداف الكلية تعني الأهداف العامة التي تسود المؤمنين كلهـــم، وتفيـــد الخلق أجمعين، ويمكن الاستفادة بها في كل مجتمع بشري عمل لهـــا، وهنـــاك أهداف فرعية تظهر بصورة جزئية في إطار الأهداف الكلية .

وسوف أتناول في هذا الفصل أهم الأهداف الكلية الإسلامية التي يحتـــاج إليها الناس .

وسيأتي بإذن الله تعالى في عدد من المباحث هي :

المبحث الأول : تحقيق التوازن في الحياة البشرية .

المبحث الثاني : تحقيق السعادة للفرد والجماعة .

المبحث الثالث : نشر السلام بين الناس .

وذلك فيما يلي ،

---

(١) سورة الرعد الآية ٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٨ .

المبحث الأول
تحقيق التوازن في الحياة الإنسانية

نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة واقعية بسبب جوهري هو أن الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو سبحانه منزل الإسلام ليحيا به هذا الإنسان ... وذلك هو سر ما في الإسلام من تعاليم لو اتبعها الإنسان لتحقق له التوازن، والرضى، والاستقرار .

إن الإنسان مكون من جسد وعقل وروح فلقد أمر الله الملائكة أن تنظر إلى كمية من الطين وقال لهم سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1]

وهكذا كانت البداية جزء من الطين ونفخة من روح الله، التقيا فنشأ منهما إنسان يملك من الطاقات والملكات ما لا يقدر على صنعه إلا الخالق العظيم .

نعم وجد الإنسان متمتعاً بطاقات عديدة فهو يمللك الطاقة العقلية التي تمكنه من الإدراك والفهم، والتعلم، والحفظ، والاستنتاج، وربط الآثار بأسبابها، وفهم المعنوي مجرداً عن المحسوس ، والقدرة على تصور العالم البعيد .

إن الإنسان بعقله يتمتع بطاقات الإدراك، والوجدان والنزوع، فهو يدرك الشيء ويتأثر به، ويتخذ معه موقفاً وجدانياً، وبعده ينزع إلى موقف يتخذه يتناسب مع ما أتي به الإدراك .

والعقل الإنساني ينطلق خياله إلى آفاق بعيده، عبر الزمان والمكان، يتخيل الذي لا يلمسه، ويتوقع ما لم يحدث بعد .

والعقل طاقة فكرية مجردة منطلقة لا يكتفي بالفهم والتصور، ولذلك كانت حاجة الإنسان إلى قوى تعمل مع العقل، وتساعد الإنسان على إيجاد ما يحتاج إليه.

ومن هنا أوجد الله تعالى في الإنسان طاقات فطرية يولد بها، ويرثها عن آبائه، وتظهر مع مولده كالبحث عن الطعام، والخوف من الخطر، والدفاع عن

---

(١) سورة ص الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

النفس ... وهكذا وقد اكتشفها علماء النفس المعاصرون وسموها بـــ " الغرائز " وهذه القوى الفطرية عامة في الناس جميعاً، وحتمية لا يمكن تجاهلها، والتعامل معها أمر ضروري.

ولقد منح الله سبحانه و تعالى الإنسان أنواعاً من طاقات الحركة توصـــله إلى أغراضه، وتمنعه من الوقوع في المهالك .

منها هداية الإلهام والفطرة، وهي في الأطفال منذ ولادتهم، والطفل عندما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالباً له، وإذا أعطى الثـــدي لقمـــه، ومنها هداية الحواس والمشاعر، ومنها هداية العقل .

فالإنسان بفطرته يدرك المواقف التي تتعرض فيهـــا ذاتـــه، أو ملكـــه، أو أولاده، وأقاربه للخطر، من الحيوان المفترس، أو من العدو المفاجئ، أو مـــن النار، أو من الماء أو من الظلام أو من أي شيء مجهول فيخاف ويجـــري، أو يختفي، أو يصطنع أية وسيلة من وسائل الهرب .

ومن طبيعة الإنسان أن يخضع لمن هو أقوى منه بدنا أو عقلاً، أو أقـــدر فناً، أو أغزر علماً، أو أصلح خلقاً وديناً، ولذلك يخضع لأوامر أبيه وولي أمره، وأستاذه ومربيه، ثم لرؤسائه وحكامه وأئمة دينه، وقادة الرأي وزعماء أمته .

ثم هو ميال بطبعه إلى السيطرة على من هو أضعف منه ليتـــسلط عليـــه، بالقول والعمل، إلى حد الاستعباد والإملاء إن أمكنه ذلك .

والإنسان مولع باستطلاع الشيء الغامض واكتشاف المجهـــول وتعـــرف الغريب .

والإنسان مدني بطبعه دؤب على الاتصال بأبناء جنسه، يجد الأنـــس فـــي اختلاطه بهم، والوحشة في الابتعاد عنهم، ويبتغي أمور معاشه ومعـــاده فـــي التعاون معهم ويكتسب خبرته وثقافته من الاحتكاك بهم [١] .

وهناك طاقات أخرى يكتسبها الإنسان من بيئته التي يعيش فيها بالتعليم، أو التلقين أو الإرشاد أو المشاهدة، كالتكلم بلغة ما، أو الكتابة، والرســـم، وقيـــادة

---

(١) علم النفس الاجتماعي صـــ ١٣ .

السيارة، وهذه تختلف بالضرورة من شخص لآخر، وقد تختلف عند الشخص الواحد باختلاف ظروفه فما يكون ضرورياً منها في وقت ما لا يكون مطلوباً في وقت آخر، وهي لذلك تقوى بالمران، وتضعف بالترك والإهمال .

هذه الطاقات والقوى التي تكون الإنسان تحتاج إلى إشباع، وتربية، وتوجيه.

فالعقل يحتاج إلى العلم المركب ، والاتصال بالله، ويشبع بالإيمان ويسعد بالتقوى لأنه دائماً يتمنى أن يعود لمصدره، ولا يرضى إلا بطاعة سيده، وارتباطه بمولاه .

والغرائز دوافع مادية تحتاج إلى التهذيب والتوجيه والتشبع بالخير، والبعد عن أي عدوان .

والطاقات المكتسبة تؤثر في العقل بما تقدمه له من كسبها، وتؤثر في الغرائز بما تهيئه لها، وتشبعها به .

ومن هنا جاز في الفكر، وحدث في الواقع أن يتجه العقل نحو الخير أو نحو الشر، وتسمو الغرائز أو تنحط ... ولكل ذلك أثره الكبير على الفرد وعلى الجماعة .

إن هداية العقل تجعله يعيش مع المعروف، ويرضى بالخير، ويبتعد عن أي ظلم

وهداية الدوافع الفطرية تجعلها تعيش مع الحلال المشروع، ولا تبحث عن ظلم، وتترك كل ما فيه ضرر وأذى .

وقد ينعكس ذلك كله، إذا اختلطت الأمور، وسيطرت طاقة في الإنسان على ما عداها، لأن هذا يضع صاحبه في القلق والاضطراب، وعدم الرضى، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى ضياع الإنسان وهلاكه .

إن إشباع العقل وإهمال ما عداه يؤدي إلى الشعور بالحرمان، ويضعف البدن، ويحرم الإنسان من الإحساس بلذة الحياة .

وإذا توجه الإشباع إلى الشهوات دون غيرها يغرق الإنسان في الشهوات، ويتحول الإنسان إلى حيوان لا يدرك قيمة، ولا يعرف حقاً، ولا يؤدي واجباً،

وهذا يؤدي إلى طمس العقل، وظلامة الوجدان .

وإذا فسد العقل أو ضلت الغرائز يضيع الإنسان كله، ولا يستفيد من تربية، ولا يتأثر بتوجيه .

وقد عملت المذاهب قديماً وحديثاً على تربية الإنسان وتوجيهه، ولم تتمكن من بناء الإنسان السوي لأنها جميعاً تخطيء بتغليب جانب في الإنسان على ما عداه .

فالماديون يعملون لإشباع الجسد، وإطلاق العنان للشهوات، وينادون بحرية الاختلاط بين الرجال والنساء، ورفع القيود عن أي نشاط جنسي بينهمـــا، مـــع إحاطتهم بالمثيرات العديدة التي تنشط فيهم الشهوات .

والروحانيون يحرمون الجسد من حاجاته، وينادون بالسمو الروحي والزهد في الماديات، وهؤلاء يسيئون لأجسادهم ويضيعون عقولهم .

والمنهج الحق يكمن في إرضاء مكونات الإنسان جميعاً بحيـــث لا يحـــرم أحدها ويشبع غيره ... وبذلك يتحقق التوازن للإنسان .

وأثبتت التجربة العملية أن الذي تمكن من تحقيق التوازن للإنـــسان هـــو الإسلام دين الله تعالى الذي جاء بتعاليم الله تعالى لأنها، ترضي العقل، وتـــشبع الغرائز، وتهيئ للعواطف القيم والجمال .

وقد اتجهت الدعوة الإسلامية بتعاليمها إلى إشباع حاجات الروح ومطالب الجسد ورغبات العواطف، فخالفت بذلك الماديين الذي يتجهون إلى نيل أكبـــر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعاني الإنسانية، وخالفت الروحانيين الذي ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان، وخالفت الفلاسفة الذين يـــشغلون العقـــل بالسفسطة التي لا تفيد .

إن الإسلام يرى أن المادة بكل أنواعها خادمة للروح، فلابد مـــن وجـــود المادة مع الروح، ولابد للمادة والروح من عقل يفكر ويقود .

لقد شبه ابن مسكوبة قوى الإنسان بإنسان يركب حماراً ويقود قرداً إشارة إلى العقل، والغرائز، والعواطف حيث ذكر أن العقل يقود، والغرائـــز تـــشبع، والعواطف ترضي، وإن تاه الإنسان واضطـــرب وغلّب قوة على غيرها فســـد

حاله، وعاش في ضلال مبين .

ومن أجل تحقيق السعادة ونشر السلام توفر الدعوة لكل عنصر ما يشبعه، وتحافظ على الضرورات المحققة لهذا الإشباع .

ومن أهم ضرورات الجسد أن يكون له مال مضمون يكتسبه وينفقه على معاشه، وحياته لأن المال ضرورة لازمة، فبه يتغذى الجسم وينمو، ويستطيع البقاء، والعلماء يرون أنه لابد من تغذية الجسم بالمقدار الذي يكفل له البقاء محافظة على الروح، لذلك كان المال حبيب الناس، ومعشوق البشر، وضرورة مادية هامة للجميع .

ومن أهم ضرورات الجسد كذلك المحافظة على ذات صاحبه، وعدم تعريض نفسه للهلاك، لأن النفس المريضة لا تصنع لصاحبها نفعاً، ولا تجلب له إلا الأذى والألم، وإن هلكت النفس انقطعت الحياة وانعدم الإنسان نفسه .

ومن أهم ضرورات الجسد أيضاً أن يحافظ له على بقاء نوعه في صورة ضمان الحرص على النسل الذي جعله الله زينة وأملاً لصاحبه وفى الوقت نفسه يضمن بقاء النوع وامتداده .

وأيضاً فإن الروح تحتاج حتماً إلى الفهم والتصرف والتدبر عن طريق ضمان صيانة العقل والمحافظة على حريته في الفهم والتدبر ، وتحتاج كذلك إلى ضمان عقيدتها التي آمنت بها وعدم اضطهادها بسببها، لأن العقيدة دين يملأ العقل والعاطفة والوجدان.

إن مطالب الإنسان مترابطة يكمل بعضها بعضاً، لأن النفس لو هلكت لانعدم من يتدين، ولو انعدم العقل لارتفع التكليف، ولو انعدم النسل لانقطع الجنس البشرى، ولو انعدم المال لم تبق حياة، ولو انعدمت العواطف لضاع الحسن والجمال .

إن الإسلام وهو يحقق هذه الأهداف يصلح الفرد ويصلح الجماعة، لأن وجود هذه الأهداف توجد الإنسان الصالح المستقيم، والجماعة عدد من الأفراد وبذلك توجد الجماعة الصالحة، والمجتمع السعيد .

المبحث الثاني
تحقيق السـعادة

يقول ابن مسكوبة عن السعادة " **إن السعادة هي تمام الخيرات وغايتها والتمام هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شيء آخر** "[١] .

فالسعادة غرض أسمى وغاية نبيلة، وهى النهاية المرجوة والأخيرة لكل مكلف من سائر عمله المستقيم وضدها الشقاوة فمن وصل للسعادة يرضى ويعيش لذة طيبة، ويشعر بتحقيق أمانيه وأحلامه ويرى في الدنيا هناءة، وفى الآخرة تمتعاً بنعيم الله تعالى .

يقول صاحب المختار : السعد اليمن، والسعادة ضد الشقاوة .

ومن المعلوم أن السعادة والشقاوة معان تتعلق بالشخص، فيقال: هو سعيد ومسعود ... ولا تتعلق به إلا بتحقيقها فيه، ووصوله بها إلى حالة خيرة في ظاهره وباطنه.

ويقول صاحب المصباح المنير: سعد فلان في دنيا وفى دين سعدا، أي نال من أمور معاشه ما يكفيه، ومن أمور دينه ما يرضيه وهما معاً يشملان الإنسان ظاهراً وباطناً .

ويكفي دليلاً على أن تحقق السعادة هو الخير الشامل ما ذكره المفسرون في تعريف السعيد والشقي، إذ قالوا : السعيد هو الذي يكون من أهل الثواب، والشقي هو الذي يكون من أهل العقاب[٢] .

وقالوا أيضاً : إن السعيد هو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد، والشقي من وجبت له النار بمقتضى الوعيد[٣] يقول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا

---

(١) مختار الصحاح مادة " سعد " .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ١٣٣ .

(٣) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٢٩٣ تفسير أبو السعود جـ٣ صـ٤٧ .

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[١].

إن السعداء هم المنعمون أتباع الرسل، والأشقياء هم المعذبون معاندو الرسل[٢]، وهكذا يظهر أن السعيد هو من استحق الثواب والجنة والنعيم ، وهذا يؤكد أن السعادة الحقيقة هي الخير كله لأن دخول الجنة يرضى الإنسان في الآخرة ويرضيه عما كان في الدنيا كذلك .

ومن المعلوم أن الغايات الكبرى تكون مسبوقة بغايات جزئية، كطالب يتمنى الحصول على شهادة جامعية كغاية عليا ... وهذه الغايات لا تتحقق إلا بعد غايات فرعية تسبقها كالنجاح في الامتحانات الفصلية والنصف سنوية والسنوية وغيرها وبعد ذلك ينال ما يتمنى .

يقول الفارابي : والسعادة هي الخير المطلوب لذاته، وليست تطلب أصلاً ولا في وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر، وليس وراءها شيء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الإنسان .

والأفعال الإرادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجملية، والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي الفضائل، وهذه ليست خيراً لذاتها، بل لما تجلب من سعادة لأنها في ذاتها تعد معنى مجرداً لا مظهر له، ولا أثر له، فإذا ما تجسدت الفضائل في سلوك وعمل تصير كياناً يرضى صاحبه، ويجلب له الخير والرضى .

والأفعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور والأفعال القبيحة، والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والخسائس [٣] .

ويقول ابن سينا : وليست السعادة مجرد لذة جسمية بل هي غبطة روحية، وسمو معنوي، واتصال بالعالم العلوي، هي عشق وشوق مستمران، والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة العليا في حياتها الدنيا كان جل أحوالها أن تبقى عاشقة

---

(١) سورة هود الأيتان من ١٠٦ إلى ١٠٨ .

(٢) تفسير النسفى جـ٢ صـ٢١٥ .

(٣) أهل المدينة الفاضلة صـ٤٧ .

مشتاقة، لا تخلص من علاقة الشوق، اللهم إلا في الحياة الأخرى [١] .

وعلى ذلك فالسعادة لذة ورضى تستشعرها النفس وتهيم بها فرحاً وطمأنينة، وتغمر الإنسان باليقين والبشر، وتحيطه بالفضائل والجمال، وعلى الجملة فإنها تجعله يعيش في الخير المطلق ظاهراً وباطناً .

إن عقول البشر تختلف فيما يظنونه موطن السعادة، فبعضهم يرى أن الثروة هي السعادة، وغيرهم يرى أنها في كثرة الولد، وآخرون يرونها في الجاه والسلطان وغير ذلك، وكل واحد يعتقد في الذي يرى أنه السعادة على الإطلاق[٢] .

إن الحق واحد رغم تعدد الآراء في موطن السعادة، ومن هنا بينت الدعوة الإسلامية موطن السعادة الحقيقي، وقررت أنه في إسلام الأمر لله رب العالمين، والإيمان بدعوته، وتطبيق تعاليمه بكمالها، ولم تترك الإنسان لنفسه توصله إلى السعادة، لأن وصول الإنسان وحده إلى السعادة لن يكون لكثرة شواغله، ولأن السعادة الحقة لا يعرف طريقها إلا بنور النبوة الأمين .

ومن حكمة العزيز الحكيم أن تسليم العبد أمر نفسه له سبحانه وتعالى، وأتباعه لتعاليمه، يحقق للعبد ما يتمنى من ثروة أو ولد، أو جاه وسلطان يقول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[٣].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[٤].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

---

(١) الإشارات جـ٢ صـ٤٢ .

(٢) التنبيه على سبيل السعادة صـ٣ .

(٣) سورة الطلاق الآيتان ٢، ٣

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[١].

يقول الفارابي – بحق –: ليس في فطرة كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه السعادة ولا الأشياء التي ينبغي أن يعلمها، بل يحتاج في ذلك إلى معلم ومرشد[٢]

نعم لابد من المعلم والمرشد في الوصول إلى السعادة، والرسل هم المعلمون، والدعاة ورثتهم على نفس طريقهم، ورسالتهم هي توضيح هذا الهدف الأسمى وسائر الأهداف الموصلة إليه والمنتهية عنده .

إن الإسلام يشرع للإنسان في كل أحواله وحالاته، وفى كل ما شرع سبحانه وتعالى حكمة عالية، وبها يمكن للإنسان أن يصل إلى غاياته، ويستمر في الوصول حتى يعيش السعادة بفضل الله تعالى .

---

(١) سورة الطلاق الآيتان ٢، ٣

(٢) السياسات المدنية صـــ٤٨ .

المبحث الثالث

نشر السـلام

السلام أكثر اتساعاً من السعادة، لأن الدعوة الإسلامية تعمل لنشر السلام بين الناس جميعاً المسلمين وغيرهم، ومع سعته هذه فهو أقل مرتبة من السعادة لأنه يعد طريقها إلى الحياة، وإنما كان السلام من الأهداف الأساسية للدعوة لأنه يبرز دائماً معها، ويلازم تحققها، فالمؤمنون المخلصون السعداء أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، والجنة مأواهم هي دار السلام، وتحيتهم فيها سلام، ومن حقائق الواقع أنه لا سعادة بلا سلام، كما أن السلام لا يكون سلاماً في الحقيقة إلا إذا زامل السعادة وشاركها في ملء حياة الناس بالخير .

وقد اهتمت الدعوة بالسلام لمزاياه وخصائصه، لأنه يعني مع النفس النجاة من الشر والسلامة والبراءة من العيوب، والخلوص إلى الخير، ويعني مع الناس المسالمة والأمان، ومع أهل الذمة الصلح وترك القتال والإحساس بالأخوة العامة، جاء في المختار والسلام السلامة، والسلام الاستسلام، والسلام البراءة من العيوب[١] وجاء في المصباح " أن السلام هو الخلوص والنجاة "[٢] .

واهتمام الإسلام بالسلام لما فيه من خير في حد ذاته، ولأنه ضروري لغيره من الأهداف، ففي حالات انعدام السلام يصاب الناس بالخوف والقلق، وتنتابهم الأمراض والعلل ... وإذا انعدم السلام ضاعت السعادة لأن الخوف والفزع لا يولدان هناءة، ولا يحققان حسنا وجمالاً .

ويبين المفسرون أن للسلام معاني كثيرة تدور كلها حول السلامة من المكروه، وإلقاء السلام إعلان عن المسالمة والأمان ونفي أي مكروه يأتي من قبل من ألقاه، وسبل السلام وهي الطرق المؤدية إلى السلامة من العذاب والنجاة من العقاب، ودار السلام هي الجنة والفوز والبعد عن المكاره، وتحية أهل الجنة سلام لأنه لا مكروه هناك .

---

(١) مختار الصحاح ٣٤٣ مادة " سلم "

(٢) المصباح المنير جـ١ صـ١٣٦ مادة " سلم "

إن السلام بهذا المعني أمنية تهفو إليها البشرية لتأمن من الخوف وتنجو من المكارة وتشعر بالحرية المطلقة في الفكر والقول والعمل .

إن حاجة الإنسان الملحة إلى السلام تتضح من تكونه، فباطنه من روح وضمير لا يحس بجمال إلا مع السلام، والعقل لا يحسن التفكير إلا في جنباته، والجوارح لا تنطلق بحرية وقوة إلا إذا آمنت وسالمت .

والإسلام يعمل على تحقيق سلام شامل عام، ليعيش الفرد سلاماً مع نفسه وتعيش الأسرة والجماعة الصغيرة سلاماً فيما بينها، ويعيش المجتمع كله والإنسانية كلها سلاماً حقيقياً ... وتحقيق ذلك يقوم على تطبيق الإسلام .

إن مؤسسات العالم اليوم عاجزة عن تحقيق السلام في الكائن الفرد، وفى الجماعة .... وفى العالم، لأنها لا تعمل العمل الذي يؤدي إليه ... ولذلك ننادي بأهمية تطبيق الإسلام لتحقيق السلام للجميع .

إن السلام كالسعادة كلاهما معنى تستشعره النفس وترضى بأثره، وتحس به في الحياة، جمالاً وخيراً، **والسلام الحقيقي لا يوجد إلا بالتعاليم الدينية كالسعادة تماماً، ذلك لأن تعاليم الدين تحدد الحقوق والواجبات للفرد وللجماعة**، وتنصف كل إنسان من أخيه ومن نفسه، وتضع قواعد للسلوك قائمة على العدل والمرونة مع المحافظة على كرامة الإنسان وحريته ووجوده .

إن المتبعين لأوامر الله يسلمون بالقضاء، ويؤمنون بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وهذا يجعلهم في أمان وسعادة مع أنفسهم وفى حياتهم الدنيا، وبهذا الرضا سيعيشون السعادة والسلام في الآخرة أيضاً .

إن المؤمنين المتبعين يؤمنون أن الله عدل كله، ولا ظلم في رحابه أبداً إنه الرحمن الرحيم ورحمته وسعت كل شيء، ومن هنا يندفعون إلى الله بالرجاء والدعاء وقت الضراء، وبالحمد والشكر وقت السراء، وأصالتهم الدينية تجعلهم يتحررون من خوف الفقر، وعبودية المنصب، ورهبة السلطان، ويشعرون أن وجودهم الفاني متصل بالله القادر الرحيم، ويدركون عن يقين أنهم إلى الله راجعون، وأن الدنيا تمهيد للآخرة، وآثار الأعمال تظهر في دار البقاء .

وإذا ما انتشر الاتباع في المجتمع كله، وأحس الجميع بآثاره ومعانيه إذا ما حدث ذلك تحققت السعادة وانتشر السلام بين الجميع .

وحين ننظر في أحوال الناس اليوم نراهم محرومين من السلام أشقياء مضطرين وذلك راجع إلى ما يلي :-

١) البعد عن الله تعالى وإهمال تعاليمه لدرجة أن المسلمين اليوم لا يطبقون الإسلام إلا قليلا.

٢) تكتل أعداء الإسلام وإخلاصهم لباطلهم يحاربون الإسلام، ويصدون الناس عن الدخول فيه بنشر الأكاذيب وتشجيع المغالين، وتقوية المعاندين .

٣) التفرقة بين الناس فهناك القوى العظمى ولهم كل شيء، وهناك القوى الضعيفة ولا شيء لهم لدرجة أن هذه التفرقة شاعت في المجتمع الواحد .

٤) ضياع الحقوق على المستوى الفردي والجماعي، ودخول الجميع في متاهات الغش والنفاق والتعصب، والعدوان .

٥) سيطرة الصهيونية العالمية على أدوات التوجيه وقوى الاقتصاد، والتحكم فيها كما يريدون .

وذلك كله يجعلنا ننادي في الناس قائلين : عيشوا الإسلام وطبقوه فتنتشر السعادة ويتحقق السلام .



الفصل الثاني

عوامل تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية



تمهيد :

يحافظ الإسلام على حقوق الإنسان كافة، ويصنع من النظم مـــا يــصونها ويحفظها، وفي نفس الوقت يحدد له الواجبات التي سيسأله الله عنها يوم القيامة.

وهو إذ يفعل ذلك مع الإنسان الفرد يصنعه مع الجماعة ليتحقق الخير مع الناس أجمعين .

ولو أدى الناس ما عليهم، وأخذوا ما لهم لاستقام شأن الحيـاة، ولتحقـق للجميع الخير والسلام وصدق من قال :

لو أنصف الناس لاستراح القاضي   وبات كل عن أخيه راضي

واستقامة الأفراد تنعكس على الجماعة وعلى الأمة لأن البناء الاجتمـاعي في حقيقته يقوم على بناء الفرد فإذا نشأ الفرد صالحاً مستقيماً راضـياً اسـتقام المجتمع كله.

إن الفرد هو لبنة الأسرة، ومن الأسر يتكون المجتمع كله، وتوجد الأمـم والشعوب، ولا يمكن تصور مجتمع سعيد بأفراد أشقياء، ولا ينتشر سلام إلا بين أعضاء المجتمع جميعاً .

إن الإسلام يحقق أهدافه جميعاً معاً، لأنه دين واحد وأهدافه معه تلازمـه في الوجود لا تتجزأ، ولا تتخلف شأن الدواء الدقيق فإنه يذهب المرض ويحقق الشفاء إذا تناوله صاحبه، وإن لا فلا صحة ولا شفاء .

وفي هذا الفصل سأبين النظم الشرعية التي وضعها الله تعـالى لتحقيـق الأهداف الإسلامية للفرد والجماعة .

ولسوف يتكون هذا الفصل من خمسة مباحث يتكون كل فصل من نظـام يصون واحدا من الضرورات الشرعية الخمسة وهي :

المبحث الأول : نظام حفظ الدين .

المبحث الثاني : نظام حفظ النفس .

المبحث الثالث : نظام حفظ النسل .

المبحث الرابع : نظام حفظ المال .

المبحث الخامس : نظام حفظ العقل .   **والله الموفق ،،**

المبحث الأول
نظام حفظ الدين

الدين فطرة إنسانية، وغريزة عامة تجعل الإنسان يشعر دائماً بقوة غيبية من حوله، والناس من أقدم العصور حيارى وهم يجدون في أنفسهم إلهاماً بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة، يستلهمونها ويستمدون منها العون، ويستقبلونها بالرضى، ويتوسلون إليها بالقرابين، والعبادات ويجدون في الإيمان بهذه القوة التي اختلفوا في تكييفها سنداً، وملاذاً من رهبتهم، وسلواناً وعزاء عن ما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها .

ومن هنا كانت مهمة الرسل أن يوجهوا الإنسانية إلى الصراط المستقيم الذي يعرف بالإله الحق، ويبين وجوب عبادته، وتقديسه، وتعظيمه، وبذلك صانوا صلوات الله عليهم أصالة الفطرة، وأبعدوا عنها مظاهر الانحراف والضلال، وكانت خاتمة المطاف على يد سيدنا محمد ﷺ الذي جاء يبين للناس الدين الحق، ويدعو إلى الإيمان به وقد شرع ﷺ عوامل حفظه التي أجملها في أربعة أمور :

<u>١) الحفظ بالتكاليف الشرعية الميسرة :</u>

الدين الإسلامي عبارة عن الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، والمحافظة على العبادات المحددة، وغير المحددة، مع الإحسان التام والإخلاص الدقيق، والمسلم إذا نفذ تعاليم دينه من عقيدة وعبادة وأخلاق بقي دينه محفوظاً قوياً .

ذلك لأن العقيدة تعرف بالله وصفاته، وتبرهن على وجوده واستحقاقه وحده العبادة، وتتضمن بعد ذلك بقايا أركان العقيدة.

كما أن العبادة تربط الإنسان بالله، فالصلاة خشوع وخضوع وتوجه إلى الله، والصوم إمساك عن بعض المباحات طاعة الله، وكذلك الحج والزكاة لأنهما مشقة بدنية ومالية يتحملها المكلف تعظيماً لله وعبادة له وطاعة، وبذلك يعيش المسلم مع دينه في كل آن ومكان.

وقد تميزت عقيدة الإسلام وعبادته بجملة من المزايا جعلتهـا مقبولـة عنـد الإنسان وسهلة الفهم والتطبيق .

فهي – أولاً – :

تكاليف فطرية، ويكفي أن محور العقيدة هو التوحيد المتفق تماماً مع العقل السليم والمنطق الحق، ذلك لأن التوحيد يعتمد على فكرة بدهية مؤداها أن هـذا الوجود المشاهد لابد له من إله موجد واحد يتصف بالعلم والقـدرة والإرادة لا يدانيه في ذلك آخر .

ولو تفحصنا الاحتمالات العقلية التي تدور حول موجد الكون لوجدناها تحتم صدق العقيدة الإسلامية، لأن **الاحتمال الأول** يذهب إلى أن العالم المشاهد وهـم لا وجود له وهذا احتمال مرفوض بدليل الواقع المشاهد الناطق بوجود الموجودات .

والاحتمال الثاني : يذهب إلى أن يكون هذا الوجود حقيقة إلا أنه وجد من تلقاء نفسه، وهو أيضاً احتمال مرفوض لأنه ينكر قانون الأسباب والمـسببات، ويلغي قوانين العلم والحياة، وكلها تثبت أن للوجود موجد، وللأثر مؤثر .

والاحتمال الثالث : يذهب إلى أن يكون هذا الوجود قديماً لا أول له ولا آخر وهذا الاحتمال يجعل الكون فاعلاً ومنفعلاً، ومؤثِراً ومؤثَّراً فيه في وقت واحـد، وينسب الكمال المطلق، والحكمة العالية، والعلم الشامل لعناصر الكون كـالتراب والهواء والماء وهكذا وهو احتمال مرفوض بالبداهة والعقل لأن ما في الوجود من علم وحكمة وكمال لا يصح أن تنسب للتراب مثلاً .

وما دامت الاحتمالات الثلاثة قد **رفضت فإن الاحتمال الرابع والأخيـر** هـو الجدير بالقبول لأنه التفسير المستقيم لسبب الوجود **حيث يـذكر أن الله سـبحانه وتعالى هو الموجد لكل شيء .**

إن العقل السليم يؤمن بذلك كما أن القرآن قد أثبته، يقول الله تعالى مؤكداً هذه الحقيقة ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

---

(١) سورة يس آية ٨٢ .

مُّبِينٍ ﴾[1].

والبشر اليوم أقوى على التسليم بإمكانية الخلق بـــ " كُن " بعد أن رأوا أن الموجودات المادية تنتهي في حسابنا إلى معان ومعادلات رياضية [2] وبعـــدما شاهدوا الزلازل التدميرية تفعل فعلها في لحظات قليلة .

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة ملئ بالأدلة السهلة الواضحة التـــي تؤكـــد فطرية العقيدة الإسلامية إذ تبعد الإنسان عن متاهات الفلسفة والتراكيب المعقدة، وتجعله يوجه عقله إلى النظر في نفسه، وفى الكون من حوله، مع لفت نظـــره، إلى العناية الإلهية الكاملة، واختراع القادر الحكيم، ذلك أن النظر فـــي الـــنفس والكون يؤدي إلى الاقتناع واليقين بالدليل السهل الميسر .

وقد أجمل ابن رشد أدلة القرآن على فطرية العقيدة، وإثباتها لوجود الله في نوعين :-

النوع الأول :

دليل الوقوف على عناية الله بالإنسان، حيث خلق الله سائر الموجودات من أجله، وهذا الدليل يعرفه ابن رشد بأنه " **دليل العناية** " ويبين أن مبنـــاه علـــى أصلين هما :

الأصل الأول : أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجـــود الإنـــسان تخدمه،وتيسر له الحياة .

الأصل الثاني : أن هذه الموافقة هي – ضرورة – من قبل فاعـــل قاصـــد مريد، وليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، وهي واضحة فـــي موافقـــة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعـــة والمكان الذي هو فيه، وكذلك تظهر العناية في أعضاء الإنسان وموافقتها لحياته ووجوده[3] ولذلك فمعرفة منافع جميع الموجودات تبين عناية الله بالخلق .

---

(١) سورة سبأ الآية ٣ .

(٢) الفلسفة القرآنية صـــ١٨ .

(٣) مناهج الأدلة صـــ ١٥٠ .

النوع الثاني :

دليل سماه ابن رشد " **دليل الاختراع** " ويدخل فيه وجود المخلوقات كلهـــا، وينبني هو الآخر على أصلين .

الأصل الأول : أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف واضــــح فـــي الحيوان والنبات وكل مخلوق، لأننا نرى أجساماً جمادية تحدث فيها الحياة فنعلم قطعاً أن هاهنا موجداً للحياة منعماً بها وهو الله تبارك وتعالى .

الأصل الثاني : أن لكل مخترَع مخترِع، ولذلك فمعرفة سائر المخترعـــات يؤدي إلى معرفة الله تعالى[1] الموجد لكل جديد .

وكما أثبت القرآن الكريم وجود الله تعالى أثبت الوحدانية المطلقة له، لأن انتظام المخلوقات في طابع واحد يؤكد أن خالقها واحد، يقول الله تعـــالى ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] .

والتوحيد في حقيقته يشمل الألوهية والربوبية لأنه يعرف الموحـــد قـــدر الإله، ويحثه على أن يعبده وحده .

وشهادة الإنسان بأنه " لا إله إلا الله " ليست قولاً ولا نطقاً مجرداً بل هـــي تعبير عن الوصول إلى الحق كأنه شاهده بجوارحه، فصدق تصديقاً لا يحتمـــل النقض ولا يلغي بحال، وهذه الشهادة لها خطورتها عند المؤمن بها حيث يترتب عليها التكوين الشخصي، وشمول النظرة إلى الكون كله، ويترتب عليها كـــذلك قيام مجتمع محكوم بشريعة الله تعالى، لأنه دائماً مشدود إلى أصـــلها، متمـــسك بمبادئها، محافظ على سماتها، لأن المجتمع المسلم لو لم يكن كذلك فهو مخالف لما تستحقه شهادة التوحيد .

ومن لـــوازم الشهادة أن يتحول الشاهد إلى طاعة مطلقة لله وإلى توكل

---

(١) مناهج الأدلة صـــ ١٥١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

مطلق عليه، وأن يتجه بكل عمل صغر أم كبــر لله تعــالى، أي أن تكــون الشهادة عند صاحبها عقيدة وحالة تتعمق فيه حتى تصل إلى كل قلبه، وإلى كــل نفسه، وبذلك تكون شهادته حقه وعقيدة تامة، والله سبحانه وتعالى يحاسب علـــى حقائق الأعمال ونياتها " **يروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا .**

قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟

يقول : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ .

قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَـسُحِبَ عَلَـى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ .

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا .

قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟

يقول : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ .

قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ .

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا

قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟

يقول : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ .

قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَـسُحِبَ عَلَـى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ [1] .

فبرغم أن ظواهر الأعمال المذكورة طاعة إلا أن الله نظر إلى ارتباطهـا بالنية ودورانها معها وحاسب صاحبها على أساس ذلك .

<u>والتكليف – ثانيا – :</u>

ميسرة حيث أن جميع عبادات الدين سهلة لا عناء على الفــرد في أدائها

---

(١) صحيح مسلم جـ٦ صـ٤٦ كتاب الإمارة باب من قال: للرياء والسمعة .

والمحافظة عليها، فالصلاة مثلاً عبادة فرضها الإسلام على المسلمين ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل والنهار، وجعلها خمساً تؤدى في أوقات خمسة لا تستغرق في جملتها سوى دقائق معدودة، وحتى لا يغفل الإنسان عن مواقيتها شرع معها الآذان إعلاماً بوقتها لكي يؤديها وقتاً وقتاً، فلا تتراكم وتترك، أو تضيع أعمالاً أخرى بسبب تراكمها، والصوم فريضة مقدرة بشهر واحد في السنة، والزكاة لا يؤديها إلا المستطيع، والحج مفروض على من استطاع إليه سبيلا .

وهي فرائض خالية من الحرج تماماً " يقول الشاطبي " وأعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين :

أحدهما : الخوف من الانقطاع في الطريق، وبغض العبادة، وكراهية التكليف .

والثاني : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد، المختلفة الأنواع مثل قيامة على أهله وولده إلى تكاليف أخرى تأتي في الطريق[1] .

وهكذا ينفي الحرج من التكاليف محافظة على الدين ليبقى، ومحافظة على العبد ليقوم بكافة وظائفه .

ولا يقف تيسير العبادة عند بساطتها بل إن الشريعة تلاحظ أعذار الناس وتخفف عنهم العبادة على قدر طاقتهم والأمثلة كثيرة .

فالوضوء لا ينقض بسبب سلس البولً أو الرعاف الدائم ويستبدل به التيمم، والمسح على الخفين وعلى الجبيرة .

والصلاة تسقط على الحائض والنفساء، وتقصر على المسافر، ويتسامح في بعض شروطها للمريض والعاجز والخائف وفى وقت المطر.

والصوم يؤجل أو يفدي عنه.

والحج فيه تخفيف كثير على أصحاب الأعذار.

يقول العز ابن عبد السلام مبيناً أنواع تخفيفات الشرع على المكلفين : "والتخفيفات أنواع منها تخفيف الإسقاط كإسقاط الجمعات والصوم والحج

---

(١) الموافقات جـ٢ صـ١٣٦ .

والعمرة بأعذار معروفة، ومنها تخفيف التنقيص كقصر الصلاة وتنقيص الركوع والسجود على المريض إلى القدر الميسور له، ومنها تخفيف الإبدال كإبدال الوضوء والغسل بالتيمم، وإبدال القيام في الصلاة بالقعود، وإبدال العتق بالصوم وإبدال بعض واجبات الحج والعمرة بالكفارات عند قيام الأعذار .

ومنها تخفيف التقديم كتقديم العصر إلى الظهر والعشاء إلى المغرب في السفر والمطر وكتقديم الزكاة على حولها ومنها تحفيف التأخير كتأخير الظهر إلى العصر ورمضان إلى ما بعده، ومنها تخفيف الترخيص كصلاة المتيمم مع الحدث والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه[١] وهكذا يكون التخفيف رفعاً للحرج، وبعداً عن المشقة .

ثالثاً – والتكاليف

مفيدة حيث تترقى بالإنسان وتسمو به فصاحب العقيدة الصادقة عزيز لا يستذل لشيء، ولا يقبل ضيماً من أحد، ويستمد عزته من الله تعالى ولسوف يكون بعقيدته صادقاً أميناً مستقيماً، كما أن العبادات بدورها تفيده بمقاصدها يقول الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[٢] .

فبان بذلك أن الصلاة تبعد عن المنكر والفحشاء، وهكذا سائر العبادات لأن مقصد الصوم هو التقوى والصحة، ومقصد الزكاة تحقيق الطهر والبركة والنماء، والحج ذكر لله ومنافع للناس .

ويجب أن يبقى معلوماً أن التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم[٣] ... ولئن كان المقصد الأصلي للعبادة هو التعبد لله تعالى فإن مع المقصد الأصلي مقاصد تابعة تفيد الإنسان نفسه ولا حرج على الإنسان إن قصد من عمله البواعث الدنيوية مع قصد التعبد المجرد .

---

(١) قواعد الأحكام جـ٢ صـ٨ ، ٩ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٣) قواعد الأحكام جـ٢ صـ٧٣ .

ولا ينبغي له أبداً أن يقصرها على المقاصد الدنيوية وحدها لأنه إن قصر عمله على قصد الدنيا فقد ضيعه .

والتكاليف – رابعاً – :

معتدلة بمعنى أنها تمزج مزجاً حسناً بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وتشرع للدنيا والآخرة، وتحافظ على حق الله وحق الحياة، وهذا الاعتدال يسمو بالدين إلى حد الكمال وينفي عنه تهمة إضاعة الإنسان على الأرض وتخديره بأعماله مبهمة، وشرع غير هادف، ذلك أن الناظر في تعاليم الإسلام يراها ترعى حق الله لتعود الفائدة في النهاية على الإنسان نفسه يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[١] .

فدعوة الرسول ﷺ تحيي الأفراد، وتملأهم بالخير يقول العز : إذا سمعت نداء الله تعالى في كتابه فتأمل وصيته بعد ندائه فلا تجد إلا خيراً يحث عليه أو شراً يزجر عنه أو جمعاً بين الحث والزجر[٢] ويقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[٣] .

فإن الأمر هنا بالتقوى والخوف من الله والعمل للآخرة والتذكر الدائم لله، وهذا كله لا يتحقق إلا بصلاح الدنيا يقول أبو السعود : " كرر الله الأمر بالتقوى هاهنا للتأكيد أو لأن الأمر الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل، والأمر الثاني في ترك المحارم كما يؤذن الوعيد وعدم نسيان الله بترك حقوقه، لأن من فعل ذلك كان ناسياً لنفسه فلم يسمع ما ينفعها، ولم يفعل ما يخلصها[٤] .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٤ .

(٢) قواعد الأحكام جـ١ صـ١١ .

(٣) سورة الحشر الآيتان ١٨، ١٩ .

(٤) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١٥٤ بتصرف .

ومن المعلوم أن الصلاة تحتاج إلى صحة وقدرة واحتمال، والصدقـــة تحتاج إلى مال يكتسب وينفق، والجهاد لابد له من مال ورجال وسلاح وإعداد وتجهيز .

وهكذا كل العبادات تحتاج إلى قوة وكسب مادي، ومن هنا حثت الـــدعوة الإسلامية على اكتساب مطالب الروح والجسد معاً يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١] .

وهذه الآيات تبين أن المسلم قبل الصلاة في بيع وعمل، وبعدها في سعي على المعاش وكسب للرزق، فهو يحافظ على الدنيا والآخرة، وعلى المسلم أن يـــستمتع في الدنيا بأقصى ما يمكنه من الحلال المشروع، وأن يملأ الأرض سعياً ونـــشاطاً وقوة، ويستثمر ما سخر الله له من أرض وسماء وشمس وقمر، وينبغي للمكلف أن يعرف أن العمل الدنيوي إن لازم الأمر المشروع وجاء موافقاً لحكم الله فإنه ينقلب إلى عبادة لـــ " **أن المكلف إذا فهم مراد الشارع من بيان أحوال الدنيا، وأخذ في العمل على مقتضى ما فهم فهو إنما يعمل من حيث طلب منه العمل، ويتـــرك إذا طلب منه الترك فهو أبداً في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح**[٢].

والتكاليف في اعتدالها تراعي الإنسان في كل حالاته، فتشرع له فرداً مستقلاً بذاته، ومشتركاً في جماعة وأمة، يقول العقاد " الإسلام هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده فلا يكون المسلم مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ولا يكون مسلماً لأنه روح أنكر الجسد أو جسد ينكر الروح، إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية والاجتماعية مزية توحي للإنسان بالكمال[٣] .

٢) الحفظ بالدعوة إلى الدين :

شرع الله أن تستمر الدعوة إلى دينه من غير توقف، وفرض على الأمة المســـلمة

---

(١) سورة الجمعة الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٢) الموافقات جـــ٢ صـــ٢٢٠ .

(٣) الإسلام في القرن العشرين صـــ٢٧ .

أن تبلغ الدعوة لأفرادها وللأمم الأخرى، فقال تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢) .

وهاتان الآيتان تشيران إلى وجوب أن يأخذ تبليغ الدعوة شكل الانتشار العام حيث يتناصح الناس بها فيما بينهم ويوجهون دعوتهم إلى الأمم الأخرى، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا الوجوب إن صح من كل مسلم فإن الواجب يحتم تعيين فئة للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين على الخصوص .

وهناك جماعة الحسبة التي تعاون الدعاة فى إصلاح حال الناس وعليها أن تأمر بالمعروف إذا ظهر تركه وتنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، يقول الغزالي: وتكون الحسبة في كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد (٣) .

وقد بين القاضي أبو يعلى وأبو الحسن الماوردي مجال عمل المحتسب في الأمر بالمعروف وقسماه إلى ثلاثة أقسام .

ما كان في حقوق الله .

وما كان في حقوق العباد .

وما كان مشتركاً بينهما .

وعمل المحتسب يكون فيما ليس من عمل الولاة والقضاء وأهل الديوان(٤).

ويقول ابن تيمية : " ومن واجبات المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب من

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٣) الإحياء جـ٢ صـ٢٨٥ .

(٤) الأحكام السلطانية لأبي يعلى صـ ٢٨٦ – ٢٩٢ الأحكام السلطانية للماوردي صـ٢٤١ – ٢٤٨ وقد قسما عمل المحتسبة في مجال النهي عن المنكر إلى ثلاثة أقسام كذلك .

حقوق الإمامة، أو خرج عن الآذان المشروع ألزمه ذلك، وذلــك أن الــصلاة أعرف المعروف من الأعمال وهي عامود الإسلام فاعتناء ولاة الأمر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الأعمال، ويأمر المحتسب بالجمعة والجماعــات، وبصدق الحديث، وأداء الأمانات وينهي عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش[1] .

وهكذا يجب أن تستمر الدعوة إلى الدين والمحافظة على المعــروف بــين أتباع الدعوة ومنع المنكر من أن يشيع فيهم .

ووصول المحتسب إلى هدفه يكون بالقول والعمل حيــث يعــرف النــاس بالمعروف والمنكر ومدى تطابقها أو تنافرها مع تعاليم الإسلام، ويعظ وينصح ويخوف، وله أن يغلظ في قوله عند عجز الكلام الحسن عن التأثير .

وله أن يهدد باستعمال يده في الضرب، وله أن يستعملها في الضرب عند الضرورة وعلى قدر، وله بعد ذلك أن يرفع الأمر إلى الولاة والقــضاء[2] وإن جاهر رجل مسلم بشرب الخمر فله أن يريقه عليه ويؤذيه بالضرب بعد ذلــك، وهكذا يقوم المحتسب بعمله حماية للدين وتبليغاً له .

<u>٣) الحفظ بحماية الدين من أعدائه المعتدين :</u>

بعد تمام الدين وكماله وتمسكه باحترام الإنسان وتكريمه وضمان حريتــه قضى الله تعالى بحماية الدين ودعاته من المعارضين المعاندين الذي يبغون هدم دعوة الله وإزالتها، وهذه الحماية إيجابية حيث شرع الله لها معاقبة المعانــدين وجهادهم فقال تعــالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[3] ذلك لأن جهادهم واجب رداً للظلم، وقطعاً لإفسادهم وحتى لا يصدوا الدعوة في بلاغها، ويمنعوها من الانتشار، وحتى لا يمنع هؤلاء المعاندون دعاة الإسلام من التعريف بالإسلام بالكلمة الهادفة والخلق الكريم .

---

(١) الحسبة في الإسلام صـــ٩ ، ١٠ .

(٢) الإحياء جـــ٢ صـــ٢٨٩ ، ١٩٢ بتصرف وإيجاز .

(٣) سورة الحج الآية ٣٩ .

وعلى هذا المفهوم تدور فلسفة الجهاد الإسلامي، وكل المعارك في عصر النبي ﷺ لا تعدوا هذه الحقيقة، فلم يقاتل النبي ﷺ العرب إلا لأنهم أخرجوه من مكة وآذوه واستولوا على أموال المسلمين، وقصدوا فتنتهم في دينهم وأكبر المعارك كانت تمثل هجوماً من أهل مكة على المسلمين كما حدث في بدر واحد والأحزاب.

ولم يحارب النبي ﷺ اليهود إلا لأنهم بدأوا العداوة للمسلمين، ولم يكن جهاده ﷺ للإبادة وإنما كان رحمة رقيقة حيث لا حرب إلا في ميدان القتال، ومع المقاتلين وحدهم، وكان دائماً حماية للدعوة من معارضيها المعاندين لأن التقصير في هذه الناحية يعرض الدين للزوال فلابد من حمايته .

<u>٤) الحفظ بحماية الدين من الغلو والانحراف :</u>

قد يأتي الانحراف في الدين بسبب الغلو فيه، ومن هنا نرى الإسلام يضع الأسس التي تنجيه من هذا الإنحراف، ولذلك ينهي عن تعظيم الشخص لذاته ويبين أن الكل **(وإن علا أقدار بعضهم)** ينتسبون لأب واحد، وأم واحدة يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1] .

فبين بذلك أن الناس جميعاً سواء، وليس لفرد أن يعظم، وإنما العظمة لله وحده، وهو القاهر فوق عبادة وهو الحكيم الخبير[2] .

ونجده كذلك ينهي عن اتخاذ القبور مساجد مخافة أن يعظم ساكنوها الموتي، كما حدث مع أصنام قوم نوح فقد ذكروا أنها كانت أسماء لقوم صالحين فلما ماتوا عكف أهلوهم على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ووضعوها فلما طال عليها الأمد عبدوها[3] .

وهذا احتياط شديد من جانب الدعوة ليبقى التعظيم لله وحده، لأن التسامح في هذا الباب مزلقة لانحرافات كثيرة، والواجب أن تتجرد العبادة لله من غير

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) الأصنام صـ ٦٨ .

(٣) الأصنام صـ ٥١ ، ٥٢ .

ارتباط بميت أو حي، وأن يحس العابد بأن العبادة تكليف لضميره وحده يتجه بها إلى الله بلا توسط هيكل أو تقريب كهانة، يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما كان فثم وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله، ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأحد لأنه بيت الله الحرام وقد قال النبي ﷺ مبيناً عاقبة اتخاذ القبور مساجد " **لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا** " (١) ونجده كذلك ينهي عن الحلف بغير الله لأن الحلف تعظيم ولا تعظيم إلا لله تعالى ولذلك يقول ﷺ " **أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ** " (٢).

وكانت قريش تحلف بآبائها فقال النبي ﷺ : **لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ** (٣).

* * *

بهذه الأمور يحفظ الدين كما نزل من عند الله تعالى، ويستمر في حركته بين الناس فيسعد به الجميع، وينشر فيهم الأمن والسلام.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة رقم ٤٣٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم رقم ٦٦٤٦ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى ١٦٤٦ .

المبحث الثاني
نظام حفظ النفس

الحياة منحة الله للأحياء، وهو سبحانه وتعالى معطيها وآخذها حين يريد والمحافظة عليها ضرورة من أجل الإنسان نفسه فبها يعيش ويعمل ويفكر، وبدونها يكون العدم والفناء .

وقد وضعت الشريعة الإسلامية أحكاماً لحفظ حياة النفوس يمكننا أن نجعلها في أمور أربعة هي :

١) حماية النفس من الأمراض :

يوسع الإسلام نظامه في حماية النفس من المرض حيث لا يتركها فريسة له ثم يعالجها، إنه ابتداء يهتم بالوقاية، ومن المعروف أن الطب الوقائي أكثر في فائدته وأعم من الطب العلاجي لأنه سهل التنفيذ واسع الأثر .

وقد وضع الإسلام أسس الطب الوقائية حيث اهتم بالنظافة مطلقاً، ونهى عن الأعمال التي تساعد على انتشار المرض، وأمر بالبعد عن المرض ومظانه، وهذا كلام يحتاج إلى تفصيل .

فأما عن النظافة :

فإننا نلحظ أن الإسلام قد جعلها من الإيمان، ولقد كان المشرك إذا أراد أن يسلم وسأل عما يفعل لذلك يقال له " **تغتسل فتطهر جسمك وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين** "[1] وقد ربط الإسلام عبادته بالنظافة، فالصلاة تسبق بالاستنجاء والوضوء وبذلك يطهر مخرج الأقذار والأطراف المعرضة للأتربة والجراثيم، وفى تفصيلات الوضوء كندب تكرره وتثليثه وإيصال الماء إلى ما تحت اللحية وتخليل الأصابع وغير ذلك دليل واضح على مدى مراعاة الإسلام للنظافة، وفى قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾[2] نوع من الطهارة غير الوضوء وهو الغسل الذي يشمل الجسم كله، وفيه الدلك

---

(١) سيرة النبي جـ٢ صـ٤٤ قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

وعدم الاكتفاء بظاهر الأعضاء، كما أنه لا يقف عند حدوث الجنابة والحيض والنفاس بل أنه سن في حالات كثيرة كشهود الجمعة والعيدين والجماعات وأكده في بعضها مخافة إهماله فقال ﷺ " **الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ** " [١].

ولم يكتف الإسلام بالنظافة في الوضوء والغسل بل سن تطهير أجزاء كثيرة تعد من أصول النظافة، منها غسل اليدين عند القيام من النوم يقول ﷺ " **إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ** "[٢]

ومنها تنظيف الأسنان بالسواك يقول ﷺ " **لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ** [٣] " ومن الأمور ذات الأهمية في النظافة ما عدده النبي ﷺ في قوله " **عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ قَالَ زَكَرِيَّاءُ قَالَ مُصْعَبٌ وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ زَادَ قُتَيْبَةُ قَالَ وَكِيعٌ انْتِقَاصُ الْمَاءِ يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ** "[٤] .

وقد عرفتنا تعاليم الدعوة أن من يهمل النظافة يضع نفسه في موضع العقاب الإلهي حيث ورد أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال " **أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ** "[٥] وقد حث الإسلام على نظافة الثوب يقول تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[٦] والزينة لا تتم إلا بنظافة الثوب وحسنه، والأمر شامل لكل مكان يمكن أن يسجد فيه وهو يعم الأرض كلها، وقد كان

---

(١) صحيح البخاري جـ٢ صـ١٥٧ كتاب الصلاة باب وضوء الصبيان ط الأوقاف .

(٢) صحيح مسلم جـ١ صـ١٥١ كتاب الطهارة باب كراهة غمس المتوضيء وغيره يده المشكوك فيها .

(٣) صحيح البخاري كتاب الجمعة باب السواك يوم الجمعة رقم ٨٨٧ .

(٤) صحيح مسلم جـ١ صـ١٥٣ كتاب الطهارة باب خصائل الفطرة – والبراجم هي مفاصل الأصابع والمرتفعات من ظهر الكف وانتقاص الماء يعني الاستنجاء .

(٥) صحيح مسلم جـ١ صـ١٦٦ كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول .

(٦) سورة الأعراف الآية ٣١ .

النبي ﷺ يأمر أصحابه بأن يهتموا بثيابهم، ومن أقواله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه " **الْبَسْ جَدِيدًا وَعِشْ حَمِيدًا وَمُتْ شَهِيدًا** "[١].

وكان يأمر النسوة إذا سألته عن دم الحيض في الثوب بالنظافة ويقول ﷺ "**تَحُتُّهُ ثُمَّ تَقْرُصُهُ بِالْمَاءِ وَتَنْضَحُهُ وَتُصَلِّي فِيهِ** "[٢] .

وكذلك يهتم الإسلام بنظافة المكان الذي يعيش فيه الإنسان ويعمل ويصلي، يقول النبي ﷺ " **فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ** "[٣] والرحل هو مسكن الرجل وما يصحبه، **يروي أنس رضى الله عنه : " أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُزْرِمُوهُ ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ**"[٤] .

وهكذا يحافظ الإسلام على نظافة الجسد والثوب والمكان ليكون مؤكد النفع قوى الأثر .

وأما عن الأفعال التي تسبب المرض ففقد نهى الإسلام عن ارتكابها وهي كثيرة.

منها شرب الخمر حيث جاء النهي عنه وتحريمه بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٥] .

وذلك لأن الخمر تعوق الإنسان عن الحركة المنتظمة والعمل النشيط وتسبب الارتعاش في الأطراف والشلل في الأعصاب وتمزق خلايا الجسم وأنسجته وتحرق الكبد وتضعف الكلية[٦] .

ومنها النهي عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه يقول الله تعالى ﴿ حُرِّمَتۡ

---

(١) الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد جـ١٧ صـ٢٥٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الوضوء باب غسل الدم جـ١ صـ١٦٧ ط الأوقاف .

(٣) الفتح الرباني جـ١٧ صـ٢٣٤ .

(٤) صحيح البخاري جـ١ صـ١٦٤ كتاب الأدب باب الرفق في الأمر كله .

(٥) سورة المائدة الآية ٩٠ .

(٦) عناية الإسلام بالصحة صـ١٩ .

عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾[١] .

يقول الرازي أن تحريم هذه الأشياء موافق لما في العقول لأن الدم جوهر لطيف جداً فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله ضرر عظيم، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات فحرم الله أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك التكلفة، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة كالميتة لأنها تموت حتف أنفها[٢] .

ومنها النهي عن مباشرة النساء وقت الحيض لأن ضرر ذلك محقق بالنسبة للرجل والمرأة معاً قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣] .

ومنها النهي عن التبول والتبرز في الماء الدائم، وقد ثبت أن النبي ﷺ نهى عن : التبول في الماء الدائم وفي طريق الناس وظلهم حيث قال ﷺ " **اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**

قَالُوا : وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللَّه ؟

قَالَ ﷺ الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ[٤] ... **وذلك لأن فعل شيء من هذا يجلب كثيراً من المرض .**

ومنها النهي عن الزنا لضرره حيث يجلب المرض، ويحدث السيلان والزهري وينقل كثيراً من الأمراض الخطيرة مثل مرض نقص المناعة (الإيدز) يقول الله تعالى في تحريم الزنا والنهي عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٥] وهكذا فالزنا فحش كله وسوء كله .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٣ صـ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٣) سورة آية البقرة ٢٢٢ .

(٤) صحيح مسلم جـ١ صـ١٥٦ كتاب الطهارة باب النهي على التخلي في الطريق .

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٢ .

وفى البعد عن موطن المرض نلحظ أن الإسلام يأمر بمحاصرة المـرض وعزله وخاصة ما كان معدياً، فبرغم أن الأمور كلها تسير كما يريد الله إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى الأمور على مقتضى العادة فقال ﷺ " **وَفِرَّ مِنْ الْمَجْـذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنْ الْأَسَدِ** " [١]، وقد قضى النبي بإقامة ما عرف حديثاً بالحجر الصحي حيث أمر بأن تحاصر المنطقة الموبوءة فلا يدخلها أحد أو يخرج منها أحد حتى ينتهي الوباء، روى البخاري بسنده عن أسامة ابن زيد أن رسول الله ﷺ قال " **إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا** "[٢] وقد ثبت أن المسلمين الأول نفذوا أوامر الرسول فـي هـذا الشأن .

يروى البخاري بسنده **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْـنُ الْجَـرَّاحِ وَأَصْـحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ .**

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقَالَ عُمَـرُ : ادْعُ لِـي الْمُهَـاجِرِينَ الْـأَوَّلِينَ فَـدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ .

فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ فَـدَعَوْتُهُمْ لَـهُ فَاسْتَـشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِـي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْـهِ رَجُلَانِ فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَنَادَى عُمَرُ فِـي النَّاسِ إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ[٣] **وهكذا وضع الإسلام نظام البعـد عن موطن العدوي ومكانها .**

---

(١) صحيح البخاري جـ٧ صـ١٦٤ كتاب الطب باب الجذام .

(٢) نفس المصدر السابق جـ٧ صـ١٥٨ كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون .

(٣) صحيح البخاري جـ٧ صـ١٦٨ كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون .

وأما إذا وقع المرض ولم تنفع الوقاية فإن الإسلام يجابهه بالعلاج .

ومن عجب أن الإسلام علمنا نوعاً من العلاج له أهميته هو العلاج النفسي الذي يتم بإدخال السرور على نفس المريض، وإبعاد الحزن عنه، وتهيئة جو له يعوده الصبر على الألم، وانتظار تحقق الأمن والشفاء، وهذا النوع من العلاج له أهميته وأثره .. يروي البخاري بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: **سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ** "[١] أي مريحة للفؤاد ومضيعة لبعض الغم منه .

وقد شرع الإسلام عيادة المريض من أجل إدخال السرور على نفسه وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده يقول له " **لا بأس طهور إن شاء الله** [٢] "

ومن أجل تعويد المرض على الصبر وتحمل الألم يقول ﷺ " **مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا** "[٣].

وحتى يتمسك بالأمل ويترك اليأس وينظر إلى مستقبله نظرة فيها الرضى والهدوء يقول ﷺ " **لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي** [٤] "

وهكذا يعمل الإسلام على جلب المسرة على نفسية المريض وتأميله في الشفاء والخير .

ويرى الإسلام كذلك أن على المريض أن يهتم بالعلاج ويتناول الدواء المناسب لمرضه بعد أن يحدده عالم بالطب والدواء، يقول ﷺ " **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً** "[٥] وأهل الذكر هم الذين يحددون المرض ودواءه .

وفى كتاب الطب في صحيح البخاري كثير من المطعوم والمشروب الذي أمر النبي ﷺ بتناوله من أجل العلاج وتخفيف الألم وفي قوله تعالى ﴿ **وَكُلُوا**

---

(١) صحيح البخاري جـ٧ صـ١٥٢ كتاب الأطعمة باب التلبينة .

(٢)صحيح البخاري جـ٧ صـ١٥٢ كتاب المرض باب عيادة المريض .

(٣) صحيح البخاري جـ٧ صـ١٤٨ كتاب المرض

(٤)صحيح البخاري جـ٧ صـ١٥٦ كتاب الطب ، باب تمني المريض الموت .

(٥) صحيح البخاري كتاب الطب، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء .

﴿ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [1] جماع لكل ذلك .

٢) الحفظ بحماية النفس من الاعتداء :

وضع الإسلام كثيراً من أحكامه لمنع الاعتداء على النفس أياً كان مصدره فنهي أن يقتل المرء نفسه بسبب غم يلحقه أو أذى يخافه فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2] ذلك أن المؤمن مع كونه مؤمناً قد يلحقه من الغم والألم ما يكون القتل أسهل عليه من الحياة، وغير المؤمن أكثر ضجراً وثورة، وقتله لنفسه أكثر احتمالاً من المؤمن، ولذلك نهي الله في هذه الآية عن قتل النفس وأعقبها بآية أخرى تبين شدة عقوبة من يقتل نفسه فقال تعالى ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[3] .

يقول عطاء : هذا الوعيد خاص بقتل النفس لأنه أقرب ما ذكر في الآية السابقة وعمم غيره الوعيد فجعله لقاتل النفس ولغيره[4] .

وعلى رأي الجميع فإن العقوبة مؤلمة لمن يقتل نفسه .

ونهى الله كذلك عن أي عمل يعرض الإنسان فيه نفسه للهلاك والمخاطر فقال تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[5] أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم إلى الهلاك بأي عمل سواء كان بترك النفقة، أو بترك الجهاد، أو بالدخول في شيء تعرفون أن الهلاك محقق فيه من غير نفع يأتي أو بارتكاب الذنوب وهكذا فإلحاق الضرر بالنفس هو إلقاء بها إلى الهلاك وقد نهي الله عنه وحرم الإسلام قتل النفس بغير حق قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾[6] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٢) سورة النساء الآية ٢٩ .

(٣) سورة النساء الآية ٣٠ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ٣ صـ٣٠٤ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

(٦) سورة الإسراء الآية ٣٣ .

يروي البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعــود أن رسول الله ﷺ قال : " **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ** "(١) وعلى هذا فجريمة قتل النفس جريمة نكراء شدد الله عليها العقوبة وضاعف الجزاء يقول الزمخشري عند تفسيره لقولــه تعــالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٢) هذه الآية فيها مــن التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم، وخطب غليظ، لأن القتل جــرم كبير لدرجة أن ابن عباس ذكر أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة.

يقول سفيان الثوري : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له .

وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله تعالى في التغليظ والتشديد(٣) .

وأيضاً فإن التوبة لا تتم إلا بعفو العبد عن حقه، ولا يستطيعه هنا لأنــه قتل، ومن هنا قالوا لا توبة للقاتل، ولم يكتف الإسلام بتهديد القاتل وزجره وإنما شرع القصاص حماية للنفس، ذلك لأن القتل أنفى للقتل، ولكم فــي القــصاص حياة، والإنسان إذا علم أنه إن قتل قتل فإنه لا يقدم على القتل فتتحقــق بــذلك الحياة ويستقر الأمن والهدوء يقول الطبري عند تفسير قوله تعــالى ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٤) فيما فرضت عليكم وأوجبــت لبعضكم على بعض من القصاص في النفوس والجراح والشجاج ما منع بعضكم من قتل بعض فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة .

ويجب أن يكون واضحاً أن القصاص في الإسلام متعلق بالحاكم ومختص به، لأن القصاص لو ترك لأولياء المقتول ينفذونه وحدهم لحــدثت الفوضـــى والتهارج، ولذلك خاطب الله به سائر المؤمنين في قــوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح البخاري كتاب الديات .

(٢) سورة النساء الآية ٩٣ .

(٣) الكشاف جـ١ صـ٥٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾[١] فنجد أن الله سبحانه وتعالى خاطب المسلمين بالقصاص كجماعة لا كأفراد ومعنى ذلك أن الجماعة هي المسئولة عن تنفيذ القصاص، وهى لا تقدر على تنفيذه فلابد أن يتولاه الحاكم الذي اختاره المسلمون وولوه عليهم، والحاكم في الإسلام مكلف بالمحافظة على حقوق الأولياء في القصاص، وهكذا حدد الله جزاء من يعتدي على نفس غيره وبين له عقوبته في الدنيا والآخرة .

وأعطى الإسلام للأفراد حق الدفاع عن النفس فمن هاجمه شخص يريد قتله فله أن يرد خطره ولو أدى إلى قتل المهاجم .

وللحاكم أن يتدخل إذا طغت جماعة من المسلمين على جماعة أخرى، وعليه أن يقاتل البغاة حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الحق والصواب، يقول تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٢].

ويقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

فقد اعتبر الله أن هؤلاء الأشقياء يحاربونه ورسوله فأوجب عليهم هذه العقوبة وبين امتدادها عليهم في الدنيا والآخرة، يقول الرازي : المحاربون المذكورون في الآية هم القوم الذين يجتمعون ولهم منعة، بسبب أنهم يحمي بعضهم بعضاً، ويقصدون المسلمين في أرواحهم ودمائهم وإنما اعتبرنا القوة والشوكة لأن قاطع الطريق إنما يمتاز عن السارق بهذا القيد[٤] ألا وهو المنعة والقوة وإلحاق الأذى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

(٢) سورة الحجرات الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٣٣ .

(٤) مفاتيح الغيب حـ٣ صـ٥٨٥ .

بالمسلمين وقد اتفق الفقهاء على أن قاطع الطريق يطبق عليهم الحكم السابق .

٣) حماية النفس من مشقة التكاليف :

من المعلوم أن التكاليف الشرعية وضعت رعاية لمصالح العباد، وضماناً لسعادتهم في الدنيا والآخرة، إلا أن هذه التكاليف قد يصاحبها ظروف معينة تجعلها لا تنتج إلا الضرر للمكلف إن هو فعلها، وهنا نجد المشرع محافظة منه على سلامة الحياة يسقط هذه التكاليف بالكلية أو يستبدلها بغيرها فمثلاً الأصل في الوضوء والغسل أن يكونا بالماء الطاهر المطهر، لكن إذا وجد الماء عند عدو مخيف أو تحت سطوة حيوان مفترس أو كان استعمال الماء ضاراً بالصحة أو مؤخراً للشفاء أو كان الماء قليلاً لا يكفي إلا للشرب والطعام، في هذه الأحوال وأشباهها يرشد الشرع إلى استبدال التيمم بالوضوء والغسل .

وأيضاً فإن استقبال القبلة أثناء الصلاة يسقط إذا كان في التوجه خطورة على النفس بسبب عدو أو مرض .

والصلاة كلها يقطعها المصلي إن دهمه خطر أو مر بجواره حيوان مفترس أو رأى غرقاً أو حرقاً وهكذا .

والصوم يسقط أو يؤجل بسبب عذر يلحق بالمكلف يقتضي الإسقاط أو التأجيل، والحج يسقط عن غير المستطيع بسبب المال، أو بسبب الأمن، كما أن التلفظ بالكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان جائز لمن خاف على نفسه .

وهذه كلها إسقاطات تتعلق بالفرائض والواجبات من أجل المحافظة على النفس كما أن هناك أشياء محرمة يبيحها الشارع عندما تتعلق الضرورة بإباحتها كإباحة أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر بسبب الاضطرار وكالطبيب يباح له النظر إلى العورة في الجزء الذي يعالجه .

وهناك أمثلة كثيرة استقصتها كتب الفقه والمهم هنا أن الدعوة بشريعتها يسرت التكاليف – فعلاً وتركا – من أجل المحافظة على النفس وسلامتها .

٤) حماية النفس بالتكاليف :

الناظر في كثير من التكاليف الإسلامية يلحظ أنها تلتقي عند حماية النفس وحفظها وتقويتها فمثلاً يهتم الطب الحديث بالحركات الرياضية، والرحلات،

والامتناع عن الأكل بين الحين والحين، ولو قارنـا اهتمامـات هـذا الطـب بالتكاليف الشرعية لوجدنا التكاليف تؤدي كثيراً من هذه الاهتمامات مع سـبقها في التشريع وربطها بأصل ديني مقدس ... ومن ذلك الصلاة فهـي فريـضة مقصدها الأصلي تأدية حق الله تعالى، ومع ذلك فمن مقاصدها التابعة أن يؤدي الجسم حركات بين القيام والركوع والسجود والقعود واليقظة المبكرة وتطلـب الاعتدال في الوقوف واستواء الظهر في الركوع وانتصاب الـساقين ومجافـاة العضدين عن الفخذين، وكل هذا يقوي عضلات البدن ويزيده نشاطاً .

ومن المقاصد التابعة في الحج أنه رحلة إلى الأرض المقدسة وسط الشمس المشرقة في لباس أبيض فضفاض مع حركات متتابعة بين الطـواف والـسعي والزيارة والوقوف بعرفة والانتقال من مكان إلى مكان، وكل هذا يعود بالتقوية على النفس .

والصوم يفيد كثيراً في الصحة والقوة، يقول مالك فادون: أن كل إنـسان يحتاج إلى الصيام وإن لم يكن مريضاً لأن سموم الأغذية والأدوية تجتمع فـي الجسم فتجعله كالمريض وتثقله ويقل نشاطه فإذا صام خف وزنه وتحللت هـذه السموم فتذهب عنه حتى يصفو صفاء تاماً، والصوم لأمـراض المعـدة مثـل العصا السحرية يسارع في شفائها، ويرى المعالج به العجب العجـاب وتليهـا أمراض الدم ثم أمراض العروق كالروماتيزم [1] .

ولو تتبعنا سائر التكاليف الشرعية لوجدنا فيها مدخلاً لمراعـاة الـصحة وحماية النفس من الأمراض والأضرار .

وهكذا حفظت النفس بالأمور الأربعة المذكورة .

---

(١) من رسالة الصيام مجلة الوعي الإسلامي عدد رمضان سنة ١٣٨٦ .

المبحث الثالث
نظام حفظ النسل

الولد زينة الدنيا، وعنصر النوع الإنساني، والنفس البشرية تحس مع الولد برضى وطمأنينة، وتمتلئ بالحب والجمال، والإنسان بطبعه يحب النسل ويتمناه هذا هو سيدنا زكريا عليه السلام بعدما بقي مدة بلا ولد يدعو ربه ويقول ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾(١) وجاءته الإجابة الإلهية في سرور وبشر وناداه وحي الله قائلاً ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾(٢) .

يقول العربي مبيناً منزلة الولد من أبيه :

إنمـــا أولادنـــا أكبادنـــا	تمـــشى علـــى الأرض
إذا هبت الريح على بعضهم	امتنعت عيني عن الغمض

وقد بين القرآن الكريم أهمية الولد فأقسم به، يقول الله تعالى ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾(٣) .

يذكر الشيخ محمد عبده أن المقسم به في الآية مناسب للمقسم عليه لأن المقسم عليه هو أن الإنسان خلق في مشقة من أجل المحافظة على جمال الحياة فأقسم بالوالد وما ولد إذ كل منهما يلاقي مشقة في سبيل المحافظة على النوع واستبقاء جمال الكون، وقد امتن الله على البشر بأن رزقهم أولاداً فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ﴾(٤) .

والولد نعمه وأمانة يجب المحافظة عليه، وقد وضعت الشريعة الإسلامية

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٩ .

(٢) سورة مريم الآية ٧ .

(٣) سورة البلد الآيتان ٣ ، ٤ .

(٤) سورة النحل الآية ٧٢ .

من التكاليف ما يضمن هذا الحفظ وذلك بأمرين سنذكرهما فيما يلي :

١) الاستعداد الحسن لوجود الولد :

الأسرة هي البيئة الطبيعية لحياة الطفل، والزواج هو سببه المباشر.

ودور الزواج والأسرة في تنشئة الطفل وتكوينه هام، ولذلك وجدنا الإسلام يحث على الزواج مبيناً أن أحد أسبابه هو إنجاب الولد يقول عليه الصلاة والسلام لجابر بن عبد الله " **فَعَلَيْكَ بِالْكَيْسِ الْكَيْسِ** [١] " ليقصد من زواجه الاستيلاد لا مجرد اللذة، ويرشد الإسلام إلى ضرورة اختيار الزوجة الفاضلة التي تتمتع بصفات الكمال، ذلك لأن الإنسان يضع لنفسه أسساً في تخيره لزوجته، وهي أسس تدور مع الحسب والمال والجمال والدين، والإسلام يعرف هذه الأمور لكنه يفضل ذات الدين على غيرها حيث تعرف بسبب دينها حقوق زوجها وبيتها وأولادها كما أنها تنشئ أولادها على الدين ومحبتهن يقول ﷺ : " **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** "[٢] ويشير الحديث إلى أن على الرجل أن يتخير زوجته على أساس الدين كي تعينه على المحافظة على ولده وتنشئته تنشئة فاضلة، ذلك لأن اللائق بذوي المروءات أن يكون الدين مطمح نظرهم، وأن تكون صحبة أهل الدين بغيتهم ليستفيدوا من أخلاقهم وخاصة الزوجة التي تمتدح بوضوح في قدرتها على تربية الولد، يقول ﷺ " **خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ** [٣] وعلى هذا فعلى الرجل أن يتخير زوجة ذات دين تعينه على المحافظة على ولده، بل إن الرجل مكلف بأن لا يقدم على الزواج إلا إذا كان قادراً على الزواج وتوابعه من نفقة على الزوجة والولد يقول ﷺ " **يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**[٤] .

والباءة هي الجماع أو مؤن النكاح، ولا مانع من إرادتهما معاً، ومن مؤن النكاح أن يكون الزوج قادراً على تهيئة الحياة المستقرة لزوجته ولولده .

---

(١) صحيح اليخاري جـ٧ صـ٥٠ كتاب النكاح .

(٢) صحيح البخاري جـ٧ صـ٩ كتاب النكاح باب الإكفاء في الدين .

(٣) صحيح البخاري جـ٧ صـ٧ كتاب النكاح باب إلى من ينكح وأي النساء خير .

(٤)صحيح البخاري جـ٧ صـ٣ كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم .

وهكذا فعلى الزوج أن يكون قادراً على النفقة قبل أن يقدم على الزواج ثم عليه أن يتخير زوجته صالحة تحفظ له العرض والمال والولد، وهذا كله استعداد واجب مراعاته قبل المولد .

٢) العناية بالولد بعد مولده :

يولد الطفل وتبدأ التكاليف الإسلامية من أجل المحافظة عليه والعناية به وهي تكاليف كثيرة موجهة إلى الوالدين :

منها أن يختار الأبوان لابنهما اسماً حسناً حتى لا يعود عليه الاسم القبيح بالهزء والهوان، وكثيراً ما يؤدي المدلول اللفظي لاسم قبيح إلى السخرية والضحك، ولقد كان النبي ﷺ يكره الأسماء القبيحة حين يسمعها، وكان يغيرها إلى اسم لائق جميل **عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا وُلِدَ الْحَسَنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ ؟**

قَالَ : قُلْتُ حَرْبًا .

قَالَ ﷺ : بَلْ هُوَ حَسَنٌ .

فَلَمَّا وُلِدَ الْحُسَيْنُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ ؟

قَالَ : قُلْتُ حَرْبًا .

قَالَ ﷺ : بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ .

فَلَمَّا وُلِدَ الثَّالِثُ سَمَّيْتُهُ حَرْبًا فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَرُونِي ابْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ ؟

قُلْتُ حَرْبًا .

قَالَ ﷺ : بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ [1] .

فنجده ﷺ يغير الإسم لغلظ لفظه وشدة مفهومه ودلالته على القسوة والدم والألم، وأيضاً ثبت أنه ﷺ غير أسماء لقبح معناها كما فعل مع ابنة عمر بن الخطاب فلقد كانت تسمى " عاصية " فسماها النبي ﷺ جميلة [2] .

---

(١) أسد الغابة جـ٢ صـ١٨ .

(٢) صحيح مسلم جـ٦ صـ ١٧٣ كتاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح .

ومنها رضاعة الولد وحضانته ولذلك يقضي الإسلام بوجوب إرضاع الطفل وجوباً على أمة إن تعينت له بأن لم يقبل سوى ثديها، أو انعدمت المراضع غيرها أو عجز الوالد عن دفع أجرة لمرضعة أخرى[١] وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾[٢].

فإن قوله تعالى " يُرْضِعْنَ " خبر في معنى الأمر[٣] والمعنى يجب على الوالدات إرضاع أولادهن، وهو في الحالات المذكورة واجب تجبر الأمهات على تحمله وفى غير هذه الحالات إن رفضت الأم إرضاع ولدها فعلى الأب أن يستأجر مرضعة ترضعه، لكنه لو أجر مرضعة بأجر معين ورضيت الأم أن ترضعه بمثل هذا الأجر فالأم أولى مراعاة لحدبها على الولد ومحافظتها عليه .

ومن التكاليف الموجهة إلى الوالد أن يستأجر حاضنة لولده تتولى تدبير ملبسه ونومه ونظافته، وقد وضع الشرع للحاضنة شروطاً تضمن صيانتها للولد فهي لابد أن تكون أمينة، ليست مرتدة، ولا زوجاً لأجنبي عن الولد، ولا مقيمة في بيت من يكره الوالد، وأن تكون ذات رحم منه، وأن لا تكون فاجرة فجوراً يضيع الولد .

ولما كان الولد في هذا السن يحتاج إلى الحنان والعطف والشفقة فقد رأينا الإسلام يجعل حق الحضانة أولاً لمحارم الطفل من النساء ويجعل أحق النساء أمه ويجعل القرابة بالأم مقدمة على حق القرابة بالأب، هذا في الوقت الذي يلزم الوالد بدفع نفقة الحضانة فإذا ما شب الغلام ووصل إلى سن معينة لا يحتاج معها إلى تعهد النساء ورعايتهن فإن حق الحضانة يكون لأبيه، أو جده لأبيه، ويصبح أحق الناس بإيوائه حينئذ هم أقرب عصباته من الرجال يهذبونه ويثقفونه ويعلمونه الصناعة والعلم ومكارم الأخلاق[٤] وهكذا تحفظ الشريعة النسل وتصونه من الضياع .

---

(١) تفسير أبي السعود جـ١ صـ٢٥٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٣) تفسير الكشاف جـ١ صـ٣٦٩ .

(٤) الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية صـ٤٠٤ – ٤٢٠ بتصرف .

المبحث الرابع
نظام حفظ المال

المال عصب الحياة، وزينة الدنيا وسبب تقدم الأفراد والأمم، والحضارة والرفاهية ظل المال يتبعانه أينما كان، وهو من أجل نعم الله على عبادة يصلح دينهم ودنياهم وبه امتن الله عليهم فقال تعالى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[1].

وحب تملك المال غريزة بشرية ولذلك استخلف الله الإنسان في التملك والسيادة على الأرض وقال لهم سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[2] ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ ﴾[3] وأعطى الله الإنسان المستخلف في المال حقوقاً كاملة في الملكية تجعله مسئولاً عن كل تصرف فيه إرضاء لغريزته وتحديدا للمسئولية في تصرفه .

وقد وضعت الشريعة الإسلامية نظاماً يحفظ المال نجمله في ثلاثة أمور هي:

الأمر الأول : إباحة الأسباب المشروعة للتملك .

الأمر الثاني : تقييد حقوق التملك .

الأمر الثالث : ربط المال المملوك بوظائف محددة .

وسنفصل هذه الأمور فيما يلي :-

<u>١) إباحة الأسباب المشروعة للتملك :</u>

المال لا يأتي هباء لصاحبه، ولا بدله من سعي وكفاح، وقد شرع الله أسباب تملكه وحث الإنسان عليها فأوجب العمل يقول الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[4].

---

(١) سورة الكهف آية ٤٦ .

(٢) سورة الحديد الآية ٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

(٤) سورة الملك الآية ١٥ .

وأشار إلى أن العمل مع وجوبه شرف وفخار لصاحبه فقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١] .

والعمل الصالح في هذه الآية وفى غيرها شامل للعمل الديني والعمل الدنيوي لأن عموم اللفظ يشملهما والعبرة بعموم اللفظ، والإنسان الذي يمكنه الله من العمل عليه أن يشكر نعمة الله عليه يقول الله تعالى ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[٢].

وطبيعة الخلق تحتم على الإنسان أن يستعمر الكون ويستغل كل جوانبه عاملاً بالتجارة أو الصناعة أو الزراعة، فلقد مكن الله له في الأرض وسخر له كل شيء، حتى يسهل عليه التمكين والمعاش يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

وهكذا تؤكد طبيعة الكون أن على الإنسان أن يعمل ويكتسب ويعيش ويبيع ويشتري ويتبادل المنفعة مع الناس .

كما أن الشريعة نظمت انتقال المال من إنسان إلى إنسان بغير عمل كالهبة والوصية والميراث وهكذا، وفى كتب الفقه تفصيلات عن كل هذا وغيره.

والمهم من كل هذا أن الإسلام يوفر حقوق الملكية للأفراد بحرية وبلا حدود ما دامت لا تحقق ضرراً لأحد، وهي حقوق تكفل لصاحبها دوام المال معه بشكل حقيقي بمعنى استمراره تحت يده حتى يستهلك، أو بشكل اعتباري كأن يستمر معه حتى ينتقل للورثة، وتكفل له حرية التصرف في المال إيجاباً أو سلباً، وأن يمتلك ما يريد من الأنواع وما يستطيع كسبه من المقادير، وهذه الحقوق يحفظها الإسلام وينظمها ويصونها من الضرر .

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .

(٢) سورة يس الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٠ .

٢) تقييد حقوق التملك :

في أحيان كثيرة يكون المال فتنة لصاحبه يدفعه إلـى الفساد والغـرور والإضرار بالمجتمع، كما حدث من المترفين حيث طغوا بكفرهم، وتعالوا على الرسل واستبعدوا أن يلحقهم عذاب لأنهم أكثر مالاً وولداً، ومـن هنـا وضـع الإسلام حول التملك قيوداً تحفظه من الانحراف والفساد .

ذلك أن حقوق التملك أربعة هي :

١) حق الدوام .

٢) وحق حرية التصرف.

٣) وحق حرية امتلاك النوع .

٤) وحق حرية المقدار .

وكل هذه الحقوق وضع الإسلام لها قيوداً تضمن حفظها .

قيود حق الدوام :

حق الدوام لو أطلق لأدى إلى الطغيان والاستبداد وبسط فئة قليلة بلا حق سيادتها على سائر الناس .

وقد قيد الإسلام دوام المال عند صاحبه فأوجب على الأغنياء أعبـاء ماليـة كثيرة يدفعونها لمستحقيها، **ومنها الزكاة المفروضة** التـي تعـم كـل الملكيـات والصدقات الواجبة والنافلة والضرائب التي يفرضها ولي الأمر عند الحاجة إليها، **ومنها الكفارات** التي يدفعها الأغنياء من أموالهم دفعاً لإثم بعض الأخطـاء التـي يقعون فيها كالحنث في اليمن والظهار وبعض حالات الفطر في رمضان وبعـض المخالفات التي تحدث في مناسك الحج، وكلها أخطاء تقع كثيراً في حياة الناس .

ولعل أقوى تشريع في توزيع المال، وضمان عدم دوامه مكدساً فـي يـد واحدة نظام الميراث الذي يوزع المال توزيعاً عادلاً، ويقسم التركة على عـدد كبير من أقارب الميت رجالاً ونساء، لتوسيع دائرة الانتفاع والكسب، وبفـضل هذا النظام لا تلبث الثروة الكبيرة أن تتحول إلى ملكيات صغيرة، وحتى يؤدي الميراث دوره بدقة حرم الإسلام كل إجراء يخل به فهو نظام إلهي محـدد لا

تتغير أسسه ولا تتبدل تفاصيله .

وقد ربط الإسلام قيوده لهذا الحق بالدين، لأن الزكاة فريضة كالصلاة تماماً في مقاصدها وأهدافها، والكفارات دفع لآثام ارتكبها من يدفعها .

والميراث انتقال المال من الأصل إلى فروعه، وهذا الربط يجعل الإنسان يسلم بالقيود وينفذها كسباً للثواب في الدنيا والآخرة، كما أنه يعطي لولي الأمر سلطاناً شرعياً في تنفيذه إن أبى صاحبه كما فعل أبو بكر رضى عنه مع مانعي الزكاة .

قيود حق حرية التصرف :

قيد الإسلام حرية التصرف في المال بما يكفل عدم الإضرار بحقوق الآخرين، من ذلك الحجر على السفيه والصبي والمجنون لأنهم يتلفون ثروتهم، ويسيئون التصرف فيضرون أنفسهم وغيرهم.

ومنه توجيه الناس إلى تنظيم بيوتهم وزراعة أراضيهم بشكل يتفق مع المصلحة .

ومنه تحريم طرق الكسب غير المشروع لأنها تعتمد على الغش واستغلال الناس وابتزاز أموالهم بالباطل، فحرم الربا بجميع أنواعه يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[١] فهو سبحانه يحرم الربا ويبين أنه كسب ضائع يؤدي بصاحبه إلى الهلاك والنار، وحرم التطفيف في الكيل والميزان يقول الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[٢] .

ويقول ﷺ " الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

(٢) سورة المطففين الآيات من ١ إلى ٣ .

بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا "[١].

وحرم احتكار الضرورات للتحكم في أسعارها، وقد أجاز الإسلام للقاضي أن يجبر المحتكر على بيع ما زاد عن قوته وقوت أهله على اعتبار السعر في ذلك فإن أبى انتزع منه المال وباعه عليه بسعر معتدل[٢] وهكذا قيد الإسلام تصرف المالك في ماله حتى لا يجلب أي ضرر .

تقييد حق امتلاك النوع :

قيد الإسلام حرية امتلاك النوع بما يكفل المصلحة، فليس من حق المالك أن يملك مالاً لا يحتاج إلى مجهود ما في إخراجه، أو كان بحيث يحتاج إليه الجميع بشكل ضروري وذلك كالماء والمرافق العامة، يقول ﷺ " **الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار**[٣] " وقد خص الحديث الأمور الثلاثة لأنها كانت ضرورات الحياة في البيئة العربية ولا يستغنى عنه أحد، ويقاس عليها كل ضرورة اجتماعية كالمرافق العامة لأن الأفراد لو تملكوها لتحقق ضرر أكيد يقول الإمام الشافعي : كل عين ظاهرة كنفط أوقار أو كبريت أو مومياء أو حجارة ظاهرة في غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجرها دون غيره، ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه، ولا لخاص من الناس لأن هذا كله ظاهر كالماء والكلأ، ولو تحجر رجل لنفسه من هذا شيئاً أو منعه منه سلطان كان ظالماً[٤] يقول القدوري " ولا يجوز إحياء ما قرب من العامر بل يترك مرعى لأهل القرية ومطرحاً لحصائدهم[٥] .

ومن هنا منع الإسلام إحياء الأرض داخل العمران لانتفاع الجميع بها أو إحياء الأرض خارج العمران ولكنها من المرافق العامة، ومن المعلوم أن النبي ﷺ حمى أرضاً بالمدينة يقال لها " البقيع " ومنع الناس من تملكها لترعى فيها

---

(١) صحيح مسلم جـ٥ صـ١٠ كتاب البيوع، باب الصدق في البيع .

(٢) الحسبة في الإسلام صـ٣٤ .

(٣) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني جـ١٥ صـ١٣٢ .

(٤) الأم جـ٣ صـ٤٥ .

(٥) متن القدوري صـ٨٣ .

خيل المسلمين أجمعين[١] وفى زمن عمر رضى الله عنه حينما حمى أرضاً بـ " الربدة " جاء الناس قائلين " **يا أمير المؤمنين إنها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية وأسلمنا عليها في الإسلام، علام تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا**[٢] " والحمى اقتطاع جزء من الأرض وجعله مرفقاً عاماً للجميع، وهناك أنواع من الأموال أهدر الإسلام قيمتها بالنسبة للمسلم وحرم عليه امتلاكها كالخمر والخنزير .

تقييد حق حرية المقدار

لم يقف الإسلام في طريق المقدار المملوك إلا إذا أتى من وجه فيه شبهة فإذا ما تحقق وجود شبهة في اكتسابه فإن الإسلام يقضي بمصادرته **حدث أن اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنْ الْأَسْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ قَالَ عَمْرٌو وَابْنُ أَبِي عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟**[٣] .

ذلك لأن المال يجب أن يكون بعيداً عن كل شبهة في تملكه لأن وجود الشبهة فيه مدعاة لمصادرته، وقد صادر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أموال خالد بن الوليد[٤] وصادر نصف أموال عمرو بن العاص وهو في مصر وكتب له : ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال ولم تعدموا عذراً وإنما تأكلون النار وتتعجلون العار وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة فسلم إليه شطر مالك[٥] .

---

(١) الأموال صـ ٢٩٨ .

(٢) الأموال صـ٢٩٩ .

(٣) صحيح مسلم جـ٦ صـ١١ كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

(٤) تاريخ الطبري جـ٣ صـ٢٧٦ .

(٥) نفس المصدر جـ٣ صـ١٦٦ .

ولولي الأمر أن يوزع الأموال العامة بما يضمن للمجتمع نوعاً من العدل في التوزيع ضماناً لاستقراره كما حدث لما أفاء الله على رسوله أموال بني النضير فإنه وزعها على الفقراء كيلا يكون دولة بين الأغنياء، وقد جعل الله مصارف الفيء للصالح العام وللمحتاجين من أموال الناس مراعاة لتوزيع المال بين أكبر عدد منهم يقول الله تعالى ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[١] .

والفيء الذي استولى عليه المسلمون من أهل القرى هو في بني النضير الذي وزع على الفقراء وحدهم، وقد أعطاه النبي لفقراء المهاجرين على الخصوص حيث أن أوصافهم المذكورة في قوله تعالى للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم تبين استحقاقهم للفيء وانضواءهم تحت أنواع مستحقيه[٢] .

لكن الواضح أن صاحب المال إذا اكتسب ماله بلا شبهة وأدى حقه الذي عليه فإن حرية المقدار لا تتقيد .

ويجب أن يكون واضحاً أن قيود المقدار لا يصح أن تكون دائمة وعامة لارتباطها بمصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة غير ثابتة .

٣) ربط المال بوظائفه المحددة :

المال ليس غاية لذاته إذا حصل عليه المرء وقف عنده، ولكنه وسيلة لغايات تتعلق بمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وهذه الغايات هي الوظائف، وقد عرف الشرع بها وأشار إليها، ومن هذه الوظائف أن ينفق الإنسان من ماله على نفسه وأسرته، ولا خير في مال لا ينفع صاحبه، والإنفاق واجب في شرع الله تعالى من غير سرف وتبذير يقول الله تعالى ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[٣] وكما نهى الله عن الإسراف نهى عن التقتير فقال تعالى ﴿ وَلَا

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

(٢) تفسير أبو السعود جـ٥ صـ١٥١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣١ .

تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾[1] .

ومن وظائف المال الزكاة وقد جعلها الله أحد أركان الإسلام، وأشار إلـــى أنها حق الفقراء على الأغنياء، وقضى لها أن تعم سائر المال سواء أكان نقداً أو عقاراً أو ذهباً أو تجارة، وقضى لها أن تعم عدداً وفيراً من المحتاجين المحددين في قولــه الله تعـــالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[2].

ومن وظائفه كذلك دفع الضرائب التي يقدرها الحاكم المسلم تبعاً للحاجـــة، والفرق بين الزكاة والضريبة أن الزكاة فريضة دينية محددة المقدار، تؤخذ من المال إذا بلغ نصاباً، وتصرف لأصناف معينة من الناس، أما الـــضريبة فهـــي ليست فريضة، وليست محددة، وليست مرتبطـــة بمقـــدار مـــالى، أو بـــصنف يحتاجها، وإنما تدور في كل ذلك مع الضرورة، **ومن هنا فإن الزكاة والضريبة لا ينوب أحدهما عن الآخر .**

ومن وظيفة المال كذلك الصدقات وهي ليست فرضاً ولا محددة وإنما هي مال يسخو به صاحبه لينفقه في سبيل الله طمعاً في الثواب والأجـــر يقـــول الله تعالى عن هذا النوع من البذل ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[3]

وربط المال بهذه الوظائف يطهره من الشح والغي، وينجيه مـــن الحـــسد والكراهية، ويساعد على حفظه ونمائه .

وهكذا حفظت الشريعة المال .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦٠ .

المبحث الخامس
نظام حفظ العقل

العقل من أعظم النعم الإلهية على الإنسان وهو ميزته على سائر المخلوقات به يفكر ويفهم ويدرك ويتصور، وعلى هداه يعرف الحق، ويعلم الصواب، ويصل إلى الحكمة، وقد اهتمت الشريعة بالعقل، فأعطته قدره، وأحاطته بما يوفر له القيام بوظائفه وذلك على النحو التالي :

أولاً تقدير العقل :

يثق الإسلام في العقل ثقة تامة، حيث وجه الدعوة إليه، وخاطبه بالتكاليف وأبرز له الأدلة الحسية والمعنوية الموصلة إلى الحق، وجعله موطن العقيدة، وأساس الدين، يقول أبو الحسن البصري: **ينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً** [١] .

وقد نزل القرآن عربياً ومفصلاً من تفهماً أن يلائم من نزل فيهم، وتنوعت أساليبه، وتعددت طرق بيانه وبلاغته ففهمها للعقل، وإقناعاً للتفكير، يقول الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] وقد وصل تقدير الإسلام للعقل أن دعاه للنظر والتدبير، وتركه وحده يفكر ويؤمن، ولم يشغله بالمعجزات الحسية، وساق له الآيات الكونية والتنزيلية والنفسية وناداه بأن يترك تقليد السابقين، واتباع الكهان، ذلك لأن التقليد أو الاتباع كلاهما مضاد للعقل، ولا ينفع في الإيمان.

كما أن الإسلام أعطى للعقل حق الفهم والاختيار في كافة الشئون، وترك له الاجتهاد ينطلق به إلى كافة الجوانب، يعلمها، ويصل بها إلى الصواب[٣] مستخدماً أدلة الشرع ومفاهيم الدين ليصل عقله بواسطتها إلى ما يريد عن اقتناع ورضى.

ثانياً : إحاطة العقل بالحرية :

يصون الإسلام حرية العقل ليقوم بوظائفه حسب طاقته بلا قهر له أو إجبار، فضمن له الحرية الدينية، يقول الله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

---

(١) آداب الدنيا والدين صـ٣ .

(٢) سورة يوسف الآية ٢ .

(٣) انظر نظرة الإسلام للعقل في موضعه من الكتاب .

وكفل له حرية البحث والعلم في كافة الميادين، وأعطاه الحريـــة الـــسياسية، يساهم بها في اختيار الحاكم، وينقده، ويناقشه، وضمن له الحرية المدنية يتخير بها عمله ودراسته ويحدد نشاطه كله .

ثالثاً : حماية العقل من الضرر :

حرم الإسلام كل مسكر، لأنه يُغيِّب العقل، ويمنعه من الفهم والإدراك، وعاقب الله شارب الخمر بالحد لأنه اعتدى على عقله .

وحرم الإسلام كل ما يشغل العقل عن وظيفته، فمنع الاختلاط بين الرجال والنساء لأنه يُلهي العقل بالشهوة، ويحول التفكير إلى اللعب والهوى، ويمنع الإسلام كافة المثيرات التي تبعد العقل عن رسالته، وما أكثرها في عالم اليوم .

ويدعو الإسلام إلى الاستفادة بالوقت، ويطالب من المسلم أن يشغل وقته بـــالتفكير الصالح، والذكر الطيب، ولا يضيع عمره في العبـــث، واللهـــو، والجـــري وراء المحرمات، ولسوف يسأل كل إنسان عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه ...

رابعاً : تقوية العقل بالعلم :

عقل الإنسان دائم التصور والحركة لا يعرف الكسل، ولا الـــسكون ولـــذلك قالوا: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، والمراد بالنفس هنا القوة العاملة .

وقد شرع الله للعقل ما يشغله فحثه على الذكر والدعاء يقـــول الله تعـــالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2].

وحث الله تعالى على التعلم وتحصيل المعارف ليعيش العقل في جنباتها سعيداً عاملاً، فأمر سبحانه وتعالى بالقراءة في قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠، ١٩١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

يَعْلَمْ ﴾[١] وفضل الله العلماء على سائر الناس يقول النبي ﷺ (**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**)[٢] وبهذا يعيش العقل في رياض العلم، ويقوي تدبره وتعقله .

خامساً: تحقيق حيوية العقل :

العقل وعاء المفاهيم، وحافظ المعاني ... يربط بين الجزئيات، ويستنتج من المقدمات النتائج، وهو جوهر تحصيل العلوم والمعارف .

وحتى يستمر العقل في حيويته وتجدده أمر الله الإنسان بالسير والنظر في الأرض ليعيش العقل بين أحداث الماضي، ويأخذ منها دروساً للحاضر والمستقبل، والأوامر في القرآن الكريم ﴿ **سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ** ﴾ وسواء كان السير حسياً أو معنوياً فإنه في كلتا الحالتين يحرك العقل، ويوقفه على الأحداث والوقائع، ويمده بالدروس والعبر، وبذلك يستمر العقل في حيويته وتجدده، ويبقى في أفقه السامي، ومراميه العالية .

إن الماديين يشغلون عقولهم بأوهامهم، ولذلك نراهم دائماً في إطار المادة يتحركون، ولغرائزهم يعملون، وفى شهواتهم ولهوهم يدورون ويخططون .

إن التفكير فريضة إسلامية وهو دافع لصدق العقيدة، وإتقان العمل، ومثمر لكل خير في الدنيا وفى الآخرة، يقول الله تعالى ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ** ﴾[٣].

وهكذا يعيش العقل في مجاله جديداً متجدداً .

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥ .

(٢) سنن الترمذي كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم ٢٦٨٥ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٤ .

الباب الثالث

خصائص الإسلام



تمهيد :

اتصفت الدعوات الإلهية السابقة بأن كل واحدة منها كانت خاصـــة بقــوم معينين، حيث كان الرسول يأتي لقومه فقط ... ولهذه الخصوصية أسباب ونتائج

أما أسبابها فترجع إلى بدائية الإنسان الذي كان يــرتبط ببيئتــه الماديــة، وثقافته البسيطة، فما كان يناسب بيئة ما لا يناسب بيئة أخرى، وقد حــتم هــذا الوضع أن تختص الرسالة ببيئة واحدة لا تتعداها لغيرها .

وكان من نتائج هذا الوضع أن تعددت الرسالات تبعــاً لتعــدد البيئــات، وتطور مراحل التفكير، وكان من نتائجه كذلك أن وجد في وقت واحد رسولان وثلاثة، وكان كل رسول يذكر بوضوح أنه جاء لقومه فقط .

ومن الممكن أن نقسم المراحل الزمنية للدعوات الإلهية بالنسبة للمــستوى الفكري للناس إلى ثلاث هي :

المرحلة الأولى :

عاشت الإنسانية في المرحلة الأولى طفولة فكرية اقتضت رسالات بسيطة تنادي بالتوحيد وبالأصول العامة، من غير أن تضع تشريعاً شاملاً ونظماً عامة لعدم حاجة الناس لذلك مع ارتباطها بقوم الرسول وحدهم .

المرحلة الثانية :

تطورت الإنسانية خلال هذه المرحلة في فكرها إلى مرحلة صباها، ممــا جعل الرسالات تتطور من البساطة إلى بعض التعمق، حيث نجد فيها الأصول العامة، وبعض النظم والتشريع، مع اتساع دائرتها قليلاً لتشمل أكثر مــن قــوم الرسول المرسل، كما حدث لشعيب عليه السلام حيث أرسل إلى قومه وإلى أصـــحاب الأيكة، وكما حدث لموسى عليه السلام حيث أرسل إلى فرعون وإلى بني إسرائيل .

المرحلة الثالثة :

في هذه المرحلة وصلت الإنسانية إلى النضج التام اللائــق بهــا، وبــذلك انتقلت الإنسانية إلى مرحلة النضج العقلي والفكري، وأصبح فــي إمكانهــا أن تنظر إلى الأمور نظرة مجردة، وأصبح من الممكن أن يخــاطب الله الإنسانية

كلها برسالة واحدة، ويكلفها بدين من الله واحد .

إن الرسالة في كل مرحلة كانت تغاير سابقتها في مرحلة أخرى، ومع ذلك كانت كل رسالة **تصدق بالرسالة السابقة، وتكمل بما يحتاجه من جاءت الرسالة الجديدة لهم، وتمهد للرسالة الآتية بعدها**، وما كان ذلك إلا لأنها جميعاً من الله سبحانه وتعالى، وتهدف كلها إلى غاية واحدة .

وبنظرة موضوعية في تاريخ الرسالات نرى أن الإسلام هو رسالة المرحلة الثالثة، وأن رسالات المرحلتين السابقتين تعتبر تمهيداً للدعوة الإسلامية وقد صور سيدنا محمد ﷺ هذه الحقيقة بقوله " **مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين** "[1] .

وهكذا فصاحب الدار هو الله سبحانه وتعالى، والأنبياء جميعاً برسالتهم لبنات فيه، والنبي محمد ﷺ بدعوته تمام هذا البناء وآخر اللبنات، واللبنات كلها تتضافر في إعطاء البيت كماله الدقيق، وجماله الواضح .

ويمكننا أن نميز الدعوة الإسلامية عن سائر الدعوات الإلهية بعدد من المزايا جعلتها ملائمة للناس جميعاً، وصالحة لكل زمان ومكان وسوف أتناول هذه المزايا في الفصول التالية :-

الفصل الأول : الإسلام دين تام .

الفصل الثاني : الإسلام خاتم الأديان جميعاً .

الفصل الثالث : الإسلام دعوة عالمية .

وذلك فيما يلي :-

---

(١) صحيح مسلم جـ٧ صـ٦٤ ، ٦٥ كتاب الفضائل باب ذكر كون النبي ﷺ خاتم النبيين .

الفصل الأول
الإسلام دين تام



تمهيد :

أرسل الله رسله إلى عباده، حيث بعث كل نبي لأمته بدين يناسب أوضاعهم، ويتلاءم مع واقعهم .

وكل دين جاء به أحد من رسل الله تعالى كان كاملاً بالنسبة لمن آتاهم، إلا أن التطور العقلي، والتقدم المدني يجعل هذا التمام قاصراً عن ملاحقة ماجد من نشاط عملي، ورقى فكري، الأمر الذي كان يؤدي إلى مجيء رسول آخر بدين جديد، فلما جاء عصر البعثة المحمدية كانت الإنسانية قد ترقت عقلياً وفكرياً الأمر الذي قضى بمجيء الإسلام ديناً كاملاً ملائماً للبشرية كلها .

وتمام الإسلام باد في عدة جوانب .

فهو تام في ذاته لاشتماله على العقيدة والشريعة، ومراعاته التشريعية للجوانب الثابتة والجوانب المتغيرة .

وهو تام لناس عصره حيث غير حياتهم ونقلهم من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الحق والإيمان .

وهو تام على الزمن كله، وصالح للناس أجمعين لما فيه من مرونة تحقق التجديد المستمر، والتوافق مع أي تقدم جديد يحدث للناس أجمعين .

وقد سبق الحديث عن تمام الإسلام في ذاته، ولعصره وفى هذا الفصل سنتحدث عن تمام الإسلام وكماله، على طول الزمن، لوجود عوامل تحقق هذا الكمال وذلك في المباحث التالية :-

المبحث الأول : المحافظة على حياة الإنسان .

المبحث الثاني : الشمول التشريعي .

المبحث الثالث : مرونة الشريعة الإسلامية .

والله الموفق ،

المبحث الأول
المحافظة على حياة الإنسان

بعث الله محمد ﷺ بالإسلام ، وختم به سائر الأديان ، وضمنه من التعاليم ما يكفى الإنسانية كلها ، ويأخذ بيد الكافة إلى سعادة الدنيا والآخرة فى كمال ، وتمام في وقت ظهوره، وفى سائر الأوقات، ولجميع البشر إلى يوم القيامة .

ويرجع تمام الإسلام وكماله إلى اشتماله على تشريعات تحفظ حيـاة الإنـسان وتحقق له السعادة الدائمة.

إن الإنسان مكون من مادة وروح، ومن مجموعهما يوجد العقـل، وتتولـد العواطف، وتلك كلها طاقات وقوى تحتاج لإشباع، وتتحرك في مجال يناسبها.

وإشباع هذه الطاقات يحتاج إلى غذاء متنوع يشمل الماديـات والمعنويـات والجماليات في إطار نظام يحقق لسائر القوى الرضى والهدوء .

ولابد من إشباعها معاً بقدر متوازن ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخـر ، فلا إهمال للنواحى الفكرية، أو العقلية ، ولا إجحاف فى حق الجسد، والبـدن، ولا تقصير مع العواطف والوجدان .

إن الإسلام يرى أن الجسد وعاء الروح ، ولا بقاء للروح إذا انعدم الجـسد، كما يرى أنه لا قيمة للجسد إذا خلا من الروح ... ولذلك ذهـب الإسـلام إلـى ضرورة المحافظة على النفس والولد ضماناً للجسد واستمراريته، والمحافظة على المال صيانة لما يغذيهما، ويمدهما بأسباب الحياة ... كما ذهب إلى المحافظة على العقل والدين صيانة للفكرة والعقيدة ، ومحافظة على الروح والخلـق ... وبـذلك يضمن الضرورات التى لابد منها للإنسان ، ليعيش كريماً ، بمادتـه ، وروحـه، وعواطفه وعقله .

ومن أهم ضرورات الجسد أن يكون له مال مضمون يكتسبه ، وينفقه علـى معاشه ، وحياته ، لأن المال ضرورة لازمة ، فبه يتغذى الجسم ، وينمو ، ويمكنه البقاء، والروحانيون الزاهدون يرون أنه لابد من تغذية الجسم بالمقدار الذى يكفل البقاء، محافظة على الروح ، وبذلك كان المال حبيب الناس ، ومعشوق البشر ، وضرورة هامة للجميع .

ومن أهم ضرورات الجسد كذلك المحافظة على ذات صاحبه ، وعدم تعريض نفسه للهلاك، ذلك لأن النفس المريضة لا تصنع لصاحبها نفعاً، ولا تجلب له إلا الأذى والألم، وإن هلكت النفس انقطعت الحياة، وانعدم الإنسان نفسه .

ومن أهم ضرورات الجسد أيضاً ، أن يحافظ له على بقاء نوعه فى صورة ضمان الحرص على النسل الذى جعله الله زينة ، وأملاً لصاحبه ، وفى الوقت نفسه يضمن بقاء النوع وامتداده .

وأيضاً فإن الروح تحتاج إلى الفهم ، والتصرف ، والتدبر ، عن طريـــق ضمان صيانة العقل ، والمحافظة على حريته ، فى الفهم ، والتدبر .

وتحتاج كذلك إلى ضمان عقيدتها التى آمنت بها ، وعدم اضطهادها بها ، وأن تكون تلك العقيدة هى دين الفطرة ، والإنسانية .

والعواطف هي الأخرى تحتاج إلى الرفق واللين، والحسن والجمال، وســمو الخلق، ونبل السلوك ولذلك وجدنا الإسلام يبيح الإحساس بالجمال، ويحيط الإنسان به في الأرض والسماء، يقول الله تعالى ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۞ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾(١).

ويقول سبحانه ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۞ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۞ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢).

ويحقق للإنسان جو المرح والفرح، والبعد عن الملل والكآبـــة، يقـــول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾(٣) ويقول سبحانه ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي

---

(١) سورة النحل الآيتين ٥ ، ٦.

(٢) سورة الملك الآيات من ٣ إلى ٥ .

(٣) سورة محمد الآية ٢ .

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[١].

فتحقق بذلك أن ضرورات الجسد والروح معاً خمس هى : حفظ المـــال ، والنفس، والنسل ، والعقل ، والدين .... وهى جميعاً مترابطة يكمـــل بعـــضها بعضاً لأن النفس، لو هلكت لانعدم من يتدين ، ولـــو انعـــدم العقـــل لارتفـــع التكليف، ولو انعدم النسل لانعدم الجنس البشرى ، ولو انعدم المال لم تبق حياة.

إن هذه الأمور الخمسة هى الضرورات التى تتعلق بهـــا مـــصالح الـــدنيا والآخرة وبالمحافظة عليها تتحقق السعادة ، وينتشر السلام، وبذلك يـــتم حفـــظ الإنسان .

يقول الشاطبى : ومجموع الضرورات خمسة وهى : حفظ الدين ، والنفس، والنسل ، والمال ، والعقل ، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الـــدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهارج وفوت الحياة ، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين [٢].

وتسمى هذه الضرورات بالضرورات العقلية لأن العقل هو الـــذى يؤكـــد ضرورتها فهى لازمة لكل إنسان .

إن التشريعات الموضوعة للمحافظة على هذه الضرورات منها مـــا هـــو محدد، ومنها ما هو قابل لاجتهاد العلماء حتى تستمر صالحة مع تطور الحيـــاة والأحياء وليبقى للإسلام كماله وتمامه .

وقد سبق تفصيل نظم المحافظة على الحياة ...

---

(١) سورة الحديد الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(٢) الموافقات جـ٢ صـ٨ ، ١٠

ـ المبحث الثاني ـ
الشمول التشريعي

الفرد صناعة الأسرة، يرعاه أبواه من وقت مبكر يبدأ قبل الزواج، ويستمر مع الحمل، وعند الإرضاع، وحين التربية، ويعيش معه في مختلف مراحل عمره إلى أن يكون أسرة، وحتى بعد وفاته.

هذه الرحلة الطويلة والعريضة تحتاج لتشريعات ونظم تضبط حركتها للفرد والجماعة ... وهي تشريعات واسعة تحتاج لمشرع ينظمها، ويحددها .

وقد جاء الإسلام بتشريعات لكل الحالات، ولسائر تطورات الإنسان والحياة، إذ نرى أن شريعة الإسلام تعيش مع الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وبعد مولده ، وفى شبابه ، ورجولته ، وتسايره هكذا فى أطواره المختلفة حتى تُسلمه لأجله ، ونرى أنها تضع القوانين التى تمهد لوجود الإنسان مستقيماً سوياً فى الدنيا ، وفى الآخرة ، وتنظم سائر ما تركه بعد موته

ولا يفرق الإسلام بين ذكر أو أنثى ، ولا يضع فى اعتباره ميزة للون ، أو لجنس ، أو لعارض من عوارض الدنيا كالمال ، والجاه ، والأسرة ، وبذلك يحقق التشريع الإسلامى ، الإخاء والعدل ، والحرية ، والمساواة ، وتلك الأمور هى غاية ما تتمناه الإنسانية الرشيدة لنفسها .

وشريعة الإسلام في شمولها تناسب الفطرة وتلتقي مع رغبات الإنسان وحاجاته، ذلك أن الإنسان كائن يحس بما حوله، ويرغب فى الاتصال به، والتعاون معه، وهو فى إحساسه هذا يشعر بقوى غيبية لا يدركها فيتمنى أن يحيط بها ، ومن هنا تأتى الدعوة محققة كافة مطالب الإنسان ، ورغباته ، فتوضح له هذه القوى الغيبية ، وتركزها فى عقيدة تعرف بالله وعبادته ، وتدعو إلى الإيمان بالرسل ، والملائكة ، والكتب ، واليوم الآخر ، وتضع له شريعة تمكنه من الاتصال بالناس ، والتعاون معهم ، وتتمم مكارم الأخلاق التى تبين الحسن فى كل شئ ، وتحتمه ، وهكذا ناسبت الدعوة حقيقة الإنسان فى سائر تعاليمها .

وهى – أيضاً – جعلت المصالح مرتبة على تنفيذ التكاليف ، وتلك حكمة إلهية ، حيث ربط الله الأسباب بالمسببات ، لتعريف العباد عند وجود الأسباب ما يترتب عليها من خير ، وما يترتب عليها من شر ، ولو شاء الله سبحانه لقطع كل مسبب عن مسببه ، ولخلق المسببات كلها مجردة عن الأسباب فى مطرد العادة ليكون طريقاً مسلماً يعرف الناس منه أن الاتباع الدقيق يهدى للتى هى أقوم ، وأن الله لا يضيع أجر من يحسن عمله .

والشريعة الإسلامية ميسرة، لأن جميع عبادات الدين المشروعة سهلة، لا عناء على الفرد فى أدائها ، والمحافظة عليها فالصلاة مثلاً عبادة فرضها الإسلام على المسلمين ، ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل ، والنهار ، وجعلها خمساً، تؤدى فى أوقات خمسة، لا تستغرق فى جملتها سوى دقائق معدودة، وحتى لا يغفل الإنسان عن مواقيتها شرع معها الأذان إعلاماً بوقتها، لكى يؤديها وقتاً وقتاً، فلا تتراكم وتترك، أو تضيع أعمالاً أخرى ، بسبب تراكمها.

والصوم فريضة مقدرة بشهر واحد فى السنة، والزكاة لا يؤديها إلا المستطيع، والحج مفروض على من استطاع إليه سبيلاً .

وفرائض الإسلام خالية من الحرج تماماً، ليستمر العبد في أدائها، ولا يشعر بثقل في المحافظة عليها، وقد اتخذ رفع الحرج عن المكلفين أشكالاً عدة منها :

١) ملاحظة أعذار أصحاب الأعذار .

٢) مراعاة الأحوال الاجتماعية والنفسية للمكلفين .

٣) توسيع مجال الطاعة ليتسع بالنوافل لمن أرادها وتمكن منها .

٤) قبول قضاء العمل لمن لم يقم به في وقته .

وهذه الأمور المذكورة بعض أدلة تمام الدعوة، والواقع التطبيقى خير شاهد، فلقد مضى خمسة عشر قرناً على مجئ الدعوة الإسلامية ومع ذلك فما زالت تشريعاتها محكمة ، دقيقة ، تناسب الإنسان فى تقدمه ، وتطوره وهى على ما نزلت عليه بلا تغيير، فى الوقت الذى تتبدل فيه قوانين البشر يوماً بعد يوم .

إن الإنسان فى الشرق، وفى الغرب ، فى الحضر ، وفى البوادى ، يلمس مصلحته فى الدعوة الإسلامية ، وفى تشريعاتها له كفاية .

المبحث الثالث
مرونة الشريعة الإسلامية

التغير يشمل الموجود في كل لحظة، وما كان بالأمس لا وجود له اليوم، هذه حقيقة أكدها العقل وآمن بها المفكرون .

ولذلك يتساءل الناس عن مدى قابلية الشريعة الإسلامية لهذا الجديد المتجدد وهل فيها أحكام لكل ما يحدث من وقائع، وما يظهر من أعمال ؟

ونبادر بالقول إن الإسلام دين فيه الحكم لكل ما يجد، وما سيكون إلى يوم القيامة، ومع سائر الناس، والسبب في هذا أن الله تعالى أودع في الإسلام مرونة واسعة تستوعب أي جديد، وكل حادث .

وبيان ذلك أن الله بعلمه وحكمته وضع في شريعة الإسلام قواعد كلية، ومبادئ عامة، وحين ننظر إلى العلوم والمعارف المختلفة على مر الزمان نجدها في عصر ظهور الإسلام بسيطة قليلة، وحين نقارنها بعلوم العصر الحديث نشعر أنها ليست بشيء ... ومع هذا نجد الإسلام يستوعب بتعاليمه كل ما جد من علوم ... لأن الله سبحانه وتعالى حين حث على العلم وأمر به جعل توجيهه عاماً لكل علم ... فقال تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

ويقول ﷺ " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ (٣).

هكذا بلا تفصيل في ماهية العلم، ونوعيته، وأثره، وبذلك كان التوجيه الإسلامي شاملاً لكل علم، وقد دفع هذا العموم بالتكليف بالعلم سلف الأمة إلى البحث في كل فروع العلم وبخاصة ما يتعلق منها بأمور الدين وحياة الناس

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) سنن ابن ماجة المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم ٢٢٤ .

فترجموا العلوم القديمة، وألفوا في العلوم الحديثة، ولهم سبقهم فـــي مجـــالات الطب، والفلك، والكيمياء، والطبيعة، وهم أول من أســـسوا الجامعـــات للعلـــم، وجعلوها حصوناً كبرى للدراسة، وقد انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوربا عـــن طريق جامعات الأندلس وشمال أفريقيا، الأمر الذي ساهم فـــي يقظـــة أوربـــا، ووصولها إلى حضارتها الحديثة .

وكما أمر الله بالعلم أمر بكافة شئون الحياة، كالعمل، والتجارة، والزراعة، وكافة جوانب النهضة، وما يحتاجه الناس من شئون الدنيا .

لقد أمر الله تعالى الإنسان بالتطهر، وبيّن رسول الله ﷺ مـــاء الطهـــارة، وترك طرق العثور عليه لاجتهادات الناس فمن أخذه من زجاجه، أو صـــنبور، أو آنية فهو في إطار ما شرع الله تعالى .

إن من قواعد الشريعة أن الأصل في الأشياء الإباحة، مـــالم يـــرد نـــص بالمنع، وفى هذه القاعدة فتح لإباحة ما يريد الإنسان عمله، ويرى فيه تحقيـــق مصالحه، ... وبذلك يعيش في شريعة الله تعالى آمنا راضياً .

إن القواعد الشرعية، والمبادئ الكلية التي شرعها الله تعالى تحقق للإسلام مرونته، وتبرز فيه خاصية التجديد والمعاصرة .

الفصل الثاني

الإسلام خاتم الأديان



تمهيد :

تتابعت أديان الله تعالى في الناس إلى أن ختمها الله تعالى بالإسلام الـذي قال الله تعالى عنه ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[1].

وعاش المسلمون بدينهم الذي أكمله الله وأتمه بشريعته ونظمه في كل عصر.

وأصبح واجباً على المسلمين أن يسلكوا مع دينهم مـسلك رسـول الله ﷺ ومسلك سلفه الصالح الذين قاموا رضوان الله عليهم بتبليغه إلى كل من أمكنهم الوصول إليه .

إن الإسلام خاتم الأديان ولا دين بعده، ومن هنا كان من المهم أن يـصل للناس أجمعين .

وهذه الحقيقة تحتاج من المسلمين أن يؤكدوها لغيرهم ليدرك الجميع حقيقة الإسلام، ويعلموا أن الإسلام لا يلغي من سبقه وإنما يتممه ويكمّله، وهو بـذلك يصون الأديان السابقة، ويضيف عليها حسناً وجمالاً، ويرفع شأنها، ويؤمن بكل ما جاءت به من حقائق تيسر فهم الإسلام، وتدفع إلى الإيمان به، وتتلاقى مـع طبيعة الناس واتجاهاتهم لأن فطرة الإنسان تحب من يضيف إليها، وتكره مـن يعارضها.

إن الإسلام يصدق بكل ما سبق ويضيف إليه، ويهيمن على الأديان جميعاً ليعيش الناس في عبودية خالصة لله رب العالمين .

وفى هذا الفصل سأبين أن الإسلام ختم الأديان جميعاً ليبقي في الناس إلى يوم القيامة .

والله الموفق ،

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

الإسلام خاتم الأديان

ارتبطت الدعوات السابقة بأقوام معينين فى وقت معـين ، وهـذا جعلهـا قاصرة عن أن تكون لغيرهم ،كما جعلها غير صالحة لنفس القوم بعد تطورهم .

ومن هنا كثرت الدعوات ، وتنوعت وسائلها ، إلا أنها جميعاً لم تأت عبثاً أو بالمصادفة ، وإنما أتت لأسباب ضرورية دعت إليها .

ويمكننا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

السبب الأول :

أن تختفى تعاليم الرسالة السابقة بسبب بعد الزمان ، أو لاضطهاد الطغاة ، أو لغير ذلك من الأسباب ، مما يؤذن بانتشار جهالة وسط الناس تبعدهم عن هدى الرسالة وصفائها ، وتعزلهم كلية عن الله تعالى ، وهذا الوضع يجعل للناس عذراً فى ضلالهم لأنهم لم يسمعوا برسالة، ولم تأتهم أيضاً رسالة بعد الرسالة السابقة .

فى هذه الحالة تأتى رسالة الله تعالى، تذكر القوم بما نسوا، وتحيى لهم ما غاب عنهم.

ولهذا رأينا سائر رسل الله تعالى يأتون إلى قوم سيطر العمى عليهم ، وبعدوا كلية عن دين الله ، فعبدوا الأصنام والأوثان ، واتخذوا من دون الله آلهة، وابتعدوا عن أخلاق الدعوات السماوية ، ورأينا الرسل وكأنهم يدعون بيئة واحدة ، لأن أصول هذه الدعوات كانت واحدة ، وما كان ذلك كذلك إلا لتحقق هذا السبب مع كل رسالة .

السبب الثانى :

أن يرتد البشر الذين نزلت الرسالة فيهم عن مستواهم يوم أتتهم هذه الرسالة ، أو يتقدموا عن مستواهم السابق، لدرجة تجعل الرسالة معهم قاصرة، وهذا وحده سبب يؤذن بضرورة وجود رسالة أخرى، حيث أدت الرسالة الأولى دورها، وأصبح على الرسالة الجديدة أن تصدق بالرسالة السابقة، وتكمـل بما يحتاجه الارتقاء البشرى .

وقد يكون هذا السبب أحد أسباب كثرة الأنبياء فى بنى إسرائيل الذين تعددت معجزاتهم، وتباينت فى بعض الأحيان مواعظهم ، وما كان ذلك كذلك إلا لإرتقاء وتطور كانا يحدثان فى بنى إسرائيل ، والتغاير بين دعوة موسى عليه السلام ، وبين دعوة عيسى عليه السلام مع أنهما لقوم معينين تظهر ذلك بوضوح .

السبب الثالث :

أن يحتاج البشر فى مكان ما إلى رسالة غير الرسالة الموجودة فى مكان آخر ، بسبب تغاير البشر تبعاً لاختلاف البيئات ، وقد حدث هذا مع رسالات الله السابقة يوم أن كان البشر منعزلين عن بعضهم فكراً ، ومكاناً ، مما أدى إلى تعدد الرسالات فى وقت واحد ، فلقد أرسل الله تعالى لوطاً عليه السلام إلى أهل "سدوم" فى دائرة الأردن، وأرسل إبراهيم إلى قومه فى أرض " الخليل " بفلسطين، وتوزع أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى فى أماكن عديدة فى أقوامهم ، وكثير منهم جاءوا فى وقت واحد.

وقد حدث فى بعض الحالات أن أرسل الله تعالى أكثر من رسول ، إلى قوم معينين ، فى وقت واحد كما حدث مع موسى عليه السلام فإن أخاه هارون أرسل معه وكما حدث فى " أنطاكية " إذ أرسل الله إليهم رسولين معاً فكذبوهما ، فعززهما الله برسول ثالث ، فقالوا جميعاً لقومهم ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ [1] .

ويبدو أن سبب ذلك هو عتو القوم ، واستكبارهم ، مما جعل الله يؤيد رسوله بآخر كسند له يشد أزره ، ويشاركه الرأى والمشورة ، ولا ضرر فى ذلك فالرسالة واحدة ، والرسل يتعاونون فى تبليغها إلى من أرسلوا إليهم .

وبالتتبع التاريخى لسائر رسالات الله نرى أنها لم تأت إلا لواحد من الأسباب المذكورة ، بل أن النظرة العقلية الشاملة ، لا تجد سبباً سوى هذه الأسباب .

ولا يصح مطلقاً أن يتصور إتيان رسالة لغير سبب ، لأن حكمة الله جـلا وعلا تتنزه عن ذلك، والنقل والعقل يؤكدان أن سائر الرسالات جاءت لهدف، وبعد وجود سبب يدعو إليها .

---

(١) سورة يس الآية ١٤ .

وجود الأسباب قبل الإسلام :

وقد وجدت الأسباب التى من أجلها ، يرسل الله رسله قبل الإسلام ، بكل وضوح حيث انتشر الضلال فى كل مكان، واختفت التعاليم الصحيحة لرسالات الله ، وكان الموجود فى كل أرجاء المعمورة مسميات الأديان فقط، مع اختفاء تعاليمها، ونسكها، ومن هنا اتخذت الأديان صورة الوثنية ، حيث اتجه اليهود إلى المادة، ونظروا إليها نظرة التعظيم والأجلال، ونشروا فى الأرض الربا والفساد ولم يؤمنوا بدعوة عيسى ﷺ .

واتجه النصارى إلى تثليث الإله ، حيث جعلوا الألوهية الواحدة مثلثة الجوانب جامعة لله ، وللمسيح ، وللروح القدس، وقدسوا أم المسيح ﷺ ، لأنها أم الإله فى نظرهم، ونسجوا حول عيسى خصائص لم تكن له ، استنباطاً من آية خلقه ، ونشأته .

واتجه العرب إلى اتخاذ الأصنام والأوثان مدعين أنهم على دين إبراهيم ﷺ .

واتجه الفرس إلى عبادة النار ، وإلى الشيوعية المطلقة فى المال والمرأة .

واتجه الهنود إلى الطبقة البرهمية المقدسة ، وخصوها بالتقديس والطاعة ، وكل ذلك ضلال ساد العالم قبيل ظهور الإسلام ، **مشيراً إلى تحقق السبب الأول الذى من أجله تأتى رسالة الله .**

صحيح أن موجه من النقد أخذت تتجه إلى هذه المفاسد تبغى إصلاحها ، وتبحث عن الحقيقة التى يجب أن تسود الناس ، لكن هذه الموجه لم تصل إلى غرضها لاعتمادها على منهج العقل البشرى وحده بعد غيبة دعوات الله ، والمهم أن **السبب الأول قد وجد قبل الإسلام** مما دعا إلى وجود الرسالة .

وقد وجد السبب الثانى أيضاً حيث وصل النضج العقلى إلى مستوى كامل من الرقى ، وانتقل البشر من طور المحسوس وحده إلى طور الإدراك العقلى .

ولم يعد للبيئة أثرها السابق فى عزلة الناس وتنوع إدراكاتهم، لدرجة أن اتجاهاً إلى التوحيد ساد العالم كله ، وأمام هذا النضج أصبحت بقايا الدعوات السابقة غير صالحة للناس ، مما دعا إلى وجود دعوة إلهية تناسب الناس ،

وتهديهم إلى الله تعالى

وبسبب النضج العقلى، وتعدد الاتصالات بين مناطق العالم المختلفة لم يعد لاختلاف الأمكنة أثرها فى اختلاف الأمزجة ، والطباع ، على نحو ما كان فى القديم، **وأصبح من الممكن أن تأتى رسالة شاملة لكل الأماكن** ، عامة لسائر البشر مراعية للاختلافات الضرورية بين الناس .

ومن هنا نزلت الدعوة الإسلامية ، واضحة بهديها وتعاليمها أمام النـــاس، مناسبة للكمال البشرى وتطوره ، متجه إلى العالم كله .

وأصبح الناس بعد مجئ الدعوة الإسلامية مكلفين بها، فمن اســتقام نــال الخير والثواب، ومن عصى حقت عليه لعنة الله .

<u>هل هناك دعوة أخرى بعد الإسلام ؟</u>

وعلى الفور نجيب بأنه لن تكون هناك دعوة إلهية بعد الإسلام ، كما تظهره الحقيقة المجردة .

إن الأسباب التى تدعو إلى وجود رسالة من الله لن توجد بعد الإسلام أبداً، وذلك كلام موضوعى لا تعصب فيه ، ولا عاطفة .

إن تعاليم الإسلام لن تغيب عن الناس ولسوف تبقى ثابتة ، وكل الشواهد تدل على ذلك .

<u>فهى – أولاً :</u>

مجموعة من الحقائق فى العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ، والحقائق لا تتغير مهما تغير المكان ، أو تغير الزمان ، وما هو ثابت فى نفسه يستوى فى ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق ، أو عند قيام الساعة .

<u>وهى – ثانياً :</u>

موافقة للعقل الكامل، يرضى بها ويقتنع ببراهينها .. وبذلك تستمر وتدوم .

<u>وهى – ثالثاً :</u>

مسجلة فى القرآن الكريم ، الذى نقله جبريل عن الله بأمانة تامة ، ونقلــه كذلك محمد ﷺ عن جبريل ،ونقله الصحابة عن رسولهم ، ثم تتابعت الجماهير

الغفيرة تنقله عبر القرون حتى بلغت به إلينا ، مثلما نزل قبل خمسة عــشر قرناً، وسنورثه بإذن الله تعالى إلى غيرنا، وهكذا إلى يوم القيامة .

إن ثبوت القرآن الكريم متحقق بمداومة المسلمين على تلقيه وكتابته ، وقد جمعه أبو بكر ﷺ في مكان واحد، وجمعه عثمان ﷺ في مصحف واحد ليبقى كذلك إلى الأبد، وفى العصر الحديث سجله المسلمون ترتيلاً على الآلات الخاصة بذلك وبثوه بواسطة الأقمار الصناعية إلى العالم كله .

وتعاليم الإسلام – رابعاً :

واقعية بمعنى إنها تعايش الإنسان ، وتقدم له الحلول العلمية والعملية لمعاشه ، ونشاطه ،وتحيط به فى كافة النواحى التى يتجه إليها ، وبذلك تحقق لدى الناس تذكراً دائماً لها .

إن تعاليم الإسلام ليست رهبنة ، وليست عزلاً ، وليست ملائكية ، ولكنها للبشر على مستوى إدراكهم ، وذلك سر نجاحها وخلودها .

و خامساً :

فإن رسول الإسلام محمد ﷺ معروف بوضوح ..... وسائر أعماله وأقواله، وصفاته، وأخلاقه، مسجلة بدقة، وقد تتبعها مؤرخو السيرة بالدرس، والفحص ، حتى جلوها للمسلمين لتبقى حية فى العالمين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما جماع الدعوة، ودستورها.

يقول أبو الأعلى المودودى : إن هداية النبى ﷺ لا تزال حية فى متناول الأيدى ولا حاجة إلى نبى آخر يجددها ، ويعرضها على الناس مرة أخرى[١].

وهكذا فتعاليم الدعوة ما غابت ، ولن تغيب ... هذه واحدة .

وأيضاً فإن تعاليم الإسلام لن تقصر عن البشر مهما وصل مستواه ، لأن تعاليم الإسلام اتجهت لسائر دعوات الله السابقة وصدقتها ، وكملت بما يناسب الرقى الإنسانى وقد بين الله تضمن الإسلام للكمال والتمام بقوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ

---

(١) مبادئ الإسلام صـــ١٦٠

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] حيث كمل الدين، وتمت النعمة، ورضى الله أن يكون الإسلام ديناً للعالمين .

وإنما عبر بالكمال، والتمام ليشير إلى ارتباط الدعوة الإسلامية بالدعوات قبلها، وأنها معهم مكملة ومتممة .

وعلى ذلك فالإسلام دعوة احتوت كل الدعوات السابقة ، وهيمنت عليها، وهو بذلك مصدق لما سبق، مكمل بما أتى، مهيمن بحقيقته على كل ما مضى وكل مؤمن بدين يجد مصداقيته في الإسلام .

وقد راعت تعاليم الدعوة الإسلامية فى هيمنتها الارتقاء العقلى الإنسانى ، فدعت إلى وحدانية مطلقة لله ، فى الذات ، والصفات ، والأفعال ، واجتثت الوثنية بأشكالها ، وألفاظها ، وتأثيراتها السيئة ، على الإفراد ، وعلى الجماعات بحيث لا يخضع الإنسان إلا لخالقه ، ولا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى .

وأيقظت الدعوة العقل من نومه فعابت على المقلدين والأتباع الذين كان شعارهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[2] .

وأمرت بالنظر والتدبر، ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين الكثيرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3] ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] ويكفى إن المعجزة الخالدة للـــدعوة الإسلامية كانت القرآن الكريم الذى خص العقل بالخطاب، وأعطى لقوة الكلام وصحة الدليل حقه الأصيل ، ولم يكن أخذاً للأبصار ودهشة للمشاعر والحواس كمعجزات رسل الله السابقين .

ولم تهدم الدعوة الإسلامية الدعوات السابقة ، بل بينت أنها على نمطهم .

وأتى الإسلام فى كل مجال بتوجيه رائع، وإصلاح سليم، ولم يترك مشكلة إلا أزالها، ولا عقدة إلا حلها، ولا خطأ إلا أصلحه، يقول الشيخ محمد عبده : لم

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

(٢) سورة الزخرف الآية ٢٣

(٣) وردت مادة "عقل" فى ٤٩ موضعاً فى القرآن الكريم

(٤) وردت مادة "فكر" فى القرآن الكريم ١٨ مرة .

يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليـــه، ولا أمـــا مـــن أمهـــات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر، واستقلال العقل، وما به صلاح السجايا، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبل السعى العديدة (١) .

ومن شهادة الواقع والتاريخ بعد مضى خمسة عشر قرنا على مجئ الإسلام نرى عدم ظهور رسالة أخرى، مما يؤكد أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة ، وأنه الدائم إلى يوم القيامة

وبما ذكرنا يصير ما نعنيه هنا أمراً مقرراً بالدليل المـــسلم مـــن العقـــل ، والنظر، وهو ما أرشدنا إليه الله سبحانه وتعالى فى قوله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(٢) .

وعلى هذا فأى مدع لرسالة بعد الإسلام كاذب ، وهو مساو تماماً لـــبعض المعاندين المنكرين للإسلام الذين ينكرونه أصلاً، أو ينكرون أنه لغير العـــرب من الناس (٣) .

ويجب أن يكون واضحاً أن رسل الله جميعاً قبل سيدنا محمـــد ﷺ بـــشروا برسول الله من بعدهم، وبذلك أكدوا أن دعوتهم ليست خاتمـــة ، وأنهـــا لفتـــرة خاصة من الزمن، ولقوم معينين، فلما جاء سيدنا محمد ﷺ عرف النـــاس أنـــه الرسول الخاتم الذى مهد له سائر الرسل، وقد انتهت الرسالات برسالته وختمت النبوات بنبوته ﷺ .

---

(١) رسالة التوحيد صـــ١٦٤

(٢) الأحزاب الآية ٤٠

(٣) يدعى البهائيون والقديانيون أنهم أصحاب رسالة ، وأن لهم رسلاً ، كما أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالإسلام حتى الآن ، وذلك كله عناد ، وهوى .

الفصل الثالث

الإسلام دعوة عالمية

تمهيد

يموج العالم اليوم بعديد من التيارات والمذاهب وكل يدعى أحقيته، ويتصور أن غيره هو الباطل ... والإسلام دين الله تعالى يعيش وسط هذا الزيف متمسكاً بالحق، داعياً إلى الهدى والصواب .

والإسلام يخاطب الأمم كلها بالحسنى، ويعمل على دعوة الآخرين بالحكمة واللين .

ويأمر المسلمين بدعوة غيرهم بالحق والحسن فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[١].

إن الإسلام هو الدين العالمي الدائم إلى يوم القيامة بما فيه من خصائص، وبما يتضمنه من عقيدة وشريعة تتلاءم مع الناس، وما يجعله يستمر متجدداً دائماً، بحيث لا يتخلف عن ضبط أي جديد بشرع الله تعالى وحتى لا يتصور قصوره عن أي تطور وتقدم .

وأصحاب المذاهب والأديان الأخرى لا يرتضون هذه الحقيقة الإسلامية، ويزعمون أنه خاص بالعرب، ويعملون على إقناع الآخرين بهذه المزاعم الباطلة ... وهم بذلك يصنعون تياراً يصد عن سبيل الله، ويمنع الناس من التفكير في الإسلام بعدما يرون تخلف المسلمين وهوانهم .

أمام تعدد التيارات في هذا المجال سأحاول في هذا الفصل إثبات عالمية الإسلامية، وأحقيته الثابتة في هذا .

والله الموفق ،

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٤٦ ــ ٤٧ .

الإسلام دعوة عالمية

الإسلام دعوة تامة ، ودعوة خاتمة ، ومعنى ذلك أن دين الله للناس قد كمل لا يحتاج لإضافات أخرى ، ويعنى أيضاً أنه لا رسالة بعد الإسلام أبداً .

ومن مستلزمات هذا أن تكون الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ليصل التمام الديني إلى كل نسمة فى العالم ، وحتى لا يعتذر أحد فى العالم بحجة عدم وصول رسالة الله إليه

وعالمية الإسلام أحد الميزات فيه ، لأن سائر رسالات الله السابقة كانت خاصة لقوم معينين ، ولزمان معين ، على نحو ما بيننا .

وعالمية الإسلام مقررة ، ومسلمة بما وضع الله فيه من خصائص .

فهو – أولاً –

لم يرتبط باسم شخص معين أو قبيلة معينة كما ارتبطت اليهودية بـــ"يهوذا" وكما ارتبطت المسيحية بالمسيح ، أو بأنصار المسيح ، ولكن الإسلام ارتبط بأمل يراود الناس جميعاً ، ذلك الأمل هو السلام ، لأن السلام هو الهدف الأكبر للدعوة الإسلامية ، وهو فى الوقت ذاته الهدف الأسمى للإنسانية .

ويرتبط الإسلام بأمل آخر تندفع إليه الفطرة الإنسانية ، ذلك هو تسليم الأمر لله فى إخلاص وطاعة، وبذلك يشبع قوة الوجدان عند الإنسان، ويطرد اليأس والقنوط ، ويتعلق برجاء فى القوة الغيبية التى يحس بها ويستشعرها .

وأمل الإنسان فى السلام والتسليم هو الذى جعل رسالات الله السابقة تتسمى بالإسلام ، جذباً للناس، وإشارة إلى الغاية التى يجب أن ينتهى إليها سائر البشر ، وهى الإذعان لله وحده ، وتسليم الأمر له سبحانه .

والإسلام – ثانياً –

حدد تعاليمه بدقة متناهية ، فجميع عناصر العقيدة ، وجميع الفرائض العينية من الشريعة ، مفصلة بحكمة وإحاطة ، لدرجة أنها غير قابلة لزيادة ولا لنقص، لأن أى تغيير فيها يلغيها، وأما بقية أمور الشريعة، وكافة جوانب الأخلاق، فقد وضع الإسلام لها القواعد العامة التى ترسم للفقهاء من المسلمين

مبادئ اجتهاد فى فروع هذه القواعد العامة .

وهذا التحديد يدل على عالمية الإسلام لأن الأمور المحددة هى الأمور الثابتة التى لا تختلف تبعاً لاختلاف الزمان والمكان ، كالإيمان بالله ، والصوم مثلاً إذ من الممكن تطبيقها على حقيقتها فى كل مكان، وفى كل زمان، أما الأمور المحددة قواعدها فقط فهى المسائل التى تختلف تطبيقاتها زماناً، ومكاناً كالجهاد فإن وسائله تتعدد، وكالشورى فإن تطبيقاتها تتغاير، وكالعلم فإن موضوعاته تتقدم وتخصصاته تختلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن تعاليم الإسلام ثابتة ، لظهر لنا بيقين أن تعاليم الإسلام دليل على عالميته .

والإسلام – ثالثا –

يركز على الجانب الأخلاقى ، بل أنه يطلبه فى أعمال الباطن والظاهر معاً ويرى أنه الهدف الأساسى للإسلام ، وأنه النتيجة الحتمية للتطبيق الصحيح للإسلام ، يقول النبى ﷺ : "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** "[١] والتركيز على هذا الجانب يعنى الاتجاه إلى سعادة الناس فى الدنيا وفى الآخرة ، وهذا وحده كفيل بإثبات عالمية الإسلام .

والإسلام – رابعاً –

يوضح بجلاء اتفاقه مع الدعوات السابقة فى أصولها وهو من هنا يؤمن بسائر الرسل ، يصدق بدعواتهم ، ويبين تعاليمهم وبعض شرائعهم ، وهذا جمع للأسرة الإنسانية فى إطار الدعوة الإسلامية ، ولذلك يجد الجميع تكريماً لرسلهم فى هذا الدين مما يجعلهم يؤمنون بهم ، وهم يؤمنون بهذا الدين .

وعالمية الدين لا تتناقض مع ظهوره بين العرب أولاً ، وعلى يد رسول عربى ولا مع ظهوره فى القرن السابع الميلادى ، لأن ذلك كله كان بعض العوامل المساعدة على انتشاره فى العالم ، وبلوغه إلى الناس أجمعين ، لمزايا علمها الله فيه فوضعه هذا الموضع.

ومن أجل هذه العالمية كانت نداءات الدعوة الإسلامية إلى الناس أجمعين

---

(١) موطأ الإمام مالك جـ٤ صـ٩٢ باب ما جاء فى حسن الخلق

حيث صدرت آيات الدعوة إلى الله بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ .

ولم تقف العالمية عند النداء بل شملت سائر التكاليف ، ومن هنا رأينا آيات القرآن الكريم تتجه إلى بنى إسرائيل وتجادلهم ، وتتجه للمجوس ، والذين أشركوا ، والذين كفروا ، والقائلين بالدهر ، وعبدة الأصنام ، والأوثان ، وتناقشهم فى معتقداتهم الباطلة ، وتدعوهم إلى طريق الله المستقيم .

إن آيات القرآن الكريم تشير إلى عالمية الإسلام بنداءاتها الواقعية ، بل إنها تبين هذه العالمية صراحة فى الآيات التالية

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) .
- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٢) .
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .
- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .
- ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (٥) .

فهذه الآيات تفيد صراحة أن الدعوة الإسلامية للعالم كله ، وأنها تعم جميع المعاصرين لنزول القرآن، ومن سيأتى بعدهم إلى يوم القيامة، بل إنها تشمل الجن مع الإنس باتفاق جمهور العلماء لأن المقصود بالعالمين عالم الإنس وعالم الجن .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٢) سورة الفرقان الآية ١

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨

(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٨

(٥) سورة الأنعام ١٩

إن تأكيد هذه العالمية من الأمور الهامة فى العصر الحديث ، لأن أعداء الدعوة يريدون **إثبات أن الإسلام خاص بالعرب ، وبذلك يثبتون أنه دين جنس معين كاليهودية ، ويذكرون أن الاتجاه به إلى غير العرب خروج على طبيعة الإسلام ذاته، ويتصورون أنهم بهذه الأباطيل سيقفون ضد المد الإسلامى فى أقاليم العالم المختلفة .**

وأعداء الدعوة الإسلامية هؤلاء لا يقفون عند حد المنازعة الفكرية ، بل إنهم لعجزهم يباشرون النزاع المسلح، ويحاولون إبادة المسلمين من غير العرب، كما هو حادث فى آسيا، وأفريقيا، وغيرها ... ويعملون بدهاء في إزاحة العرب عن التقدم والرقى .

ومع كل محاولات الأعداء فإنهم سوف يبوءون بالفشل ، وسوف ترتد سائر موجات الإلحاد والتبشير على أعقابها خاسرة مدحورة ، وسوف تبقى فى النهاية الحقيقة المجردة الناطقة بعالمية الدعوة الإسلامية .

إن ما ذكرنا من أدلة سمعية وعقلية لم تكن كافية لرد أفكار الخصوم، بل إنهم حاولوا مع ذلك أن يثبتوا خصوصية الدعوة الإسلامية بالعرب، واستدلوا بما يلى:

أولاً :

قالوا إن ظهور الإسلام على يد رسول عربى ، وبين قومه العرب، ونزول تعاليم الإسلام بلسان عربى، يوحى باختصاص الإسلام بالعرب، ولا يستطيع أحد إنكار عروبة الرسول والقوم، واللسان لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[1]

والأميون هم أمة العرب يذكرون فى مقابلة أهل الكتاب من بنى إسرائيل ويقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

يرى أعداء الإسلام أن التسليم بهذه الأمور الثلاثة يستتبع اختصاص الإسلام بالعرب، لأن كل دعوة تأتى بلغة قومها .

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢

(٢) سورة يوسف الآية ٢

ثانياً :

نظروا إلى بعض الآيات ، وقالوا : إنها تساعدهم فى دعواهم ، وهذه الآيات هى قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[١] وقوله سبحانه ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾[٢] وقوله سبحانه﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٣] **وقفوا أمام هذه الآيات، وذكروا أن الدعوة الإسلامية متجهة إلى عشيرة النبى ﷺ ، وإلى أم القرى " مكة " وإلى البوادي حولها ، وإلى العرب ، الذين لم يأتهم رسول من عهد إســماعيل ﷺ ورأوا استنباطاً من ذلك أن الدعوة خاصة بالعرب .**

ثالثاً :

ادعى هؤلاء الخصوم أن فكرة العالمية لم تظهر على لسان رسول الله ﷺ ولا فى عمله ، ولا فى زمنه ، ولكنها ظهرت مع الفتوح الإسلامية فى بلاد فارس والروم فى زمن عمر بن الخطاب ﷺ وزعموا تبعاً لذلك أن فكرة العالمية فى الإسلام تعنى السيطرة والاحتلال العسكرى ، ويسمون عمر بن الخطاب بالمستعمر العربى .

رابعاً :

يحاولون قصر النصوص الدالة عل العموم على عموم العرب وحدهم، فالجميع هم جميع العرب، والعالمون هم عالم العرب، والكافة هــم كافة العرب .

الرد على مدعي عدم عالمية الإسلام :

قبل إثبات بطلان أدلة الخصوم نذكر أنهم فكرياً يحاولون قصر الدعوة بالعرب، وأنهم اقتصادياً يحاولون إفقار العرب ، وأنهم سياسياً يحاولون عزل

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤

(٢) سورة الشورى الآية ٧

(٣) سورة القصص الآية ٤٦

العرب ، وذلك كله اتجاه فى الأساس ضد الإسلام ودعوته .

ونذكر أنهم يحاولون إلحاق تهمة الاستعمار بالإسلام، وإلصاق تهم التخلف، والرجعية بالدعوة الإسلامية ويذهبون إلى أن الإسلام هو الذي ضيع العرب، ويشيعون ذلك فى العالم ليحولوا بين الإسلام وبين أفكار الناس .

ومن دلالة سوء النية عند منكرى عالمية الإسلام أنهم هم الذين عملوا على تخلف العرب ، وتمكنوا من إضعافهم ، والسيطرة على عوامل قوتهم .. ووجهوها إلى غير مسارها ومع ذلك يدعون أن الإسلام هو السبب ، وهو الذى أدى إلى تخلف العرب ، ويبرهنون بما فعلوا على نيتهم في تشويه الصورة الحقيقية للإسلام .

ونذكر أن الأعداء تجمعوا ضد الإسلام وحده ، يصدون عنه لأنه الدعوة النشطة الإيجابية ، التى تشتمل على إصلاح الحياة ، ولو تركوها للجماهير حرة لآمن بها الناس ، ودخلوا أفواجاً فى دين الله تعالى ، وحينئذ تضيع أطماعهم ، وتنهزم أهواؤهم ، وأما غيرها من الدعوات فهى بعيدة عن شئون الحياة ، والعيش معها لا يمثل خطورة على فساد .

ونذكر أن واجب الأمة الإسلامية خطير لأن العداء يتجه إلى الدين أولاً ، وفى الأساس ، وبعد ذلك يتجه إلى كل شئ .

إن على المسلمين التخلص من كل عوامل الضعف ، والتخلف ، ويستفيدوا بتعاليم الإسلام الداعية إلى العمل الجاد ، والخلق الكريم ، والمنادية بكرامة الإنسان والمحافظة على كافة حقوقه ، ومنع أى سيطرة ظالمة وقهر العدوان والفساد .

وبعد ذلك نأتى لأدلة الخصوم نناقشها موضوعياً لنأتى بالقول الفصل فيها ، وذلك بمناقشة كل نقطة على حدة لبيان ما فيها من تأويل باطل، واستدلال بغير ما يفيده الدليل .

وستكون المناقشة مرتبة على الترتيب الذى أوردناه فى عرض أدلتهم :

أولاً :

نحن نسلم أن الرسول ﷺ عربى ، ظهــر فى قومه العــرب أولاً ، ولكننا لا نسلم أن هذا دليل على عدم عالمية الدعوة ، لأن الله جعل دعوته فى العرب أولاً ، لأن هذه الأمة جمعت من المزايا ما جعلها خير أمة تصلح لحمل الدعوة وتبليغها إلى العالم كله، فهى أمة قريبة من التوحيد، غير منفعلة، بالأصنام والأوثان، وغير خاضعة لطبقة الكهنة والأحبار، ولم تستذلها طبقة سياسية متحكمة، ولم يوجد فيها نظام حاكم له قوة منظمة ، إلى غير ذلك من المزايا التى وجدت لأمة العرب ولم توجد لأمة سواها وقد سبق ذكر مزايا هذه الأمة ودور هذه المزايا في تحقيق عالمية الإسلام واقعياً .

وما دامت هذه الأمة هى الأولى بحمل الرسالة العالمية ، فلابد أن ينزل الوحى بلغتها ، حتى يفهم أبناؤها دين الله ، ويحيطوا بما شرع لهم ، وبعد ذلك ينطلقون به إلى كل الآفاق .

وليس من المعقول أبداً أن ينزل الوحى بلغة غير لغة من نزل عليهم ، لأنهم حينئذ لا يفهمون شيئاً ، ويصيرون فى حكم من لا يعلمون بوحى الله ، ومن المعلوم أن البشر فى العالم وجدوا مختلفين وطناً ، وجنساً ، ولغة ، فلوا اشترطنا اتحاد لغة الدعوة مع سائر اللغات للزم تعدد الرسالة ، أو معرفة الرسول لكل لغات العالم ، وحينئذ فلن توجد الدعوة الخاتمة ، لأن تعدد الرسالات لا يسمح بوجودها ، ولأن معرفة الرسول لكل اللغات أمر لا يقره عقل ، ولا يستقيم فى مفهوم أولى الألباب ، ولكن الرسالة الخاتمة وجدت واقعاً ، وهذا يشير إلى أن اشتراط اللغة الواحدة غير وارد ، وغير سديد .

وما المانع فى تنوع لغات الناس ، وإتيان الدعوة بلغة واحدة ؟!

وما المانع أن تكون هذه اللغة هى اللغة العربية ؟!

وما المانع أن تستقبل هذه الأمة العربية الدعوة بلغتها ؟! وبعد ذلك تبلغها للآخرين ؟؟!!

وبماذا نفسر انطلاق هؤلاء العرب حاملين الإسلام إلى العالم كله كما هو ثابت تاريخيا وواقعياً ؟؟

لا مانع يمنع العرب من الانطلاق بالإسلام إلى العالم كله لأن هؤلاء العرب سيعلمون لغات العالم ويتحركون إلى كل الأقاليم بلغاتهم، وقد رأينا فى العصور القديمة أن مختلفى اللغة كانوا يتفاهمون بواسطة الترجمة والمترجمين، وفى العصور الحديثة تجتمع الأمم جميعاً بلغاتها المختلفة تحت سقف واحد، ويتفاهمون بواسطة الترجمة بلا تعثر أو غموض والمؤتمرات العالمية ، ومؤسسات الأمم المتحدة تشهد لذلك ، وتؤكده، ومن المعلوم أن اللغة العربية غنية بمفرادتها ومرادفاتها، واسعة بمشتقاتها وميسرة التعليم والفهم .

والعرب أصحاب هذه اللغة هم أقدر الناس، على إتقان لغات العالم كله حفظاً ، ولفظاً ، وفهما ، ولو قارنا عربياً وأجنبياً، فى لغة الأجنبى لما بدا فرق بينهما، أما لو قارناهما فى اللغة العربية لبدأ الفرق واضحاً ، بين الإثنين فى اللهجة والنطق ، والحفظ والفهم ، وهذا دليل من الواقع يجعل العرب أولى الناس بترجمة تعاليم الإسلام إلى الناس .

ومن أجل التغلب على مسألة تعدد اللغات أمر النبى ﷺ بتعلم لغات الآخرين قال رسول الله ﷺ لزيد بن ثابت : " **أتحسن السريانية إنها تأتينى كتب بها ؟**

قال زيد : لا .

قال ﷺ : فتعلمها .

يقول زيد : فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً (١).

وكان أبو جمرة يترجم بين الناس وبين ابن عباس (٢).

وقد تمكن هؤلاء العرب من إيصال الإسلام إلى العالم كله شرقية وغربية، شماله وجنوبه ... وبذلك سقطت دعوى أن ينزل الإسلام بلغات العالم .

---

(١) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد جـ١ صـ١٤٥ كتاب العلم والعلماء

(٢) نيل الأوطار للشوكانى جـ٨ صـ٢١٧

وقد نال موضوع ترجمة معانى القرآن الكريم ، قسطاً كبيراً من آراء الفقهاء، فمن اعتبر ترجمة معانى القرآن، إخباراً أجاز أن يقوم به واحد كالأحناف، ومن اعتبره بينة وشهادة لم يجزه إلا لرجلين معاً، أو لرجل وامرأتين كالشافعية يقول الكرمانى : **ولا نزاع لأحد أنه يكفى ترجمان واحد عند الإخبار، وأنه لابد من اثنين عند الشهادة ، فيرجع الخلاف فى عدد القائمين بالترجمة إلى أنها إخبار ، أو شهادة** [1] .

وهكذا تكون العروبة – قوماً ولغة – فى خدمة عالمية الدعوة ، وتكون عاملاً هاماً فى انتشار الإسلام ، وتبليغه إلى العالم كله .

ثانياً :

نحن نؤكد صدق الآيات القرآنية ، لأن كل ما أورده القرآن الكريم حقائق لا تتخلف ، لكننا نخالفهم فى فهمهم لدلالة الآيات .

ذلك أن قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] نزلت فى بداية الدعوة حيث أمر الله أن يبدأ النبي دعوة أقرب الناس إليه من عشيرته بدلالة أفعل التفصيل، ولو أنها فهمت كما يريد المعارضون ، لما اشتملت على كل عشيرة النبى ﷺ ولاشتملت حينئذ على الأشد قرباً من العشيرة كما يفيده أفعل التفضيل (الأقربين) فى الآية ، وهم لا يقولون بذلك ، وبذلك يسقط استشهادهم بالآية .

إن الفهم الصحيح للآية يشير إلى إنها تسير وفق المنهج العملى لنشر الدعوة فى عصر النبى ﷺ وفى كل عصر، وهذه الطريقة هى أن يبدأ الداعية بنفسه، ثم بالأقرب، فالأقرب .

يقول الرازى : إن الله بدأ بالرسول نفسه فتوعده إن دعا مع الله إلها آخر بقوله تعالى ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[3] وبعد ذلك مباشرة أمره بدعوة الأقرب فالأقرب فقال له ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[4]

---

(١)نيل الأوطار للشوكانى جـ٨ صـ٢١٧

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٤

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٣

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً، ثم على الأقرب، فالأقرب ثانياً، لا يكون لأحد مطعن عليه البتة ، وكان قوله أنفع ، وكلامه أنجح [١] .

ولذلك نظير من مسلك الدعوة حينما صعد النبى ﷺ على جبل الصفا ونادى وقال : " **يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباس عم النبى ، يا صفية عمة رسول الله ، إنى لا أملك لكم من الله شيئاً** "[٢].

فنرى أنه ﷺ نادى الأقرب فالأقرب وليس معنى ذلك أن غيرهم لا يدخل في الدعوة، يذكر أبو حيان أن العشيرة تحتمل بنيها، ولا تقسوا عليهم، وهى أكثر سماعاً لهم من غيرهم فيقول: "إن العشيرة مظنة الطواعية ويمكنه من الغلظة عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم، وهم له أشد احتمالاً "[٣] فالآية إذا تدل على منهج البداية فى الدعوة مع التدرج فى الاتساع، وليس فيها ما يمنع دعوة غير الأقربين، وغير العرب .

وأما عن قوله تعالى ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[٤] فإن أم القرى هي مكة ونحن نسلم معهم أن أهل مكة هم أساس دائرة الإنذار، ونسأل عن مدى ، ومقدار المكان من حولها الذى يجب أن يشمله الإنذار ؟

إنه يضيق على مساحة قليلة محيطة بمكة ، ويتسع حتى يشمل العالم كله لأن مكة تقع في وسط العالم .

ولو سلمنا أن المراد بمن حولها هم البدو والحضر المحيطون بمكة، فإن التخصيص بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما سواه ، وإن دلت هذه الآية على كون الرسول بعث إلى هؤلاء فإن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] يدل على كونه رسولاً إلى

---

(١) تفسير أبو السعود جـ٦ صـ٢٦٧

(٢) صحيح البخارى ، كتاب التفسير جـ٨ صـ٨٣٧ ط الأوقاف .

(٣) البحر المحيط جـ٧ صـ٤٦

(٤) سورة الأنعام الآية ٩٢

(٥) سورة سبأ الآية ٢٨

العالمين ، ولا تناقض بين مفهوم الآية الأولى ومفهوم الآية الثانية على هذه الصورة ، لأن خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ، ومن حولها ، وخطاب أم القرى ، ومن حولها لا يمنع أن يعم الخطاب الناس أجمعين ولو بخبر آخر وحين نصدق بالآية الأولى يجب أن نصدق بالآية الثانية لأنهما من مصدر واحد، وإنكار أحدهما يعد إنكاراً للأخرى .

وأيضاً لما ثبت كونه ﷺ رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر أن محمداً ﷺ كان يدعى أنه رسول الله إلى كل العالمين فوجب تصديقه فى ادعائه هذا لثبوت صدقة ابتداء .

وأما عن قوله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1]

فنحن معهم، ونعلم أن المقصود من الآية هم العرب، وإذا كان العرب فى الجزيرة لم يأتهم رسول من الله منذ إسماعيل عليه السلام فإن الدين الذى جاء به محمد ﷺ يعم معهم المتدينين الذين جاءهم الرسل، ويقوم النبى ﷺ العربى بالدعوة إلى دينه سائر الناس ليظهره على الدين كله كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2]

والإظهار يكون بالعلم، والحجة والسيادة، والغلبة، والشرف، والمنزلة، ولا يكون كذلك إلا حيث كان خاتماً للأديان، وعاماً لجميع الناس .

ثالثاً :

وأما إدعاء أن عالمية الدعوة لم تظهر إلا فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهى واهية كسابقيها ، لأن الآيات التى ذكرناها فى عموم الدعوة نزلت قبل الهجرة، وهذا يوضح أن عالمية الدعوة كانت واضحة من البداية، وبعد الهجرة، وفى يوم الخندق، أمل النبى ﷺ فى نشر الإسلام فى سائر الأرض ، وذلك عندما ضرب معوله الصخرة ثلاث ضربات وفى كل مرة تلمع برقة منها **فسأل سلمان الفارسى رسول الله ﷺ وقال له : بأبى وأمى يا رسول الله ما هذا الذى**

---

(١) سورة القصص الآية ٤٦

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣

رأيته لمع تحت الأرض ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق [1] .

ومن أجل هذه العالمية جاءت التعاليم الإسلامية خطاباً لسائر البشر، ولجميع البيئات، وبياناً لنعم الله على كافة الناس، فخاطبت أهل الزرع وليس هم العرب على الخصوص، وخاطبت أهل البحر والسفن وليس هم العرب أيضاً يقول الله تعالى ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [2] .

فبهذه الآيات خاطب القرآن أقواماً سخر الله لهم الأنهار، والليل والنهار والشمس والقمر، وليسوا هم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم لأنها نعم عامة.

على أن هذه العالمية لم تقف على الدليل النظرى فى عهد الرسول ﷺ ، بل إنه ﷺ باشر عملياً تنفيذ عالمية الدعوة يوم أن سنحت له الفرصة بعد الحديبية حيث أرسل إلى الملوك والأمراء فى كل الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، ويحملهم إثم أتباعهم إن لم يبلغوهم .

وقد جاء فى الكتاب الذى أرسله ﷺ إلى هرقل " **بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى : أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين ويا** ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا

---

(١) سيرة النبى ﷺ جـ٣ صـ١٧٣

(٢) سورة إبراهيم الآيات من ٣١ إلى ٣٣

بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [1].

يقول أنس بن مالك ﷺ " **إن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس هو النجاشى الذى صلى عليه ﷺ .**

وهذه الكتب ثابتة بالواقع التاريخى ، وإن لا فمن يستطيع أن ينكر رد المقوقس على رسول الله وإرساله "مارية" فى هدية للرسول ﷺ ، وهى التى تزوجها النبى ﷺ وأنجب منها ابنه إبراهيم .

وهكذا ثبت أن عالمية الدعوة قد ظهرت ووضحت فى عهد النبى ﷺ وهو فى مكة قبل الهجرة ، ولم تتأخر حتى عهد عمر بن الخطاب ﷺ كما زعم الخصوم .

رابعاً :

تخصيص آيات العموم بعموم العرب تخصيص بلا مخصص ، وهذا لم يقل به عاقل ، لأن من القواعد المقررة فى العلم والعقل أن العام يبقى على عمومه ما لم يخصصه دليل فى قوته ثبوتاً وصحة .

وهكذا ثبتت عالمية الدعوة بأدلة العقل وأدلة السمع ، وردت أدلة الخصوم وبذلك يتضح تمام الدعوة، وثبوت كونها خاتمة، وعالمية، وهذا يقتضى دوامها بالضرورة إلى آخر الزمان .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن **اليهود ينكرون حتى الآن الدعوة الإسلامية ودعوة عيسى** عليه السلام ويدعون أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد ابتدأت بموسى وانتهت به وما زالوا ينتظرون رسولاً من بعده يدعو الناس بشريعته .

وكذلك النصارى فهم **يرفضون الدعوة الإسلامية، ولا يتصورونها من الله** وكلا من أتباع اليهودية والنصرانية يتصورون رسالتهم هى الخاتمة ، وهذا موقف يبطله ما ورد على لسان موسى عليه السلام مبشراً شعبه بنى إسرائيل بالرسالة الخاتمة ، إذ يقول لهم " **يقيم لك الرب إلهك ، نبياً من وسطك ، من إخوتك**

---

(١) صحيح مسلم جـ٥ صـ١٦٥ ، ١٦٦ كتاب الجهاد باب كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام .

مثلى، له تسمعون [١] " والنصارى يفسرون هذه الآية على أن المبشر به هو المسيح ﷺ ، وتفسيرهم غير سديد لأن المماثلة لابد أن تكون حقيقية، وهى لا تنطبق على عيسى ﷺ حسب نظرتهم، وحسب الواقع، لأن عيسى عندهم إله، وموسى نبى، وشريعة عيسى ناقصة ، وشريعة موسى تامة ، وموسى تزوج وحارب أعداءه ، بينما لم يتزوج عيسى ولم يحارب أحداً ، وإنما المماثلة فى الحقيقة تنطبق على محمد ﷺ لأنه نبى ، وشريعته تامة وقد تزوج ، وحارب أعداءه .

وأيضاً جاء فى العهد القديم أن " **نبوخذ نصر " رأى حلماً فسره له دانيال بأن ملكاً سيأتى بعد تنازع الأمم واختلافها ، وهذا الملك باسم الرب ، وبإرادته، وسيدوم إلى الأبد حيث قال له " وفى أيام هؤلاء الملوك – أى المختلفين يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد – الله العظيم عرف الملك ما سيأتى ، الحلم حق وتعبيره يقين [٢] .**

ورغم أن هذه النصوص من العهد القديم فما زال اليهود على إنكارهم للدعوة الإسلامية ، وكذلك النصارى ، ويفسرون هذه المملكة بأنها مملكة النصارى، مع أن المسيح لم يأت إلا بمجموعة من المواعظ، والنصائح، والحكم، وهي في مجموعها لا تفي بجميع حاجات الإنسان وقد توفى الله عيسى ﷺ إليه ، وأتباعه قليلون فى عددهم وعدتهم .

إن هذا يرد إنكار اليهود والنصارى ، ويؤكد أن كل البشارات تنصب على سيدنا محمد ﷺ، وأمته .

جاء فى أشيعا قوله : **غنوا للرب أغنية جديدة تسبحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر ، وملإه، والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار ، ليترنم سكان سالع من رءوس الجبال ،**

---

(١) سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر فقرة ١٥

(٢) سفر دانيال الإصحاح الثاني فقرات ٤٤ ، ٤٥

ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ، ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر [١] ، ويبين هذا القول أن الدعوة الإلهية ستكون فى جبل سالع ، وتنتشر إلى أقصى الأرض ، وتصل إلى المنحدرين فى البحر والمقيمين فى البرية ، وتبيد الأصنام المنحوتة، وتزيلها فى قوة ظاهرة ، وهذه أوصاف تنطبق على الإسلام تماماً، لأن جبل " سالع " المذكور هو الجبل الموجود غرب المدينة [٢]وقد امتدت التعاليم الإسلامية إلى كافة أنحاء الأرض ، ولم يحدث أن جاء نبى بعد أشــعيا أباد الأصنام سوى محمد ﷺ .

ولعل اليهود حينما علموا بهذه الحقائق حضروا إلى يثرب ، وفضلوا سكناها عن سائر المدن ، ليكونوا بجوار " سالع " المذكور ، عسى أن يبعث الله النبى المنتظر من جنسهم ، ولذلك كانوا يبشرون به .

وأيضاً جاء فى سفر التثنية " **أن الرب جاء من طور سيناء، وأشرق من ساعير وتلألأ من جبل فاران** " [٣] .

وطور سيناء مظهر موسى عليه السلام وساعير جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السلام ، وفاران جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى ﷺ .

ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية الموجودة فى الوحى ، والتنزيل، والمناجاة، والتأويل، على مراتب ثلاث مبدأ، ووسط وكمال، فإن المجئ أشبه بالمبدأ، والظهور أشبه بالوسط، والتلألؤ أشبه بالكمال، عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجئ من طور سيناء ، وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ إلى درجة الكمال بالاستواء والتلألؤ على فاران ، وفى هذه الكلمات إثبات لنبوة المصطفى ﷺ [٤] .

وهكذا وضحت الميزات التى اختصت بها دعوة الإسلام ، وقد حــصرتها فى التمام والختام والعموم .

---

(١) سفر أشيعا الإصحاح الثان والأربعين فقرات ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٢) قصص الأنبياء صـــ٣٠٢

(٣) سفر التثنية الإصحاح الثان والثلاثون فقرة ٢

(٤) الملل والنحل جـــ١ صـــ١٩٤ .

الباب الرابع

تبليغ الدعوة الإسلامية



تمهيد :

إيصال الخير للغير يحتاج إلى أناس مخلصين، يعملون له ... وينصحون به ... ويبذلون الكثير من أجل مصلحة الآخرين ونفعهم .

والحمد لله فقد قضى سبحانه وتعالى بوجود طائفة من المؤمنين تعمل للناس، وتهتم بما يفيد الآخرين .

والمسلمون يملكون الخير كله، وقد جاءهم من عند الله تعالى نقياً واضحاً وعليهم أن يقوموا بإيصال هذا الخير للآخرين لتعم الهداية، وينتشر الأمان والخلق الكريم وبخاصة أن الله تعالى أوجب على المسلمين إيصال ما عندهم من خير لغيرهم، وحملهم مسئولية إفادة الناس ونفعهم .

إن الإسلام هو الخير كله الذي نزل الوحي به، وحفظه الله تعالى بالمحافظة على القرآن الكريم والسنة النبوية وبلغه رسول الله ﷺ لأصحابه وأمرهم أن يبلغوه لمن وراءهم، وترك في الأمة هذه السنة لتسير عليها، وتأخذ من رسول الله ﷺ طريقة البلاغ، ووسائله وأسلوبه وكافة الدروس المستفادة من بلاغ رسول الله ﷺ ودعوته .

لقد تلقى رسول الله ﷺ من ربه حقائق الإسلام كاملة تامة، وعر فه الله طبائع الناس، وعلمه الطريقة المثلى في تبليغ الدعوة، ووسيلة الحركة بالإسلام، ووضع أمامه أساسيات المواجهة مع كافة الأجناس والطوائف ليتعامل ﷺ مع عقول الجميع ونفوسهم وعواطفهم، وبذلك يتم البلاغ عن وعي، وتقدم الدعوة على بصيرة ووضوح .

إن تبليغ الدعوة إلى الناس أمر واجب، وهو أمر ضروري للإسلام والمسلمين ولغير المسلمين أجمعين .

أما ضرورته للإسلام فلما في البلاغ من إيجابية تلتقي مع إيجابية الإسلام الذي أنزله الله لينتشر بين الناس، ويتعامل مع واقعهم وأمانيهم .

وأما ضرورة البلاغ للمسلمين فلأنه يبرز قيامهم بواجب تحملوه وأمانة سيسألهم الله عنها .

وأما ضرورته لغير المسلمين فلأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويسعدهم بما جاء من عند الله تعالى وينقذهم من أوهام تسيطر عليهم يتصورونها الحق وليست هي بشيء أبداً .

وسوف أتناول في هذا الباب دراسة موضوع تبليغ الدعوة الإسلامية من ناحية أهميته، وحكمه، وضوابطه، ولذلك جاء مشتملاً على الفصول التالية :-

الفصل الأول : أهمية تبليغ الإسلام .

الفصل الثاني : وجوب تبليغ الإسلام .

الفصل الثالث : فرضية التبليغ بين العين والكفاية .

الفصل الرابع : حكم من لم تبلغه دعوة الإسلام .

الفصل الخامس : ضوابط التبليغ والدعوة .

والله الموفق ،

الفصل الأول

أهمية تبليغ الإسلام



تمهيد :

يهتم العالم المعاصر بالإعلان والدعاية لكل ما يريد إيصاله للناس، لما في ذلك من أثر بالغ في تحقيق أغراضه ومصالحه .

وهذه عادة حسنة لولا ما شابها من مبالغة في التحسين، وإحاطة الطلب بالإثارة والتشويق، لدرجة وصول الأمر إلى خداع الناس، وانقيادهم لرأي جماهيري زائف تحركه الدعاية، وتسيطر عليه الإشاعات، مع أن الأمر يحتاج إلى انضباط خلقي، والتزام بالحق ، وتمسك بالخير والصواب .

إن من حق الإنسان أن يعلم الحقيقة، ومن حقه أن يختار ما يريد، وأن يقتنع بما يشاء ... وعلى من لديه نصيحة أو علم أن لا يبخل به على أخيه، وأن يمده به لتحقيق الأخوة الإنسانية، وتتوحد الاتجاهات في العالم كله .

إن الأفكار والمعاني تحتاج إلى من يوصلها للناس لتحقيق الفوائد المترتبة عليها، والأخذ بيد الجماهير إلى الخير والسعادة، ونشر الرضى والسلام بينهم .

ولو انكفأ أصحاب المذاهب على ذواتهم وبعدوا عن الناس، ما تمذهب معهم أحد، ولاختفت مذاهبهم مع الأيام لا يدري بها إنسان .

والإسلام هو دين الله تعالى، وهو أسلم الطّرق وأحسنها لهداية الناس وتحقيق مصالحهم، ولذا وجب تبليغه إلى الناس ودعوتهم للدخول فيه .

وقد قام رسول الله ﷺ بهذه المهمة، وكلف المسلمين بها بعده، والأمر مستمر هكذا إلى يوم القيامة .... والكل مقر بضرورة تبليغ الإسلام وأهميته .

إلا أن نفراً من الناس حاول صرف الناس عن التبليغ بحجة عدم جدواه وهذا أمر مرفوض لما في التبليغ من فائدة ظهرت في الماضي وفى الحاضر، وظهورها في المستقبل أمر حقيقي .

وفى هذا الفصل سنناقش هذا الموضوع بتوفيق الله تعالى .

أهمية تبليغ الإسلام

تبليغ الإسلام هو القيام بإيصال الإسلام كما نزل من عند الله تعالى إلى الناس بلا زيادة أو نقص أو تبديل أو تغيير .

ولقد كان التبليغ هو مسئولية رسول الله ﷺ الأساسية حيث قال الله تعالى له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1].

والتبليغ أمانة ومسئولية المسلمين جميعاً بعد رسول الله ﷺ ، وعليهم أن يؤدوا هذه المسئولية كما تعلموها من رسول الله ﷺ .

وليس الإسلام بدعا في هذا فكل الأديان السابقة، وكل المذاهب تحتاج إلى من يبلغها للناس حتى تنتشر في المحيط الذي تقصده، ولولا عملية التبليغ لبقيت الأفكار حبيسة في مصدرها الأول، ولما آمن بها أحد من الناس .

إن التبليغ بصورة مطلقة عملية اتصالية تهتم بإيصال معلومات معينة إلى من يستقبلها لتحقيق غرض مقصود، فالساسة والقادة يوجهون شعوبهم، ويقودون أتباعهم بواسطة العمليات الاتصالية بمختلف صورها وألوانها .

والدعوة عملية اتصالية تتميز بإيصال المضمون كاملاً وبصورة تحقق الهدف منه، وتحيطه بآياته المقنعة، وعلاماته الظاهرة، والحضارات الحديثة تهتم بالبلاغ والاتصال لتنشر قيمها وسياساتها عند الآخرين .

ونظرة سريعة في وسائل الاتصال المسموعة والمقروءة والمصورة وغيرها تؤكد أن العالم كله يقدر الاتصال حق قدره، ويبذل في سبيله أقصى ما يمكنه لتحقيق أحلامه وأمانيه .

وصار من المستحيل أن يعيش فريق من الناس منعزلاً عن الآخرين، ولو حاول أن ينعزل لعجز، ولما استطاع .

إن العمليات الاتصالية تحقق غايات عديدة .

فهي تعرف الآخرين بماهية أصحابها، وتحيطهم بما لديهم من ثقافات ومعارف ليستفيدوا بها إذا رغبوا في ذلك .

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ .

وهي تساهم في نشر التقدم، والرقى لأن القوى القادرة تحـاول مـساعدة الضعفاء والمحتاجين ولابد أن تتصل بهم .

وتعمل القوى المسيطرة في العالم اليوم على خداع الآخرين بمشروعاتها، ووسيلتها في ذلك هو الاتصال .

إن المنظمات الأممية، والمؤسسات العالمية تعتمد هـي الأخـرى علـى العمليات الاتصالية لتقوم بدورها في مساعدة مستحقى المساعدة .

وكل هذا يوضح أهمية الاتصال بالآخر، وتبليغـه الرسـالة المقـصودة لمساعدته مادياً ومعنوياً، والنهوض به كإنسان يعيش في العصر الحديث .

والاستشراق والتبشير عمليات من هذا القبيل لأنهما يقصدان إجمالاً الاتصال بساكني الشرق لتبليغهم بشرى السيد المسيح كما يزعمون وإحياء العلوم الشرقية، وتحقيق نهضة حديثة تشبه ما عليه المستشرقون والمبشرون وغيرهم .

وكل هذا يؤكد أهمية التبليغ وضرورته، وبخاصة أن الإسـلام ديـن الله تعالى نزل للعالم كله لتحقيق سعادة شاملة للناس أجمعين، ولابد أن يصل للناس أجمعين .

إن تبليغ الإسلام يتميز بأنه لا يرفع فريقاً على غيره لأن الجميع عبـاد لله تعالى، ولا يعمل على استغلال ثروات جماعة لصالح جماعة أخرى، ولا يقسم الناس إلى سادة وعبيد، إنه يكرم الناس ويحارب الطبقية والعنـصرية وكافـة الفوارق بين البشر.

إن تبليغ الدعوة الإسلامية ينقل الإنسان من محيط البشر إلى مجال العلـم الإلهي، ولذلك يؤمن الإنسان بالحق، ويعمل به، ويعيش دنياه على نمطه ويلقي الله عليه، بعيداً عن نزوات البشر، وميلان الشهوة والهوى، ورغبـات طغيـان القوة البشرية الظالمة.

إن الإسلام دعوة الله تعالى وذلك سر تميزه وعظمته ولا يمكـن أبـدا أن يتساوى فكر البشر بتعاليم الله تعالى .

ولن يستغنى الإنسان عن دعوة الله تعالى، لأن الإنسان محـدود بالزمـان

والمكان، يتأثر بهما، وينفعل بسببهما مع بيئته وأقرانه، وأيضاً فـإن مكونـات الشخص تتحكم في صاحبها حيث نرى خلفيات الإنسان توجهه نحو غاية معينة تختلف غالباً عن غايات الآخرين .

ولعل ذلك هو السبب في اختلاف البشر في تفسير المفاهيم الإنسانية العامة ومن أمثال ذلك مفهوم " العدل " فإنه يأخذ في كل بيئة شكلاً معيناً، فما هو عدل فيه بيئته يكون ظلماً في بيئة أخرى، وقد يعدل الشخص مع بيئته، ولا يفعل ذلك مع الآخرين ... ومن أوضح الصور في هذا المجال نظرة الناس إلى الحريـة فهي في الغرب غيرها في الشرق وهكذا .

وقد يصل الإنسان بفطرته إلى الحق إلا أن الغضب قد يساوره أو تسيطر عليه اللذة فينقلب على الحق الذي أدركه .

وقد يقع التنازع بين الأفراد في بيئة واحدة، فتختلف اتجاهـاتهم، فتـرى الرجل يستحسن عين ما يستقبحه آخر، بل إن تقلب الأحوال تجعـل الـشخص الواحد يستحسن ما كان يستقبحه، أو يستقبح ما كان يستحسنه .

ونظرة موضوعية على مجموعة نشأت في بيت واحد تكشف مدى اختلاف أمزجة البشر وميولهم، وكثيراً ما رأينا الإخوة لأب وأم، يختلفون مزاجاً وعقلاً ونشاطاً وفكراً .

والله سبحانه وتعالى يعلم سر من خلق، ظاهره وباطنه، ويعلـم مـصلحة الفرد والجماعة، ويعلم المصلحة الدائمة والمنقطعة .

ومن هنا أتت الدعوة الإلهية على منهج البشر، شاملة للجميـع، واضـعة أسس الحياة على مفاهيم لا تختلف من مكان إلى آخر، تعتمد الفكرة القائمة على المبادئ والغايات فقط، بلا ارتباط بزمان أو مكان أو سلالة أو قوم .

والدعوة الإلهية تسلم الأمر لله لأنه الخالق، وهو الرب المتصرف في كافة الشئون، وما الإنسان مع هذا التسليم إلا خليفة لله في الأرض، وعليه أن يباشر كافة أوامر الله في الكون والحياة، ويتمتع بما أعطاه الله من نعم تمكنه من القيام بواجب الخلافة وتبعاتها .

وتجلت رحمة الله للإنسانية في الإسلام الذي أنزله وجعله خاتماً للأديـان وعاماً لسائر الناس، وأودع فيه من التعاليم ما يشمل كافة جوانب النفس والحياة، ويوجه الفرد والجماعة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وجعله حركة تتجه إلـى الناس حيث يوجدون، بواسطة دعاته المؤمنين به، المخلصين في حمله، الـذين يملكون الصفات التي تمكنهم من أخذ الناس إلى الخير، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

إن أهمية تبليغ الدعوة تأتي من عدة جوانب هي :-

الجانب الأول :

يتصل هذا الجانب بمصلحة الإنسان فلقد وصلت به الفلسفات البشرية إلى درك سحيق من الصراع والآلام التي لا نهاية لها ، ولن ينجو منها إلا بالعودة إلى الله تعالى واتباع الدعوة الإسلامية .

الجانب الثاني :

يرتبط الجانب الثاني بذاتية الإسلام نفسه، فقد أنزله الله للناس، ولابـد أن يصل إليهم على وجه مقبول، وصورة حسنة ليؤمنوا بـه، ويتمتعـوا بفوائـده ومزاياه .

الجانب الثالث :

يرتبط هذا الجانب بما تبذله التيارات الفكرية المعاصرة لنـشر أفكارهـا، والتمكين لسلطانها ... مع مهاجمة كل ما تتـصوره لمعارضـيها ... وأولهـم الإسلام ... ولذلك كانت أهمية تبليغ الإسلام للتصدي لكل فكر منحرف، ومنـع التيارات الضالة من الانتشار .

وكان من حكمة الله بالناس أن كلفهم بدينه، وأمـر المـؤمنين باسـتمرار الدعوة إلى هذا الدين حتى لا يغيب عن ذاكرة المؤمنين، أو يبتعد بيانـه عـن واحد ما من سائر الناس .

ولذلك وجب أن يستمر دعاة الإسلام في الدعوة لدينهم، ولا يتأثروا بوجود بعض المظاهر التي تمنع الخير، ولا يصرفهم عن التبليغ عدو لئيم يحاربهم، أو

منافق جاهل يقيدهم، وليتحملوا ويصبروا ويتحركوا لدينهم بذكاء وحكمـــة، ولا يتركوا لأعداء الله منفذا إليهم، لأن الشيطان مستمر في الإفساد، والمعارضـــون للدعوة، كثر عددهم، وتعددت وسائلهم، وعظمت إمكاناتهم.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين – بحـــق – " ولا تـــنس أن المـــضلين المخادعين في هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية ما لم يتهيـــأ لغيـــرهم فمن نواد تفتح، وصحف تنشر، وجمعيات تعقد، وأموال تنفـــق، وجـــاه يبـــذل، وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرد وإنما أوتيت من قبل الجهـــل وعـــدم صفاء البصيرة فوضعت بجانب حقائق الإسلام ما يتبرأ منه الإسلام[1].

وهذا يجعل الدعوة إلى الدين من أفضل الواجبات، وأحمد المساعي حيـــث أن الفائدة حينئذ محققة .

ومع ما للدعوة من فائدة فإننا نرى بعض الفلاسفة ينكرون فضل الـــدعوة، ويرون أن الناس جبلوا على صفات معينة، صنعتها البيئة والوراثة ولا أمل في تغييرها، ومن هؤلاء الفلاسفة أبو العلاء المعري، وشوبنهور وإسبينوزا .

يقول أبو العلاء :

وما قبلت نفسي من الخير لفظة　　　وإن طال ما فاهت به الخطباء

ويقول " شوبنهور " الألماني : يولد الناس أخياراً أو أشراراً كما يولد الحمل وديعاً، والنمر مفترساً، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم.

ويقول " أسبينوزا " الفيلسوف الهولندي : إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه تساوي قائمتين [2].

وهناك فريق من الناس يصد عن الدعوة باتهام القائمين عليها بتهم منفرة لا أصل لها، ووصفهم بالعجز والجهل والقصور، ويحـــاول وضـــع العراقيل التي

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح صـــ٩ .

(٢) مبادئ علم الأخلاق صـــ٧٦ .

تمنعهم من مواصلة العمل، **وبعد ذلك يدعي أن الدعوة لا تفيد .**

وفريق آخر يحارب الدعوة بإشاعة الشبه والأراجيف حول مصادر الإسلام

ونحن لا نوافق الفلاسفة وغيرهم في تشاؤمهم، ومناداتهم بعدم فائدة الدعوة ونرفض مزاعمهم، ونرى أهمية الدعوة، وضرورتها لإصلاح الناس، وندرك أنها مؤكدة الفائدة، شريطة أن يقوم بها القادر عليها المتصف بكل الصفات التي تحتاجها الدعوة وبخاصة في عالمنا المعاصـــر التي تنوعت أديـــانه، وكثرت مذاهبه، وأخذ الكل يعمل ويدعي ما ليس فيه .

إن الإنسان قابل للتغيير، في أخلاقه وغرائزه وطبائعه، ورسالات الرسل تؤكد ضرورة الإصلاح وحدوث التغيير فقد تغير الناس، وتدين الكثير، وعمرت الأرض بالإيمان، وعاش الناس طويلاً بدين الله تعالى، والمشككون في أهمية التبليغ يؤمنون بوجود أتباع لكل رسول وفى نفس الوقت كان له أعداؤه ومعارضوه .

يقول الشيخ على محفوظ : " إن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها، وكثيراً ما تؤدي بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها واشتداد خطرها، والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفئ نورها، وما قد يفقدها حياتها، وذلك بورودها مورد الغي والضلال، وانهماكها في اللذات والشهوات، وعدم المبالاة بارتكاب أنواع الفسق والفجور وسيئات البدع .

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها، ولا دواء لها إلا من مراهم الشريعة الغراء، المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ وغيرها [1].

ولعل أوضح ما يدل على إمكان تغيير الإنسان ما نشاهده من انتقال الأفراد من دين إلى دين آخر، ومن وضع إلى وضع آخر بسبب مقال قرأوه أو موعظة سمعوها، أو قدوة حسنة تأثروا بها وعايشوها .

وفرق كبير ظاهر بين إنسان التقى بغيره وتعلم، وتثقف، وبين إنسان آخر

---

(١) هداية المرشدين صـــ١٩ ، ٧٠ .

عاش منعزلاً بعيداً عن الثقافة والتعليم والناس .

إن فروقاً عديدة موجودة بين البدوي والحضري بسبب الاختلاط والثقافة .

وهناك ظاهرة أخرى نراها في انتشار صفات معينة بين أبناء المهنة الواحدة تختلف اختلافاً كلياً عن صفات الآخرين في مهن أخرى بسبب ما يحيط بهم من أحوال وأعمال .

إن العلوم الحديثة كعلم الاجتماع والأخلاق والنفس من العلوم التي تهدف إلى تغيير الإنسان للوصول به إلى المستوى اللائق بإنسانيته، كل بطـريقته، وعلم الدعوة هو الآخر يهدف إلى التغيير كي يندرج الناس جميعاً تحت لواء الدعوة وهديها .

ولو عدنا إلى التاريخ لنقف على مدى التغيير الذي أحدثه تبليغ الإسلام وقت ظهوره في مكة فلقد بعث رسول الله ﷺ وحده، وأخذ يدعو إلى الله تعالى بكيفيات متعددة حتى استجاب له الناس .

إننا حين نقرأ التاريخ نرى أثر رسول الله ﷺ الكبير بين الناس، فلقد حوّل الطاقات الخاملة الضالة التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام إلى نشاط وقوة تعمل لله، وتبذل كل طاقاتها في سبيل الله تعالى، وتنشر الإسلام في العالمين .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : عمد محمد ﷺ إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام، أضاعتها الجاهلية والكفر، والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة، وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار دفائنها، وأشعل مواهبها، ووضع كل واحد من أصحابه في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود أهم الأمم، يبين الله تعالى هذا الفرق فيقـول سـبحانه ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا

يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1].

عمد ﷺ إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى من أتباعه نوابغ كانوا من عجائب الدهر، وسوانح التاريخ .

أصبح عمر بن الخطاب الذي كان راعياً لأبيه لا شأن له عند الخطاب يشتمه وينهره[2]، أصبح عمر هذا مفاجأة العالم بعبقريته وعصاميته، يدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويؤسس دولة إسلامية تجمع ممتلكاتهما، وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام، فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال المثل السائر بين الناس.

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان يحارب معها في نطـــاق محلى ضيق إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصـــده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس، ويترك ذكراً خالداً في التاريخ .

وهذا أبو عبيدة وكان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق لا دور له فى الجاهلية فإذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام، ومروجها الخضراء، فيتركها هرقل متحسراً ويودعها الوداع الأخير ويقول لها: سلام عليك يا سورية سلام لا لقاء بعده .

وهذا عمرو بن العاص أحد عقلاء قريش، يسافر إلى الحبشة، للتضييق على المسلمين فيرجع خائباً، وإذا به يفتح مصر، وتصير له صولة عظيمة في الفتح والإدارة .

وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن ويفتح العراق وإيران .

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبذان في إحدى قرى فارس، لم يزل يتنقل من رق إلى رق، ومن قسوة إلى قسوة، إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها، وأعجب من ذلك أن هذه

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣ صـ٢٦٦ .

الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ، ويحمل على رأسه الأثقال .

وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد .

وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة بعد موته فيقول: لو كان سالم حياً لاستخلفته .

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه أبو بكر وعمر .

وهذا أبو ذر، والمقداد، وأبو الدرداء، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل، وأبي ابن كعب، تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام، فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين .

وهذا على بن أبي طالب، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي ﷺ من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً، يتكلمون فينصت الزمان، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ .

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصابت الجاهلية في مقتلها أو صميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً، ويفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ [١].

إن تبليغ الإسلام من أجل الفوائد للإنسانية كلها قديماً وحديثاً ويجب أن يستمر لتحقيق الخير للناس وضمان حقوقهم، وصيانة أمانيهم وأمنهم .

فإن قيل .

وأين فائدتها اليوم؟ والعالم يرتكس في مادية مغرقة، وعصبيات فاسدة،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ١٥٦ - ١٥٨ ط الاتحاد الإسلامي .

ويمرح في اللعب والهوى والشهوات ؟؟

إن قيل ذلك ؟ (وهو حق) نقول : كل ذلك يدعونا إلى ضرورة تبليغ جاد يؤثر في الناس بالحق، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

إن الدعوة إلى الإسلام تحتاج إلى الاهتمام بكافة جوانب عملية التبليغ ووضع كل منها في إطاره العلمي الصحيح، وحينئذ سيتحقق للدعوة ما تريد .

إن الدعوة إلى الإسلام بصوت خفيض، وبلا استعداد، وبلا مراعاة للواقع، ووسط نواقض لها لا تفيد ...

ومن هنا نقول :

أين هي الدعوة التي تنتظرون منها غاياتها ؟؟!!

إن الدعوة إلى الله تعالى اليوم في أمس الحاجة إلى منهج شامل يحقق للإسلام توضيحاً وبياناً، وحركة وانتشاراً .

لابد من دراسات علمية جادة تعرف بالناس، وطبائعهم وانحرافاتهم، ومذاهبهم، وأهم المثيرات فيهم، وبذلك يعرف الداء، وحينئذ يمكن وصف الدواء، وتنظيم تناوله، والاستفادة منه .

ولابد لهذه الدراسة أن تحدد الطرق والوسائل المناسبة لكل جماعة من الناس ليتم الاتصال بهم من خلالها، مع حماية الوسيلة وصيانتها ليستفيد بها الدعاة .

ولابد أن تضمن هذه الدراسة التعاليم الإسلامية التي تقدم للناس من ناحية تجزئتها، وتقديم الأهم على المهم، وتحسينها بما يتلاءم مع الناس لتؤتي ثمارها .

ولابد من فاهم للإسلام، متصف بالصدق والإخلاص، بعيد عن العنصرية وحب الدنيا، يعمل لله تعالى متجرداً من أية غاية، يحكمه إيمانه ودينه .

ولابد من تكاتف الأمة كلها خلف قيادة واعية مدركة لدورها مع الإسلام تعمل على إحياء المسلمين، وتحقيق يقظة شاملة تعيش لله وتعمل له وحده .

بهذه الدراسات وتطبيقها ينجح البلاغ، ويتحقق للناس في ظل الإسلام الخير والفلاح .

وبالجملة فإن الدعوة إلى الله تعالى هي العلاج الوحيد لصلاح العالم، ويجب أن يشمر الدعاة عن سواعد الجد حتى يتقنوا وسائل الدعوة، ويصلوا بدين الله إلى كل مكان في الوجود .

وعليهم أن يثقوا في نصر الله وتوفيقه .... ويقدموا الواجب عليهم ويدعوا النتائج لله، يحققها بقدرته ..... والله على كل شيء قدير .

الفصل الثاني

وجوب تبليغ الإسلام



تمهيد :

نزل الإسلام على رسول الله ﷺ وحياً من عند الله عز وجل، فبلغه ﷺ على وجهه الصحيح وأدى الأمانة التي بعث لها ، يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١].

وكلف أصحابه بالحرص على هذا الواجب، وحثهم عليه فقاموا به خير قيام .

وكانوا صورة عملية وقدوة مثالية يتعلم منها الناس يقول الله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[٢].

واستمرت الأمة على القيام بهذا الواجب أفراداً وجماعات إلى يومنا هـذا بقدر استطاعتها وكما ييسر لها .

ودعاة العلمانية والتنوير يعملون على إيقاف الدعوة إلى الإسلام لما في نفوسهم من غي وهوى، ويزعمون أن الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى التخلف والعودة إلى العصور الوسطى، وبذلك فهي دعوة لا يقبلها العقل، ولا تستقيم مع التطور .

إن صوت المعارضين لا قيمة له لأنه لا حجة له .

وفي هذا الفصل سنبين بإذن الله تعالى حتمية الدعوة إلى الإسلام، ونورد الأدلة المثبتة لوجوب القيام بالدعوة إلى الله تعالى .

والله الموفق ،،

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .

وجوب تبليغ ا الإسلام

تعاليم الإسلام ليست كائناً متحركاً بذاته حتى تصل وحدها إلى الناس، ولكنها مفهوم معنوي يطبقه مخلوق مكلف، بعد أن يدركه ويحيط به .

ولأنها هكذا أوجب الله تبليغها، فأرسل بها رسول الله محمداً ﷺ وأمره بتبليغها حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾(1).

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾(2).

وبذلك عرف الله رسوله ﷺ أن تبليغ الدعوة واجب، بل إن واجبه كله ينحصر في هذا التبليغ، فإذا بلغ ما أرسل به فقد أدى ما عليه، ومن هنا حرص رسول الله ﷺ الحرص كله على تبليغ الدعوة في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة وفى كل مكان أمكنه أن يبلغ فيه .

ففي مكة عرض دعوته على القاصي والداني من أبنائها، وكان يركز في البداية بصفة خاصة على الأشد قرباً، والأكثر ليناً، كزوجته خديجة رضى الله عنها، وأصحابه أبي بكر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين، وتحمل كثيراً من الأذى حيث كذبه كفار مكة واتهموه بالسحر، وحاولوا إغراءه بالمال والملك، وقد صبر لكل ذلك حتى هاجر ﷺ والمسلمون معه إلى المدينة المنورة.

وفى المدينة تأسست الدولة الإسلامية تحت قيادة النبي ﷺ وتحولت كافة الجهود لتبليغ الدعوة الإسلامية إلى كل الآفاق مع التدرج في التبليغ من البعيد إلى الأبعد، وهكذا حتى وصل خبرها إلى كان مكان بعد صلح الحديبية .

وفى سائر الأماكن بلغ رسالته فأرسل الرسائل والدعاة، واستقبل الوفود، وكاتب شيوخ القبائل ... وهكذا ، وتسمى مرحلة ما قبل الهجرة المرحلة المكية وتسمى ما بعد الهجرة المرحلة المدنية .

وخلال الفترة المكية والفترة المدينة وجدت الأدلة الكثيرة المثبتة لحكم تبليغ الدعوة، والدالة على وجوب هذا التبليغ، وهذه الأدلة ثابتة فى القرآن الكريم،

---

(1) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(2) سورة النور الآية ٥٤ .

وفى السنة النبوية وفى قناعة العقل وهي :

<u>أدلة القرآن الكريم :</u>

وردت آيات كثيرة تأمـر بالدعوة صـراحة وذلك كقوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(١).

وكقوله تعالى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾(٢).

وكقوله تعالى ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٣).

ومن الآيات ما ورد خبراً عن رسول الله ﷺ مع الدعوة، كقوله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾(٤).

وهذه الآيات تفيد الفرضية لأن الأمر مطلقاً يفيد الفرضية إذ لم يوجد ما يصرف معناه عن ذلك، وعند عدم وجود قرينة تمنع من إرادة ظاهر الأمر، ولا صارف له في هذه الآيات ولا قرينة، كما أن هذه الآيات لا تحتمل إلا معنى واحداً، ولذلك فهي قطعية الدلالة وإفادتها الفرضية لا معارض لها .

ومن الآيات الدالة على فرضية الدعوة ما جاء فيها الأمر بالتبليغ مثل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾(٥) والأمر بتبليغ الدعوة إيجاب لما تضمنه الأمـر، ومـن الآيات قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٦) والدعوة إلى الخير تعني الدعوة إلى الإسلام وهي هنا مأمور بها بواسطة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع وصيغة المضارع إذا سبقت بلام الأمر دلت على أن الأمر

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٥ .

(٣) سورة القصص الآية ٨٧ .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٥) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

مستمر ودلالته دائمة .

ومن الآيات الدالة على وجوب تبليغ الدعوة قوله تعالى ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[١].

فإن الأمر بالقيام هو أمر لمباشرة الدعوة، والأمر بالإنذار تبليغ للدعوة بطريقة الترهيب، كما أن التبشير تبليغ لها بطريقة الترغيب .

ويقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢].

وفى الآية بيان لوجوب الدعوة وإشارة إلى إثم من يتكاسل عن ذلك، لأن بيان ما في الكتاب هو تعاليم الإسلام المشتمل على البينات والهدى، ويجب تبليغها وعدم كتمانها ولأن الإنسان إن تكاسل تحيق به لعنة الله والناس .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[٣].

قال ابن كثير : " وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين، وبرهان عقلي وشرعي "[٤] وهذه الآية تشير إلى حاجة التبليغ إلى البصيرة والفهم والبيان لأن ذلك هو طريق النبي في البلاغ والدعوة .

وقوله تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[٥] يقول الطبري في تفسيره : " كان العلماء يقولون : ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها "[٦] لأنها بينت أن ترك النهي عن المنكر عمل ببئسٍ سيء .

---

(١) سورة المدثر الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٤٩٦ .

(٥) سورة المائدة الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٦) جامع البيان في تفسير آي القرآن جـ١٠ صـ٤٤٩ .

وقال تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] يقول القرطبي : " فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل ذلك على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام "[٢].

وقوله تعالى ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾[٣] بيان في أن القرآن الكريم أنزله الله تعالى وأوحى به للبلاغ والإنذار لمعاصري رسول الله وكل من يصل لمرحلة البلوغ إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٤] يقول الغزالي: "وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بيّن أن المسلمين به خير أمة أخرجت للناس "[٥].

وقوله تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٦] لقد بينت هذه الآية أن بني إسرائيل استحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله بسبب تركهم النهي عن المنكر، وهذا غاية في التشديد والوعيد، إذ علل استحقاقهم اللعن والطرد من رحمـة الله بتركهـم

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ صـ٤٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٩ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٥) إحياء علوم الدين جـ٧ صـ٧ .

(٦) سورة المائدة الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

النهي عن المنكر .

قال الزمخشري منددًا بمسلمي عصره حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : " فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلة عبئهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء ما يتلون من كلام الله، وما فيه من المبالغات في هذا الباب "(١).

الأدلة من الأحاديث النبوية الشريفة :

١) يقول النبي ﷺ " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً "(٢) وفى الحديث أمر بالتبليغ ولو بجزء يسير والأمر يفيد الوجوب .

٢) ويقول ﷺ " إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِهِ "(٣).

٣) ويقول ﷺ " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا " (٤).

٤) ويقول عليه الصلاة والسلام : " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ "(٥).

يقول الإمام النووي " وأما قوله ﷺ " **فَلْيُغَيِّرْهُ** " فهو أمر إيجــاب بإجمـــاع الأمة(٦) .

٥) وعن أبي ذر ﷺ قال: أمرنا رســول الله ﷺ أَنْ لَا يَغْلِبُونَا عَلَى ثَلَاثٍ

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ صـ٦٣٧ .

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل جـ٦ صـ٤٩٦ .

(٣) سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقم ٤٠٠٥ .

(٤) صحيح البخاري كتاب القسمة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه رقم ٢٤٩٣ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم ٤٩ .

(٦) شرح النووي على مسلم جـ٢ صـ٢٢ .

أَنْ نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَنُعَلِّمَ النَّاسَ السُّنَنَ "[١].

٦) يقول ﷺ : " أَلَا لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ "[٢].

٧) وقال ﷺ " نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ "[٣].

٨) عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟

قَالَ : نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ "[٤].

قال ابن العربي " فيه البيان بأن الخيّر يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغير عليه خبثه، ثم يحشر كل أحد على نيته "[٥].

٩) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "

إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[٦] ثُمَّ قَالَ كَلَّا وَاللَّهِ

---

(١) مسند أحمد كتاب مسند الأنصار باب حديث أبي ذر الغفاري ٢٠٩٤٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب القسامة والمحاربين والقصاص ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩

(٣) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع رقم ٢٦٥٦ .

(٤) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج رقم ٣٣٤٦ .

(٥) المصدر السابق بتصرف يسير .

(٦) سورة المائدة الآيات من ٧٨ إلى ٨١ .

لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا (١) أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ "(٢) .

١٠) وقال ﷺ " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ (٣).

١١) وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "(٤).

١٢) وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ لما أعطاه الراية يوم خيبر " انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ... فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"(٥).

١٣) وقال ﷺ : " الدِّينُ النَّصِيحَةُ " قالها ثلاثاً، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال: **" لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ "(٦).**

١٤) وقال ﷺ " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا (٧).

١٥) وقال ﷺ " لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ "(٨).

١٦) وقال رسول الله ﷺ " مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ "(٩).

---

(١) لتأطرنه : أي تعطفوا عليهن النهاية في غريب الحديث والأثر جـ١ صـ٥٣ .

(٢) سنن أبو داود جـ٤ صـ١٢١، ١٢٢ .

(٣) سنن الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقم ٢١٦٩.

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين رقم ٥٧ .

(٥) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل على بن أبي طالب ﷺ رقم ٢٤٠٦ .

(٦) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين .

(٧) صحيح مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنه أو سيئة ومن دعا ٢٦٧٤ .

(٨) صحيح اليخاري كتاب المناقب باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ ٧٠٢٢ .

(٩) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره رقم ١٨٩٣ .

١٧) وقال رسول الله ﷺ " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ "[١].

١٨) وقال رسول الله ﷺ " مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ "[٢].

١٩) وعن عدي بن عميرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ"[٣].

٢٠) وقال رسول الله ﷺ " مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا "[٤].

ودلالة الآيات والأحاديث على وجوب الدعوة مستفاد من عدة أوجه :

الوجه الأول :

الأمر بالدعوة والبلاغ في الآيات والأحاديث يفيد الوجوب إذ لا صارف للأمر عن الوجوب، ولم توجد قرينة مانعة من إرادة الوجوب، .... كما أن ورود الدعوة والتبليغ بصيغة المضارع مسبوقة بلام الأمر أوضح في الدلالة على الوجوب لأن الصيغة حينئذ تفيد الوجوب المستمر .

الوجه الثاني :

الإخبار بأن الدعوة والتبليغ هي عمل رسول الله ﷺ وهي رسالته يفيد وجوب الدعوة حيث خصها رسول الله ﷺ بهذا الاهتمام .

الوجه الثالث:

لعن الله من لم يقم بالدعوة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا دليل على وجوب التبليغ لأن اللعن لا يكون إلا على ترك واجب .

---

(١) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم ٢٦٨٥ .

(٢) سنن أبي داود كتاب الملاحم باب الأمر والنهي رقم ٤٣٣٨ .

(٣) مسند أحمد كتاب مسند الشاميين باب حديث عدي ابن عميرة الكندي ﷺ جـ٤ صـ١٩٢ .

(٤) سنن أبي داود كتاب الملاحم باب الأمر والنهي رقم ٤٣٣٩ .

<u>الوجه الرابع :</u>

المساواة في الأمر بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم دليل على وجوب الدعوة والتبليغ .

<u>الوجه الخامس :</u>

رتب الله تعالى الفلاح على من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا يدل على وجوبه .

<u>الوجه السادس :</u>

الوعيد الشديد لمن ترك الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل على وجوب التبليغ، لأن الوعيد يكون على ترك الواجب .

وبمجموع هذه الأوجه المستنبطة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتم القطع بوجوب تبليغ الإسلام على المسلمين .

<u>١ – الأدلة العقلية :</u>

ووجوب الدعوة إلى الله مقرر بالعقل أيضاً، لما يلي :

١) حرم الله تعالى تعذيب الكافرين قبل بعث الرسول ﷺ لدعوتهم وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[١] وحتى لا تبقى لهم شبهة عذر تجعلهم يقولون ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾[٢]وذلك يقضي بضرورة وجوب تبليغ الدعوة لأن السؤال والمؤاخذة ضرورة مقررة .

٢) <u>وأيضاً فإن القتال</u> ما فرض لعينه بل لحماية الدعوة إلى الإسلام، وإزاحة الطغاة المعارضين من طريقها، ومن المعلوم أن الدعوة باللسان أهون من الدعوة بالقتال، لأن في القتال مخاطرة بالروح والنفس والمال، وليس في دعوة التبليغ شيء من ذلك، فإذا احتمل حصول المقصود بأهون الدعوتين لزم اللجوء إليها .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢) سورة طه الآية ١٣٤ .

٣) وأيضاً فإن الأخوة الإنسانية تدعو إلى التناصح والتعاون والدلالة على الخير والمصلحة وقمة الخير الهداية الدينية والدعوة إلى الله تعالى .

يقول الإمام الغزالي : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخـرق وخربت البـلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد [١].

وينعي الإمام الغزالي أحوال الناس في زمانه بسبب تركهم واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانصرافهم إلى مداهنة السلاطين، والجري وراء الدنيا، وينادي ويحث على إحياء فريضة الأمر بالمعروف فيقول : وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحقت بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إما متكفلاً بعملها، أو متقلداً لتنفيذها، مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها، ومتشمراً في إحيائها، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، مستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها "[٢].

* * *

وبهذه الأدلة من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية، ومن العقل يتضح وجوب تبليغ الدعوة، ويصير ضرورياً على المسلمين أن يؤدوا هذا الواجب بما يليق به، وعلى وجه يكون هو البلاغ في الحقيقة، إذ لا يكفي الأداء بصورة باهتة، وعلى غير مستواه الواجب، وبخاصة بعد أن أصبحت البشرية مسلحة

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٧ صـ٤ .

(٢) إحياء علوم الدين جـ٧ صـ٤ .

بالعلم والمخترعات الكثيرة، وصار التخطيط والتنظيم سمة شاملة لكل ما في الحياة .

إن حال الدعاة في العالم الإسلامي اليوم بعيد عن صورته المنشودة ...

فهم منقسمون على أنفسهم خاضعون للتوجهات السياسية، وانقسام القادة وتنوع الشعوب، وما أكثر الانقسامات و

التفرق ؟؟؟

وكثير من الدعاة يتعصبون لمسميات أخطأوا فهمها وأساءوا إلى حقيقتها وتصوروا أنفسهم العاملين بها، إنهم يهدمون غيرهم، وينشرون الفرقة والهوان.

وهم قليلو المعرفة لأن رؤيتهم للآخر معيبة دائما، وهمهم هدم الغير والانتصار للذات .

وهذا وغيره يوضح الحاجة إلى بلاغ جاد، ودعاة على مستوى تبليغ الإسلام .

ولنعد حين الاعتبار والاستفادة إلى عصر رسول الله ﷺ لنرى توحد المسلمين، وفهمهم لدينهم، واهتمامهم بالتعليم والمعرفة وتقديرهم لسائر الناس ما لم يعتدوا ويظلموا، وإخضاعهم كل حياتهم لحكم الله تعالى .

الفصل الثالث

فرضية التبليغ
بين العين والكفاية



تمهيد :

الدعوة إلى الإسلام، وإيصاله إلى الناس بيناً واضحاً قضية واجبة، وقد بينا في الفصل السابق أدلة النقل والعقل المثبتة لوجوب الدعوة والتبليغ، كما ناقشنا هؤلاء الذين يذهبون إلى عدم فائدة الدعوة وعدم استجابة الإنسان للتغيير ... وأثبتنا أن الإنسان قابل للتبديل .

وعلماء النفس والاجتماع والأخلاق على رأس من وضع قواعد جديدة للتربية والتوجيه، وحددوا الأسس التي يمكن بها تغيير حياة الإنسان والترقي به سلوكاً وعملاً .

إن الإسلام يوجب الدعوة إليه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفى ذلك بيان واضح يثبت إمكانية تغيير الإنسان، وانتقاله من الفوضى إلى النظام وإخراجه من عبادة المادة إلى عبادة الله رب العالمين .

إن الدعوة إلى الإسلام واجبة .

وقد ثبت وجوبها بالقرآن الكريم والسنة النبوية وبالعقل ... الأمر الذي يلزم الأمة كلها ابتداء بوجوب تبليغ الدعوة كل بما يستطيعه، في البيت، وفى المسجد، وفى العمل .... وفي كل مكان يمكن للمسلم أن يبلغ فيه .

وعلى الأمة أن تخصص من بينها رجالاً تعلمهم وتربيهم، وتمكن لهم لأداء هذا الواجب العظيم .

وفى هذا الفصل سنبين مدى هذا الوجوب ومسئولية المسلمين تجاهه، مع تفصيل رأي العلماء في هذا الموضوع الهام .

والله الموفق ،،

فرضية التبليغ بين العين والكفاية

تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة قضية واجبة يتحمل مسئوليتها كل مسلم ومسلمة ابتداء ... ونظراً لصعوبة قيام الجميع بالدعوة من حيث أن بعضهم قد يكون أبكم أو أصم، أو لا يمكنه الإبانة عن ما في نفسه تأمل العلماء هذا الوضع ورأوا أن الواجب قد يكون كفائياً أو عينياً بصورة معينة أو بصورة مطلقة ومن هنا اختلف العلماء في حكم تبليغ الدعوة وانقسموا في هذا الحكم إلى ثلاث فرق :

حيث يرى الفريق الأول :

أن تبليغ الدعوة فرض على الجميع ابتداء ولكنه يسقط عنهم إذا أداه البعض منهم لأن هذا البعض قد أسقط بأدائه المسئولية عن الآخرين، وكأنهم يقولون إن حكم تبليغ الدعوة فرض كفاية .

يستدل هذا الفريق بما يلي :-

١) يقول الله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[١].

ففي هذه الآية أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمة الإسلامية[٢] كلها، وعلى كل مكلف أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر بيده، أو بلسانه أو بقلبه، فإذا ما تم الأمر والنهي بالبعض سقط عن الآخرين .

٢) يقول الله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣].

ومعنى الآية ليكن بعضكم دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر عاملين لنشر دين الله تعالى، والوجوب مستفاد من لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع ومنْ في الآية للتبعيض والمعنى ليكن بعضكم .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٢) هناك فرق بين أمة الإجابة وأمة الدعوة لأن أمة الإجابة هي التي آمنت، وأما أمة الدعوة فهي العالم كله الذي يجب أن تبلغه الدعوة، والأمة إذا أطلقت وقعت على الأولى .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

وحتى لو سلمنا أنها للبيان فإن الخطاب في الآية موجه للأمة كلها وأداء البعض لهذا الواجب كاف، وهذا يجعلنا **نشعر أن واجب تبليغ الدعوة واجبان، وهو ما يكون دائماً في فرض الكفاية، لأن الأمة كلها مكلفة به لا ينفك عنها الواجب إلا بعد أدائه، وهذا هو الواجب الأول : أما الواجب الثاني : فهو موجه إلى القادر عليه إذا أداه سقط الحكم عن الباقين .**

يقول الشافعي: "فرض الكفاية يكون واجباً على العموم وواجباً على الخصوص، فوجوبه على الخصوص يختص بالقادرين الذين هيئوا لذلك العمل الخاص، ووجوبه على العموم إنما يكون بإعداد هؤلاء القادرين وتربيتهم وإعدادهم " .

وهذا الرأى يتسع ليقوم بواجب الدعوة كل بما يقدر عليه حتى تصل الدعوة إلى كل إنسان في بيته، وفى أسرته، في بدو، وفى حضر .

ويلاحظ أن هذا الفريق يسقط واجب تبليغ الدعوة عن الأمة إذا قام بهذا الواجب بعض بنيها .

يقول العيني في الأحكام المستنبطة من باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ذكر أبو بكر بن العربي أن التبليغ عن النبي ﷺ فرض كفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقين، وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي والحكم لا يبوح به في الناس جميعاً لأن الجمع لم يكن كله عنده لكن يخبر به من حضره ليبلغ على لسان أولئك من وراءهم، قوماً بعد قوم، فالتبليغ فرض كفاية، والإصغاء فرض عين .

والوعي والحفظ يترتبان على معنى ما يستمع إليه، فإن كان ما يخصه تعين عليه، وإن كان يتعلق به وبغيره كان العمل فرض عين، والتبليغ فرض كفاية، وذلك عند الحاجة إليه .

ولا يلزمه أن يقول ابتداء ولا بعـده إلا إذا كلف بذلك ودعت الحاجة إليه، وتهيأت الظروف لسماعه، وأقبل الناس عليه، فقد كان قوم من الصحابة يكثرون الحديث عن رسول الله ﷺ فحبســهم عمر رضى الله عنه[١] لأنه لا يــريد أن

---

(١) عمدة القارئ جـ٢ صـ١٤٣ .

يوضع الوحي في غير موضعه .

والمستفاد من كلام العيني يدل على أن العلماء يبلغون، والمستمعون يطبقون، فإن رأس المستمع غيره يحتاج إلى نصح دعاه إليه، بعد أن يتخير الوقت والظرف المناسبين، وبهذا الفهم يعتبر كلام الحافظ العيني تأييداً للرأي الأول .

ويرى الفريق الثاني :

أن تبليغ الدعوة فرض عين على المستطيع فقط كالحج والزكاة، ويستدلون على ذلك بما يلي :-

١) يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[١].

والآية تدل على أن التبليغ واجب على طائفة من كل فرقة ابتداء، لأن معناها لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً للقتال، بل على طائفة منهم ملازمة رسول الله ﷺ للتفقه في الدين، وإنذار القوم بما تفقهوا حين الالتقاء بهم [٢].

٢) لو وجبت الدعوة على الجميع للزمت الشيخ الفاني، والمريض والمرأة وغيرهم، وهم لا يقدرون عليها، ومن القواعد المقـــررة في الشـــريعة أنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وهذا يدل على أنها واجبة على العلماء وحدهم .

٣) أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول : أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء :

- الدعوة إلى الخير .
- الأمر بالمعروف .
- النهي عن المنكر .

ومعلوم أن الدعوة إلى الخير والمعروف والنهي عن المنكـــر مشروطة

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

(٢) ملازمة طائفة الدعوة لرسول الله ﷺ أثناء القتال تكون بالخروج معه إذا خرج ﷺ قاصدة التعليم لتفقه الغزاة بعـــد رجوعهم من الغزو ... وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ مع المجاهدين فإن هذه الطائفة تبقى معه لتتعلم وتنذر المجاهـــدين بعـــد رجوعهم ... أو لتقوم هذه الطائفة بعد انتهاء القتال بتعليم القاعدين ما نزل أثناء الجهاد، وأثناء مكثهم مع رسول الله ﷺ .

بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فثبت بهذا أن هذا التكليف يتوجه إلى العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ ﴾[١].

الوجه الثاني : إذا أجمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية كما ذهب الفريق الأول فإن المعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا كان الأمر كذلك كان المعنى ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً على البعض لا على الكل من البداية والله أعلم .

ويذهب الفريق الثالث :

إلى أن واجب التبليغ فرض على الأمة كلها ولا يسقط عن أحدهم بأداء غيره بل الكل مسئول عن الدعوة ابتـداء وانتهـاء مسـتدلين بقول الله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢] على أن من في الآية بيانية، والآية دعوة للأمة كلها لتنظيم تبليغ الدعوة، والقيام بأعباء الرسالة، والتذكير بالإسلام دائماً بين الأفراد والجماعات، وبذلك تعيش أمانة الدعوة في قلب كل مسلم، وعليه أن يبلغها لنفسه وأهله وكل من يتصل بهم، ويساهم بماله، وبكل ما يمكنه في حركتها .

ومعنى الآية على هذا الرأي لتكونوا دعاة للخير آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، فإذا تم هذا فهو الفلاح لكم والصلاح، ولا يمنع الواجب العام أن تقوم طائفة بالتخصص في الدين، فتفقه أحكامه، وتقف على أسراره حتى يكونوا مرجعاً للجماعة عند الفتيا، وسنداً عند ظهور الشبهات، وبذلك يتحمل كل فرد في الأمة مسئوليته في التبليغ على قدر طاقته، ويكون المتخصصون طليعة الدعاة، وأصحاب الصف الأول .

أمـا إذا كانت من تبعيضية فيكـون الكلام منصـرفاً إلى تلك الجماعـة

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

المتخصصة في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي لتخصصوا جماعة تقوم بهذا الواجب على أن يكون الجميع من ورائهم يتحملون مسئولية الحماية والمساندة، والاشتراك كل حسب طاقته ومكانته .

والرأي الثالث هو الراجح، لاتجاه الخطاب في سائر الآيات إلى الأمة، مع تقرير إيجاب خاص على العلماء القادرين، وإيجاب عام على الأمة.

وأيضاً فإن هذا الرأي يحتوى في مفهومه على الرأي الأول الذي يليه في الرجحان، والعالم اليوم بما فيه من صراع واختلاف يجعلنا نسوق الرأي الثالث ونرجحه لتبقى الأمة مشاركة للدعاة، وتتحمل مسئولية القيام بواجب الدعوة التي تحتاج إلى جهد الجميع ومشاركة الجميع .

ومن هنا اختصت طليعة الدعوة بجماعة خاصة تميزت بالعلم والإخلاص، ومحبة الدعوة، لأنهم يأمرون بأشياء وينهون عن أخرى، وذلك يستلزم سبق العلم بما يدعي إليه، واستخدام الوسيلة المناسبة للدعوة، ومعرفة المدعوين، لأن الجهل في هذا المقام ربما يضر أكثر، ولأن الجاهل لا يفرق بين المعروف والمنكر، وربما يدعو إلى المنكر وهو لا يدري، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه، وأيضاً فإنه لا يعرف الأسلوب المناسب فيغلظ في موضوع اللين، ويلين في موضع الشدة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً فثبت أن هذه التكليف متوجه إلى العلماء للفهم والتبليغ والإقناع، ولمن وراءهم من الأمة بالدعم والمساندة والحماية والتأييد، يقول السيوطي، في هذه الآية دليل على أن الدعوة إلى الله واجب يعاقب الجميع عليه حين يترك[1].

وعلى هذه ففقه الدين لا يقف عند الفهم في حد ذاته، بل لابد من إبلاغه إلى الناس بعد تفقهه وتحمل أمانته، والشعور الدقيق بضرورة خدمة الإسلام في صدق وإخلاص .

يقول الشيخ أبو زهرة : " إن التبليغ واجب على المؤمنين من حيث أنه **واجب كفائي وعيني معاً**، وأنه ليس للمسلمين أن يتقاصروا عن أدائه، وعليهم

---

(١) الإكليل صـ٥٦ .

أن يلوموا أنفسهم إذا أصابهم ضعف في سبيل الله، أو وهن وتقصير، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الناس كافة لا فرق بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، إنهم إن استمروا على التبليغ كانوا طالبين للعلو بإعلاء الحق فلن يهنوا ولا يستكينوا، ولا يراموا بذل أبداً، ويكونوا الأعزة لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولن يكونوا طعمة لأهل الشر في الأرض وطغاتها، ولن يتوهوا في غياهب التاريخ، ولن يملك الخصوم من أمرهم شيئاً، بل تبقى لهم بالدعوة القيادة والسيادة يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾(١).

ويجب أن يراعي الداعية اختيار الوقت والظرف المناسبين للتبليغ، فليس الأمر في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ للوجوب الفوري، وإنما المختار أنه للوجوب مطلقاً ليؤدي في الوقت المناسب كما يرى الداعية.

يقول صاحب كتاب فواتح الرحموت " والمختار جواز تأخير تبليغ الحكم المنزل إلى وقت الحاجة وهو وقت تنجيز التكليف حينئذ(٢).

إن التبليغ إن أدى في غير وقته المناسب، وظرفه الملائم لم يحدث الاتباع والتأثير، وهذا مالا ترجوه الدعوة لنفسها، وقد أمر الله تعالى بمراعاة هذه الملاءمة في الوقت والظـرف المنـاسبين، فقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٢) فواتح الرحموت جـ٢ صـ٤٩ .

(٣) سورة الأعلى الآية ٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٨ .

ومن هذا نخلص إلى أن التبليغ **فرض عين على الجميع**، وأنه مسئولية العلماء الداعين في الدرجة الأولى لأنهم الذين عاشوا الدعوة، وخبروها تعليماً وتعلماً، والأمة من ورائهم تعينهم وتمدهم بما يحتاجون إليه حتى تنجو من عقوبة التقصير إن حدث ذلك، لأن تقصير العلماء يجعل الإثم واقعاً على الجميع، وإن أدى الجميع واجبهم في تكوين الدعاة فعلموا الدعوة كعلم، وخبروها كفن يراعى أسلوب الأداء وطريقة التأثير، والقدرة على الإقناع السهل، والبلاغ المبين إن حدث ذلك فالمسئولية على الدعاة وحدهم .

إن الأمة الإسلامية بجميع أفرادها ملزمة اليوم أكثر مـــن أي وقت مضى بأن تقوم بواجبها، لأن الأفكار تتصارع بوعي وقوة، والأمم تبذل الكثير من أجل نشر مبادئها في الناس، ولا يصح أن يقصر المسلمون إذاً، خاصة وقد تحررت الأوطان، واستيقظت العقول، وتقدم العلم في كل المجالات .

إن الدعاة ليسوا جنساً معيناً، ولا طبقة مميزة، إنما هم أفراد تثقفوا وأراد الله بهم خيراً ففقههم في دينه، ومكنهم من المعرفة به، وأصبحوا أمام الواجب وما عليهم إلا أن يحملوا المسئولية وينطلقوا بها، مبلغين دعـــوة الله إلى الناس منكرين لذواتهم، مؤمنين بأن سعادتهم في نجاح مهمتهم، إن كل أملهم هو إبلاغ الدعوة من غير بحث عن مصلحة ذاتية لهم، لأنهم دعاة لله يعملون ويتركون النتائج إلى الله يجازي عليها كما يشاء ويريد .

يقول الشيخ ابن باز : بالنظر إلى عموم البلاد واتساعها فالواجب وجود طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جل وعلا في أرجاء المعمورة، تبلغ رسالات الله، وتبين أمر الله عز وجل بالطرق الممكنة، فإن الرسول ﷺ قد بعث الدعاة وأرسل الكتب إلى الناس، وإلى المملوك والرؤساء ودعاهم إلى الله عز وجل، والأمة كلها مسئولة عن إيجاد هؤلاء الدعاة .

فعند قلة الدعاة، وكثرة المنكرات، وغلبة الجهل كحالنا اليوم، تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته، وبالنسبة إلى بقية أرض الله، وإلى بقية الناس يجب على العلماء حسب طاقاتهم، وعلى ولاة الأمر حسب طاقتهم،

أن يبلغوا أمر الله بكل ما يستطيعون، وهذا فرض عين عليهم على حسب الطاقة والقدرة [١].

فإن قيل : **كيف تجب الدعوة على الأبكم والأصم، وغيرهم من أصحاب الأعذار ؟**

نقول لمن سأل أو يسأل هذا السؤال : **هؤلاء وأمثالهم يدعون غيرهم والقريبين منهم بالقدوة الطيبة، والعمل المستقيم وهذا يكفيهم .**

وينبغي هنا أن نرد بعض الشبه التي تثار لإبطال واجب التبليغ، وتثبيط همة رجال الدعوة الإسلامية تجاهه وذلك فيما يلي :-

١) **يقولون** : تبليغ الدعوة واجب على الدعاة وحدهم، وعلى سائر الأفراد من بعدهم أن لا يشغلوا أنفسهم بهذا الأمر .

ونرد عليهم : بأن المراد بالدعاة العلماء عموماً، وهذا لا يعني ضرورة تخرجهم من مدرسة معينة، بل إن العلم يتعلق بتعلم جزئية بسيطة في الدين.

فمن تعلمها صار عالماً بها، ووجب عليه حينئذ تبليغها ... **ومن من المسلمين لا يعرف جزئية من الدين ؟!**

إن كل مسلم يعرف عقيدته، ويفهم العبادات التي يؤديها، ويحيط بالأخلاق الإسلامية التي أمر بها، وقد أوجب الفقهاء على كل مسلم أن يعلم أحكام ما يلتزم به من عقيدة وعبادة، وما يحتاجه في عمله ونشاطه، وبذلك فهو عالم، وعليه حينئذ أن يبلغ أهله وقومه بما علم وإلا كان آثماً، على أن التبليغ وإن قام به الدعاة، فإن على الأمة أن تشاركهم إيجابياً، فتسمع لإرشادهم وتطيع، وتمدهم بالمال والقوة والعدة.

إن تشابك الأمور في العصر الحديث وتسابق الأمم في فرض ذاتيتها على غيرها، واشتداد قوة الباطل، كل ذلك يؤدي إلى ضرورة قيام كل مسلم بخدمة دينه والعمل له كل في حدود إمكاناته وعلمه ونشاطه .

إن إلزام النفس بطاعة الله دعوة ذاتية وكلّ مسئول عن ذلك ومكلف به .

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ٣٣٤/١-٣٣٦ للعلامة الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز ط ١٤٠٨هـ

٢) **يقولون** : إن أمر الدعوة شاق، وفوق الطاقة، والله تعالى يقول ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[١].

ونرد عليه : بان هذه علة واهية، فلقد كان تبليغ الدعوة في عصر النبي ﷺ أشق من كل ما نرى، ومع ذلك تحمله المسلمون وصحابته ﷺ ولقوا في سبيله العنت والأذى والموت، وكان شعارهم جميعاً .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وكيف يكون هذا عذراً للمسلمين عن الدعوة في الوقت الذين يشاهدون فيه المبشرين رجالاً ونساء يتركون بلادهم الغنية المتقدمة إلى أواسط أفريقيا ويتحملون المشاق في الأحراش والأدغال من أجل نشر باطل ؟!

إن على المسلم أن يتحمل المشاق لله ما دام العمل في خدمة أوامر الله تعالى، فلقد شرع الله الجهاد وفيه فناء النفس والروح لغايات عليا تستحقه ... أيقال حينئذ يترك الجهاد خوفاً من هلاك المجاهدين !!

إن على المسلمين تحمل المسئولية مهما احتاجت إلى تضحيات .

علماً بأن واجب الأمة الإسلامية الوقوف خلف من هيأتهم للدعوة، تحميهم وتدفع عنهم ما داموا يدعون بالحسنى، وحينئذ تسهل عملية الدعوة .

إن الدول تحمي سفراءها ورجال السياسة الذين يمثلونها في الخارج، وتتعامل الدول مع الدبلوماسيين فيما بينها بالمثل ...وهذا يشجعنا على المناداة بإعلان هذه الحماية للدعاة .

٣) **يقولون** : إن الدعاة اليوم في مؤخرة الصف الاجتماعي وما الذي يدفع الدعاة إلى تحمل هذا الوضع المزري ؟

ونرد عليهم : بأن هذا وهم زينه الضلال والشيطان، فإن الدعاة لن يكونوا أبداً في المؤخرة، لأن المؤمنين الصادقين ينزلون منزلة رائدهم الأول سيدنا رسول الله ﷺ **وأيضاً فإن الداعية المخلص** ينال منزلة في الناس يتمناها كبير

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

لنفسه، ومن هؤلاء كثير في المجتمع .. وكيف ينتظر الداعية تقديره من الناس وقد أخذه من الله وهو يقول له ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] فإن كانت تلك منزلة قول الداعية فما بالك بشخصه ؟

وليأخذ الدعاة صحابة رسول الله قدوتهم، وكيف كانت منزلة الدعاة فيهم ... لقد ذهب مصعب إلى المدينة داعياً، ومكث بها عاماً قبل الهجرة لقبوه فيها بالقارئ والمقرئ تقديراً له ... وبقى ذكره في العالمين .

إن المؤمن بصورة عامة، والدعاة بصورة خاصة يأخذون عزتهم من عزة الله، وكرامتهم من تقدير الله ويعلمون أن الحقيقة واضحة، في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] وفى قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[3] ولذلك نراهم لا يتأثرون بالنظرات المادية، ويعملون لله بجد وإخلاص .

٤) **يقولون** : إن الباطل انتشر والفساد عم ولا حيلة للدعاة .

ونرد عليهم : بأن انتشار الباطل أدعى للدعوة والواجب على الدعــاة أن يبينوا دينهم، ويظهروا حقيقته فقط ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[4] .

وهل انتشار المرض يؤدي إلى هروب الأطباء ؟!

وهل تتحقق غاية بلا عمل ؟!

وهل انتشر الإسلام أولاً والمسلمون قعود؟!

إن الدعاة هم رجال الصف الأول في مواجهة الفساد، وعليهم أن يستعدوا لذلك، وكلما كان إخلاصهم كان نجاحهم ... وليعلموا ابتداء أن الطريق طويل والعمل شاق، وأن عليهم أن يحملوا الأمانة الواجبة التي سوف يسألهم الله عنها

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

يوم القيامة .

لقد كان الصحابي يقابل إمبراطور الروم وحده، ويدعوه بكل قوة، لا يهاب سلطانا، ولا يخاف من قتل وأذى ... فليكن هؤلاء قدوة وأسوة لدعاة العصر وعلمائه .

٥) **يقولون** : لا تكليف بتبليغ الدعوة لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[١].

ونرد عليهم : بأن معنى الآية أنكم إذا استقمتم كما أمرتم، وأديتم الواجبات التي من جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يضركم من اشتد به هواه، وتطوح به في واد سحيق من الغواية، وقد رأى الصديق أبو بكر رضى الله عنه هذا التأويل المنحرف للآية من بعض المنافقين فقام في الناس خطيباً وقال : " **أيها الناس إنكم تقـرءون هذه الآية وتؤولونهـا على خلاف تأويها** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ **وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول " ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** "[٢].

وروى عن ثعلبة الخشني : **أنه ســأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى** ﴿ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ **فقال ﷺ : يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العوام، إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم .**

قيل : بل منهم يا رسول الله .

قال : لا بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون عليه أعواناً[٣].

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

(٢) رواه أبو داود كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ٤ صـ٤٣٣٨ .

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة المائدة، جـ٥ صـ٣٠٥٨ .

وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون : فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم [1].

ويقول ابن تيمية : " إن الآية تدل على وجوب تبليغ الدعوة، لأن الاهتداء يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال [2].

يقولون : إن الدعوة مبلغة، والأئمة والوعاظ في كل مكان، والمراكز الإسلامية منتشرة في العالم كله .

ونقول : نعم الأئمة كثيرون، والمراكز منتشرة، ولكنها كثرة كغثاء السيل لا تسمن ولا تغني من جوع .

يتضح ذلك حين نتأمل أحوال الدعاة، ووضع المراكز الإسلامية ..إذ نرى مستوى الأئمة والوعاظ، ومقدار فهمهم للإسلام، وحرصهم على نجاح الدعوة والبلاغ.

إنهم تحولوا إلى موظفين ينتظرون رواتبهم أول كل شهر ... ويعيشون أيامهم بلا هدف، بعدوا عن القراءة، وأهملوا المعرفة، وتركوا الإخلاص لله فضاعوا في متاهات الحياة، وصاروا عالة على الدعوة .

أما المراكز الإسلامية ففيها انقسامات كثيرة ... كل منها يتبع دولة وجماعة، يحابي من يحابيها ويعارض من يختلف معها، مع أن الإسلام دين واحد والدعوة إليه يجب أن تستمر واحدة .

إن الدعوة في حاجة إلى المخلصين الذين يجعلون غايتهم رضى، الله والعمل لدينه ... وما زلنا أمام وجوب تبليغ الدعوة ننادي ونؤكد .

وأخيراً فإننا نقول إن الدعوة واجبة، وأنه لا عذر للدعاة في إهمالها وعلى الأمة أن تقوم بواجبها لتسيير أمور الدعوة، وإعانة الدعاة، وتقوية شئونهم وأن يكونوا خلف الدعاة لمؤازرتهم، وتحقيق هيبة لهم عند المدعوين .

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صـ٨ .

(٢) أحكام القرآن الكريم جـ٢ صـ٣١ .



الفصل الرابع

حكم من لم تبلغه دعوة الإسلام



تمهيد :

الإسلام دعوة الله للعالم كله، والمسلمون مسئولون عن إيصال دينهم إلـــى الناس أجمعين، وعليهم أن يستعدوا لمواجهة الناس على أي حال يكونون وفـــى أي موطن يقيمون، وبأي لغة يتحدثون، وبأسلوب واضح يحدد المطلوب، ويبين الهدف، ويقنع العقل، ويرضى الشعور، ويخاطب الوجدان .

إن واجب تبليغ الدعوة يحتاج إلى جهود عديدة، وطاقات مديدة، لأن العالم واسع الأرجاء، متنوع في كل شيء، وعلى الدعاة أن يكونوا على مستوى هذا العالم الفسيح .... في المدن والبادية .... في الـــسهول والـــصحاري ... فـــي مناطق الاعتدال والبرودة .... وهكذا .

إن الناس إذا لم تبلغهم دعوة الإسلام على وجهها الصحيح فهم معـــذورون عند الله، وستكون لهم الحجة عند الله وهو يسألهم عن هذا الدين، ولأنهم حينئـــذ سوف يقولون ما حكاه الله عنهم في قولـــه تعـــالى ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[١].

لقد استشعر المسلمون الأول مسئولية تبليغ الإسلام فحملوه إلـــى أطـــراف الدنيا، وجعلوه رسالتهم وحياتهم، وكانوا نعم الناس، إخلاصاً لله، ودعاة لدينـــه، ولذلك تركوا ديارهم وأموالهم وأولادهم ونشروا الإسلام في العالم كله مجاهدين في سبيل الله تعالى .

وعلى المسلمين اليوم وفى مقدمتهم الدعاة أن يقدروا هذه المسئولية ويعملوا لها وفى هذا الفصل سنبين بمشيئة الله تعالى حكم من لم تبلغه الدعوة الإسلامية

والله الموفق ،،

---

(١) سورة طه الآية ١٣٤ .

حكم من لم تبلغه الدعوة

سبق أن ذكرنا الأدلة الكثيرة على وجوب تبليغ الدعوة الإسلامية وفصلنا القول في وجوبها على الأمة الإسلامية، وعلى الدعاة القادرين على حملها إلى الناس أجمعين .

ومن شروط التبليغ أن تكون الدعوة واضحة في ذهن المستمع، لأن خلوها من الوضوح لا يبين شيئاً، وربما يعطي عكس المقصود من التبليغ، كما أن وصولها إلى الناس على عكس صورتها الصحيحة لا يعد بلاغاً في الحقيقة، ومن هنا كان دور الرسول ﷺ مع آيات القرآن الكريم المبلغة لتعاليم الدعوة، بياناً للخفي، وتوضيحاً للغامض، وتفصيلاً للمجمل، وتقييداً للمطلق، وتخصيصاً للعام وهكذا، مما جعل الدعوة واضحة بينة أمام الجميع .

وقد ظهرت أهمية الوضوح للدعوة أكثر بعدما رأينا أعداء الدعوة يعرضونها لأتباعهم بعكس صورتها، ويذكرون لهم أن الدين عامة والإسلام بخاصة أفيون مخدر للعقول، وأنه ملازم للتخلف، وهذا التصوير يصد الناس عن الدعوة ويبعدهم عن الإيمان بها، لذلك كان الوضوح والبيان شرطاً أساسياً في تبليغ الإسلام .

ومن المعلوم أن الدعوة الإسلامية فطرية النزعة، بمعنى أنها تتفق مع حاجات النفس السوية، وتلتقي مع قناعات العقل الرشيد، ومن هنا كان وضوح الدعوة عاملاً من عوامل الاقتناع بها، والتحمس لها، وسبباً عاماً لجذب النظر العقلي، وتحريكه إليها عندما يدرك وضوحها فيرى ويحلل ويؤمن .

وفرضية التبليغ على هذا النحو أمر مقدر منذ بعثة النبي ﷺ فلقد بلغ الرسول دعوة الله بأمانة بالغة ، واستمر السلف الصالح على نمطه، وواجبنا أن نكمل المسيرة .

ومع ذلك فإن نظرة موضوعية إلى العالم المعاصر تكشف لنا حقيقة سيئة تشير إلى قصور واضح مع هذا الواجب، يقول الشيخ محمد الغزالي : إن سكان العالم اليوم يزيدون على ألفي مليون إنسان، وعدد المنتسبين إلى الإسلام بينهم

يقرب من خمسمائة مليون، أما البقية الضخمة فليست كذلك، فيها ألف مليون وثني وشيوعي لا صلة لهم بالله ولا يتبعون أحداً من الأنبياء .

وهناك نحو خمسمائة مليون نصراني منقسمون بين الكنائس النصرانية المتعددة والمتعارضة .

وهناك شر ذمة من اليهود متمسكون بالهوى، ويعيشون على الضلال، وبين المسلمين المنتسبين إلى الإسلام جماهير ترث الإسلام اسماً فحسب وتتبع في حياتها ما بثه الغربيون من أنظمة وقوانين أغلبها من إملاء الهوى والشيطان

حينما ننظر في هؤلاء المسلمين ونتأمل في الألوف المؤلفة من غير المسلمين، ونفكر في مصير كل هؤلاء عند الله نلتمس الحقائق التالية :-

١) هناك كثرة تتسمى باسم الإسلام ولا تعرف فيه شيئاً لا في عقيدة، ولا في عبادة، ولا في حكم، وهي تعيش بين الناس لا تعي شيئاً .

٢) وهناك عديد من البدو وسكان القرى يعرفون القشور ولا يشغلهم أن يعلموا ويعرفوا .

٣) وهناك ألوف مؤلفة تعتبر في حكم من لم تبلغه الدعوة أصلاً، فهي إما أن تجهل كل شيء عن بعثة محمد ﷺ وإما أن تعلم عنه وعن دعوته مفتريات روجها أعداء الإسلام .

٤) وهناك " أهل الكتاب " وهؤلاء يتبعون الأحبار والرهبان، ولا يعلمون شيئاً عن الإسلام، أو يعلمون عنه صورة مشوهة قدمها رؤساؤهم إليهم[١].

٥) وهناك أتباع المذاهب الضالة الذين يعبدون حجراً أو بقراً أو ناراً .. أو غير ذلك ولا يعبأون بغير ما هم فيه، ويطيعون السدنة فقط، ولا يلتفتون لغيرهم

٦) وهناك من لا دين له أصلاً ويرى في الوقت نفسه أن في إلحاده حريته، وفى كفره تحقيق ذاته .

إن مسئولية الأمة الإسلامية أمام هذا الواقع مضاعفة، وحسابها عند الله شديد ... لأنها تعلم يقيناً أن جاهلية العصـــر جاهلية عالمة، مثقفة، قــوية ...

---

(١) مع الله صـــ٥٧ – ٦٠ بتصرف وقد طبع الكتاب طبعته الأولى عام ١٩٦٣ م

والواجب أن تواجه الأمة هذه الجاهلية بقوة مكافئة .

أمام هذه الحقيقة يجب أن نوجه اللوم إلى أنفسنا وإلى أمتنا لأنها أهملت مسئوليتها، وعاشت بعيدة عن دينها، حتى أصابها ما أصابها من ضعف مادي ومعنوي .

إنها لا تملك العلم المادي الذي تسير به الحياة ... ولا تملك غذاءها .. ولباسها .. وحاجاتها ....لقد أصبحت عالة على هؤلاء الذين كلفت بدعوتهم ... ثم نسأل ....

هل يؤثر الضعيف في القوى ؟

وهل يسمع القوي المتسلط صوت الضعيف ؟

وهل للفقير المحتاج أن يوجه القوى الغني ؟!

إن كثيراً من دعاة الباطل يستشهدون بضعف الأمة الإسلامية وهوانها على ضعف عقيدتها ودينها، ويقولون للعامة فيهم : هذا هو الإسلام، إنه تخلف ورجوع إلى العصور القديمة، ويزعمون لهم أن الإسلام يسئ للمرأة ويشجع العنف ولا يعترف بحقوق الإنسان .

إن الأمة المسلمة تضر بواقعها دينها، وتصد الآخرين عنه، بدل أن تفيده وتنشره وتعطي لأعدائها مبررات الإفك والافتراء .

ولولا ما في الإسلام في قوة ذاتية لضاع كل شيء .

إن كثيراً من عقلاء العالم يدركون هوان المسلمين، ولا يربطون واقع المسلمين بدينهم، ويتدبرون في القرآن الكريم وفى السنة النبوية ويدخلون في الإسلام، عن اقتناع، وسيبقى الإسلام قوة صامدة بذاته وبجهد بعض بنيه المخلصين .

لقد وضع كثير من علماء الغرب مؤلفات يدل على قناعتهم بصدق الإسلام وإن لم يؤمنوا

ومع ذلك نرجو للأمة الإسلامية يقظة وعملاً لتعيد البسمة إلى القلوب مرة أخرى، وتحيي مجد الإسلام وعظمته بالعلم والعمل والالتزام بالأخلاق الحسنة

والعمل النبيل والتقدم الخيّر في المجالات النظرية والعملية .

ولكن ...

ما حكم الإسلام في غير المسلمين اليوم ؟

وبم ينظر الإسلام إليهم رغم ما هم فيه من فساد، وبغي، وعدوان ؟

نرجع إلى فقهاء المسلمين وعلمائهم القدامى لنرى ما ذهبوا إليه .

لقد اختلف علماء الإسلام حول السبب الموجب للتكليف وانقسموا إلى فريقين .

فريق يرى أن التكليف يتم بالعقل، وعلى ذلك فكل عاقل مسئول عن إيمانه بالله، وإن لم تبلغه دعوة الإسلام، وأصحاب هذا الرأي هم المعتزلة وجماعة من الأحناف .

وفريق ثان يرى أن التكليف لا يكون إلا بالشرع، وعلى ذلك فالإنسان غير مسئول إلا إذا أتاه شرع الله تعالى وأوصله المسلمون إليه هادياً إلى الحق، وموضحاً أمامه الطريق المستقيم، وأصحاب هذا الرأي هم أهل السنة وجمهور الفقهاء .

وخلاف الفريقين هنا يشمل أهل الفترة الذين وجدوا قبيل الرسالات، وكانوا لا يجدون أمامهم شيئاً من دين الله تعالى، بل إن الخلاف في أهل الفطرة هو سبب انقسام العلماء إلى الفريقين المذكورين .

يستدل المعتزلة ومن ذهب مذهبهم في أن العقل كاف في التكليف، وأن العاقل مسئول عن إيمانه عند الله تعالى .... بما يلي :-

أ) العقل أحد وسائل المعرفة عند الإنسان بل هو أقواها فقد تخطئ الحواس، وقد يكذب الخبر ... أما العقل فإنه يتأمل ويتدبر ويستنتج بعد ربط الأسباب بمسبباتها، والعلل بمدلولاتها وذلك أدعى للإدراك الصحيح .

ب) خلق الله العقل ومكن له في الفهم، ودعاه إلى النظر في آيات الكون والحياة ليصل إلى حقائقها وحده .

جـ) يتجه الرسول والدعاة بدعوتهم إلى العقل، ويقيمون له الأدلة، ويضعون أمامه الآيات والبراهين مما يدل على أهمية العقل، واستقلاليته في الإيمان .

د) أصول الإيمان لا يكفي فيها التسليم والتقليد، بل لابد لها من الاقتناع العقلي، والاطمئنان النفسي، وذلك يحققه العقل .

ولأجل أن تستقيم أدلة المعتزلة نراهم يفسرون " **الرسول** " بالعقل في قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[١] أي عقلاً وفى قوله تعالى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٢] أي بعد العقول، وأما قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾[٣] فيفسرونها بقولهم : لولا بعثت إلينا نبياً ينبهنا على النظر في أدلة العقل، وهذا إخبار على لسان القوم لا يستدل به .

وعلى رأي المعتزلة فأهل الفترة مكلفون في حكم الله تعالى بسبب تمتعهم بالعقل، ومثلهم كل من لم تبلغه الدعوة، لأن العقل كاف في معرفة أصول الدين أما فروع الشريعة فهي مسائل توقيفية لا يؤاخذ المرء عليها إلا بالرسالة .

وأما أهل السنة الذين يرون أن الرسالة شرط في إيجاب التكليف فيستدلون بما يلي :

١- يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ومعنى الآية عندهم ما صح، وما استقام، بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق، ويردهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع حسبما جاء في تضاعيف الكتاب المنزل على الرسول، وهم بذلك لا يصرفون معنى كلمتي "نبعث" و "رسولاً" عن معناهما الحقيقي، لأن من المعلوم أن اللفظ يدل على الحقيقة ولا ينصرف إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، أو عند وجود قرينة

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٣) سورة طه الآية ١٣٤ .

مانعة من إرادتها، وفى هذه الآية لا توجد قرينة مانعة، كما أن الحقيقة غير متعذرة .

٢- لا يصح الاستناد على العقل وحده في الاعتقاد لأنه قد يقصر عن إدراك المعرفة وحده، فهو يتأثر بالأمور المادية من حوله، وقد يعجز عن إدراك الأمور الكلية، والمسائل المعنوية، إذا صادفته مقدمات غير صحيحة .

٣- أرسل الله سبحانه وتعالى رسلاً عديدين إلى أقوامهم، ولم يعذب الضالين إلا بعد أن جاءهم الرسل، وأنذروهم فلما تمسكوا بضلالهم أتاهم عذاب الله تعالى، ولو صح التكليف بمجرد العقل لما ترتب عذابهم على الرسالة ولأتاهم العذاب قبل مجيء الرسالة .

٤- ذكر الله سبحانه وتعالى أن اعتذار العباد حين يسألون بعدم إرسال رسول إليهم مسلم، ومقبول وهو لهم حجة وذلك في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ ولو كان العقل كافياً في إيجاب التكليف لما سلم لهم هذا الاعتذار .

والفرق بين الفريقين قليل لأن المعتزلة يعتمدون على العقل ابتداء في الإيمان، ويحتاجون للشرع في التفاصيل ... وأهل السنة يرون الشرع ابتداء ويجعلون الشرع توجيهاً للعقل .

ولكن ...

هل يلغي أهل السنة دور العقل إذاً ؟!

هم لا يقولون بذلك، لأن ورود الشرع يتجه بالخطاب إلى العقل ويجعله شرطاً في وجوب الحكم الشرعي .

يقول الشيخ محمد عبده : العقل الإنساني محتاج في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة[١] " وهذا المعين لابد أن يكون شيئاً غير العقل ...

---

(١) رسالة التوحيد صـ٧٩

وهو الرسول الذي يتكلم عن الله تعالى، ويبلغ الشرع الإلهي إلى الناس .

ورأى أهل السنة هو الأولى بالاعتبار لأن العقل غالباً ما ترد عليه الخواطر الكثيرة المتناقضة، إذ ما من خاطر يعرض له إلا وفى إمكان خاطر آخر على نقيضه أن ينقضه فتتعارض الخواطر، ويقع الإنسان في اضطراب وتناقض.

وأيضاً فإن أهل السنة لا يهملون العقل بالكلية، لأنهم يقدرونه قدره، ويكلفونه على قدر استطاعته.

وأيضاً فإن المعتزلة بعد قولهم باستقلال العقل في الإيجاب يقولون : إن العقل لا يدرك الفروع ولابد من الشرع لها .

ومعنى ذلك أن المعتزلة يرون ضرورة الرسالة، وهذا يتضمن اعترافاً منهم بضرورة الشرع لتكليف الإنسان بالدعوة الإسلامية .

على أن تبليغ الدعوة لابد يكون بينا واضحاً، يثير النظر، ويدفع العقل إلى التأمل والتدبر، وقد اشترط الإمام الغزالي لتبليغ الدعوة أن يكون على وجه يثير داعية النظر، ويحرك الفكر والعقل تجاهها .

وبعد أن رجحنا مذهب أهل السنة وجمهور الفقهاء في ضرورة الشرع في التكاليف **نرجع إلى واقع العالم المعاصر، ونسأل هل بلغته الدعوة على وجهها الصحيح أم ماذا ؟**

وعندما نجيب **نرى أن حجة الإسلام الغزالي قسم الناس بالنسبة إلى وصول الدعوة الإسلامية إليهم إلى ثلاثة أصناف**[1] :-

الصنف الأول :

صنف بلغتهم الدعوة الإسلامية واضحة بينة، وعلموا كل شيء عن الإسلام ورسوله بواسطة الدعاة، أو بالمجاورة والمخالطة، أو بغير ذلك، كسماع الأذان وقراءة القرآن ومشاهدة مشاعر المسلمين ومناسكهم وهؤلاء لا عذر لهم في التقصير فقد بلغتهم الدعوة على وجهها،وهم مسئولون عن الإيمان بها عند الله تعالى .

---

(١) نقلاً من كتاب " مع الله " بتصرف صـ٥٩ ، ٦٠ .

الصنف الثاني :

من لم تبلغهم الدعوة الإسلامية أصلاً ولم يعلموا شيئاً عن الإسلام ورسوله، وهؤلاء معذورون إذ لا تكليف إلا بعد البلاغ .

الصنف الثالث :

من علموا بالدعوة الإسلامية، وسمعوا عن رسولها، ولكن بصورة مشوهة منفرة كأن يقال لهم " إن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة " وأن الإسلام دين الرجعية والتخلف وصدوا بذلك عن مجرد التفكير في الإسلام، وحجب قادتهم عنهم معرفة حقيقة الدعوة، وهذا الصنف قد بلغته الدعوة على غير وجهها فكأنها لم تبلغهم، فلهم عذرهم .

والناس على هذا ثلاثة نفر : مؤمن، وكافر، وجاهل .

فالمؤمن :

هو الذي آمن بالله وحده وصدق بجميع أنبيائه، وأسلم وجهه لله وهو محسن، مستهدياً في طريقه إلى ربه بأنوار الوحي الذي تنزل من عند الله على رسول العالمين، الجامع لما تفرق من حكمة بين الأنبياء السابقين وهو محمد ﷺ

ونحن نجزم بأن هذا المؤمن ناج لأن الله أخبرنا بذلك فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[1].

والكافر :

هو الذي عرضت عليه حقيقة الإسلام عرضاً لا يشوبه لبس ولا يخالطه تحريف، ولا تشوبه شائبة فعقلها كما جاءت من عند الله، ومع ذلك آثر جحدها، واختار إنكارها ورفض الإذعان لها، مع استطاعته أن يهدي قلبه ويرضى ربه فذلك كافر نجزم بأنه هالك يقول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾[2].

---

(١) سورة الحج الآية ١٤ .

(٢) سورة محمد الآية ٢٨ .

وتاريخ الأمم التي دمر الله عليها – كما يحكيه لنا القرآن الكريم – هو تاريخ أقوام بلغتهم الدعوة جلية نقية، فكذبوا المرسلين على طول ما وعظوهم وكثرة ما نصحوهم .

فلما لم يبق لهم عذر، ولم تتصل لهم حجة نزل بهم العقاب، يقول الله تعالى ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[١].

أما الجاهل :

فهو رجل لم تبلغ دعوة الحق مسامعه ليستجيب لها، أو يرتد عنها فهو يعيش حسب ما قيض له من أفكار، أو ما ارتبط به من ورائات .

ونحن إذا تأملنا في هذا الصف الجاهل من الناس نجده أقساماً شتى، بين رعاع وخاصة، وبين أذكياء وهمل، وبين كتابيين ووثنيين ... إلخ .

وإصدار حكم جامع أو إيضاح مصير مشترك يضم أولئك جميعاً أمر عسير .

ففيهم من يسرت له بقايا وحي صالح، فهو يعمل بها مخلصاً، ولو عرف غيرها لسارع إليه وهذا معذور عند الله لأنه لم يعرف الحق، ولم يصل إليه الإسلام

وفيهم من تصح فيه كمال الفطرة فهو يحترم العقل، ويرعى الحقوق ويتجنب الدنايا ولذلك نجده يقتنع بالحق، ويترك الأوهام والخرافات، وهو معذور لعدم وصول الدعوة الإسلامية إليه .

وفيهم الغفل الذي يعطي قياده لمن امتلكه، ويسير خلف غيره، لأنه لا يحسن إلا التقليد، فاللوم على قائده، إلا أنه مؤاخذ بهذا التسليم المطلق لأنه ألغى عقله وأهمل عمله .

وفيهم الذي يسخر بجزء من الدين، ويستعد للسخرية من سائر أجزائه إذا عرضت عليه ويتصور ذلك تحرراً وتقدماً وهذا لا عذر له لأنه سخر من الدين ابتداء وهو الذي رفض سماع شيء عنه .

وفيهم من ينكر عالم الغيب جملة وتفصيلاً، ويقر بعالم الشهادة وحده وهذا

---

(١) سورة طه الآية ٤٨ .

مؤاخذ لكفرة وإلحاده .

وفيهم من يملك قدرة البحث والتنقيب ولكنه يعطلها تكاسلاً .. وهذا آثم لأنه عطل قواه وحبسها .

إن لكل نوع من هذا الصنف حكم يتناسب مع درجة تعقله، ووعيه ومعرفته ... وإن كان الكل في حاجة إلى دعوة واضحة وبلاغ مبين .

ومن ثم نقول :

إن هؤلاء يعيشون في غفواتهم النفسية والعقلية، ولا يرون ديناً صحيحاً يعرض عليهم، أو يبلغهم بوجهه وحقيقته ولذلك فهم لا يفكرون في دين أو عقيدة، وهؤلاء يحتاجون أن يصل القول الحق إليهم كي يدخلوا في نطاق قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١] وتوصيل القول يكون ببيان واضح يبلغهم الدين على وجه يقنع ويرضى .

وأغلب الظن أن وزر هؤلاء يقع على الأمة الإسلامية، الأمة التي فرطت في رسالتها، وتنكرت لمواريثها، وحرمت العالم من النور الذي شرفها الله به انظر إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

هذه الآية تبين حكم الله فيمن يجهل ديننا ... الواحد من هؤلاء يجب أن يسمع كلام الله كما نزل من عند الله، دون تحريف، ولا تزيد، ولا تنقص فإذا وعاه صار مكلفاً بالإيمان وعلينا بعد ذلك أن نتركه يراجع نفسه ويجري المقارنات التي يرغب فيها، وقد يحتاج إلى استفسار وحكم فنعرفه .

يجب أن نوصله إلى المكان الذي يملك فيه جأشه، ويطمئن فيه على نفسه وحرماته، ويبني حكمه على ما يعرض عليه وهو في حرية وعافية، وقوله تعالى في نهاية الآية ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ بيان لعذر هؤلاء الناس

---

(١) سورة القصص الآية ٥١ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦ .

حيث لا علم فيهم، ولذلك كان الأمر بضرورة إسماعه للأمر ثم إيصاله لموطنه فإن أسلم بعد هذه الفرصة المتاحة فهو منا، وإن كفر واعتزل تركناه، وإن كفر واعتدى قاتلناه، إننا لا نشترى خصومة من يجهلنا، ولا نجلب علينا من ينأى بكفره عنا .

ولابد أن نشير إلى فريق من الناس يعيش بين المسلمين ويرى عبادتهم ويسمع قرآنهم، ويفهم دينهم ... ومع ذلك يناصب الإسلام العداء، ويبذل كل ما يمكنه لصرف الناس عنه، ودائماً تراه ينقد الإسلام بهواه، ويشيع بين السذج والعامة كل ما يصدهم عن الإسلام، ويبغضهم فيه ... وهؤلاء هم أعداء الحق يعتدون، ويكذبون، وينشرون البغي والفساد ... والواجب مواجهتهم بما يستحقون

نقول : وهذا الفريق قد بلغته الدعوة على وجهها وهو مسئول عنها شأنه شأن أهل مكة في عهد رسول الله ﷺ لأنهم علموا الإسلام، ورأوه، ومع ذلك حاربوه، وماتوا على الكفر والضلال .

إن مسئولية المسلمين أمام هذا الواقع كبيرة، فعليهم أن يتحركوا بواسطة كافة الوسائل العالمية التي تمكنهم من الوصول إلى كل الناس، ويهيئوا مجموعات من الدعاة لشرح الإسلام وتبليغ حقيقته للجميع، وليعلموا أن الأمر صعب، وأن أتباع المذاهب والملل المختلفة لهم دعائهم، وهم يعملون على مقاومة دعاة الإسلام، ومع ذلك فمن الضروري بذل كل ممكن في تبليغ الإسلام.

الفصل الخامس

ضوابط تبليغ الدعوة



تمهيد :

إن تبليغ الإسلام تكليف ديني، وواجب على الأمة كلها وهذا التكليف يشير إلى مدى حرص الله تعالى على هداية الناس ... وحرص رسول الله ﷺ على مصالح العباد ... يقول الله تعالى ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[١] ويقول تعالى ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[٢].

كما يؤكد مدى الإيثار الذي يريده الله من عبادة المؤمنين، لأن السعيد بإيمانه لابد له أن يتكلف المشاق، ويتحمل المخاطر لتحقيق الخير للآخرين وهو يدعوهم إلى الإسلام .

وحتى يؤمن الناس كانت الدعوة إليهم في إطار الكرامة التي تفضل الله بها على الآدميين فخاطب عقولهم، وصان حريتهم، وناقشهم في أمور حياتهم، ونشاطهم ... أملاً في استقامتهم وطاعتهم لله تعالى، يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[٣].

إنها دعوة إلى الكرامة وإلى الحياة الطيبة، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة وفى هذا الفصل سأتناول أهم ضوابط عملية تبليغ الإسلام للناس كما شرعها الله تعالى تكريماً للإنسان وصيانة لعقله وإرادته .

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين هما :

المبحث الأول : تقدير العقل الإنساني .

المبحث الثاني : صيانة حرية الإنسان .

والله الموفق ،،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥١ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٤ .

المبحث الأول
تقدير العقل الإنساني

الإسلام دين العقل والفطرة، ودعوته تهدف أساساً إلى مخاطبة العقول بالحسنى وإقناعها بالدليل لتتدبر ما تسمعه، وتختار ما ترضاه، بلا إغراء ينسيها ذاتها، أو إكراه يدفعها إلى اعتناق ما لا ترغبه .

وأول ما نلحظه في الدعوة الإسلامية أنها بعقائدها وتكاليفها معقولة، وعلى الرغم أنها ليست من عمل العقل البشري فإنها لم تخاطب إلا إياه، ولم تبرز أدلتها إلا إليه، لقد اهتمت الدعوة الإسلامية بالعقل آملة أن يتدبر ويفهم وأن ينظر ويؤمن، لأن إيمانه هو الإيمان المطلوب، واقتناعه بالإيمان شرط في صحته، وبغير هذا الاقتناع لا تتم عقيدة ولا يصلح دين .

يقول الحسن البصري : "ينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً[١] ".

ومن نظر ورأى حقيقة الإيمان وعلم أنه عقيدة تستقر في داخل الإنسان أولاً، وتجعله يصدق بالغيب عن يقين كأنه شاهده ثانياً، وبعد ذلك يسلم كل أموره تبعاً لعقيدته، فلا يعترض على ما ينزل به، ويرضى بكل ما يحدث له، ويدع المقادير تمشي كما أرادها الله الذي آمن به .

من رأى ذلك وصدق به علم يقيناً أن الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تفرض على المؤمن بها، لأنها تنادي الأفهام، وتعرض مبادئها على العقل، فإذا ما اعتنقها صاحبها مصدقاً بها فقد تحقق للإسلام ما يريد، وصارت تشريعاته تطبيقاً مع الواقع، ومرضية للعقل، ومحققة لمصالح الناس .

وفي الأساس لم ينزل القرآن مبيّناً وعربياً ومفصلاً إلا ليعقله من يتصل به قارئاً أو مستمعاً كما وضح ذلك فى قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

---

(١) أدب الدنيا والدين صـ٣ .

(٢) سورة يوسف الآية ٢

ففي قوله " لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " بيان للعلة التي جعلت القرآن ينزل عربياً بيناً وهي فهم معانيه، والإحاطة ببدائعه، والاطلاع على أنه خارج عن طور البشر، منزل من عند خلاق القوى والقدر، ولذا تعرف النعمة، وينقطع العذر، ويتحقق الإيمان بوعي واقتناع .

ولأجل العقل كانت الآيات الكونية كما أشار الله تعالى إلى ذلك في كثير من الآيات منها قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١].

إن الآيات الكونية الموجودة في هذه الآية القرآنية وغيرها دلائل لمن ينظر ويعتبر بالآثار العلوية الفلكية، والسفلية الأرضية، والذاتية النفسية، ولا يقدر على النظر في الآيات سوى العقل الذي يدرك ويفهم، أما غيره فإنه لا يهدي صاحبه إلى خير، ولا يوصله إلى صواب، ولذلك كان ختام الآية ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لأن العقل يحقق الإيمان والرضى .

والقرآن الكريم يعيب على من يهمل عقله فيقع في أخطاء عديدة، كمن يأمر غيره بالبر وينسى نفسه نتيجة ضعف عقله، وهذا يستنكره الله في قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

فتراه سبحانه وتعالى ينكر العقل عند من يفعل ذلك، وفى الآية توضيح عظيم بينه الزمخشري في تفسيره وهو يقول : أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول فإنها في الواقع تأباه وتدفعه[٣] وصيغة الاستفهام إنكار شديد على من يعرف الخير، ويأمر به ومع ذلك يغفل عنه وهو يقرأ القرآن ويعلم ما فيه، وختام الآية يشير إلى أن ذلك جهل لا عقل فيه .

---

(١) سورة النحل الآية ١٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٤ .

(٣) تفسير الكشاف جـ١ صـ

ونلحظ من القرآن أنه يرجع سبب إهمال العبادة والاستهزاء بها إلى نقص في العقل ذاته يقول تعالى ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[١] وذلك لأن لعبهم وهزءهم بالعبادة من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم .

وأشار القرآن الكريم كذلك إلى من يفسد خلقه ويضيعه، ويعمل الفرقة والعزلة والجفاء والخشونة، ويباشر الكذب والضلال، وبين أن ذلك يرجع إلى عدم اكتمال العقل .

وما كان الأمر هكذا إلا لأن العقل هو الذي يرقي بصاحبه ويرفعه إلى مستواه في الإنسانية، فيعرف الله وحقه، والدين وتعاليمه، والنفس ومداها، فلا يقع بعد معرفة كل ذلك في سوء ... أما من يرتكس عن إنسانيته بإلغاء العقل فهو يضل ويضيع .

إن من يهمل العقل تسقط كرامته، ويكفى أنه وضع نفسه في مكان سحيق بينه الله في قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٢] فشبه الله من لا يعقل بالدابة لكونه أصم وأبكم، أو سماه دابة من غير تشبيه لنفس السبب[٣] وهو مفهوم ظاهر الآية وذلك كله ذم وتقبيح على إهمال العقل وعدم الاستفادة به .

بل إن الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٤] كما يقول ابن كثير : يجعل الخبل والضلال على الذين لا يعقلون حجج الله وأدلته[٥] وكأن هؤلاء الأقوام قد هيأوا أنفسهم لجهنم، ووضعوها في صف البهائم، أو أنزل منها بسبب أنهم لا يعقلون بفهمهم، ولا يتدبرون

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٥٣٠ .

(٤) سورة يونس الآية ١٠٠

(٥) تفسير ابن كثير جـ٥ صـ١٤١ هامش فتح البيان .

بحواسهم يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1].

يقول الرازي في تفسيره : إن الإنسان وسائر الحيوان يشتركان في القوى الطبيعية الغازية، والنامية، والمولدة، ويتشاركان أيضاً في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة، وفى أحوال التخيل والتفكر والتذكر، **وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وسائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية** التي تهدي الإنسان إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فلما أهمل الناس العقل والفكر كانوا كأنعام بل هم أضل، لأن الحيوانات لا قدرة لها على حمل هذه الفضائل والإنسان يستطيع ولم يفعل [2] وبذلك يعذر الحيوان حيث لا عقل له، أما الإنسان فلا عذر له للعقل الذي يتمتع به .

وواقع الآيات يدعو إلى النظر العقلي عن طريق التأمل في الآيات الكونية والمعنوية والتنزيليه، ذلك لأن ترك النظر يعمي عقل الإنسان عن الآيات البينات .

يبين أبو السعود هذا الواقع بقوله : " في هذا حث الناس لأن يسافروا ليروا، ويعتبروا بما حدث لمن ظلم نفسه [3].

ولعل ورود القرآن على نوعين محكم ومتشابه يدفع العقل إلى الاجتهاد والتدبر، لأنه لو كان كله محكماً لسهل فهمه بلا إعمال فكر أو نظر، ولو كان متشابهاً كله لتعذر اليقين واختلط، لكن القرآن جاء على النوعين ليندفع العقل نحو تأويل المتشابه وفهمه بدليل العقل ورده إلى المحكم، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، وهذا الاندفاع يؤدي إلى زيادة العلم وكثرة الثواب وفتح الطريق أمام أصحاب المذاهب لكي يصلوا به إلى الحق المحكم[4].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(٢) تفسير الغيب جـ٤ صـ٤٧٢ .

(٣) تفسير أبي السعود جـ٤ صـ١٦ .

(٤) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٥ مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٥٩٨، الإتقان جـ٢ صـ١٢ .

وهناك من الأمور ما يذكرها القرآن الكريم غير مفصلة، مكتفيا بالإجمال لإمكان أن ينتفع بها الإنسان بعد النظر والتحصيل، فالسماء والأرض والليل والنهار آيات مخلوقة على روعة وعجب ودقة، لكن لا يدركها إلا أصحاب العقول التامة القادرة على النظر والإدراك، وقد بين الله ذلك فقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

يقول ابن كثير بعد أن عدد بعض ما في هذه الآيات من عجب : إنها لأصحاب العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها[2] ذلك لأن اللب هو كمال حال العقل[3] وأولى الألباب هم الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر.

وكل خطاب في القرآن الكريم إلى ذوي الألباب إنما هو خطاب لأناس لهم نصيب من الفهم والوعي أعلى وأسمى من العقل الذي يكف صاحبه عن السوء، ولا يرتقي إلى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الطيب والخبيث وبين الحسن والأحسن .

وعقل أولى الألباب هو العقل الذي يقابله الجمود والضلال، وليس هو العقل الذي يقابل بالجنون .

وأولو الألباب بعقلهم ممتازون، فهم كما يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4] وهم يعتبرون من أحداث الماضي يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ﴾[5] وهم أهل التذكر .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

(٢) سورة تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٣٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣ صـ١٧٢ .

(٤) سورة الزمر الآية ١٨ .

(٥) سورة يوسف الآية ١١١

هذه الثقة التامة في العقل، البادية في جعله موطن النظر، وميزة الإنسان وداعي الأخلاق، وأساس الاجتهاد والتمييز، هذه الثقة ترشحه بالضرورة ليكون المرجع الأوحد للإيمان، والسلطان الفريد في العقيدة، ومن اعتقد ظاناً أو مقلداً فإيمانه غير معتد به .

وقد عاب القرآن على من يبني عقيدته على الظن فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[1] فبين الله بهذه الآيات أن الظن لا يسد مسد الحق أبداً، وأن بعضه إثم وضرر، وهو من هوى النفس وشرورها .

وعاب القرآن على الذي يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم وينكرون دعوة الحق فقال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2].

والدعوة في الوقت الذي عابت تقليد السابقين لا ترضى لمتبعيها أن يقلدوا الآخرين فقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ ﴾[3] وإنما وعظهم الله بالتفكير المستقل بحيث يقوم به كل فرد على حدة أو يقوم به اثنان، لأن ذلك أدعى إلى إعمال الفكر، وعدم الخضوع لرأي غريب بلا اقتناع، كما أن الجمهرة تأخذ الفرد في تيارها، وتسوقه معها بلا تدبر ونظر، ولذلك وعظ الله الناس أن يقوموا مثنى وفرادى ثم يتفكروا في أمر العقيدة وحقيقتها ودعوة الرسول وتعاليمه .

وما نظر الإسلام إلى الظن والتقليد هكذا إلا لأنهما بعيدان عن المجال العقلي الواعي، وأنهما يستلزمان الضلال والغي .

وينبغي أن نلاحظ أن الإسلام حين نادى بترك الاتباع من غير دليل، وضرورة الإيمان عن عقل وفهم كان في زمن يعتبر الأتباع فيه من أقوى

---

(١) سورة يونس الآية ٣٦

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٤ .

(٣) سورة سبأ الآية ٤٦ .

العوامل، وكان الاهتمام الأكبر فيه هو المحافظة على مواريث الآباء، وقد غضب أهل مكة من الرسول ﷺ لأنه في نظرهم يسفه أحلام الآباء، ويعيب دين الأسلاف، وهذه الملاحظة تعطي الوزن الدقيق لاهتمام الإسلام بالعقل على الإطلاق .

ولم يكتف الإسلام بتوجيه العقل نحو ذاته، وإنما آثاره ورغبه، ووضع له الحجج التي تنصره على التقاليد السائدة وأحاط أقوال المقلدين بما يدحضها، أنظر قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[١] ترى قول المقلدين الذين ألغوا عقولهم وأفسدوها، حيث دعاهم الرسول إلى طريق الله الثابت المدعم بالدليل، وسألهم منكراً عن حقيقة أصنامهم، ووضح لهم ضلال سابقيهم ومع ذلك هرعوا إلى الضلال، واعتذروا عن ذلك بأنهم على سنن آبائهم وأسلافهم، وذلك كله ضلال، والحق الأصيل كامن في فهم العقل وإدراكه، يقول الرازي : إن الآية أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على ما يقع في الخاطر أو على ما يقوله الغير من غير دليل[٢].

ويقول عن ذلك أيضاً : إن المعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً في سرية كأنهم يفزعون إلى أتباعهم، والمقصود أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في الشدائد بتقليد الآباء في الدين، وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى [٣].

ويقول : " إن من أقوى الأدلة على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال أنا لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التي ذمها الله، وذماً لطريقة إبراهيم التي مدحها الله تعالى "[٤].

ولتأكيد الاعتماد على العقل نجد القرآن الكريم يحذر الإنسان من فساد الكهان

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ١٣٧ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ١٣٧ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٦٢٣ .

والأحبار، أينما كانوا فأسقط سلطانهم، ونفى عنهم القدرة على التحليل والتحريم، وبين ذلك حتى لا يخدع أحد بهم فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

وقد بين الاستعمال والعرف أن الأحبار مختصون باليهود، والرهبان مختصون بالنصارى إلا أن ذكرهم معاً يفيد أيضاً التحذير ممن له صفة دينية أياً كان اتجاهه، كالرهبان أو من يتصل بهم تعليماً وفقهاً كالأحبار، ذلك لأن الوضع اللغوي يفيد أن الراهب من ظهرت آثار الرهبنة على وجهه ولباسه والحبر هو العالم الذي يحسن البيان ويحبر المعاني[2].

وبعد أن يترك الإنسان اتباع الهياكل الدينية والأسلاف عليه أن يجهد عقله في البحث عن الدليل، والوصول إلى النتائج عن إقناع ويقين، حتى تكون عقيدته كما تريدها الدعوة لمعتنقيها .

ومن أجل المحافظة على القدرة الكاملة للعقل لم تقم الدعوة الإسلامية أساساً على المعجزة الخارقة للعادة، لأن صاحبها لا يثبت بها وحدها أمام المجادلة والشكوك ولذلك لما طلبها المشركون، وقالوا للنبي ﷺ ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ ﴾[3].

لما طلب المشركون هذه المعجزات الحسية أنكرها النبي ﷺ عليهم وقال لهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[4].

وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى اقتناع كامل، ولو تم الإيمان عن طريق المعجزة

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٥٢٤ .

(٣) سورة الإسراء الآيات من ٩٠ إلى ٩٣ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٩٣ .

الحسية لكان تسليماً لا يتساوى مع طلعة العقل المدرك الذي يفحص ويفهم، وإنما أنكر الله مطالبهم بهذه الشدة، لأنهم طلبوها بعد ما أتاهم القرآن مفصلاً مشتملاً على أدلة التوحيد، مشيراً إلى قصص السابقين وموقفهم من الإيمان والكفر، فأكدوا بذلك كفرهم وعنادهم وقالوا ما قالوا فكان المناسب أن ينكر الله طلبهم بشدة وقوة .

وكان من الممكن أن يترك الإنسان ليهتدي بعقله وحده، لكن اضطراب الفكر في الدين يوم ظهور الدعوة صنع عائقاً أمام العقل، فكان الوحي لازماً بعد ذلك لينبهه ويذكره وكانت مهمة الرسول ﷺ هي توجيه العقل نحو الطريق السوي، ومثله في الناس كمثل المبصر الذي يأخذ بيد الأعمى ويوصله إلى رأس الطريق ثم يتركه يذهب إلى بغيته .

ومن هنا كان القرآن وهو المعجزة مفهوماً ومطابقاً لقوانين الفكر ولذلك لم ينكره عقل، وإن عجزت سائر العقول عن مجاراته .

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من التساؤلات المتعلقة بأصول الدين التي جاءت على ألسنة الرسل عليهم السلام، وقد أتى بها لتكون سراجاً منيراً أمام العقل يزيح به كل ما يعترضه في تحققه واطمئنانه، وليثبت الإيمان بالنظر والدليل .

ومن هذه التساؤلات سؤال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ ﴾[1] وسبب السؤال يبدو من قول إبراهيم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ فهو سؤال يتعلق بالبعث كما ترى وهو من أهم مسائل الاعتقاد .

ومنها سؤال الحواريين لعيسى عليه السلام ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وسبب السؤال قولهم ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[3] وهو سؤال يتعلق بالقدرة الإلهية وهي من أهم مسائل العقيدة .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١٢

(٣) سورة المائدة الآية ١١٣ .

ذلكم هو العقل في الإسلام نجاه الله من القهر والإجبار، وخاطبه بالحسنى، وأنزل له القرآن، وساق أمامه الدليل، وجعله سيد صاحبه يقوده إلى الخير والإيمان، ويرفع عنه ظلمات التبعية والتقليد، ويربطه بالحقيقة دائماً .

ومن هنا ...

نؤكد على ضرورة أن يستمر التبليغ والحركة بالدعوة في مخاطبة العقل، وتقدير دوره في الاختيار، ومخاطبته بما يليق به من الحكمة والموعظة، وحسن التعامل، والالتزام بكل ما يضعه في منزلته القيادية، وأهمها :-

أ) لين المعاملة، وملازمة حسن الخلق في التوجه والخطاب .

ب) الإتيان إليه من بابه الطبيعي ببيان الدعوة المعروضة وإظهار ما فيها من حق وصواب .

ج) عدم مصادرة العقل بوضع أحكام مسبقة، وتصوره على نحو ما، بناء على الظن وسوء التقدير .

د) تنظيم التوجه إلى العقل بعرض الموضوع ودليله ومناقشة كافة الاحتمالات وإسقاطها واحدة واحدة .

هـ) الاستماع للأفكار المضادة، ومناقشتها بوعي وهدوء حتى يظهر الحق فقد يكون الخلاف شكلياً فقط .

و) أن يفتح النقاش للعقل ليظهر ما لديه ... ويتضح الحق ... وتتم الدعوة في موطنها المطلوب .

ز) لا مانع من استعمال المحفزات العقلية والنفسية والشخصية لإيقاظ داعي النظر والتدبر .

المبحث الثاني
صيانة حرية الإنسان

لم تقف الدعوة الإسلامية عند ثقتها الكاملة في العقل، وإنما ضمت إلى هذه الثقة إيمانها بالحرية الحقيقة للإنسان، في عقيدته، وفى كل حياته ذلك لأن العقيدة الدينية بلا حرية لا تكون، لأنها في حقيقتها حاجة نفسية عند الشخص المعتقد معتمدة على أساس مقدس، وهذه الحاجة النفسية هي التي توجد الإيمان والتدين عند صاحبها ... والحاجات النفسية في عمومها تعيش في حرية تامة، ولا تعرف القهر أبداً لأنها مستورة في النفس يخفيها صاحبها إذا أراد .

والحاجة النفسية معنوية بالضرورة، ولذلك لا يتصور معها إكراه أو ضغط، ومن الممكن أن يكره الإنسان إيجاباً أو سلباً – على عمل أو قول لكن من المستحيل أن يعتقد رغم أنفه، وأن يتطابق مظهره في الحقيقة مع عقيدة لا يوافق عليها، لأن النفس لا تؤمن إلا بما تتيقنه، ولا تعتقد إلا فيما تؤمن به وأقصي ما يصنعه الإكراه أن يبدو المرء وكأنه معتقد، بينما هو عن العقيدة بعيد، وليس هناك ثمرة في هذه المظهرية التي حاربها الإسلام بكل وضوح، وقد تحدث القرآن الكريم عن طائفة من الناس تعيش بهذه الصورة حيث يعلنون إيمانهم ظاهراً وقلوبهم هواء، وبين الحكم فيهم وأمثالهم فقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[١] فنفى إيمانهم لأنهم آمنوا إعلاناً بالقول، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم .

إن المنافقين هم هذه الطائفة الخطرة التي اشتهرت بهذه المظهرية المناقضة للحقيقة ... وهم بالتناقض بين الظاهر والباطن أصبحوا أخطر على الدعوة من الكافرين، حيث ضموا إلى الكفر قصد التلبيس، واستساغة الكذب، وطبع التخنث وليس كذلك الكافر فهو يعلن معارضته القلبية[٢].

وقد أشار الله إلى وجوب الحذر من المنافقين فقال تعالى عنهم ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ

---

(١) سورة البقرة الآية ٨ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ١ صـ٢٨١، ٢٨٢ .

فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ ﴾[١].

يقول الزمخشري أي هم الكاملون في العداوة – لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي فاحذرهم ولا تغتر بظاهرهم[٢].

وما كان الأمر هكذا مع النفاق إلا لأن العقيدة لا تكون إلا من ينبوع النفس المختارة الى لا تحس بأي حجر على اختيارها وحريتها، ولا قيمة لإيمان جاء به الضغط المادي أو الفكري أو الإكراه بمختلف صوره .

ولضرورة الحرية في العقيدة أهدر الإسلام إيمان الإلجاء، وكفر الإلجاء وحكم على ذلك حين يوجد بالعدم كما وضح من آيات الكتاب الحكيم يقول الله تعالى ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٣] لأن هذه التوبة تأخذ حكم الإلجاء لأنها تمت حين حضر الموت، والإيمان حين الموت كالتوبة تماماً عنده لا يقبلان، ولذلك عدت توبة هذا الوقت كلا توبة، وعطف عليها الذين يموتون وهم كفار، لأن إيمانهم لا اعتبار به حيث جاء في وقت الإلجاء يقول الرازي : إن الإيمان في الوقت الذي يعاين المرء فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لا ينفع، في ذلك الوقت يصير المرء مكرهاً على الإيمان، ولذلك لا ينفع، إنما الإيمان ينفع في الوقت الذي يملك الإنسان فيه القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختاراً "[٤].

ولهذا حين قال فرعون ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[٥] معلناً إيمانه ثلاث مرات لم يقبل منه، [٦] لأنه كما يقول النسفي قد أخطأ وقته، وكانت المرة الواحد تكفي في حالة الاختيـــار لكنه

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ صـ١٠٩ .

(٣) سورة النساء الآية ١٨ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٣٤٥ .

(٥) سورة يونس الآية ٩٠ .

(٦) المرات الثلاث هي آمنت، لا إله إلا الله، وأنا من المسلمين .

قال الثلاث في وقت الاضطرار حين أدركه الغرق وآيس من نفسه[١] .

وكفر الإلجاء لا يعتبر هو الآخر قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾[٢] ففى هذه الآية بين الله ضخامة جريمة الكفر بعد الإيمان ثم استثنى من أكره على الكفر لأنه ليس بكافر في الحقيقة حيث ألجئ ظاهره عليه وبقي قلبه مطمئناً بالإيمان .

ولأجل أن تتضح ضرورة الحرية للناس بين الله من أول ظهور الدعوة حقيقة الرسول، وحدد دوره، فهو بشر من الناس يتصف بالكمال، وقد عصمه الله من الخطأ، واختاره للرسالة وليس عليه إلا البلاغ .

ويجب هنا أن نذكر أن المضطهدين في بداية ظهور الدعوة هم المسلمون لا غيرهم، مما يثبت أن الاضطهاد كان من جانب أعداء الدعوة ضد من دخل في الإسلام ، وكان الداخل في الإسلام يوقن مقدماً بعذاب الاضطهاد، ومع ذلك يقدم متحملاً الأذى من أجل اقتناعه .

وحتى تتضح حرية الدعوة تماماً كان النبي ﷺ يسمح لغير المؤمنين بالمناقشة في أصول العقائد ويطالبهم بالبرهان لأن المسألة تتوقف دائماً على الدليل البين المؤدي إلى الإقناع، وقد علم الله رسوله هذا الطريق ألا تراه حينما ذكر أهل الكتاب أحلامهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ﴾[٣] طالبهم النبي ﷺ بالدليـــل عليـــه وقـــال لهم ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[٤] وحينما حاول المشركون أن يلقوا تبعه شـــركهم على القدر وقالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ قال الله لهم : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ ﴾[٥].

---

(١) تفسير النسفي جـ٢ صـ١٧٤، ١٧٥ .

(٢) سورة النحل الآية ١٠٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

وإنما أورد القرآن الكريم هذه المناقشات تدريباً للناس على اتباع الدليل والبحث في حرية واختيار، وعلى أن يتم الحوار باللين والحسنى .

وهكذا آمنت الدعوة بالحرية وضرورتها للإيمان الصحيح .

يقول الله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾(١) يقول ابن كثير : أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لأن الإسلام بين، واضح، جلي، لا يحتاج أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً(٢).

وقد ذكر العلماء أن سبب نزول الآية أن رجلاً من الأنصار يقال له الحصيني كان له ابنان نصرانيان، تنصرا، وخرجا إلى الشام، فقال الحصيني للنبي : ألا أستكرههما، فأنزل الله ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

وقيل بل نزلت حين استأذن بعض أصحاب النبي من الأنصار في إكراه أولادهم عند بني النضير على الإسلام عند جلائهم عن المدينة في السنة الرابعة للهجرة (٣).

ومن الآيات الدالة على هذه الحرية قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤).

وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾(٥) ومن الوقائع التي تؤكد مشروعية الحرية في الإيمان والاعتقاد أن الرسل جميعاً اعتمدوا في دعوة الناس على الحجة، والبرهان حتى قال قوم نوح ﷺ ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ صـ٣١٠

(٣) أسباب النزول للنيسابوري صـ٤٥ ط الحلبي .

(٤) سورة الشورى الآية ٤٢ .

(٥) سورة يونس الآية ٩٩ .

(٦) سورة هود الآية ٣٢ .

وقال هود عليه السلام لقومه ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾[1] ويأمر الله محمداً ﷺ فيقول له ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[2].

ومن المعلوم أن الجدل يقتضى المناقشة وإبداء الرأي، والاستماع لحجة كل فريق، والرد عليها، بلا إكراه أو ضغط وهذا منتهي الحرية [3].

ودين يعطي للإنسان أيا كان وضعه حق المناقشة، وحق الاختيار .... ويرضى به إنساناً في رعيته وإن لم يسلم ... هذا دين يقدر الإنسان، ويصون الحرية ... ويحترم العقل والتفكير .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧١ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) النظام السياسي صـــ ٦٠ ، ٦١ .

الباب الخامس

تبليغ الإسلام
بين الوسائل والدعاة

تمهيد :

علمنا فيما سبق أن وسائل الدعوة هي الأدوات الحاملة للدعوة لتوصيلها إلى المدعوين في أطر فنية بليغة .

ذلك أن قضية الدعوة فكرة معنوية يراد نقلها إلى الناس ليؤمنوا بها ... وهذه الفكرة المعنوية تنقل عبر كلمات مكتوبة أو مقروءة أو في إطار صورة، أو إشارة، أو حالة دالة على المعنى ... وهذه هي الأساليب المبينة للمعني الموضحة للدعوة، المرغبة في الإيمان .

هذه الأساليب تحملها أدوات وآلات هي الوسائل، وهي عبارة عن قنوات ناقلة للدعوة من مصدرها لتوصيلها إلى الناس في بلاغ مقصود، أملاً في إيمان المدعوين، وإدخالهم في دين الله تعالى .

ووسائل الدعوة آلات لا تعقل ولا تدرك ماهية ما تحمله، ولا تعرف غاية ما تنقله، فالمذياع آلة تنقل ما يجهز لها، وترفع الصوت به بلا فهم أو معرفة لأن المذياع آلة جامدة لا عقل لها .

ومن هنا كان لابد للوسائل المادية من عقل يتحكم فيها، وينظم وقتها، ويضع فيها الموضوع الذي يراد إيصاله للغير ... وبغير العقل المدرك لا تفيد الآلات شيئاً أبداً .

والأمثلة الدالة على ذلك عديدة فالسيارة والطائرة والقطار وسائل توصل المسافرين من مكان إلى مكان لكنها تحتاج إلى سائق عاقل يحركها في وقت معين، وبسرعة معينة، ويقف بها في محطة معينة، وبهذا السائق المدرك تؤدي الوسيلة وظيفتها، وتقوم بدورها .

ووسيلة الدعوة تسير على هذا النمط ... فمكبر الصوت مثلا لا ينقل كلمات الدعوة بذاته وإنما لابد من عقل يحركه ويجهزه لتصل الكلمات إلى المستمعين.

ومن هنا ...

كان لابد للوسائل المادية الجامدة، من شخص فاهم ييسر الآلة للعمـــل،

وينظم حركتها، وهو العقل الذي لابد منه لتشغيل الآلة، وقيام الوسيلة بدورها .

هذا الإنسان المنظم للآلة الذي يشرف على توجيهها وتشغيلها هو الداعية الفاهم لموضوع الدعوة، وهو الذي يحرك فكرته خلال وسيلة ما، بأسلوب بياني يؤلفه أو ينقله إلى المدعوين ... ولذلك كان الداعية هو وسيلة الوسائل وبدونه لا تعمل الوسيلة ولا تفيد .

والداعية في حركته مع الوسائل لا يصير جزءاً منها ولكنه يبدو ملازماً لها، يحتاج إليها، وتعمل به، ولذلك تأتي هذه الدراسة عن وسائل الدعوة في فصلين .

حيث نرى **في الفصل الأول** التعريف بوسائل الدعوة وتنوعها، ودور كل نوع في إيصال المضمون إلى المستقبل أو المدعوين ...

ونرى في **الفصل الثاني** التعريف بالدعاة من ناحية أهميتهم في الحركة بالدعوة وضرورة تكوينهم ... وأهم الصفات التي يجب تميزهم بها والكيفية المثلي في الاستفادة بالوسائل المادية، وتبليغ الدعوة من خلالها للناس وذلك في الفصول التالية :

والله الموفق ،

الفصل الأول

وسـائل الدعـوة



تمهيد :

تعددت وسائل الدعوة قديماً، وأضاف عليها العصر الحديث أنواعاً أخرى، وما زال الجديد يظهر كل حين بوسائل جديدة .

والعلماء المعاصرون يهتمون بوسائل الاتصال للاستفادة بها في مجال الإعلام، والتربية، والخدمة الاجتماعية، والتوعية السياسية، والاقتصادية وغيرها .

وقد وضع علماء الاتصال نظرية متكاملة لعملية الاتصال تقوم على تصور كافة أركان العملية الاتصالية التي يتصورونها في **الرسالة الفكرية** التي يراد إيصالها للناس، ويجب أن تصاغ هذه الرسالة في أسلوب جميل، يوضح الفكرة ويدلل عليها بما يناسب المستقبل للرسالة .

وبعد صياغة الرسالة في أسلوبها يحملها طرف يسمونه بـــ " المرسل " يتوجه بها إلى طرف مقصود يسمونه بـــ " المستقبل " .

ونظرية الاتصال تتضمن أركان عملية الدعوة ... لأن العملية الدعوية كما سبق بيانه تتكون من :-

١) **رسالة** : وهي موضوع الدعوة .

٢) **وأسلوب** : ويراد به صياغة الرسالة الدعوية في أسلوب بياني معين .

٣) **شخص حامل الرسالة الدعوية** : وهو الداعية الذي ينقل الرسالة الدعوية إلى الناس .

٤) **وسيلة** : يستخدمها الداعية لنقل الرسالة الداعية إلى المدعوين .

٥) **مدعوين** : وهم الطرف المستقبل للرسالة الدعوية .

وقد أحاط علماء الاتصال هذه الأركان بدراسات عديدة، وطبقوها عملياً، وسجلوا نتائج أبحاثهم خدمة للقائمين بالاتصال .

وليس في الإسلام ما يمنع من الاستفادة بهذه الدراسات في خدمة تبليغ الإسلام للناس، وبخاصة أن الموضوع المراد تبليغه ثابت بثبوت الوحي بصورة مجملة أو مفصلة ولا أثر لنظرية الاتصال في موضوع الدعوة ... وقد بينت

في الأبواب والفصول السابقة ما يتعلق بالإسلام من ناحية كونه موضوع الدعوة، ووضحت ارتباطه بالأديان الإلهية السابقة، وضرورة تبليغه، وواقعيته في الحركة والانتشار .

أما الوسائل والداعية، وكيفية الخطاب فمن الأفضل أن يستفاد في ذلك بكل جديد ممكن ما دام يحافظ على تعاليم الله تعالى، ولا يتضمن أمراً منهياً عنه .

بل إن الاستفادة بمستجدات العصر في الوسائل والأساليب وتكوين الدعاة، وكيفية التعامل الأمثل مع الأفراد والجماعات من الضرورات الواجبة شرعاً في الإسلام لأن التنافس الفكري والتقاء الحضارات، وظهور كل فريق بكل جديد يظهر ذاته، ويحاول جذب الآخرين إليه مع تنوع الصور، وتعدد المغريات يحتم الاستفادة بكل مخترع جديد في إطار المشروعية الإسلامية .

وسوف نتحدث في هذا الفصل عن أدوات تبليغ الإسلام مستفيدين بمشيئة الله تعالى بالدراسات الاتصالية الحديثة ... وسيكون الحديث عن كل وسيلة في مبحث خاص ... وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول
الوسائل العملية

الوسائل في مجملها آلات وأدوات تحمل كلمات دالة على معانيها أو إشارات ورموز وصور تقوم مقام الكلمة .

إلا أن هناك أعمالاً تقوم بدور الكلمات، وتعرف المشاهد بالمطلوب ... وفي بعض الحالات تكون أكثر تأثيراً وأقوى في الدلالة على المراد من الألفاظ.

وهذا العمل المؤثر المفيد يكون غالباً في سلوك قادة الرأي ورواد الجماعة، وأئمة الدين، والذين أوتوا بسطة في المال، والعلم، والجاه .

ذلك أن العامة من كثرة تعلقهم بهؤلاء، وعدم ثقتهم في ذواتهم يتأملون أعمال هؤلاء ويتمثلونها في حياتهم وبذلك تنتقل الفكرة والسلوك من طرف إلى طرف بواسطة عمل القادة وأولى الرأي وبذلك تظهر الفكرة من خلال العمل والسلوك .

وهنا نتساءل عن عمل هؤلاء القادة وسلوكهم لنعرف هل هو أسلوب للدعوة ؟ أم هو وسيلة للدعوة؟

وحين ننظر في هذا التساؤل نرى من الوهلة الأولى أنه أسلوب عملي للدعوة ... وفى نفس الوقت هو وسيلة عملية مباشرة للدعوة ... إلا إن التمايز الضروري بين الوسيلة والأسلوب يجعلنا نبحث عن الجوانب الفارقة بين الوسيلة والأسلوب في عمل هؤلاء القادة .

والأمر في هذا يتحدد بتعيين زاوية النظر ... لأنه إن كان النظر إلى العمل كحركة، وفعل يقوم به الشخص فهو وسيلة ... وإذا نظر إليه من ناحية ما فيه من دلالة ومفهوم فهو أسلوب عملي ... ومع هذه التفرقة فإن الجانبين الأسلوب والوسيلة يوجدان معاً في وقت واحد في عمل القدوة وهنا كان الالتباس، ولهذا كان من الضروري التمييز بين جوانب الوسائل والأساليب في عمل القادة الموجهين

إن العمل أكثر تأثيراً فيمن يشاهده إذا أحاطته عوامل معينة منها .

١) أن يكون القائم بالعمل من قادة الرأي في المجتمع، أوله ريادة وولاية

على المشاهدين، فالوالد رائد لولده، والمدرس قائد لتلميذه، والإمام هاد لرعيته والسبب في هذا أن ثقة العامة في الخاصة تدفعهم إلى التقليد، والتشبه بهم .

وفى مرحلة الصغر عاشرنا أحد العلماء المتميزين فلما وثقنا فيه، وأعجبنا بنشاطه حاولنا أن نفعل كفعله، ونسلك ما يسلكه من غير كلام أو توجيه، وصارت أماني الشباب أن يصلوا إلى ما وصل إليه .

كان أصحاب النبي ﷺ يأخذون مناسكهم عنه، يصلون كصلاته، ويحجون كحجه لدرجة أن بعضهم حاول أن يحدد مسرى قدم رسول الله ﷺ ليسير فيه، وهذا عمر بن الخطاب ﷺ ينظر إلى الحجر الأسود ويقول : **إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**[1]

ومن مزايا هذه الوسيلة أنها تنقل الصورة العملية مباشرة، ولا تحتاج إلى شرح وتفصيل، لأن المتلقي يأخذ العمل الذي رآه، ويستنبط منه ما يمكنه .

وهي وسيلة تجذب المدعوين إليها لأن الإعجاب يثيرهم، والثقة تشدهم إلى العمل والسلوك .

ويمكن للدعاة إلى الله أن يجعلوا حياتهم دعوة عملية للناس تتضمن الوسيلة والأسلوب معاً إذا أخلصوا لله عملهم، وعاشوا الإسلام في أقوالهم وأحوالهم وسلوكهم، لأن الجمهور سيثق فيهم، وسيجعلهم مقصده، فإذا رأى عملهم التزم به، وإن شاهد سلوكهم طبقه على نفسه لثقته في أن ذلك هو مراد الله تعالى، والإمام في سلوكه إلا عبد عالم مطيع لله تعالى .

وحين يعيش الدعاة بين ثقة الناس، فعليهم أن ينظموا عملهم، ويعرفوا الناس به ليقتدوا بهم .... وليس من الدين حينئذ إخفاء عمل صالح يؤدي إظهاره إلى صلاح الآخرين .

٢) أن يبتعد الدعاة عن أي عمل يختلف الناس فيه، وينقسمون حوله حتى يثق فيهم الجميع، لأن الداعية إن دخل في معمعة الخلاف انحاز لفريق دون سواه، وحينئذ سيكون عرضه للنقد، ولا يثق فيه أحد .... وهذا أمر شديد الأهمية للدعاة

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود ١٥٩٧ .

وبخاصة إذا كان اختلاف الناس حول أمور دنيوية أو في إطار بدع مستحدثة .

أما إذا كان الاختلاف في مسائل دينية فعليه أن يبين الحق بوضوح ويسر في دعوته بعيداً عن الانحياز لأحد من الناس .

٣) أن يعيش الداعية في عزلة عن الناس وبخاصة إذا قصر في جانب ديني، ولو كان مندوبا ... لأن العامة يتابعونه في عمله ليكونوا مثله ... فإذا رأوا منه قصوراً في جانب ما انصرفوا عنه ... أو تابعوه فيه ... والإنسان بصورة عامة مقصر في بعض الجوانب ... ولذلك كانت عزله الداعية ساتراً لنقصه عن الناس.

ولا يقال : إن رسول الله ﷺ كان لا يخفي شيئاً عن أصحابه، ولذلك نقل الصحابة رضوان الله عليهم كل شيء عن رسول الله ﷺ ...

لا يقال ذلك لأن رسول الله ﷺ كان كاملاً في حياته، معصوماً في عمله، بعيداً عن أي نقص، ولذلك كان إظهار عمله ﷺ قدوة لأصحابه، وتشريعاً يسيرون عليه فلقد كانت كل حياة رسول الله ﷺ وهو ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [1] ولو وثق الداعية في استقامة سلوكه وبخاصة ما يراه الناس فلا مانع من مخالطة الناس حيث لا ضرر حينئذ .

ومن تجارب الحياة ما سمعته عن أحد الدعاة العلماء أنه كان يذهب إلى السوق لشراء ما يحتاج إليه إلا أنه كان يناقش في الثمن طويلاً، ويجادل كثيراً في الشراء فنفر الناس من علمه وتصوروه متصفاً بغير ما هو فيه .

٤) أن يقيس الدعاة الناس على ذواتهم، ويحاولوا كشف المؤثرات التي يتأثرون بها، ومعرفة الموضوعات التي يهتمون بها، لأن العامة والجمهور على نمطهم في التأثر والاهتمام، والداعية يعرف هذا بطريقة الاتصال بالآخرين عن طريق الذات ... وبهذه الصورة يتمكن الداعية من تنظيم حركته، وترتيب عمله على نمط معين ليتأثر به من يراه .

وهكذا تكون الدعوة بالعمل، والقدوة، والمثال وفيها تكون الوسيلة والأسلوب أمراً واحداً .

---

(١) سورة النجم الآيتان ٣، ٤ .

المبحث الثاني
وسائل المواجهة المباشرة

المواجهة المباشرة وسيلة من وسائل الاتصال ذات الأثر الكبير لأنها توضح رد فعل المستمع مباشرة، وتمكن المستمع من محاورة محدثه، ولذلك عدت من الوسائل الدعوية الناجحة.

ووسائل المواجهة تعتمد على بعض القوالب الفنية التي يتم خلالها نقل الرسالة الدعوية في إطار أسلوب بياني دقيق يوضح المعني المراد .

وأهم القوالب المباشرة ما يلي :-

أ) المحادثة البسيطة :

الإنسان مدني بطبعه لا يعيش وحده أبداً، ولا يستغني عن غيره، ولابد لكل فرد أن يستعين بغيره ويتعامل معه في أحد جوانب حياته ... وقد علمّ الله الإنسان الأسماء كلها، ورزقه النطق والتعبير يتفاهم بهما مع غيره، ويلتقي الجميع بهذه المباشرة سويا بواسطة ما عرفوا من لغة وحديث .

وما يجري بين الناس من كلام يعرف بالمحادثة التي ينال بها كل ما يريد ويتحدث فيما يرغب، واشتقاق المحادثة يدل على اشتراك أكثر من طرف فيها.

والدعاة أفراد يعيشون مع غيرهم، وقد أوجب الله مسئولية تبليغ الدعوة على الناس، وبخاصة إلى أقربائهم ومعارفهم، ومن هنا كانت المحادثة في صورتها الفنية والتنظيمية وسيلة للدعوة .

وتتميز هذه الوسيلة بأنها توجد بين الناس بطريقة تلقائية، والكل معترف بها، ويتعامل معها .... إلا أن هذه الوسيلة تحتاج إلى حكمة الدعاة وإخلاصهم، ولابد لهم معها من التخطيط والتنسيق والاستعداد ... ومن أمثلة ذلك أن الأفراد يتأثرون بالأحداث اليومية، ويكثرون الحديث والنقاش حول هذه الاحداث كحديثهم عن الانتخابات في وقتها، وعن الصيام في شهر رمضان وهكذا .... وهذا الحال يقتضي أن يخطط الدعاة للاستفادة من الحديث المثار، وتوجيهه الوجهة الدينية، والاستفادة بالحدث بما يفيد الحركة بالدعوة .

وحين يشعر المسلم بمسئوليته مع الدعوة فإن هذه الوسيلة تمكن العامل من نصح زميله، والجار من مساعدة جاره، والطالب من التأثير في رفيقه .. وهكذا

والمحادثة وسيلة سهلة للدعوة بين الزوج وزوجته، وبين الوالد وولده .. وبين الأخ وأخيه ... وبين الجيران ... ورفاق المسجد والعمل والطريق ... والاستفادة بالمحادثة في الدعوة أمر سهل شريطة أن يهتم بها الدعاة وكل مسلم يعمل لدينه .

٢) المناقشة :

تختلف المناقشة عن المحادثة في أن المناقشة تحدث بعد إعداد وتهيئة، وتعتمد على موضوع محدد للمناقشة .

وقد وضع العلماء للمناقشة أصولاً لابد منها، فقد حددوا لها عدداً لا يزيد عن عشرين فرداً يجتمعون في مكان معين أعد لها، على هيئة خاصة يسمح للجميع أن يسمع بعضهم بعضاً ... ويرى بعضهم بعضاً .

ويشترط العلماء أن يكون للمناقشة منظم وملاحظ على أن تتم المناقشة في موضوع واحد يهتم به المتناقشون .

ووظيفة المنظم مساعدة الأعضاء ليدلوا بآرائهم، ويبعدهم عن الخجل والثرثرة والغوغائية .

ووظيفة الملاحظ تسجيل كل ما يدور بين المجتمعين ليبقي درساً وعبرة ومرجعاً يستفاد به .

والمناقشة تفيد المتناقشين أنفسهم أولاً لأنها تحترم آراءهم وخواطرهم .

وتفيد الجماعة أيضاً لأن تحديد موضوع المناقشة يجب أن يكون في مسألة تهم الناس للوصول إلى قرار صحيح يفيد المجتمع كله .

والداعية المخلص يستفيد بهذه الوسيلة الهامة في مناقشة أمور دينية يختار لها رجالاً يفهمون ويعملون ... ومن أمثلة موضوعات المناقشة :

- الإقبال على صلاة الجماعة .
- حفظ سور من القرآن .

- الاهتمام بالتنشئة الإسلامية .
- المحافظة على الروح الإسلامية بين الناس .

وهكذا ...

إن مناقشة هذه القضايا وسط جماعة مؤمنة يحدد المشكلة ويضع الحل، وينشط المشاركين في العمل لتنفيذ المقترحات التي رأوها، واتخذوا قرارا محدداً معها .

ويذهب البعض إلى أن المناقشة فن علمي ظهر حديثاً، إلا أننا نراه قديماً ظهر مع علماء المسلمين الأول، فلقد كان أئمة المذاهب الفقهية يلتقون بتلاميذهم ويتناقشون في المسائل الفقهية، للوصول للحكم الراجح، وقد سجلت كتب الفقه هذه المناقشات .. الأمر الذي يدل على قدم هذا الفن .

والداعية هو منظم حلقة المناقشة، وهو الذي يختار موضوعها وعليه أن يستعد لها بما عنده من علم بالقرآن الكريم، والسنة النبوية وأثار سلف الأمة ليفيد الدعوة والمدعوين .

وقد اشترط العلماء لنجاح المناقشة وجود منظم، وملاحظ مع الجماعة لأن المنظم هو قائد مجموعة المناقشة وهو الداعية، ويجب أن يكون مخلصاً للفكرة محبوباً من الجميع واسع الأفق ودوره هو استخلاص الرأي من المجموعة .

والملاحظ : هو الذي يسجل كل ما دار في المناقشة من أجل تقييمها بعد ذلك .

والجماعة : هي التي تقوم بالمناقشة ويجب عليهم أن يعدوا للموضوع، وأن يهتموا به، وأن يدرسوه دراسة مفيدة ومقنعة .

والمناقشة : ليست هي المناظرة لأن المناقشة في هدف واحد واتجاه نحو نسبة واحدة، وتكون تعاوناً بين أشخاص عديدين، بينما المناظرة هي توجه المتخاصمين إلى موضوع واحد بهدف مغاير لكل منهما، حيث إن كلا من المتخاصمين يريد إثبات عكس ما يريده الآخر .

وتفيد المناقشة في تبادل الآراء، وفهم الآخرين، وإرضـــاء المعـــارضين،

وزيادة المعلومات، وتحقيق الكرامة لكل فرد، وتعبر عن كل الخواطر الوجدانية، وتحل المشاكل بصورة ملزمة للجماعة لأنها هي التي اتخذت القرار، وأيضاً فهي توسع دائرة الشورى بين المتنافسين، وتعلم الجماعة ضرورة الشورى، والمنظم الداعية قائد لا يتطرف ولا يفرض رأيه .

ويساعد الملاحظ الأعضاء على القيام بدورهم فإذا ما وجد عضواً خجولاً جذبه إلى المناقشة بالأمثلة التي تحتاج إلى إجابة طويلة، وإذا وجد عضواً ثرثاراً يسمح له بقدر معين من الوقت، وعليه أن يتصرف مع المشاغب، والشكلي، والمهرج والمتحمس، بما يضمن المناقشة الجماعية المفيدة التي يسبقها التفكير في الموضوع المعين، والاستعانة بالمعلومات من مصادرها الأصيلة[١].

<u>٣) الخطبة :</u>

الخطبة فن قولي يحمل الدعوة إلى الناس وألوانها عديدة، وصورها متنوعة.

ووسائل التبليغ كثيرة، وقد أضفى عليها العصر الحديث وسائل أكثر .

ووسط هذه الكثرة حافظت الخطابة على أهميتها القصوى في البلاغ، ولسوف يستمر لها هذا الدور إلى يوم أن يلقى الله جميع الناس .

إن الإنسان يسيره وجدانه أكثر مما يسيره فكره، والفرد مع الآخرين ينسى خواصه الفكرية، ومواهبه الأصيلة، ويندرج في وجدان الجماعة، يقول لوبون: وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها إلى الوجدان، كالدين، والأدب، والميل، والنفور، وهكذا إلا نادراً، وليس هناك من هو أجدر من الخطبة في استمالة الوجدان، وتهييج الشعور، وتحقيق الانفعال المؤدي إلى الاندفاع والعمل [٢].

والفرد الذي يسيره العقل وحده، لا تغفله الخطابة الدينية، لأنها قائمة على الحق، بعيدة عن التغرير، تستعمل الأدلة البرهانية، والأدلة الظنية وغير ذلك من الأدلة حتى تصل إلى أعلى درجات اليقين .

---

(١) قواعد الخطابة صـ١٤٣ .

(٢) روح الاجتماع صـ٣٠ .

إن ارتباط الخطابة بالعاطفة الدينية دافع إلى الاهتمام بها، وأيضاً فإن وجود الأمية، وكثرة الأعمال، وضيق الوقت دوافع رئيسية إلى ضرورة الخطابة، لأنها تخاطب الأمي على قدر طاقته، تقرب له البعيد، وتذلل أمامه الصعب، وتوجز الزمن لمن لا يجده من أصحاب الأعمال، وتركز المعاني الكثيرة في كلمات قليلة، وتقدمها لمن تزحمه مشاغل الحياة .

ولأهمية الخطابة للدعوة كان لها الدور الرئيسي في صدر الإسلام، حيث خطب النبي ﷺ في يوم الجهر بالدعوة، وكان يخطب في الوفود القادمة وفى الجيوش الذاهبة، وكان ﷺ يكلف القادر على الخطابة أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه وتجاه غيرهم، يدعوهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر .

وقد اصطلح العلماء على تسمية الخطابة الدينية بالوعظ، وتسمية القائمين بها بالوعاظ، وهذا تضييق لواسع، لأن الدين يشمل سائر جوانب الحياة، وكافة أمور الآخرة، وكل ما تتخيل الخطب فيه من تجارة، وزراعة، وصناعة، وسياسة، وتعليم، وحرب، هو من أساسيات الدين ولوازمه وبذلك يقصد بالخطابة الدينية الخطابة في الأمور كلها .

صحيح أن الدعاة إلى الله اليوم هم الأئمة والوعاظ الذين يباشرون بخطبهم جانباً من الدين يكاد ينحصر في باب الأخلاقيات، أو في تعليم بعض أصول العبادات والتشريعات، وابتعدوا عن أنواع كثيرة من الخطب، كالخطب القضائية والسياسية، والعسكرية، وتركوها للمحامين، والزعماء والعسكريين، وقد يكون هذا سر قصر الخطابة الدينية على الوعظ [1].

ووسيلة الخطابة في العالم الإسلامي وبخاصة الوعظية منها من أهم وسائل الدعوة في العصر الحديث لارتباطها بصلاة الجمعة، حيث يحرص المسلمون على سماعها، ولو أتقن الدعاة رسائلهم الدعوية التي تحتويها الخطبة لأمكنهم عرض الإسلام وتعليمه للناس، لأن العام الواحد يتكون من اثنتين وخمسين

---

(١) قواعد الخطابة صـ١٢ .

جمعة، فلو قدم الخطيب لمرتادي المسجد عدداً من الموضوعات المتقنة لقدم الكثير من المعارف .... ولو تصورنا الخطبة محاضرة علمية، والمصليين يحيطون بها فإننا نتصور جامعة راقية لتعليم المسلمين دينهم بوسيلة الخطابة .

إن الخطبة تحتاج إلى إعداد جيد يتم من خلاله تقسيم الخطبة إلى عناصر مترابطة في إطار موضوع متكامل .

وأهم مزايا الخطبة كوسيلة للدعوة أنها تأخذ صورة دينية واجبة، الأمر الذي يشير إلى أهمية إعدادها، وتنسيقها ويحتم على الداعي أن يستعد لإلقائها بعناية واهتمام، وتلزم الجمهور بالحضور للاستماع لها في يقظة وانتباه .

وتتميز الخطبة بأنها وسيلة مباشرة تجعل الداعي والمدعوين خلالها في اتصال مباشر .... وهذا يؤدي إلى اكتشاف أثر الدعوة على المدعوين .

٤) المناظرة :

المناظرة أسلوب علمي من أساليب الدعوة المباشرة، وصورتها أن يتخير الدعاة موضوعاً مثاراً بين الناس اختلفت الآراء فيه، وكثرت المناقشات حوله ... وبعد ذلك يقوم الداعية باختيار عدد من العلماء المهتمين بالموضوع المثار شريطة أن يمثلوا جميع الاتجاهات حول الموضوع ويقوم كل منهم بالإعداد لتوجهه .. على أن يحدد موعد ومكان للقاء يدعي إليه الناس وكل من يهمه هذا الموضوع .

ومثال ذلك :

عقد مناظرة في موضوع " عمل المرأة بين الشريعة والقانون " لأن الآراء تنقسم في هذا الموضوع إلى ثلاثة آراء، رأى يمنع عمل المرأة مطلقاً، ورأى يبيحه مطلقاً، ورأي يبيحه بقيود يحددها الدين وتقاليد المجتمع .

وتتم المناظرة بوجود مشرف عليها، يقوم أولاً بتعريف الموضوع وبيان أهميته، والتعريف بالمشتركين في المناظرة، وتوجه كل فريق منهم ... وفى نهاية المناظرة يقوم المشرف بتلخيص ما دار في المناظرة وما انتهت إليه.

وعلى كل طرف أن يوضح رأيه، ويدلل على أحقيته بما أعد من دليل، وما جهز من براهين .

ومن فوائد المناظرة أنها تهتم بالتعمق العلمي، والغوص في المسائل التخصصية ... ورواد المناظرة هم المهتمون بموضوعها ولذلك يتم الإعلان عن الموضوع قبل موعد المناظرة بمدة طويلة .

والمناظرة وسيلة راقية للدعوة يمكن للدعاة بواسطتها معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية برفق ولين، وبخاصة أن كل إنسان يسمع ما يقوله كل واحد من المتحدثين، ويشاهد ما يوجه إليه من نقد ولوم، ومن الممكن أن يحدد المستمع موقفه بعد المناظرة .

وفى التاريخ الإسلامي عقدت مناظرات كثيرة بين الدعاة وبين معارضيهم من أهل الكتاب، ومن غيرهم .

والمناظرة تختلف عن المناقشة لأن المناظرة تضم أطرافا متعارضة كل له توجهه الذي يدافع عنه، ويرد ما عداه، أما المناقشة فهي عرض للآراء في علاج قضية ما، وكلهم في اتجاه واحد، وقد يحدث خلاف بين المتناقشين في الإجراءات لا في أصل الموضوع .

<u>٥) المحاضرة :</u>

المحاضرة حديث طويل يلقي مباشرة على المستمعين .

والمحاضر يختار موضوعه مما يعرض له من مشاكل الحياة والناس، وهذا يجعله قريباً من قلوب الناس، محبوباً لديهم .

ويجب أن يكون الموضوع المختار مدروساً دراسة وافية مستفيضة بعد تحضير طويل وعميق، محللاً إلى عناصر بارزة، وخطوات واضحة مرتبة ترتيباً طبيعياً، ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة، ويفضي في النهاية إلى ختام يستحسنه المستمع، والذي يقوم بإلقاء المحاضرة هو الشخص الذي حضَّر الموضوع وجهزه، وفى أحيان قليلة نادرة يقوم بإلقائها شخص آخر نيابة عن المحضر .

والمحاضرة عادة تكون من أهل التخصص الدقيق ويصاحبها استعداد خاص كتجهيز مكان، والإعلان المسبق عن موضوعها .

وقد ذكر الأستاذ البهي الخولى تخطيطاً لمحاضرة في موضوع "**مقومات الإنسان الفاضل** " نوجزها هنا استفادة بها لأهميتها .

يقول الأستاذ البهى : إن من السهل عليك أن تفترض في هذا الإنسان أن له رسالة في الحياة يعمل جاهداً لتحقيقها وهو عزيز برسالته، لأن الإنسان الذي يعيش بلا غاية معينة، ولا مبدإ معروف يشبه السوائم المهملة أما هذا فهو صحاب رسالة وهدف .

وأخيراً لابد لعبد العزة والرسالة من العلم، ليكون من أمره على بصيرة وهدى، ومن لا علم له لا بصر له .

تقوم المحاضرة إذا على بيان مقومات الشخصية الفاضلة وهي العزة، والرسالة، والعلم، وتوضيح دور هذه المقومات في النشاط والحركة، فإذا وضح المحاضر ذلك اقتنع السامع بالمحاضرة، ويمكن للمحاضر أن يقسم الدعائم الأساسية إلى عناصر فرعية ويستحضر لكل عنصر ما يؤكده ويوضحه من كتاب الله، ومن سيرة رسوله ﷺ ومن سيرة صحابته الكرام، ومن حركات التاريخ وحوادث الزمان التي تسمع أو تقرأ أو تشاهد .

وعلى هذا فعناصر المحاضرة الرئيسية هي :

- أهمية العلم للإنسان فرداً وجماعة .
- ضرورة محافظة الإنسان على إنسانيته .
- دعائم الإنسانية الفاضلة العزة والثقة .
- لابد للإنسان من هدف وغاية .
- آثار الالتزام بدعائم العزة على صاحبها .

وعلى المحاضر أن ينظر في الدعائم فيحدد معناها وطرق تحقيقها والمحافظة عليها فمثلاً يجد أن العزة معناها ألا يذل المرء لمخلوق مثله، ويجد أن الإسلام يغرس العزة في نفس المسلم، لأنه من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الأرزاق قد علم أن رزقه في السماء، وما كان في السماء فهو مصون، لا تتطاول إليه يد عابث في الأرض، ولابد من الحملة على الرجل الذليل بمقارنته

بالرجل العزيز .

فنجد أن عناصر العزة هي تعريفها، والعوامل التي تحافظ عليها، وفوائدها والأضرار التي يقع فيها من لا يتمسك بها .

وعلى ضوء عناصر هذه الدعامة تكون بقية الدعائم، وعلى نمطها يتمكن المحاضر من تقسيم موضوعه أياً كان إلى دعائم، ثم يقسم الدعائم إلى عناصر.

ويجب أن يتحكم العقل في استنباط الدعائم وترتيب العناصر، وفى جمع الشواهد، وفى سوق الحديث، ويجب أن تتحكم في كل ذلك العقلية العملية الواعية.

وعلى المحاضر أن يحذر من بيان تقسيم موضوعه في المقدمة، أو بيان حقيقة عناصره، أو ينحو نحو التقسيمات الفلسفية، أو التعميق النظري، ففي الموضوع الذي حللناه، لم يذكر كل شيء فيه، ومن السهل أن يحلل المحاضر موضوعه بوجه آخر، ولكل محاضر أن يأخذ الجوانب التي يراها مفيدة، في موضوعه وفى مستمعيه [١].

وعلى ضوء ما ذكر نرى أن المحاضرة تشبه الخطبة في أنها تقصد إقناع الناس وإنها تعتمد التقسيم العقلي والعملي لموضوعها، وأنها تحتوي أقساماً تشبه الأقسام التي تحتوي عليها الخطبة، كما أنها تتخذ موضوعات منوعة تجعلها تتنوع إلى محاضرة سياسية، واجتماعية ودينية، ومع ذلك فإننا نلحظ فروقاً بين الخطبة والمحاضرة نذكر أهمها فيما يلي :-

١) موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة، لأن التقسيم يبدأ في المحاضرة أو بالمبادئ ثم تقسم المبادئ إلى عناصر بينما الخطبة تقسم إلى عناصر ابتداء، وعلى ذلك فالمحاضرة أقرب إلى البحث العلمي، والخطبة أقرب إلى الدرس الديني .

٢) يغلب على المحاضرة أسلوب تقرير الحقائق وتثبيت المعاني، والاعتماد على المنطق و التحليل والتوضيح، أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر، وتهييج الدوافع والانفعالات .

---

(١) انظر تذكرة الدعاة صـ٢٢٥، ٢٢٦ .

٣) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والمبادئ الأساسية، أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة، والمعاني الطارئة .

٤) المحاضرة تستغرق وقتاً طويلاً، ومن الممكن تقسيمها على عدد من الأيام، أما الخطبة فوقتها قصير، ولا تحتمل تقسيماً لأنها لا تصلح إلا لوقت واحد تلقي فيه .

٥) جمهور المحاضرة من الخاصة غالباً بينما جمهور الخطبة من سائر الطوائف .

ومع وجود هذه الفروق بين الخطبة والمحاضرة فإننا نلحظ أن المحاضرة أقرب شبهاً بالخطبة من المناقشة .

وعلى الخطيب الداعية أن يعقد بين الحين والآخر محاضرة في موضوع يختاره، ويدعو إليه الناس لكي يلون في أسلوبه لأن ذلك أجدى لدعوته وأكثر فائدة في مهمته [١].

<u>٦) الندوة :</u>

والندوة وسيلة للدعوة الإسلامية، وصورتها أن يجتمع عدد من العلماء والدعاة لمناقشة موضوع ما على أن يقوم كل منهم بتوضيح جزئية من الموضوع، يكمل بها زملاءه أمام جمهور يسمعهم ويتابعهم.

وبهذا التصور يسمع الناس عدداً من آراء العلماء في موضوع واحد يكمل بعضهم بعضاً .

ويمكن للمستمعين أن يعلقوا على المتحدثين اعتراضاً أو اتفاقاً أو استفهاماً، وحينئذ تعرف المحادثة بأنها محادثة مفتوحة .

واختلافها عن الخطبة والمحاضرة والمناقشة والمناظرة واضح، لأن الخطبة والمحاضرة يتكلم فيها فرد واحد والندورة تجمع عدداً ... وكذلك نراها تختلف عن المناقشة والمناظرة لأن المناقشة عرض للآراء في موضوع ما، ومناقشتها للوصول إلى الرأي الأسلم، وأيضاً فإن المناظرة تجمع عدداً

---

(١) قواعد الخطابة صـ١٤٥ إلى ١٤٨ .

متعارضاً كل يثبت رأيه وينقض ما عداه ... أما الندوة فهي تعاون عدد من العلماء في إظهار قضية واحدة بلا تعارض بينهم وكذلك فإن المناقشة يحضرها المناقشون وحدهم، أما الندوة فيحضرها جمهور كبير يسمع ويتابع .

والدعاة يمكنهم مناقشة قضايا مجتمعهم خلال هذه الوسيلة لمالها من تأثير في الناس لأنها تجمع آراء العلماء في موضوع واحد، وهذا يساعد في إقناع الآخرين، والثقة فيما يسمعون لصدروه من عدد من العلماء .

٧) الحديث :

يراد بالحديث في مجال وسائل الدعوة ما يقوم به الدعاة بعرض فكرة أو تفسير آية، أو شرح حديث، أو بيان حكم فقهي يحتاجه الناس .

والحديث قليلة كلماته قصير وقته، وهو مناسب للناس في عصر السرعة والانشغال بالدنيا .

ومن الآداب التي يحتاج إليه المتحدث ما يلي :-

١- إخلاص نيته لله تعالى طلباً لمرضاته ونيل ثوابه، وأن يكون غرضه من الحديث الوصول إلى الحق والصواب .

٢- أن يكون لينا رفيقاً رقيقاً في كلماته، قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[١].

وقال ﷺ " **إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ** "[٢].

٣- أن يستعمل من الأدلة أظهرها وأجلاها حجة وأعدلها مسلكاً، وأن يستعمل المبادئ المسلم بها وأن يجتهد في كشف الشبه وتفنيدها بالطرق الصحيحة والبراهين العقلية، ليظهر الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

٤- أن لا يخلط الأصول بالفروع، ويقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما خصه التأخير، وأن يعطي كل شيء حقه ومستحقه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الرفق ٢٥٩٤ .

٥- التزام الأخلاق الفاضلة والآداب العالية، والأقوال المهذبة البعيدة كل البعد عن الطعن أو السب أو الهمز أو اللمز أو الانتقاص والاحتقار .

فالمؤمن ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش المتفحش البذيء .

وعلى رأس تلك الأخلاق : أن يكون كلامه حسناً، ومنطقه جميلاً، وقوله مهذباً، فالكلام الطيب والقول الحسن يأسران النفس أسراً [١].

<u>٨) المؤتمرات والمجامع العلمية :</u>

يراد بالمؤتمرات العلمية اجتماع لفيف من العلماء المتخصصين في أحد فروع العلم بصورة دورية، أو عند الحاجة لمناقشة موضوع متعدد الجوانب متنوع التوجهات .

وعدد العلماء المشاركين في المؤتمرات والمجامع العلمية كثير يصل إلى المئات في بعض الأحيان، ولذلك لا تكفيهم جلسة واحدة كالمناظرة والمناقشة والندوة .... ولا يمكن لمجموعهم أن يجتمع في مكان واحد، ولذلك وضع العلماء للمؤتمرات والمجامع طريقة للاجتماع والمدارسة، وذلك بأن يقسم موضوع المؤتمر إلى عدة جوانب على أن يقدم كل مشترك في المؤتمر بحثاً علمياً يلقيه في جانب يختاره، ويقسم المؤتمرون إلى لجان وفرق، كل فرقة تختص بدراسة جانب تطلع على أبحاثه، وتناقشها وتقرر ما تراه إزاءها .... وتستمر هذه المناقشات عدداً من الأيام تنتهي بلقاء موسع لإقرار ما انتهت إليه اللجان المختلفة.

ويمكن للمؤتمرين إلقاء محاضرات موسعة عامة خلال أيام المؤتمر لها صلة بالموضوع الرئيسي .

وهذا اللون من نقل الأفكار قديم فهناك مجامع الكنيسة ومؤتمراتها التي تمت في القرن الثالث الميلادي، وهناك المؤتمرات الإسلامية العديدة .

ومن المجامع ما هو ثابت معروف بأعضائه كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية بمصر، ومجمع الفقه بالمملكة العربية السعودية ... والمجمع العلمي بالهند ... ومجامع اللغة العربية ... وهكذا ...

---

(١) كنوز الدعوة صـ١٨٤ .

ومنها ما هو مؤقت مثل المؤتمرات التي عقدت لدراسة موضوع ما في السيرة أو السنة أو الدعوة أو الاقتصاد ... ويمكن أن يشترك في المؤتمرات الإسلامية غير المسلمين لعرض أرائهم والاستماع لغيرهم .

وهذه المؤتمرات وسيلة ناجحة لوضع أفضل تصور في الموضوع المثار، إلا أنها تحتاج لمساندة كبيرة من الجمهور، ومن القادة ... لأن التوصيات في أغلبها تكون مثالية الغاية والهدف، وتتصور ما يجب أن يكون .

لقد عقدت الجامعة الإسلامية عدة مؤتمرات لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ناقش المؤتمرون خلالها كافة المحاور المتعلقة بالدعوة والدعاة، ووضعوا توصياتهم المشتملة على تخطيط كامل لكل أركان الدعوة، وأودعوا توصياتهم في المؤسسات والجامعات الإسلامية للأخذ بها كل على قدر طاقته ووسعه .

والمجامع العلمية الموجودة في العالم الإسلامي لها أهميتها لأنها تعمل على جمع علماء الأمة لمناقشة موضوع يهم الأمة كلها ... وترجع أهمية المجامع لصعوبة الإجماع الشرعي بعد اتساع البلاد، وتفرق العلماء في بلاد العالم كله ولذلك فهي تمثل إجماعاً جزئياً في حدود الممكن .

وتهتم المجامع بالقضايا العامة .... ومن أمثلتها :-

١) الحكم الشرعي للفوائد المترتبة على المعاملات المالية .

٢) تنظيم مطالع الهلال .

٣) الحلول المعاصرة لنقل الأعضاء ... وأطفال الأنابيب ... وهكذا .

٤) تطوير الخطاب الديني .

٥) قضايا المرأة في المجتمع المعاصر .

٦) تقنين الشريعة الإسلامية .

٧) تيسير العلوم الإسلامية .

*   *   *

إن الوسائل المباشرة يختلط فيها الأسلوب مع الوسيلة لظهورهما معاً في آن واحد، ولذلك كان الفصل بينهما عملية منهجية بحتة توضيحاً للفهم، وبياناً للجوانب العملية في أركان الدعوة إلى الله تعالى .

وأعيد هنا ...

إن هذه الوسائل تكون وسيلة حين ننظر إليها من ناحية شكلها الفني، وصورتها الحركية .... أما إذا تأملناها من ناحية الكلمات والخطاب فهي أساليب للدعوة .

المبحث الثالث
الوسائل السمعية

يراد بهذه الوسائل ما تصل بواسطته الرسالة الدعوية إلى سمع المدعو مع عينه وجوارحه الأخرى، وهي كثيرة العدد، متنوعة الصور، ومنها :-

أولاً – المذياع :-

والمذياع هو ناقل الصوت عبر الإثير، ويقوم بإعـداد الرسـالة المذاعـة هيئات ومؤسسات ضخمة، لها ميزانيات كبيرة ... ولذلك نرى جهـداً علميـاً، وأثراً واضحاً في كل ما يذاع ويصل إلى المستمعين .

إن المسئولين عن الإرسال الإذاعي يعملون علـى إرضـاء المـستمعين وإشباع حاجاتهم الفكرية والثقافية ... ولذا نرى تعدد البرامج المرسلة، وتنوعها ودقة توجهها إلى عقل ونفس الناس ... إننا من خلال المذياع نـسمع الـرأي والتحليل، والفكرة والتعليق ... والحدث والدوافع .... ونسمع الكلمة، والقـصة التمثيلية والحديث، والأخبار، وغير ذلك .

والمسئولون عن الإرسال الإذاعي يعتمدون علـى منـدوبين ومراسـلين ووكالات الأنباء في جهات العالم المختلفة لمعرفة الأحـداث والأخبـار فـور وقوعها، ولاكتشاف اتجاهات الرأي العام، ورغبات الجمهور، كما يقومون بعد كل فترة بأخذ الآراء لاستبيان توجهات المستمعين من أجـل الاسـتمرار فـي البرامج المفيدة، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل، واستحداث برامج أخرى، وهكذا ... والإذاعة وسيلة حسنة للدعوة الإسلامية لما يلي :-

١) الإذاعة تسهل وصول الفكرة الإسلامية إلى كل مكان، وبمختلف لغات العالم من خلال الإذاعات الموجهة باللغات الأجنبية .... وبذلك يصل الإسـلام بلا عائق أو صد .. لأن المعارض لا يمكنه إغلاق الغلاف الجوي، أو التحكم فيه بصورة مطلقة .

٢) يتمكن الدعاة بواسطة المذياع من مخاطبة كافة فئات المجتمع بعـدما يعدون البرامج المختلفة، ويناقشون خلالها قضايا المرأة، والعمل، والتجـارة،

والشباب، والتعاليم ويحللون الأحداث، ويفسرون الظواهر، ويقــدمون الحلــول لحاجات الجماهير .... إلخ .

٣) يمكن مخاطبة الإنسان بواسطة المذياع أياً كانت حالته، لأنه سيــسمع الكلمة المذاعة وهو في بيته، أو في عمله، أو وهو يستريح أو وهو يأكل، وهكذا

٤) يصاحب الدعاة من خلال المذياع الناس في ســفرهم وفــي إقــامتهم ويذكرونهم وهم بعيدون عنهم، فالمسلم إذا ذهب للحج، أو ســافر للتجــارة، أو ذهب للحقل يصطحب معه المذياع يتابع معه البرنامج الذي يرغب، ويريد بــلا عناء أو مشقة .

٥) يتمكن الدعاة بواسطة هذه الوسيلة من التركيز على موضوع معين ... فمثلاً ينصحون بالكلمة المباشرة، وبالتمثيل الهادف، وبالحوار بــين طــرفين، وبالأنشودة الدينية ... وهكذا .

٦) يتمكن الدعاة من متابعة الأحداث والمناسبات فور ظهورها، فيوصلونها للناس ويقومون بتحليلها، وبيان حكمتها الدينية، كشهر رمضان، وأشهر الحج إذ تهتم الإذاعات الإسلامية ببيان الأحكام الفقهية بكل عنايــة، ومتابعــة أحــوال المسلمين معها، وتوضيح كيفية الاستفادة المثلى منها، وربط المسلمين بعــضهم ببعض خلالها وبواسطتها .

والاستفادة بوسيلة الإذاعة في الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى ما يلي :-

أ) دقة الرسالة الدعوية، وذلك يتم بواسطة إعداد جيد من قبــل المؤســسة المشرفة، أو الدعاة القائمين بالإرسال، لأن وقت برامج الإذاعة قــصير وهــذا يحتاج إلى الدقة في اختيار الموضوع، والدقة في اختيار الكلمات، والدقة فــي طريقة العرض، والدقة في استخدام المثيرات الصوتية التي تساعد على انتبــاه المستمعين .

ب) أن يعد مقدمو البرامج الدعوية الإجابة عن كل ســؤال محتمــل، لأن المستمع بعيد، وقد يعتريه سؤال ما، فإذا ما قدم الداعية المرسل الإجابة ضــمن برنامجه فإنه يحقق بذلك فائدة عظمى .

وعلى الداعية المرسل أن يضع نفسه في بيئة المستمعين، ويبحث عن أحوالهم، وطبائعهم، وكيفية خطابهم حتى يتمكن من مناقشة كافة تصوراتهم خلال رسائله الدعوية .

جـ) أن يكون الدعاة مقدمو البرامج الدعوية نماذج تطبيقية للإنسان المسلم الذي يعملون لوجوده في الناس .... وبذلك يكون لحديثهم أثر، ولدعوتهم قبول، ولا يصح مطلقاً أن يقدم الإسلام رجل مشهور بعدم التزامه الديني، أو امرأة لا تطبق صورة الإسلام في لباسها وحجابها .... وذلك لأن الالتزام العملي للمتحدث يضفي على حديثه رونقاً واستحساناً .

ثانياً – الشريط :

من الوسائل المستحدثة التي يمكن الاستفادة بها في تقديم الإسلام والدفاع عنه الشريط الإسلامي، وهو يحتاج لجهد بسيط، إلا أنه لابد له من تركيز عقلي فى اختيار الموضوعات التي يقوم بتسجيلها، ونشرها .

وبواسطة الشريط يمكن نقل الخطب، والمحاضرات وتسجيل الكتب، والتاريخ الإسلامي .

وتتميز هذه الوسيلة برخص تكاليفها، وإمكانية تداولها.... وهي دعوة يقوم بها من لا يقدر على الدعوة بنفسه .

وقد رأينا تطبيق نموذج عملي مع الشرائط المسجلة حين قام بعض المخلصين من المسلمين بتخير مجموعة من الشرائط ذات الموضوعات الهامة وتوزيعها هدايا على الجيران والزملاء، وأصحاب المسجد والعمل.

ويمكن للشريط أن يسجل الرسائل المباشرة وينقل مضمونها إلى الناس، ويكون هو وسيلتها حينئذ .

ثالثاً الرسائل :

يهتم الشباب بالتعارف عن طريق الرسائل البريدية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى نشر الرغبة في التعارف بإحدى الصحف والمجلات التي تهتم بذلك وسرعان ما يأتي رد عديد من شباب العالم يوافقون على هذا التعارف الذي

يعتمد على المراسلة .... وخلال مرحلة التعارف الأولى يبين كل طرف للآخر اسمه وثقافته واهتمامه، ودينه، وطريقته في التفكير، ورغبتـــه فـــي مـــشاركة الآخر، والتعاون معه، وبهذا الأسلوب يمكن عرض الإسلام على الآخر شـــيئاً فشيئاً عن طريق الحوار المنتظم والإقناع الدقيق .

ويحتاج هواه المراسلة إلى الصدق والصراحة والإحساس بالأخوة والمودة وبخاصة في القضايا التي يناقشونها معاً .

والمراسلة الآن سهلة وسريعة للاستعاذة بالمخترعات الحديثة خلالها .

رابعاً : الملصقات :

تتضمن الملصقات دعوة في كلمات قليلة تذكر بالله وتأمر بالخير، وتـــدعو إلى المعروف ووفائدتها تعم كثيراً من الناس، يقرءونها حين رؤيتها في مكـــان العمل أو في الطريق، أو عند باب البيت ... وقد رأيت كلمات دعويـــة كتبـــت على أحد جوانب العملة الورقية، ونقشت في العملة المعدنية ... وكانت محـــل اهتمام المالك لها .

ويمكن ابتداع صور عديدة من الملصقات يستفيد بها الناس فـــي الأمـــاكن العامة والخاصة .

المبحث الرابع
الوسائل المكتوبة

استعمل الإنسان منذ ظهوره الكتابة بطريقته البدائية إذ كانت الكلمات صورة أو نباتاً أو حيواناً .... وكان المكتوب عليه جلداً أو خشباً أو حجراً أو زرعاً ... وهكذا .

وأدى قلة عدد الكتَّاب قديماً إلى الاعتماد على الحفظ والمشافهة، وحين يكتب أمر يكون مختصراً، ومن نسخة واحدة .

فلما وجدت المطبعة عام ١٤٥٤م وصنع الورق تمكن الناس من الانتقال إلى عصر جديد، هو عصر الكتابة، وسهل نقل الأفكار بالكلمات تكتب وتقرأ .

وعلم المسلمون أهمية القراءة والكتابة منذ ظهور الإسلام ولذلك كتبوا القرآن الكريم وقرأوه، واستمروا في محافظتهم عليه بالكتابة، والقراءة، والحفظ، والفهم .

واستفاد النبي ﷺ بهذه الوسيلة فأرسل إلى الملوك والرؤساء كتباً تتضمن دعوتهم إلى الإسلام .

وفى العصور الحديثة تطورت الكتابة والطباعة بصورة رائعة وأصبح من الممكن الاستفادة بهذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى بصور عديدة منها .

أ) الكتاب :

يعد الكتاب وسيلة للدعوة إلى الله تعالى لأن المؤلف حين يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحليلية لموضوعات هامة مثل :

- الانفصام بين العقيدة والسلوك – الأسباب والعلاج .
- ظاهرة الوهن في المجتمع المسلم .
- الدعوة المثالية في القرية المصرية .
- العولمة الفكرية وموقف الإسلام منها .
- الداعية المثالي – بين التصور والواقع .
- المحافظة على نفسية المدعوين .

- طرق الإقناع في الدعوة إلى الله تعالى .

والمؤلف خلال إعداده للكتابة يقرأ العديد من المراجع التي تساعده في إخراج مؤلفه ... ولذلك يغلب على الكتاب الإسلامي دقة النظر، وشمول التحليل، ووضوح النتائج وهذا يساعد الدعاة والمدعوين .

ويجب أن نتذكر دائماً أن العلوم الإسلامية مثل التفسير، والحديث، الفقه، والتوحيد ... حفظها الكتاب للأجيال المتعاقبة .

ويمكن للكتاب الواحد أن يقدم عدداً من الموضوعات، ونستطيع أن نؤكد بوجه عام أن التغيرات التي حدثت في المجتمع الإنساني على مر العصور أثرت تأثيراً كبيراً على الكتاب، من ناحية شكله، وحجمه وموضوعه، ونوع الورق والتجليد وجمال الطباعة وغير ذلك.

وأصبح الكتاب في كل بلاد العالم هو الغذاء الروحي والعقلي الذي يطالب به الجميع مثل رغيف العيش، فكما أن رغيف العيش يغذي الجسم فكذلك الكتاب يغذي الروح والعقل، وقد ازدادت أعداد الكتب، وارتفع نتيجة لذلك عدد المكتبات في العالم، فالكتب وسيلة هامة للثقافة، ونقل المعرفة وهذا يساعد على تكوين الرأي العام، بالإضافة إلى فوائد المعرفة العلمية والمهنية .. وعلى كل حال فإن الكتب لها تأثير كبير في تكوين آراء الطبقة المثقفة بوجه عام، والطبقة الممتازة منهم بوجه خاص، وهؤلاء الذين يمثلون الرأي العام المستنير أو المسيطر .

<u>ب) الكتيب :</u>

والكتيب تصغير كتاب، وهو عبارة عن فكرة سريعة توضع في كلمات موجزة، وفائدة الكتيب تظهر في إمكانية الحصول عليه، وإمكانية قراءته في أوقات كثيرة وأثناء الحركة والعمل .

والكتيب صغير الحجم، قليل الصفحات وهذا يسهل وضعه في جيب صغير، وسرعة الانتهاء من قراءته ... وسرعة فهمه لأنه يعرض الموضوع مجملاً وبأسلوب سهل .

وقد أعد كثير من العلماء كتيبات إسلامية في موضوعات شتى تخدم الناس مما يسهل عرض قضايا إسلامية على الكثيرين .... ومن هذه الكتيبات :-

١- حكم حلق اللحى .　　　٢- أداء مناسك الحج .

٣- ضرورة ستر العورة .　　　٤- فضل ليلة القدر .

٥- حكم شرب الدخان .　　　٦- كيف نستقبل رمضان .

جـ) الصحيفة اليومية :

الصحيفة اليومية وسيلة اتصال جماهيري لأنها تصل للجماهير الغفيرة، ويجد الجميع خلالها مرادهم، لأنها تحتوي على أبواب وموضوعات شتى .

وقد اصطلح على أن الصحيفة هي التي تصدر كل يوم أو مرة في كل أسبوع بحجم معين، وصفحات كبيرة معدودة، أما المجلة الأسبوعية فعدد صفحاتها كبير يشبه الكتاب، وتهتم بالصور مع الحدث، وتتناول بالتحليل والتعليق فى كافة موضوعاتها .

وتتميز الصحيفة عموماً بما يلي :-

أ) متابعة الأخبار في العالم كله بواسطة المندوبين والمراسلين ووكالات الأنباء، وهذا يقدم للقارئ صورة للعالم كله كل يوم .

ب) سهولة الحصول على الصحيفة يومياً لقلة ثمنها ولأن المشرقين على الصحف يتبارزون في السبق إلى القارئ .

ج) تخدم الصحيفة الجانب الذي قامت له فهناك الصحف الاقتصادية، والزراعية، والسياسية ... ويجب أن تظهر صحف الدعوة لتهتم بنشر الإسلام وتبليغه للناس .

د) الصحف الإسلامية الجادة هي التي لا تنشر الصور العارية، ولا الأخبار الفاضحة، ولا الإعلانات المحرمة وإذا أشارت إليها كأحداث فإنها تقدمها بشكل منفر .

وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة لخطورتها، ولأهميتها عند القراء ... ولانتشارها الواسع ... إنها لا تحتم قراءتها في وقت معين، وإنما تترك للقارئ

الحرية في اختيار وقت قراءتها ... كما أنها تسمح بقراءتها عدداً من المرات، ليرجع إليها من يحتاج لذلك في الوقت الذي يريده .

لذلك يجب على المسلمين في أنحاء المعمورة استغلال الصحافة اليومية لصالح الدعوة الإسلامية، ويجب نشر المواد الإسلامية بها، من أخبار وتفسيرات لها، وآراء، وتحقيقات، كما يجب بيان أحكام الإسلام، و شرح مفاهيمه للناس .

إن الصحف اليومية والنصف أسبوعية والأسبوعية إلى جانب المجلات تعتبر سلاحاً قوياً وفعالاً ومفيداً لو أحسن استغلاله لصالح الإسلام .

إن الفقهاء يقولون : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولذلك نقرر أن استخدام الصحافة في نشر الدعوة الإسلامية أمر واجب على كل مسلم يستطيع ذلك .

والصحيفة لها أبوابها المختلفة وتتسع لأشكال الكتابة المختلفة وفيها الكتاب، والصحفيون المتعمقون فيما يكتبون، والفاهمون لما ينشرون .

من هنا كانت أهمية الصحيفة لخدمة الدعوة الإسلامية .

فهي تستطيع أن تناقش القضايا الإسلامية خاصة القضايا التي اختلف الناس حولها في العصر الحديث مثل :

قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، وهل تطبق فوراً ومرة واحدة أم بالتدرج؟

وهل الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان أم لا ؟

وهناك القضايا التي يحاول أعداء الإسلام تشويهها مثل تعدد الزوجات والطلاق.

إن كثيراً من الناس ينقصهم معرفة أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وأنها واجبة التطبيق على الفور، وجملة واحدة في الجرائد اليومية يمكن أن تقوم بدور كبير في ذلك وكذلك الأسبوعية وكل المطبوعات إذا استخدمت لصالح الدعوة الإسلامية .

لقد اهتم الساسة ورجال الأحزاب في العــصر الحــديث بهــذه الوســيلة، فأصدروا صحفاً تنطق باسمهم وتزين سياستهم، وتحبب الناس فيهم، والدعاة هم الأولى بذلك خدمة لدين الله تعالى ونفعاً للناس أجمعين .

د) الدوريات :

ويراد بالدوريات المطبوعات التي تقدم للقارئ بصفة دورية كــل ثلاثــة أشهر أو نصف سنة أو سنة.

ويراد بالحوليات المطبوعات التي تــصدر كــل عــام، والــدوريات، أو الحوليات تتضمن دراسة موضوعات بحثية طويلة ... فلــيس دورهــا نــشر الأخبار، ومتابعة الأحداث .

وتصدر الحوليات والدوريات من هيئات كبرى متخصصة .

والدوريات تفيد العلماء والخاصة، ولذلك يحتاج إليهــا الــدعاة، ويمكــن عرض موضوعات دعوتهم خلالها .

المبحث الخامس
الوسائل المرئية المصورة

يراد بالوسائل المرئية تلك التي تنقل رسـائلها إلـى المـستقبل بواسـطة الصورة والصوت وهي التي تعرف بـ " التلفاز " وهو جهاز حديث الظهور، سريع التطور ويتميز بأنه يخاطب الإنسان بأكثر من جانب في وقت واحد .

فهو يخاطب العيون بصوره ومشاهده .

ويخاطب الآذان بكلماته وبيانه .

ويخاطب العقول بقناعاته ونقله الأحداث من مواقعها .

ويخاطب العواطف بإبراز المـؤثرات الوجدانيـة أمـام رؤى الإنـسان وتصوراته.

قد يسمع الإنسان حديثاً عن زلزال مدمر، أو صاعقة مهلكة فيتـأثر بمـا يسمع تأثراً ما ... أما لو قدم التلفاز صورة الدمار، ومناظر الفـزع، وأشـكال التدمير والهلع فإن التأثير يزداد حدة ... وذلك بسبب أن التلفاز أتى للإنسان من كافة جوانبه العقلية والعاطفية والنفسية ... ولم يترك أمام المـشاهد إلا خيـار التأثير والانفعال .

قد نتأثر بسماع التّلبية والتكبير يوم عرفة .. ولكن هـذا التـأثير يـزداد ويتضاعف إذا نقله التلفاز إلينا .

وقد تمكن العلماء من ربط التلفاز بالفضاء الخـارجي بواسـطة الأقمـار الصناعية وبذلك تمكنوا من نقل أحداث أي منطقة في العالم في لحظة وقوعها بلا حد للمسافات أو الأماكن .

إن المشاهد بواسطة التلفاز يرى انفعال المتحدث وقوة المناقـشة، ويتـأثر بذلك كما يتأثر بالصور تتحرك هنا وهناك تظهر القدرة في خلـق الله تعـالى وتقدم العبر والعظات في صورة وحركة .

وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة ... وعلى الدولة أن تمكن لهم منها .

المبحث السادس
الوسائل الفضائية الحديثة

لم يقف العقل البشري عند اختراع الوسائل السابقة، فواصل بحثه حتى تمكن من الوصول للفضاء، ووضع فيها أقماراً من صنع الناس ترتبط بالأرض لتقديم خدمات عديدة ... فهي محكومة بصاحبها الذي صنعها وأطلقها في الفضاء، تنفذ أوامره، وتخضع لما يطلبه منها فهي تكشف ما في الأرض تصوره، وتسجل صوته، وقد تحتفظ به لصاحبها وحده إن أراد ذلك .

وهي توضع لربط العالم كله، فتنقل الصوت والصورة من مكان الحدث إلى من يلتقطه في أي جزء من أجزاء العالم ... وهكذا تحول العالم بواسطة الأقمار إلى قرية صغيرة .

والوسائل الحديثة عديدة ... ومنها :-

أ) التليفون المحمول :

وهو جهاز صغير الحجم ذو إمكانيات عديدة فهو مع قيامة بعملية الاتصال اللاسلكي بالآخرين يعرف بأوقات الصلاة، وينقل القرآن الكريم مكتوباً ومقروءاً بأصوات عديد من القراء ... كما يحمل تفسير آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ بعد أن يلتقط هذا وغيره من الأقمار الصناعية .

ويمكن بواسطة التليفون المحمول نقل رسائل مكتوبة في أي موضوع يريده المرسل ... وهذا يسهل للدعاة عملية إيصال الخير للناس، وتحقيق تواصل مكين معهم، وبواسطة هذا الجهاز يستقبل الدعاة أسئلة المدعوين ويردون عليها بأحكام الشرع الحنيف .

ولتحقيق الفائدة الحسنة بهذا الجهاز ينبغي وضع خطة دقيقة للاستفادة به، حتى لا يتحول إلى جهاز للكسب والتربح، واللعب والهوى .

ب) البريد الإليكتروني :

ويراد به ما يمكن أن يفعله أي فرد أو هيئة، إذ تضع لنفسها رمزاً معيناً، وتفتح به موقعاً على هذا البريد الفضائي ... وبواسطة هذا الموقع يمكن إرسال

أي رسالة لأي موقع .... واستقبال أي رسالة يوجهها الآخر من أي موقع .

والدعوة بواسطة البريد الإليكتروني سهلة تحتاج من الدعاة بث رسائل إلـــى مختلف المواقع تعرف بالإسلام وترد الهجمات التي يتعرض لها الإسلام .

* * *

وحتى تتحقق الاستفادة بهذه الوسائل جميعاً وبأي جديد يحدث لابد للدعاة من مراعاة الأسس التالية :

أ) مشروعية الوسائل :

الدعاة يعملون على تبليغ الإسلام الذي شرعه الله للناس بوســائل متعــددة، ولذلك وجب استعمال الوسائل المباحة ، فلا يصح أن تكون الوسيلة صورة عارية، أو آلة مغصوبة، أو لونا فنياً يتضمن المحرمات التي لا يبيحها الشرع الحنيف .. ولذلك وجب أن تتسامى الوسائل الدعوية لترتقي مع سمو الغاية والهدف ... ومن هنا كان إقامة سرادق للدعوة مثلا في أرض مملوكة للغير بغير إذنه أمــر غيــر جائز لاشتماله على اعتداء على مال الغير وهذا غير مباح في شرع الله تعالى .

ب) خلو الوسائل من الضرر :-

قد تكون الوسيلة في ذاتها مباحة لكن كيفية استعمالها يضر بــالغير كاتخــاذ مكبرات الصوت بجوار مريض يؤذيه الصوت المرتفع ... وفى هذه الحالة يلغي مكبر الصوت أو يخفض صوته حتى لا يكون سبباً في الأذى والضرر، وحتى لا تكون وسيلة الدعوة ضارة بالغير .

ج) ملائمة الوسيلة للتقدم الحضاري :

الحضارات تتقدم، والمدنيات تتطور باستمرار، والواجب أن تتلاءم وســائل الدعوة مع مستجدات العصر ومنتجاته، لأن استعمال الوسائل القديمة قد لا يفيد في بعض الأحيان، وقد يكون ضررها أكثر من نفعها، فمثلاً كان المتحدث في القــديم يصعد على جبل عالٍ ليخاطب الناس، وكان يدور على القبائل راكباً دابة ... ومثل هذه الوسائل لا يمكن استعمالها اليوم، ولا تفيد من يستخدمها لأن العــالم اليــوم يركب الصاروخ، ويتحرك عبر الفضاء ... ويجب أن يرتقي الــدعاة بوســائلهم ليحققوا للدعوة قولاً بين الناس .

لقد قرأنا أن دعاة للمذاهب الباطلة في أفريقيا يركبون الطائرات الخاصة، ويحيطون فكرهم بهالة من الغنى والتقدم للتأثير في مدعويهم ... وهـم بـذلك يحققون نجاحاً لما يدعون إليه مع أنه باطل ... الأمر الذي يدل على ما للوسيلة المطورة من تأثير في المشاهدين.

إن كثيراً من القرّاء يحكمون على مضمون الكتاب بجودة غلافه، ويقبلون عليه لرضاهم عن الشكل البراق والصورة الجذابة .

والإسلام دين عظيم في مظهره ومخبره ، ويجب أن تتساوى وسائله مع هذه العظمة لتلتقي مع عقول الناس، وعواطفهم أينما كانوا وكيفما كانوا .

ولا يصح أن يتجاوز هذا التلاؤم المطلوب للوسيلة الدعوية حدوده المشروعة حتى لا يدخل في حد السرف والتبذير أو يخرج عن حد الطاقة والتكليف .

د) تضمن الرسالة لعوامل الجذب والتأثير :

وسائل الاتصال المعاصرة تهتم بمخاطبة الإنسان بأكثر من ناحية في وقـت واحد، حيث نراها تجذب البصر، وتشد السمع، وتحـرك الجـوارح بمثيـرات ومؤثرات عديدة ... وهي بذلك تأخذ المستقبل إليها بصورة كلية، وتحول انتباهه إليها ... وذلك أمر له أهميته ويجب أن تستفيد الوسائل الدعوية به لتكـون أكثـر تأثيراً في المدعوين ... ونظريات الاتصال تضع فلسفتها في قوالب عملية الأمـر الذي يمكن لرجال الدعوة من الاستفادة من الخطط التي وضعها رجال الاتـصال المعاصر لما في ذلك من خير ونفع للدعوة .

هـ) ملاءمة الوسيلة للمدعوين :

يختلف المدعوون اختلافاً بيناً متأثرين في ذلك بالبيئـة والثقافـة والتقاليـد والعادات، ولذلك كان المقبول في جماعة مرفوضاً عند أخرى ... والواجـب أن تكون الوسيلة ملائمة للمدعوين لتقوم بدورها على الوجه المطلوب ... فالكتـاب مثلاً لا يفيد في بيئة أمية ... والوسائل الإلكترونية لا جدوى منها بـين الفقـراء الذين يبحثون عن قوت يومهم .

ومن هنا كان التلاؤم بين الوسيلة والمدعوين ضرورة لازمة .

الفصل الثاني

الــــداعيــــة



تمهيد :

وسائل الدعوة هي الآلات التي تحمل الدعوة فكرة معنوية وتنقلهـا إلـى المدعوين في صيغ بيانية توضح المعني المراد .

والربط بين الفكرة والصياغة والتحرك بها خلال قنوات الوسيلة تحتاج إلى عقل يفهم، وشخص يتحرك، ووسائل تمكن مـن الحركـة والوصـول إلـى المدعوين .

إن الداعية هو الإنسان الذي لابد منه في تبليغ الدعوة لأنه هو الذي يفهـم الفكرة، ويحملها مصاغة في ألفاظ بلاغية، وتوصيلها من خلال الوسائل إلـى المدعوين ولذلك عد الداعية وسيلة الوسائل، أو الركن الذي تظهر به الدعوة من خلال أقواله وعمله، وسلوكه .

ومسئولية الداعية متعددة الجوانب، ولذلك كان لابد من اختيـاره شخـصاً جاداً يقدر المسئولية، ويصون الأمانة، ويشعر بأهمية الدور الذي يقوم بـه لله رب العالمين .

إن الداعية شخص يفهم ويعلم، ويصدق ويؤمن، ويقوم بدوره في الـبلاغ والدعوة، ويربط بالناس بخلقه وسلوكه، وبذلك ينجح في تبليغ الإسلام للنـاس، وإيصاله للعالم كله .

وهذا الفصل حديث عن الداعية من عدة زوايا حيث أعقد لكل زاوية مبحثاً ولذلك كانت المباحث هي :

المبحث الأول : أهمية الداعية للإسلام .

المبحث الثاني : تكوين الداعية .

المبحث الثالث : منهجية تكوين الداعية .

المبحث الرابع : صفات الداعية .

وسوف تأتي تباعاً فيما يلي :-

المبحث الأول
أهمية الداعية للإسلام

الداعية هو حامل الإسلام للناس، وضرورته للدين حتمية، لأن الدين لا يتحرك بنفسه، والوسائل المادية تحتاج لعقل يحركها ويستفيد بها، والداعية هو ذلك الإنسان الذي يحمل الإسلام ويصوغه في رسائل بيانيه، وينقله عبر قنوات وأدوات إلى أناس معروفين له أو غير معروفين .... ولذلك كان على الداعية أن يعد رسالته في موضوع محدد يتلاءم مع المدعوين، ويلتقي مع عقولهم وعواطفهم.

والداعية وارث النبي ﷺ في مهمته الإرشادية، والقائم مقامه في إبلاغ دين الله تعالى، وكان النبي ﷺ يرشد المسلمين إلى ذلك ويحثهم على القيام بالدعوة والتبليغ فقال لأصحابه " **ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب** "[1] .

وقال ﷺ : **تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم** "[2].

وقد سبق أن بينا أن تبليغ الإسلام فرض واجب، ولا يتم ذلك إلا بواسطة الداعية، ولذلك كان وجود الداعية أمر واجب، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها، فما صح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد وتهمل سواه، وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يجتمعوا كافة على غرض واحد، ولو كان هو الجهاد فقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[3].

يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني

---

(١) صحيح البخاري جـ١ صـ٣٧ كتاب العلم باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

(٢) الفتح الرباني جـ١ صـ٢٦٤ كتاب العلم باب فضل تبليغ الحديث .

(٣) سورة المائدة الآية ١٢٢ .

عصبة تخلف السرايا فإذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآنا تعلمه القاعدون مع رسول الله ﷺ وذلك معني " لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ " أي يتعلم القاعدون مع النبي ﷺ وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون[١] وبمثل ذلك فسر مجاهد وقتادة الآية .

وهذا التفسير ينهي عن التجميع الكامل للنفير، ويحث على بقاء جماعة مع النبي ﷺ لمتابعة الدعوة، وذلك هام في حد ذاته لأن التفقه للدعوة أمر ضروري، وهذا الوجه في تفسير الآية مقبول لأن النبي مصدر العلم، والقعود معه يحقق التفقه والتعليم من غير سفر أو رحيل، ويري البعض أن الآية تعني أن المسلمين يخرجون مع رسول الله ﷺ وهو يغزوا على أن يتفرغ بعضهم لفهم أقوال الرسول وأفعاله أثناء القتال والتفقه في الدين، فإذا ما عادوا إلى المدينة حذروا القاعدين بعد عودتهم من الغزو .

وهناك وجه ثالث تحتمله الآية وهو ما كان للمؤمنين أن ينفروا جميعاً للجهاد بل على بعضهم أن ينفروا لتعلم الدين خاصة لينذروا قومهم بعد ذلك.

وقد تعددت نواحي التفقه، وأصبح طلبه صعباً وشاقاً، يقول الزمخشري : والفرق بين هذا الوجه والوجه الثاني أن الوجه الثاني يقسم الخارجين معاً مع رسول الله ﷺ أثناء الغزو قسمين، قسم للقتال، وقسم للتفقه ... بينما الوجه الثالث يجعل التفقه جهاداً يخرج له البعض في آن ما، والمقاتلون يخرجون أيضاً في وقت آخر .

فلولا نفر من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة ليتكلفوا الفقاهة، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها لحاجة الفقه إلى جهد، وعمل، واستمرار[٢].

وعلى كل فإن طلب جماعة لعلوم الدعوة فرض، كالجهاد تماماً[٣] لأنهما معاً يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف، وإلى حمايته قوياً بلا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ الآية ٨٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ١ صـ٥٧٢ .

(٣) الإكليل صـ١٢٣ .

اعتداء، بل إن الدفاع عن الدين بالكلمة أحياناً يكون أجـدى من الجـلاد عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبي من قوله تعالى ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أن الدعاة المنذرين قائمون مقام النبي ﷺ لأن الله تعالى قال للنبي ﷺ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾[1].

فالإنذار في الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعده على وتيرته، وقد سمى الله تعالى الرسول والدعاة بمسمى واحد هو المنذر .

وإن كانت مهمة النبي في زمنه ﷺ صعبه فإن مهمة الدعاة اليوم كذلك، لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة، ومجادلة المخالفين بالحسنى، وما أكثرهم اليوم ككثرتهم أيام النبي ﷺ بل إنهم اليوم قد تسلحوا مع كثرتهم بالعلوم المادية، والأفكار الجدلية والجاه الغنى ، ورأوا أنفسهم فوق الآخرين .

ولئن كان الوحي ينزل بالدين على رسول الله ﷺ جزءاً جزءاً فإن ما نزل منجماً قد جمع وحفظ كله ليبقى بجملته مع الدعاة زاداً لهم، وأملاً لدعوتهم في النصر والبقاء .

والدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون الحاملون صوت النبوة، المكلفون بالوصول بها إلى كل مكان في الوجود ... وقد قدر الله للدعوة أن تظل باقية في كتبها، محفوظة بأمره، لكن الذي يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفء الذي يتخذ الرسول أسوته ويحاول أن يستجمع ما اتصف به على قدر طاقته و ﴿ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2].

وقد أوجب الله على الأمة أن تهيئ من بينها طائفة لتقوم بالدعوة إلى دين الله والتهيئة ليست أمراً هيناً، وليست سريعة الإيجاد، ولكنها تحتاج لإمكانيات مكثفة، ومتنوعة ذلك أن صناعة الإنسان هو أصعب الصناعات في هذا الوجود .

إن الإنسان يولد ومعه الصفات الموروثة من والديه كالخلقة، وبعض الذكاء وسرعان ما يكتسب من بيئته صفات أخرى كبعض التقاليد، واللغـة ووسـائل

---

(١) سورة الرعد الآية ٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١

التعامل، والروح الجماعية أو الانعزالية، وهكذا ...

والصفات الموروثة لا تستبدل، وإنما تتهذب بواسطة بيئة الشخص وتترقى بسبب العلاقات والمؤثرات الاجتماعية التي يعيشها الفرد .

والداعية واحد من الناس يرث صفات، ويكتسب أخرى، وقد لاحظنا اهتمام الأمم بتنشئة أبنائها، وخاصة هؤلاء الذي سيقومون بأعمال رئيسية وهامة، كرجال السياسية، وضباط الجيش والأطباء ... وهكذا .

إن مدارس التبشير في أوربا تقوم باختيار تلميذها بشروط معينة، ثم تعزله عن مجتمعه لتكونه تكويناً خاصاً في بيئة تصنعها له، وبعد ذلك تخرجه إلى الناس ملتزماً ببرامجها، وأوامرها، ومذاهبها، مهما بعدت عن الحق والصواب.

ورجال الأحزاب، وأصحاب الاتجاهات المادية يعتمدون على رجال مدربين من أجل تحقيق أغراضهم، ونشر مذاهبهم .

والدعوة الإسلامية في حاجتها إلى الدعاة تندرج في هذا الخط الواقعي لأن ذلك هو الطريق إلى تبليغها .

وقد ظهر في العهد الحديث أفراد ينتسبون إلى الدعوة كدعاة، ومع ذلك فإنهم يضرون ولا يفيدون، وسبب ذلك يرجع إلى قصور في تكوينهم الأمر الذي جعلهم عالة على الدعوة لا يفيدونها في شيء .

إن الإسلام أكثر حاجة في العصر الحديث إلى دعاة يفقهونه الفقه الواجب، وينشرونه بين الناس بوضوحه وتمامه، ويجدون لخدمته، ويجعلونه شاغلهم كله ويتقربون بذلك لله رب العالمين .

إن هؤلاء الدعاة سيكونون كتائب الحق في وسط معمعة من الباطل وسيكونون الشعاع الذي يرشد إلى ضوء النهار، وسيكونون الحياة وسط قوم يتمتعون بالموت وهم صامتون .

وواجب على المسلمين جميعاً أن يقوموا بتهيئة هؤلاء الدعاة وتنشئتهم ومن المعلوم أن التنشئة تبدأ مع الإنسان منذ صغره حيث يكتسب من بيئته الكثير والبيئة عبارة عن بيت وأقران ومدرسة .

ومن هنا نرى أن تنشئة الداعية يجب أن تبدأ من فترة التكوين الأولى ولابد أن نهيئ له بيئة صالحة تلقنه المبادئ الصالحة، وتدفعه إلى التحمس للقيم والمفاهيم النبيلة ... ومن الضروري أن لا يترك الداعية في فترته الأولى إلى رفاق سوء، وهو في هذه المرحلة يحتاج أن يلقن الدين، ويتعلم طريقة نشره بين العالمين في صورة تناسبه .

المبحث الثاني
تكوين الداعية

يحتاج الداعية الذي يحمل الإسلام للناس إلى شخصية ذات مواهب متعددة، ومزايا فريدة ... ويجب أن يحاط الدعاة ببرنامج إعداد خاص ، يخرجون منه رجالاً يقدرون المسئولية، ويخلصون في حمل الأمانة، ويستشعرون الله في كل حياتهم .

إن إعداد الدعاة أصبح أمراً ضرورياً وبخاصة بعدما ظهر هذا التنافس الرهيب بين دعاة المذاهب المختلفة، والكل يحاول إيجاد أناس يحملون المذهب إلى غير أصحابه ويدافعون عنه إن تعرض للوم أو نقد .

إن الداعية يحتاج عموماً إلى أمرين رئيسين هما :-

- الأمر الأول -
بيئة قوية تسانده

البيئة القوية تشعر بنيها بالقوة وتعطيهم الثقة، وتجعلهم يتحركون ويعملون وهم آمنون، أما الجماعة الضعيفة فإنها لا تُخرج إلا ضعفاً ولا تمكن من حياة، لأن اليد المرتعشة لا تكتب، والرجل الأعرج لا يحسن السير، وقد أضفى العصر الحديث أهمية خاصة لهذه البيئة القوية لأنها تحقق الثقة عند الدعاة ... الأمر الذي يجعلهم يتصرفون وهم مطمئنون .

وأيضاً فإن إحاطة الدعوة والدعاة باليسر المادي يجعل الدعوة تعظم في أعين معارضيها، وتشعرهم بقوتها وثباتها .

وأيضاً فإن البيئة القوية تجعل الدعاة يعيشون الواقع في ثبات .

وللمسلمين درس في هذا المجال من سيدنا رسول الله ﷺ حيث نشأه الله التنشئة المثالية، وإليها يشير قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[1].

وهذه الآيات تعلمنا الأساسيات التي لابد منها في التنشئة وتوضح ضـــرورة

---

(١) سورة الضحى الآيات من ٦ إلى ٨ .

إحاطة الدعاة بالقوة واليسر ومعايشة الواقع لأن الإيواء القوي يعني إحاطة الداعية بالثقة، ليدعو بعد ذلك في قوة ثابتة مدعمة باليقين، لا تزلزلها الأهوال، ولا تغيرها قوة الخصوم، ولا يقف دونها حب الدنيا، وزخرف الشهوات .

إن الداعية الواثق بنفسه ينظر إلى سائر الناس من حوله فإذا هو قائدهم ورائدهم، وإذا هو أقربهم إلى الله، وذلك يزيده يقيناً وثقة ويدفعه إلى مضاعفة سعيه لهدايتهم، وإرشادهم إلى الخير .

أما غير الواثق بنفسه فإنه يشعر بالهوان لا يحسن عملاً وإن تقلد رئاسة الآخرين يضرهم حيث لا يدري .

والإيواء يصنع الثقة، لأنه يكفل الحماية، ويطرد الضعف، فإذا ما نشأ الداعية وسط ذلك شاب على ما نشأ عليه .

ولعل في ذلك بعض السر في الإيواء الذي أحيط به سيدنا محمد ﷺ قبل المبعث فلقد نشأ يتيماً، ومن المعلوم أن ضرر اليتيم كبير على نفسية الطفل، لأنه يشعره بالضعف والعزلة، ويفقده المدافع والحامي، ويحرمه من الأنيس الودود، ويبعده عن السلوك السليم، والتربية الصحيحة ...

وقد نجى الله رسول الله ﷺ من هذه الأضرار المترتبة على اليتم، فكفله جده عبد المطلب، وعمه أبو طالب، وكلاهما أحبه أكثر من بنيه وأحاطه بالعناية والرعاية، وتولى عمه أبو طالب حمايته والدفاع عنه حتى بعد مبعثه لذلك كان عام وفاة أبي طالب عام الحزن عند رسول الله ﷺ .

إن الدعاة اليوم مصابون بالخوف وعدم الثقة بما وقر في نفوسهم، لأن النشأة الأولى جعلتهم يستهينون بهذا العمل، كما أن هذه التنشئة لا تؤهلهم لمجابهة المستهزئين من الحق، والساخرين بالدعوة والدعاة .

ولو فات تكوين الثقة عند الداعية في الفترة الأولى فلا يصح أبداً إهمالها بعد ذلك، لأن إهمالها تضييع للدعاة ودعوتهم .

ويمكن وضع تشريعات تحقق للدعاة الثقة في أنفسهم وأعمالهم ... وذلك بضمان وضع الحصانة لهم .... وإعطائهم حرية الحركة والكلمة والدعوة ...

لأنه لا فرق بينهم وبين رجال الإعلام، ورجال السياسة وأعضاء المجالس النيابية ... إنهم صوت الإسلام الحقيقي والواجب أن يتمتعوا بما يستحقه الإسلام من تقدير .

إن الداعية صاحب رسالة يعيش لها، ويجب أن يعان عليها .

إن صحابة النبي ﷺ حملوا أنفسهم على الورع والبذل وأخذوها إلى كل رفيع وجليل من الناس والأعمال بسبب التوجيهات التي نصحهم بها رسول الله ﷺ ، لقد وجههم ﷺ إلى قوة الله فعاشوا قوة في أنفسهم، ومع الناس ولم يخافوا إلا من ربهم العظيم .

والداعية في مرحلة دعوته يجب أن يتجه إلى الدعوة وحدها، ويجب أن يجد كل ما يسهل له أمرها، من كتاب أو صحيفة، ولا يصح أبداً أن يترك في مرحلة التكوين في معمعة الحياة، يغالبها فتغلبه أو يغلبها، لأن ذلك يضيع وقته ويفقده أهم ما يجب الاستفادة منه، وهذا الواجب يتحقق بإحاطته بيسر مادي يمكنه من الحصول على حاجياته، ويقضي له لوازمه من مأكل ومشرب .

وعلى الداعية أن يتابع مستجدات العلم، ومنتجات المطابع فى كل الاتجاهات حتى يدعو على بينة، ويناقش بفهم، ويتعامل مع الواقع بما يليق به من تقدم ومدنية .

إن اليسر المادي للداعية دافع إلى الاهتمام بما يقول ويفعل، لأن الناس جبلوا على احترام القوة، والإعجاب بالغني والجاه، وعدم إعطاء الداعية هذا العامل المؤثر ضرر بالدعوة في نفس الوقت .

إن المبشرين فى أفريقيا يتحركون بالطائرات ويوزعون المعونات، ويعالجون المرضى، ويكونون فى رأس المعاونين فى الكوارث ... وتلك سياسة تقربهم للناس .

والأولى أن يتمتع دعاة الإسلام بهذا اليسر المادي على أن توضع الضوابط لضبط حركتهم وتوجهها لخدمة الإسلام والمسلمين .

إن الدعوة في هذه العصور يجب أن تحـاط بكافـة عوامـل الترغيب

ومن مرغباتها إحاطة الداعية بهذا اليسر ... وليس المراد باليسر أن يكون من أغنياء الناس، ولكننا نقصد به التمكن من مواجهة أعباء الحياة مع الناس بصورة وسط .

ولقد امتن الله على رسوله بتحقيق هذا اليسر فقال تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾[١] أي وجدك فقيراً فأغناك بمال خديجة رضى الله عنها وتلك نعمة مكنت النبي ﷺ من التفرغ للتعبد والتفكير، حتى تهيأ للدعوة إلى الله تعالى، وقام بواجبات الرسالة التي كلف بها .

وأيضاً فإن الإنسان يتكون من مجموعة من القوى المختلفة، وبسببها يتشكل نشاطه وعمله، ويجب أن نوجه هذه القوى على نحو سليم، وبطريقة منظمة قائمة على قواعد العلم وأسسه .

ومن أهم جوانب هذه التربية أن نتعهد الغرائز الصالحة بالصقل، وغير الصالحة بالتهذيب، وأن نهيئ البيئة التي تمد الدعاة بكافة الصفات السوية، وأن نمهد الطريق المؤدي إلى تكوين شخصية متكاملة .

إن التربية العملية هي التي تمكن الشخص من القيام بدوره، وهي التي تمكنه من حل كافة المشاكل التي تجابهه .

وقد أحاطت هذه التربية سيدنا رسول الله ﷺ وإليها يشير قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلا فَهَدَىٰ ﴾ لأن رسول الله ﷺ عاش في شبابه بين قومه، وتعامل مع خاصتهم وعامتهم، ورأى ما هم فيه من زيف وهوى، فأخذ يبحث عن طريق لإخراجهم من وضعهم البيئي فلم يجد، واستمر على حيرته حتى جاءته الرسالة، وعرفته طريق النجاة والخلاص ... وهذا هو معنى الآية .

---

(١) سورة الضحى الآية ٨ .

الأمر الثاني
شخصية متزنة

الشخصية المتزنة هي الشخصية التي صدق إيمانها، واتسع أفقها، وأخذت تعمل للدعوة إلى الإسلام بكافة قواها وطاقاتها ... فهي في ذاتها مقتنعة ومؤمنة، وهي مع غيرها تتصرف وفق قناعاتها ورضاها .

إن هذا الداعية يجعل الدعوة حية في كيانه كله تملأ ضميره وتجعل راحته في العمل لها والحركة بها، وتشغله عن نفسه وماله وولده، ويتمثل ذاته حارسها الوفي، وصاحبها الأمين فيهب لها كل ما يمكنه ليكون كل شيء فيه لله، ويتمثل لنفسه ما قاله الرسول ﷺ ذاكراً حالته كما يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

والمعنى أن عبادتي كلها وما أنا عليه في حياتي وما أكون عليه عند موتي كل ذلك خالص لله تعالى وحده، فإذا ما فعل الداعية ذلك صارت الدعوة عنده فطرة سلوكية، وعادة ثابتة، وحينئذ تظهر أسرار الدعوة في ألفاظه، وحركته، ومسلكه، مما يهيئ المدعوين سريعاً لتقبل الحق، كتهيئة دعوة الرسول لبعض أهل الكتاب، فقد كانوا حين يسمعون القرآن يتأثرون به ويؤمنون ، انظر قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2].

وهذا الداعية يستشعر خطورة دوره، ويدرك أنه لن يبلغ فيه شأوه إلا إذا تطابق عمله وقوله، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المخالفة بين القول والعمل أمر ممقوت فقال عز وجل مخاطباً المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

وذلك لأن المخالفة نوع من النفاق، فكيف يكون بالمخالفة داعية، وأيضاً فهو

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٣ .

(٣) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .

وراث والموروث هو سيدنا رسول الله ﷺ وقد كان ﷺ قدوة في القول والعمل معاً، ويجب على الوارث أن يكون على نمط من ورثة .

ومن المعلوم أن الناس يعظمون الشخصية القائدة التي تتحد قولاً وعملاً .

إن علامة صدق القول مطابقة العمل، بل هو الصدق في الحقيقة عند العلماء، ولذلك قال تعـالى ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[1] وقـال في ضـده ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[2].

فاعتبرت الآيات أن الصدق مطابقة القول والعمل، وأن الكذب مخالفته، وحسب الناظر أن أفعال النبي ﷺ كانت مع أقواله على الوفاء والتمام، وحين سأله الرجل عن

أمر فقال : إني أفعله، فقال له : إنك لست مثلنا قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب النبي ﷺ وقال " والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى .. "[3] ولهذا المعني كانت عصمة الأنبياء هي الفارق بينهم وبين سائر البشر، والمؤدية إلى الاتباع فإنهم لو لم يكونوا أهلاً لنيل المرتبة العليا- عياذا بالله من ذلك - لكان ذلك منفراً وصاداً عن الاتباع والطاعة .

وحينما نهى النبي عن الربا لم يكتف بالقول بل قرن نهيه بالفعل والتطبيق على نفسه وأهل بيته، فقال " **وأول ربا أضعه ربا عمي العباس، وأول دم أضعه دمنا دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب**[4]، وقال حين شفع في حد السرقة " **وَايْمُ اللَّهِ لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا** [5].

وهكذا يجب أن ينشأ الداعية، ويجب أن يكون.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧٧ .

(٣) صحيح البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح جـ٨ صـ١٢٥ .

(٤) سيرة النبي لابن هشام جـ٥ صـ٦٠٣ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب ٥٤ جـ٦ صـ٥١٣ .

المبحث الثالث
منهجية تكوين الداعية

الداعية وارث النبي ﷺ في تبليغ الإسلام للناس، ودوره مع الناس حيوي وهام ... فهو مرجعهم حين تختلف الآراء وهو هاديهم عند اشتداد الظلام، وهو رائدهم في الخلاص من آلام الجهل، وسوءات الضلال .

وواجب الأمة الإسلامية أن تهيئ من بينها نفراً تربيتهم، وتكونهم ليكونوا الدعاة إلى الله تعالى .

إن العالم المعاصر مع تشعب أعماله، وكثرة أنشطته، وسعة تطوره وتقدمه يخطط لإيجاد أناس متخصصين في كل فرع معرفي أو عملي يحتاج إليه الناس، مع إحاطة هؤلاء المتخصصين بكل الإمكانات المتاحة ليصلوا إلى ذروة المعرفة الممكنة، ويعيشوا قمة عملية في المجال الذي تخصصوا فيه .... ففي مجال الحرب تعددت أشكالها وأنواعها فهناك الحرب الصاروخية، والكيماوية، والبيولوجية، والنفسية .... وفى كل ذلك متخصصون .

وفى الطب، وفى الاقتصاد، وفى الزراعة، والتعليم ، وفى كل نشاط متصور، نجد العناية بالتخصص، والاهتمام بالموضوع حتى يصل إلى أقصى الممكن .... ونرى الجديد كل يوم .

والدعوة الإسلامية هي أسمى واجبات الأمة الإسلامية، وأول مسئوليات الحاكم المسلم .... ولذلك صار من الضروري إيجاد الداعية الكفء ليقوم بالمهمة الدعوية على الوجه الأكمل .

ولم يعد مقبولاً ترك أمر الدعوة لأفراد غير مؤهلين لها، أو لأناس يملكهم الحماس للدعوة بلا علم ومعرفة .

وحين ننظر في دعاة الإسلام المعاصرين نرى غالبيتهم يحتاجون للإعداد والتهيئة، لأنهم في ميدان الدعوة يعملون بلا سلاح، ويتحدثون بلا علم، ويناقشون بلا فهم للآخر، وبلا وعي بألاعيب المعارضين .

لقد ذهب عدد من الدعاة إلى أفريقيا فوجدوا أنفسهم وســط مجتمعات لا

يعرفون عنه شيئاً، ولغات لا يفهمونها ... وقد أدى بهم ذلك إلى توقفهم عن رسالتهم، واكتفائهم بتعليم الناس مبادئ اللغة العربية ... وهذا لا يجوز .

إن الكنائس العربية تختار للتبشير رجالاً من بلاد مختلفة وتعدهم إعداداً خاصاً، وتكلفهم بالتبشير في بلدانهم لتحقيق تآلف تام من سيدعونهم .

والمذاهب الوضعية تعمل على استقطاب أبناء البلاد ليقوموا بتمثيلهم ونشر أفكارهم .

والإسلام دعوة الحق هو الأولى بدعاة يليقون به، للتحرك الجاد مع الناس، وإيصال الدعوة على وجهها الصحيح .

من هنا ....

أجتهد فى وضع منهج علمي لتخريج دعاة فاهمين، وإيجاد رجال يعيشون لله تعالى، وينطلقون للبلاغ والإرشاد .

وأبادر بالقول أن تكوين هؤلاء الدعاة يحتاج إلى الأمة كلها بذلاً ومساندة، وتضحية، لأن الطريق طويل، والمهمة شاقة ومكلفة، والتطبيق يعتمد على إمكانات الأمة كلها .

وبغير جهد الأمة والمسئولين في المقدمة ستبقى الحاجة إلى الدعاة، وتستمر المسئولية في أعناق المسلمين .

أن تكوين الدعاة يحتاج إلى مراحل كثيرة أوضحها فيما يلي:

المرحلة الأولى
الاختيار المبكر

يولد الطفل مزوداً بعدد من الطاقات والصفات الموروثة، ويكتسب غيرها من البيئة التي يعيش فيها .

ولذلك يهتم الآباء بتلقين أبنائهم منذ الصغر بعض الكلمات، ويعلمونهم بعض العادات .

والعالم كله يضع المناهج والدراسات التربوية لتعليم الصغار، فهم رجال المستقبل في كل المجالات ...وبقدر العناية بهم تكون العناية بالمستقبل، والأمم العظيمة تعمل لمستقبلها، وتستعد له بكل إمكاناتها .

ومن علامات هذا الاهتمام بالمستقبل اكتشاف الأبناء الموهوبين، وتوجيههم نحو استعداداتهم وميولهم .

ويتم اكتشاف قدرات الأطفال العقلية في وقت مبكر مما يمكن من توجيههم إلى التخصص العلمي الذي يتوافق مع ذكائهم وعقلهم ... وتنمية القدرات والطاقات الموجودة عند هؤلاء الأطفال حسب الجانب المناسب لهم .

وبناء على انتشار التكافل بين الناس، ومساواتهم في الكسب والربح يتجه الصغير بمساعد غيره نحو رغبته ووفق ميوله، واستعداده ... أما حين ينعكس الحال، ويتميز تخصص ما دون غيره من التخصصات فإن الصغار يتجهون إلى التخصص المتميز عن غيره، وإن لم يكن مناسباً لهم .

وفى العصور المتأخرة وجدنا الشباب ينصرفون عن التخصص في علوم الدعوة لتصورهم عدم التميز فيها .

ولذلك ننادي بضرورة اختيار الأطفال الموهوبين منذ صغرهم، وتوجيههم لعلوم الدعوة ليشبوا على حب الدعوة والإخلاص لها .... وأيضاً فلأنهم موهوبون سيتمكنون من فهم علوم الإسلام والدعوة والعمل الجاد في خدمة الإسلام .

إن الطفل الموهوب يتميز بالذكاء، ويعرف بين أقرانه بمستوى التحصيل،

وطريقة الحوار، ودقة الأداء لما يكلف به ولذا فهو من خيرة الدعاة .

إنه باختصار صاحب قدرات خاصة عقلية وحركية، وهذه القدرة الخاصة تبرزه طموحاً منذ صغره، وتجعله واثقاً من علمه، راضياً بتوجهه، لا يخاف فشلاً، ولا يرضى بكسل .

إن اختيار بعض الموهوبين ليكونوا دعاة الإسلام ضرورة واجبة، من أجل تعهدهم بالتربية الدعوية في وقت مبكر، والطريق إلى هذا الاختيار يبدأ من دور الحضانة الأولى، ويمكن للمشرفين أن يصنعوا بطاقة لكل طالب تدون فيها ميوله، ورغباته، ومستوى ذكائه، وقدرته على التحصيل الدراسي ومدى استجابته لتوجيه أساتذته آمراً ونهياً، ومدى تأثره بأقرانه وتأثيره فيهم، لأن هذه المعلومات تعتبر مؤشراً على شخصية الطالب واتجاهاته فيما بعد .

ومن الممكن اختيار بعض الطلاب لدراسة علوم الدعوة على أساس استعداداتهم وميولهم بعد إجراء اختبارات خاصة تكشف هذه الميول.

يقول ابن سينا : إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن الكريم وحفظ أصول اللغة انظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته، فوجهه لطريقه وذلك بعد أن يعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية لكن ما شاكل طبعه وتأسيسه .

وتلك ملاحظة هامة لأن وضع الإنسان في موضع يتفق مع ميوله واستعداداته أول شروط النجاح وهو البداية الصحيحة لتحقيق الأهداف على وجه صحيح، ولنقتد في ذلك برسول الله ﷺ فهو الذي اختار أبا بكر وعمر رضي الله عنهما للشورى، واختار أبا عبيدة وخالداً وأسامة للحرب والقتال، واختار علياً ومعاذاً للحكم والقضاء، وهكذا سائر الصحابة الذين وكل إليهم الرسول أعمالاً متعددة، وما تم ذلك ألا وفق استعداد كل منهم ليقوم بما يعهد إليه خير مهام .

ومن الممكن أيضاً عقد لقاءات شخصية للطلاب لاختيار قدرتهم واستعدادهم لهذا النوع من الدراسة لأن الاستعداد الشخصي أساس للتفوق

العلمي، ولقد كان السلف رضوان الله عليهم يختبرون من يُعلِّمون، ويقفون على مستوى قدراتهم الذهنية والعقلية حتى لا يضعوا البذرة في أرض سبخة.

من ذلك ما حدث من الخليل بن أحمد عالم العربية حينما أتاه النظام بولده إبراهيم وقال له : علم لي ولدي هذا.

فأخذ الخليل الولد، واختبره أولاً، وقال له : صف هذا الكأس، وأشار إلى كأس في يده .

فقال الغلام : بمدح أم بذم ؟

قال الخليل : بمدح .

فقال الغلام : تريك القذى، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما رواء .

قال الخليل : فذمها .

فقال الغلام : يسرع إليها الكسر، ولا تقبل الجبر .

ومن ذلك أيضاً أن الحافظ العراقي لما ذهب إلى شيح ابن البابا ليتلقى عنه الحديث اختبره أولاً حيث قال له : من ابن البيع ؟

قال الحافظ : الحاكم أبو عبيد النيسابوري .

فقال له : من أبو محمد الهلالي ؟

قال : سفيان بن عيينة .

هنا قال له : هلم يا بني، وعرف مكانته من الوعى والأدارك، واستعداده للتعلم وعلمه .

فهذان مثالان من التراث الإسلامي يؤكدان ضرورة معرفة مستوى طالب العلم، والوقوف قدراته العقلية والفكرية لتوجيهه حيث استعداده .

إن مثل الاختيار يتم اليوم في عدد من الدراسات المتخصصة التي تبدأ من وقت مبكر كدور المعلمين والمعلمات، ومعاهد الخدمة الاجتماعية، والمدارس العسكرية المتنوعة، وذلك كله لينجح الطالب بعد تخريجه، فيما يوكل إليه من أعمال .

وقد أدرك قدر هذا الاختيار المبكر مع الاختيار أصحاب المذاهب الوضعية ورجال الأديان الأخرى، فعملوا به، وأخذوا يعدون لباطلهم دعاة فيهم الذكاء والنشاط والإخلاص، وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بها الأفكار والعقائد .

وإعداد الدعاة إلى الإسلام يجب أن يندرج في هذا الخط الطبيعي، حيث يختارون في سن مبكرة، وتختبر مستوياتهم الذهنية وقدراتهم الشخصية ليسهل إعدادهم، ويكونوا بعد تخرجهم على مستوى أهمية الدعوة وأهمية العمل لها.

المرحلة الثانية
التعليم الدعوى المكثف

بعد اختيار الطلاب المتفوقين لإعدادهم وتنشئتهم، يستمرون في دراسة المرحلة الأولى، وخلالها يكون الاهتمام مركزاً على تحفيظ القرآن الكريم والمبادئ الأولى للعلوم الإسلامية والعربية والإنسانية .

وبعد انتهاء المرحلة الأولى يلتحق الطلاب بالمرحلة المتوسطة، وأقترح هنا إنشاء مدراس متوسطة وثانوية للدعوة قبل المرحلة الجامعية، يتلقى بها الطلاب الذين وقع الاختيار دراساتهم .

ومن المتصور أن الطالب في المرحلة الأولى أجاد القراءة الكتابة وحفظ قدراً كبيراً من القرآن الكريم، وعرف مبادئ عدد من العلوم كالحساب والهندسة مع مبادئ العلوم الإسلامية.

وبعد ذلك يلتحق طالب الدعوة بمدارس الدعوة المتوسطة لنعده مع المراحل بعدها للدعوة وفق خطة تتطور بتطور عمره وعمله، ومناهج هذه المدارس بالضرورة تشتمل على دراسات للإعداد العام، وأخرى للإعداد التخصصي، ويقوم المشرفون بوضع المناهج والمقررات المطلوبة .

وينبغي أن يقوم نظام هذه المدارس على أساس الرعاية الكاملة طوال اليوم بحيث يعيش الدارسون بين أساتذتهم وقت الدراسة، ويقضون أوقات راحتهم وتريضهم مع الموجهين والمشرفين، وبذلك يعيش الطلبة بين الأستاذ والموجه مما يجعلهم يسيرون تلقائياً نحو التربية المقصودة والهدف المنشود .

إن النظام الداخلي خلال الدراسة في هذه المدارس هو أحسن ما يحتاجه الدارسون وبخاصة في المجتمعات الحديثة التي كثرت فيها المؤثرات، وتعددت معها الأهداف والغايات، مما جعل الأفراد بسببها في تناقض ذاتى، واضطراب فكري .

ولو كانت المجتمعات الإسلامية تسلك المنهج الأمثل في كافة أنشطتها لقلنا إن أنشطة المجتمع تكمل دور مدارس الدعوة وتساهم بجزء هام في تكوين الشخصية الإسلامية، تماماً كما كان المجتمع الإسلامي في عصر رسول الله ﷺ

حيث يسمع الأفراد من رسول الله ﷺ ويرون تطبيقات الإسلام في مختلف الأنظمة والأنشطة مما جعلهم خير أفراد كونوا خير أمة أخرجت للناس بإيمانها، وأعمالها وتمسكها بالمعروف، وبعدها عن المنكر .

إننا نتمنى للمسلمين أن يعاودوا سيرتهم الأولى، وحتى يتحقق ذلك نقترح لمدارس الدعاة أن تقوم على الأساس الذي أشرنا إليه من أجل تكامل الداعية، وإعداده إعداداً سوياً خالياً من التضارب والسلبية .

إن التفرغ الكامل للدارسين يسهل أمام المسئولين تكوين الدعاة بالصورة المرجوة في الدين والعلم والخلق .

وليس التفرغ للدارسة بالأمر الصعب على من يختار للدراسة لأن نوعيات عديدة من المدارس والمعاهد في جميع أنحاء العالم أخذت بنظام التفرغ خلال الدراسة في مقابل تحقيق بعض المزايا المادية والمعنوية للدارسين وكان الإقبال عليها شديداً، ودلت نتائجها على تحقيقها لأغلب الأهداف التي وضعت البرامج من أجل الوصول إليها .

ويجب أن تشمل مدارس الدعاة على مزايا عديدة، يجدها الدارسون خلال الدراسة وبعدها، وذلك لاختيار أفضل العناصر للقيام بالدعوة، وإعدادهم الإعداد المطلوب، ومن المعلوم أن صناعة الدعوة تعني صناعة الأمة، فإذا ما أحسن المسلمون اختيار الدعاة وتربيتهم فقد أدوا بعض ما وجب عليهم، ونفعوا في نفس الوقت أنفسهم وأمتهم بنشر العدل، وتحقيق الأمن، ومحاربة البغي والفساد بواسطة من أعدوا من الدعاة .

إن منهاج ومقررات مدارس الدعاة يجب أن تتجه جميعاً إلى بناء شخصية الداعية بصورة متكاملة، وقد ضرب رسول الله ﷺ من نفسه نموذجاً لهذه الشخصية لتكون ماثلة أمام المسلمين في مختلف العصور ينشئون أجيالهم على نمطها، ويتخذونها المثال لحياتهم ومعاشهم، ولا غرو في ذلك فرسول الله ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق بالهدى ودين الحق، وليوجه الإنسانية إلى ما يصلح شأنها ويعلى قدرها .

إن الدعوة إلى الإسلام تحتاج في كل وقت إلى التكامل في شخصية الدعاة، ومن هنا ندرك حرص الرسول على تربية الشخصية والاعتداد بالنفس عند أصحابه رضوان الله عليهم حتى أصبح كل منهم أمة في نفسه،لا يعرف غير الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، وصدق رسول الله ﷺ في قوله عنهم **(لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)**(١) ورضوان الله عليهم فلقد انتصر الإسلام بهم .

وتكامل شخصية الداعية يتم بتمكنه من الصفات الواجبة له وهي إيمان متين، وخلق قويم، وعلم دقيق، وأفق واسع .

ويجب أن تقدم مدارس الدعوة لطلبتها الدراسات التي تساعد على هذا التكامل وفق خطة مقررة يضعها الأشراف المتخصص على إعداد الدعاة .

إن المنهج المدرسى الذي تتطلبه التربية الإسلامية، يجب أن ينطبع بطابعها ويتصف بأهم صفاتها ومميزاتها ويحقق أهدافها، ويبنى على أسسها وتصوراتها الفكرية عن الكون والحياة والإنسان، وذلك بأن تتحقق فيه الصفات الآتية :-

١- أن يكون في ترتيبه وموضوعاته موافقاً للفطرة الإنسانية يعمل على تزكيتها، وحفظها من الانحـــراف، تلك الفطرة التي أشار إليها الحديث النبوي **يقول** ﷺ **(مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ ....)** (٢)

٢- أن يكون محققاً لهدف التربية الإسلامية الأساسي وهو الإخلاص في الطاعة، والصدق في العبادة لله، وغرس القيم النبيلة التي ترمي إلى تقويم الحياة، وتوجيهها البناء في جميع المجالات، والتي وضع المنهج لتعهدها والنهوض بها، كالجانب العقلي والجانب الوجداني، والجسمي والاجتماعي.

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب قول النبي ﷺ لو كنت حديث رقم ٣٦٧٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد كتاب باقي مسند المكثرين باب مسند أبي هريرة رقم ٧٣٩٦ .

٣- أن يكون في تدرجه ومستواه، موافقاً، في كل جزء منه ، للمرحلة التي يوضع لها من حيث طبيعة الطفولة فيها، ومستواها، ومفاهيمها .... ومن حيث الأنوثة والرجولة والمهمات الاجتماعية التي يهيأ لها كل من الجنسين .

٤- أن يراعي في تطبيقاته ونشاطاته وأمثلته ونصوصه، حاجات المجتمع الواقعية، والمعاشية، ومنطلقاته الإسلامية المثالية كالاعتزاز بالأمة الإسلامية والولاء لها، وذلك بتحقيق الولاء لله، والطاعة لرسوله الذي أرسله للناس ليطاع بإذن الله .

٥- أن يركز على الأعمال التي تحتاجها الأمة، في كل بيئة بحسب ظروفها الطبيعية التي يسّرها الله لها، من خامات صناعية، أو بيئة زراعية، أو مناخ مداري، أو مكانة تجارية بحرية أو برية ... إلخ لأنها نعم إلهية، وهي آيات ربانية يسوقها الدعاة للناس حتى يؤمنوا، ويعلموا ما لله من أفضال.

٦- توضيح الاختصاصات التي لابد منها لرقى المجتمع في كل بيئة كالاختصاصات الصحية، والحربية، والإدارية، والإسلامية، والثقافية، أي الأخذ من كل جانب من جوانب الحضارة بطرف مما لا يتعارض مع الإسلام، ولا يختلف معه أيما اختلاف، بل يعين على رفع شأن الأمة وتحقيق شريعة الله وعدله، وحضارة الإسلام الفكرية والروحية .

ويمكن تدريب طلاب مدراس الدعوة على مواجهة الجماهير، والتحدث معهم، ومناقشتهم في القضايا الإسلامية، وبذلك تكون الدراسة نظرية وعملية .

كليات الدعوة :

تعتبر الدارسة في كليات الدعوة امتداداً للدراسة في المدارس المتوسطة والثانوية من حيث الهدف والغاية مع تميزها بالعمق، والتحليل والمقارنة وإجراء البحوث الميدانية والعملية .

وعلى المسئولين المشرفين أن يحددوا المقررات والمناهج المطلوبة لمدارس وكليات الدعوة، من أجل تحقيق التكامل بين الدراسات المقررة، وفى نفس الوقت على المشرفين ملاحظة أن المرحلة الثانوية تكون نهاية الدراسة لعدد من الطلاب

مما يحتم اعتبار الدارس المتخرج من هذه المرحلة معداً على مستوى معين، ويمكن الاستعانة بهؤلاء كدعاة في القرى الصغيرة، والمجتمعات البسيطة كما يمكن جعلهم مساعدين للدعاة في المجتمعات الواسعة .

ويجب عدم تكليف من يقل مستواه عن الدراسة الثانوية في علوم الدعوة بأي عمل في مجال الدعوة، وكما جاز اقتصار بعض الطلاب على الدراسة الثانوية فإنه يجوز أن يستمر بعض الطلاب في الدراسات العليا للحصول على الماجستير والدكتوراه في علوم الدعوة، وعلى كليات الدعوة أن تهتم وتخطط لذلك .

وبعدما يتخرج الدعاة يكلفون بما أعدوا له، وينضمون إلى ما سبقهم من الدعاة، وبعد ذلك لا تنقطع الصلة بهم بعد عملهم حيث يستمر معهم الإشراف والعون والمساعدة .

المرحلة الثالثة
التدريب الميداني
وملاءمة الواقع

المجتمع الإنساني هو ميدان عمل الدعاة، ومن أجل مصلحة هذا المجتمع كان الدعاة، يؤيدون أبناءه في صوابهم، ويعدلون انحرافهم، ويذكرونهم بما نسوا، ويمدونهم بما لا يعلمون ... أنهم بين الناس صدى الأمس، ونور اليوم، وشعاع الغد، إنهم – بفضل الله – هداة الحق، ومشعل الخير، وعلامات الصراط المستقيم .. ولذلك كان من الضروري وجود توافق بين الداعية والمدعوين يساعد على التجاذب والتفاهم، ويحقق تفاعلا مستمراً يمكن من الوصول إلى البلاغ المبين.

ومن أجل هذا التوافق الضروري بعث الله الرسل إلى أقوامهم لسابق الإلف بينهم، فهم يتحدثون بلغة واحدة، ويعرف كل طرف ما عليه الطرف الآخر من عادات وتقاليد، ومهن .... كما جعل الله تعالى معجزات رسله من جنس ما تفوق فيه من جاءتهم المعجزة لأنهم الأعرف بأسرارها، وهذه المعرفة تمكنهم من تمييز العادي منها وما هو خارق للعادة .

وعلماء الدراسات الإنسانية المعاصرة يركزون على ضرورة إطلاع المربين والمرشدين الاجتماعيين، والأطباء النفسيين على واقع من يتولون أمرهم لمعرفة أمورهم بصورة عامة ليضعوا الخطة المثلي للعلاج والتربية والتوجيه .

والدعاة أحوج من غيرهم لمعرفة المدعويين لأنهم يخاطبون العقول، ويغيرون العادات وينقلون الناس إلى وضع جديد ... ولابد لهم من معرفة الكثير عن مدعويهم .

ومن الجوانب التي يجب معرفتها عن المدعوين ما يلي :–

- العادات والأخلاق السائدة بينهم .
- الأفكار والأساطير التي تنتشر فيهم .
- المذاهب والعقائد الدينية والبدع الموجودة لديهم .

- الأنشطة الثقافية ومستواهم المعرفي .
- اللغات واللهجات التي يتكلمون بها .
- النظام الاجتماعي ودرجة التفاعل بين الأفراد .
- النشاط السياسي ودور قادة الرأي معهم.

.... وهكذا ....

إن المعرفة المسبقة عن الناس تساعد على وضع كيفية حسنة للتعامل معهم، وتمكن الداعية من اختيار الشخص والطريقة المثلى للتعامل، وتنسيق الأسلوب الأمثل للخطاب، وتمكن القادة من التركيز على نواحي التأثير، والإتيان لكل شخص بما يناسبه، وفتح القلوب بمفاتيحها الصحيحة لتسمع في هدوء وانتباه .

والدعاة إلى الله تعالى هم أحوج الناس إلى معرفة المدعوين وبخاصة أنهم مسئولون عن صناعة الإنسان صناعة جديدة وتغيير حياته بصورة كلية وتوجيهه إلى الله تعالى .

وذلك لا يتم إلا بالدارسة العملية، والخبرة الميدانية، وتطبيق ذلك يتم بتدريب الطلاب ابتداء من مرحلة الدراسة الثانوية تدريباً عملياً، وذلك بتكليفهم أولاً بإلقاء أحاديث مختصرة أمام تجمعات بسيطة، وتعريضهم لمواجهات الجماهير ليألفوا ذلك، وعرض بعض القضايا الاجتماعية لمناقشتها معهم، وإعطاؤهم حرية السؤال والتعليق على ما يرون ويشاهدون ... والانتقال بهم إلى تجمعات بشرية متنوعة للتوجيه تحت إشراف معلميهم .... أيضاً يمكن تكليفهم بإلقاء خطب الجمعة في المساجد على أن يبدأوا بالمساجد الصغيرة ثم الأكبر منها وهكذا ...

ويمكن تكليف الطلاب الدارسين بالقيام بأبحاث ميدانية في قضايا تتصل بالدعوة وبالظواهر الاجتماعية التي تعالجها الدعوة الإسلامية .

إن التدريب العملي لا وجود له الآن في كليات وأقسام الدعوة، وهذا قصور واضح يؤدي إلى تخريج أناس يخجلون من المواجهة، ويصابون بالعي إن اعترضهم معترض .

ولا وجود للدراسات الميدانية التي تعرف الدعاة بواقع الناس، ولذلك يكلف الدعاة بالعمل مع أناس لا يعرفون عنهم شيئاً الأمر الذي يؤدي بهم إلى العيش في واد، والجمهور في واد الآخر .

وقد يسهل الخطب حين يوجه الخريجون للعمل دعاة وأئمة في بلدهم وبين قومهم أحياناً .... لكن ماذا يفعل الداعية إذا كلف بالعمل في غير بلده، ومــع أناس يتكلمون بغير لغته إنه لن يفعل شيئاً، ولن يحقق فائده .

وسبب ذلك أنه لم يعد، ولم يستعد للعمل في هذا الميدان، إن من الضروري للدعاة أن يعيشوا البيئة التي سيعملون فيها، ويحيطوا علماً بكافة أحوال مدعويهم ..... ولابد لهم من إتقان اللغات واللهجات التي يتحدث بها الناس .

وتعتبر دراسة اللغات الأجنبية من أهم الدراسات اللازمة للدعاة في العصر الحديث، لأن أغلب من توجه إليهم الدعوة من غير العرب، كما أن العديد من المؤلفات التي تتعلق بالإسلام إيجاباً أو سلباً كتبت بغير اللغة العربية، وحتى يمكن قراءة كل ما يقال عن الإسلام.

ومن أجل تبليغ الإسلام لجميع الناس يجب إحاطة الدعاة بصورة تامة بلغات من سيد عونهم، وهذا واجب بدهي لأن مصادر الإسلام نزلت بلغة عربية، وحفظها الله للناس كما أنزلها على رسوله محمد ﷺ بلغة العرب، وألزم المؤمنين تبليغ الإسلام على وجه بين واضح، ولا يتم ذلك إلا باتحاد اللغة بين الداعية والمدعوين أياً كانت هذه اللغة وبغير معرفة لغات المدعوين لا يتم بلاغ، ولن تتحرك دعوة ، ولهذا المعنى أرسل الله رسله السابقين إلى أقوامهم بلسانهم حيث يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [1].

وقد نزل القرآن الكريم في العرب بلغتهم لأنه لو كان بغير لغة العرب لما فهموه، ولطلبوا نزوله بلسانهم ليفقهوه، لكن الله تعالى بحكمته أنزله عربيا وبين علة ذلك فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤ .

﴿ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [١].

ولعل في قوله تعالى "ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ" إنكار للإختلاف اللغوي بين الداعية والمدعوين إذ لا يصح أن يكون الكلام أعجمياً والمخاطب به عربياً لأن ذلك لو حدث لاحتاج المخاطبون إلى التفصيل والبيان .

وتحقيقاً لعالمية الإسلام مكن الله العرب من إتقان لغات العالم كله، ويجب على الدعاة أن يتمكنوا من ذلك دائماً، وقد وجه رسول الله ﷺ المسلمين والدعاة إلى هذا الواجب بما فعله مع الصحابي زيد بن ثابت حيث قال له : يا زيد أتحسن السريانية ؟ أنها تأتيني كتب بها .

قال زيد : قلت لا .

قال تعلمها .

فتعلمتها في سبعة عشر يوماً [٢].

ومن الخطط الممتازة التي لم يتكب لها النجاح إنشاء المعهد الأسيوي الأفريقي تابعاً لجامعة الأزهر عام ١٩٦٣لقبول طلاب من خريجي الكليات الإسلامية بجامعة الأزهر .

وكانت خطة الدراسة فيه تقوم على أساس أن يتقن كل طالب لغة أجنبية معينة ويتخصص في دعوة وطن يتحدث بهذه اللغة، ويستمر الطالب دارساً لمدة عامين بلغة هذا الوطن وفى علوم تتصل بواقع هذا الوطن ... وتكون الدراسة نظرية بالمعهد وميدانية في الوطن الذي اختار لغته، وحين يتخرج الطالب يرسل داعية للوطن الذي عايشه نظرياً وعملياً طوال عاملين كاملين .

وقد حالت التكاليف المادية دون نجاح المشروع ... ومع ذلك فإن إيجاد الدعاة الفاهمين لواقع الناس، القادرين على التحدث بلغة مدعويهم ضرورة حتمية لإبلاغ الإسلام للناس أجمعين .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤ .

(٢) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني باب فضل العلم والعلماء جـ١ صـ ١٤٥ .

ويمكن استقبال طلاب من مختلف بلدان العالم، والعناية بهم وتربيتهم ليكونوا دعاة إلى الله ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[١].

ولا يصح – مطلقاً – أن يستقدم طلاباً، من هنا وهناك، ونتركهم يواجهون مشاق الحياة، وتمضي عليهم سنوات الدراسة وهم يحاولون إتقان اللغة العربية لابد من الاهتمام بهم واستقبالهم في معاهد خاصة تعلمهم اللغة العربية، وبعدها يلتحقون بالكليات الإسلامية تحت رعاية معينة واهتمام خاص .

وهذه مسئولية كل مسلم في المجتمع الإسلامي العريض .

لقد أسست رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة " معهد الدعاة " ومدة الدراسة فيه سنتان بعد الدراسة الجامعية – وهو يقبل دارسين من بلدان العالم الإسلامي كله ليؤهلهم للدعوة ويرسلهم بعد ذلك للدعوة كل في بلده لأنه الأعرف بها ..... والفكرة ممتازة غير أن اختيار الدارسين غير دقيق وأغلب من جاء للدارسة لا يعود لبلده، ويبحث عن عمل يدر عليه ربحاً ومالاً .

المسألة إذاً ..

هامة ...

وحيوية ...

وتحتاج لدراسة وتخطيط، وتحتاج لجهد ومال وليس ذلك بكثير على نفع يعود على الناس باعتناقهم الإسلام، وصدق إخلاص مع الله تعالى .

وأشير هنا ...

إلى أن هذا التصور جهد فردي، وأتمنى أن يهتم العلماء بالموضوع بصورة كلية، ويضعوا له تصوراً مشتركاً جامعاً لكل الآراء والمقترحات لأن نتيجة الجهد الجماعي أدق وأشمل من نتيجة الجهد الفردي ... والدعوة إلى الله أحوج الآن من أي وقت مضى لجهد الجميع .

إن وجود الداعية الصحيح ضرورة لازمة للإسلام وللمسلمين، وللعالم كله. أما ضرورته للإسلام فلأنه بظهر الإسلام بنقائه، وصفائه وخلقه وسماحته، ويرد عنه الزيف والأكاذيب، وينفي عنه تصرفات بعض أتباعه المنافية لتعاليمه الحقه.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

وأما ضرورته للمسلمين فقد شاع بينهم الجهل، وغابت بينهم روح الإسلام، ولن يعودوا إلى إسلامهم إلا إذا تعلموا الحق وعملوا به ... ولابد لهم من الدعاة ينيرون أمامهم السبل، ويعودون بهم إلى الله تعالى .

وأما ضرورة الدعاة للعالم كله فلعدة نقاط :

الأولى : إن العالم كله هو أمة الدعوة، ولذا كان توجه الدعاة إلى العالم كله أمر ضروري في دين الله تعالى .

الثانية : يموج العالم كله بتيارات عديـدة، ومـذاهب كثيرة تقـوم على الضلال، وتعتقد في جمادات وأوثان، وتنشر البدع والخرافات، ولن ينقذهم مما هم فيه إلا دعاة الإسلام يبينون الحق بالحسنى، ويدعونهم إلى الإسلام بالحكمة واللين، ويخرجونهم من النور إلى الظلمات ببصيرة ووضوح .

الثالثة : أعداء الإسلام يتسلحون بالمال والقوة، ويعملون على أضعاف المسلمين، ويريدون إطفاء نور الإسلام ... وهم يبذلون لهذا كل ما يستطيعون وهو كثير ... ولن يرد كيد هؤلاء وغيرهم إلا الدعاة يظهرون زيفهم، ويبطلون أعمالهم، ويدعونهم إلى الإسلام ليعيشوا سعادة الدنيا والآخرة .

الرابعة : استغل أعداء الإسلام المخترعات الحديثة لتنفيذ كيدهم، وهم دائبو العمل والحركة ... ولن يوقفهم عن كيدهم هذا إلا الدعاة ليردوهم على أعقابهم، وبنفس السلاح الذي يستخدمونه .

الخامسة : تنادي الحضارة الحديثة بالعالم الواحد وترفع شعارات العولمة في الاقتصاد، والنظم، والنشاط العام ... وذلك أمر خطير لأن دعوة العالمية الحديثة تقوم أساساً على الجانب المادي، وتركز على إشباع الرغبات والشهوات باسم الحرية، والحداثة، والمتعة .... ولذلك وجب إظهار عالمية الإسلام للعالم كله ليتعلموا سبق الإسلام بفكرة العالمية، واعتماد الإسلام الخلق الكريم، والهدف النبيل، والرقي الإنساني في عالميته المنشودة .

ولا ينبغي – أبداً – أن يترك المجال العالمي لقوى البغي والفساد تعبث فيه وحبس الإسلام في طيات الكتب، وفي عقول أناس كسالى لا يؤدون لله حقه .

المبحث الرابع
صفات الداعية
بعد التكوين

يضع العلماء والمشرفون على تربية الدعاة وتنشئتهم نصب أعينهم استعداد الدارسين الفطري، ويعملون على تنميتها، وتوجهها لتثبيت صفات معينة تفيد العمل للدعوة .

وكل إنسان يولد بتوجهات خاصة ورثها من أصوله، ونماها من بيئته والتسامي بهذه التوجيهات مسئولية التربية والمربين ... ولذلك ...

ولذلك نأمل في إيجاد دعاة على مستوى الإسلام، يتمتعون بالموهبة والفطانة، ويتصفون بروح القيادة والريادة، ويتميزون بأخلاق الإنسانية الراقية، وتذوب صفائهم في شخصياتهم، وبذلك يعيشون مفطورين بالحق، يعلمون، ويعملون به، ويتحركون له .... ولا يرضيهم إلى الحياة معه .

أن هؤلاء الدعاة هم الأمل ... وهم الرجاء ... وهم رجال الإنقاذ في عالم علت أمواجه، وكثرت مخاطرة .

هؤلاء الدعاة يتصفون بكل ما تحتاجه الدعوة في رجلها الذي تخرج، وتعلم، وتدرب بإشراف مخلص، ونظام متين .

ونلمح أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الدعاة فيما حققه الله تعالى لرسوله ﷺ ووضحه في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[1] حيث ندرك ثلاثة عناصر رئيسية في شخصية النبي ﷺ والواجب أن تتحقق عند الدعاة وهي :-

١) الإيواء القوي .
٢) الهداية العالية .
٣) الغنى التام .

والإيواء يعني الإحساس بالنصرة والقوة الأمر ... الذي يؤدي إلى الثقة

---

(١) سورة الضحى الآيات من ٦ إلى ٨ .

والأمن، وهو عند الداعية يأخذ طريقين .

أحدهما أن يأوي الداعية إلى الله بالإيمان والطاعة.

والثانية أن يؤويه الله بالرعاية والتمكين .

والهداية تعني التوفيق للخير، والتوجه للصواب، الأمر الذي يرشد الدعاة للحق، ويوفقهم لنيل ثقة المدعوين، ورضاهم فهم بالهداية يعملون لله، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .. وكذلك يزدادون خيراً وتقى يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[1].

والغني يولد الثقة، وينشر الهدوء، ويظهر قدرة الله في المنح والعطاء، وهذا يحتاج إلى تمتع الدعاة بغنى النفس والاستغناء عن الناس، والارتباط المطلق بالله رب العالمين .

وبعد تحقق هذه العناصر في شخصية الداعية نراها صفات معينة في قوله وعمله وسلوكه وتضع الداعية في منزلة راقية القدر، عالية السلوك وهو يعيش للدنيا، ويعمل للآخرة ويتصف بأنبل بالصفات وأسماها .

وقد وضعت هذه الصفات خلال دراستها في عدة محاور هي :

---

(١) سورة محمد الآية ١٧ .

المحور الأول
الصفات الذاتية

نريد بالصفات الذاتية تلك الصفات التي يولد الطفل بأساسياتها، وتعمل التربية على تنميها، وتوجيهها إلى الجوانب المفيدة، وعلى أساس الصفات الذاتية يتم اختيار أصحابها للدعوة إلى الله تعالى .... ومن الممكن اكتشافها بالملاحظة والممارسة ومن الأولى للدعوة اختيار أطفال موهوبين، وتأهيلهم بالتربية والتعليم للدعوة والإرشاد .

وليست هناك طريقة واحدة فعالة للكشف عن هؤلاء الموهوبين، ولكن أحكام المدرسين تقوم دائماً على الانتظام في أداء الأعمال المدرسية المتعلقة بالتحصيل، وإذا استخدم المدرس وسائل الكشف المختلفة عن القدرات فإنه يستطيع عندئذ الوقوف على القدرات التعليمية لدى تلاميذه، وكذلك مقاييس الذكاء الجمعي والاختبارات التحصيلية فإنها تمثل وسيلة دقيقة لاكتشاف الأطفال ذوي القدرة العقلية العالية .

واختبارات الذكاء الجمعي أنواع عديدة، فبعضها ذو مقياس لجانب واحد فقط من الذكاء، وبعضها الآخر يتناول جانبين أو أكثر من القدرة العقلية، على أن معدل الذكاء الكلي واللغوي يتناول في الواقع التفوق، والموهبة وهذا يتطلب تعديلات في المنهج الأكاديمي، ويجب الاعتماد على عدة أنواع من الاختبارات خلال المرحلة التعليمية وعدم الاكتفاء على اختبار واحد، وذلك لأن معدل النمو العقلي ليس ثابتاً من سنة إلى أخرى، وبتعدد الاختبارات تظهر التطورات الفكرية والعقلية ومدى تقدمها .

والتحصيل المدرسي له أهمية كبرى في التعرف على ذوي القدرة العقلية العالية، فالدرجات العالية في القراء والفهم، والحصيلة، وحل المشكلات لها أهمية في التعريف على ذوي القدرة العقلية العالية .

ولننظر عادة إلى التحصيل باعتبار أن له دلالة على مدي قدرة الشخص، وذلك إذا كان زائدا على المستوى التحصيلي العادي لسنة واحدة أو سنتين، وإذا ظهر هذا الفرق التحصيلي بالصفوف الأولى فإنه يكون ذا دلالة أكثر منـــه إذا

ظهر في الصفوف العليا .

فإذا أظهر الطفل بالصف الأول الابتدائي قدرة تحصيلية تتناسب مع الصف الثالث الابتدائي، فإنه إذا يكون ذا قدرة عقلية عالية فيجب أن نأخذ في اعتبارنا الصف الذي يوجد به التلميذ .

إن المجتمع مسئول عن هؤلاء الموهوبين فهو في حاجة لهم في مستقبله والواجب الاهتمام بهم منذ الصغر وتوجيههم نحو الغاية المقصودة، فإذا لم نقم برعاية تلك المواهب العقلية الفذة خير خدمة، ونهيئ الجو المناسب لظهورها ونبلورها فإن الخسارة سوف تقع إذن على كاهل المجتمع نفسه، وبالتالي تضيع فرصة ارتقاء الأمة في الأجيال القادمة، وهو ما يجب أن نسعى إليه في تربية الجيل الجديد، فليست التربية الحقيقة بالتقدير هي تلك التي تأخذ في اعتبارها الجيل الناشئ، فقط، بل إنها أيضاً التربية التي تتطلع إلى المستقبل البعيد بحيث تقنع الإنسانية في الأجيال القادمة على أن التربية المناسبة للموهوبين لا تتأتى بالصدفة .

بل إن تلك التربية لا تقوم إلا على دعائم متينة من التخطيط الدقيق المستنير الذي ينشد الخير للناس، إذن فليست تربية الموهوبين من أجل الموهوبين أنفسهم فحسب بل لأجل الأجيال المقبلة في نفس الوقت .

هؤلاء الموهوبون هم دعاة المستقبل، ولو أحسن المسئولون تربيتهم كما هو الأمل فسوف يظهرون للناس بصفات ذاتيةَ أهمها :-

-١-

سعة الأفق

يمتلئ عقل الموهوب بمعارف عديدة، وأفكار كثيرة سديدة، فقد قرأ كثيراً، واستفاد بكل ما قرأ، وهو دائماً يقرأ ويستفيد وهذا يساعده على فهم من يعيش معهم

والداعية الواسع الأفق يكتشف الواقع الذي يوجد فيه، ويتمكن من التعامل معه بما يناسبه، يساعده في ذلك عقله، وأفكاره، وأفقه .

قد يصادف الداعية غنياً فيتحدث معه مستفيداً بنعمة الغنى التي يتمتع بها .

وقد يقابله فقير فيكلمه بما يجعله صابراً راضياً بقضاء الله فيه، والناس أنواع وأجناس ... وكل له شخصيته، وصفاته الخاصة ... والكل يحتاج إلى تعامل معين ... والداعية مع الجميع يكلمه، ويناقشه، ويقنعه، ويرد عليه ... وقد يفاجأ الداعية ببعض المواقف فلا تفجئه، ويتعامل معها بهدوء وأناة، بسبب تميزه العقلي، وأفقه الواسع .

لقد اختار الله رسله متميزين بالفطانة وهي درجة من الذكاء عالية، وسعة الأفق جزء منها، ولذلك نراهم صلوات الله وسلامه عليهم يواجهون جديد الكفار كأنهم ألفوه من قبل ولذلك لمـــا قال قوم شعيب له ما حـــكاه الله تعالى في قوله ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [١] رد عليهم قائلاً ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٢].

وكانوا صلوات الله وسلامه عليهم يذكرون أقوامهم بنعم الله التي تأتيهم من كل جانب، ويناقشونهم في مختلف جوانب حياتهم .

حدثوهم عن الآلهة، وبينوا فسادها ...!

وحدثوهم عن أخلاقهم، ووضحوا عيوبها ...!

وحدثوهم عن معاملاتهم، وبينوا أخطاءها ...!

وكل ذلك مما علمهم الله، ووسع أفقهم بمعرفتها، فخدموا رسالتهم بها .

ومن هنا نرى ضرورة اتساع أفق الدعاة ليواجهوا كل موقف بما يناسبه، وحتى تأتي دعوتهم للناس على وجه مقبول، ومن بابها الصحيح .

-٢-

سرعة البديهة

الإنسان المختار للدعوة يتميز بالذكاء والعبقرية على نحو ما ذكرنا، ولذلك نراه سريع البداهة بمعني أنه يفهم بالإشارة، ويكتفي باللمحة، ويكتشف ما في

---

(١) سورة هود الآية ٩١ .

(٢)سورة هود الآية ٩٢ .

قلب محدثه من خلال كلامه ... وحينما يوجه الدعاة صفاتهم تلك أثناء الحركة بالدعوة يحققون غايتهم بيسر وسهولة .

إن الداعية يصنع إنساناً لعبت به الأهواء، وضللته المفاهيم الباطلة، ولذلك كان توجيهه أمراً شاقاً يحتاج إلى إمكانيات ماهرة تحاوره وتقنعه .... والداعية ببداهته يتمكن بعون الله له من فهم محدثه ولو كان غامضاً، ويستطيع ملاحظة شبهاته وتساؤلاته والرد عليها بما يفيد .

وقد رأينا من الدعاة الذين اختارهم رسول الله ﷺ وأرسلهم على الملوك والرؤساء حاملين الرسائل النبوية إليهم بداهة عالية مكنتهم من الرد على تساؤلات الملوك لهم .... **من ذلك أن الصحابي دحية الكلبي ﷺ لما سلم الرسالة لقيصر الروم قال له قيصر الروم : من الذي أرسلك إلينا ؟**

قال له دحية : يا قيصر أرسلني من هو خير منك، والذي أرسله هو خير منه ومنك، فاسمع بذل، ثم أجب بنصح فإنك إن لم تذلل لم تفهم، وإن لم تنصح لم تنصف .

قال: هات .

قال: هل تعلم أكان المسيح يصلي ؟

قال: نعم .

قال: فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من دبر خلق السماوات والأرض والمسيح في بطن أمه .

أدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى، وبشر به عيسى بن مريم بعده، وعندك من ذلك أثارة من علم تكفي من العيان، وتشفى من الخبر

فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا وأعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة، ويغير النعم [1].

ومن ذلك ما نراه من بداهته ﷺ حين كان يستفيد بلحظة هدوء عند معارضيه، ويوجه لهم الدعوة خلالها، فلقد كان الأعراب يأتون إليه سائلين فيجيبهم إجابة

---

(١) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٤٩ .

موسعة تتضمن دعوته مع أن الإجابة في مجال سؤالهم ... من ذلك أن القوم جاءوا للنبي ﷺ يسألون عن مواقيت الأهلة ليعرفوا بداية الشهر ونهايته، فأجابهم النبي ﷺ وحدثهم عن الإسلام والحج، والتقوى، وضرورة إتيان البيوت من أبوابها يقول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

-٣-
قوة التركيز والتذكر

يحتاج الدعاة إلى التركيز القوى لأن ذلك يساعدهم في المحافظة على ما يعلمون، ويمكنهم من معرفة المواقف التي عايشوها ومروا بها .... ومن هنا يتذكر الداعية في المواقف الشديدة ما ييسرها له .

إن الذاكرة الضعيفة تضر صاحبها، وتسئ إليه في المواقف الهامة، فقد يكون الإنسان مثقفاً، غزير المادة، واسع الاطلاع، ومع ذلك إذا صادفه موقف حساس ارتج عقله، وخانته ذاكرته .

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز، ولما وقفوا بين يدي الخليفة اشرأب الغلام للكلام ... فقال عمر : يا غلام، ليتكلم من هو أسن منك.

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لساناً لا فظاً، وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسن لكان هنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت[٢].

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة حسنه، وبديهة حاضرة .

وقد درس علماء النفس ظاهرة ضعف الذاكرة فوجدوها ضارة بالإنسان وخاصة الإنسان العادي .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٩ .

(٢) الشخصية صـــ٦١ .

يقول كارل سيشور : إن الرجل العادي لا يستخدم أكثر من عشرة في المائة من قدرته الموروثة في الاستذكار، ويضيع تسعين في المائة بإهماله قوانين التذكر الطبيعية .

ويقول الإمام الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بـأن العلـم نـور ونور الله لا يعطي لعاصي

وأهل العلم يشعرون بالإلهام الإلهي، ويذكرون أن أهل الله يكون الله معهم دائماً عوناً ونصيراً، مستدلين بقول الله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

ومع أن الأمر هبة إلهية فإننا نطالب بالأخذ بالأسباب ومطرد العادة ونرى ضرورة تنمية الموهبة الموروثة بما رآه علماء النفس لتقوية الذاكرة، والتذكر بعدما بحثها العلماء، وحصروها في طريقتين هما :-

الطريقة الأولى " التركيز في القراءة " :-

يجب على من يريد تقوية ذاكرته أن يركز فيما يقرأ، ويجمع كل قواه الذهنية عند القراءة، ولا يسمح لمشاغل الحياة، ومطالب الدنيا أن تصرفه عن الوعي حتى لا تفلت المعاني، وتضيع المفاهيم، ويكون التركيز باستحضار المعنى عند القراءة، وترتيب الأفكار حسب ورودها في الألفاظ، ويا حبذا لو ارتبطت هذه الأفكار، بصورة حية في النفس .

إن التشبيه أسلوب مبين لأنه يربط المشبه بما هو معروف وحسن، ولذلك كان ارتباط الأفكار بصورة حسية مؤدياً لتحسين الذاكرة .

ويكون التركيز أيضاً : بالقراءة بصوت مرتفع حيث تشترك حاستان في التقاط المعني وهما اللسان والأذن لأنهما في هذه الحالة يمدان العقل بالمعاني، وهذا يؤدي إلى تحسين الذاكرة .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

ويأتي التركيز كذلك، بتسجيل وكتابة ما يقرأ ولو في نقاط موجزة.

إن العقول تعتمد على رؤية المكتوب أكبر من اعتمادها على المسموع خمساً وعشرين مرة، ومن الإمكان أن تنسى اسم الشخص في وقت تحافظ فيه على تذكر صورته[1].

ويأتي التركيز أيضاً بإبعاد كافة المعوقات الحسية وقت القراءة لأنها تصرف بعض الفكر إليها، ولذلك نجد البعض لا يفهم جيداً إلا في مكان بعيد عن الناس والضوضاء والتكلف .

ولسنا نقصد من هذه الصور الكثيرة سوى تنويعها أمام الأشخاص لأن من الناس من يركز بصورة أو بأخرى أو بغير ذلك كله .

إن دقائق بسيطة من التركيز العقلي النشيط تأتي بنتائج أعظم من التفكير الذاهل الموزع لمدة أيام عديدة .

الطريقة الثانية " التكرار " :

هذا هو القانون الطبيعي الثاني لتقوية الذاكرة، وهو قانون مضمون النتيجة لأنه الذي يمكن الكثيرين من حفظ النصوص الطويلة، والمسلمون لا يحفظون القرآن إلا بالتكرار .

ويجب أن لا يكون التكرار آليا، بل يجب أن يكون ذاكياً بمعنى أن يستمر التكرار مدة طويلة على فترات منقطعة، لأن العقل الباطن يكون مشغولاً بين فترتي التكرار بتكوين ترابطات أكثر ضماناً، ولأن العقل حينما يقوم بعمله على فترات لا يرهقه التعب المتواصل .

وهناك كشف مفيد جداً يتصل بقوة الذاكرة وهو وجوب قراءة الموضوع أكثر من مرة، وعلى فترات متباعدة، لأن العقل ينسى في الثماني ساعات الأولى أكثر مما ينسى في خلاله ثلاثين يوماً بعد ذلك .

---

(١) التأثير في الجماهير صـــ٦٥ .

-٤-
التفاؤل في مستقبل الدعوة

التفاؤل قوة نفسية إيجابية فعالة، ينظر صاحبها إلى الغد بابتسامة أمل، ويسير إلى الغاية المنشودة بروح عالية فرحة، ويتصور النجاح المأمول الذي وعد به إن صدق وأخلص فتقوى عزيمته، ويتضاعف نشاطه، وتعلو همته.

وعلى الداعية أن ينظرا نظرة تفاؤل لمستقبل مشرق لأنه على الحق، ويدعو إليه، والله ناصر ومؤيد، ذلك أن القرآن الكريم والسنة النبوية أرشدا إلى أهمية التفاؤل وطرد اليأس[١].

وهذا نبي الله يعقوب ﷺ قد أمر أبناءه بالبحث عن أخيهم وحذرهم من اليأس فقال الله تعالى ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[٢].

والداعي يجب عليه أن يحسن الظن بالله ويشعر بقرب النصر لأن البراهين القرآنية دلت على انتصار الإسلام، وعلو مكانته وهيمنته.

وقد وردت أحاديث توضح مبلغ ظهور الإسلام، ومدى انتشاره مما يؤكد أن المستقبل للإسلام، بإذن الله تعالى .

١- عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا)**[٣].

٢- عن تميم الداري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)[٤].

٣- عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ

---

(١) مدرسة الدعاة جـ١/صـ١٥ للدكتور / عبد الله ناصح علوان نشر دار السلام ط١، ١٤٢٢هـ

(٢) سورة يوسف الآية ٨٧ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض جـ١٨ صـ١٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد كتاب مسند الشاميين باب حديث تميم الداري ﷺ رقم ١٦٥٠٩ .

الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ [١].

وفى هذا إشارة إلى أن رومية ستتحول بالفتح إلى مدينة إسلامية بإذن الله تعالى.

٤- عن أبي هريرة ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**) [٢].

وها هم اليهود قد اجتمعوا في موقع واحد، وكادوا للإسلام وأهله، ومن العجائب أنهم الآن يكثرون من زراعة شجر الغرقد في إسرائيل مما يشير إلى تأكيد حقيقة ما دل عليه الحديث .

وعلى الدعاة أن يجتهدوا في الدعوة إلى الله تعالى وهم متفائلون واثقون بما وعدهم الله به .... وعليهم أن يستمروا على إخلاصهم في العمل للدعوة، وصدقهم مع الله سبحانه وتعالى .

---

(١)مسند الإمام أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة باب مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رقم ٦٦٠٧ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة جـ١٨ صـ٤٥ .

المحور الثاني
الصفات الإيمانية

الشخصية الكاملة يظهر كمالها في ذاتها، وتجمع كافة الصفات التي تحقق لها الكمال ... وأول صفات الكمال ما يتعلق بالإيمان بالله، وما يتبعه من طاعة والتزام .

إن الله هم صاحب الفضل، وإليه يرجع الأمر كله، وحقه على العبيد أن يؤمنوا به إلها واحداً، ويعبدوه وحده، لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة دون سواه، ويلتزموا بكامل لوازم الإيمان، ولذلك نجد الدعاة يتصفون بصفات الإيمان ابتداء، لأنهم يدعون إليها ويعملون على اتصاف المدعوين بها .

ومن المعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه، ولذلك كانت أهمية وجود الصفات الإيمانية عند الدعاة، وهي منحصرة في جانبين هما :-

الجانب الأول : الإيمان بالله تعالى :

الداعية مرشد إلى الخير، وموجه نحو الهدى، وكل هدفه أن يعرف الناس بربهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والأخرة .

وعليه هو - أولاً - أن يمتن صلته بالله في يقين وقوة، ويجعل إيمانه قائماً على التفرغ الكامل لمولاه، والارتباط المطلق به، والتوكل الراسخ عليه، والتسليم التام لكل ما يأتي به من غير ارتياب أو حرج، لتكون الدعوة بذلك نابعة من قلبه، بارزة في قوله وفعله، وكل ذلك ضروري للدعاة.

والداعية يعيش جوه الإيماني في مراحل تكوينه جميعاً، في بيته، وفى مدارسه، وفى تجاربه وحياته العملية، ومن مصادر الإسلام التي يتقنها .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم كتاب الدعوة، ومن آياته يعلم أن الله وحد منزه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة في مفهومها ودلالاتها، انظر قوله تعالى ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[١] تراها قد صرحت بوحدانية الله صراحة بلا غموض وأكدت حقيقة التوحيد بالقسم وبتأكيد جواب القسم بإن واللام، وبما في القسم من آيات كونية، وبراهين شاهدة على أن الله واحد .

يدافع القرآن الكريم عن هذه الوحدانية فيدعو إلى ترك ما عداها فيقول الله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾[٢] وبذلك ينفي ما يزعمه الكفار والمشركون، ويثبت التوحيد بالبرهان والدليل .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات، بل تتكلم عن كل كمالاتها بإثبات الصفات ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾[٣] فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود قديم، حي، باق، عليم، قادر، سميع، بصير، متكلم، وبإثبات هذه الصفات تنتفي أضدادها.

والصفات وإن تشابهت ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هي في الحقيقة لأن الله تعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[٤].

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل الدافع إلى الإيمان بكل هذا، بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية في المخلوقات ليتم إيمانه ويحس بطمأنينته خاصة بين جوانبه، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى في داخل النفس وخارجها .

والمخلوقات عديدة والنظر فيها يبين الدقة الإلهية والعناية الربانية، ويؤدي إلى الإيمان المطلوب ... فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمي، وآخر للتنفس ، ومن ظاهر به حواس وجوارح، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظيفتها بطريقة آلية دقيقة، وقد وزعت الأعمال في براعة ودقة على كافة الأجهزة، ليقوم كل بدوره العين ترى، والأذن تسمع، واللسان يتكلم ... والرجل

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١ إلى ٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٥١ .

(٣) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٤) سورة الشورى الآية ١١ .

تمشي، والأسنان تقطع ... والمعدة تهضم ... والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى العناية والدقة وتجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته ونظره، وقد حث الله الإنسان على النظر فى النفس فقال تعالى ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[1] ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع وحكمته وتدبيره، ويكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشري : في ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفى بواطنها وظواهرها عجائب الفطر، وبدائع الخلق ... وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق، ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيانات القاطعة، على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له ... وما سوى ذلك في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثني، إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل[2].

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المملوء بالآيات البينات، والعجائب الرائعة التي يجب النظر فيها يقول تعالى ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[3].

إن الداعية وهو يلازم الدعوة عليه أن يفكر في هذا وفى غيره ليؤمن الإيمان الواجب، ويعلم من غير تردد حق الله الذي آمن به فيؤديه وهو العبادة الخالصة، وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس في أداء هذا الحق فقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[4] يقول الزمخشري : إن معني الآية ما خلق الله الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم يرد سبحانه وتعالى من جميعهم إلا

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ صـ١٦ .

(٣) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٤) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

إياها، ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبها يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [١] وكان النداء الأول في دعوة كل رسول هي قوله تعالى ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[٢] لأن الإيمان بالله الخالق والتسليم له يقتضي حتماً وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .

إن العبادة هي الحبل الوثيق الذي يربط الإنسان بالله وليس هناك سبيل سواها، والله قريب من عبادة قرباً لا واسطة فيه، والداعية يعلم ذلك فيعبد الله مخلصاً له الدين، ويتفرغ في عبادته، ولذلك فعبادته غذاء روحي ترتقي بها ذاته، وتذكره بالسلطان، وتسمه بحسن الخلق وكريم المعاملة، وذلك كله سر العبادة وحقيقتها .

إن الصلاة مثلاً – كعبادة – قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها لأن إقامة الشيء هي الإتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن علته، وتصدر عنه آثاره، ومن المعلوم أن الغاية من الصلاة ذكر الله كما قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[٣] وآثارها تظهر على المصلي ذاته لأنها ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٤] وهي بالإقامة عبادة حقه فيها خضوع كامل ناشئ عن إحساس يقيني بعظمة الرب القادر سبحانه وتعالى ويتبعها أثرها المراد الذي يظهر في البعد عن كل باطل، والتخلق بكل حسن وجميل، وهكذا كل عبادة تعطي النفس جرعة من الذكر وجزءاً من السعادة .

ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر فإن القوم جميعاً ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[٥] وقد قال لهم رسول الله ﷺ ﴿ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[٦].

---

(١) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٢) سورة هود الآية ٦١ .
(٣) سورة طه الآية ١٤ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .
(٥) سورة البينة الآية ٥ .
(٦) سورة الزمر الآية ١١ .

ولذا فهم بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً و ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[١] انظر إليهم تجدهم ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[٢] في كل لحظة من لحظات الحياة وكذلكم يذكرهم ربهم ففي الحديث القدسي (**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**) [٣] وهم في ذكرهم الدائم يعيشون الخـوف والرجـاء يقـول الله تعالى ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[٤].

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الذي رسم الدين إطارها، وحدد شعائرها كالصلاة والصوم والزكاة والحج، بل إنه في كل حياته عابد كما أراد الله بالمعني العام والخاص معاً، فاجتماعياته عبادة يفعلها لله رب العالمين، والسعي في معاشه والتعاون مع أهله عبادة يؤديها ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه.

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً في سبيل الله بمن خرج سعياً على المعاش فيقول الله تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٥] إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد في علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض، ويطعم الجائع، ويسقى العطشان، ويرفع الأذى من طريق الناس، ويدفع إلى السعي والضرب في الأرض ... وهكذا ... يؤدي الداعية العبادة بهذا الفهم وبتلك النية ويسلمها لله رب العالمين.

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩١ .

(٣) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى ويحذركم الله نفسه رقم ٧٤٠٥.

(٤) سورة السجدة الآية ١٦ .

(٥) سورة المزمل الآية ٢٠ .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل في عالم الروح لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائياً بالله، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه محباً هائماً في تعلقه، لأنه بإيمانه أشـد حباً لله، والمؤمنون كما عرفهم ربهم بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾(١) وهم عباد الله بحق " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ " لأن الله يحب المتقين المحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع والطاعة، ويبحث عن المعروف ليفعله ويأمر به، وعن المنكر ليجتنبه وينهي عنه، وبسبب استغراق الداعية في ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه، ونسيان آلامها، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق الهدوء التام .

إن هذا الإيمان الراسخ (من الداعية) الذي استتبع عبادة مخلصة وصادقة، وحباً هائماً شاملاً يؤدي بصاحبه حتما إلى التوكل الدائم على الله والاستسلام له بلا تردد لأنه ما دام قد ثبت في نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا فاعل إلا الله، واعتقد فيه تمام العلم والقدرة على كفاية العبادة، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وآحادهم، وإنه ليس وراء منتهى قدرته وعمله ورحمته قدرة، ولا علم ولا رحمة أخرى فإنه متكل لا محالة على الله، مستمر في انفعاله الروحي الصادق لأن الله معه في كل آن وحال .

ولتمام توكله نجده يسلم أمر رزقه إلى الله لـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(٢) ويترك كل شيء كإرادة الله لأن المسألة هي ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣) ويشكر النعـم ويصبـر على المكـروه ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ١٢ .

وعلى الجملة فإن الأمر كما يقول الحكيم الترمذي: من نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته واستنارت بنور اليقين فاستقام قلبه واطمأنت به نفسه، وسكنت ووثقت وأيقنت وائتمنه على نفسها فرضيت لها به وكيلاً وتركت التدبير عليه، فإن وسوس له عدوه بالرزق والمعايش لم يضطرب قلبه ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب وأنه لا يغفل ولا ينسى وأنه رؤوف رحيم وأنه رب غفور رحيم وأنه عدل لا يجور وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء وأنه يجير ولا يجار عليه [١].

وبهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيراً في كافة الجوانب بعد ذلك .

الجانب الثاني : الالتزام المطلق بطاعة رسول الله ﷺ :

رسول الله ﷺ هو قائد الدعاة، وهو الأسوة لهم في هذا الطريق، ويجب على الدعاة الذين يعملون لله أن يتبعوا رسول الله ﷺ في كل فعله وقوله، فلقد ترك رسول الله ﷺ الدين للناس، وترك أساليب الدعوة إلى هذا الدين فليكن اتباع طريق رسول الله ﷺ مع الدعوة جزءا من الاتباع المطلق لرسول الله ﷺ والنصوص كثيرة تحث على هذا الالتزام .

قال الله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٢].

وقال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

وقال الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٤].

---

(١) الرياضة وأدب النفس صـ٩٣ .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

وقال تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

وقال ﷺ (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى .

قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَنْ يَأْبَى ؟

قَالَ ﷺ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) (٢).

وقال ﷺ (دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (٣).

وقال ﷺ (وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) (٤).

وقال ﷺ (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ)(٥).

وقال عبد الله بن عباس ﷺ (عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِقَامَةِ اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ) (٦).

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ (اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ) .

وقال أيضاً : (من كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم) (٧).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾(٨).

وأحسن عمل، أخلصه، وأصوبه .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٢) صحيح البخاري جـ٦ صـ٢٦٥٥ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) المرجع السابق جـ٦- صـ ٢٦٥٨ .

(٤) المرجع السابق جـ١ صـ ٢٢٦ .

(٥) صحيح مسلم جـ٢ صـ٩٤٣ كتاب الحج باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً .

(٦) شرح السنة جـ١ صـ٢١٤ للإمام الحسين بن مسعود البغوي .

(٧) المرجع السابق جـ١ صـ٢١٤ .

(٨) سورة الملك الآية ٢ .

ويقال أيضاً : لا يقبل الله العمل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة)[١].

وإذا كانت هذه النصوص دالة على الالتزام والطاعة لرسول الله ﷺ لعموم المسلمين، فإنها آكد في الالتزام للدعاة لأنها تساعدهم على توصيل مرادهم إلى الناس نظرياً وعملياً .... وتجعل المدعوين أكثر تصديقاً لهم .

إن الداعية بقناعته الإيمانية يجد نفسه مصدقاً بكل أركان العقيدة .

فالله هو خالقه ورازقه، وصاحب الفضل كله، وهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة وحده .

وهو جل شأنه له الأسماء الحسنى، والصفات العلى .

وهو سبحانه وتعالى رب الملائكة ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، وإليه المرجع والمآب .

وتبعاً للعقيدة المخلصة يجد الداعية نفسه مستسلماً لحكم الله تعالى في كل شئونه، راضياً بقضائه وقدره، ملتزماً بأداء أمانة الدعوة التي التزم بها .... وبذلك يتحول تدينه إلى حركة بين الناس، وتوجيه قولي وعملي إلى الدين باللين والحسنى .

---

(١) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل جـ٤ صـ٣٦٩ .

المحور الثالث
الصفات الإنسانية

الصفات الإنسانية هي الصفات التي يتميز بها الإنسان السوى، لأنه يعرف قيمة نفسه وقيمة غيره، ويقوم بالدور الذي خلقه الله له .... إنه بعيد عن النقائص التي يقع فيها كثير من الناس، ولذا كان تميزه عن ما عداه من الناس وسائر المخلوقات .

وقد نسبت هذه الصفات إلى الإنسانية لأنها ضمير الإنسان بصورة عامة لقد خلق الله الإنسان مكوناً من جسد، وعقل، ووجدان ... ووجه كل هذه العناصر إلى الخير تعيش به، وتعمل له، وتحقق للإنسان إنسانيته، وللآدمي خلقه وكرامته .

إن الإنسان السوي يؤمن بالله ويعبده، ويعرف مكارم الأخلاق ويلتزم بها، ويخلص للآخرين ويقدرهم ... ولذلك سمينا ما يقربه إلى الناس، ويحببهم إليهم صفات إنسانية ... وهي تلك الصفات القائمة على النبل والرقي، وحب الخير والرغبة في تحقيق الخير للناس.

إن على الداعية أن يتمتع بالصفات الإنسانية جبلة وعادة لتحقيق ما يتمناه لدينه، وعلى المسئولين عن تكوين الدعاة أن يعملوا على تحقيقها في شخصية الداعية وسلوكه بطريقة علمية تربوية لما لها من أهمية كبرى ولأسباب عدة :-

فالداعية – أولاً – أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه، وذلك يوجب عليه أن يكون قريباً من قلوبهم، وعواطفهم بخلقه وسلوكه .

وهو – **ثانياً** – محل الثقة والنظر لما له من صفات، ولما ينادي من مبدإ .

وهو – **ثالثاً** – رائد الجماعة وزعيمهم، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس في فهم وتقدير، ويتألف معهم في مودة، ويتحلى بما يضعه في الريادة من غير منازعة وشكوك.

وأهم هذه الصفات ما يلي :-

-١-
تقدير الناس

الناس جميعاً أخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد هو آدم أبو البشر أجمعين، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك، ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه أو طبيعته أو عنصره وإنما التفاوت بشيء خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان أو عمل أو ذكاء ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية في شيء وقد وضح الله هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١].

يقول الزمخشري إن معنى الآية : فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بما يدلي به الآخر سواء بسواء فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب[٢] وذلك شيء طبيعي لأن الإنسان خلق مكرماً، ولهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات في القرآن الكريم مصدره بـــ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ تنويهاً بهذه الصفة العامة التي يأخذ منها أي إنسان بقدر ما يأخذ الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان في دعوته، ولا يفرق بينهم بسبب غنى أو حسب أو ما شاكل ذلك، فلا يدعو القوى تاركاً الضعيف، أو يخصص غنياً مهملاً الفقير، أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم، وذلك لأن دعوته عامة للجميع، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم، والكل محتاج إليها، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالي .

ولقد أودع الله للدعاة درساً في هذا الباب بما حدث من النبي ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لا يتحقق من عمل النبي ﷺ في مجلسه فدخل عليه ﷺ طالباً التعليم في الوقت الذي كان النبي ﷺ

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش، وكونه أعمى يعطيه العذر في عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال، وسبق القرشيين في الحضور يعطي النبي ﷺ عذراً في إمهال عبد الله، خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل، والقرشيين لم يسلموا بعد، وفى إسلامهم إسلام غيرهم، رغم ذلك فقد عوتب النبي ﷺ في هذا الموقف حتى لا يقال إنه أهمل عبد الله لفقره وعماه، واهتم بغيره لجاهه وغناه، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاة بالأشياء الظاهرة، ويفرقون بين بعض الخلق وبعض آخر بما ليس لهم به سبب، فقال تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾[1].

إن النبي في هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة، ويسعى إلى إسلام القوم وتزكيتهم باذلاً من نفسه جهداً وعملاً كما تفيده التاء في " **تصدى** " والقوم الذين تصدى لهم النبي ﷺ هم عتبة، وشيبة، ولدا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وهم قادة مكة ورؤساؤها مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم، ولذلك تصدى لهم مستمراً في دعوتهم فلما جاءه عبد الله منادياً رسول الله ﷺ : علمني مما علمك الله، لم يقطع حديثه معهم، وإنما أعرض عنه، فكان العتاب موعظة ترسى مبدأ إسلامياً وهو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها، وهي موعظة تشير إلى ضرورة وجود الأمور الآتية عند الدعوة :-

١) لا فرق بين إنسان وإنسان مهما كان مظهره أو جنسه أو جاهه أو ماله يقول ابن هشام إن معنى الآيات، إنما بعثتك بشيراً ونذيراً لم أخص بك أحداً دون أحد فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصد به لمن لا يريده[2].

---

(١) سورة عبس الآيات من ١ إلى ٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٣٨٨ .

٢) **تلقي الدعوة للجميع في وضوحها ويترك الأمر بعد ذلك لله**، لأن علم الداعية محدود، أما علم الله فهو الشامل المحيط ولذلك كان التوضيح الحاسم أنه إذا ما دعي إنسان فإن ذلك يكفيه وبعدها يترك الأمر لله وكل إنسان مسئول عن نفسه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ وإذا ما تخيل الداعية كفر إنسان فهو ليس مسئولا عنه، لأن حكم الله هو ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ والأمر كله على صاحبه .

٣) **على الدعاة مسئولية التبليغ والبيان** وعلى المدعوين مسئولين الإيمان والتصديق بعد بلوغ الدعوة إليهم .

٤) **لا يجوز الابتئاس من إنسان قصد التعلم مهما أخطأ لأنه** أتى طالباً زيادة الخير، فليكن من الخير الذي يتعلم طريقة أن لا يخطئ، **أما إن انتظر الداعية أن لا يخطئ عنده أحد فما فائدة الدعوة !؟ .. وما فائدته هو إذا... ؟!**

٥) لا تقصر الدعوة على من أسلم أو على من لم يسلم، وإنما هي لمن أسلم تأكيد وتذكر، ولغيرهم هداية وتعليم .

٦) ومع أن الدعوة للجميع فإنها تكرر أكثر للأدنين من الناس فتحاً لأذانهم المغلقة، وتقوية لقلوبهم الضعيفة، وتأميلاً في مركز أعلى، ومقام أسمى لأن لهم من وضعهم الاجتماعي عذراً في تخلفهم فقد ألفوا التبعية، وتعودوا ترك الأمور العظام للسادة، ويكفي أنهم أمام الدعوة على الفطرة وما أضلهم إلا الجهل، واتباع السادة الكبراء، وفى تقديرهم بيان واضح عن حقيقة ثابتة للدعوة، في أنها تكرم الناس كل الناس وهم عندها سواسية كأسنان المشط .

٧) **يجب الرجوع إلى الحوادث النبوية للاتعاظ والعبرة، فهي** دروس وقدوة للمؤمنين أجمعين .

بل إن هذا الفهم من الداعية يجعله يتمسك بملامح إنسانية ليكون على مستوى فهمه للناس، وتقديره لهم، ولا يظهر منه إلا ما يؤكد هذا الفهم ليألفوه ويتعلقوا به، وتنشأ بينهم مودة أساسها الثقة فيه، والحب له، والتفكير في دعوته وكلامه، وتلك أمور ضرورية لنجاح الداعية **في** مهمته .

-٢-

الصدق والأمانة

الصدق فوق أنه في حد ذاته سلوك سام وصفة راقية فهـو منبـع الثقـة وأساس التسليم، لأن الصادق لا يخالف الواقع، وكل قوله مسلم لا يحوم حولـه شك أو تكذيب، والصدق في الداعية ضرورة لأن ما يذكره ليس رأيا شخـصياً ولا اجتهاداً ذاتياً يستخرجه، وإنما هو مبلغ دعـوة الله كمـا جـاءت، مبـين لغوامضها، وناقل كل بيان قيل في شأنها، وكل هذا يحتاج إلى صدق في التبليغ، ودقة في النقل والبيان، حتى يتصور المدعو من أول لحظة أن كل ما يـسمعه من الداعية هو رسالة الله، وأن الدعوة كما بدت من قوله هي كما تركها رسول الله ﷺ بلا تزيد أو انتقاص، ولذلك كان من الحكم الخالدة في رسالة الإسـلام أن أهم صفة اشتهر بها النبي ﷺ هي صفة " **الصادق الامين** " وقد ذكر النـضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : **هو أصدقكم حديثاً** [١] .

ولما سأل هرقل أبا سفيان (ولم يكن قد أسلم بعد) عن محمد ﷺ قائلاً : **وهل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال ؟**

أجابه أبو سفيان : لا .

فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[٢].

وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لا نعلمها إلا مـن مبلغها، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله، أما من التزم الصدق مع البشر فهو صادق حتماً مع الله سبحانه وتعالى .

ولما بدأ النبي ﷺ يجهر بدعوته سأل الناس " **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟**

قَالُوا : نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا "[٣].

ولذلك كثرت التنبيهات والتوجيهات في القرآن والحديث لالتزام الصدق في

---

(١) سيرة النبي جـ١ صـ٣١٩ .

(٢) صحيح البخاري جـ١ صـ٥ ، ٦ باب بدء الوحي .

(٣) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب وأنذر عشيرتك الأقربين رقم ٤٧٧٠ .

كل شيء فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[١].

ويقول النبي ﷺ " **عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ** "[٢] بل يصل الأمر في أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم، لأن الإسلام في حقيقته نبذ للأوهام وبعد عن الباطل وهو بذلك يتنافى مع الكذب ومن افتراه .

سئل النبي ﷺ " **أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟**
فَقَالَ : نَعَمْ .
فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟
فَقَالَ : نَعَمْ .
فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟
فَقَالَ : لَا " [٣].

وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذي هو في أشد الحاجة إلى أن يتبع، وبغير الثقة في صدقه لا يكون هناك اتباع، ألا ترى إخوة سيدنا يوسف عليه السلام حينما احتجز أخوهم عند ملك مصر ذهبوا إلى أبيهم قاصين ومن أجل أن يثق في قولهم قالوا ما حكاه الله تعالى في قوله ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[٤]، بل إن رسل الله إلى لوط عليه السلام يقولون له ﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[٥] فتجدهم يظهرون صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد فيها ليكون ذلك أدعى إلى السماع، وأسرع في الموافقة لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر، لأن الإقناع لا يتم إلا بالأمر الواقع، ويعيش دائماً مع الحق والثبات ...... **ومن أكثر من الدعوة في**

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله رقم ٢٦٠٧ .

(٣) موطأ مالك جـ٤ صـ٢٢٨ ما جاء في الصدق .

(٤) سورة يوسف الآية ٨٢ .

(٥) سورة الحجرات الآية ٦٤ .

حاجتها إلى الإقناع والثبات ؟

صحيح أن الدعوة تحمل في طياتها عناصر الثقة بها من واقعية في التشخيص، ودقة في الإسعاد، لكن هذا لا يعفى الداعية من ضرورة الثقة فيه أيضاً لكي تصغي إليه الآذان، وتسمع العقول، وتفكر الأفئدة، وبعدها يكون قد أدى ما عليه .

ومما يلازم الصدق صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس من قول أو عمل، ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقول ﷺ " **كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ** "[1].

ولذلك أمر بأن لا يخون في أي جانب من هذه الجوانب حيث قال تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[2].

وكما ارتبط الإيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة ... ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما اشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم، ومن لم يسلم، ليتحقق خير كثير للدعوة .

-٣-

الحلم والعفو

الحلم صفة هامة للداعية تجمع القلوب وتذيب الأحن، وتعطى له قدراً كبيراً من الصلابة في مواجهة أشد المواقف وأحلكها، وهو أول ما يمتحن به الخلق الحسن، إنه يقرب الغريب ويذهَب العداوة، وهل يستوى هو والتهور؟ أبداً لا يستويان لأن الحلم سيد الأخلاق والحقيقة أنه ﴿ **وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾[3].

والحلم ليس دليل ضعف أبداً بل هو الدليل على القوة، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوى في الحقيقة، يقول النبي ﷺ " **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا**

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب في المعاريض رقم ٤٩٧١ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٧ .

(٣) سورة فصلت الآية ٣٤ .

الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"[١] والإسلام رغم أنه يعطـــي – للـــنفس حقها في مقابلة السوء بمثله حيث قال الله ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[٢] وهــذا شيء طبيعي يتفق مع غريزة الإنسان في الانتقام والانتصار إلا أن الأحسن من الانتصار هو أن يكون المنتصر حليماً، يعفو عند الإساءة، فقال تعالى عقب هذا الجزاء المثلي، ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ ﴾ فالجزاء على الله، وكون الأجر علـــى الله يحتمه العفو إلى درجة كبيرة .

ولضرورة هذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال تعالى ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[٣] وقال لــه ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٤].

وعلى الدعاة أن يهتموا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضـــهم، ولا يجعلـــوا همهم الغضب والانتقام، لأن ذلك ينفر المدعوين منهم، ولا يحببهم في اســـتماع الدعوة وتفهمها، يقول الإمام الغزالي : "ما أحسن الخلق بعد العلم والـــورع إلا العفو ليتمكن صاحبه من اللطف والرفق وهو أصل البـــاب وأســـلمه، والعلـــم والورع لا يكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والـــورع فـــي قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مـــع حـــسن الخلق، والمقدرة على ضبط الشدة والغضب، وبه يصبر الداعية على ما أصابه من دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه نسى الدعوة وغفل عـــن دين الله واشتغل بنفسه بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم [٥].

ويقول الشيخ ابن علوي الحداد : على الدعاة أن يكونوا على نهايـــة مـــن الصبر والاحتمال وسعة الصدر ولين الجانب وخفض الجناح وحســـن التأليف

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب الحذر من الغضب رقم ٦١١٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٣ .

(٥) فيصل التفرقة صـــ٧٦ .

وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين عليهم أن يصبروا ويعرضوا ويقولـوا خيراً لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما[١] .

ويقول ابن تيميه : ولابد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الرفق ولابد أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإنه لابد أن يحل به أذى فـإن لـم يصبر ويحلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وينقل ما قاله القاضي أبو ليلى : لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهي عنه [٢].

ويكفي الدعاة أن يتعلموا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الحلـم والعفو حيث قال تعـالى ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

ويتعلموا كذلك من صنيع رسول الله ﷺ يوم الفتح مع أبي سفيان قائد عمه والد أعدائه، ومجمع الأحزاب عليه، فلقد عفا على كل جناياته، وحلـم عليـه، ووضعه في موقف كريم حيث جعل داره مكاناً آمناً لكل من يدخله كالكعبة تماماً وكان في مكنته ﷺ أن يسفك دمه لكنه ﷺ فعل ذلك ليصنع بالحلم قوة للإسـلام ونصراً، وليبقى درساً لتأليف القلوب ونشر المحبة .

-٤-

التواضع

التواضع أحد الصفات الأساسية التي تساعد على المعاشـرة الحـسنة لأن المتواضع يعيش مقدراً لنفسه وللناس ومقدَّراً من الآخرين، ومن هذا المنطق لا يبدوا متعاليا قط، ولا يكون وضيعاً أبداً، ويحس أن المساواة الأصيلة هي الروح المسيطرة فيألف، ويأنس، ويؤتنس به .

وينشأ التواضع في النفس بسبب يقينها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة

---

(١) الدعوة التامة صـ٩ .

(٢) الحسبة في الإسلام صـ٢٨١، ٢٨٢ .

(٣) سورة النور الآية ٢٢ .

وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف، واللقاء، والتآلف، حفاظاً على ما يمليه الإحساس الواقعي بالأصل الواحد، واتباعاً لتعاليم الرب الواحد الذي كفل للناس فرصة متكافئة فلا يتمايزون بخلقهم، أو لونهم، أو ثقافتهم، وإنما جعل التمايز تابعاً للإيمان والعمل، وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة، انظر ما قاله الله تعالى لبيان هذه الحقائق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

فالجميع من أصل واحد، والتفرق للتعارف، والكريم هو التقي، والذي يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير، أما هذا الذي تعالي حتى ولو بتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[2]

والداعية الذي جعل همه الدعوة إلى الله يجد نفسه ملتزماً بالتواضع ليتمكن من التماس طريق الله الذي دعا إليه عبادة الصالحين ليتحقق له كل ما وعد الله به، من تمتع كامل بالدنيا، وفوز عظيم بالآخرة، لأن الواقع أن ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[3].

ومن استفاد بكل آيات الذكر والكون لا تنصرف عن فهمه لتواضعه كوعد الله القائل ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[4].

فبين أن عقول المتكبرين وجندهم هي التي لا تفهم ولا تعي، فيجادلون في الحق بعد تبينه، ومهما عرضت لهم الآيات الواضحات كونية أو قوليه لا يرونها، ذلك حالهم وحال المتكبرين دائماً ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾[5].

وإنما فقدوا كل هذا لأنهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحبه يقول الله تعالى

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .

(٣) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .

(٥) سورة غافر الآية ٣٥ .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[1] ويفقدهم هذا الحب لا يجدون أي حـب مـن الناس لأن الملائكة تنادي أرواح البشر أن الله يبغض فلاناً ليبغضوه، وسيجدون أنفسهم بعد ذلك في عزله عن الناس ومقاطعة، وهذا ممـا لا يرضـاه داعيـة لنفسه.

على الداعية أن يلتزم بالتواضع ليقرب من الناس، لأن دعوته في حاجـة إلى صلة مستمرة بهم وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم، والتواضـع هو صانع ذلك كما بينته الحقائق الدينية التي عاشها النبي ﷺ تطبيقاً على نفسه وتوجيهاً لمن بعده من المؤمنين، إقرأ هذا الأمر إلى رسوله ﷺ، وفيه يقـول الله تعالى ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] وألمس منـه التوجيـه الواجب إلى التواضع لأنه بهذا الخفض يقرب منهم، ويوجه عقولهم وأرواحهم، وكان النبي ﷺ لا يتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعـرفهم أنـه كأحدهم في كافة شئون حياته، إذا ما مر بصبيان صغار وقف وسلم عليهم ، فعن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال " **كان النبي يفعله** " بل إنـه يوضـح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمل ويقول " **ما بعث الله نبياً إلا رعى الغـنم** " فلما سأله جابر عن محمد ﷺ قال " **وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا** " [3].

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الكامل حتى يتمكنوا من تأدية دورهـم ويضربوا في هذا المجال صوراً عملية كثيرة .

---

(١) سورة النحل الآية ٢٣ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٥ .

(٣) صحيح البخاري جـ٤ صـ١٩١ كتاب بدء الخلق باب يعكفون على أصنام لهم .

المحور الرابع
صفات القدوة والريادة

خلق الله الإنسان بغرائز عديدة ينشط بعضها عند أفراد، وينشط بعض آخر عند أفراد آخرين، ولذلك تختلف ميول الناس، وأحلامهم، وأمانيهم .

وفى كل مجتمع بشري يبرز أفراد يعرفون بأنهم أصحاب الرأي في هذا المجتمع، يتصفون بالنشاط الحركي، والعمل لخدمة الآخرين، والتضحية من أجل الغير .

هؤلاء القادة المحليون محبوبون في مجتمعهم وهم محل الثقة، وإليهم يتجه الناس لحل مشاكلهم، والأخذ بيدهم إلى الأفضل .

إن ارتقاء هؤلاء القادة وسط الناس أمر ثابت بسبب ما اتصفوا به من خلق كريم، وعمل سليم، وسعي دؤوب لمصلحة غيرهم من الناس .

هؤلاء القادة في الإسلام هم أولو الأمر في الناس وقد أمر الله بطاعتهم في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[1].

وسبب ذلك أنهم تخلقوا بالصفات الإيمانية، وتمتعوا بالجوانب الذاتية، وضموا إلى ذلك سائر الصفات النبيلة التي دعا إليها الإسلام وعلى رأسها الصفات التي تجعلهم رواد مجتمعهم وأصحاب الرأي فيه .

إن الديموقراطيات المعاصرة تعمل على اختيار نخب من الناس في كل مجتمع بواسطة الانتخابات التي تتم بين الحين والحين، هذه النخب هم أولو الرأي والقيادة في المجتمع، يعبرون عن آماله، ويساهمون في حل مشاكله .

ويوجهون الناس إلى الخط المقصود .

إن الدعاة إلى الله هم رواد المجتمع، وأئمة الناس، يأخذونهم إلى الخير، ويخرجونهم من النور إلى الظلمات، وينشرون فيهم دين الله تعالى، وحتى يتمكنوا من رسالتهم لابد لهم من الاتصاف بأخلاق الرواد والمصلحين، ليصيروا محل الحب والتقدير، وأساس هذه الصفات ما يلي :

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

-١-

المشاركة الوجدانية

المشاركة الوجدانية صفة هامة للداعية تجعله يعيش حياة الناس ليشعر بشعورهم، وينفعل مع آرائهم وحياتهم، ويتداخل في تقاليدهم وكافة شئونهم، بصدق وفهم، وتحليل، ويجب أن تأخذ هذه الصفة عنده شكلاً عاماً بمعنى تواجدها تلقائياً مع الجميع، لا تفرقه بين غني وفقير، أو رئيس ومروءس أو رفيع أو وضيع لكي يصل بالدعوة إلى الجميع .

إن المشاركة تضفي إحساساً عملياً له قوته في الوصل والتأثير، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الحريري الذي يصل القلب بالقلب، ويربط العقل بالعقل وبالجسم وبالروح.

وهي التي تنشئ كل التصرفات والسلوك، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع، ولأنها تظهر مع أول مقتض، ولكل أمر، ولا تحتاج إلى عناء كبير لكي، تعرف وتدرك لملازمتها القول والسلوك والعلم، والداعية بها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم، فيأخذون رأيه، وينهجون نهجه، ويجعلونه رائدهم، وما استحق ذلك عندهم إلا بعد أن تأكدوا من الصور العملية لهذه الصفة، فهو حبيب يتمنى الخير للجميع كما يتمناه لنفسه فيصل الرحم، ويكرم الجار، ويقري الضيف، ويخلص للجميع، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا ويحث عليه، ويبعدهم عن سواه، ودائماً تلقاه مهتماً بالخير فيهم فيكرر النصيحة، ويأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، وتعاونه مع الجميع يلمسه الجميع في كثرة ووضوح، والداعية في عمله لا ينتظر من الناس جزاءً أو شكوراً، وكل ما يتمناه أن يجعل الأفهام متفتحة لدعوته مقبلة على تدبرها واليقين بها .

والداعية يطبق أشكال هذه الصفة عن اقتناع بها لأنها أوامر دينه إليه، وحياة رسوله ﷺ مع الناس بعد البعثة وقبلها وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق الناس بتطبيقها .

إن الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية ، ودعوة الإسلام للتعارف تختم المشاركة الصادقة وجدانياً وعقلياً وحسيا، وآيات القرآن تؤكدها وتحث عليها، انظر قوله تعالى حينما يخاطب القوم بصيغة الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ولا بين مؤمن ومؤمن فالخطاب واحد للجميع إذ ينادي الله تعالى ويقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا يعلم المشاركة، بل إن القرآن يعلم الناس أن يكون دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾وهو دعاء في سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم عشرات المرات داعياً بصيغة الجماعة، إيثاراً لغيره، وتبرئه لنفسه من الأنانية .

إن هذا الإيثار شيء يحبه الله ورسوله حيث يقول الله تعالى ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[1] ويقول إخباراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[2].

وذلك ليس بدعاً في الدين لأن، القرآن الكريم يمتدح المؤمنين الأول لأنهم تركوا أنانية الذات إلى حب الجميع، حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون ما حكاه الله عنهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[3] ولم يكن هذا الشعور بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيثارهم كما يفيده قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

فترى الأنصاري ساكن المدينة يحب المهاجر إليه من مكة بكل صفاء، ويؤثره على نفسه خاصة، وسبب ذلك أن وجداناتهم قد امتلأت بالحب، والخير،

(١) سورة محمد الآية ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤١ .

(٣) سورة الحشر الآية ١٠ .

(٤) سورة الحشر الآية ٩ .

والمشاركة، وكل ما حرصوا عليه هو أن ينمحي الغل من قلوبهم، وأن يوقوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح، وذلك درس للداعية .

إن الداعية ملتزم بأن يحسن صلته مع الجميع تنفيذاً لأمر الله القائل ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾[١].

يبين الزمخشري في تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى كل ما بينك وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما، والجار ذا القربي هو من قرب جواره، والجار الجنب من بعد جواره وهو أجنبي، والصاحب بالجنب الذي صحبك في أمر ما أو المرأة، وابن السبيل المسافر والضيف، ويجب أن تأخذ هذه الصلة الحسنة، أشكالها المتعددة فهي على الخير والبر المأمور بهما في قــوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[٢] وهي نصيحة خيرة وتواص بالحق والصبر، لأنها من صفاتهم التي أمر الله بها يقول الله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٣] وهي أمر بالمعروف ونهي عن المنكر اللذان هما أساس خيريتهم كما أخبر الله تعالى في قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[٤].

وهي سبب فلاحهم الذين أمروا به في قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٥]

ويجد الداعية أمامه كذلك صورة النبي ﷺ وتطبيقاته لهذه الصفة فلقد كان قبل البعثــة كمـــا وصفته زوجته خديجة رضي الله عنها (**إنَّكَ لَتَصلُ الرَّحِـــمَ**

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٢ .

(٣) سورة العصر الآية ٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

وتَحْمِلُ الْكَلَّ وتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وتَقْرِي الضَّيْفَ وتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)[١].

وكان يشارك ﷺ قومه أحداثهم الكبرى فساهم في حرب الفجار، وحلف الفضول، وبناء الكعبة، وعاشر الرعاة، والتجار، والأثرياء، والكبار، والصغار، وكان الجميع يذكرونه ويتقربون إليه فلما بعث ﷺ تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله عز وجل في قوله ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

وكان يوالي الناس بالنصح والإرشاد قاصداً نجاتهم وسعادتهم .

وكان ﷺ يسبقهم في كل أعمالهم، ألا تراه في يوم بدر يترك ابنته رقية مريضة في المدينة، ويذهب إلى الحرب، لا ليجلس في العريش الذي بناه له الصحابة خلف الصفوف، بل ليكون في أول الصفوف يرمى بالحصا، ويناشد الله، وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر ﷺ فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعد، وتنتهي المعركة ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائد إلى المدينة.

وكان ﷺ يعمل دائماً لمصلحة الناس، ويتصرف وفق ما يناسبهم من ذلك ما ذكره ﷺ: **يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار** "[٣] فهو يعطي هذا انقاذاً له من النار، ويترك غيره الأحب ثقة في إيمانه .

إنه ﷺ في موالاته النصيحة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ترك للمسلمين عموماً وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تمدهم بالدين كله .

وعلى الجملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ الصدارة، ويتقدم الصفوف، ويكون ثقة القوم وأملهم، ويبعد نفسه عن تهمه الحاقد، وينجو عن عداوات المعارضين .

---

(١) صحيح البخاري جـ٩ صـ٣٨ كتاب التعبير .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٣) صحيح مسلم جـ١ صـ٩١ كتاب الإيمان باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه .

-٢-

العزة والشجاعة

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة ، لأن الشجاعة صفة تعجب العامة، وتسوقهم لاحترام صاحبها والإعجاب به.

وتعتمد هذه الصفة على تقدير الشخص لنفسه، وفهمه لواقع حياته، واتباعه لتعاليم دينه المؤكدة التي تعلمه البعد تلقائياً عن الذل والضعف والخوف والاضطراب، لأن إيمانه بالله يؤكد أمامه الثقة في المفاهيم التي تحقق له العزة، وترزقه الشجاعة، وهذه المفاهيم هي :

أولاً :

المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه بالله الثقة في طاعته، ويشعر بالتفضيل والكرامة التي ميزة الله بها لأنه بالإيمان يؤدي ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذي يصرف كل شيء ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[١] وبتكريم الله يرفض الذل والمهانة والضعة .

ثانياً :

الخلق كله بقبضه الخالق سبحانه وتعالى، وبيده وحده النفع والضر، وكل الخلق خاضع له سبحانه وتعالى، وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال الله تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢] حيث جعل الإيمان شرطاً لعدم الخوف من الناس، وصار معلوماً أن الخوف من الناس ليس من الإيمان في شيء .

ثالثاً :

الأجل والرزق محددان تماماً يقول الله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٣] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي

---

(١) سورة الرعد الآية ٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

﴿ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[1] وقد ثبت أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح في المضغة كما يكتب أجله وعمله [2] وبثبوت هذه الحقائق في يقين المؤمن يعمل بجد، ويترك الأمر لله لا يخاف من موت، ولا ينشغل برزق .

وما دامت هذه المفاهيم الثلاثة قد ثبتت عن الداعية فما عليه إلا أن يظهر العزة في كل حياته لأن الحقيقة القرآنية تؤكدها يقول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

وهي عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التي أولاها الله للإنسان على العموم، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان، ولا يقبل الله تعالى من المؤمن قط عذراً إذا سار في مسلك ذليل لأنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل الله هؤلاء الأذلاء المستضعفين ويقول لهم ﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾[4] وفى الآية إخبار بأن الله لن يقبل من مؤمن ضعفاً في بلده، لأن الأرض كلها لله وهي واسعة، وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته، وحماية لعزته التي يجب أن يتمسك بها ولن ينقص من قدره شيء لأن الحقيقة في قوله تعالى ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[5] .

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره أو يطغى، لأن العزة خلق ممتاز يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه ولغيره، انطلاقاً من فهمه لذاته ولدينه وللحياة .

ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً قوياً في شخصه ورأيه، لتكون هذه العزة خيرة في ذاتها، مقبولة من كافة العقول .

---

(١) سورة هود الآية ٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٦ صـ١٩٢ كتاب القدر .

(٣) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٤) سورة النساء الآية ٩٧ .

(٥) سورة فاطر الآية ٢ .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى في الأسماع والعقول، فحفل به، وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيماء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء، وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .

ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه، والسيطرة عليها، بل إن ذلك هو كل القوة في الواقع، لأن النفس خيراً وشراً تتنوع بحسب قواها، وأحسن الناس من يحكم شهوته وغضبه، فيعطي لنفسه العاقلة زمام أمره، ويتصرف بعيداً عن أي انفعال يفسد عليه وجهته مهما كانت حقاً .

يقول ابن مسكوبة : شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان راكب دابة قوية، ويقود كلباً، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذي يركب دابته، ويقود كلبه،فلا شك في رغد عيشه، وحسن أحواله، وإن كانت البهيمية أو السبعية هل الغالبة ساءت الثلاثة [١].

ولقد كانت وصية النبي ﷺ للصحابي الذي سأله النصيحة " **لا تغضب** "[٢] ليكون قوياً بحق يقول ﷺ (**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب**)[٣].

ومن هنا يقول ابن المبارك إن المقصود من قوله تعالى ﴿ **وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾[٤] هو جهاد النفس، لأن العزيز هو الذي يجاهد ذاته ويحكم نفسه ولا يجعلها تميل بالغضب الذي يفسد على الإنسان وجهته، ويحول بينه وبين الرشاد، ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا** ﴾[٥] بل إن سيطرة العقل الهادئ يجعل الإنسان واقعياً في الموقف فيبدي الحجة، ويظهر الرأي، ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة المطلوبة إعلان الرأي في ثبات، لا يعرف التغير أو التلون

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكوبة صـ٥٥ .

(٢) موطأ مالك جـ٤ صـ٩٤ ما جاء في الغضب .

(٣) موطأ مالك جـ٤ صـ٩٤ ما جاء في الغضب .

(٤) ذم الهوى صـ٤٠ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

بسبب محاباة أو تحامل، لأن هدف الداعية نشر دعوته الحقة المؤيدة بالدليل وهي محفوظة لا تتغير وإنما تُغَيِّر وتُصلح وتعلى، فإظهارها على وجهتها وبشكل مرن هو المطلوب مهما كان الحال أو الموقف أو القوم، ولا على الداعية بعد ذلك ما دام يتجرد في هدفه، ويبعد عن الدعوة أي أثر شخصي محتمل لأنه بهذا يبلغ الدين، ويوصل الحقيقة، وينشر الحق بين الناس .

وللداعية في ذلك أسوة في رسول الله ﷺ فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط قوم كافرين بها، ومعارضين لها، ومع ذلك لم يبال بأعمالهم ... لجأوا للتهديد والوعيد فرد عليهم قائلاً لعمه (**لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله وأهلك دونه**) [١] ولجأوا إلى محاولة إغرائه فكان ينتهز فرصة قربهم منه ويدعوهم إلى الله وقاطعوه وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم، ولم يحدث أن غير ﷺ الدعوة مع تغير الظروف واختلافها، بل كان العذاب الشديد يلحق به وببعض المسلمين ومع ذلك كان يحث على الصبر، وينتظر الأمل، ويواصل الدعوة لأنها الحق، ولابد أن تعلن، ومن هنا نجد القرآن الكريم يعلم المؤمنين قول الحق مهما كانت نتائجه، ومهما كانت شخصية من يقف في طريقه فقال تعالى ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[٢]. يقول الزمخشري في تفسيرها : إن المعني أن تجتهدوا في إقامة العدل حتى لا تجوروا، وتقولوا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها، ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم، ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غني [٣].

إن عزة وشجاعة الداعية تأخذ شكلاً إيجابياً إنسانياً لأنها تنقذ صاحبها من الهوان والضعة، وتدفعه إلى مساعدة الضعفاء ومعاونتهم، وتحتم عليه العمل الجاد للدعوة لأنه بذلك يخدم نفسه ومجتمعه ويعمل لدنياه وأخراه .

---

(١) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٢٧٨ .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٣) تفسير الكشاف جـ١ صـ٥٧٠ .

-٣-
الكرم والسخاء

الكرم صفة من أهم صفات الداعية لأنها تقرب القلوب النافرة، وتمهد العقول للطاعة، ولذلك كانت من صفات الريادة والقدوة لأن اليد العليا خير من اليد السفلى، والكريم قريب من الله قريب من الناس، ولذلك كان من أولى الأوامر الأخلاقية للرسول ﷺ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [١] أي لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فنجده ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى فاقة، **وكان ﷺ كما وصفه ابن عباس أجود الناس**[٢] **ولم يقل مرة لا عن شيء سئل فيه**[٣] ولا يكفي في الكرم العطاء المادي وقت وجود المال يقول ﷺ (**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**)[٤] لأنه لابد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم، وأصالته، في كافة حالاتها تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته، وتعلم أن هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلى، وإنما هي فترة مؤقتة تنبني عليها كل سعادة الآخرة، يقول الله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[٥].

فليس الهدف من الدنيا التلذذ من الشهوات والمطعم، وليس هو شأن المؤمنين أبداً من الدنيا منها، أما الكافرون فإنهم الذين ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[٦] وبهذا الزهد لا يكون المؤمـــن منعماً في تصرفه، وفى الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[٧] ويقول سبحانه ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[٨].

---

(١) سورة المدثر الآية ٦ .

(٢) صحيح مسلم جـ٧ صـ٧٣ .

(٣) صحيح مسلم جـ٧ صـ٧٣ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس رقم ٦٤٤٦ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .

(٦) سورة محمد الآية ١٢ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٨) سورة القصص الآية ٧٧ .

وهذا الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتي، وعفاف عما في أيدي الناس، ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد والقناعة والعفاف بل إنها تطبعه بطابع السخي المعطي حين يجد الذي يعطيه، غير منتظر علم أحد أو شكره لأنه انفق لوجه الله، ولا ينتظر ثواباً إلا من الله، وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذي يتلوه ويرشده والتى يقول الله فيها ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[1] هذه الحقائق ترسخ في نفس الداعية فيعطي بلا حد، ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح في دعوته .

ويعد الكرم أحد الأسباب التي حببت الناس في رسول الله ﷺ يقول على ﷺ (**كان رسول الله ﷺ أجود الناس كافة**) ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان ولذلك يروي أن **رجلاً أتى النبي ﷺ وسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه مسلماً وهو يقول لهم : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة** [2].

وقد أدرك المبشرون تأثير العطاء للمحتاج إليه فأخذوا في العمل به، إذ نراهم يمدون المحتاجين بمختلف المعونات المادية، ويعملون على مشاركتهم في حياتهم ... ومن خلال عطاياهم يقولون للناس : إن هذا من بركات السيد المسيح ليؤمن الناس بصاحب هذا الكرم .

وتلك ملحوظة من الواقع يجب أن يتنبه إليها الدعاة، ومن وراءهم ليتصفوا بهذه الصفة لما لها من تأثير كبير .

وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه في الطريق المستقيم لدعوته، وحصن نفسه بأخلاق الآلفة والريادة ولا عليه بعد ذلك إلا أن يملك العلم الذي يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢ .

(٢) الشفا جـ١ صـ٢٣٨ .

المحور الخامس
التمكن العلمي

دور الداعية في مجتمعه هام حيث له الصدارة، والفتوى عليه، والمناصحة والإرشاد هي مهمته، والقدرة على كل هذا ليس أمراً هيناً لأنه لا يتأتى لصاحبه إلا بعد جهد شديد، وبذل متواصل في التحصيل العلمي والبحث والدراسة .

واعلم أن العلم في حد ذاته ضروري يقول الإمام الغزالي : إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه، فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتواصل إليه إلا به[١] فكان من الضروري الحرص عليه لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة .

والعلم للداعية أكثر ضرورة لأنه يقابل أشتاتاً من الناس، مختلفين طبعاً وخلقاً وبيئة ولساناً، ولابد من معرفة كل شيء عنهم، والإسلام موضع دعوته ليس طقوساً تنتقل بالوراثة، أو تعاويذ توجد بالإيحاء والإيهام، بل إنه يستخرج من كتاب كريم يحتاج إلى الفهم الواعي، والاجتهاد السليم، والمعرفة الشاملة، كما يحتاج إلى إتقان الأساليب التي تعبر عنه بجمالها وسهولتها ... ولابد له من معرفة الاستفادة بكافة الوسائل العلمية والنظرية التي تقدم الإسلام بواسطتها .

وما دام الداعية يهدف الحسن دائماً في صلته بالله والناس، وفى حركته وعمله فإن العلم خير محسن لهذه الصلة .

يروي ابن عبد البر بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: **تعلموا العلم فإن تعليمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص أثارهم، ويقتدي بأفعالهم، وينتهي إلى رأيهم**[٢].

---

(١) الإحياء جـ١ صـ١٢ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله جـ١ صـ٦٥ .

وبمداومة الداعية طرق باب العلم يتسع أفقه ويكتسب من المعارف ما يجعله على مستوى المسئولية التي عاهد الله على القيام بها مع الناس .

والعلوم كثيرة، ومفاتيحها القراءة، والسفر، والجلوس لمعلم، ودقة النظر والتتبع ... وقبل ذلك ومعه وبعده تقوى الله تعالى .

ولم تعد العلوم المطلوبة قاصرة على العلوم الدينية لأن الداعية يحتاج إلى العلوم الإنسانية، والبيئية، والسكانية، والاجتماعية، وغيرها وبواسطة التعلم يتمكن الداعية بين معرفة أمور لابد منها ... وأهمها ما يلي :-

١- المعرفة التامة بالدعوة :

معرفة حقيقة الدعوة ضرورة للداعية، لأنها المنطلق الذي منه يتحرك وبه يدعو، وبوضوحه يتجمع الناس، ويؤمنون ويصدقون بكل ما يوجه لهم .

ولابد أن تكون الإحاطة شاملة لعلوم الدعوة جميعاً لكي يكون الداعية عالماً بما يعلمه لغيره، لإن فاقد الشيء لا يعطيه .

إن علم الداعية يرفع شأنه، ويرسخ قدمه، ويدفع المستمع إلى الثقة في قوله، وسرعة تصديقه فيما يطلبه، وهذه المعرفة ليست شاقة الطريق فإنها مثبوتة في القرآن الكريم الذي ضمن الله حفظه وتركه في الناس فائدة للعالمين، وأمانة سوف يحاسبون على تقصيرهم فيها .

إن معرفة الدعوة تشمل كل أركان الدعوة وعلومها، وعلى رأسها معرفة أصول الدعوة التي هي أركان الإيمان وما تتبعها من فروع وأخلاق .

وتشمل المعرفة بالدعوة كذلك الإحاطة بالوسائل التي يستخدمها في دعوته ليحسن الاستفادة بها، ويعد رسالته الدعوية بنمط يتفق مع الوسيلة الموجودة .

ولابد من معرفة دعوات الأنبياء جميعاً، وكلّ من ذكرهم القرآن للوقوف على حواراتهم، وأجابتهم معارضيهم لأن ذلك يفيد الدعوة في كل وقت .

وعلى الداعية أن يحفظ القرآن الكريم، وسيفهمه، لأن كثيراً من الآيات يفسر بعضها بعضاً، وبعضها الآخر يفهم بالسنة، وأقوال الصحابة، واجتهاد العلماء .

وتعتبر المعرفة التامة بالكتاب الكريم هي الدعامة الأساسية في المعرفة الدعوية لأنها تورد كثيراً مما يحتاج إليه الداعية، وفيها دعوته بعقيدتها وشريعتها وأخلاقها، وفيها الوسائل التي يخاطب بها الناس وفيها سيعرف دوره ومصيره، وبدراسة القصة والقسم وغيرها من أساليب القرآن الكريم يعلم كيفية مخاطبة الناس وترغيبهم وتشويقهم في الدعوة .

ومع ذلك فإنه من خلال الأساليب القرآنية سيعرف كثيراً عن طبائع الناس وغرائزهم وعاداتهم، ويلحظ كيف راعت ناحية التأثير في الجميع، وسيعرف مقاصد الدعوة وأهدافها الرامية إلى إسعاد الناس في الدنيا والآخرة، وبذلك يجب على الداعية أن يحفظ القرآن الكريم ويتفهمه ليقدر على البلاغ والإرشاد.

ويجب أن يكون واضحاً أن الداعية يحتاج إلى الوقوف على طرق تحسين الحسن، وتزيينه في القلوب، والترغيب في الإيمان فإن الله سبحانه وتعالى قضى بذلك يقول الله تعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[1] ومن أجل حسن عرض الدعوة، وحسن التصرف لابد من اختيار دعاة يعلمون، ويفقهون، ويحسنون مواجهة المواقف الطارئة .

وكان النبي ﷺ يختبر الدعاة عن مدى تمسكهم، وتفقههم،، وتفهمهم، وإحاطتهم بالدعوة، والقدرة على حسن التصرف .

يروي ابن عبد البر بسنده عن شعبه قال: حدثني أبو عوف عن الحرث عن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل عن معاذ أنه قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال كيف تقضي إذا عرض لك القضاء .

قلت : أقضى بكتاب الله .

قال ﷺ : فإن لم يكن في كتاب الله ؟

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧ .

قلت : فبسنة رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟

قلت : أجتهد رأي ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ صدري وقال : الحمد الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله [١].

فإجابة معاذ لرسول الله ﷺ تشير إلى شمول معرفته بالقرآن لأنه سيبحث فيه كله عند القضاء فإن لم يجد ينتقل إلى السنة، كما تشير إلى ثقة معاذ وهو يواجه الناس، ونشير كذلك إلى حرص رسول الله ﷺ على اختيار الداعية المناسب للإسلام .

وأيضاً فإن المعرفة الشاملة للقرآن تمكن الداعية من هداية الناس، والأخذ بيدهم حين الاختلاف لتمتعه ببصيرة نافذة، وموهبة ربانية، تجعله أعلم من غيره لأن القرآن نور يضيء السبيل، ويهدي للتي هي أقوم، ويجلي الحق، ويوضحه يقول النبي ﷺ **(أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس)** [٢].

وهذه البصيرة في القرآن تحتاج إلى مجموعة من العلوم توصل إلى فهم المراد لأن الصحابة رضوان الله عليهم وهم على ما هم عليه من فصاحة كانوا يعلمون ظواهر القرآن، أما دقائقه الباطنة فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر من سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر كسؤالهم رسول الله ﷺ عن الظلم لما نزل قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣] **حيث قالوا : أينا لم يظلم نفسه ... ؟**

ففسره النبي ﷺ لهم بالشرك بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٤].

وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير **فقال لها ﷺ : هو العرض .**

---

(١) جامع بيان العلم حـ٢ صـ٦٩ .

(٢) جامع بيان العلم حـ٢ صـ٥٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٨٢ .

(٤) سورة لقمان الآية ١٣ .

ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك ما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة .

وقد ذكر السيوطي خمسة عشر علماً من العلوم الضرورية لفهم كتاب الله تعالى لابد منها للداعية، وهي :

الأول علم اللغة : ليعرف به شرح المفردات وفهم مدلولاتها بحسب الوضع العربي، وبذلك يوصل المبنى للمعني، ويحقق التلاؤم الضروري بين اللفظ والمفهوم .

الثاني علم النحو : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الأعراب .

الثالث علم التصريف : لأن به تعرف الصيغ والأبنية .

الرابع علم الاشتقاق : لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافها كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح .

الخامس والسادس والسابع علوم المعاني والبيان والبديع : لأنه يعرف بالأول خواص التركيب من جهة إفادتها المعني، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام .

والثامن علم القراءات لأن به يقرأ القرآن على اللفظ الوارد به من رسول الله ﷺ كما تلقاه من جبريل عليه السلام .

والتاسع علم أصول الدين : ليعرف ما يجب لله تعالى من أسماء وصفات ويتيقن التوحيد في الذات والصفات والأفعال .

والعاشر علم أصول الفقه : إذ به يعرف الداعية الأدلة الشرعية ووجه الاستدلال بها على الأحكام التفصيلية العملية .

والحادي عشر : أسباب النزول لأن ذلك يساعد على فهم المراد.

الثاني عشر : الناسخ والمنسوخ .

والثالث عشر : علم الفقه الذي يفصل الأحكام الشرعية .

الرابع عشر : الأحاديث المبينة للقرآن الكريم .

الخامس عشر : علم الموهبة وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم[1].

ومن هذه العلوم اللازمة المذكورة نلمح أن الدعوة كفن للداعية تحتاج إلى تمكن تام بالقرآن الكريم ليكون خير ممثل للدعوة، وخير دارس لحياة سيدنا رسول الله ﷺ .

والعلماء المتخصصون يشتركون مع الدعاة في تعليم هذه العلوم إلا أن الدعاة، يتميزون بتحويل هذه المعارف إلى صيغ وصور فنية لتوصيلها إلى عقول وقلوب المدعوين، فهم كالنحلة يجمعون رحيق الأزهار على اختلافها ويحولونها إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ولذا قال بعض الحكماء، إن الدعوة تبدأ بعد انتهاء التخصصات الأخرى .

٢- المعرفة بالمدعوين :

معرفة من توجه إليهم الدعوة هام، تمكن الداعي من التأثير والإقناع، والوصول إلى قلوب الناس ونفوسهم، وذلك يحتاج إلى المعرفة الشاملة التي تجعله يصنع التناسب بين الدعوة والمدعوين سواء كانوا في القرية أو في المدينة أو في أي مكان .

وهذه المعرفة تمكن الدعاة من معرفة جوانب حيوية عديدة ... وأهمها :

أ) طبائع الناس :

معرفة طبائع الناس تمكن الداعية من الوصول إلى أصول عقائد الناس، وأخلاقهم وعاداتهم ليعالجه علاجاً جذرياً كما أن دراسة سير السابقين تعطي فهماً لطبائع البشر ولهذا أكثر القصص القرآني من بيان أحوال السابقين، بل إن هذا القصص يعتبر أسلوباً مؤثراً في نفوس مستمعيه، لأنه يؤثر في العاطفة، ويخاطب العقل والوجدان، ومن هنا كانت دراسة التاريخ، وخاصة تاريخ الأديان والنحل هامة للدعاة .

ب) جغرافية السكان :

وذلك لكي يفهم الداعية طبيعة البيئة وأعمال السكان لأهميتها في التكوين

---

(١) الاتقان جزء ٢ صـ١٨٠، ١٨١ .

المزاجي والفكري للناس يعرف الداعية هوى النفس وميولها، واتجاهاتها ومدى تأثرها وتأثيرها في المجتمع الذي تعيش فيه، والمقدار الذي يتغير من السلوك نتيجة هذا التأثير، وهذا هام لأنه يمكن الداعية من توجيه خطاباته إلى النفس بما يثيرها ويناسبها .

جـ) معرفة لغة المدعوين :

من البيان المطلوب للدعوة أن يخاطب الداعية القوم بلغتهم لأنهم في هذه الحالة يكونون أقدر على السماع، وأقوى على الفهم، وقد بعث الله كل نبي إلى أمته بلغتها، وقد كان النبي ﷺ يخاطب العرب كل بلهجته .

فالدعوة الإسلامية عامة ودائمة، ومحال أن تنزل الدعوة بكل لغات العالم الموجودة، أو التي ستوجد لأن ذلك يعني تعدد الدعوة بتعدد اللغات، وعدم وجود رسالة خاتمة ومن هنا مكن الله العرب من لغات الأمم كما بيناه سابقاً حتى استطاعوا تبليغ الدعوة إلى غيرهم من الناس، ولذا أصبح واجباً على الدعاة من بعد النبي ﷺ مواصلة الدراسة في اللغات العالمية لكي يملكوا القدرة على مخاطبة أي قوم بلغتهم، ويستطيعوا أن يترجموا المبادئ والأسس والتعاليم الإسلامية ويتمكنوا بعد ذلك من إيصالها للناس .

هذا وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر زيد بن ثابت بإجادة السريانية.

قال زيد .. قال لي رسول الله ﷺ أتحسن السريانية ؟ إنها تأتيني كتب بها . قلت : لا .

قال ﷺ : تعلمها .... فتعلمها في سبعة عشر يوماً[1].

فإذا ما أجاد الداعية لغة القوم، وأحاط بالمعارف الإنسانية مع محافظته على القرآن وفهمه، والإحاطة بالسنة وبيانها فإنه يكون موفقاً إن شاء الله تعالى، وما دام يتمتع بصلة حسنة بالله فسوف يرزق علم الإلهام الذي يفيض عليه من نعم الله وفضله الكثير .

* * *

---

(١) الفتح الرباني على مسند أحمد كتاب العلم، باب فضل العلوم والعلماء جـ١ صـ١٤٥ .

وأخيراً فتلك هي صفات الداعية الأمثل وقد رأينا فيها صلته بالله، وصلته بالناس، ومدى ثقافته، واتساع أفقه ... وهي صفات يجب أن توضع لها خطة تربوية منذ النشأة الأولى لينشأ الداعي وفى نفسه حب الدعوة، ورغبة التحمل، والمجاهدة في سبيلها، وقد رأينا كيف ربي الله رسوله لا منذ النشأة الأولى فحسب بل تولاه قبل مولده، وخطة التربية سهلة وعلى المسئولين عن التربية القيام بها حتى نرى دعاة كدعاة العصر الأول، يحيون الهمم، ويبثون الأمل، ويبعثون الثقة من جديد وقد أشرت إلى تصور رأيته لتربية وتكون الدعاة على نحو ما سبق ذكره .

وإذا ما وجد الداعية الكفء واستفاد بالوسائل وبهجتها كما وضحتها المصادر الإسلامية فإن الأمل كبير في القيام بالواجب وتأدية الأمانة والله الموفق .

الباب السادس

أساليب الدعوة
في القرآن الكريم

تمهيد :

في الطبعة الأولى من كتابي " **الدعوة الإسلامية** " تعاملت مع الأساليب بمسمى الوسائل وهذا خطأ لم يظهر حين الكتابة بسبب أن الدعوة الإسلامية كانت تعني وقتها التبليغ والإرشاد بلا تفرقة بين الوسائل والأساليب .

وقد تنبهت لهذا الخطأ بملاحظة إخوة كرام أشاروا إليها في مؤلفاتهم بالنص أو بالإشارة ... وإني هنا أشكرهم وأبادر إلى تصحيح خطإي، وأسمى الباب بمسماه الصحيح وهو أساليب الدعوة في القرآن الكريم .

إن الأسلوب هو الكلمات اللفظية، والتراكيب البلاغية التي ينطق بها أو يكتبها فرد أو جماعة لتدل على معني معين، وتحقق هدفاً مقصوداً .

والتراكيب البلاغية التي يتحدث بها الدعاة هي أسلوبهم إلى مدعويهم .

وقد اكتفينا في هذا الفصل بأساليب القرآن الكريم لأنها أساليب جامعة وضع الله فيها أسرار قدرته، ويجب أن يستفيد بها الدعاة على الدوام .

ونحن نقول مطمئنين : إن الأساليب القرآنية هي أسمى الأساليب وأعلاها ولذلك فهي المثل والقدوة للدعاة .

وقد قدر الله للدعوة الإسلامية أن تكون عالمية وخاتمة، وقضى لها بالتمام والظهور، وسيرها على سنة البشر فأظهرها في عصر يتطلبها، ويتفهم تعاليمها الكاملة، وجعلها في أمة قادرة، بسبب مكانها، وخصائص إنسانها، على إبلاغها، كما أوحي بها لرسول كريم ستظل الإنسانية تؤكد أنه خير ما خلق الله .

وحتى يبقى للدعوة كمالها جعلها الله خاتمة للرسالات، لأنها لا تتناقض معهم، بل تتضمن مبادئهم، وتكملها بجديد يناسب كمال البشر، وتضع من التعاليم ما يبقى إلى الأبد، ولا تحتاج البشرية معه إلى وحي آخر جديد .

وقد اعتبرت الدعوات السابقة جزءاً من الدعوة الإسلامية، وتجارب على نفس الطريق تفيدها، وتؤكدها، وتبين خصائصها التي جعلتها عالمية، وخاتمة من دونها .

وكان من حكمة الله تعالى أن تنتقل الدعــوة إلى الناس بأهــدافها فوضع الأساليب المحققة لذلك في كتابة العزيز .

ومن هنا اشتمل القرآن الكريم على كثير من أنواع الخطابات التي أوردها مرة في شكل قصة، ومرة أخرى في هيئة قسم، أو جدل وغير ذلك، مع تضمن كل نوع للخصائص التي تجعله أسلوباً للدعوة، وتمكنه من التأثير في الناس .

وتنوع الأساليب في القرآن ضرورة اقتضتها المراعاة الحكيمة لتنوع الناس واختلاف العناصر المؤثرة فيهم، ذلك لأن التنوع على صورته الموجودة في القرآن يجعل بعض الأساليب متجهاً إلى العقل المجرد، وبعضها الآخر متجها إلى العاطفة والوجدان، والبعض الثالث متجهاً إلى محاورة الجدليين وإقناعهم .

وقد اشتمل القرآن الكريم كذلك على توضيح يتعلق بأن الخطابات كلها في حدود ثقة الدعوة بالعقل المدرك الحر، بعد تحصينه ضد القهر والإكراه ومساعدته على أن ينظر ويدرك، ولذلك كان خطابها إليه

وإبلاغ الدعوة إلى الناس، تقتضي أن تصل إليهم على وجه الوجوب، وإن لم يتحرك الناس إليها فلا شيء عليهم، ومن هنا احتاجت الأساليب إلى من يحملها وينقلها إلى الناس أينما كانوا، وليس ذلك في غير الداعية الذي يحمل الأساليب إلى المدعوين لتتحول معهم إلى تطبيق وتنفيذ .

وقد جاء هذا الباب شاملاً لكل هذا، مع دراسة تبين مدى إمكانية الاستفادة بهذه الأساليب وفنيتها في العصر الحديث، ولهذا سأبحث الأساليب البيانية للدعوة في القرآن مبينا مدى اعتمادها على خطة واحدة لا تتخلف مع أي أسلوب وبعد ذلك استنتج في النهاية المنهج العام لهذه الأساليب لتكون أساساً لكل جديد مستحدث، ولذلك سيتكون هذا الباب من ستة فصول هي :

١) الملامح العامة للأساليب .
٢) القصة القرآنية أسلوب للدعوة .
٣) أسلوب القسم القرآني .
٤) الأمثال القرآنية أسلوب للدعوة .
٥) أسلوب الجدل القرآني .
٦) منهجية الأساليب في إطار الحركة بالدعوة .

وستأتي هذه الفصول مرتبة على هذا النمط بتوفيق الله تعالى .

الفصل الأول
الملامح الواحدة في أساليب الدعوة



تمهيد :

سطر القرآن الكريم في ثناياه أساليب دعوته إجلالا لدورها، وإثراء لفائدتها، ولكي تبقى طريق الدعاة إلى الله على طول الزمن في دعوتهم وعملهم، ذلك أن الدعوة انتشرت بها وحدها أولاً، ولابد أن يقتصر انتشارها عليها كذلك إلى الأبد، لأن ما حدث أولاً هو القاعدة لكل ما سيكون بعده، كما أن هذه الأساليب تملك الحيوية الدائمة، وعناصر التأثير المستمر، لأنها تناقش العقل، وتشبع الغرائز، وتخاطب الوجدان، وتجادل بالتي هي أحسن.

إن الأساليب تراعي تنوع الناس حيث كانوا بدوا أو حضراً، في الشرق أو في الغرب، في القديم أم في الحديث، ومع تنوعها ومراعاتها لاختلاف الناس تلتزم بملامح واحدة توجد في كل نوع منها على حدة .

إن أسلوب الدعوة يجب أن يكون سهل الإدراك، مكشوف المعنى، متفقاً مع مألوف السامعين لا يغرب عن تفكيرهم، ولا يشذ في دلالته عن عقولهم، ولا يكون وحشياً غريباً مستجناً .

إن اللفظ لو لم يكن سهلاً لانصرف عنه المستمعون، ولتخيلوه غريباً عن لغتهم.

إن الدعوة تبحث عن الاستمالة والجذب، واللفظ الغريب يؤدي إلى البعد والنفور ... هذا وقد سمى أرسطو الكلمة السهلة بالكلمة " المستولية " لاستيلائها على العقول بسرعة، وعرفها ابن رشد بقوله " هي اللفظ الخاص بأهل لسان ما وتكون مشهورة عندهم، سهلة دالة على المعاني التي وضعت لها من أول الأمر من غير تفسير وتأويل، ويقول أرسطو : إن الكلمة المستولية هي الكلمة البهية النبيلة غير الحقيرة، ولذلك كان الأسلوب القرآني سهلاً ميسراً جامعاً لكل فنون القول، ومتلائماً مع واقع الناس، وسوف أتحدث عن الملامح العامة للأسلوب القرآني في المباحث التالية :

المبحث الأول : الوضوح التام .

المبحث الثاني : ملازمة الحسن والدقة .

المبحث الثالث : التوجه لجميع المكلفين . **وذلك فيما يلي ،**

المبحث الأول
الوضوح التام

تلتزم جميع الأساليب القرآنية بالوضوح الدقيق، والبيان الشامل، حيث يتسع وضوحها لمبادئ الدعوة وهي تعرضها، وتدلل عليها مستعينة بإحاطتها بمن توجه إليهم الدعوة، متفهمة للداعية وقدره .

ولدقة فهم الأساليب وإحاطتها بواقع المدعوين نراها تأتي موجزة أحياناً وطويلة أحياناً، أخرى، حقيقة أو مجازاً، مثلاً أو جدلاً، أو قصة، وهكذا تبعاً لمقتضى الحال .

وقد وضع الله في أسلوب القرآن الوضوح والبيان لكي يقوم بدوره في الناس، ويعرض الدعوة قوية تثير داعية النظر عند المدعوين كما هو شرط إبلاغها [١].

والدعوة من غير بيان ما كانت ولن تكون، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٢] وتلك قاعدة ضرورية لأن اتحاد اللغة بين الداعية والناس يجعل الفهم سريعاً، وميسراً، وبلا عناء، ولذلك ضمن الله لأساليب القرآن هذا البيان فقال تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[٣].

إن البيان شرط في تبليغ الدعوة لأنه لا معنى لكلام غير مفهوم، ولا قيمة لثرثرة كلامية لا معنى لها، ولذلك سمى الله رسالة الرسول بالبينة لما فيها من بيان ووضوح، وجعل رسوله هو البينة لمـــا في حديثه من ظهور يقول تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [٤].

---

(١) فيصل التفرقة للغزالي صـــ٧٥ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤ .

(٣) سورة القيامة الآيات من ١٧ إلى ١٨.

(٤) سورة البنية الآيتان ١، ٢ .

وكان ﷺ يقول كما علمه الله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1] ومعنى البصيرة التي عليها دعوة النبي ﷺ تضمن الأسلوب الحجة الواضحة، والبيان الدقيق، والبرهان الساطع، والفهم العميق للدعوة والمدعوين .

وكون الدعوة على بصيرة شرط فيها، يقول الرازي عند تفسيره لهذه الآية وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط، وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ... وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور[2].

وهذه البصيرة أسلوب بياني، وكونها شرطاً دليل على أن حرفة الكلام، وعلم الأصول هي حرفة الأنبياء عليهم السلام، وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها، وما كانت حرفة الأنبياء هكذا إلا أنهم يملكون هذه البصيرة، ويدعون وهم فاهمون للدعوة والمدعوين .

إن هذه الصفة في أساليب القرآن الكريم تؤكد على ضرورة أن يكون الأسلوب متلائم الكلمات، متآلف التراكيب، بحيث تنساب الجمل وكأنها نغم يلمس أذن المستمع، ويمده بالشجن والسرور، ويجب أن يكون واضحاً أن الكلمات إذا تنافرت فيما بينها تضر الداعية والدعوة لأنها تخرج منه ثقيلة نابية، وتضر المستمعين، لأنها تفقدهم روح الانتباه والميل للإقتناع، وقد ذكر ابن الأثير أن من بلاغة الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها متعاونة معها، لئلا يكون الكلام قلقاً نافراً عن موضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم، في اقتران كل لؤلؤة منه مع أختها المشاكلة لها وقد قال البلاغيون : إن لكل كلمة مع صاحبتها مقام، وقال غيرهم : لكل حدث حديث، ولكل مقام مقال[3].

ولنأخذ مثلاً موضحاً من القرآن الكريم، يقول تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ٢٥٥ .

(٣) المثل السائر صـ١٤٩ .

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] ألا ترى ما في اختيار كلمة الناس وعمومها من عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم، وفى ذلك ستر عليهم وإغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم، ذلك أنهم ما داموا لم يعينوا فمن المتوقع أن يصغوا إلى القرآن، فربما انصرفوا عن غيهم إذا استمعوا إلى تصوير حال ضلالهم، ولو أنه جبههم بكشف الستار عنهم لانصرفوا معرضين ....

وكلمة (يقول) توحي بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم.

وأجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضي زيادة في التمويه والخداع منهم

وخص الإيمان بالله واليوم الآخر لأن الإيمان بهما يجمع كل إيمان ....

واختار في الرد عليهم الجملة الإسمية المنفية ﴿ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ ليدل بها على استقرار هذا النفي وثباته .

ولابد للأسلوب أن يكون جامعاً لعديد من فنون التعبير لينتقل بالسامع من فن إلى فن طرداً للسأم، وتنشيطاً للذهن وما دامت سائر التعابير تدور حول المعنى الواحد فجميعها أسلوب جميل، ذلك أن الانتقال من الإنشاء إلى الخبر، ومن الاستفهام إلى النفي أو الإثبات مثلاً يثبت الأفكار، ويوقظ المشاعر، ويحمل النفس على الاطمئنان إلى المعاني .

ومن قديم وعلم البيان في البلاغة يعرف بـــ " **أنه العلم الذي يعرف طريقة إيراد المعني الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على ذلك المعني** " فهو علم يدور حول المعنى الواحد المؤدي بتعابير مختلفة غير مترادفة، ومن المعلوم أن البيان هو قمة البلاغة، وسيد الأسلوب وما أجمل الرسالة الدعوية التي تشتمل على التشبيه، أو المجاز أو الاستعارة لأن كل ذلك يقرب المعنى ويؤدي إلى تحقيق المطلوب .

ولابد للأسلوب أن يتنوع بتنوع المقامات، وأن يلاحظ أحوال السامعين لأن مقام التهديد غير مقام التحميس، وإظهار الألم غير إظهار الفرح، والحديث إلى العالم يغاير الحديث مع العامي، ودعوة الأمير تختلف اختلافاً كلياً عن دعوة الصغير .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨ .

ويضرب الغزالي مثالاً بالخليل ﷺ حينما حاج خصمه الذي قال له ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فلما رأى أن ذلك لا يناسبه، وليس حسناً عنده حينما رد عليه قائلاً ﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ عند ذلك عدل إبراهيم ﷺ إلى الأوفق لطبعه والأقرب إلى فهمه فقال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[١].

ولم يركب الخليل ظهر اللجاج في تحقيق عجزه عن إحياء الموتى إذ علم أن ذلك لا يلائم قريحة الخصم، ولا يناسب حده في البصيرة ودرجته في الفهم والحوار.

وهكذا نجد الإمام الغزالي يدعو إلى تنوع المقامات، وتعدد الأدلة ليصل إلى إقناع المستمع واستمالته، ومن المعروف البدهي أن الإمداد بالموافق منتج مفيد، والإمداد بغيره كلا إمداد في الحقيقة .

وقد احتوت كل أساليب الدعوة القرآنية على هذا الوضوح يقول الله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[٢] ويقول تعـالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٣] والتيسير هو تسهيل القراءة والفهم والإدراك .

وعلى الداعية أن يستمد تكوينه من هذا الوضوح لأنه بدوره عنوان الدعوة ورمز حركتها، فإذا لم يكن هكذا فقدت الدعوة هذه البصيرة التي هي أهم شروط إبلاغها .

ونلحظ وضوح الأساليب، ومنهجيتها في الخطاب، بتركيزها على إبراز القضايا التالية :

القضية الأولى : تخاطب الدعاة، وتبين أهم صفاتهم ، وترشدهم إلى طرق التأثير والإقناع .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(٢) سورة مريم الآية ٩٧ .

(٣) سورة القمر الآية ١٧ .

القضية الثانية: تعرف بموضوع الدعوة، وتدل على صدق الإسلام بكافة عناصره.

القضية الثالثة : توضح الخصائص النفسية والحركية للمدعوين مع بيان الأسلوب الأمثل لمخاطبتهم .

القضية الرابعة : تملك الأساليب الجوانب الفنية المؤثرة في الناس .

وبمجموع هذه القضايا يتكامل الوضوح ويتم في أساليب القرآن الكريم.

المبحث الثاني
ملازمة الحسن والدقة

هذه الأساليب المتنوعة الكثيرة لا تخرج في توضيحها وبيانها عن واحد من الحقائق الثلاثة التي لابد أن يتضمن الأسلوب واحداً منها أو أكثر، والتي يجب أن يتمكن الداعية منها لتبليغ دعوته والتى تعد ركائز الأساليب القرآنية وهي الحقائق البيانية التي أمر الله بها في قوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1] فالأساليب القرآنية كلها إما أن تكون تتضمن حكمه، أو موعظة حسنة، أو مجادلة بالتي هيَ أحسن، وقد تحتوي على أكثر من واحد منها لكنه لا يخلو أبداً عن واحد منها :

لكن ما معنى كل واحدة منها ؟

إن لكل واحد من هذه الثلاثة معنى خاصاً .

فالحكمة وصف للأسلوب تعني تضمن الأسلوب دقة وإيجازاً في الدلالة على المعاني التي يقصدها .

يذكر ابن كثير في تفسيره أقوالاً كثيرة في معنى الحكمة، ويسندها إلى أصحابها .

فهي تفسير القرآن عند أبي عباس .

وهي الإصابة في القول والعلم والفقه والقرآن عند مجاهد .

وهي الفهم عند النخعي .

وهي العقل عند زيد بن أسلم .

وقال مالك : أنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمر الله في القلوب من رحمته وفضله [2].

وجمله الآراء تدل على أن الحكمة هي الدقة في الفظ والمعني، والدقة على ما تدل عليه، والدقة في الفهم المستفاد منها .

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ١٦٧ .

يذكر الرازي أن الحكمة في القرآن تأتي على أربعة أوجه :

أحدها : مواعظ القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ ﴾(١).

وثانيها : الفهم والعلم ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾(٢).

وثالثها : النبوة يقول الله تعالى ﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾(٣) أي النبوة .

ورابعها : القرآن مما فيه من عجائب الأسرار يقول الله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾(٤) وكل هذه معان متقاربة لأن الحكمة مشتقة من الإحكام وهو الإتقان ومرجعها إلى العلم الدقيق يقول ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود " **لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلطته على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها** "(٥) فالحكمة هي العلم الدقيق .

يقول العيني : الحكمة تدل على علم دقيق محكم وتعليمها كمال علمي والقضاء بها كمال عملي(٦).

فإذا ما حدث بعد ذلك أن عرفت الحكمة بالإصابة، أو بالعقل، أو بالفهم، أو بالفقه، أو بالنبوة، أو بالقرآن فهي كلها أوصاف متقاربة تشتمل الحكمة عليها وتحتويها بكمالها العلمي والعملي، حيث دقة المعنى، ودقة الفهم المؤدى إلى العمل السديد .

ومن سائر الأقوال يمكننا أن نقول : **إن الحكمة كوصف لأساليب الدعوة هي اللفظ المتقن الدقيق الواضـــح الدلالة وان اختلفت صـــورها ودارت بين**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣١ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٤ .

(٤) مفاتيح الغيب جـــ٥ صـــ٥١٥ .

(٥) صحيح البخاري كتاب العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة جـــ١ صـــ٢٨ .

(٦) عمدة القارى جـــ٢ صـــ٥٨ بتصرف .

التفسير والفقه والفهم وغيرها، وهي تفيد اليقين ودلالتها على المعنى دلالة قطعية، حتى لو كان ثبوت اللفظ ظنياً .

وحينما يقول الله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ **فإن معناها إذا كما يقول أبو السعود : ادع إلى دين الله بالمقالة المتقنة الدقيقة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق، المزيل للشبهة المتجه إلى الفكر مباشرة من غير إثارة الوجدان وتهييج الانفعال**[1].

والموعظة الحسنة :

توجيهات لفظية تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو بما تشمله من إثارة الانفعال، وإيقاظ الشعور، مع وضوح أن الداعي يقصد النصح للمدعو ويخاف عليه .

جاء في مختار الصحاح أن الوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب، يقال السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره [2].

وفى المصباح المنير أن الوعظ هو الوصية، والأمر، والموعظة اسم منها[3].

وكل اشتقاق مادة الوعظ في القرآن تدور حول النصح، والأمر، والتذكير والزجر جاء في تفسير النسفي عند قول الله تعالى ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[4] أن المعنى فأعرض عن قبول الأعذار، وعظ بالزجر والإنكار، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار[5] وهذا يشير إلى أن الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة، والخطابات المقنعة، والإرشادات المخوفة، على وجه لا يخفى على المدعوين أن الداعي يناصحهم بها، ويقصد بتوجيهها إليهم ما ينفعهم، وهي في كل أشكالها أمارات ظنية، ودلائل إقناعية

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٢٠٠ .

(٢) مختار الصحاح مادة " وعظ "

(٣) المصباح المنير مادة " وعظ "

(٤) سورة النساء الآية ٦٣ .

(٥) تفسير النسفي جـ١ صـ ٢٣٣ .

بخلاف الحكمة فإنها محكمة قطعية في مقدماتها ونتائجها .

والمجادلة بالحسنى :

أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم، ويفحمه، ويجعله يؤمن بالمدعي، والجدل هو الحوار والمناقشة، ذلك أن الداعي قد يصادف معارضاً يجادله أو سائلاً يستفتيه ويحاوره.

وقد اتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية عند علماء البحث والمناظرة لأنهم يرون أن المجادلة الاصطلاحية تكون لإلزام الخصم، وليست لإظهار الصواب، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائماً، والوقوف على الحق باستمرار، وإقناع الخصم بالحسنى .

يقول صاحب مختار الصحاح " جادل مجادلة جدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصلة ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود حسن إن كان للوقوف عل الحق وإلا فمذموم [١].

ويقول الرازي : الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل، وطلب المال والجاه، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله والذب عن دين الله تعالى[٢].

وقد قيد الله الجدل والموعظة بالحسن لأن الغاية منها الوصول للحق، فلو بعد أحدهما عن هذه الغاية لا يكون حسناً إذاً .

والفرق بين المجادلة والموعظة المتصفين بالحسن أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين، والخصم فيها ليس صامتاً، وإنما يناقش، ويرد بما رسخ في نفسه من أوهام وشبه، بخلاف الموعظة فإن المدعو بها يستمع إليها، ويستثار بها، وينفعل معها، بلا منازعة الكلامية ...

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى

---

(١) مختار الصحاح مادة " جادل " .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٢٥٢ .

لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين ، مكاناً، وزمانا، وفكراً، وطبيعة ذلك أنهم مع اختلافهم يمكن حصرهم في طوائف ثلاثة متباينة .

فطائفة منهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني قوية الانجذاب نحو المبادئ العالية، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه وهؤلاء يدعون بالحكمة .

والطائفة الثانية عوام نفوسهم كدرة ضعيفة الاستعداد، شديدة الإلف بالمحسوسات قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لا عناد عندهم وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

والطائفة الثالثة معاندة مجادلة بالباطل تقصد دحض الحق لما غلب عليها من تقليد الأسلاف، ورسخ فيها من العقائد الباطلة وهؤلاء يدعون بالمجادلة الحسنى [١].

وتقسيم الناس إلى طوائف ثلاثة بحسب طبائعهم على النحو السابق تقسيم لطيف بين، لأن من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقي، القائم على الفكر والتدبير ... ومنهم من يستهويه موضوع مثير، وفطرة طيبة فيقف أمام اللفظة الجميلة، والمثل النادر، والقصة الشيقة، والتكرار المؤكد، ويتألم لمنظر بائس ورؤية مسكين .... ومنهم من يهوي الحوار ويعشقه وينازع ويجادل .

لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماماً إذ من الناس من يجمع في طبعه أكثر هذه الصفات .

يقول ابن رشد : والناس على ثلاثة **أصناف صنف ليس** هو من أهل التأويل وهو الخطابيون الذي هم الجمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق، **وصنف هو من أهل** التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة[٢] ومراد ابن رشد بالخطابيين

---

(١) تفسير الألوسي جـ١٤ صـ٢٥٤ .

(٢) فصل المقال صـ٣٠

الذين يتأثرون بالموعظة والخطابة، ومراده بالبرهانيين الحكماء الذين يفهمون بالإشارة ويرضون، بالدليل والبرهان .

هذا وقد ارتضى الرازي في تفسيره هذا التقسيم وذكر آن البشر بالنسبة لكمال الطبع طرفان وواسطة .

فالطائفة الأولى التي تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال.

والطائفة الثالثة المجادلة هي طرف النقصان وتتجه إليها المجادلة .

والطائفة الثانية، صاحبه الموعظة هي الواسطة وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، كما لم يبلغوا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصيلة، والسلامة الخلقية وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

يقول الرازي : إن معنى قوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي أدع الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة وهي البراهين القطعية اليقينية، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهي الدلائل اليقينية الإقناعية، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل[١] محافظة على روح الإسلام وسماحته .

وينبغي أن يكون معلوماً أن الأساليب سواء كانت من الحكمة، أو من الموعظة، أو من المجادلة، فهي معصومة من الهوى، وقطعية الدلالة لورودها في القرآن المتواتر المحكم المحفوظ في الصدور والصحف، حيث لا يشتمل القرآن إلا على الحق والصواب، وجميع قضاياه ومسائله صادقة، ومقطوع، بصحتها، يقول الله تعالى مبيناً هذه الخصائص عن كتابه الكريم ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٢].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٣] فترى هذه

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ٥٣٦، ٥٣٧ .

(٢) سورة هود الآية ١ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩ .

الآيات تخبر عن بعض خصائص القرآن جملة وهي في الوقت نفسه أساليبه، فتذكر أن القرآن أحكم لفظه حتى لا يختلط بغيره ثم فصل ليستمر واضحاً بيناً، ثم هو كذلك مصان لا يعتريه تغيير وتبديل، ومن دلائل حفظه تواتره الثابت ومنع الشياطين من استراق السمع بعد نزوله لأنهم كانوا يزيدون على الكلمة التي يسترقونها مائة كذبه أو أكثر [1].

وقد ثبت أن الدليل المنقول المتواتر الذي لا يحتمل التأويل قطعي الدلالة في موضعه، والوسائل القرآنية متعاونة جميعاً في إثبات هدف واحد، ودعوة واحدة وكلها ثابتة في القرآن منقولة إلينا بالتواتر، وبعضها قطعي الدلالة عقلاً مما يؤكد أن جميع الوسائل معصومة وقطعية بتعاضدها .

---

(١) انظر صحيح البخاري جـ٩ صـ١٩٨ كتاب التوحيد باب قراءة الفاجر .

المبحث الثالث
التوجه لجميع المكلفين

تدور جميع الأساليب مع الطاقة البشرية ولا تتخطاها، فرغم أنها منزلة بالوحي إلا أنها تعايش النفس الإنسانية، وتلمس الفكر البشري وكأنها خرجت من الناس، وهذا أمر يتفق مع طبيعة الدعوة لأن الذي أوجدها للناس هو الله سبحانه وتعالى العليم بكل جزئيات من خلقه سواء كانت واضحة أو خفية، يقول الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] فكل مخلوق معلوم لخالقه وموحده .

يقول سبحانه وتعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2].

فكان من قدرته سبحانه وتعالى أن بلغ الناس على قدر طاقتهم، وناقشهم بمستوى فكرهم، ولمس بأساليب قرآنه معاشهم، وغرائزهم، وعواطفهم، ولذلك ملكت الأساليب تأثيرها في المدعوين فحققت الغرض، وبلغت دعوة الله للناس.

كما تضع الأساليب لنفسها أوليات من حيث الأهمية والقيمة، فتقدم الأهم على المهم، والأصل على الفرع، ولا تنتقل إلى فرع إلا بعد إثبات أصله، ولذلك نراها تنادي بادئ ذي بدء بالدعوة إلى الإيمان بالله والتصديق بالرسول ﷺ وتؤكد ذلك بأدلة مباشرة سهلة في ثنايا الحكمة، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتأتي سهولتها من دورانها حول الإنسان حيث تبين العناية به والاختراع الحسن من حوله .

يقول ابن رشد : إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت أدلته تنحصر في جانبين.

أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله وهو دليل العناية والغاية.

والثاني ما يظهر من اختراع جواهر الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل في الإنسان وهو دليل الاختراع والدقة [3].

---

(١) سورة طه الآية ٧ .

(٢) سورة الملك الآية ١٤ .

(٣) مناهج الأدلة صـ ١٥٠

وأساليب الدعوة تدور حول قضايا الدعوة كلها مع التركيز على ما له أهمية وضرورة ولذلك تركز الأساليب على الإيمان بالله والتصديق بالرسول ﷺ لأنهما أساس العقيدة كلها، وكل ما بعدهما تبع لهما، فهما كالأصل والباقي كالفرع لأن الإيمان بالله يقتضي التصديق بكل تعاليمه، والتصديق بالرسول يستلزم الإيمان بحامل الوحي، الواسطة بين الله والرسول وهو جبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي كله لإيصال الإسلام، وتعاليمه للناس، والإيمان بوجود جبريل عليه السلام ووظيفته، يستتبع الإيمان بسائر الملائكة وبنزول الكتب الإلهية .

على أنه يجب أن يلاحظ أن الأساليب وهي تراعي نوعية المخاطبين قد تطنب في جزئية ما دون أخرى وتقدم أسلوبا على أسلوب آخر، وهكذا، إلا أنها لا تغفل أبداً عن ما اشتركت فيه .

وتراعي الأساليب خاصية هامة وهي أنها تجزئ أهدافها حتى يسهل على المدعو قبولها، وتكرر الموضوع الواحد حتى تصنع التأثير المطلوب .

وتتميز الأساليب القرآنية بالإعجاز ميزة القرآن كله، ويظهر إعجازها في ألفاظها ومعانيها ومدى تفهمها لأعماق النفس الإنسانية .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الأساليب لإبلاغ الدعوة، ولتحقيق هدفها إذ لا فرق بين الدعوة ومقاصدها، فهما معاً دعوة تظهر بحقيقتها، وتنتشر بفوائدها، وما جاءت الدعوة إلا مقرونة بهذه المقاصد .

وأيضاً يجب أن يلاحظ أن الله سجل هذه الأساليب في القرآن الكريم لتبقى بفاعليتها إلى الأبد .

ويلاحظ كذلك أن هذه الأساليب مع تسجيلها بلغة العرب إلا أن معناها ومدلولاتها عامة لغير العرب، والدعاة القادرون في مكنتهم أن يصنعوا من غير اللغة العربية مثل هذه الأساليب تحمل المعاني الإسلامية وما نزلت الدعوة بلغة العرب وفيهم، إلا لكي تصل إلى كل الناس، وقد سبق أن بينا السر في اختيار الأمة العربية للدعوة .

ومن مزايا الأساليب القرآنية ملاحظة المناسبات الاجتماعية التي يعيشها الناس لتأتلف معهم، ويقبلوا عليها فهي في آيات القتال تتحدث عن الأنفال والغنائم والأسرى ... وفى آيات الزواج تتحدث عن المودة، والألفة وضرورة المعروف وعن الحديث عن أهل الكتاب تتحدث عن الإنجيل والتوراة، والمسيح، ومريم عليهم السلام .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن الكريم متناسباً في آيه وسوره ومناسباً لواقع الناس ومصالحهم، فخلد بذلك مع الزمان واستقر فى النفوس والعقول.

ولقد كان الإنسان العربي يستمع إليه فيأخذه بيانه الساحر، وتناسبه العجيب، ويناديه آمراً أو ناهياً فلا يسعه بسبب ما فيه من دقة إلا أن يستجيب، ولقد وصفه الوليد بن المغيرة فقال : إن **له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق** [1] والوليد هذا من العرب الخلص الذين تميزوا بالحكمة، وبرعوا في الفهم فكان قوله هذا دليلا على ما في القرآن من مزايا ومنها التناسب .

لذا نطابق الصواب ونستفيد من حكمة الأساليب القرآنية حين نلزم الداعية بأن يتناسب أسلوبه مع الناس، ولعل أوضح التناسب أن يعيش مناسباتهم على اختلافها .

والمناسبات كثيرة منها الوطنية، والقومية، والشخصية، والدينية ولكل مناسبة وقتها، وصورة الاهتمام بها، والداعية الموفق يختار لكل مناسبة ما يوافقها .

إن خطبة العيد تغاير خطة الجمعة شكلاً وموضوعاً، وخطبة التهنئة تختلف عن خطبة العزاء صياغة وتأثيراً، وواجب على الداعية، أن يحيط بسائر المناسبات حتى يعيش في واقع الناس وفكرهم بهذه الإحاطة ولو بصورة عامة.

يقول ابن رشد : من الضرورة أن يقف الداعية على ما يحتاج أن يشير به في واحد من هذه الأشياء، وليس يحتاج عند الإشارة بالزيادة في النبات أن

---

(١) سيرة النبي جـ١ صـ٢٧٠

يكون فلاحاً، ولا في الحيوان أن يكون راعياً، لكن يكفيه في ذلك معرفته بمقدار الحاجة إليها ولكنه يحتاج مع هذا أن يكون عالماً بالسير المتقدمة في هذه الأشياء وما عند الناس فيها[١].

إن الجمهور حينما يجد قولاً يتصل بيومه، ويرتبط حياته ينتبه إليه وإن فاته منه شيء سأل عنه إشباعاً لنفسه التي أثارها هذا المقال .

وليس معنى مراعاة الداعية لمناسبات الجمهور ألا يوجه لهم أمراً جديداً، ولا يأمرهم ولا ينهاهم أبداً، وإنما الذي نقصده أن يعيش الداعية مع الناس في مناسباتهم، ويحول الأمر ببراعته إلى ما يريد، ولا يكون بعيداً عن الناس فيتنافر وينعزل ولقد كانت خطابة النبي ﷺ مثالاً لهذا التناسب الذي نتمناه، يصفها الرافعى فيقول " إن خرجت قلت : أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت: صورة بشرية من الروح، في منزع يلين فينفر بالدموع، ويشتد فينزو بالدماء[٢] ولا غرابة في هذا لأن النبي ﷺ صناعة إلهية من أجل الناس وقد أدبه الله تعالى فأحسن التأديب .

ونحن لا نطالب الداعية أن يكون على هذا المستوى المعجز، ولكن نطالبه أن يسير على الدرب المرسوم، خاصة بعد أن علم الطريق، وفهم عوامل الجذب والتأثير، ولذا نطالبه بضرورة مراعاة المناسبة والتوافق بين المقال والناس .

إن القرآن الكريم كله أسلوب للدعوة، أحصى كل شيء، ونوع خطابه وصيغه ليناسب كل أمر .... تحدث عن الأديان والمذاهب، وعن العرب والعجم، وعن الرجل والمرأة، والصغير والكبير، وعن الإنسان والحيوان، والزرع والحجر، وعن البحر والنهر، والسماء والأرض ... تحدث عن كل شيء بأسلوبه الميسر وتراكيبه المعجزة .

وإذا أتقن الدعاة حفظ القرآن الكريم وفهم معانية، وتعودوا الاستفادة بأساليبه يهمكنون من خدمة الإسلام، وتبليغه إلى الناس أجمعين .

---

(١) تلخيص الخطابة صـــ٣١ .

(٢) الإعجاز النبوي صـــ

الفصل الثاني

القصة القرآنية
أسلوب للدعوة

تمهيد :

لازمت القصة الإنسان منذ وجوده، وارتبطت بحياته، يصنعها ويتحدث عنها ثم يستمع لها، استثارة بوقائعها، وتجديداً لأحداثها .

وقد عاشت البيئة العربية شدة قاسية من أجل لقمة العيش فعملت ورحلت وشاهدت طغياناً واستغلالاً فجاهدت وكافحت، وسجلت حياتها قصصاً باقياً للرواة، يحفظونه ويتناقلونه على الزمن، وفي سائر البقاع، يذكر ابن إسحاق أنه لما وقعت حادثة الفيل وكانت القصة العجيبة من إهلاك أبرهة وجيشه بالأبابيل، ونجاة الكعبة والعرب، لما حدث ذلك سجله العرب في أشعارهم .

يقول أبو قيس بن الأصلت :

فقوموا فصلوا ربكـــم وتمـــسحوا	بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعنـــدكم منـــه بـــلاء مـــصدق	غداة أبى يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالـــسهل تمـــشي ورجلـــه	على القاذفات في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم	جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولـــم يـــؤب	إلى أهله مجليش غير صائب

وعلى هذا النمط اهتم العرب بقصصهم فذكروها كواقعها، ولم يرتضوا لأنفسهم حشو أخبارهم بالوهم والخيال والتزيد .

وكانت القصة تثير العربي : وتؤثر فيه، وتجذب انتباهه ليعيش مع أحداثها وعناصرها، وإن قريشاً كانت تستملحها ... كما حدث من النضر ابن الحارث الذي كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة.

ونظراً لهذا الدور الخطير للقصة جعلها القرآن الكريم أحد أساليبه في نشر الدعوة الإسلامية، يبين بها الدعوة، ويشرح أسسها وأهدافها، ويضع في ثنايا عناصرها ما يجعلها هادفة ومؤثرة، ومن هنا وجدنا القصة تظهر مبكرة وتبدأ في الظهور مع بداية الدعوة في مكة لتقوم بدورها في نشر الدين وإبلاغه، وذلك في المباحث التالية :

المبحث الأول
مفهوم القصة القرآنية

قدم القرآن الكريم كثيراً من أخبار وأحوال الأمم السابقة، فذكر معاشهم، ووصف حياتهم ونشاطهم وبين عقائدهم ومذاهبهم، ووضح مواقفهم من رسل الله إليهم، وبذلك حفظ لنا مادة طيبة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث، والأشخاص، والزمان، والمكان .

ووضحت كلمات القرآن الكريم الحكمة من إيراد القصص القرآني، وبينت أنه للإعتبار والعظة يقول الله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] ويقوله سبحانه وتعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ ﴾[٢] كما بينت أنها قصص واقعية حقيقية لا خيال فيــها أبداً يقول الله تعالى ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾[٣].

وقد تكلم العلماء المسلمون في مفهوم لفظة القصص وأحاطوا بمعناها فذكر صاحب المختار، أن أصل المادة " قصص " مشتق من قص أثره أي تتبعه والقصة واحدة القصص، هي الأمر، والحديث، يقال اقتص الحديث أي رواه على وجهه، وقص عليه الخبر، والاسم القصص بالفتح وضع موضع المصدر والقصة هي التي تكتب أو تروى[٤].

وجاء في المصباح قصصت الخبر حدثت به على وجهه، والاسم القصص بفتحتين وقصصت الأثر تتبعته[٥].

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٣ .

(٤) مختار الصحاح مادة " قص "

(٥) المصباح مادة " قص " .

من هنا ندرك أن مفهوم القصة اللغوي يدور حول المتابعة لأمر، والحديث عنه بروايته على وجه وروده، وكتابته على هذا النمط .

وهذا المفهوم اللغوي موجود في القصة القرآنية لأن الذي يقرأ القرآن يلحظ أن قصصه يتتبع أحداثاً وقعت، ويسجلها مكتوبة على وجه ورودها، بصورة حسنة .

يقول الرازي عند قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾(١) والقصص يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص، ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر، فإن أريد الأول كان الحسن راجعاً إلى الاقتصاص من كون ألفاظها فصيحة، بالغة في الفصاحة حد الإعجاز، وإن أريد الثاني كان الحسن في القصص لما فيها من العبر، والنكت، والحكم، والعجائب التي ليست في غيرها، فترى الرازي يدور بالحسن في قصص القرآن بين ألفاظه ومعانيه لأن من الممكن إرادة المصدر واسم المفعول من اللفظ، وفي موضوع آخر يعرف الرازي القصة، فيقول " ٱلْقَصَص" هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة، فيزيد على الحسن الذي تضمنه القصص شيئاً آخر، إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء مع حسن اللفظ ودقة المعنى.

وعلى ضوء ما ذكر العلماء يمكننا أن نفهم القصة القرآنية على أساس **أنها كلام حسن في لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة ومتضمن على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الخير .**

ولا يصح أن نطلق اسم الحكاية على القصة القرآنية، لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة، والوقوف على ما جرى، بغض النظر عن العبر التي فيها أو الاستفادة منها، كما أن الحاكي لا يهدف التأثير والتوجيه من حكايته .

أما القصة فهي تكشف عن آثار الماضي، وتنقب عن حوادثه، وتعرضهـــا

---

(١) سورة القصص الآية ٣ .

في أسلوب معجز مشتمل على العبرة والعظة، أخذا بالعقل والوجدان إلى زمن القصة وأدوارها وأشخاصها مهما كانت كثيرة وبعيدة لإحداث تأثير معرفي وعملي في المستمع والقارئ للقصة .

وقد تحدث العلماء عن القصة الحديثة ورأوا قيامها على عدد من العناصر كالحوادث التي يدور حولها العمل والحوار، والأشخاص الذين يقومون بالحركة والنقاش، والمكان الذي تدور فيه الأحداث، والزمان الذي تقع فيه الأمور، ويرى العلماء وهم يؤلفون قصصهم ضرورة وجود عقدة في القصة تمثل مركز الحوار، وأساس النقاش من أجل حلها في نهاية القصة .

والقصة القرآنية تملك العناصر الفنية، فالمكان، والزمان، والأشخاص والحوادث والحوار كل ذلك واضح فيها، إلا أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر، ومرة أخرى على غيره لأنها تراعي الهدف الذي تدعو إليه.

فمثلاً يبرز المكان في بعض القصص بالذات توضيحاً لغرض مقصود من القصة ففي قصة يوسف ﷺ نعلم أن الأحداث تدور في مصر إذ ينتقل يوسف من الجب إلى بيت العزيز الملك، ويخرج من البيت ليدخل السجن، وبعد مدة يترك السجن ليستقر أخيراً في حظيرة الملك، **وقد أفاد إبراز المكان في** هذه القصة مدى عفة يوسف ﷺ وعصمته فرغم أنه نشأ وتربى في بيت الملك والجاه إلا أن ذلك لم يغير من طهارته، وهذا يجعله يستحق في النهاية أن يكون على خزائن ملك مصر بغناها وشهرتها، وأن يكون رسولاً مطاعاً من الناس .

وأيضاً فإن الهدهد ساعة أن غاب عن سليمان بين له أنه ذهب إلى مكان بعيد ورأى ملكاً وعرشاً لامرأة كافرة فقال له ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

فذكر المكان توضيحاً لبعده، وتهدئة لثائرة سليمان عليه وتوعده له، وفي قصة الإسراء يبرز المكان إظهاراً لشرف الحدث وسموه يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا

(١) سورة النمل الأيتان ٢٢ ، ٢٣ .

حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(١).

وعن الزمان كعنصر من عناصر القصة، نرى القرآن الكريم يركز عليه في مواضع تفيد العبرة منه، ففى قصة سيدنا نوح عليه السلام يبين ذكر الزمن إخلاص الرسول في الدعوة ومدى تحمله وصبره، يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾(٢) ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(٣).

فتراه عليه السلام بهذه الإشارة إلى الزمن يوضح أنه دعا قومه طوال الوقت في الليل وفي النهار، وأنه مكث فيهم زمناً طويلاً بلا توان أو كسل .

وفى قصة أصحاب الكهف أيد الله الفتية بقوته ورحمته وأحاطهم بالعناية وهم في الكهف الذين آووا إليه، وحتى يتضح هذا التأييد وتلك الإحاطة جاء ذكر الزمن الطويل الذي مكثوه فيه، يقول الله تعالى ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾(٤).

وعن الأشخاص كعنصر في القصة فهو موجود في جميعها سواء كان الشخص من الأنبياء أو من غيرهم، بل إن شخصيات القصة أحياناً تكون هدهداً أو نملة، كما أن شخصية المرأة ظهرت في القصص القرآني، كامرأة عمران، ومريم، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون، إلا أن الاهتمام حول المرأة ليس هو لبيان الجمال، أو إثارة الجنس، إنما هو لتقرير مبدأ أو لتحقيق عظة وعبرة وحينما تتحدث القصة القرآنية عن الجنس تعرضها في صورة طاهرة عفيفة، تنشر الإيمان وتحارب الفجور، انظر قوله تعالى ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ

---

(١) سورة الإسراء الآية ١ .

(٢) سورة نوح الآية ٥ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ١٤ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٥ .

أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] تجد المرأة قد تهيأت وراودت إلا أن ذلك يحاط بالاستعاذة بالله، وتذكر حقه في الطاعة، وعدم فلاح المعتدين .

ويلاحظ أن الحوار الدائر بين الأشخاص في القصة القرآنية لا يقف عند الظاهر بل يتعداه إلى حركات الذهن، وفكر النفس، وما يجول في الخاطر، فمثلاً قصة ولدي آدم ﷺ وكان الغرض منها الدعوة إلى الإيمان بالله والتسليم له والخوف منه، ومحاربة الأنانية البشرية، نجدها تركز في حوارها على ما يؤدي إلى هذه الأغراض، وتصور خواطر الآخرين وأحاسيسهم الباطنة .

والقصة تبدأ بأن قدم كل واحد من الآخرين قرباناً لله فتقبل الله من أحدهما قربانه ولم يتقبل من الآخر، وهنا يبدأ الحوار .

يقول الذي لم يتقبل منه لأخيه " لَأَقْتُلَنَّكَ " فيرد عليه أخوه الصــالح بقوله ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

إلا أن الذي لم يتقبل منه تصر نفسه على أحقادها ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3].

وهكذا نرى الحوار يظهر النفس الحاقدة الكافرة للذي لم يتقبل منه، ومدى استعدادها للجريمة وسهولة القيام بها، فبرغم أن هذا الذي لم يتقبل منه سمع من أخيه تسامحه، وتسليم الأمر لله، وخوفه من مغبة الإثم في الآخرة، رغم ذلك سولت له نفسه الطاغية قتل أخيه فقتله، وبعدها عاش نادماً، وهذه النفسية تخالف نفسية من تقبل منه، حيث يشير الله إلى حقيقتها فيقول صاحبها الذي قال ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٣ .

(٢) سورة المائدة الآيات من ٢٧ إلى ٢٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٣٠ .

بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وهكذا تبين القصة القرآنية حقيقة النفس وحركات الخاطر ولا تقف عند الظاهر فقط وآثار الاعتقاد في الفكر والسلوك .

وكما وجد الأشخاص في جميع القصص القرآني وجد الحدث باعتباره عنصراً ضرورياً للقصة لا تقوم إلا به، ولا تتكون إلا على وجوده، إلا أن القرآن يتخير من الحوادث الماضية ويقص منها قصة هادفة فمثلاً حينما يكون الهدف هو فضح الكافرين، في تكذيبهم للنبي ﷺ وإنذارهم وتخويفهم من مواقفهم المعاندة، نرى القصة تركز على التكذيب كحدث، وما ترتب عليه من أحداث مخوفة يقول تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[١].

فنلحظ في هذه الآيات أن الهدف هو التأثير في أهل مكة، وتخويفهم من تكذيبهم للدعوة وإنذارهم بمثل العذاب الذي وقع على قوم نوح حيث أن المكيين يكذبون كقوم نوح، ولبيان هذا الهدف قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ .

ونلحظ كذلك أن الآيات لم تذكر شيئاً عن معيشة قوم نوح، ولا عن مكانهم ولا عن دعوة نوح لهم، وطول مدة بعثته فيم لكنها اهتمت بتكذيب القوم لرسول الله نوح حيث قالوا له ﴿ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أي هو مجنون قد ازدجرته الجن وتخبطته [٢].

ونلحظ أيضاً أن الآيات وضحت أنواع العذاب الذي لحق قوم نوح بسبب تكذيبهم حيث انهمر الماء من السماء، وتفجرت العيون في الأرض .

---

(١) سورة القمر الآيات من ٩ إلى ١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١١٨ .

ولم يعد ممكناً بعد ثورة الماء أن يعيش على الأرض إلا من يؤمن مع نوح ويركب سفينته .

ونلحظ أخيراً أن الآيات تبين أن المكذبين أينما كانوا سينالون جزاءهم يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[١].

وعلى الناس أن يتأملوا ويتذكروا أحداثها يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٢] وهكذا تأتي النهاية على وجه الاستفهام لتوقظ أسماع المخاطبين لأحداث هذه القصة وما فيها من عذاب ونذير .

وعلى نمط التركيز على الأحداث المعينة في هذه القصة صورت سورة القمر بقية قصصها، فقصة عاد وهود وقوم لوط ذكرت مختصرة وجاءت مبتدئة بالإنذار والعذاب، ومختتمة بقوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ لتضع المستمع أمام مقتله إن هو لم يؤمن ويصدق بالدعوة الإلهية .

إلا أننا نشير هنا إلى أن الحدث والأشخاص عنصران لازمان لتركيب القصة، أما المكان والزمان فإيرادها يأتي ثانوياً تبعاً للمقصد والهدف .

وعلى ضوء ما تقدم نقول أنه ليس بلازم أن تأتي عناصر القصة جميعاً، ولا أن تروى في القرآن على ترتيبها التاريخي، وإنما تأتي عناصرها وترتب أحداثها تبعاً للغرض المقصود من إيراد القصة .

يقول الشيخ محمد عبده : إن قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن الكريم لم يقصد بها سرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنتها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النعم بعللها لتتقى من وجهتها، وما دام هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وادعى إلى التأثير.

وهكذا فالقصة بعناصرها وحقيقتها موجودة في القرآن الكريم لتكون وسيلة هادفة وطريقاً للتأثير والإرشاد .

---

(١) سورة القمر الآية ١٥ .

(٢) سورة القمر الآية ١٧ .

المبحث الثاني
القصة أسلوب للدعوة

اشتملت القصة القرآنية على الخصائص التي تجعلها أسلوباً حسناً للدعوة لأنها تملأ الداعية بالثقة، وتقويه بالأمل، وتحتوي على كل جوانب الإسلام، وتتحرك بإيجابية، وتأثير في المدعوين بعدما تحيط بهم، وتكشف حقيقتهم الظاهرة والباطنة.

إن القصة القرآنية تقوم بوظيفتها أسلوباً للدعوة على وجه متقن دقيق فهي:

أولا :

تلازم الداعية وتملأه انفعالاً بدعوته، وتصيره متحمساً لها، وتجعله مجاهداً ضد أعدائها، واثقاً من النصر والنجاح للدعوة في نهاية الأمر .

وذلك كله يتضح بما أفاضه القصص القرآني من طمأنينة على نفسه ﷺ مكنته من مواصلة دعوته بعد أن كاد اليأس أن يجد سبيله إلى نفسه، وعلى نمطه يكون الدعاة بعده، وقد دارت القصة بأحداثها موضحة أخبار السابقين، مبينة ما كان من الأمم، حيث كذبوا الرسل واتهموهم في عقولهم، وألحقوا الأذى بهم، لكن الرسل عليهم السلام صبروا وثبتوا حتى انتصروا، وبذلك يطمئن قصصهم نفس الـــداعية، ويثبت فـــؤاده يقـــول الله تعالى ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

يقول الرازي عند تفسيره لقصة سيدنا نوح عليه السلام في سورة يونس : إنما قص الله تعالى قصص الأنبياء لأسباب منها أن يكون للرسول ﷺ ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت .

وقد استفاد النبي ﷺ والدعاة معه من القصص، وعلموا أن عليهم أن يتحملوا الأذى وإن كان من أقرب الناس إليهم ولا يتأثروا به كما حدث مع السابقين فإن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام تفيد أنه حين دعا أباه إلى الإيمان رد عليه

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .

بقسوة وشدة كما يقول الله تعالى ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[١].

فما تأثر من موقف أبيه بل رد عليه ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾[٢].

وعلى الدعاة أن ينتظروا النصر بعد الصبر، ويستمروا على تفاؤلهم لأن سائر القصص تشير إلى انتصـــار الدعاة بمبادئهم كما وعد الله في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٣].

إن القصة القرآنية عموماً تمد الداعية بمجموعة من المعاني والقيم، فهو من قصة آدم يحب التزام طريق الله وطاعته، ويكره إبليس ويحذر من غوايته، ومن قصة نوح يجب الهدى والنفع والطاعة، ويكره الجدل والمراء والغرور، ومن قصة مدين يتمنى العدل، ولا يريد التطفيف، ومن قصة لوط ويوسف يتمسك بالطهر والعفة، ويبتعد عن غيرها، ومن قصة إبراهيم يطلع على أدلة التوحيد وبطلان الشرك والشركاء، ومن قصة فرعون يكره الظلم والجبروت، ويتمنى الاستقامة والأمان.

وإنما يستفيد الداعية من القصة القرآنية كل هذا لأنها دائماً تظهر هذه المعاني وتصورها داعية إليها ومرغبة فيها .

وتبين القصة القرآنية علاقة الداعية بمن يدعوهم فتذكر أنها لابد أن تكون علاقة مودة وإخاء، فالداعية حريص على الناس يتمنى لو أنهم اتبعوه ليسعدوا في الدنيا والآخرة .

والداعية المخلص لدعوته يرى سعادته في التوافق مع مدعوية لأن ذلك

---

(١) سورة مريم الآية ٤٦ .

(٢) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٣) سورة الصافات الآيات من ١٧١ إلى ١٧٣ .

أساس نجاحه .

ومن أجل هذا التوافق اختار الله الرسل من أقوامهم فعاد أخوهم هود، وثمود أخوهم صالح، ومدين أخوهم شعيب.

وعمل جميع الرسل على تحقيق الخير للناس، وإيجاد مودة معهم يقول شعيب ﵇ لقومه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾[١] وصالح ﵇ يقول لقومه ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾[٢] وموسى وهارون عليهما السلام يقولان لفرعون ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾[٣] ومحمد ﷺ شبيه بالرسل تماماً حريص على أمته ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤] .

والدعاة هم ورثة الأنبياء وعليهم أمانة التبليغ من بعدهم، فهم يوحدون الأمة على كلمة الله ومبادئ الحق، ويجددون فيها الأمل والنصر، وهم في ذلك يستفيدون من القصة القرآنية ضرورة الصبر حتى النصر، ومودة الناس وحبهم.

والقصة – ثانيا :

تعرف بمبادئ الدعوة، وتوضح دعائمها الأساسية مع ذكر أدلة الصدق لهذه المبادئ، وهذه المعرفة ضرورية لكي يعمل الداعية على أسس محددة، ويشعر المدعوون أنهم أمام وضع بين معروف .

والناظر في القصة القرآنية يرى هذه المبادئ واضحة والتدليل عليها أوضح، ذلك أن العقيدة الإسلامية مكونة من الإيمان بالله والرسل والملائكة والكتب المنزلة واليوم الآخر.

وأهم هذه الأركان شيئان هما الإيمان بالله والتصديق بالرسول ﷺ لأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان الضمني بالملائكة الذين ينزلون بالوحي من الله

---

(١) سورة هود الآية ٨٨ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٩ .

(٣) سورة طه الآية ٤٧ .

(٤) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

لتوصيله إلى الرسول، وبالكتاب الذي ينزل إلى الرسول من الله وباليوم الآخر الذي عرف به الرسول .

يقول الشيخ محمد عبده : للإسلام في الحقيقة دعوتان، دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ على أن الاعتقاد بالله يتقدم على الاعتقاد بالنبوات لأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله تعالى وأول واجب يلزم المكلف أن يأتي به النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله وتحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

والقصص القرآني يوضح كل ذلك .

فعن الإيمان بالله أول الأسس نلمح اهتمام القصص به، ففي قصة نوح عليه السلام نقرأ قوله تعالى قاصاً قول نوح عليه السلام لقومه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[1].

وإنما أمر قومه بالعبادة لأن العبادة أقوى مظاهر التوحيد، وكانوا يفهمون أن الاتجاه بالعبادة إلى غير الله لا ينافي التوحيد فعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله الخالق الأكبر، وكانوا يتصورون أن عبادة الأصنام تقربهم إلى الله الواحد، ومن هنا طلب نوح من قومه أن يعبدوا الله وحده، ويهجروا عبادة غيره لأنها تضييع للتوحيد، ولا فائدة فيها، فإن أطاعوه فهم موحدون بحق، ومقدرون لله قدره، وقد أشار قول نوح إلى ملمح لطيف، حيث طالب بتخصيص العبادة والتقوى لله، أما عن الطاعة فطالبهم بطاعته فيما يدعوهم إليه، وكل ما يطلبه منهم في الواقع هو التوحيد والتقوى .

ولا يقف القصص عند حد طلب توحيد الله وعبادته، بل نراه يذكر الأسباب التي من أجلها يجب أن يوحد الإنسان ربه ويعبده، فالله هو صاحب النعم، وهو المالك للدنيا والآخرة .

ففي مقطع من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام نقرأ هذه الأسباب وفيها يقول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضۡتُ

(١) سورة نوح الآية ٣ .

فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[1]وهكذا فالله هو الخالق ، الهادي، الرازق، صاحب المغفرة والرحمة، وهي كلها نعم أعطاها الله للإنسان .

إن الله صاحب النعم، وهو الخالق للأرض وللسماء، ويجب أن يعبد وحده يقول الشيخ محمد أبو زهرة : والألوهية هي استحقاقه العبادة وحده، ولكن العبودية لا تكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعم وحده، فهو الذي أنعم بالوجود، وشكر المنعم واجب بحكم العقل والمنطق، وبحكم كل نظام يستمد من الحق قوته ولا ينفرد بالعبادة إلا إذا كان منفرداً بذات وصفات لا يشاركه فيها أحد .

هذا عن الله أما عن التصديق بالرسول ﷺ فإن القصة تناقشه على أساس أنها انتهت من مسألة الألوهية، وعرفت الناس بضرورة تخصيص العبادة لله وحده، وهي في موقفها مع المكذبين للرسول تناقشهم في سبب تكذيبهم، فلئن كان السبب بشرية الرسول كقول قوم نوح ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[2] وكقول قوم صالح له ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾[3] وكقول كفار مكة حيث تعجبوا وقالوا ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[4] إن كان السبب هو ذاك فإن الرد سهل وموجز حيث أتى الله بالمعجزة على يد الرسول البشر، ليظهر صدقه عملياً أمام المكذبين نظرياً بدعواه، ولقد كانت المعجزة تأتي من جنس ما تفوق الناس فيه حتى يتمكنوا من إدراك صدقها، وكونها خارقة للعادة، وليست من فعل بشر، ولسان حالها ينطق بصدق الرسول فيما يبلغ الناس به عن الله .

هذا هو سيدنا موسى ﷺ يبعث إلى قوم اشتهروا بالسحر فيأتيهم بمعجزة من نوع تفوقهم إذ يأمره الله بإظهارها ويقول له ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ٧٨ إلى ٨٢ .

(٢) سورة هود الآية ٢٧ .

(٣) سورة القمر آية ٢٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٩٤ .

﴿ صَنَعُوٓاْ ﴾[١] وسيدنا عيسى يقول لقومه الذين اشتهروا بالطب ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

إن دور المعجزة أن تثبت الرسالة أمام من ينكرها .

يقول العقاد : لا يمتنع عقلاً أن تقع المعجزة وإنما الذي يمتنع عقلاً أن تقع عبثاً لغير ضرورة مع إمكان الاستغناء عنها، إذا تبين أن إقناع المكابرين كان ممكنا بغيرها [٣].

وإن كان المكذبون بالرسول البشر يصدقون برسول آخر قبله فإن الرد سهل، علمه الله لرسوله حين كلفه بسؤال اليهود الذين آمنوا بموسى وقالوا ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ فأمره الله أن يسألهم ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾[٤].

بل إن القصة القرآنية وهي تتحدث عن الأمم تشير إلى أن الله بعث فيهم رسلاً منهم وهو دليل على إثبات النبوة للبشر .

وبالطبع يطوي القصص في ثناياه أدلته إنزال الوحي والكتب، لأن أول الدعوة دائماً هي دعوة إلى التصديق برسول موحى إليه بواسطة الملك، ومتى آمنوا وصدقوا به لزمهم التصديق بكل ما يأمر به من أصول وفروع .

والقصة وهي تصحح أسس العقيدة تعيش مع اختلاف الناس وتنوعهم عملاً وعقيدة، وتناقش عبده الكواكب والأصنام والأشخاص والدهرية سواء كانوا في بيئة زراعية أو صناعية أو تجارية وهكذا تصنع منهج التعامل مع جميع الناس.

---

(١) سورة طه الآية ٦٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

(٣) الفلسفة القرآنية صــ١٨ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٩١ .

والقصة – ثالثاً :

تبصر بالمدعوين وتبين حقائق طبائعهم وغرائزهم، واتجاهاتهم مستدلة على ذلك بما سبق من البشر، ذلك لأن تكرار الظاهرة الواحدة في الأمم كلها، وعلى نمط واحد دليل على أن هذه الظاهرة سنة إنسانية مسلمة ... وتركيز القرآن الكريم عليها في قصصه يفيد أنها من الأحكام العامة، والنواميس الطبيعية التي لا تختلف في أي زمان، أو في أي مكان، ويجب أن تفهم على أنها إنباء عن ملامح الأمة التي جاءتها الدعوة الإسلامية، وعلى الرسول والدعاة من بعده أن يلحظوا هذه الوضعية ليكيفوا أسلوب الدعوة على وفقها .

ومن هذه الطبيعة الاجتماعية الثابتة في خلق الناس ما يلي :

١) اختلاف الناس أمام الحق :

جرت طبيعة الناس على أنهم ليسوا سواء أمام الحق ودعوة الله، فهم لا يعادونها كلية، ولا يؤمنون بها كذلك، والعادة فيهم أنهم يختلفون دائماً كما يقول الله تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾(١).

يقول النسفي أي خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف واتفاق(٢).

والقصة تبين هذه الحقيقة، يقول تعالى في حديثه عن قصة قوم صالح ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٣).

فتراهم يختلفون أمام دعوة صالح ﷺ وينقسمون إلى فريقين، فريق مؤمن وفريق كافر، ويأخذون في الجدل والخصام، والمعاندة على نحو رسمه القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾(٤) وهذا سؤال يوجهه المستكبرون الكافرون فيرد عليهم المستضعفون حيث ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

---

(١) سورة هود الآيتان ١١٨، ١١٩ .

(٢) تفسير النسفي جـ١ صـ

(٣) سورة النمل الآية ٤٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٧٥ .

أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ لكن المستكبرين يعاندون ويقولون ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ومن هذه المناقشة يتضح الخلاف والجدل والتخاصم بين الفريقين .

يقول أبو السعود: إن سؤال المستكبرين " أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ " استهزاء بالأشخاص المؤمنين وبعلمهم، ورد المستكبرين، القائل " إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ " إظهار للخلاف الشخصي ورداً لمقالتهم بذاتها وأيضاً فإن إجابة المستضعفين فيها إهمال واضح للمستكبرين لعدولها عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا : نعم، أو نعلم أنه مرسل من الله تعالى، ومنها كذلك تقريع للمستكبرين ونص على قصور فهمهم لأنهم سألوا عن أمر ظاهر لا ينبغي أن يسأل عنه وإنما الحقيق بالسؤال هو الإيمان بما أرسل به[١] لأنه الحق الثابت المستمر كما ينبئ عنه التأكيد، والجملة الاسمية، وتقدم الجار والمجرور، ولذلك أجابوا بقولهم " إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ " .

وهكذا وجد الخلاف وتشعب في قوم صالح .

وفى قصة قوم موسى يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾[٢] ومظهر الاختلاففى قوم موسى يتضح من إيمان فريق بموسى ودعوته، وكفر آخرين ولأن سبب الخلاف عداء شخص وكراهية بلا سبب محدد تلقاه يصل إلى حد الاستهزاء والطعن في الفكر والتهديد الشديد، إذ يقول فرعون رأس الكافرين للمؤمنين ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٢ .

(٢) سورة هود الآية ١١٠ .

(٣) سورة طه الآية ٧١ .

ومن الآية يبدوا استهزاء فرعون وتهديده حيث أنه سيقطع الأيدي والأرجل وسيعذب ويقتل، وقد بنى فرعون موقفه على شبهتين :

الأولى : أن المؤمنين في نظرة اعتمدوا في إيمانهم على الخاطر الأول ولمن يتدبروا وينظروا فكان إيمانهم بهذا بعيداً عن الحق والصواب .

الثانية : أنهم في نظره أيضاً آمنوا بعد مؤامرة متقنة مع أستاذهم الكبير موسى فهم تلامذته في السحر وقد أظهروا العجز من أنفسهم أمامه ترويجاً لأمره وتفخيماً لشأنه .

إن المؤمنين بسبب هاتين الشبهتين عند فرعون لا اعتبار لهم في عقل أو علم وكان عليهم أن يبذلوا العقل في التفحص والنظر، ولا يؤمنوا بالخاطر الأول، وكان عليهم كذلك أن يظهروا عملهم ولا يتهاونوا مع موسى كما يتصور، ومن هنا هددهم بالقتل والصلب، وتقطيع الأيدي وسخر منهم ومن موسى فقال ﴿ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ وأراد بأينا نفسه وموسى عليه السلام وفى موقف فرعون ما فيه من نطق باقتداره، وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى مع الهزء به، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء، وكان الدافع لفرعون على هذا الموقف هو عناده ومحافظته على ملكه ومنزلته مع الناس، هذا هو موقفه .

أما رد المؤمنين عليه فكان دفاعاً عن عقلهم وعملهم، واستهانة بفرعون وفكره وقوته إذ جابهوه، بالرد فـ ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1] وبهذا القول دافع المؤمنون عن أنفسهم وردوا شبه فرعون، فهم لم يؤمنوا بالخاطر الأول، ولكنهم آمنوا بعد الآيات والأدلة الواضحة التي برزت لهم ووضحت، فأوجدت اليقين التام، والبصيرة الكاملة، وهم كذلك لم يخضعوا لمؤامرة مع موسى وإنما كان

---

(١) سورة طه الآيتان ٧١، ٧٢ .

خضوعهم في الحقيقة لفرعون الذي أكرههم على السحر والخطايا من قبل، وبهذا نرى أن السحرة استهزأوا بفرعون خلال ردهم لأن الذي يذكره لهم هو محض الدنيا، ومن المعلوم أن كل منافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها ولكن فرعون بقوته وسلطانه لا يعد شيئاً بجانب الله الفاطر المربي الذي يغفر خطيئة التائب، وإن كان فرعون قد سأل " أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ " على وجه الاستهزاء بموسى فإنهم يردون عليه سؤاله في حقيقة واضحة ويقولون " وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ " وبهذا الرد بينوا حقيقتهم وتمسكهم بالخير وعرفوا فرعون بمقامه أمام الله الغافر الرحيم [١].

وهكذا الشأن في كل الأمم إذ يختلفون أمام دعوة الله ويعادون الرسل ويحاولون التصدي لهم عناداً وتكبراً يقول الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾[٢].

فلا عجب أن تبين القصة هذه الحقيقة لمحمد ﷺ وللدعاة من بعده لئلا يفاجأوا حين يرون من الناس الاستهزاء والإيذاء، والاختلاف .

وعلى الدعاة أن يعلموا من البداية أن من طبيعة الجماعة أن تختلف وتتفرق، ولقد رأى النبي ﷺ هذا الأمر في الأمة التي بعث فيها .

ويجب أن يعلم الدعاة أن الإيذاء الذي يوقعه المجرمون بالمؤمنين تتعدد صوره إذ يصل إلى الإخراج من الأرض والطرد منه، كما حدث لإبراهيم عليه السلام يقول تعالى ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾[٣].

كما حدث لشعيب ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾[٤] وكما حدث لموسى يقول تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٧٩ – ٨٢ بتصرف .

(٢) سورة الفرقان الآية ٣١ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٢٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٨ .

لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾[1].

وقد ويصل الإيذاء إلى الإحراق بالنار، كما حـدث لإبراهيم ﷺ إذ قالوا ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[2] وكما حدث لأصحاب الأخـدود ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴾[3].

وكل هذه الصور حدثت مع النبي محمد ﷺ إذ رأى الاستهزاء بالقول يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[4] وكذلك علم ﷺ أن أهله سيخرجونه من بلده يوم أن جاء إلى ورقة بن نوفل في يوم بداية الوحي يسأله عن حقيقة ما رأى، في هذا اليوم قال ورقة له (**والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتقاتلنه ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه**)[5] ويروي البخاري بسنده **أن النبي ﷺ لما سمع أمر إ خراجه من ورقة قال له : أو مخرجي هم ؟**

قال ورقه : نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي[6].

وقد بقي ﷺ بمكة حتى خرج منها مهاجراً في ليلة تجمع الفتيان حول داره من أجل قتله .

وهكذا فالاختلاف سنة لا تنقطع في الناس، وعلى الدعاة والمهتمين بالدعوة مراعاة هذا الواقع ليتحركوا على أساسه متمسكين بالصبر واللين بعيدين عـن

---

(١) سورة الدخان الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٨ .

(٣) سورة البروج الآيات من ٤ إلى ٧ .

(٤) سورة المطففين الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

(٥) سيرة النبي جـ١ صـ٢٥٦، ٢٥٧ .

(٦) صحيح البخاري جـ١ صـ٤ باب بدور الوحي .

اليأس وفقدان الأمل .

٢) الغني والفقير أمام الدعوة :

جرت السنة بين الناس أن الأغنياء هم الظاهرون في المجتمع والأمر بيدهم دائماً والفقراء تابعون لهؤلاء الأغنياء، وكان المظنون أن يكون هؤلاء الأغنياء أسرع إيماناً بدعوة الله إليهم، شكراً للنعمة التي يعيشون فيها، وتقديراً للمسئولية التي تحملوها عن أنفسهم وعن الفقراء من حولهم، لكن الواقع كان على خلاف هذا المظنون بعدما رأينا الأغنياء يعادون الدعوات السماوية ويكفرون بها بشكل يكاد يكون تاماً وشاملاً لكل الأمم مما يجعلنا نستنبط منه حقيقة من حياة الناس تتعلق بالأغنياء والفقراء .

يبين القرآن حقيقة الأغنياء مع سائر الرسل فيقول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

يبين أبو السعود في تفسيره لهذه الآية أن هذا الكفر شامل للمترفين في سائر القرى فيقول : لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قال مترفوهم مثل ما قال مترفو أهل مكة " إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ " [2].

وفي أحداث القصص نرى هذه الحقيقة فالمعارضون لنوح عليه السلام هم الملأ يقول الله تعالى قال ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] والمعارضون لهود هم " ٱلْمَلَأُ " يقول تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[4] والملأ من قوم صالح وشعيب وفرعون هم المعارضون يقول تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾[5] ويقول ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٤ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ٤ صـ

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[1] ويقول ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾[2].

والملأ كما يقول صاحب المصباح هم أشراف الناس سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف، وجودة الرأي أو لأنهم يملأون العيون أبهة والصدور هيبة [3].

ويقول الزمخشري : الملأ هم الأشراف من قولهم: فلان ملء بكذا إذا كان مطيقاً له، وقد ملئوا بالأمر لأنهم ملئوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها أو لأنهم يتمالأون أي يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملأون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملأى بالأحلام والآراء الصائبة[4].

وليس هناك ما يمنع اتصافهم بكل ما ذكره الزمخشري واجتماعها هو الأولى، وما سموا بهذا الأسم بهذا الاسم من بين سائر القوم إلا لمزايا وضحت فيهم .

يقول الرازي : الملأ الكبراء والسادة الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء والدليل عليه أن قوله " مِن قَوْمِهِۦ " جاء بعد ذكر الملأ، يقتضي أن ذلك الملأ بعض قومه، وذلك البعض لابد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملأون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر[5].

والملأ بمكانتهم المذكورة عادوا الأنبياء والدعوات، وكانوا يفخرون علانية

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٨ .

(٣) المصباح المنير مادة "مال " جـ٢ .

(٤) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٢٦٥ .

(٥) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٤٣٦٢ .

بأن الرسل لا يتبعهم إلا الفقراء وطالبوا بطردهم، حتى لا يكونون هم والفقراء سواء ومن هؤلاء قوم نوح الذين قالوا له ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾(١) يقول الزمخشرى: إنما استذلوا المؤمنين لفقرهم، وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الشريف عندهم من له جاه ومال، لما طلب نوح من الملأ أن يعبدوا الله وحده تعجبوا من هذا الطلب وقالوا مندهشين ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾(٢) مشيرين بهذا القول إلى أنهم لا يلتقون في خط واحد مع الأراذل المستضعفين، وطلبوا من نوح أن يطرد الفقراء من حوله لكن نوحاً يرد عليهم ويقول ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) ويقول ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٤) ومثل ما حدث من أغنياء قوم نوح مع نوح حدث مع سائر الرسل.

إن الأغنياء مع خطإ نظرتهم قد تمكنوا من خديعة كثير من الفقراء وضموهم إلى معسكر المعارضين لدعوة الرسل، كما وضحته قصة موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقد بينت آيات سورة الشعراء ذلك وختمت كل قصة فيها بقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٥).

وتبين القصة القرآنية أن الفقراء كانوا على عكس الأغنياء في الطاعة والاتباع فهم الأراذل أتباع نوح، وهم المستضعفون أتباع صالح، وهم الشر ذمة أتباع موسى، وهكذا فهم أتباع النبي محمد ﷺ ولا يصح طردهم وإن طلبه الأغنياء المعارضون يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

---

(١) سورة هود الآية ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١١١ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١١٤ .

(٤) سورة هود الآية ٣٠ .

(٥) سورة الشعراء الآية ٦٧ .

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

روى أحمد والطبراني وأبي حاتم عن أبي مسعود قال، (**مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وعمار فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ لو طردت هؤلاء لأتيناك) فأنزل الله فيهم هذه الآية** [2].

ويبدوا أن سبب كفر الأغنياء أنهم كانوا يعيشون في يسر دائم، بين ملذات الدنيا وطيبات الحياة مما جعلهم لا يفكرون في أي تغيير، ولا ينجذبون لأي دعوة، يقول تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[3] ويقول سبحانه ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[4].

والغنى بسبب غناه يتكبر ويطغى يقول تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[5] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[6].

والغنى يتخيل أنه إن بدل عقيدته وغير طبيعته فقد خان الآباء والأجداد ولذلك يتمسك بموروثات السابقين يقول تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[7].

والغنى لا يرضى لنفسه أن يكون مع الفقراء في منهج واحد وطريق واحد

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٢ .

(٢) لباب النقول جـ١ صـ١١١ ، ١١٢ .

(٣) سورة الزخرف الآيتان ٢٩، ٣٠ .

(٤) سورة الفرقان الآية ١٨ .

(٥) سورة العلق الآيتان ٦ ، ٧ .

(٦) سورة سبأ الآية ٣٥ .

(٧) سورة الزخرف الآية ٢٣ .

ولذلك يعارض الدعوة السماوية لأنها تدعوا لذلك .

أما الفقراء فهم على عكس الأغنياء يحسون بالحاجة إلى التغيير، ويتمنون وضعاً أحسن من وضعهم، ولذلك يستجيبون للدعوة، طمعاً في السعادة تأتيهم بعد طول ترقب وأمل، وعساهم بالاستجابة للدعوة يتخلصون من جبروت الأغنياء ومظالمهم وخلالهم وأفسادهم، ولسوف يذكر الفقراء ذلك لله يوم القيامة معتذرين يقولون ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[1] ويذكرونه للأغنياء أيضاً مبينين أنهم سبب الكفر ويقولون لهم ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[2].

والقصة وهي تعرف بهذه الحقيقة تقدم فهماً واضحاً للناس أمام الداعية الذي عليه بعد هذا الفهم أن يبدأ بمن يرى استجابتهم ويترك الأغنياء قليلاً، ويدعوهم مراعياً فيهم هذه الخصائص .

٣) موروثات الآباء أمام الدعوة :

تبين القصة القرآنية أن موروثات الآباء والأجداد عائق رئيسي يقف ضد الدعوة واتجاهاتها، لأن الأبناء في كل عصر يعتبرون أنفسهم الأمناء على هذه الموروثات، ويأخذون منها كيانهم كله، وأي تغيير لها يعد هدماً لوجودهم، ولذلك فهم يعارضون الدعوات، ويقفون ضدها لأنها تبغي تبديل هذا القديم وتغييره .

والقصص القرآني يبين ذلك بوضوح فسيدنا نوح عليه السلام بعد ما بذل للدعوة فكره وجهده وعمره يسمع نداء المعارضين في أقوامهم حيث يقولون لهم ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[3] وسيدنا هود عليه السلام يسمع من قومه قولهم حيث ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4] وسيدنا صالح يسمع من

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٧ .
(٢) سورة سبأ الآية ٣١ .
(٣) سورة نوح الآية ٢٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

قومه ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[1].

وسيدنا شعيب يسمع من قومه ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[2].

وسيدنا إبراهيم يسمع من قومه ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[3].

وسيدنا موسى يسمع ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾[4].

وهكذا قال سائر الأقوام لرسلهم وبينوا تمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم ودهشتهم من محاولة الرسل تغيير موروثات الآباء .

ومن هنا لم يكن غريباً على العرب أن يظهروا هذه الخاصية لتؤكد هي الأخرى مع السابقين أن مورثات الآباء لها دورها الخطير في معارضة الدعوة واتجاهاتها .

كان النبي ﷺ إذا قال لهم ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ ﴾[5].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾[6] .

﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[7].

ولعل هذا التقليد للقرابة يفسر لنا بعض السر في اختيار الرسل من أممهم

---

(١) سورة هود الآية ٦٢ .

(٢) سورة هود الآية ٨٧ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٧٤ .

(٤) سورة يونس الآية ٧٨ .

(٥) سورة المائدة الآية ١٠٤

(٦) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

(٧) سورة الزخرف الآية ٢٤ .

ليملكوا هذه العاطفة الاجتماعية، ويبين لنا كذلك بعض السر في ارتباط كل دعوة بسابقها، وتركيز كل رسول على أن دعوته ليست بدعاً، ولكنها تأتي عقب دعوة سابقة عنها، متفقة معها كما قال هود لقومه ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[١] وكما قال صالح لقومه ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾[٢] وكما قال الله تعالى لرسوله ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[٣].

والواقع التطبيقي للدعوة الإسلامية يوضح هذه الحقيقة، لأن الدعوة للأمور الجديدة تقابل عناء وشدة، كالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، فإنها لجدتها بين الجاهلين لاقت معارضات شديدة، أما الدعوة إلى المألوف الذي يحتاج إلى تعديل فقط فإنها سهلة التنفيذ بلا عناء .

ومن هنا كان على الدعاة وهم يتدرجون في دعوتهم أن يبدأوا بتعديل المألوف، ومنه ينتقلون بالناس إلى الجديد الذي لم يؤلف من قبل، وليس في ذلك غرابة **فإن النبي ﷺ دعا الأعراب إلى أن يشاركوه في رحلته إلى العمرة يوم الحديبية، لأن حج البيت وتعظيمه شئ مألوف، والدعوة إلى الاشتراك فيه مدخل لطيف لكي يؤمن الأعراب بما ألفوه بخلاف ما لم يألفوه .**

يقول ابن إسحاق : **واستنفر النبي ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من الأعراب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ويعلموا أنه خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له[٤].**

وهكذا نعتبر دعوة النبي للأعراب دعوة إلى الدين لا إقرارا بعقيدتهم وبهذا

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٦٣ .

(٤) سيرة النبي جـ٣ صـ٢٦٥ .

التعليل قبلنا رواية ابن إسحاق وأوردناها مستشهدين بها .

<u>٤) وحدة الكافرين أمام الدعوة :</u>

الكفر ملة واحدة، وإن تنوعت صوره وتعددت عقائده، والكافرون دائماً يعارضون دعوة الله بأسلوب واحد، واعتماداً على فكرة واحدة، مهما باعد بينهم المكان والزمان، ومن الحقائق التي تكررت في قصص القرآن موقف المعارضين المتحد في الاتجاه وسبب الكفر.

إن المعارضين جميعاً كفروا بالدعوة وحصروا كفرهم في صورتين :

الصورة الأولى : معارضتهم لفكرة عبادة الإله الواحد فقط وتمسكهم بعبادة ما اتخذوا من آلهة .

الصورة الثانية : تكذيبهم للرسل في دعوى الرسالة بحجة أن للرسالة شروطها التي لا تتوفر في بشر منهم يبعث فيهم وحده .

وقد ورد على ألسنة جميع الأمم ما يفيد أن كفرهم دار حول هاتين الصورتين، ويبدوا أن السبب في هذا الاتحاد هو أن الكفار جميعاً قد حاولوا المحافظة على وجودهم بأخطائه كلها، فلما رأوا الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده – وفي دعوتهم هذه هدم لآلهتهم – رفضوا دعوة الرسل وأنكروا رسالتهم حتى تسقط دعوتهم بالضرورة، ولتبقى عبادتهم لآلهتهم العديدة كما هم يفعلون .

والقصص القرآني يذكر هذه الحقيقة عن الكافرين .

فعن الصورة الأولى للكفر رأينا قوم نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى يعبدون آلهة عدة، ولذا بدأ الرسل في تعديل عقائد أقوامهم ونادوا جميعاً بعبادة الله وحده، وقالوا لأقوامهم في وضوح وصراحة ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[1] ذلك أن هذا النداء هو الأساس في كل الدعوات يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2].

---

(١) سورة هود الآية ٦١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

وكان الرسل يبينون للناس أن تعدد الآلهة ضلال، ومخالفة صريحة للفكر السليم لأنهم بعبادتهم غير الله يعبدون ما يصنعون، وهي آلهة لا تنفع ولا تضر، ولكن الأقوام بتعصبهم أنفوا أن يعبدوا إلهاً واحداً، وقالوا لرسلهم ما يفيد رفضهم لدعوة التوحيد الموجهة إليهم، حيث قالوا لهود ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

وقالوا لشعيب ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾[٢].

وإبراهيم حاجه قومه، وموسى سمع من فرعون ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[٣].

وكان هذا الشأن مع أمة النبي محمد ﷺ فإنهم قالوا له حين دعاهم إلى التوحيد ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٤].

وعن الصورة الثانية للكفر : وهو تكذيب الرسل في إرسالهم فهي أيضاً صورة مكررة في الأمم كلها كما أن شبهتهم في التكذيب واحدة كذلك، وملخصها أن الرسول لا يصح أن يكون بشراً، وواحداً، وقالو يجب أن يكون ملكاً، أو مجموعة من البشر والملائكة معاً، فلما جاءهم واحد من البشر كذبوه وقالوا لنوح ﴿ قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[٥].

وقالوا لصالح ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[٦].

ولما أرسل محمد ﷺ كذبوه واستبعدوا أن يكون هو الرسول ﴿ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[٧].

---

(١) سورة هود الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود الآية ٨٧ .

(٣) سورة القصص الآية ٣٨ .

(٤) سورة ص الآية ٥ .

(٥) سورة هود الآية ٢٧ .

(٦) سورة القمر الآية ٢٤ .

(٧) سورة ق الآية ٢ .

وما كان تكذيبهم إلا جرياً على سنة الأمم من قبلهم حيث ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[1].

لكن تكذيبهم جميعاً لاحق لهم معه، وهو مردود عليهم لا يستقيم أبداً، ومنشأه عدم تقديرهم للآلهة .

ذلك لأنهم لو قدروا الله، وعلموا إحاطته وعلمه وقدرته لأيقنوا أن الطبيعة البشرية لا تمانع في أن يكون الرسول بشراً بل وتحتمه حتى يستطيع أن يتصل بالناس بواسطة هذه البشرية، ويتصل بالوحي بواسطة الاصطفاء والنقاء الذي يضعه الله فيه ويقول الله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾[2] ذلك لأن المجانسة بين الداعي والمدعو تحقق الألفة والمودة بينهما وتوجد نوعاً من النجاح للدعوة ولذا أرسل الله للبشر رسولاً منهم .

ولو قدروا الله لعلموا أنه ﴿ لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[3]

وحينما يعجز القوم عن محاجة الرسل يلجأون إلى اتهامهم بالجنون وبالسحر كما فعل العرب إذ قالوا عن القرآن بعد تلاوة النبي ﷺ له عليهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[4] وليس العرب بدعا في هذا الاتهام فإن من سبقوهم كانوا يقولون مثل هذه الاتهام يقول تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[5].

هذه الحقائق التي عرفتنا بها القصـــة القــرآنية لا تختلف في الناس، وقد

---

(١) سورة ق الآيات من ١٢ إلى ١٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٤) سورة المدثر الآية ٢٤ .

(٥) سورة الذاريات الآية ٥٢ .

وضعها الله في قرآنه لتكون مصباحاً منيراً أما الدعاة وعلى ذلك تكون القصة قد صنعت البصيرة المطلوبة في أساليبها، إذ عرفت بالمدعوين وبالدعوة وأكسبت الداعية ثقة وطمأنينة .

ولست أعني أن القصة قدمت كل ما يبصر الداعية بدعوته وبمدعويه، لكن الذي أعنيه أنها قــدمت في هذا الإطار نماذج لها قيمتهــا، وتركت الباقي لبقية الأساليب ولجهد الداعية وأفقه .

والقصة – رابعاً :

تعتبر موعظة حسنة لأنها بعناصرها وتأثيراتها تلفت نظر المدعوين برفق، وتعطيه من عبر الماضي، ما يجعله يقتنع ويشعر أن الداعي ينصحه ويقصد نفعه، وتشتمل القصة القرآنية على الحوار الطيب والمجادلة بالتي هي أحسن كما هو ثابت في الآيات التي أوردتها .... ومن خلال الحوار في القصص القرآني نرى الحكمة الدقيقة، والتوجيه الموجز، والبرهان البين .... وبذلك تتضمن القصة القرآنية ملامح الأساليب كلها .

وسنبين ذلك قريباً حين نذكر كيف تؤدي القصة دورها في إبلاغ الدعوة .

والقصة – خامساً :

تناسب طاقة البشر لأنها رواية عن أخبار البشر وقد اختارها الله بدقة وقص منها على الخصوص ما هو هادف ومؤثر، وجعله وحيا باقياً يلائم البشر دائماً، وأيضاً فهو إذ يفيد الدعوة يفيد مقاصدها كذلك لأنه يعرف بها ويحث عليها، وسبحان الله جعلها هكذا وهو الحكيم الخبير .

المبحث الثالث
فنية القصة القرآنية في إبلاغ الدعوة

يملك القصص دائماً الإثارة والجاذبية، إلا أن بعضه هو الذي يستحق البقاء لأنه يبغي هدفاً، ويقصد خيراً للفرد والجماعة .

والقصة القرآنية من هذا النوع الهادف القائم على الحق المساق لغرض محدد، وكل ما فيها من فنية مؤثرة هو أصل هدفها المطلوب، فهو الذي يحدد مساقها، ويبرز بعض جوانبها، ويخرجها للناس لفظاً وموضوعاً .

يقول الشيخ محمد عبده : جاءت آيات القصص على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يحلق به، فهو في القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع التي في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفس للاعتبار هزا [١] ذلك لأن القرآن هو كتاب الدعوة، ولابد أن يفي لها بالتأثير والهداية عن طريق بيانه المتعدد ومنه القصة.

وقد بينا بعض ما جعل القصة أسلوباً للدعوة، وهنا سنبين بمشيئة الله تعالى الكيفية التي بلغت بها الدعوة وأثرت في نفوس الناس وعقولهم .

إن القصة تملك قوة التأثير بواسطة أسلوبها والأحداث التي يحتويها هذا الأسلوب وذلك بسبب الخصائص الموجودة في الأسلوب والأحداث .

أما خصائص الأسلوب [٢] : فهي كثيرة نلمحها في كل لفظة على حدة وفى الجملة مركبة من عدد من الألفاظ، وسنذكر بعضها على النحو التالي :

فالكلمة القرآنية أولاً :

تمثل في موقعها من القصة دقة مشتملة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة فحروفها متلائمة في رقة بلا غرابة أو تنافر وتتماسك الكلمة في انسجام تام وتكامل واضح، وكل من له حس فني يرى هذا الترابط التام بين

---

(١) تفسير المنار جـ١ صـ٣٤٦ .

(٢) يلاحظ أن أسلوب القصة هو أسلوب القرآن الكريم كله ونحن نأخذ منه هنا ما في القصة وحدها لنتبن فنيتها المؤثرة على نحو ما وردت في القرآن بأسلوبها .

الحروف في الكلمة الواحدة فترى كل حرف يتناغم مع شركائه في الكلمة وكأن كل حرف وجد ليوضع في هذا الموضع وحده لما يصنعه من موسـيقى فـي النفس والحس .

يقول الرافعي : وليس يخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفـسي وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه، مـداً أو غنة، أو لينا، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع والاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الارتفاع والاهتزاز وبعد المد ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى[1].

ولقد دلت الوقائع على آثار الكلمات القرآنية في نفوس مستمعيها ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن هشام في بيانه سبب إسلام عمر ﷺ **فقد ذكر أن السبب هو قراءته لبعض كلام القرآن الكريم، وقد وصفها بقوله " ما أحسن هذا الكلام وأكرمه "**[2]. ومن أمثلته ما قاله عتبة بن ربيعة يصف القرآن لأهله " **سمعت قولاً ما سمعت مثله قط** " [3].

والكلمة – ثانياً –

قد تكون في حد ذاتها ثقيلة فإذا ما جاءت في القصة القرآنية برزت في صورة جميلة، وأدت دورها بوفاء، وتعاونت مع الكلم حولها، وصنعت الموسيقى الصوتية والمعنوية التي تزيل الثقل وتستبدل به الحسن، ومن أمثلة هذه الكلمات لفظة " **النذر** " جمع نذير وهي كلمة ورت كثيراً في قصص سورة القمر، يقول الرافعي عنها : الضمة ثقيلة في لفظة " بِٱلنُّذُر " لتواليها على النون والذال فضلاً عن جسأة هذا الحرف، ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته، انظر قوله تعالى

---

(١) إعجاز السنة النبوية جـ١ صـ٣١٤ .

(٢) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٣٤٥ .

(٣) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٢٩٤ .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ ﴾[1] وتأمل هذا التركيب، وانعم ثم انعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف، ومواضع القلقة في " دال " لقد وفى " طاء " "بَطْشَتَنَا " وهذه الفتحات المتتالية في "فَتَمَارَوْا۟ " مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذ هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة مستحقاً بعد، ولتصيب هذه الضمة موقعها، ثم ردد النظر في " تماروا " فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء " النذر " حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف ولا تغلظ ولا تنبو فيه"[2].

والكلمة – ثالثا :

لا تكون إلا لهدف وغرض ومعنى، وما قاله البعض من أن بعض الألفاظ جاءت زائدة ويضربون لذلك أمثلة بعضها في كلم القصص ومنها " لا " الأولى في قوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[3].

و" إن " في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾[4].

و " الواو " في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾[5].

ومن المعلوم أن وصف الكلمة بكونها زائدة يعني أنه لا فائدة منها، وأن وجودها كعدمه تماماً، وما المحافظة عليها مع زيادتها إلا لأنها نزلت بالوحي المحفوظ الثابت الذي لا يغير ولا يبدل ويجب أن يبقى محفوظاً كما نزل .

إن ما قاله هذا البعض مردود بأحد طريقين :

أولاً : إن هذه الحروف لها فوائدها حيث تشارك في معنى ما حواليها ومعنى كونها زائدة حينئذ أي إنها زائدة في الإعراب فقط أما في المعنى فليست

---

(١) سورة القمر الآية ٣٦ .

(٢) إعجاز القرآن صـ٢٥٨ .

(٣) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٤) سورة يوسف الآية ٩٦ .

(٥) سورة الصافات الآيات من ١٠٣ إلى ١٠٥ .

بزائدة لأن " لا " في الآية الأولى تؤكد معنى القسم بتوكيدين حول المقسم عليه لأهميته و " إن " في الآية الثانية لتصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه، ولصنع غنة ترمز على الطرب الذي جاء به البشير " و " الواو في الآية الثالثة ليكثر المبنى دلالة على كثرة المعنى ليطول نفس القارئ أمام هذا الموقف العجيب والمثير .

الثاني : أن هذه الحروف ليست زائدة لا في الإعراب ولا في النظم فإن نظمها يفيد المعاني السابقة، وإعرابها موجود حيث تعرب " لا " نافية لقول المنافقين المقدر، والمعنى ليس الأمر كما يقولون ثم استؤنف القسم بعدها[1] وتعرف " أن " مصدرية لتصنع مع الفعل بعدها فاعلاً لفعل مضمر تقديره " **فلما ظهر أن جاء البشير** "[2] وتعرب " الواو " عاطفة في " **وناديناه** " ويجعل جواب الشرط مقدراً، أي سعد سعادة عظيمة، يقول الرازي وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن الكريم والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم [3].

هذا عن الكلمة الواحدة، فلو تركناها إلى الجملة مركبة من كلمات لوجدنا

– أولاً –

تهتم الجملة بالبيان الراقي النابع من لفظ قليل، ولرأينا كيف تؤدي الكلمات القليلة المعاني الكثيرة مع المحافظة على جمالها الرنان وجرسها الحسن، وهذه الخاصية للتراكيب القرآنية مكنت للقصة، فوضحت بالقليل من الألفاظ، ورآها المستمع حية متحركة أمامه، إذا قرئت قراءة حسنة .

اقرأ قوله تعالى قاصاً إجابة موسى لفرعون حين سأله عن ربه ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[4] نرى أنه ﷺ ذكر أدلة وجوب وجود الرب المعتمدة على قدرته وعنايته بالإنسان، حيث هداه إلى الخير، وذلك كله في

---

(١) الإتقان جـ١ صـ١٧١ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ٢٤٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ١٥٩ .

(٤) سورة طه الآية ٥٠ .

هذه الجملة القصيرة التي يحتاج تفصيلها إلى كتب كثيرة، يقول الرازي: الشروع في بيان عجائب حكمة الله في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له[١].

واقرأ قوله تعالى قاصاً مقالة الهدهد لسليمان ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[٢].

فقد بين الهدهد بهذه الكلمات الأربع أن غيبته كانت لغاية كبرى تفيد سليمان وتهمه، وقد أتى الهدهد بها من مكان بعيد ناء، وإن هذه الغاية تحمل أخباراً لم تعرف من قبل ولم تكن محتملة وهي أخبار صادقة لا تحتمل الكذب أبداً، قد وضعت في جمال وحسن يبدوان من الإدغام والغن وتنوع شكل الحروف وهكذا سائر التراكيب .

يقول الباقلاني ما رأيك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٣].

فإن هذه الآيات تشتمل على ست كلمات (جمل) سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، إنها تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير، حيث ذكر العلو في الأرض، وفسره باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما، ثم ذكر الفاصلة التي ردت آخر الكلام إلى أوله بقوله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾. ولعل إجابة موسى على فرعون، وإجابة الهدهد، ووصف فرعون لو حاول بشر أن يصوغها ابتداء، لاستوفاها بأضعاف أضعاف كلماتها .

والجملة – ثانياً –

تتكون من كلمات متفقة ومؤتلفة ومتعاونة في أداء المعنى وكأن كـل كلمة لفق[٤] لجاراتها لفظاً ومعنى .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٦٠ .

(٢) سورة النمل الآية ٢٢ .

(٣) سورة القصص الآية ٤ .

(٤) اللفق شق الملاءة أي أن كل كلمة جزء من الكلمة المجاورة .

اقرأ قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

فإن كلماتها مرتبطة ومؤدية لكثير من المعاني، يقول عبد القاهر معلقاً على هذه الآية : إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثانية بالثالثة، وهكذا إلى أن تستقر بها كلها، ثم يقول : إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤدية وهي في مكانها من الآية قل " **ابلعي** " واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت .

ثم أن كان النداء بيا دون أي – ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال "ابلعي الماء " ثم إن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ثم اتبعه بنداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ثم إلى بناء الفعل " غاض " للمجهول للدلالة على إنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم إن تأكيد ذلك وتقريره بقوله وقضى الأمر، ثم إلى ذكر ما هو نتيجة لهذه الأمور جميعاً وهو الاستواء على الجودي، ثم إلى إضمار السفينة قبل الذكر للتعظيم والتفخيم، ثم إلى مقابلة " قيل " في الخاتمة بـــ " قيل " في الفاتحة [٢].

وهكذا نرى أن الأسلوب القصصي في القرآن صور الحقائق في براعة نادرة، أخذت بلب البلغاء ودهشتهم، وجعلت العرب وهم أرباب البلاغة – معنى وبياناً وبديعاً – يقفون أمامها وليس لهم إلا التأثير والتسليم .

والجملة – ثالثاً –

تراعى عملية التأثير في نفسية المستمعين على حسب وضعهم لأنها تتجه

---

(١) سورة هود الآية ٤٤ .

(٢) الإيجاز في شرح دلائل الإعجاز صـــ٣٢ .

لما سبقت له بدقة .

ففي القصص المكي يوم أن كان المسلمون غير آمنين في حياتهم ومعاشهم والمشركون منصرفين عن القرآن إلى الماديات المثيرة لوجدانهم ومشاعرهم .

في هذا الوقت كان على القصة أن تستولي على القلوب بأسلوب مناسب للنفوس القلقة من حيث قصره وإيجازه وتصويره لموقف آخاذ، أو إيرداه حادثة تطمئن المضطرين، وتخوف ظالميهم .

وهذا الأسلوب لابد أن يكون على صورة الإسجاع العربية، لأن ذلك هو الذي يثير العربي ويوقظ مشاعره، ويشده إليه اقرأ قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[1].

هذه الكلمات القليلة تعبر عن المعاني الكثيرة بدقة وإيجاز ... فحين نقرأ "أَلَمْ تَرَ " ندرك أن العلم بهذه الأخبار يقين كالمشاهدة الحسية تماماً ... ومن جملة الآيات نعرف عاداً وموطنها، وضخامة أشخاصها بصورة لا نظير لها، ونعرف ثمود الذين قطعوا الصخر ليصنعوا بيوتهم بالوادي منه، ونعرف فرعون بكثيرة جنوده، وتعرف أن هؤلاء جميعاً عاداً وثمود وفرعون كانوا طغاة ظالمين مكثرين في إفسادهم بالكفر والقتل والظلم، وكانت عاقبتهم أليمة، واستحقوا ما فعل الله بهم حيث رصد الله أعمالهم كلها ... وهكذا اشتملت هذه الآيات القصيرة على مجموعة من الأقاصيص غايتها واحدة هو بيان شدة العذاب ودوامة، إذ الصب يشعر بالدوام، والسوط يشعر بزيادة الآلام[2].

ولعل هذه الموسيقى المؤثرة الواضحة من مقاطع الآيات القصيرة هو السر في نزول القصص المكي غالباً على هذا النمط .

---

(١) سورة الفجر الآيات من ٦ إلى ١٤ .

(٢) تفسير النسفي جـ٤ صـ٣٤٥ - ٣٥٥ بتصرف .

وانظر سورة القمر حيث ركزت على أحداث كثيرة من الأمم، ولزمت في جميع آياتها مقطعاً واحداً هو حـرف الـراء، مع قصـر في الآيات، وعمق في المعاني والدلالات، وقوة في التأثير والاعتبارات .

وفى السور المكية : يتحد رنين المقاطع، وتتقارب مخارجها إن اختلفت كسورة " ق " التي تدور مقاطعها حول الباء، والجيم والدال، والراء، والصاد، والطاء، والظاء، وكلها متقاربة المخرج .

ومن سور هذا النمط ص، والصافات والشعراء، والأنبياء، والمؤمنون، والحجر، وكلها ركزت على التأثير الصوتي بالأسلوب، والتأثير المعنوي بالحدث المقصود، والتوجه المباشر نحو الغاية والهدف .

على أنه يجب أن يبقى معلوماً أن من القصص المكي ما ورد على غير هذا الأسلوب، كقصص سور الأعراف، وهود، والأنعام، فإن أسلوب هذه السور بعيد عن الرنين الموسيقى، والتركيز على الحدث الواحد، وإنما يجرى على شكل محاورة فيها كثير من الجوانب التي جاءت لأغراضها المقصودة، وهذا النمط قليل الورود في السور المكية .

فإذا ما تركنا الأسلوب بكلمه وجمله إلى المعاني المستفادة من الأسلوب القصصي في القرآن الكريم نجدها تصنع التأثير الفني على النحو التالي :

فهي – أولاً –

لا تعطي أحداثها دفعة واحدة، بل تتخير حدثاً مفيداً للغرض وتهتم به، وبذلك تحقق شيئين لابد منهما في الدعوة على الله تعالى هما :

تجزئة القصة الواحدة .

وتكرار الحدث الواحد .

وبهذا تتحقق أغراض القصة في سهولة ويسر، لأن التجزئة لا تثقل على السامع، والتكرار في حد ذاته له تأثير عجيب فإن أدركنا أن التكرار القرآني لا يعني الالتزام بصورة واحدة دائماً، وإنما هو في القرآن الكريم جديد في كل مرة بزيادة أحداث، والتركيز على جوانب معينة مع تغير الصنيع، وتنوع التوجيه،

وتعدد الأهداف، حين ندرك ذلك، وهو حق، نعلم ما في القرآن الكريم من دقة وإعجاز وبخاصة في التكرار والتجزئة .

وحتى نتبين هذين الشيئين في قصص القرآن نقرأ قصة نوح ﷺ كما جاء بها القرآن الكريم .

فهي في سورة الأعراف تحتل الآيات من ٥٩ إلى ٦٤ وتركز على ضلال القوم بشكل عام، وتبين استغراقهم فيه، وتشير إلى عاقبة الكفر والاستكبار وجزاء الإيمان والطاعة .

وهي في سورة هود من آية ٢٥ إلى ٤٨ تركز على بيان الأدلة الواقعة على الإيمان بالله إذ هو مصدر الرحمة ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ والأجر والحق عنده ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ والنصر منه وحده ﴿ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ ﴾ وهو العليم بالخفي والظاهر ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ ومشيئته مطلقة في إنزال العقوبة ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ وإليه المرجـــع والمآب ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ونرى من مناقشات القصة في وسورة هود أن نوحاً ﷺ كان يديرها نحو الأدلة ولم يسترسل معهم في المجادلة الباطلة .

وهي في سورة الأنبياء تحتل آيتي ٧٦، ٧٧ وتركز على النعم التي جعلها الله لنوح بشكل مجمل وموجز .

وفي سورة المؤمنون تأتي القصة في الآيات من ٢٣ إلى ٢٨ وتركز على نعمة الإنجاء بواسطة السفينة، وهي نعمة تستحق الحمد .

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وفى سورة العنكبوت تركز على بيان المدة التي مكثها نوح في قومه لأن ﷺ مكث فيهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .

وفى سورة القمر تركز على تهويل صورة العذاب وكيف يبدو مـــن قوله

تعالى ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

وفي سورة نوح نرى التركز على أعمال نوح عليه السلام يقدمها إلى ربه موجزاً عمله خلال مدة بعثه طالباً من الله أن ينزل العقاب على الضالين الكافرين ويذكر له نتيجة خبرته الطويلة معهم وكأنها في سورة نوح بيان ختامي يقدمه نوح عليه السلام لله رب العالمين .

فهذه سبع مرات لقصة نوح، ولكل مرة أحداثها البارزة الواضحة المركزة على جانب معاً لتكون مفيدة في هذه النقطة، وليأخذ من نزل القرآن لهم من تجزئة القصة درساً لهم، فالعلم بعاقبه المؤمنين والكافرين درس من القصة في الأعراف، والأدلة الإيمانية درس من هود، وضرورة الحمد على النعم درس سورة المؤمنون، كما أن بيان رفعة منزلة النبي ﷺ عند الله درس سورة الأنبياء، والإحاطة بقدرة الله في تعريف قوى الطبيعة درس سورة القمر، وهكذا جزأ القرآن أحداث قصصه ليوسع الفائدة بها ويوجد الدافع إلى التأثير والهدف .

إن القصص القرآني في تكراره على النمط السابق يصنع فائدة جليلة للدعوة، لأنه بذكره الأحداث مجزءة يراعي حال المدعوين، ويتدرج معهم من الأسهل إلى السهل وهكذا، وفوق ذلك فهو يراعي طبائع الناس المختلفة لأن منهم من يتأثر بحادث، ومنهم من يتأثر بأكثر، ومنهم من لابد له من القصة كلها .

ولذلك حينما يكون التركيز على حدث في القصة فإنه يأتي مصحوباً بموجز سريع عن بقية أحداث القصة لكي تتلاءم مع المدعوين المختلفين بالضرورة الذين يتنوعون في درجة الاستفادة من الدعوة والإفادة بها يقول ﷺ فيما رواه عنه أبو موسى الأشعري مبينا اختلاف الناس في الطباع والتوجه يقول ﷺ (**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ**

فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [١] فناسب اختلافهم أن تختلف الأساليب معهم وتتكرر .

واختلاف الأساليب لا يستدعي كذباً في أحداث القصة، أو خيالاً، لأننا لو جمعنا سائر أجزاء القصة من القرآن كله وجعلناها كلا واحداً، فإن الأحداث تكون صادقة متآلفة بلا تناقص أو خلل، وما جزء القرآن أحداثها إلا ليحقق السهولة والتكرار، فإن السهولة تفيد التدرج في إصابة الغرض، والتكرار في حد ذاته مؤثر بشكل واضح .

يقو جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع : للتكرار تأثير كبير في عقول المستنيرين، وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الــزمن نسى الواحــد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر[٢].

وكان هتلر يقول : إن الدعاية تستطيع فقط أن تؤثر في النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم ويجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشيء من زوايا مختلفة [٣].

ولئن كان هذا هو رأي المحدثين في تكرار الحدث فإن القرآن سبقهم وجعل التكرار في أحداث قصه واضحاً، والفرق بين التكرار القرآني وتكرار المحدثين أن القرآن يلتزم الحق والصواب بخلاف المحدثين، كما أن اختياره للأحداث مقصود بدقة، دالة على قدرة الله وعلمه المحيط .

ومعاني القصة – ثانياً –

مجال خصيب للترغيب والترهيب الذي هو فن جميل الأثر في الدعوة بل أنه من أهم مؤثراتها، وذلك لأن الإنســـان إذا استثير شوقه إلى شيء ما زاد

---

(١) صحيح البخاري جـ١ صـ٣٠ كتاب العلم – باب من علم وعلم .

(٢) الخطابة صـ٨٨ .

(٣) التوعية الاجتماعية صـ٤٠ .

اهتمامه به وسرعان ما يتحول هذا الشوق إلى نشاط يملأ حياة الفرد عملاً وتحمساً وتعلقاً بما تشوق له ، رغبة في الحصول عليه .

وأيضاً فإن الخوف من شيء ما يجعل الإنسان يهابه ولا يرغبه ويبتعد عنه حذراً من الوقوع فيه، وهذا شيء طبيعي لأن الرغبة هي التي تحسن الأشياء والرهبة هي التي تصورها بصورة سيئة يقول " **أسبينوزا** " : إننا نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصريتنا[١].

كما أن التأثير بالترغيب والترهيب يتفق مع فطرة الإنسان وطبيعته المحبة للثواب والنعيم الكارهة للعقاب والبؤس .

إن القصص القرآني من خلال قصه يذكر هذا الفن للناس فهو يرغب في الإيمان بالله واتباع الرسول ﷺ ويبين أن ذلك هو منهاج النجاة من كل شدة وعذاب ويذكر أن الناجين دائماً هم المتبعون للرسل فلقد نجى الله أتباع نوح عليه السلام يقول الله تعالى ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[٢].

ونجى أتباع هود عليه السلام يقول تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[٣].

وعلى هذه الوتيرة في الإنجاء جرى الأمر مع أتباع الرسل كلهم لأن إنجاءهم يخضع لقاعدة يجب أن تبقى واضحة وقد عرفها لنا الله بقوله ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

يقول أبو السعود : في هذه الآية تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان[٥] ويشير الرازي إلى أن قوله تعالى " حَقًّا " يفيد وجوب الإنجاء بسبب الوعد لأن تخليص الرسول والمؤمنين معه من العقاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من

---

(١) الخطابة صـــ٨٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٢ .

(٣) سورة هود الآية ٥٨ .

(٤) سورة يونس الآية ١٠٣ .

(٥) تفسير أبو السعود جـــ٢ صـــ٣٥١ .

الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة [١].

وكما أن الاتباع يستلزم النجاة فهو أيضاً طريق التمكن في الأرض والتمتع بخيرها والأمن والهدوء فيها، كوعد الله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾[٢].

وما أعطى الله الذين سبقوا هذه النعم الغالية إلا لأنهم يعبدون الله وحده ولم يشركوا به وقد وضح تنفيذ هذا الوعد جلياً مع بنى إسرائيل أتباع موسى عليه السلام فلقد ورثوا أرض الشام بما فيها من خير وبركة يقول الله تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ ﴾[٣].

وكما أن الاتباع سبيل إلى الإنجاء والتمكين فهو أيضاً سبيل النصر .

ولا يقتصر الترغيب على الإيمان بالله وتصديق الرسول ﷺ بل إنه يتعدي ذلك إلى الترغيب على سائر الطاعات والأخلاق الفاضلة إذ يجعلها من أوامر الرسل في أقوامهم حين يأمرون بالعبادة الحقة والأخلاق الفاضلة من أمثال الوفاء بالوعد، وإيفاء الكيل، والعدل – والاستقامة – والعفة وما دام مطيعو الرسل في نجوة وتمكين وانتصار بسبب طاعتهم فإن المستمعين للقصص يحبون الخير، ويريدونه ويطيعون الرسول ﷺ فيه .

وكما يرغب القصص في الخير، يخوف من غيره حين يبين عاقبة المكذبين للرسل، الكافرين بالدعوة الموجهة إليهم، وهو عذاب رهيب بحق يدفع العقلاء إلى الابتعاد عنه بتجنب كل ما يؤدي إليه، فيصدقون الرسول ويؤمنون بالدعوة، لأنهم لو كذبوا فسيأتيهم ما أتى ثمود وعـــاداً من عذاب بينه الله تعالى في قوله سبحانه ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٥ صـ٤٦ .

(٢) سورة النور الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .

عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[١].

يفسر الزمخشري طاغية ثمود بالواقعة المجاوزة للحد من الشدة، والريح الصرصر بأنها الشديدة الصوت والعصف والعتو والنحس والاستمرار حتى صرعتهم وقطعت رقابهم [٢].

ولو أجال العاقل فكره في سائر الأمم المكذبة لعلم يقينا أن العــذاب الذي وقع عليهم عجزوا عن مقاومته رغم شدة قوتهم وتمكنهم من آثار الأرض .

إن الواجب على العقلاء أن يجيلوا فكرهم في قصص السابقين ويتدبروا فيه فما ذكره الله إلا لأجل إفادتنا .

إن القصة التي جمعت عناصر الأسلوب في إبلاغ الدعوة وملكت قوة التأثير بلفظها ومعناها لجديرة أن تكون مع الدعاة دائماً، فهي كما يقول الرازي تهدي إلى الدين وترشد إلى الحق وتأمر بالنجاة [٣].

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٥ إلى ٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ٤ صـ١٤٩، ١٥٠ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٧٠٢ .

المبحث الرابع
الدعاة والقصة

على الدعاة في العصر الحديث وهم يواصلون تبليغ الدعوة أن يستعينوا بكل ما في القرآن الكريم من دروس وعبر، وفى القصص القرآني العديد من هذه الدروس .

إذ تصلح القصة بذاتها درساً إلهياً يتجه به الداعية مباشرة إلى الناس يقصها بتفاصيلها، ويأخذ العبر من أحداثها، وحواراتها، وموقف الأشخاص وما حل بهم فيها .... ومن المعلوم أن الاعتبار بالقصة قوي الأثر، شديد المفعول .

وتصلح أجزاء القصة وحدها للاستشهاد على المعنى الذي يريده الداعية من المدعوين في موقف أو حال، أو هدف .

على أن أبلغ الفائدة تكون في معرفة حقيقة الإنسان وصفاته الإنسانية من خلال القصص، لأن هذه المعرفة تمكن الدعاة من وضع مخططهم وفق حال الناس، والدعوة بالمنهج الحسن الجميل، وعدم التصادم المباشر مع المعاندين الجاحدين.

ومن إعجاز القرآن الكريم في قصصه أنه قدم صوراً واضحة لحقائق كل أفراد النوع الإنساني ... الذي يمكن الداعية من النجاح، ويسهل له العمل .

ولعل ما في القصص من دروس تربوية يجعل الدعاة يهتمون بالرونق الجميل، والمظهر الطيب، مع تخير الموضوع القصير، وتكراره بأوجه مختلفة، وإبراز العواقب الوخيمة، والنتائج الطيبة ترغيباً وترهيباً للمدعوين .

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة ودستورها ويجب أن يستمر مدداً وزاداً للدعوة والدعاة على طول الزمن .

الفصل الثالث

القسم أسلوب للدعوة



تمهيد :

نزل القرآن بلغة العرب على وفق أساليبهم ليعجزهم بلفظه ومعناه ويحدث تأثيره فيهم على نحو يجعلهم يؤمنون به وبدعوته، ومن هذه الأساليب التي أوردها العرب أسلوب القسم الذي عرفه الناس قديماً واستعملوه تأكيداً لخبر، أو تعظيماً لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية، وقد أحس العرب الجاهليون بأهدافه ومراميه فاستعملوه في كلامهم وجعلوه دليلاً على إثبات الحق، يقول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء[١]

ويقول عبد الله بن الذئبة بعد هزيمة ذي نواس وحمير وخروجهم من اليمن:

لعمرك ما للفتي من مقر   مع الموت يلحقه والكبر

لعمرك ما للفتى من صحوة   لعمرك ما أن له من وزر[٢]

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها   وبالله إن الله منهن أكبر[٣]

ويقول عبيدة بن الأبرص :

حلفت بالله إن الله ذو نعم   لمن يشإ وذو عفو وتصفاح[٤]

فزهير يبين أن اليمين وهو القسم أحد أسباب ثبوت الحق، وعبد الله بن الذئبة يقسم بعمر محدثه على بعض الأمور التي لمسها من الحياة بعد انتهاء حكم حمير وطردهم من اليمن، وأوس بن حجر وعبيدة بن الأبرص يقسمان على أن الله أكبر من سائر الأصنام وأن الله ذو نعم كثيرة وعظيمة وأنه صاحب العفو والصفح والرحمة .

---

(١) النفار هو : المحاكمة إلى الحاكم، الجلاء وضوح البينة .

(٢) سيرة النبي جـ٢ صـ٣٩، ٤٠ صحوة أي نجاة بالصراء، وزر أي ملجأ .

(٣) الأصنام صـ١٧ .

(٤) الشعراء الصعاليك صـ٢٩٨ .

والقسم العربي بإيجازة وقصره يلائم الطبع العربي الفصيح الذي تكفيه الإشارة، وتقنعه اللمحة، ويستنتج بالهمسة، كما أن اشتمال القسم مع إيجازه الواضح على أركان عدة هي المقسم به، والمقسم عليه، وحرف القسم، مع مساهمة كل ركن في دلالة التركيب بصورة واضحة واستفادته منها إثباتاً أو نفياً، تعظيماً أو تحقيراً تعليماً وإرشاداً، يجعله موافقاً للمزاج العربي الذي يرغب في المعاني الكثيرة المتتابعة، ويتعشق الإفادة من الكلم القليل، ولذلك خاطبهم الله على وفق مزاجهم يقول الجاحظ : رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والحذف [1] مما يدل على ذكاء الغربي، واكتفائه باللفظ القليل ذي الدلالات الكثيرة .

ومن هنا كان ضرورياً أن تتضمن الأساليب القرآنية في البلاغ على القسم لما فيه من فائدة، ولم يكن عجباً أن وجد القسم بكثرة مع أول ظهور الدعوة في العصر المكي .

وفي هذا الفصل سأتناول – بإذن الله تعالى – دراسة أسلوب القسم القرآني من عدة جوانب حيث سأعقد لكل جانب مبحثاً وذلك فيما يلي :–

---

(١) القرآن وعلم النفس صـــ٦ .

المبحث الأول
مفهوم القسم القرآني

القسم هو الحلف واليمين، وفعله أقسم، جاء في لسان العرب أقسم بالله واستقسم به وقاسم له أي حلف، وتقاسم القوم تحالفوا، قال تعالى ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾[١] أي تحالفوا، وأقسمت أي حلفت، وأصله من القسامة قال ابن عرفة عند قوله تعالى ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾[٢]هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد رسول الله ﷺ .... والقسم اليمين، والقسامة الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون يمين القسامة[٣].

وجاء في المختار، وأقسم حلف وأصله من القسامة وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم، والقسم بفتحتين اليمين، وقاسمه حلف له[٤].

وجاء في المصباح المنير قاسمته حلفت له، والقسم بفتحتين اسم من أقسم بالله إقساماً إذا حلف، والقسامة بالفتح الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم [٥].

ومن كتب اللغة نرى أن القسم والحلف بمعنى واحد فهما مترادفان، لكن الاستعمال القرآني فرق بينهما من ناحية خفيفة ودقيقة – فلم يسند حلف إلى ذات الله تعالى بينما أسند القسم إليه، فقال ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[٦] وقال ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[٧] فالمسند المضمر في الآية يعود لله تعالى .

كما أن سائر الاستعمال القرآني للحلف يفيد الحنث والمخالفة ومنها قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [٨] جاء في تفسيرها قد يكـــون المـــراد من

---

(١) سورة النمل الآية ٤٩ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩٠ .
(٣) لسان العرب جـ٢ صـ٣٨١ مادة " أقسم " .
(٤) مختار الصحاح مادة " قسم " .
(٥) المصباح المنير مادة " قسم " .
(٦) سورة البلد الآية ١ .
(٧) سورة القيامة الآية ١ .
(٨) سورة الملك الآية ١٠ .

" **حلاف** " كذاب، وأنه في الكذب في أقبح حالاته، فهو يكذب ويدعم كذبه بالحلف بالله، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون أولادهم إذا سمعوهم يحلفون تعويداً لهم على الصدق، وتقويماً لأخلاقهم على الحق .

وهذا الملحظ الخفي يوحي لنا أن الترادف بين القسم والحلف ليس تاماً لأن في القسم قوة أوضح، وثقة أكثر، مما يجعلنا نذكر أن بينهما عموم وخصوص مطلق إذ يجتمعان في الإثبات وينفرد كل منهما في جانب آخر .

والقسم كأسلوب قرآني يتجه بأغراضه إلى المقسم به وإلى المقسم عليه وإلى أداة القسم

ومن الأغراض المتجهة إلى المقسم به ما يلي :-

١) **تعظيم المقسم به وتقديسه** : يتجه الغرض في أسلوب القسم أحياناً إلى المقسم به، من أجل تعظيمه وتقديسه كقوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

فأقسم بالرب مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ تعظيماً للمقسم به وتقديساً له سبحانه وتعالى فهو المربي ... والمعين، والمستحق لكل تعظيم، وهذا الغرض لا يجوز إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى .

٢) **الاهتمام بالمقسم به** : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو الاهتمام بالمقسم به كقوله تعالى ﴿ يسٓ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2].

ذلك لأن القرآن بوصفه الكتاب المنزل المعجز المتحدي به المشتمل على ما اشتمل عليه من تربية وتعلية وإسعاد يستحق أن يهتم به وبشأنه، فكان القسم به لبيان أهميته، وحتى يزيد الاهتمام به أكثر وصفه بالحكمة .

٣) **بيان أهمية المقسم به** : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو بيان دور المقسم به في دلالته على الهدف المقصود منه تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٢) سورة يس الآيات من ١ إلى ٣ .

(٣) سورة الليل الآيتين ١ ، ٢.

وهكذا سائر الصور التي يكون المقسم به فيها أمراً كونياً فإنها تدل على هدفها برمز بين واضح، فظهور الشمس رمز على وضوح الهدى، وغشيان الليل رمز على ظلمة الكفر والضلال، ولعل هذه الرمزية تتضح أكثر من جمع القرآن بين الشيئين المتقابلين حين يقسم بهما معاً كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[2] فإن هذا الجمع يدل على أن السنة جارية على أن الظلام مهما طال فلابد أن يعقبه نور وضياء.

٤) **بيان آثار المقسم به :** وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو لفت الأنظار إلى ما في المقسم به من أثر كقوله تعالى ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾[3].

فإن المقسم به المتعدد في هذه الآيات يشير إلى مواطن النبوات وأماكن ظهورها يقول الشيخ محمد عبده : وبالجملة فإن التين والزيتون كنايتان عن مواضع ليتناسب جمعها مع طور سنين وهذا البلد الأمين، فأقسم الله تعالى بالتين للتذكير بأمر نوح وما أهلك الله به أهل الفجور والفساد، وأنجى الله المؤمنين الصالحين، وأقسم بالزيتون تعبيراً عن زمن تعمير الأرض بعد نوح، وطور سينا إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وأقسم بالبلد الأمين تنويها بقدر مكة خاصة بعد ظهور النور المحمدي[4] وهكذا أقسم الله تعالى بهذه الأشياء إيضاحاً لآثارها الهامة وإشارة إليها .

ومع الأغراض العائدة على المقسم به توجد أغراض تعود على المقسم عليه ومن أهمها ما يلي :

---

(١) سورة المدثر الآيتان ٣٣، ٣٤ .

(٢) سورة الضحى الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) سورة التين الآيات من ١ إلى ٣ .

(٤) تفسير جزء عم صـ ٩٠ ، ٩١ بتصرف .

١- **تعظيم المقسم عليه** : قد يكون الغرض من أسلوب القسم تعظيم المقسم عليه كقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾[1] فإن هذا القسم يفيد تعظيم المقسم عليه وهو القرآن الكريم .

يقول الرازي عند تفسير كلمة " **لا أقسم** " في سورة القيامة أن " **لا** " لنفي **القسم فكأن** الله تعالى **يقول** لا أقسم بهذه الأشياء مع عظمها على إثبات المطلوب **فإن** المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه ويكون الغرض هو تعظيم المقسم عليه **وتفخيم** شأنه وإثبات أنه أحرى وأقوى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم[2] وقد **يدل النفي في** " **لا أقسم** " على توكيد القسم لا نفيه كما تقول لصاحبك موصياً إياه **مؤكداً عليه** الوصية تقول : " **لا أوصيك بفلان** " وأنت تريد توكيد الوصية .

وسواء أفادت الصيغة النفي أو التوكيد فإنها تعظم القرآن الكريم وتقدره .

٢- ثبوت المقسم عليه : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم بيان ثبوت **المقسم عليه كقوله** تعالى ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ فإن البعث من الحقائق التي تعرضت كثيراً للإنكار والشك **فأكد الله ثبوته بالقسم عليه و**أقسم بالرب مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ **على أن البعث حقيقة ثابتة** مؤكدة .

٣- إبراز **المقسم عليه في عالم الحس : وقد يكون الغرض** من أسلوب القسم هو بيان تحقق المقسم عليه وإبرازه **في عالم الحس كقوله** تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾[3].

فإن نتائج السعي وعاقبته لا يعلمها إلا الله تعالى فأقسم عليها **بالليل والنهار** لتتضح وضوحها ويعلمها الإنسان كرؤيته الليل والنهار .

<u>أما أداة القسم</u> : فإنها تأتي ملاصقة للمقسم به للإشارة إلى أن **المقصود** منها هو إيصال الإقسام بالمقسم به إلى المخاطب لتحقق الفائدة المرجوة **مباشرة**.

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ٧٥ إلى ٧٧ .

(٢)تفسير الرازي جـ٣٠ صـ٢١٥ ط دار الفكر .

(٣) سورة الليل الآيات من ١ إلى ٤ .

ويجب أن يعرف أن كلا من المقسم به والمقسم عليه لا يستقل به الغرض منفرداً لأنهما جزءان في جملة واحدة وهما اللذان صبغاها بأسلوب القسم وأعطياها سمات هذا الأسلوب وتعاوناً معاً في تحقيق الأغراض والنتائج .

ويجب أن يعرف كذلك أن صيغة القسم الواحدة قد تجمع أكثر من غرض واحد وذلك يظهر بالتدبر والنظر .

المبحث الثاني
القسم أسلوب للدعوة

يعتبر القسم أسلوباً هاماً من الأساليب إبلاغ الدعوة بما فيه من خصائص ومميزات نوضحها فيما يلي:

أولاً :

يبصر أسلوب القسم الداعية بنفسه، ويعرفه مقامه الكبير، ويطلعه على ضرورة الصبر وعدم اليأس ذلك لأن الداعية مع عظم دوره وأهميته للناس يتعرض للإيذاء الكثير، وتلك حقيقة يجب أن لا تغيب أبداً فقد حدثت مع النبي ﷺ الداعية الأول، ومن هنا قال الله له ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[١].

فخاطبه في هذه الآية مقسماً بحياته مؤكداً له أن الكفار في الضلال تائهون، وهذا شرف ما بعده شرف وتعظيم لمقام النبي ﷺ أتى في حينه لكي يرد به أكاذيب القوم، ويبعد عن نفسه اليأس الذي اقترب من نفسه بسبب مضايقات المكذبين، وموضع الآية في القرآن يؤكد ما وردت له لأنها ذكرت في ثنايا قصة قوم لوط عليه السلام تسلية للنبي ﷺ وتهديداً لكفار مكة كي يعتبروا بما أصاب قوم لوط، وتعظيماً كاملاً لمقامه ﷺ لأنه لو لم يقدره الخلق فقد قدره الخالق سبحانه وتعالى، وها هو سبحانه وتعالى يقسم بحياته ويعظمه .

وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن نجد الله يقسم على أن محمداً هو الرسول بحق ومن أمثالها قوله تعالى ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٢].

ثم إن أسلوب القسم يبين أن على الداعية أن يثق في النصر النهائي، والنفع المحتم فيقول الله تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٣] فيقسم سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الحجر الآية ٧٢

(٢) سورة يس الآيات من ١ إلى ٣ .

(٣) سورة العصر الآيات من ١ إلى ٣ .

بالعصر وهو الوقت الذي تجب فيه الصلاة، أو الزمان الذي تقع فيه حركات الناس وأعمالهم أن الإنسان خاسر حتماً ما لم يتصف بصفات أربع هي :

الإيمان، والمداومة على العمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر [1].

فمن اتصف بهذه الصفات نجا و فاز ومن بعد عنها فهو من الخاسرين، وهذه السورة المؤكدة بالقسم يأخذ منها الداعية لنفسه ولأتباعه ولأعدائه، فلنفسه يداوم على الإيمان والعمل الصالح، ويوصى بالحق والصبر، ويعلم أن نصر الله وفوزه في ذلك فقط، ولأتباعه يدلهم على طريق النصر والتمسك به، ولأعدائه يعلم أنهم من الضالين الهالكين ويحذرهم مما هم فيه .

وهكذا يعرف الداعية بواسطة القسم دوره، ووعد الله في نصره هو وأتباعه، أما أعداؤه فلسوف تدوم سكرتهم حتى يأتيهم الهلاك والتدمير .

وأسلوب القسم – ثانيا –

يبصر بالدعوة ويبين دعائها الأساسية، بشكل مفصل ثابت أمام الدعاة والمدعوين لكى تكون حركة الجميع على بيان ووضوح .

ودعائم الدعوة الأساسية أمران هما الإيمان بالله، والتصديق بالرسول، وقد أحاط القسم بهما في وضوح .

فعن الأساس الأول : وهو الإيمان بالله، يعرفنا القسم به عن طريق القسم بذاته سبحانه وتعالى يقول تعالى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[2].

فنجد هذه الصيغة تقسم باسم من أسماء الله تعالى وتشير إلى نعمه في الناس إذ هو المربي الذي يسوس الإنسان ويربيه ويدبره [3].

ولا يقف القسم عند حد الإقسام بالذات وصفاتها بل جاء القسم بآثار الله

---

(١) تفسير النسفي جـ٤ صـ٣٧٥ بتصرف .

(٢) سورة يونس الآية ٥٣ .

(٣) تفسير الفاتحة صـ ٢٧ .

مبرهنا على ضرورة الإيمان به بأدلة سهلة، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[١] ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾[٢] ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[٣] فإن القسم بهذه الأمور يبين أدلة الألوهية كلها لأن من نظر في بنيان السماء المنسق، وبسط الأرض المنظم، وخلق الإنسان المكرم، لعاش مع أدلة القدرة والغاية والكمال[٤] واندفع بواسطة إحاطته بهذه الآيات المشاهدة إلى الإيمان بالله الخالق لكل هذا، وبذلك يعطي القسم دليلاً بيناً واضحاً على أن الله واحد لا شريك له .

وأيضاً فإن المشركين والكافرين يأخذون من هذه الأقسام ردعاً لهم واستهانة بآلهتهم .

فلئن كانوا عبدة كواكب فإن القسم في الآيات يبين سقوطها وأفولها، وليس ذلك من صفات الإله، يقول الرازي : كان من المشركين من يعبد النجم فقرن الله بتعظيمه – عند القسم به – وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة لأنه هاو آفل[٥].

ولئن كانوا من عبدة النور والظلة فالآيات تبين عجزها، لأن الظلام يغشاه النور ويزيله، والنور يتجلى بزوال الظلام وكلاهما محدود متجدد متغير، وليس ذلك أيضاً من صفات الإله .

ولئن كانوا من عبدة البشر فالآيات تبين أن الله خلق الذكر والأنثى فكيف يكون المخلوق معبوداً ؟

ولئن كانوا من عبدة الأصنام فعليهم أن يلحظوا أدلة الألوهية الصادقة البادية في هذه الأقسام، ويعلموا أن أصنامهم جزء من الأرض التي طحاها الإله

---

(١) سورة النجم الآية ١ .

(٢) سورة الشمس الآيات من ٦ إلى ٨ .

(٣) سورة الليل الآيات من ١ إلى ٣ .

(٤) الفلسفة القرآنية صـ٩٩ .

(٥) مفاتيح القرآن الغيب جـ٧ صـ ٧٢٧ .

الواحد الخلاق لكل شيء .

وكما أقسم بذات الله وأفعاله تدليلاً على وجوب الإيمان بالله الواحد – نرى أن الصيغة أقسمت أيضاً على أن الله واحد لا شريك له يقول تعالى ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[١].

فترى في هذه الآيات أن القسم أتى بطوائف الملائكة التي صفت أنفسها للعبادة أو لانتظار أمر، والتي تزجر الشياطين عن استراق السمع، والتي تتلو آيات الله، وأقسم بذلك على أن الله واحد لا شريك له وقد اتصف بما يجعله خليقاً بالعبودية وحده فهو رب كل شيء من سماء منسقة، وأرض منظمة، وما بينهما في السماء أو على سطح الأرض أو في ثناياهما ... وهكذا يثبت القسم قضية التوحيد ويدلل عليها بما هو مشاهد محسوس .

وينبغي أن يعرف أن القسم في أدلته المذكورة راعي التنوع العقائدي الذي كان عليه الناس يوم ظهور الدعوة، ووجه أدلته إلى جميع الخلق، وأنه في هذه المراعاة كالقصة تماماً .

وعن الأمر الثاني وهو – **تصديق الرسول** – نلحظ أن القسم يناقشه على أساس موضوعي نابع من مواقف الناس، ذلك أن المعاندين وقفوا من النبي موقفاً عجباً، فهم لم يكتفوا بتكذيبه والصد عنه، وإنما أخذوا يتهمونه بضلال العقل، وسفه الرأي لأنه خرج عن مألوفهم وموازينهم فكان لابد للقسم من أن يرد على هؤلاء المعاندين من مواقفهم، ويثبت للنبي ﷺ أنه الرسول بحق يقول الله تعالى ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٢].

فيقسم على أن محمداً ﷺ رسول من رسل الله وفى ذلك رد لقول المعاندين بالدليل الواقعي لأنه ليس بدعاً في الرسل وهو منهم فكيف ينكر ويقول الله تعالى

---

(١) تفسير الفاتحة صـــ ٢٧ .

(٢) سورة يس الآيات من ١ إلى ٣ .

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

ليرد بهذه الصيغة اتهامات المعاندين حيث جمعت الآيات تأكيدات كثيرة لتنفي الجنون عن النبي ﷺ وتذكر أن العقل الذي تحلى به نعمة إلهية عالية، فإن إضافة لفظ الرب إليها مع إضافة ضمير النبي ﷺ إلى الرب أكبر دليل على أن الله تعالى قد أتم نعمة العقل لرسوله وسوف يرقيه إلى غاية لا غاية وراءها[2].

وهكذا نزه القسم القرآني رسول الله ﷺ مما نسبوه إليه حسداً وعداوة ومكابرة، وأكد له كمال العقل، وكمال الخلق، وكثيراً ما أكد القسم ضرورة الإيمان بالكتب المنزلة وبالملائكة وباليوم الآخر .

وهكذا يعرف القسم بأسس الإيمان، داعياً إلى تصديق الرسول ﷺ، راداً كل اتهامات المعارضين المعاندين، مؤكداً أن النصر ثابت له في الدنيا والآخرة .

ثالثاً – وأسلوب القسم –

يبصر بالناس ويوضح بعض الحقائق عنهم لكي يكون الداعية على معرفة بعادات المدعوين وغرائزهم، وبذلك يتلاءم معهم في دعوته فيوجه إليهم الأسلوب المناسب ويغير فيهم بمرونة وهدوء، ومن حقائق الناس ما يلي :–

أ) حب الإنسان للمادة :

جبل الإنسان على التعلق بالماديات وحبها والسعي في تحصيلها، والماديات هي متاع الحياة الدنيا كما أخبر تعالى في قوله سبحانه ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[3].

والآدمي دائماً يحب المال حباً جماً لأنه من زينة الدنيا، وهذه حقيقة يجب أن لا تغيب، وقد أقسم الله عليها ليؤكدها حيث قال تعالى ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞

---

(١) سورة القلم الآيات من ١ إلى ٥ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤ .

فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[١].

فأقسم بالخيل العادية التي يسمع صوت زفيرها، والتي تخرج الشرر بحوافرها أثناء العدو، والتي تغير على العدو صباحاً فتتوسط جمعه، وتهييج الغبار عنده من شدتها في مشيتها، أقسم بالخيل الموصوفة بهذه الصفات على مجموعة خصائص للإنسان ومنها " وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " أي يحب المال بقوة تجعله يتأثر أحياناً في عقيدته بسببه، ومن هنا ألف المال قلوب أقوام في الدين وبغضهم فيه، ذلك لأن المال محبوب بالطبع والعادة، وسبب الحب فيه أنه ثمن لجميع الأشياء، ومالكه كالمالك لجميع الأشياء وصفة المالكية هي القدرة، والقدرة صفة كمال، والكمال محبوب فلا جرم أن كان المال محبوباً[٢].

ب) تنوع الناس في الخير :

يختلف الناس في صفاتهم اختلافاً بيناً تبعاً لاختلاف البيئة والوراثة والثقافة وغيرها، وهم لطبيعتهم هذه يختلفون أمام نظرتهم إلى الخير في الدنيا، ومن ينتظر اتحاداً بشرياً مطلقاً في موقف واحد فهو يرغب في المحال، فمع الرسل اختلف الناس، ومع الطاعات كذلك يختلفون .

والقسم يبين هذا الاختلاف ويشير إلى أنه حقيقة في الناس يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾[٣].

ولعل هذا التقابل في المقسم به في كلمات الليل والنهار، ويغشى وتجلى والذكر والأنثى، مما يؤذن بوجود هذا التقابل في المقسم عليه إذ ينقسم الناس في سعيهم إلى فريقين متقابلين فريق ﴿ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

يقول الشيخ محمد عبده : صدق بالحسنى أي بالخصلة التي هي أحسن من غيرها أي صدق بثبوت الفضيلة، والعمل الطيب وبالفرق بين الفضيلة والرذيلة

---

(١) سورة العاديات الآيات من ١ إلى ٨ .

(٢) مفاتيح الغيب حـ٢ صـ٦١٩ .

(٣) سورة الليل الآيات من ١ إلى ٤ .

وبين العمل الطيب والعمل الخبيث، وأعتقد بأن هناك خيراً وشراً، وأن من مزايا الإنسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر، فإن التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب، وهو مقدم في الترتيب الوجودي على بذل المال في سبيل الحق والرحمة، وعلى اتقاء المفاسد والخطايا لكنه قدم هاتين في الذكر عليه للاهتمام بهما ولأنهما الدليلان على تحقق الصدق ولأنهما ثمرته الذاتية [١].

والفريق الثاني ﴿ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي كذب بثبوت الفضيلة وبأنها أصل من أصول الإنسانية، وركن من أركان وجودها فلا يعرف إلا ما يلذ له ويمتعه في حاضره ولا يبالي بما عدا ذلك ضر غيره أو نفعه [٢].

وهكذا يفترق الناس مع الخير أياً كان إلى فريقين متباعدين متقابلين فريق معه، وفريق يناقضه، وعلى الداعية أن يبحث عن الاختلاف الموجود في المدعوين ويعرفه ليلاحظه حين يدعو الناس إلى الإسلام .

<u>جـ) إحساس الإنسان بنعم الله :</u>

نعم الله على الناس عديدة ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ وهذه النعم يلمسها الإنسان في نفسه فيعرف حين يبصرها أن قدرة الله حانية خافية هي التي تعطي، وهي القادرة دون غيرها على الإعطاء، والإنسان دائماً كان يستشعر هذه القوة في نفسه، ويتجه إليها في إبهام غير دقيق، ولذلك عبد القوى الطبيعية على أنها رمز على هذا المجهول الذي يخافه ويلمسه، وما منشأ الأديان الوثنية إلا من هذه النقطة، فلما جاء الرسل عرفوا حقيقة هذا المجهول، وأحاطوه تفصيلاً وبياناً ونادوا في الناس أن يعبدوا الله معطي النعم، وواهب الحياة، ومع ذلك ظلم الإنسان نفسه وجحد هذه النعم عن علم بها فلم يشكر معطيها وقد عرفنا القسم هذه الحقيقة من الإنسان فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[٣].

فأقسم بالخيل الموصوفة بالصفات المذكورة على أن الإنسان كافر بالنعمة

---

(١) تفسير جزء عم صـ ٧٧ .

(٢) نفس المصدر السابق صـ٧٨ .

(٣) سورة العاديات الآيات من ١ إلى ٧ .

لا يؤدي لها حقها، وهو في الوقت ذاته يشهد على نفسه بأنها كفرت بالنعم، ولم تشكرها، يقول الشيخ محمد عبده : غير أن الآية عامة والمراد منها ذكر حالة من حالات الإنسان الذي تلازمه في أغلب أفراده إلا الذين يروضون أنفسهم على الفضائل وهي حقيقة لا ريب فيها، لأن طبع الإنسان أن يستغرق فيما حضره، وينسى ماضيه، ولا يذكر مستقبله، ونتيجة النعم لدي هذا الإنسان ضرب آخر من القسوة، والجفوة ... والإنسان شهيد على جحوده هذا، لأنه يفخر به على من دونه بقوة حليته، وكثرة ماله، وقلما يفتخر بالمرحمة والبذل، وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر نعمه بل من آيات كفرها [١].

والواجب حين يدعي هذا الإنسان أن يذكر بهذه النعم مع مقارنته بمن حرم منها وبعد ذلك يطلب منه الواجب تجاه هذه النعم .

وأسلوب القسم – **رابعاً** –

موعظة حسنة لأن القرآن دائماً يقصد به الإقناع والإثارة بواسطة المقسم به بما فيه من مزية في نظر المستمع تجعله لهذه المزية يسلم بالمقسم عليه، وهو الدعوة المرجوة، إذ نرى التركيز فيه لا على الشيء الموجه إلى المدعوين مباشرة وإنما على المقسم به ليكون هو التكأة للوصول، والمؤكد على صدق ما بعده .

يقول الرازي : من الناس من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية مثل القسم، وذلك كالعربي الذي جاء للرســول ﷺ وســألـه عن نبوته ورسالته واكتفى في تحقيق تلك الدعوي بالقسم [٢].

وأيضاً فإن القسم القرآني مناصحة من الداعي، حيث يختار للمدعو ماله مزية ضرورية .

والموجودات المقسم بها في القرآن الكريم تعتبر في حد ذاتها دلائل إقناعية أخرجها الله في صورة الإيمان، وأقسم بها لكي يؤمن الناس بالمقسم عليه لينالوا

---

(١) سورة العاديات الآيات من ١ إلى ٨ .

(٢) تفسير جزء عم صـــ١٠٩ .

الخير الذي يرجوه الداعي لهم، وفى أسلوب القسم كذلك تذكير بالعاقبة لمن أطاع أو عصى .

وأسلوب القسم – **خامساً** –

يناسب طبيعة البشر وينطلق من بين فكرهم فالمقسم به دائماً هو أحد الأشياء التي يراها الإنسان دائماً من ليل أو نهار أو خيل أو نجم أو ضحى أو عصر ... إلخ والمقسم عليه دائماً يتعلق بأشياء يعيشها البشر مناقشة أو إيماناً أو كفراً ... وهكذا فهو أسلوب يثير الانتباه حول هذه الأشياء لينطلق من هذه الإثارة إلى الإيمان .

كما أن القسم ككل الصيغ الفنية للأساليب القرآنية يأتي مكرراً ومعجزاً ومشتملاً على الترغيب والترهيب من أجل تحقيق أثره .

المبحث الثالث

فنية القسم في إبلاغ الدعوة

يؤدي القسم دوره أسلوباً للدعوة صانعاً التأثير النفسي، والعاطفي بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معاً، الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها، وهذا التأثير في أسلوب القسم يأتي من عدة طرق نذكر أهمها فيما يلي :-

١) التهيئة النفسية :

تعود العقل العربي أن يؤثر الحلف فيه لإدراكه أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذي يبدأ باليمين، فإذا ما حلف إنسان على شيء ما لكان بذلك دالاً على أهمية الشيء واهتمامه به، وعن بعض الإعراب أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[١] قال : من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين [٢].

فكان لابد من استعمال هذا الأسلوب في الدعوة ليثير النفس تجاه المقسم عليه الذي هو في القرآن الكريم أحد عناصر الدعوة وأساسياتها، ومع أن القسم في ذاته يثير النفس ويؤدي إلى التصديق، إلا أنه في القرآن الكريم أدق بسبب اختياره لما يقسم به، وأكثر تهيئة للنفس في ترتيبه لما يقسم به .

أما دقته فإنه يأتي بما يصلح دليلاً حكيماً ويجعله مقسماً به في التركيب فالحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية مثلاً نزلت لتأييد قضية التحدي ليعلم المعارضون من العرب أن القرآن الذي يتحداهم بأقصر سورة مركب من حروف الهجاء التي هي أساس كلامهم، وما دام الأمر كذلك فليس لهم إلا التصديق بالرسول والإيمان بالله، ولكي يشير إلى هدفه من اختيار هذه الحروف أعقبها بالقرآن مقسماً به أيضاً فأقسم بالمتحدي به رغم أن حروفه من حروف الهجاء التي يكونون منها كلامهم، وذلك من أمثال قوله تعالى ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٣ .

(٢) الإتقان جـ٢ صـ١٣٣ .

ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[1].

حيث أقسم الله تعالى بالحرف وأقسم بالقرآن المتكون من هذا الحرف إظهاراً للتحدي، وقد أقسم الله في كتابه بالقرآن ست مرات في ثلاث منها سبق بحرفين مقسماً بهما معاً، مع يس مرة ومع "حم"مرتين، وفى اثنتين سبق بحرف واحد هما ص وق، وكأن الله تعالى يقول أقسم بما عجزتم أمامه وبالحرف الذي يشترك كلامكم والقرآن في التركيب منه .

وتأتي التهيئة النفسية في مثل هذا القسم بجعل المقسم به دليلاً واضحاً أمام المعاندين ليأتي المقسم عليه بعد هذه التهيئة مقبولاً بيسر .

وليس الشأن مع الحروف فقط بل أن كل ما أقسم الله به هو من الآيات التي تؤدي بالعقلاء إلى التوحيد والإيمان، وقد ذكر الله ثمان من الآيات البينات الواضحة الدلالة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

وهذه الآيات مسلمة عند سائر العقلاء تدور مع خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والسفن الجارية في البحر، والمطر النازل والأرض التي عاشت بالمطر، والحياة على الأرض، والرياح السائرة والسحب المسخرة.

وهي آيات يراها سائر الناس ويسلمون بأهميتها وضرورتها في كل مكان وزمان، هذه الآيات تأتي في أسلوب القسم مقسماً بها لتكون أدلة قوية موجزة مؤثرة، والعربي يفهم معني الألفاظ فور النطق بها كعادته الفصيحة ويدرك مراميها في سهولة وعمق .

وهذه الآيات دلائل كونية، والدليل الكوني عظيم فإذا ما كان القسم بالعظيم

---

(١) سورة ص الآية ١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

من عظيم دل في وضوح على أن المقسم عليه عظيم فتتهيأ النفس له وتستعد للقبول .

ويهيئ القسم القرآني النفوس أكثر حينماً يتخير حالات يهتم الناس بها ويرتبها ترتيباً يبرزها في صورة مثيرة ثم يقسم بها، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾[1].

وموطن الإثارة في هذا القسم أن العربي عاش في بيئة جافة نادرة المطر مما جعله يتطلع إلى السماء دوماً راجياً أن يرى سحابة يطمع في مائها، هذا التطلع جعل ذكر الرياح مثيراً فأقسم الله بها تعظيماً لما عظموا وتدليلاً بها على ما بعدها، ومع هذا التخير للمثير فقد رتبه ترتيباً يجعله أكثر إثارة فهو رياح تحمل الأبخرة حتى تصير سحباً، وتحملها إلى طبقات الجو العالية، وتجري بها في سهولة ويسر، وتنزلها مطراً مقسماً بين البلاد والعباد، فترى المقسم به هنا موضع اهتمام سابق وقد ساقه القسم بأوصافه المتعاقبة المبينة لرحلة المطر من الرياح من أول صعوده بخاراً حتى عودته مطراً موزعاً .

وحينما يسمع العربي هذا القسم تأخذه صورته البارعة التى مثلت حقيقة يعيشها العرب في بلادهم، وما دام يدرك أن هذه الصورة مقسم بها فلسوف يسمع ويتأمل في الذي جاء القسم لتأكيده والدعوة إليه .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾[2].

وموطن الإثارة في هذا القسم أن الخيل كانت درع العربي في حربه وسفره ومعاشه فأحاط بقيمتها، وقدرها فأقسم الله بها وهي في أعظم حالاتها وأشرف أعمالها، لأنها خيل نشيطة مندفعة عادية يسمع صوتها، وتخـرج النار من حوافرها، وتغير مبكرة لتفاجئ أعداءها فتثير الغبار، وتتوسط الجموع .

---

(١) سورة الذاريات الآيات من ١ إلى ٤ .

(٢) سورة العاديات الآيات من ١ إلى ٥ .

هذه الأوصاف بترتيبها المذكور تأخذ بلب المدعو وكأنه في معركة كالتي خاضها، أو رآها، أو سمع بها، وتجعله يضيف لتقديره الخيل المذكورة تقديراً أكثر، فإذا ما علم أن هذه الأوصاف سيقت للقسم فإنه لا شك سيسمع المقسم عليه مستعداً لقبوله والإيمان به .

ومن هذه الأوصاف المتسلسلة في المقسم به نرجح فيما ذكرنا وفى غيرها أنها أوصاف لمقسم به واحد، مراعاة لهذا الانسجام الذي بيناه، وتأكيداً على وحدة الموضوع وحفاظاً على التأثير الذي يكون أتم مع تمام الصورة وتسلسل أوصافها .

٢- التكرار :

من الحقائق المسلمة أن التكرار ضرورة ملحة حين يراد إقناع الناس بفكرة أو حملهم على سلوك معين، لأن هذا التكرار يساعد على التأثير المطلوب وتعميقه، ويمنع الاستجابة للتأثيرات المعاكسة .

وقد راعى أسلوب القسم هذه الحقيقة فكرر حين أنكر الناس، وأكثر في تكراره حين كذب الناس، وأقسم مرة واحدة إذا سلم الناس، وهذا ملحوظ بالنظر في القرآن الكريم إذ نرى القسم بطرفيه المقسم به والمقسم عليه في قضية التوحيد مثلاً يلحظ أن العرب لم ينكروها كلية فهم يعتقدون أن سائر الآلهة أقل شأناً من الإله الأكبر، ومن هنا لم يكرر القسم على الوحدانية واكتفى بمرة واحدة هو قوله تعالى ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾[1].

فيقسم على أن الله واحد ويكتفي بذلك مرة واحدة بسبب أن العرب لا يبتعدون عن ذلك كثيراً .

وأما في حالة إثبات قدرة ما للآلهة التي يتقربون إليها، في هذه الحالة لا يكتفي بمرة بل يبين في عدد من المرات أن الله وحده هو المربي، وهو المعين

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١ إلى ٤ .

وهو المصرف كافة الشئون، ومن هذه المرات قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١] وقوله ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾[٢] وقوله ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾[٣] .

ففي هذه الحالات يكرر القسم بلفظ " الرب " مضافاً إلى آثاره الدالة على حسن التربية وكرم العناية الواضحتين في الإنسان والسماء والأرض والمشارق والمغارب، لكنه تكرار قليل .

وفى حالة إكثار الناس من التكذيب وإصرارهم على الكفر، كتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامه بالكذب والجنون والسحر والكهانة .

في هذه الحالة يضاعف القسم من كثرته ويكرر حتى يتمكن من مجابهة هذا السيل المكذب الكافر، فيقول الله تعالى ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٤].

ويقول تعالى ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٥].

ويقول تعالى ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٦].

ويقول تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٧]

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ .

(٢) سورة يونس الآية ٥٣ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٢٣ .

(٤) سورة يس الآيات من ١ إلى ٣ .

(٥) سورة النجم الآيات من ١ إلى ٤ .

(٦) سورة القلم الآيات من ١ إلى ٦.

(٧) سورة الحاقة الآيات من ٣٨ إلى ٤٢ .

ويقول تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[١].

فهذه خمسة أقسام كلها تدور حول رسالة محمد ﷺ لتدفع معارضيها بشدة ففي الأولى تأكيد بأن الرسول واحد من المرسلين وليس بدعاً في رسالته .

وفى الثانية تأكيد بأنه في غاية الرشاد عقيدة وسلوكاً فما أعتقد باطلاً قط وما حاد عن الصواب أبداً .

وفى الثلاث الأخيرة يرد الاتهامات الزائفة التي يلصقونها به ﷺ .

والحقيقة أن قوله ﷺ لا كذب فيه ولا شعر ولا كهانه ولا جنون، وخلقه عظيم وسوف لا يترك الله قط كما أنه لم يتركه .

وبتجميع هذه الإثباتات الكثيرة حول النبي ﷺ ورسالته نجدها ردوداً كثيرة على ما أثاره المعارضون تناسب موقفهم المعاند الشديد .

ومن حالات العناية الشديدة كذلك موقف الكافرين من القيامة والبعث حيث أنكروا ذلك، وأكدوا إنكارهم بالحلف واليمين، بعون الله تعالى : ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ ﴾[٢].

ويقول سبحانه على لسانهم ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾[٣].

وهكذا أكدوا إنكارهم بالقسم ودللوا على شدة عنادهم وتمسكهم بكفرهم، ولذلك يرد الله عنادهم فيقسم بالبعث، والحشر، والسؤال، وبعض مشاهد القيامة لكي تتجمع هذه الإثباتات وتصنع دليلاً قوياً يرد العناد والضلال، ولهذا جاء القسم على إثبات القيامة والبعث في اثنى عشر موضعاً من القرآن الكريم .

ولعل نزول غالب أقسام القرآن في مكة لأكبر دليل على دور القسم في رد الكفار المعاندين وتأثيره في نفوسهم وعقولهم .

---

(١) سورة الضحى الآيات من ١ إلى ٣ .

(٢) سورة النحل الآية ٣٨ .

(٣) سورة ق الآية ٣ .

٣- الترغيب والترهيب :

راعي القسم هذا النوع من الخطاب ليتمكن من أداء دوره في الدعوة والبلاغ، ولذلك نراه يذكر الإنسان بما ينتظره بعد الموت، ويعرفه بحتمية يوم القيامة، وبضرورة البعث والحساب والجزاء لينتظر مقره في الآخرة إما في الجنة وإما في النار، وبذلك يؤثر القسم في الناس لأنهم حين يسمعونه يخافون من ترهيبه، ويطعمون في ترغيبه، ويتمسكون بالحسنى ليصلوا إلى الفوز والسعادة، ولأهمية هذا النوع في الخطاب نراه في المقسم به والمقسم عليه حيث أقسم الله تعالى بيوم القيامة في قوله تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[(١)] وفى قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾[(٢)] وأقسم عليه في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[(٣)] وفى قوله تعالى ﴿ وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ۝ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ۝ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ۝ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾[(٤)].

وكما أقسم الله على القيامة أقسم على الحشر فقال تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾[(٥)].

وأقسم على البعث قال تعالى ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[(٦)].

وأقسم على السؤال والحساب فقال تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٧)].

---

(١) سورة القيامة الآية ١ .

(٢) سورة البروج الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) سورة سبأ الآية ٣ .

(٤) سورة الذاريات الآيات من ١ إلى ٦ .

(٥) سورة مريم الآية ٦٨ .

(٦) سورة التغابن الآية ٧ .

(٧) سورة الحجر الآية ٩٢ .

وأقسم على العذاب فقال ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[1].

وأقسم على أهوال يوم القيامة فقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[2].

إن العقل العربي الذي يهزه القسم يخرج من هذه الإيمان متذكراً القيامة بأهوالها، وما أجدره حينئذ أن يتذكر ذلك ويعلم أن يوم القيامة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإنه إن تذكر ذلك وعلمه فهو بلا شك سيتبع الصراط السوي المؤدي إلى الخير والجنة، وسيترك ما عداه بعداً عن النار والشر .

٤- الموافقة الحسنة بين طرفي القسم :

يقوم القسم القرآني بتأثيراته في مخاطبيه بدقة رائعة ذلك أن الله سبحانه لا يقسم إلا بما هو معروف للمخاطب لأنه كالدليل لما يقسم عليه، فناسب أن يقسم بالظاهر على الخفي، ولهذا كان المقسم به دائماً مما يلامسه المخاطب ويعرفه، وحتى عندما يكون المقسم به مما ينكره المدعو نرى القسم يأتي بجانب مسلم فيما هو موضع الإنكار .

ومن ذلك ما نراه حين أنكر العرب رسالة محمد ﷺ مع تسليمهم بكمال صفاته الشخصية حتى قبل البعثة، في هذا الوضع يأتي القسم بعمر النبي ﷺ الزمني وحياته في الدنيا ولا يقسم برسالته أو نبوته فيقول تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3].

فترى القسم يأتي بالجانب المسلم في حياته ﷺ ويترك ما عداه .

---

(١) سورة الطور الآيات من ١ إلى ٨ .

(٢) سورة الانشقاق الآيات من ١٦ إلى ١٩ .

(٣) سورة الحجر الآية ٧٥ .

ومن ذلك ما نراه حين يكون المقسم به هو القرآن الكريم، فمع أن العرب ينكرون إنزاله إلا أن أسلوب القسم يعرف القرآن بوصف له مسلم عند العرب لا يستطيعون إنكاره، فيقول تعالى ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[١] فإن العرب بسماعهم للقرآن يعلمون أنه متضمن للحكمة التي اتصف بها وإن كفروا بإنزاله.

ويقول تعالى ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[٢] والذكر في القرآن الكريم أمر مقرر حيث انه شرف للعرب خلد لغتهم، ومجد صفاتهم.

ويقول تعالى ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾[٣] فإن المتأمل في القرآن يرى المجد واضحاً في تعاليمه.

ويقول تعالى ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[٤] والبيان القرآني واضح حيث أن دلالة لفظه على معناه بينة ظاهرة .

وهكذا لا يقسم الله إلا بما هو واضح ومعروف يقول ابن قيم الجوزية : أما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم الله بها ولا يقسم عليها [٥].

ومع أن الوضوح باد في المقسم به إلا أن الدقة القرآنية تأتي بمقسم عليه مناسب للمقسم به، وبينهما علاقة قوية ورابطة سليمة تجعل المدعو ينتقل تلقائياً مما هو معروف له إلى ما هو غير معروف لأن سوق المقسم به يجعل المقسم عليه يشبهه تماماً فلابد من فهمهما معاً والتصديق بهما على مستوى واحد .

ونذكر توضيحاً لذلك بعض الأمثلة :

يقول تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[٦].

---

(١) سورة يس الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة ص الآية ١ .

(٣) سورة ق الآية ١ .

(٤) سورة الزخرف الآيتان ١ ، ٢ .

(٥) التبيان في أقسام القرآن صـــ٢ .

(٦) سورة الواقعة الآيات من ٧٥ إلى ٧٧ .

فالمقسم به هو مساقط النجوم الكثيرة المنافع حيث نعرف به السير السليم في ظلمات البر والبحر، والمساقط هي المغارب، وفائدة القسم بها، معرفة أن لها مؤثراً جعلها تغرب، وهو الله تعالى والمقسم عليه هو القرآن الكريم المقروء على سيدنا محمد ﷺ الجم المنافع، المنزل من اللوح المحفوظ، المعجز لفظاً ومعنى ليعلم الجميع أن منزله هو الله تعالى، والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه هي أن كليهما أثر من آثار الله تعالى، ومنافعهما كثيرة للبشر، وأن كلا منهما مصدر هداية، فالكواكب مصدر هداية حسية، والقرآن مصدر هداية معنوية.

وطريقة التأثير هنا أن يصدق المدعو بالقرآن وصفاته لأنها ليست غريبة عنده فقد تقدمها ما يشبهها وقد سلم بها حيث يشاهد الكواكب بأوصافها كثيراً، ويتمتع بمنافعها .

ومن هذه الأمثلة قوله تعالى ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1].

والمقسم به هنا نور وضاح متلألئ يعقبه الليل المظلم فهما حالتان متقابلتان للزمان، والمقسم عليه بيان بأن الله تعالى لم يترك النبي ﷺ ولم يبغضه، وإنما انقطع الوحي فترة لحكمة أرادها الله تعالى، والمناسبة بينهما أن انقطاع الوحي فترة لا يعد ضرراً قط لأن مجيء الوحي وانقطاعه حالتان صغيرتان كمجيء النور والظلمة .

وطريقة التأثير هنا أن يقف المعارضون عند حد، ولا يتمادون في أكاذيبهم، فما انقطاع الوحي إلا لتهدئة فؤاد النبي ﷺ بعد أن ارتجف حين ضمه جبريل إليه لأول مرة، وبعد التهدئة يأتيه الوحي من جديد، تماماً كما هو معروف من أن انقطاع ضوء الضحى ليأتي ظلام الليل أو بالعكس وذلك له فائدة جليلة، فالليل للهدوء والسكن، والنهار للنشاط والحركة، ولو كان الزمان

---

(١) سورة الضحى الآيات من ١ إلى ٣ .

كله نهاراً أو ليلاً لما سارت الأمور، ولتوقفت الحياة فأقسم الله تعالى بحالتين من حالات الزمن فائدتهما واضحة لتأكيد أن تغير الوحي مع النبي ﷺ إلى حالتين كان لما لهما من فائدة، والتصديق حينئذ بهذه الطريقة سهل، لأن التصديق بالمقسم به معروف حساً والمقسم عليه يشبهه في التغير والفائدة معنى فحق الإيمان والتصديق بمحتواه .

يقول ابن قيم الجوزية : تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس وهذان للعقل [١].

ويقول الرازي : كأن الله تعالى يعرفنا أن الزمان ساعة فساعة، ساعة ليل وساعة نهار ثم يزداد فمرة تزداد ساعة الليل وتنقص ساعات النهار ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلي بل للحكمة، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولا كان الحبس عن قلي [٢].

ومن هذه الأقسام قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾[٣].

والمقسم به هو رياح عذاب أرسلهن الله تعالى فيعصفن، وبرياح رحمة نشرت السحاب في الجو ففرقن بينه ذكراً للمعتذرين بالتوبة وللعاصين بالكفران، والمقسم عليه هو أحقية مجيء يوم القيامة، والمناسبة بينهما أن الرياح تغير صورة الطبيعة وتحولها إلى شيء مناقض، لصورتها الأولى تماماً كيوم

---

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ٧٢ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٨ صـ٤٤٧ .

(٣) سورة المرسلات الآيات من ١ إلى ٧ .

القيامة حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وطريقة التأثير بهذا القسم أن يصدق المخاطبون بيوم القيامة فالحديث عنه ليس شاذاً لأنهم يرون أمام أعينهم السماء صافية، والشمس ساطعة، وبعد لحظة وجيزة تأتي الرياح عاصفة، ويبدو الجو داكناً فتتمحي النجوم، وتنسف الجبال، وهذا يقرب صورة يوم القيامة بما فيه من فناء الخلق، وطمس النجوم، ونسف الجبال .

إن القسم وهو يراعي المناسبة بين طرفيه يهدف إلى البيان المؤثر، والتدليل السهل، ووضع المستمع أمام نفسه، فليس له أن يصدق بشيء ويكذب بنظيره تماماً، وليس له كذلك أن يكذب بهما معاً لأن المقسم به دائماً يكون من المسلمات الحسية التي تواتر صدقها ومن هنا لا يجد المخاطب إلا التصديق بالمقسم عليه .

وهكذا يقوم القسم بدوره في البلاغ بعد تمتعه بخصائص الأسلوب واشتماله على الطرق المؤثرة على النحو الذي وضحناه .

الفصل الرابع

المثل أسلوب للدعوة



تمهيد :

استعمل العرب المثل في كلامهم وأرادوا به الشيء العجيب المدهش في صفته وحقيقته، وكثيراً ما أتوا به على صورة التشبيه بأركانه، وفى أحيان أخرى أتوا به مشبهاً مسبوقاً بلفظ " مثل " وفى حالة ثالثة يقصدون به المثل السائر المضروب لحالة سبقت حيث يشبهون مضربه بمورده إظهاراً للمضرب.

والمثل في كل أحواله يقرب المعاني ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع ويجعلها مع القرب والإثارة في وضع ثابت بالدليل وسواء أرادوا بالمثل في لغتهم الحقيقة أو المجاز فهو أحد أقسام علم البيان الاصطلاحي الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتم في تراكيب مختلفة .

والعرب لم تصنع أمثالها عبثاً بل لابد من أسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء وليس في كلامهم أوجز من المثل ولا أشد اختصاراً منه .

ومن الأمثلة العربية قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الــودائع

فترى وضوح الدلالة في قول لبيد حيث شبه المال والأهل بالودائع يلزم ردها لصاحبها ذات يوم .

ومنها قول العرب " **مثلك لا يبخل** " أي أنت بصفتك العجيبة وأوصافك العظيمة لا تكون بخيلاً، ومنها ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره " **أخفى من الذرة، وأطيش من الذباب، وأضعف من فراشة** " [(١)].

ومن الأمثلة العربية قولهم " **إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر** " وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور الذي لا يغيب والأصل فيه أن بني ثعلبه بن سعد بن ضنبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر، فقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس.

وقال غيرهم خلاف ذلك.

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١ صـ٣٥١ .

فتراضوا برجل جعلوه حكماً فقال واحد منهم : إن قومي يبغون عليّ ورووي له ما حدث، فقال الحكم هذا القول فذهب مثلاً يضرب على وجود حقيقة في كل مسألة لا يختلف فيها أحد لأن الحقيقة لا تغيب (1).

ومنها قول الشاعر :

لا تقطعن ذنب الأفعي وترسلها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

ويضربونه للحث على ضرورة اجتذاذ الشر من جذوره حتى لا تقوم له قائمة ثانية بعد ذلك .

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الأمثال المختلفة جرياً على لغة العرب ، ليأخذ عقول العرب، ونفوسهم من حيث إلفهم، وفهمهم، وحتى يضعهم أمام الحقيقة فلا يجدون مفراً من التسليم بها .

والأمثال القرآنية هادفة ولها أثرها في تبليغ الدعوة ولذا جاءت كثيراً في كتاب الله العزيز .

---

(١) المثل السائر صـ١٠ .

المبحث الأول
مفهوم المثل القرآني

المَثَلُ والمِثْلُ والمثيل الشَبَه والشِبْه والشبيه وزناً ومعنى في الجملة[١] وقيل المثل بفتحتين معناه الوصف ومنه قوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾[٢].

أي وصفها هكذا وبالكسر معناه الشبه[٣].

والمثل القرآني يكون حقيقة فيطلق على نفس الشيء وذاته، كقول الله تعالى ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[٤] أي كمن هو في الظلمات وكقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾[٥] أي حكايتهم كواقعها وكقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾[٦] أي طريقة خلقه كطريقة خلق آدم في الغرابة والبشرية .

وإنما أطلق على الحقيقة اسم المثل لكونها مشتملة على وقائع مثيرة بشكل واضح مؤثر، كأنها مثل مضروب، أو شبه بين، يقول صاحب المثل السائر : والوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها لما لها من دور في البيان والتوضيح[٧].

ويكون المثل فرضياً غير حقيقي فيأتي على صورة التشبيه كقـوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ ﴾[٨].

فشبه اليهود الذين كلفوا علم التوراة والعمل بما فيها ولم يعملوا فكأنهم لم

---

(١) المنار جـ١ صـ١٦٧ .
(٢) سورة الرعد الآية ٣٥ .
(٣) المصباح المنير جـ٣ صـ٩٩ مادة " مثل " .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .
(٥) سورة محمد الآية ٣ .
(٦) سورة آل عمران الآية ٥٩ .
(٧)المثل السائر صـ١٠.
(٨) سورة الجمعة الآية ٥ .

يحملوها بالحمار يحمل الكتب الكبيرة النافعة ولا يستفيد بها وقـد عقب القرآن على هذا التشبيه بقوله : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[١].

ومن هذه الصورة التشبيهية للمثل جاء تعريف صاحبي لباب التأويل وفتح البيان للمثل حيث عرفوه " **بأنه عبارة عن قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ويقول الشيخ محمد عبده مشيراً إلى هذا النوع من المثل : وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه** " [٢].

والمماثلة بين شيئين تفيد عموم المشاركة بينهما، فلئن كان الشبيه يشارك في الكيفية والمساوى يشارك في الكمية، والشكل يساوي في القدر والمساحة، فإن المماثلة تعم كل هذه المشاركة، ولذلك حسن تسمية التشبيه القرآني بالمثل لأن تشبيه القرآن فيه دقة وشمول .

والفرق بين المثل والتشبيه حينئذ أن المثل لابد أن يكون الأمر الجامع بين طرفيه متحصلاً بالتأويل أما التشبيه فقد يكون بيناً بلا تأويل أو محتاجاً إلى تأويل بسيط فكل تشبيه تمثيل، ولا عكس[٣] كما أن الوجه في التمثيل يؤخذ من جملة أو جملتين أو أكثر تضامت كلماتها حتى صارت خيطاً ممتداً ممتزجاً، تصور باختلاطها صورة خاصة غير الصورة التي توجد من وحدة كلمة واحدة على حده، أو من الكلمات مراعي فيها الانفراد والتعـدد[٤] وذلك كقـوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ

---

(١) سورة الجمعة الآية ٥ .

(٢) سورة المنار جـ١ صـ١٦٧ .

(٣)أسرار البلاغة صـ٧١ .

(٤) نفس المصدر صـ٨١ .

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

انظر كيف كثرت الجمل فبلغت عشراً لكنها تداخلت في بعضها حتى كأنها جملة واحدة والشبه أخذ بمجموعها .

والمثل الذي تضمنته الآية يعلق عليه عبد القاهر فيقول : من الأمثال ما لابد من وروده جملة يتقدمها مذكور يكون وروده مشبهاً به مع عدم إمكان حذف المشبه إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة [2].

ويأتي المثل وهو غير حقيقي أيضاً على صورة الاستعارة وحينئذ فهو عبارة عن " القول السائر الممثل مضربه بمورده " ويتفق هذا مع تعريف البلاغيين للمثل لأنه في اصطلاحهم **اللفظ المركب المستعمل في غيرها ما وضع له لعلاقة المشابهة بين مضربه ومورده مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي** [3].

انظر قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[4].

فقد ذكر الله أمر هذه القرية في حالتي إيمانها وكفرها وضربه مثلاً أورده للكافرين، ولأهل مكة لما بينهما من شبه، يقول الزمخشري : إن الله جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله إليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، أو يجوز أن تكون قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها فضربها مثلاً لمكة أنذرهم من مثل عاقبتها [5].

والمثل المضروب يأتي ذكراً لحال من الأحوال مشتملاً على ما يناسبها

---

(١) سورة يونس الآية ٢٤ .

(٢) أسرار البلاغة صـ٩١ .

(٣) المقصد في علم البيان صـ٢٠٤ .

(٤) سورة النحل الآية ١١٢ .

(٥) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٤٠ .

ويشابهها مبيناً من حسنها أو قبحها ما كان خفياً، وهو لذلك لا يكون إلا قولاً بديعاً فيه غرابة تجعله خليقاً بالقبول، وجديراً بالتيسير في البلاد، ومن هنا يقول أبو السعود : استعير لفظ المثل لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه.

ومنها قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[١] أي الوصف الذي له شأن عظيم وخطر جليل ومثل الجنة أي قصتها العجيبة الشأن [٢].

وأمثال القرآن تنقسم باعتبار آخر إلى قسمين :

أحدهما : ظاهر مصرح به .

والثاني : كامن لا ذكر للمثل فيه .

فمن أمثلة الأول قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[٣].

أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم ألفيء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم في عذاب [٤].

ومن أمثلة الثاني قوله تعالى ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[٥].

فإنه يشير إلى مثل كامن فيه تعرفه العرب وهو قولهم " خير الأمور أوساطها .

وكقوله تعالى ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[٦] فإنه يتضمن مثلاً كامناً هو قول العرب (الحية لا تلد إلا حية) .

---

(١) سورة النحل الآية ٦٠ .

(٢) تفسير أبو السعود جـ١ صـ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧ .

(٤) الإتقان جـ٢ صـ١٣٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ٦٨ .

(٦) سورة نوح الآية ٢٧.

وكقوله تعالى ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾[١] فإنه يتضمن مثلاً هو قول العرب : من جهل شيئاً عاداه[٢].

هذا وفى القرآن ألفاظ جرت مجرى المثل وهو ما يعرف بالمثل السائر ومنها قوله تعالى ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾[٣] يضرب وقت ظهور الشيء واتضاحه .

وقوله تعالى ﴿ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[٤] يضرب للمتعارضين، ورغم اختلافهم فالكل فرح بوجهته .

وقوله تعالى ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[٥] يضرب حين انتهاء متنازع فيه بأي وجه كان، وأشباه هذا كثير في القرآن الكريم .

وقد جاء ذكر المثل في القرآن كثيراً لما له من فائدة وأثر.

يقول أبو السعود : التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا، وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وأبرازها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء المنكر في صورة المعروف، وإظهار الوحشي في هيئة المألوف [٦].

وجاء في أسرار البلاغة " وأعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها،

---

(١) سورة يونس الآية ٣٩ .

(٢) الإتقان جـ٢ صـ١٣٢، ١٣٣ بتصرف .

(٣)سور يوسف الآية ٥١ .

(٤) سورة الروم الآية ٣٢ .

(٥) سورة يوسف الآية ٤١

(٦) تفسير أبي السعود جـ١ صـ٣٩ .

واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً .

فإن كانت مدحاً كان أبهي وأفخم وأنبل في النفوس، وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف.

وإن كان ذماً كان مسه أوجع وحده أحد .

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وبيانه أبهر، وكان شأوه أبعد وشرفه أجد.

وإن كان اعتذاراً كان إلى القلوب أقرب.

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلي الغياية، ويبصر بالغاية ويبرئ العليل ويشفي الغليل.

وقد اختير لفظ الضرب مع المثل لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً، ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه[1].

وقد يشتمل المثل على قصة وهنا يمكن أن نطلق عليها اسم " **القصة التمثيلية** " وهي تحمل في الغالب صورة فرضية سيقت لمجرد التصوير وإبراز المعقول في صورة المحسوس .

وسوف نبين أن القرآن أتى بأمثاله أسلوباً للدعوة في دقة بالغة وفنية مؤثرة عجيبة، ولسوف نبحثها بعون الله تعالى من ناحيتها العامة الشاملة لكل ما يطلق عليه اسم " مثل " حقيقياً كان أو غير حقيقي .

---

(١) المنار جـ١ صـ٢٣٦ .

المبحث الثاني
الأمثال أسلوب للدعوة

ساق القرآن الكريم أمثاله لتكون أحد أساليبه في إبلاغ الدعوة ولذلك نراها تشتمل على الخصائص التالية :

فهي أولاً :

لا تترك الداعية وحده أمام معارضيه المعاندين بل تمده بسلاح الصبر والتحمل، وتعرفه أن الابتلاء ليس مقصوراً عليه وحده .

إن المؤمنين السابقين أوذوا في سبيل عقيدتهم، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، ونزل بساحتهم كثير من العناء والتعب والجهد والمشقة فما زادهم ذلك إلا إيماناً فوق إيمانهم، وتسليماً بسلامة جهادهم وعملهم، يقول الله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

فهذه الآية تذكر مثلاً من شأنه أن يقوي الإرادة، ويجعل المؤمن يتحمل المعاناة من أجل مبادئه، فما البلاء إلا ابتلاء نهايته فوز محقق، ونصر أكيد يقول أبو السعود: خوطب بهذه الآية رسول الله ﷺ والمؤمنون معه حثاً لهم على الثبات والمصابرة على مخالفة الكافرين، وتحمل المشاق من جهتهم، إثر ذكر ما لقي الأنبياء ومن معهم من مكايدة الشدائد ومقاساة الهموم، وكان عاقبة أمرهم النصر [2].

وحتى يملك الداعية ثقة بنفسه أمام المظاهر المادية التي يملكها المعارضون وفيها الجاه والمال، والمظهر، ضرب الله مثلاً للمؤمن ومثلاً للكافر يبين به ميزة المؤمن وأفضليته على الكافر فقال تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

فهذا مثل ضـــربه الله للمشرك حيث شـــبهه بالعبـــد يتولى أمره شـــركاء

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ١ صـ١٦٤ .

(٣) سورة الزمر الآية ٢٩ .

متنازعون متغالبون، لكل منهم رغبة واتجاه، مما يجعل العبد في حيرة وضلال، وضربه كذلك للمؤمن الموحد بالرجل الذي يلي أمره شخص واحد فقط فلا منازعة ولا مغالبة مما يحقق للعبد المؤمن الاستقرار والهدوء يقول الرازي : وهو مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد[1].

وهكذا يحمي المثل المؤمن بوضعيته في هذا الوجود فلا يتألم إن تعالى أمامه كافر معاند ويثق في النصر الإلهي له، والداعية من المؤمنين يكتسب منهم الصبر والتحمل واليقين .

والأمثال – ثانياً :

تبصر بالدعوة، وتوضح أساسياتها، وتعطي الداعية مبادئها لكي يعمل على هدى بها، وأول هذه الأساسيات معرفة الله تعالى، والإيمان به عن اقتناع كامل ويقين دقيق، وفى هذه النقطة يضرب القرآن الكريم الأمثال له موضحاً الأدلة السليمة لوجود الإله الحق سبحانه وتعالى، وهادماً للآلهة المزعومة المتعددة.

وهذا مثل يبين الله فيه أن الآلهة المدعاة لا تستحق أن تكون آلهة لأنها ضعيفة لا تخلق شيئاً ما، حتى ولو كان ضعيفاً، ولا تستطيع أن ترد عن نفسها إيذاء ولو من ضعيف هذا المثل يذكره الله في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[2].

ولقد بين هذا المثل ضعف الشركاء ومهانة سائر الآلهة المدعاة وعجزها، بصورة حية شاخصة أمام البصر والبصيرة، وذلك بأن صُدّر المثل بالنداء فقال تعالى "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ" فإذا ما اجتمع الناس بالنداء أخبرهم أنهم أمام مثل ضرب ليضع قاعدة، ويقرر حقيقة يجب أن يستمع لها، ويتدبر فيها، وهي أن الآلهة الكاذبة رغم تعددها وتنوعها، من صنم ووثن وأشخاص وكواكب وغيرها، هذه

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٢٦١ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٣ .

الآلهة جميعاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإيجاد الذباب كإيجاد غيره من المخلوقات الكبيرة الحجم، لأنها جميعاً تحتوي على الروح سر الحياة، ولكن القرآن الكريم اختار الذباب حين ضرب هذا المثل لأن العجز عن خلقه يلقى في الحس صورة الضعف بينة أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل مثلاً، ثم يعطينا المثل واقعاً واضحاً عن الضعف المزري لهذه الآلهة حين يذكر أن الآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها منها .

وفى مثل آخر يبين حقيقة الإله الذي يستحق التعظيم والعبادة ويضربه حين ذكره لمثل الرجلين في سورة الكهف حيث جعل الله تعالى لأحد الرجلين جنتين من أعناب محفوفتين بالنخيل، وبينهما زروع ونبات وأنهار، ولكن هذا الرجل يغتر ويكفر بأنعم الله ويقــول ما حكــاه الله عنه ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[١] وأعلن كفره صراحة بقوله ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[٢] هذا الوضع الغريب دفع صاحبه أن يخطئه في اتجاهه، ويشرح له أدلة الألوهية في خلقه، ويستنكر كفره وبعده عن الإيمان فيقول له ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[٣].

وهكذا يستمر المثل في روايته حوار الرجلين وفى النهاية يبين النتيجة الحتمية التي وجدها الكافر وكانت كما يقول تعالى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[٤].

وهكذا هلك ماله، وضاعت كل ثروته فأخذ في الندم ولات ســاعة مندم، وهذا المثل يبين دليل القدرة فيما خلق الله من إنسان وحياة، وكذلك في إهلاك من يريد إهلاكه، ويبين أيضاً دليل الكمال حيث أن المخلوقات كلها يوجدها الله كاملة،

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٥ .

(٢) سورة الكهف الآية ٣٦ .

(٣) سورة الكهف الآيات من ٣٧ إلى ٣٩ .

(٤) سورة الكهف الآية ٤٢ .

فالجنتان كانتا مثلين رائعين في الكمال والجمال، حيث الزرع والنخيل والأنهار والثمار، وتبين كذلك دليل الغاية لأن كل مخلوق له غاية فالجنتان آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً والرجل ﴿ خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾(١).

وهكذا يبين المثل كافة الأدلة القرآنية(٢) الدافعة إلى ضرورة الإيمان بالله أول أسس الدعوة .

ومع وضوح الأدلة نجد أقواماً يعيشون النعم ويسمونها، ثم يهملون الإيمان بالله وهنا نجد المثل يكشف حقيقة هؤلاء الناس ومالهم فيقول ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾(٣).

فالكافرون بسبب تعطليهم للحواس مثلهم كمثل الأنعام بل الأنعام أفضل بسبب أن الأنعام كما يقول أبو السعود : تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار، فتجتهد في جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل عن الخلود، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار، بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد(٤) ولذلك لا يستفيدون من الأدلة مهما تعددت أمامهم، مغالاة في اعتقادهم، وإلغاء لكل ما يسمعون وذلك كالنصارى الذين ادعوا أن عيسى عليه السلام لا يناظره شخص آخر لكونه وجد من غير أب وبالغوا في هذا الإنكار حتى أنكروا نبوة محمد ﷺ وتمسكوا بنبوة عيسى ووصلوا به إلى الألوهية فرد الله عليهم بقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٥).

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٧ .

(٢) يلاحظ أن القرآن يشير في أدلته إلى الكمال والقدرة والغاية ولم يستعمل أدلة الفلاسفة المعتمدة على الحدوث والإمكان .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(٤) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٤١٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

يصور المثل رداً مفحماً عليهم يقول ابن كثير : يذكر الله جل جلاله أن مثل عيسى في قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب، ثم قال له : كن فيكون، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى، لأن له أماً ومعلوم بالاتفاق أن دعواهم في ألوهية عيسى عليه السلام أشد بطلاناً وأظهر فساداً[١] عند ذوي الألباب .

إن إفحام النصارى في قولهم بألوهية المسيح يثبت الرسالة المحمدية، لأن القوم لو اعترفوا ببشرية عيسى عليه السلام وهو رسول لسلموا بإثبات الرسالة للبشر وتوقعوها من أي شخص معه المعجزة الدالة على صدق رسالته وقد جاءهم محمد ﷺ بمعجزات عديدة على رأسها القرآن الكريم .

ولذا كان العلماء يثبتون رسالة محمد ﷺ مع النصارى بالتدليل أولاً على أن المسيح بشر وليس إلهاً قط .

يقول الرازي : اتفق لي حيث كنت بخوارزم أن أخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم فذهبت إليه وشرعنا في الحديث .

فقال لي : ما الدليل على نبوة محمد .

فقلت له : أظهر الخوارق على يده كظهورها على يدى موسى وعيسى عليهما السلام، لأن الاستواء في الدليل يقتضي الاستواء في المدلول.

فقال النصراني : إن عيسى ما كان نبياً إنه كان إلهاً .

فقلت له : الكلام في النبوة لابد وأن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله، فمن هو النبي ﷺ الذي عرفكم بألوهية عيسى ؟ وأخذ الرازي يبين له بطلان قوله في ألوهية عيسى، ويثبت بشريته لأن إثبات بشرية عيسى عليه السلام مقدمة لإثبات نبوة محمد ﷺ [٢].

ويبين المثل أسـباب تكذيب الناس للرسـل ويرد عليهـم حيث يقول تعالى ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٣١ هامس فتح البيان .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٦٩٧، ٦٩٨ .

ٱلْمُبِينُ ﴾[1].

فيبين المثل سبب الكفر ويذكر أنه منحصر في كون الرسل بشراً لكن الرسل يردون بأن الكافرين مع إيمانهم بالرحمن إلا أنهم يكذبون بما أرسل الرحمن، ولو نظروا في البلاغ البين الواضح لعلموا أنه لا يكون إلا من الرحمن سبحانه وتعالى، وليس على الرسل إلا هذا البلاغ فلم يكفرون إذاً ؟

وأيضاً يثبت المثل قضية البعث فيقول تعالى ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

وهذا المثل ساقه الله تعالى لمن ينكر البعث كذلك الرجل الذي استبعده وقال عن القرية الخاوية مستنكراً : كيف يحي هذه الله بعد موتها؟... وكان المثل الشاهد في نفسه حيث أماته الله مائة عام وحماره معه، ثم بعثهما من جديد بعد المائة، فوجد الرجل طعامه كحاله يوم شرائه، فلما رأي ذلك آمن بالبعث وقال ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعلق الحكيم الترمذي على هذا المثل فيقول أمر الله هذا الذي تحيرت نفسه أن ينظر إلى حماره كيف أحياه فأراه بما حضره ما غاب عنه [3].

والأمثال – ثالثاً :

تبصر بالمدعوين، وتعرف بهم وبالدنيا التي يعيشونها، وذلك لكي تساهم مع بقية الأساليب في تبصير الداعية بالجو العام الذي يدعو فيه فيتصرف في رسالته على ضوء ما يرى، وبذلك يساهم المثل في البيان والبصيرة، ومن هذه المساهمة توضيحه لما يلي :

---

(١) سورة يس الآيات من ١٣ إلى ١٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

(٣) وسائل الترمذي المجلد الثاني صـ٩٢٧ .

١ – الجدل طبيعة إنسانية :

الإنسان جدلي بطبعه، ودائماً يثير المحاورة والمناقشة حول كل ما يعرض له، ولقد جادل الأقوام رسلهم وما آمنوا إلا بعد حوار طويل، وجدل كثير والجدل في الإنسان حقيقة بينها الله في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[1].

وهكذا جادل الإنسان رغم كثرة الآيات وشمولها ووضوحها، وملائمتها للطبيعة البشرية لأنها جاءت مناسبة لسائر الناس، ولو ترك الإنسان بحريته لآمن وصدق .

هذه الحقيقة عن الإنسان يبينها المثل في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[2].

يذكر أبو السعود في هذا المقام مثل ابن مريم ضربه ابن الزبعري على ما ورد في بعض الروايات حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[3] وقال أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال ﷺ : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم .

فقال اللعين : خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح يعبدون الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار قد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرح به قومه، وضحكوا، وثبتوا على ما كانوا عليه من الإعراض وقالوا : إن عيسى خير من آلهتنا فإن كان هو في النار وحاشاه، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا فيها[4].

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٨ .

(٤) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ٤٧ .

ولكن هذا القول كله جدل ومخاصمة لا يهدف الحق في شيء، لأنهم قوم أشداء في الخصومة، مجبولون على اللجاج كشأن الإنسان في كل حياته يقول تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

فرغم أن الله خلقه من نطفة إلا أنه سرعان ما ينسى الفضل، ويخاصم ربه بجدل باطل، كعادته المستمرة، المستقرة في طبيعته وغريزته .

٢- ضآلة الدنيا :

الدنيا فترة امتحان للبشر، والآخرة بعدها دار قرار، ونتيجة أعمال الدنيا تظهر في الآخرة، ومن هنا كان على الإنسان أن يقدر هذا الواقع ويقصر سعيه كله على أن يحافظ على سعادة الآخرة وأمنها، لكنه كثيراً ما يفتن بمباهج الدنيا، ويغتر بسيطرته عليها ويكفر بالله ونعمه، وينسى أن تملك الدنيا آية إلهية تدفع إلى الإيمان بدل الكفر، وتحيل على الواقعية بدل الضرر .

إن على الإنسان أن يعمل للآخرة، ويأخذ نصيبه من الدنيا وبهذا فقط يكون على الطريق المستقيم، لأن الدنيا قصيرة العمر قليلة النفع، والآخرة خير وأبقى، ولو أحس الناس يقيناً حقيقة الدنيا لآمنوا بالله وبسائر تعاليم الله ولذلك يبين الرسل للناس حقيقة الدنيا، وقد وضحتها الدعوة للناس أيما وضوح بكافة الوسائل .

جاءت أمثلة كثيرة توضح شأن الدنيا، يقول تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

فقد ضرب الله للدنيا مثلاً بالمطر ينزل فيختلط بالنبات فتتزين الأرض بألوان بهجة كالعروس، وهنا يغتر الإنسان صاحب هذه الأرض بجمالها وزخرفها ولا يذكر سواها إلا أنه فجأة تأتي نقمة عظيمة دفعة واحدة، في ليل أو نهار تهلك الزرع والثمار ، وهنا يتحسر المالك ويشتد حزنه، يقول الرازي: فكذلك من وضع

---

(١) سورة النحل الآية ٤ .

(٢) سورة يونس الآية ٢٤ .

قلبه على لذات الدنيا وطيباتها فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها[1].

وهذا المثل ضربه الله ليبين سرعة زوال الدنيا حتى لا يطمئن أحد إليها كما هو الواجب ويبقى عاملاً للآخرة التي هي دار القرار الحقيقي، ومن هنا كانت معرفة هذه الحقيقة عن الدنيا من أساسيات النجاح للداعي والمدعوين .

والأمثال – رابعاً :

موعظة حسنة لأنها تثير الانفعال، وتخاطب الوجدان وتصور المعقول بالمحسوس، وتغري على الخير، وتبعد عن الشر يقول الشيخ محمد عبده: ويأتي المثل عند إرادة التأثير وقصد الانفعال[2].

و يلجأ هذا الأسلوب إلى الممثل به الواضح المعروف سلفاً ليجعله دليلاً للمثل له وبذلك فهو إقناعي تلمح فيه المناصحة، والإرشاد، والدليل .

يقول الإمام السيوطى نقلاً عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل أو على مدح، أو نحوه فإنه يدل على الإحكام [3].

وهكذا يشتمل المثل على التذكير والوعظ ونتيجة العمل والمدح والذم مما يجعله موعظة حسنة.

وأخيراً يأتي المثل على قدر الطاقة البشرية من أجل أن يستنزل المعاني الصعبة ويجعلها في متناول العقل الإنساني وذلك في بيان معجز وترتيب عجيب .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٤ صـ٨٢٩ .

(٢) المنار جـ١ صـ٢٣٦ .

(٣) الإتقان جـ٢ صـ١٣١ .

المبحث الثالث
فنية المثل في إبلاغ الدعوة

جاء المثل في القرآن الكريم ليقوم بدوره كما أراد الله له كأحد أساليب الدعوة ولذلك اشتمل على عدد من الخصائص ومنها ما يلي :-

١) الدقة والواقعية :

الناظر في المثل القرآني يلحظ دقته الفريدة المؤثرة فهو دائماً لا يمثل بالغريب، وإنما يتخير من المحسوسات الموجودة، ويجليها بأوصافها، ويضعها في المثال شاهدة واضحة على ما يريد ذكره وبيانه، وفى الممثل به لا يضع وصفاً زائداً أو خيالياً لتكون صورته صادقة ملموسة، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

حيث يضرب الله هذا المثل ليبين أن قدرة الله هي القدرة، وما عداها من قوة فهو هزيل، ولا اعتبار له، والذي يتعلق بقوة غير قدرة الله تعالى فهو كالعنكبوت التي تتعلق بالواهي والضعيف، حيث تتخذ لنفسها بيتاً ضعيفاً واهياً، بل هو أضعف البيوت على الإطلاق، والكل يعرف ذلك أنى كان، لأن العنكبوت توجد في كل مكان، وتنسج بيتها فيه، ولذلك ضرب الله هذا المثل وكله دقة وواقعية، لأن ضعف العنكبوت وبيته لا ينكر كما أن وجوده معروف للجميع .

ومن علامة الدقة في الأمثلة القرآنية أنه حينما يضرب المثل بصورة غير موجودة بالفعل تجده يأتي بها صورة يمكن أن توجد حقيقة وذلك كقــوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ ﴾[٢].

فقد ضرب الله لليهود الذين كلفوا العمل بما في التوراة فأهملوها مثلاً بالحمار يحمل الكتب الضخمة النفسية الملأى بالعلم، ولا يستفيد بها، هذا المثل موجود، وإن لم توجد صورته في الواقع فهي ممكنه الوجود .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤١ .

(٢) سورة الجمعة الآية ٥ .

ومن هذه الدقة قوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾(١).

إذ أنه لا يوجد من يمنع وجود هذه السنابل بحباتها الكثيرة الناتجة من الحبة الواحدة على النحو المذكور، ولكي تكون هذه الواقعية أكبر في الدقة نجد المثل يذكر من الأوصاف والقيود ما يجعله مستساغاً سهلاً، فيبين كيف تتحول الحبة الواحدة إلى مئات من الحب وذلك لأنها تزرع فتنبت سبع سنابل وفى السنبلة الواحدة مائة حبة وهذا ممكن مشاهد .

ومع واقعية المثل نرى دقة وجه الشبه فيما ضرب المثل له، ووضوحه فيه أكثر من اتضاحه في الممثل به، لأن القصد من التمثيل القرآني هـــو الممثل له " وحده " كقوله تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

فهذا العبد المملوك لعدد من الرجال المتنازعين هو مثل الكافر المشرك الذي يعبد آلهة عدداً، وهو بشركائه واقع في حيرة في عقيدته وعبادته، ومناسكه واضطرابه أشد من اضطراب العبد المملوك المضروب به المثل لأن العبد يطيع من يأمره أياً كان، أما المشرك فإنه خاضع لباطل معطل للإرادة، مضيع للعقل، بلا معنى معين، أو مفهوم محدد، وهكذا الشأن في المثل المضروب للمؤمن لأن إيمانه بالله الواحد يعطيه ثقة وأماناً ورضى، كالعبد المملوك لرجل واحد مع وضوح الممثل به لأن الثقة في المؤمن أعمق وأشمل حيث تدور مع الظاهر والباطن وسائر عمله .

وهكذا يتضح وجه الشبه فيما ضرب المثل له، وهي ميزة مع الدقة تجعل المدعو يرى الصورة تواً، وفى بيان .

والمثل القرآني يترك مخاطبه بعد الدقة والوضوح يستنتج وجه الشبة شحذاً

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٩ .

لعقله، ومشاركة في العمل، وهذا من شأنه أن يدفع إلى الإيمان بحماس واقتناع.

كما أنه يضرب المثل أحياناً ويترك بعض جوانبه عمداً لكي يفكر المستمع فيها وذلك كقوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾(١).

حيث شبه أعمال الكافرين برماد طيرته رياح شديدة وفي يوم القيامة لا يجد الكافر أثراً لعمله، والمثل يذكر أنه لا أثر لعمل الكافر بينما الواقع أن له عقوبات كثيرة تركها المثل لكي يجتهد المستمع في تفحصها واستنتاجها وقد جاء الاستفهام عقب بعض الأمثال لهذا الهدف يقول الله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

والمثل مضروب للمؤمنين والكافرين فالمؤمن بصير سميع، والكافر أعمى وأصم، وبعد ضرب المثل أتى الاستفهام بـ " هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا " ؟

وهو استفهام إنكاري ينفي ما استفهم عنه ويثبت أن الفريقين لا يستويان أبداً، وهذا المنهج في النفي والإثبات أفضل من النفي ابتداء .

وهكذا تتضح بعض دقة المثل في صدق جوانبه ووضوح وجه الشبه في مضربه، واشتراكه مع عقل المخاطب في استنتاج بعض أهدافه، وهذا يؤثر في الإنسان حيث يجذب الانتباه إليه، ويجعله يربط بين الممثل به وله ويستنتج من خفايا المثل الكثير وكلها مفيدة للدعوة ولأهدافها .

٢- التأثير النفسي :

تستمد الأمثال القرآنية عناصرها من الطبيعة الإنسانية والكونية لتظل قريبة من الإنسان أياً كان، تعيش معه، وتؤثر فيه، ومن هنا فإن روعة التصوير التي بدت فيها ضرورية لها، وحتى يؤدي المثل دوره التأثيري تماماً رأيناه يعيش مع الحياة الكونية يقتبس منها صوره .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٨ .

(٢) سورة هود الآية ٢٤ .

فمن نباتها نرى الحبة تنبت سبع سنابل، ونرى الشجرة الطيبة والخبيثة، والزرع الذي أخرج شطأه .

ومن الحيوانات نرى الحمار والكلب.

ومن الحشرات نرى البعوض والعنكبوت .

ومن الطيور نرى الهدهد.

ومن الجماد نرى الرماد الصلد والجبل.

وإنما كان الأمر كذلك لأن القرآن الكريم لا يقصد الاهتمام بالممثل به بقدر ما يهتم باقتراب الصورة في نفس المدعو مع شدة وضوحها وتأثيرها .

هذا وإن بدأ في بعض الأمثال أنها غير مستمدة من الكون كقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾[1].

فإنها لا تبعد عن الطبيعة كثيراً لأن هذا المصباح ملازم لكل الناس حيث لا يستغني عنه أحد ووقود المصباح زيت، وغلافه زجاج .

ولأن الهدف هو التأثير النفسي نرى المثل القرآني حينما يقصد تحقير الشيء يضرب له المثل الذي يثير في النفس اشمئزازاً ونفرة كقوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

يقول صاحب المنار : واللهث التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش، أما الكلب فيلهث في كل حال، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه، وهي أخس أحواله وأقبحها، والمراد أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه في أسوأ حال تراه كلاهث من الإعياء والتعب، وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقير لا يتعب ولا يغني ولا تراه

---

(١) سورة النور الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥، ١٧٦ .

راضياً بما أصابه بل يزداد طمعاً وتعباً[١].

وهكذا يحقر المثل هذا الرجل بأن يمثله بالكلب في أسوأ حالاته، وهذا يؤثر في نفس المستمع تأثيراً يجعله يبعد عن صورة هذا الكافر ويفتح ذهنه للآيات والأدلة، وحينما يكون الهدف هو تعظيم ما ضرب المثل له نجد القرآن يحيط المثل بما يحقق هذه العظمة فيه كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

فيمثل الكلمة الطيبة عمت أو خصت بشجرة رائعة عظيمة لأنها عالية مثمرة منتظمة الثمرة، مطيعة لربها، لا يصيبها ضرر الرياح ، ولا تهدمها معاول الطغاة وما دام هذا شأن الكلمة فإن على الإنسان أن يتمسك بها .

٣) الترغيب والترهيب :

يهدف المثل إلى التأثير في المدعوين عن طريق ترغيبهم في الخير والثواب، وترهيبهم من الشر والعقاب، لأنهم بذلك ينفعلون وجدانياً، ويندفعون إلى الإيمان بالدعوة وتطبيق تعاليمها .

ويلجأ المثل إلى الترغيب والترهيب عن طريق استعراضه لطوائف الناس تجاه الدعوة وبيان ما لكل طائفة، وهذا منهج عملي يجعل المستمع يتمنى أن يكون مع الطائفة الناجية ويبتعد عن الطائفة الخاسرة .

إن طوائف الناس تجاه الدعوة ثلاث، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المنافق، هذه الطوائف يضع المثل لها ما يجليها ويبين قيمتها، وقيمة عملها .

يقول الله تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

وهكذا مثل القرآن هؤلاء الكافرين المقلدين بالبهائم التي تسمع صيحات

---

(١) المنار جـ٩ صـ ٤٠٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧١ .

راعيها ولا تفهم منها شيئاً ولا تعقل أمراً ولا نهياً، وهذا الكافر لا أثر لكل نشاطه الدنيوي، ونفقته هباء يقول تعالى ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾(1).

وهذا المثل يشبه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود عليهم منه نفع ما بحرث كفار ضربته ريح استأصله ولم يبق لهم فيها منفعة ما، بوجه من الوجوه وسائر عملهم ضياع يقول تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾(2).

والمراد من المثل تشبيه أعمال الكفار في ضياعه بالرماد الناعم الدقيق الذي لا يقوى على البقاء أمام الرياح الشديدة العاصفة، ومشهد الرماد يشتد به هذا الريح في يوم شديد العصف يجسم في السياق معنى ضياع الأعمال، بحيث لا يقدر أحد من أصحابها على الاستمساك بشيء منها، ولا الانتفاع بها، هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار، لأنها لا تقوم على قاعدة إيمانية ولذلك فهي مفككة كالرماد لا قوام لها ولا نظام ولا أثر .

وعن المنافقين يقول الله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾(3).

وهو مثل يوضح حقيقة المنافق وأنه يعيش بين الإيمان ظاهراً إلا أنه صنع بنفاقه حجاباً بينه وبين نور الهدى، وعملهم ضائع كالكافرين لأنهم في رأي الإسلام أسوأ وضعاً منهم .

وعن المؤمنين قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ

---

(1) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(2) سورة إبراهيم الآية ١٨ .

(3) سورة البقرة الآية ١٧ .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وهو مثل يبين حقيقة المؤمن وأنه لا تغره مظاهر الحياة الدنيا، يذكر الله فكراً وقولاً وعملاً، انتظاراً للفوز في الآخرة ويعتمد على الله في حاجاته ومطالبه، فامرأة فرعون المؤمنة في بيت ملك وغنى وقوة، ومع ذلك أهملت هذه المظاهر الدنيوية واتجهت إلى الله داعية أن يكون لها بيت في الجنة وأن ينجيها من فرعون وطغيانه وحاشيته، وعمل المؤمن لأن عيشه شريف، وغايته دينية يبارك الله فيه، ويزيده فائدة وأثراً .

ومن الترغيب والترهيب بالمثل أن أخذ القرآن في وصف الجنة وصفاً شيقاً يبرز محاسنها فيقول تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾[2].

ويقول تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾[3].

وهكذا يبرز المثل الجنة في صورة حسنة جميلة نافعة حيث الأنهار والظلال والثمرة والماء واللبن والخمر والعسل، وكله كثير، لا يتغير له طعم أو مذاق، وكله معد للمتقين الذين يطيعون الله ويخافونه، تلك عقبى الذين اتقوا أما الكافرون فلا يتمتعون بشيء من هذا، وعاقبتهم وخيمة مؤلمة جزاء عصيانهم يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[4].

وترسم هذه الآية مشهداً مثيراً ومؤثراً ذلك لأن أعمال الكافرين كسـراب

---

(١) سورة التحريم الآية ١١ .

(٢) سورة محمد الآية ١٥ .

(٣) سورة الرعد الآية ٣٥ .

(٤) سورة النور الآية ٣٩ .

يلمع في أرض واسعة خالية فيتبعه صاحبه الظامئ وهو يتوقع الري، وفجأة نرى صورة عجيبة فهذا السائر الظمآن يصل إلى ما ظنه ماء فلا يجده ماء وإنما يجد آثار قدرة الله الذي كفر به ينتظره هناك كانتظاره له يوم القيامة ليحاسبه على كفره وجحوده والله سريع الحساب، وعقبى الكافرين النار.

وهكذا يحقق المثل دوره بواقعيته وتأثيره .



الفصل الخامس

أسلوب الجدل



تمهيد :

عرفنا فيما سبق كيف جعل الله الجزيرة العربية صورة مصغرة للعالم كله مع اختلافه في عقائده وسياسته ونظمه، ومن طبيعة الاختلاف دائماً ظهور الجدل والمناظرة حول الأمور المتنازع عليها، ولعل من أوضح المجادلات وأشهرها في البيئة العربية ما كان متعلقاً بالعقيدة والدين .

يروي المستشرق دوزي أن النصارى ناقشوا العرب، وحاولوا إدخالهم في النصرانية وقد جعلت الدولة الحميرية الأولى والثانية منطلق الأحباش من اليمن لتنصير عرب الجزيرة، ولم تكن حملة أبرهة على مكة لهدم الكعبة إلا حملة لتنصير أهل مكة، وبعدها يتنصر العرب كلهم، ومن ذلك أن المنذر الثالث ملك الحيرة أراد الأساقفة أن ينصروه، فكلمه أحدهم وهو صامت حتى دخل عليه أحد قواده، وأسر له بشيء فظهرت على المنذر أمارات الحزن العميق.

فسأله الأسقف عما أصابه؟

فأجابه المنذر : واحسرتاه لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات .

فقال القسيس : هذا محال، وقد غشك من أخبرك فإن الملائكة خالدون، يستحيل عليهم الفناء .

فأجابه المنذر على الفور : أحق ما تقول وتريد أن تقنعني بأن الله ذاته يموت[١] ؟؟ فبهت الذي افترى .

وكان زيد بن عمرو بن نفيل بعد مفارقته لدين قومه يسند ظهره إلى الكعبة وينادي قائلاً : يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته[٢].

وقد حكى القرآن الكريم بعض هذه المجادلات وأشار إلى بعض ما حدث بين اليهود والنصارى فقال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ

---

(١) تاريخ الجدل صـ٢٣ .

(٢) سيرة النبي جـ١ صـ٢٤٤.

وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾[١].

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾[٢].

فتلك أقوال من اليهود ومن النصارى تبين دور المجادلة بينهم، وتوضح أنها كانت تقوم على مجرد المخاصمة والمعاندة، لأن كلاً منهم يدافع عن باطل وفساد، والمراد هنا إثبات وجود الجدل في الجزيرة العربية .

وكان لنزول القرآن الكريم بلغة العرب أن ضم ألواناً متعددة من الأساليب، ومنها الجدل، إلا أن الجدل القرآني هادف فقد قام بدوره أسلوباً للدعوة له خصائصه وآثاره .

ولذلك حرص القرآن الكريم حين بأمر الدعاة بمجادلة خصومهم أن يكون جدلهم متصفاً بحسن الغرض، ونبل الغاية، يقول الله تعالى ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[٣] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[٤]

وفى هذا الفصل سأتنازل أسلوب الجدل القرآني الدراسة في عدة مباحث، وذلك فيما يلي :

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

المبحث الأول
مفهوم الجدل القرآني

ظهر في التعبير اللساني كلمات المناظرة والمجادلة والمكابرة، وثلاثتها نقاش بين طرفين متخاصمين إلا أنها تختلف في المفهوم الاصطلاحي .

فالمناظرة هي توجه المتخاصمين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب حيث يحاول كل طرف إثبات صحة رأيه، وإبطال الرأي الآخر بالدليل.

والمجادلة هي المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم.

والمكابرة هي المنازعة لا لإلزام الخصم ولكن لمجرد الرد، وإثبات الذات.

فالمناظرة هي الأولى بالاعتبار ومع ذلك نلاحظ أن القرآن الكريم يأمر بالجدل في قوله تعالى ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[١] وفي قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[٢] مما يجعلنا نبحث عن المراد الحقيقي لله تعالى في أمره النبي والمؤمنين بالجدل .

محال أن يأمر الله بغير طريق الصواب، أو يجعل رسله يسلكون غيره، ومن هنا نرى صاحب المصباح يذكر صواباً، ويخرج كلمة جادل عن أصلها الأول إلى توسع في استعمالها فيقول : جادل مجادلة وجدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم[٣].

ويقول الرازي : الجدل المذموم في القرآن محمول على الجدل في تقرير الباطل وطلب المال، والجاه، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله والذب عن دين الله تعالى[٤].

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٣) المصباح المنير جـ١ صـ٤٤ مادة " جدل " .

(٤) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٢٥٢ .

ومادة الجدل في القرآن الكريم تدور حول المدافعة بالقول من أجل الدفاع عن العقيدة والشريعة والأخلاق إن كانت من قبل الله، أو من أجل الباطـــل إن كانت من قبل المكابرين، وكل آية تحدد اتجاه جدلها .

إن الجدل المتجه للصواب يراد منه المناظرة الاصطلاحية، ويجوز أن تطلق المناظرة على المكابرة أو المجادلة حين تخرج عن قصدها، يقول الغزالي في رسالة أيها الولد : أيها الولد إنني أنصحك بثمانية أشياء، أقبلها مني لئلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة أما اللواتي تدع، فإحداها أن لا تناظر أحداً ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة[١] ومعلوم أن آفة الحوار لا تكون إلا من المكابرة والمجادلة الاصطلاحيتين كما أن الغزالي في كتابه الإحياء يذكر في الباب الرابع آفات المناظرة وضررها على الأخلاق، وعدم تشبهها بمناقشات الصحابة [٢].

ومن البدهي إذاً أن يطلق الجدل القرآني على ما يشمله الاصطلاح الخاص بالجدل والمناظرة معاً، ولعله في الموضع الواحد يوجد الجدل والمناظرة، كماقشة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمرود في سورة البقرة فسيدنا إبراهيم يناظر ويقول ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾

والنمرود يجادل ويقول ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ .... ومن أمثال هذا كثير .

وقد يشمل الموضع الواحد على مجادلة ومناظرة ومكابرة تبعاً لقصد المتخاصمين أو إحداهما، والقصد قابل للتبديل في كل وقت من المناقشة .

ولا يجري الجدل القرآني على النظام المنطقي الذي يأتي بمقدماته قبل نتيجته، إلا أنه مع ذلك يصنع النفس، ويملأها باليقين، ويرضي العامة والخاصة بحلاوة أسلوبه، ودقة معناه، وتركيزه على الهدف الذي سبق له، وبعده عن سيء القول، ورداءه النقاش، ويسمو دائماً بالحوار إلى آفاق القيم النبيلة والسلوك القويم .

---

(١) أيها الولد صـــ١٣٦ ضمن مجموعة للغزالي سماها " بالقصور العوالي "

(٢) إحياء علوم الدين جـــ١ صـــ٣٧ – ٤٢ .

وقد يقع الجدل في شكل قصة قرآنية إلا أننا هنا نضع فرقاً رقيقاً بين الجدل والقصة هو أن الجدل مدافعة قولية ومخاصمة بين طرفين متقابلين في مسألة ما، كل يقصد إثبات مدعاة وإبطال مقابلة، وأما القصة فهي تعبير عن أحداث متآلفة – والحوار فيها لا يقف على مجرد رد القول الآخر ولا يكتفي بمسألة معينة وإنما يتعداه إلى ظاهر الأشخاص، وحركات الذهن والنفس والخاطر، كما أن حوار القصة بين الأشخاص والأحداث هو مجموعة من المواقف المتعاقبة المتغايرة، فمثلاً موقف سيدنا إبراهيم ﷺ من النمرود يعد جدلاً بخلاف موقفه من أبيه، ومن عبدة الكواكب وعبدة الأصنام فهي إلى القصة أقرب، هذا مع أن القصة فيها عموم وسعة يجعل الجدل بعض أجزائها.

المبحث الثاني
الجدل أسلوب للدعوة

يحتاج الرسل والدعاة إلى معرفة الجدل ليؤثروا في معارضيهم، لأن تغيير العقائد ليس أمراً سهلاً، وقد أعطى الله رسله البيان، وأرسلهم بلغة أقوامهم ومنحهم القدرة على المخاصمة لكي يردوا جدل المعارض، ويقنعوا السائل، ويأخذوا بيد الجميع عن طريق المناقشة الحرة العاقلة ... والجدل بالحسنى أسلوب حسن للدعوة .

فهو – أولاً :

يبين للداعية بعض ما سوف يصادفه من أعداء دعوته، ويبصره بمشاق الطريق الذي سوف يسلكه، وذلك لأن المعارضين دائماً يقفون ضد دعوة التغيير، فإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية تطالب المعاندين بتغيير جذري يشمل الحياة كلها، لظهر سر قوة المخاصمة وشدة العناد، وإذا ما علم الداعية أنه أمام موقف صلب من الناس لزمه أن يستعد له بقوة عقليه ونفسية، ويخوض طريقه الصعب صابراً محتملاً، والنبي ﷺ هو القدوة في هذا المجال فلقد كان القوم يحاولون هدم رأيه ويصفونه بمختلف الأكاذيب ومع ذلك يذكر الجدل أنه كان يقف يرد رأيهم ويثبت ضلالهم يقول تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فهؤلاء الكفار حينما سمعوا رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات البينات ويذكرهم بالأدلة الواضحة قالوا : إن محمداً رجل كاذب وساحر يهدف إلى إبعاد الناس عن دين آبائهم، وقرآنه كلام مختلق ودينه سحر مبين، فتراهم اتهموا رسول الله ﷺ وكتابه ورسالته خصومة وجدلاً .

إن الله سبحانه وتعالى مع من يدعو إلى دينه يدافع عنه وينصره، ولذلك أمر رسول الله ﷺ أن يرد بالطريقة الجدلية على اتهامات معارضيه، فلئن تباهوا بما

---

(١) سورة سبأ الآية ٤٣ .

لهم من مال وولد وظنوا أن ذلك يدفع العذاب عنهم ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[١] فإن الله تعالى يعلم رسوله الرد ويأمره فيقول تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[٢].

وهكذا يرد الله مباهاتهم بمالهم، لأن هذا المال رزق أعطاه الله لهم وهو قادر على إزالته من ملكيتهم، ولن يكون المال أياً كان بمقرب من الله والجنة ومانع من العذاب والنار، ولكن الإيمان والعمل الصالح هما أساس الحساب خيراً كان أو شراً .

ولئن وجهوا اتهاماتهم إلى القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[٣] فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٤] ولئن كانوا يستبعدون القيامة ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٥] فإن الله يأمر الرسول بالرد فيقول ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٦].

ومن هذه الآيات نرى أن مجادلة النبي ﷺ هادفة فهو يأخذ مكابرتهم ويرد عليها رداً مقنعاً قاصراً على المعترض عليه .

والداعية يأخذ من هذه المواقف صورة التأييد الإلهي لرسوله ﷺ الداعيــة

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٥ .

(٢) سورة سبأ الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٥ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٦ .

(٥) سورة يونس الآية ٤٨ .

(٦) سورة سبأ الآية ٣٠ .

الأول، ويسير على الدرب في الدعوة، متوقعاً المعارضة البشرية متأكداً من التأييد الإلهي، ويجب عليه أن يصبر على كل ما يلقاه فلقد أمر الله الرسول من قبل بقوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[(١)] أي إذا دعوتهم، وعارضوك، وتقولوا عليك الأقاويل فاصبر عليهم، وتجلد لقولهم، وأعرض عنهم إعراضاً لا يشوبه أذى، ولا شتم ولا مقاومة [(٢)] وعليك أن تكل الأمر إلى الله تعالى في النهاية .

والجدل – ثانياً :

يبصر بالدعوة ويبين أساسياتها ويعرض القرآن في هذا الموضع جدل سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود إثباتاً للألوهية يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[(٣)].

فهذا جدل حول إثبات الألوهية بأدلتها، تراها أدلة مفحمة ملزمة من أقرب الطرق، وقد ترك سيدنا إبراهيم دليل الإحياء والإماتة حينما أوجد النمرود شبهة شكلية عليه، وانتقل إلى دليل لا شبهة فيه عند النمرود، وهو مطلع الشمس ومغربها، وهنا بهت النمرود ولم يحر جواباً، وهو نوع من أنواع الجدل يعرف بـ " الانتقال " وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذ فيه لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول [(٤)].

وهذا الدليل يبطل عبادة الأشخاص ولا يثبتها للإله الواحد القادر على كل شيء المتصرف في سائر الأمور عند الحياة والأحياء .

ولقد جادل المكيون رسول الله ﷺ في شأن دعوة التوحيد، وقال أنصار

---

(١) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٢) تفسير جزء تبارك صـ٨١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٤) الإتقان جـ٢صـ١٣٧ .

الشرك والتعدد ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[1] وقال الدهريون المنكرون للإله بالكلية ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾[2] وقال المقلدون ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ ﴾[3].

هذه المكابرات من القرشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد، وهنا يبين الرسول لهم القول الفصل في هذا الأساس الوطيد ويقول كمـــا أمره الله تعالى ﴿ أفرءيتم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[4].

ففي هذه الآية وغيرها رد على المكابرة الكاذبة التي أعلنها المعاندون فالله هو الذي ينفع ويضر، أما آلهتهم فإنها لا تملك شيئاً، ولا تقدر على فعل أي شيء وقد تحداهم النبي ﷺ في الآية متسائلاً، وهل تستطيع الآلهة المدعاة أن تدفع عني ضرر قدره الله أو تمنع رحمة أرادها ؟؟... وبعد التساؤل الإنكاري يوضح الحقيقة في أن الله وحده هو الكفيل بكل شيء، وهو المعين، وعليه يتوكل المتوكلون، وفى الآية الثانية يبين الله للمجادلين أن الله وحده يكفي في الشهادة على باطلهم، وهو يعلم بكل شيء، وعلمه ممتد شامل لكل ما في السماوات والأرض فمن آمن به نجا وفاز ومن كفر وطغى فقد ضـــل وخســـر ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[5].

وفى سورة المؤمنون يقول الله تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ

---

(١) سورة ص الآية ٥ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

(٤) سورة الزمر الآية ٣٨ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٥٢ .

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[1] وفى هذه الآيات يسجل الله اعترافهم بأن الله مالك الأرض ومن فيها، وهو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه يغيث من يشاء ولا يغيث أحد منه أحداً، إذا كانوا يعترفون بذلك فما لهم يشركون ولا يتذكرون ولا يخافون ؟! .... أنهم مخدوعون في موقفهم، ولا يصح إلا الإيمان والطاعة لله الواحد المتصرف في ملكه وفق علمه وإرادته [2].

وهكذا يجادلهم الرسول ﷺ بالأمور المسلمة لديهم لأن تسليمهم بها يجعل النتائج مسلمة كذلك، بل إنه يجادلهم بالأمور البدهية لتكون الحجة قطعية فيقول كما قال الله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[3].

فترى الآية تتضمن جدلاً يسلم بمظنوناتهم، ثم يناقشهم فيها، وبالمناقشة يظهر بطلان رأيهم، فكأنه قال: ليس مع الله إله آخر، ولو سلمنا بوجود آلهة أخرى معه كادعائهم الكاذب فإننا لابد وأن نرى على ما هي العادة فساد السماء والأرض واستقلال كل إله بما خلق وكون لنفسه ملكاً خاصاً به ولحدث الشجار والتعالي بين الآلهة، ولو كانت الآلهة أصغر من الإله الأكبر صاحب العرش لطلب الآلهة سبيلاً إلى الله معاندة ومبالغة .

وكل ما كان منتظراً كنتيجة للفرض المظنون لم يحدث، إذ لم تفسد السماء والأرض، ولو لم تستقل آلهة بملكها، ولم يتعال إله على إله، ولم تطلب الآلهة طريقاً إلى الله الأكبر ، والنتيجة المحتمة هو أن التسليم باطل، والفرض المظنون كاذب لا صحة فيه، والثابت المؤكد هو أنه لا إله إلا الله .

يقول الشيخ محمد عبده : فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجــوده ولا في

---

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٨٤ إلى ٨٩ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٦ صـ٢٩٨، ٢٩٩ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

أفعاله [١].

هذا والآيات مشتملة على نوع من الجدل يعرف بـــ " التســـليم " [٢] حيث تسلم ظاهراً بالمستحيل من باب المجاراة وتناقش على أساسه ليظهر بطلانه، ولذلك يصدر هذا النوع بـــ " لو " كآيتي الأنبياء والإسراء، أو يصدر بأداة النفي كآية المؤمنون دلالة على أنه يسلم بالممتنع المنفى، وهكذا ساهم الجدل مع سائر الأدلة في إثبات الأساس الأول للدعوة وهو الإيمان بالله وحده ورد افتراءات المعارضين.

وأما عن الأساس الثاني وهو إثبات الرسالة لسيدنا محمد ﷺ فقد كثر الجدل حوله إذ جحد المعارضون الرسالة واستبعدوا أن يكون الرسول بشراً من الناس وكذبوا ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[٣] .

ولم يستبعدوا إرسال البشر فقط بل أخذوا في توجيه الاتهامات الباطلة يقول الله تعالى ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[٤] .

ودارت مكابراتهم حول هذه الاتهامات فهو شاعر، وكاذب، وساحر وناقل، ولكن الرسول ﷺ جادلهم في دعاويهم، فلما قال الكافرون: ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أمره الله أن يرد عليهم بقوله ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٥].

ذلك لأنهم جاهلون بالحقيقة ويكفي أن يعلمها الله، ويعرفها من عنده علم الكتاب .

ويؤكد الله لسيدنا محمد ﷺ أن المعاندين مغالطون في دعاويهم فيقـــول تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

---

(١) رسالة التوحيد صـــ٤٩ .

(٢) الإتقان جـــ٢ صـــ١٣٧ .

(٣) سورة القمر الآية ٢٤ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٥ .

(٥) سورة الرعد الآية ٤٣ .

أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[1].

وذلك لأنهم اتهموا النبي ﷺ بأنه يأخذ الكتاب من رجل أعجمي لكنه يتلى عليهم بلسان عربي فكيف التوفيق، خاصة وأن النبي أمي ولم ينزل كتاب من قبل هذا وأيضاً فهم يطالبون بأن يكون الرسول ملكاً، وهذا خطأ لأنه لابد من حصول الفهم المشترك والقدرة على الخطاب، ولا يقدر على ذلك مع البشر إلا بشر منهم .

ولقد وصل بهم حد التحدي إلى أن طلبوا من الرسول ﷺ أن يظهر لهم بعض الآيات الحسية العجيبة لكن الله سبحانه وتعالى يعلم جدلهم ومكابرتهم فيأمر رسوله بأن يجيبهم ويقول له ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[2].

إن المتتبع للجدل في مسألة إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ ينتهي إلى وضوح بين بصدق الرسالة وإمكانها وإثباتها .

هذا والجدل القرآني فيه سائر فروع العقيدة حيث جرى نقاش حولها بين النبي والناس، ولكنا نكتفي هنا بما ذكرنا في إثبات أساس الدعوة .

والجدل – ثالثاً :

يعرف بالناس ويبين طبائعهم، واتجاهاتهم فإليهم توجه الدعوة، والعلم بأحوالهم ضرورة للداعية، ليتمكن من الأخذ بيد مدعويه على وجه لائق ومناسب .

وقد بينت هذا الجانب مع أساليب الدعوة التي تحدثت عنها في الفصول السابقة، ومع الجدل أوضح دوره في بيان طبيعة الناس، وميولهم، واتجاهاتهم الاجتماعية والنفسية والمادية، وبخاصة اليهود لما لهم من صلة بالمسلمين قديماً وحديثاً .

واليهود هم أبناء يعقوب عليه السلام وهم المنتسبون إلى دين موسى عليه السلام وقد انطووا على أنفسهم دائماً، وعاشوا بمعزل عن أي مجتمع أقاموا فيه، وجاء

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٣ .

الإسلام إليهم فوقفوا منه موقف عداء تام، حيث حاجوا النبي ﷺ كثيراً واعترضوا على كل ناحية دعاهم إليها، وبتتبعنا لبعض آيات الجدل في القرآن نلمح خصائصهم الطبيعية التي استمرت معهم وانتقلت فيهم من جيل إلى جيل، وأهم هذه الخصائص ما يلي :

أ- العنصرية في الجنس :

يؤمن اليهود أنهم من سلالة جنس فاضل عظيم يفوق بعظمته سائر البشر وأنهم رزقوا عبقرية لا نظير لها، جاء في البروتوكول الخامس : **إننا نقرأ في الناموس أن الله قد اختارنا لحكم الأرض وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل، وإذا ما وجد عبقري في صفوف الأعداء فقد يكون في وسعه مقاتلتنا، ولكن أنى لعبقرية جديدة أن تقف في وجه المخضرمين من أمثالنا**، وسوف يتخذ القتال صورة من اليأس لم يشهد لها العالم مثيلاً، لقد انقضى الوقت الذي تقوم فيه لغير اليهود عبقرية [١] .

ولقد أطلقوا على أنفسهم " شعب الله المختار " وهي في الحقيقة عنصرية زائفة لا تستند على شيء من الحقائق لأن الحقائق في وضوحها كما يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[٢].

واليهود كغيرهم من الأمم جاءهم رسول، ونزل لهم كتاب، ولكنهم مع الأيام اكتسبوا بعض الأوهام، وألبسوها ثوب الدين، ونسبوها إلى الله، وزعموا أنه جاء في سفر يشوع **أن يشوع أخذ كل الأرض على حسب ما وعد الرب موسى وأعطاها يشوع ميراثاً لبني إسرائيل على حسب أقسامهم وأسباطهم واستراحت الأرض من الحرب** [٣].

والقرآن الكريم في جدله يوضح هذه الحقيقة ويدفعها بموضوعية يقـــول

---

(١) بروتوكول صهيون صـــ٤٧، ٤٨ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) سفر يشوع : انظر الإصحاحات ١٣ – ٢١ وفيها بيان تقسيم الأرض على عشائر بني إسرائيل .

تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾[1].

يذكر ابن عباس أنه (**أتي النبي ﷺ عثمان بن آصار وبحري بن عمرو شاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ونحن أبناء الله وأحباؤه**)[2] فنزلت الآية .

وادعاؤهم هذا باطل ولذلك أمر الله رسوله أن يرد عليهم فقال له ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾[3].

أي إن صح ما زعمتم فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياماً بعدد أيام عبادتكم العجل وإن كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع [4].

والحقيقة المؤكدة أن اليهود بشر كسائر البشر يغفر الله لهم أو يعذبهم إن شاء

ومن هذه العنصرية كذبوا ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ ﴾[5].

وكانت أحلامهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأن يردوهم كفاراً، وأن لا يدخل الجنة غيرهم، وكانت تلك أمانيهم لكن الرسول ﷺ يقول لهم ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[6] أي هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة .

وكان اليهود يعتقدون أنهم لن يعذبوا في النار إلا أربعين يوماً بعدد أيام عبادتهم العجل ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ ﴾[7] وكان الجواب على

---

(١) سورة المائدة الآية ١٨ .

(٢) لباب التأويل جـ١ صـ٤٩٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٨ .

(٤) تفسير أبي السعود جـ٢ صـ١٦ .

(٥) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٦) سورة البقرة الآية ١١١ .

(٧) سورة البقرة الآية ٨٠ .

هذا الافتراء من الله حيث قال لرسوله ﷺ ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١].

وبالطبع ليس لهم برهان على ادعاء دخول الجنة، وليس معهم عهد من الله بعدم العذاب إلا أياماً ولا شيء سوى ذلك، وما ادعوه من عنصرية فهو من أكاذيبهم التي درجوا عليها تزكية لأنفسهم وفخراً بجنسهم، واليهود حديثاً هم اليهود في غرورهم وعنصريتهم وتعاليهم خاصة مع العرب .

ولأمر ما ذكر الله رأيهم في العرب وبينه من واقع حديثهم حيث أنهم قالوا ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾[٢] والأميون المذكورون هم العرب يسمون بهذا الاسم في مقابلة أهل الكتاب [٣] ويصور اليهود أن العرب ليس لهم قدرة على المطالبة بحقوقهم لأنهم عبيد لليهود وخدم، هكذا يتصورون العرب الأميين ولا يؤمنون بسواه .

ومع هذا الغرور العنصري أشار القرآن إلى ملمح خطير قد يكون مفتاح هذا التعالي، وهو إحساس اليهود باحتقار الناس لهم وشكهم في هذا الأمر دائماً وهذه القضية تأتي في وضعها الطبيعي، لأن الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى إبراز ما ليس فيه، وتقمص صور خارجه عنه، يشــير إلى ذلك قوله الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[٤].

فموسى عليه السلام يبلغهم أمراً من تعاليم الله لكنهم يردون عليه من عقدة النقص فيهم، ومن إحساسهم بأن الناس يسخــرون منهم فيســألون موسى أتتخذنا هزواً وسخرية بما تأمرنا به، لكنه عليه السلام يرد عليهم بأن إحساسهم هذا يجب أن ينتفي لأن الهزء في تبليغ أمر الله جهل وسفه لا يليق برسول .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٠

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥ .

(٣) الملل والنحل جـ١ صـ١٨٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ٦٧ .

إن العنصرية اليهودية ثابتة في نفوسهم ومستكنة في غرائزهم وقد اشتهروا بها حتى صار خالصة من خواصهم .

ب- اعتقاداتهم مادية :

يميل اليهود دائماً إلى التجسيد في عقائدهم ويربطون إيمانهم بالمادة طبيعتهم وينظرون إلى الله نظرتهم إلى الملموس، ويصفونه بأوصاف لا تليق إلا بالحوادث، تقول توراتهم " **وسمعا – أي آدم وحواء – صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة**"(١).

هكذا تقول التوراة أن الله يمشي ويظهر بوجهه ويختبئ آدم ومعه حواء من وجه الله ومقابلته .

وتقول أيضاً : " **دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكاره هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه** (٢)".

فتشير بذلك إلى لحوق الحزن والندم والأسف بالرب، وما نشأ ذلك إلا من إيمانهم المادي، وعقيدتهم التجسيدية .

ونظرة اليهود إلى الرسل هي الأخرى امتداد لماديتهم، حيث يلحقون بهم النقص والسوء .

تقول التوارة عن لوط عليه السلام : **وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنجيئ من أبينا نسلاً، فسقتنا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم**

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الثالث فقرة ٨ .

(٢) سفر التكوين الإصحاح السادس فقرات ٤، ٥، ٦.

باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي أنت معه فنجيئ من أبينا نسلاً فسقتنا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما [١].

وتذكر التوراة أن داود ﷺ كان لا يأنس في شيخوخته إلا إلى فتاة جميلة فتقول : **وشاخ داود، وتقدم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ، فقال له عبيدة ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء ففتشوا على فتاة جميلة جداً، وجاءوا بها إلى داود** [٢].

وتقول التوراة عن سليمان أنه : **أحب نساء غريبة كثيرة وكانت له سبعمائة من السيدات وثلاثمائة من السراري، فأمال النساء إلى قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه** [٣].

وهكذا أنزل اليهود بالرسل صفات النقص والخسة، وجردوهم من روحانية الوحي، وعصمة الرسالة .

والجدل القرآني يبين طبيعة اليهود هذه، ويعقب على فسادها ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [٤].

روي أنه ﷺ كتب مع أبي بكر ﷺ إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي، إن الله فقير حتى سألنا القرض [٥].

وذلك أنهم لا يجدون مانعاً من تشبيه الإله بالمجسمات .

وقد رد الله قولهم وذكر أنه جريمة تضاف إلى جرائمهم الأخرى وسوف

---

(١) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر فقرات ٣٠ – ٣٦ .

(٢) سفر الملوك الأول الإصحاح الأول فقرات ١-٤

(٣) سفر الملوك الأول الإصحاح الحادي عشر فقرات ١-٢ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨١ .

(٥) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ١٥٩ .

يعذبون عليها .

ومن هذا الجدل قول الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (١).

فهم لغلوهم في التشبيه والتجسيد لا يستبعدون أن يكون لله ولد هو عزير، ويرد القرآن الكريم عليهم هذا الزعم الباطل فيقول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢).

لأنهم بقولهم هذا كاذبون، ويشبهون الكفرة تماماً .

وكان لتأصل العقيدة المادية في اليهود أن قالوا لموسى عليه السلام حينما رأووا قوماً يعبدون أصناماً ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ (٣) فهم جادلوا موسى في شأن الأصنام، وأرادوا العودة إليها، فبين لهم عليه السلام جهلهم وبطلان ما عليه المشركون، ولا تفسير لهذا الجهل من اليهود إلا بسبب ماديتهم، وبعدهم عن الروح، وما خديعتهم السريعة بعجل السامري إلا من هذا الطريق .

ويبين الجدل القرآني كذلك نظرة اليهود إلى الرسل حيث استهزأوا بموسى وقالوا له ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (٤) وقالوا ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾(٥).

ولما طلب منهم هارون أن يتركوا عبادة العجل ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ (٦).

وهكذا قامت مجادلتهم على الهزء والسخرية وعدم المبالاة كشأنهم مع الرسل واليهود حديثاً هم كما صورتهم الكتب المقدسة في القديم، كلهم أعداء للعقائد الصحيحة، وخطر على الأديان، وسوء على الجنس البشري كله، يريدون أن

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ٥٥ .

(٥) سورة المائدة الآية ٢٤ .

(٦) سورة طه الآية ٩١ .

يفرضوا آراءهم الضالة على الناس، فهم يحرفون التوراة على هواهم وينكرون أن يأتي عليها النسخ محافظة على ماديتهم التي بثوها فيها، يقول الشهرستاني : واليهود تدعي أن الشريعة لا تكون إلا واحدة، وهي ابتدأت بموسى ﷺ وتمت به، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجيزوا النسخ أصلاً قالوا : فلا يكون بعد موسى شريعة أصلاً [١].

واليهود ينظرون إلى محمد ﷺ والقرآن نظرة سيئة تنبئ عن طبيعتهم يقول السموأل المغربي وهو من أعاظم أحبار اليهود الذين أسلموا يقول : وأما الرسول محمد ﷺ فله فيما بينهم اسمان فقط، أحدهما " فاسور " وتفسيره الساقط، والثاني "موشكاع" وتأويله المجنون، وأما القرآن العظيم فإنه يسمى فيما بينهم "قالون "وهو اسم للسوأة بلسانهم يعنون بذلك أنه عورة المسلمين وسوأتهم[٢].

وجاء في البروتوكول الرابع عشر : **عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا، ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد[٣] كل العقائد .**

وهكذا عقيدة اليهود دائماً ترتبط بالمادة في كافة جوانبها .

جـ) أخلاق اليهود :

يعتبر الاتجاه المادي الأساس الرئيسي في أخلاق اليهود، وهو اتجاه يقوم على الأنانية مصدر كل داء ، فهي مصدر الخصومات والأحقاد، وهي أصل الاستغلال والاحتكار، وهي أساس العبث والانهماك في الرفاهية والترف.

وهي الدافعة إلى القتل وإشاعة الفحشاء والمنكر واستحلال الربا .

يبين الجدل القرآني هذه الحقيقة في أخلاق اليهود ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وهم جبناء فقد قالوا لموسى حينما دعاهم للحرب ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ

---

(١) الملل والنحل جـ١ صـ١٩٢، ١٩٣ .

(٢) بذلك المجهود في إفحام اليهود جـ٧ .

(٣) بروتوكول حكماء صهيون صـ٧٨ .

(٤) آل عمران الآية ٧٨ .

فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[1].

وقالوا لطالوت ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾[2].

وعلى هذا النمط تمتد سائر أخلاق اليهود .

ويبدو أن السبب في مادية اليهود السائدة فيهم أنهم لا يقرون بالروح أساساً، حيث يرون أن الإنسان جسد فقط، يقول رينان : ولو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين، أحدهما الروح، والآخر الجسد، وأنه إذا تعذبت الروح في هذه الدنيا فإنها تستريح في الحياة الثانية، لو كان يعرف ذلك لسري عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني عند الشعوب التي كانت تذله [3].

إن قصور اليهود عن فهم الإنسان هو الذي دفعهم إلى الإيغال في المادية ولعل ذلك بعض السبب في خلق عيسى ﷺ بنفخة من روح الله تذكيراً لليهود بالروح التي أنكروها، ودعوة لهم كي يصححوا خطأهم ويفهموا الإنسان على حقيقته .

إن إحاطة الداعية بخصائص اليهود تجعله يوجه الدعوة لهم بما يناسبهم ويسوق لهم أقوالاً تلائمهم وقد ضرب القرآن الكريم وهو يحكي أسلوب دعوتهم نوعاً من هذه الملائمة، فتراه يذكرهم بالمزايا الراقية التي وضعها الله لهم حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة، ورزقهم طيبات كثيرة، وجعلهم أفضل الخلق في عصرهم يقول تعالى حاكياً أسلوب دعوة اليهود ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾[4].

وهذه الآيات تخاطب اليهود بيا بني إسرائيل أحب الأسماء إليهم وتبين لهم

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٣) محاضرات في النصرانية صـ ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآيات من ٤٠ إلى ٤١ .

نعم الله عليهم، وتطالبهم بأن يوفوا عهودهم، ويؤمنوا بالقرآن المصدق للتوراة وأن يتركوا المادية ويخافوا الله وحده .

ومن المعلوم أن كون القرآن مصدقاً للتوراة يرفع الإحساس بالنقص من فكر اليهودي وهو يسمع القرآن الذي يقدس التوراة، ويبين أنها تحوي هدى ونوراً كهدفه تماماً، ولذلك جاءت الإشارة إلى الوحدة بين القرآن والتوراة مبكرة في العهد المكي .

ومن مراعاة القرآن لخصائص اليهود نجده يقدر علماءهم الذين هم قادة القوم وسادتهم، يقول الله تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[١].

والخطاب في الآية وإن كان موجهاً للنبي ﷺ فهو من الحقيقة موجه للسامعين كعادة الأسلوب القرآني في كثير من مواضعه، وبذلك يخاطب الله المؤمنين ويطالبهم أن يقدروا علماء اليهود ويسألوهم عن حقيقة القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ .

ومن هذه المراعاة تنويه القرآن بموسى عليه السلام وببني إسرائيل جميعاً وبتوراتهم فيقول ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[٢].

ومع كل هذه المراعاة لغرور اليهود وعنصريتهم يحاول القرآن أن يغير أخطاءهم ويصحح عقائدهم على صورة التساؤل فيقول الله ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[٣].

ثم يأخذهم إلى الحق من منطق التساؤل فيقول لهم ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٤].

---

(١) سورة يونس الآية ٩٤ .

(٢) سورة غافر الآية ٥٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٠ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

يقول الرازي إن هذه الآية تتضمن منهاجاً يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال [١].

والقرآن يعلم المسلمين أن يعلنوا أنهم مع تمسكهم بالإسلام يصدقون باليهودية التي جاء بها موسى ﷺ لكي تتولد عند اليهود رغبة في أن يؤمنوا بالإســـلام، يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[٢].

ويتمشى القرآن مع فكر اليهود ويسلم لهم بظنهم في أنفسهم تمهيداً لأخذهم إلى الإيمان، يقول الله تعالى ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[٣].

ذلك أن قضية المودة مع الله وكونهم أبناءه، وهو وليهم وحدهم تقتضي حب الإسراع إليه، والموت من أجل لقائه، فطالبهم القرآن أن يتمنوا الموت دليلاً على صدق زعمهم، لكنهم لا يحبون لقاء الله ويكرهون الموت، يقول الله تعالى ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤].

ونجمل مراعاة القرآن لليهود في دعوته لهم فيما يلي :-

١- احترام جنسهم وبيان النعم التي أعطاها الله لهم .

٢- بيان وحدة الكتب المقدسة ووحدة الدين .

٣- تقدير علماء بني إسرائيل وكتابهم .

٤- إشعارهم بالمساواة التامة بسائر الناس ومخاطبتهم من أساس فكرهم عن أنفسهم .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٧٠٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٣) سورة الجمعة الآية ٦ .

(٤) سورة الجمعة الآية ٧ .

ويلاحظ أنها مراعاة تتعادل مع عنصريتهم وماديتهم وأخلاقهم ليسهل بعد ذلك تصحيح عقيدتهم ودخولهم في دين الله تعالى .

د) خصائص النفاق :

النفاق ليس خاصية جنس بشري معين، وإنما هو صفة أخلاقية تتجمع حولها النفوس الضعيفة والعقول الشاذة، من سائر الأجناس، وبتجمعهم على هذه الصفة توجد طائفة المنافقين متميزة بخصائصها، وأهم صفاتهم النفعية القاصرة على الكسب السريع من غير تفرقة بين حق وباطل .

إن النفاق خطر على الدعوة لأنه ليس كفراً صريحاً يلازمه النصح والحذر أو إيماناً خالصاً يعايشه الثقة والأمل، وأيضاً فإن المنافقين مذبذبون متلونون مخادعون في قولهم ومظهرهم، وهم أعداء الإسلام لأن العدو الجلي الظاهر أقل ضرراً من العدو المستتر، وقد بين الجدل القرآني بعض خصائص المنافقين فذكر أنهم :

-مع كفرهم يدّعون الإيمان، فقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

وهذه الآيات تتضمن جدلاً قرآنياً يشير إلى مجموعة من الحقائق عن المنافقين، فهم يظنون أنفسهم قادرين على الخداع والتضليل، وهم يعتدون على

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ إلى ١٤ .

الناس حيث يستهزءون بالرسل والمؤمنين، ويسمونهم السفهاء لأنهم يقولون ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهم أصحاب علة في فطرتهم، وداء في قلوبهم لأنه ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ والمرض يزداد بعصيانهم ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ وهم لا يشعرون بالواقع الحقيقي ولا يعلمون نتائج الأمور .

– وذكر الجدل كذلك أن المنافقين يسخرون فيما بينهم بالإسلام ورسوله ويتربصون بهم الدوائر، يبين الله ذلك فيقول ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾[١].

والآية قد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي ﷺ في نقدهم له، وقولهم عنه أنه سماع لكل ما ينقل له مصدق لكل ما يسمع، كما أن فيها تنبيهاً إلى أن هذا القول منهم كان يؤذي النبي ﷺ ولشدة إيمان المنافقين بهذا القول كانوا إذا حذر بعضهم من وصول الخير إلى الرسول، ردوا عليهم بأن محمداً ﷺ أذن سهل الاقتناع، نحلف له فيصدق[٢] .

لكن الله سبحانه وتعالى علم رسوله أن يرد عليهم وقال له ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي هو أذن في الحق والخير وفيما يجب سماعه، وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك[٣].

ويقول الله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[٤].

والآية تمثل صورة استخفاف منهم بالقرآن الكريم وكلام الرسول، فهم يستمعون للرسول ﷺ ويدعون أن كلامه لا يعني شيئاً، فيسألون بعد خروجهم

---

(١) سورة التوبة الآية ٦١ .

(٢)سيرة الرسول لدروزه جـ٢ صـ٢٠، ٢١

(٣) تفسير النسفي جـ٢ صـ١٣٢ .

(٤) سورة محمد الآية ١٦ .

من مجلس النبي ﷺ قائلين ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ ولا عجب من موقفهم فهم الذين طبع الله عليهم قلوبهم واتبعوا أهوائهم .

– وذكر الجدل القرآني أن المنافقين يعيشون بأخلاق فاسدة، فهم كاذبون يقول الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[1].

فرغم شهادتهم المطابقة للحقيقة فهم كاذبون، لأن أهليتهم للصدق في حد ذاته منعدمة، ولذلك رد الله قولهم وشهد عليهم أنهم كاذبون لا يتفق ظاهرهم مع باطنهم.

ولم يقتصر كذبهم على المؤمنين، وإنما هم كاذبون على غير المؤمنين يقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[2].

ذلك أن قولهم هذا للكافرين تغرير وإفساد، وحقيقتهم هي كما بينها الله تعالى فهم جبناء ضعفاء، وإن بدوا بثوب يغاير ذلك فهم يتصورون أي صيحة مهما كانت واقعة عليهم ضارة بهم لجبنهم، واستقرار الرعب بهم[3].

وهكذا بين الجدل حقيقة النفاق وأصحابه، ليكون الداعية على حذر من مسلكهم، مراعياً حقيقتهم حين دعوتهم .

وعلى نمط ما سبق عرف الجدل القرآني بعض حقائق البشر .

والجدل – رابعاً –

أسلوب حكيم يناسب كافة الطوائف الإنسانية، لأنه يسوق حججه اقناعية في بعض الأحيان لتكون موعظة حسنة تثير الانفعال وتهيج النفس، وتدفع إلى الإيمان بما تدعو إليه، وفى هذه الحالة يتلاءهم الجدل مع العامة والجمهور الغالب من الناس حيث يسلم بأفكارهم، وينتقل من فكرة معارضة إلى سواها حتى يصل إلى التصديق .

---

(١) سورة المنافقون الآية ١ .

(٢) سور الحشر الآية ١١ .

(٣) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ١٦٥ .

وفى أحيان أخرى تكون حجة الجدل قطعية يقينية، كقوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[١].

وفى هذه الآية جدل يعرف **بالتسليم**، حيث أن فكرتها تقوم على تسليم دعوى الخصم، وبعد ذلك تبرز التناقض الحتمي لتحقق هذه الدعوي، والآية قطعية في دلالتها، يقول التفتازاتي : **الظاهر من الآي نفي تعدد الصانع المؤثر في السماوات والأرض فالملازمة قطعية**[٢] **ويقول الخيال : والتحقيق في أن الآية حجة قطعية أو إقناعية أنه إن حملت الآية على تعدد الصانع مطلقاً سواء كان مؤثراً بالفعل أو لا فهي حجة إقناعية تفيد القطع، لكن الظاهر من منطوق الآية نفي تعدد الصانع المؤثر في السماء والأرض فإنه ليس المراد بالظرفية المعنى الحقيقي، أعنى التمكين، لأن الله منزه عن التمكن في مكان فيكون المراد التأثير والتصرف فيهما، والمعنى أنه لو كان المؤثر فيهما آلهة لفسدتا أي لم تتكونا، فالحق حينئذ أن الملازمة قطعية والآية حجة قطعية** [٣].

وعلى الجملة فإن الجدل في نقاشه يعتمد على أقيسة كثيرة فإن كانت الأقيسة من أقسام البرهان المسلم به كانت الحجة قطعية إلزامية، وإن لم تكن كذلك كانت الحجة إقناعية خطابية .

وهكذا فإن الجدل مع كونه جدلاً حسناً يتضمن الحكمة والموعظة الحسنة .

والجدل القرآني – خامساً –

يساير الواقع البشري شأن القرآن كله .

وهو في جملته خطاب بين الرسول والبشر، ورواية عن مناقشات سابقة والإنسان هو الإنسان في كل عصر وزمان – ولذلك جعل الله جدل القرآن فطرياً ومنتزعاً من قضايا الواقع، حتى يكون في مقدور الخاصة والعامة من الناس .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ٢٦٥ .

(٣) حاشية الخيالي صـ٢٢٦ .

وقد رأينا كيف زامل الجدل الداعية والدعوة والناس هادفاً إلى الحق قاصداً الوصول إلى السعادة والسلام .

وأخيراً فإن الجدل القرآني يؤدي دوره بتأثير رائع معجز، وفنية عجيبة على ما سوف نذكره إن شاء الله تعالى

المبحث الثالث
فنية الجدل في إبلاغ الدعوة

الجدل القرآني أسلوب من أساليب الدعوة قام ويقوم بدوره على وجه كامل وذلك على النحو التالي :-

١- الإقناع العقلي المجرد :

خاطب الجدل العقل، وناقش الخصوم مناقشة تعتمد على كثير من المسلمات حتى يقطعوا بصحة المدعي أمامهم، وكأن الجدل في هذا المعنى يستنتج النتائج الصحيحة بعد ذكره للمقدمات الصادقة، ذكر السيوطي أن الإسلاميين من علماء الكلام استنجوا من أول سورة الحج إلى قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ خمس نتائج وعشر مقدمات لها أما النتائج فقد احتواها قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[١].

وأما المقدمات العشر فهي سهلة الإيراد، وذلك أن الله أخبر عن يوم القيامة وزلزلة الساعة، وذلك حق منقول إلينا بالتواتر، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق، وأخبر سبحانه وتعالى عن أهوال الساعة وعن قدرته الشاملة، ولابد للساعة من إحياء الموتى فالله القادر يحي الموتي، وسيعاقب المعاندين، وسيثيب الطائعين، وأخبر عن الساعة وخلق الإنسان من تراب، وأماته بعد ذلك، وخلق الأرض، وصدق خبره، في كل ذلك بدلالة الواقع، ومن صدق خبره في ذلك صدق في أخباره عن مجيء الساعة، فصدق أن الساعة آتية لا ريب فيها، ولا تأتي الساعة إلا ببعث من في القبور فثبت أن الله يبعث من في القبور [٢] وهذه المقدمات العشر جاءت في قوله تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا

---

(١) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) الإتقان جـ٢ صـ١٣٥، ١٣٦ بتصرف .

ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(1).

وهكذا نجد النتائج أمام العقل ثابتة صادقة، وهي نتائج ذات تأثير نفسي بالغ فهي لا تقف عند شكلية القياس، بل تجعل المجادل كلما وصل إلى نتيجة إزداد إيماناً وتصديقاً، حيث تشمل النتائج على إبراز حقيقة الألوهية، وقدرة الله، وتخبر عن إحياء الموتى، وبعثهم في يوم الساعة الآتية بلا ريب، وتتحدث عن ضرورة الحساب على الأعمال .

ومن أجل الوصول بالعقل إلى اقتناع كامل بالشيء الذي هو محل الجدل رأينا الجدل يأتي بالأمر المتناقش فيه، ويحلله إلى منتهى أقسامه، ويرد كل قسم على حدة، لينتهي أخيراً إلى الرأي الحق وذلك كقوله تعالى

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾(2).

فترى هذه الآية تقسم الرأي في موسى عقلياً، لأنه إما أن يكون كاذباً وإما أن يكون صادقاً، فإن كان كاذباً فكذبه عليه لا يتعداه، وإن كان صادقاً فاتباعه نفع وفوز ونجاة، والتقسيم يؤدي في النهاية إلى عدم التعرض لموسى عليه السلام وعدم محاولة قتله ومن هذا النوع قوله تعالى ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ

---

(1) سورة الحج الآيات من ١ إلى ٥ .

(2) سورة غافر الآية ٢٨ .

ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

وقد رد الله في هذه الآيات على اليهود تحريمهم لذكور الأزواج المذكورة تارة، وتحريمهم لإناثها تارة ثانية، وتحريمهم لما في أرحام الإناث حسبما اتفق تارة ثالثة، فجادلهم الله في رده بطريق " السبر والتقسيم " فبين أنه خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، وسألهم عن سبب التحريم وعلته، لأن العلة إما أن تكون بسبب الذكورة، أو بسبب الأنوثة، أو بسبب الذكورة والأنوثة معاً، أو بسبب خارج عن حدود مصدر الشيء المحرم كأن ينزل بها وحي من الله، وتلك هي أسباب التحريم كلها، ولا يعقل سبب سواها، ويترتب على هذه الأسباب أن يحرم الذكورة والأنوثة معاً، أو يحرم ما فصله الوحي إن كان هو السبب لكن السبب المشاهد أن اليهود يحرمون على هواهم فيحرمون هذا تارة، وذاك تارة أخرى، ويحلون الشيء بعد تحريمه، وقد حصر الله علة التحريم الممكنة وسألهم عن تحديدها إن وجدت وبذلك أبطل فعلهم وأثبت أن ما قالوه ضلال وكذب .

وهكذا بـــ " السبر والتقسيم " ينزاح الشك، وتستريح النفس ، ويتـــيقن العقـــل المجرد والفكر السليم [٢].

٢) مراعاة الطبائع النفسية :

يعتز الإنسان برأيه وبفكرته، وإن كانت خاطئة، والمعاندون أكثر الناس تشدداً في هذا المجال، والجدل يراعي هذه الناحية في مناقشاته، حيث نرى فـــي طـــرق الجدل ما عرف بطريقة " مجاراة الخصم " ومجمل هذه الطريقة أن يسلم المجادل ببعض مقدمات الخصم للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه، وإنما هي بعيدة عنه، ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعـــالى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) الإتقان جـــ٢ صـــ١٣٦ بتصرف .

بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (١).

فدعوى الخصم أن الرسل بشر والبشر لا يستطيعون أن يتلقوا وحي الله، وهم بدعوى الرسالة يريدون صد أقوامهم عن عبادة الآباء والأسلاف .

وبملاحظة رد الرسل عليهم نرى التسليم للخصوم بأنهم بشر ويذكرون أن البشرية لا تتنافي أن يمن الله بالرسالة على من يشاء من البشر .

وفى هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الطريقة ثنيه عن الإنكار بعد بيان فساد العلاقة بين القضية المسلمة والنتيجة التى رتبت خطأ عليها، يقول الشهرستاني : واعلم أن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج(٢).

ومن طرق الجدل التى تساير الطبائع الإنسانية وترضى الغرائز البشرية ما عرف بـ "قياس الخلف " وهو جدل يثبت الأمر بإبطال نقيضه ومثاله قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾(٣).

فقد أثبت قول الله هذا أن القرآن من عند الله تعالى بإبطال أنه من عند الله، لأنه خلا من الاختلاف اللازم له لو كان من عند غير الله .

ومن الطرق التى تراعي هذه الطبائع، ما نلمسه من بعض صور الجدل التى تتجه إلى مناصحة المدعو، وإرشاده والأخذ بيده إلى الصواب، وتوجيه نظره إلى ما حوله ليأخذ منه الفائدة، وهذه الصور تراعي الجدل في ثناياها وترد عليها في إجمال وتدليل ومن أمثاله قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٢) الملل والنحل جـ٢ صـ٥٦ .

(٣) سورة النساء الآية ٨٢ .

ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[١].

فقد لاحظت هذه الآيات أقوال الخصوم واعتراضاتهم من غير أن توردها، وردت عليها في إيجاز ودليل ملموس، وبذلك تأخذ بيد المستمع إلى الحق عن طريق وضع الأدلة السهلة الواضحة .

ومن الطرق التى راعت طبائع الناس مجاملة الخصوم وعدم الرد المباشر على دعاويهم مع عدم التسليم بها، كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] وكقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[٣] وذلك لأن المجاملة أدعى إلى الطاعة وأقوى في التأثير .

٣) ملاحظة التنوع البشري :

يختلف الناس في مجادلاتهم فمنهم المجادل العنيد، ومنهم المناقش الـسهل، ولقد راعي الجدل هذه الاختلافات، فمع العناد يلجأ إلى إفحام الخصم وإلزامه ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة، ويبينها له في وضوح، فلقد كان المعاندون يطلبون فـي إصرار أن يكون الرسول ملكاً لإزالة اللبس من إرسال البشر فرد الله إصرارهم في وضوح وإيجاز، وعرفهم أنه لو أرسل ملكاً على صـورته الملكيـة لهلـك الناس من رؤيته، ولو جعله على صورة البشرية يعايشهم ويدعوهم في بشريته هذه لبقي اللبس وطلبوا ملكاً آخر، وهكذا في تسلسل لا ينتهي وهو محال نـشأ من طلبهم المحال، وعليهم بعد ذلك أن يسلموا بالرسول البشر .

ومن أمثلة هذه المراعاة قوله تعـالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾[٤].

---

(١) سورة الرحمن الآيات من ١ إلى ٩ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٤ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٨١ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٩١ .

وفى هذه الآية بيان لإنكار اليهود إنزال الوحي على بشر هو محمد بينما هم يؤمنون برسالة موسى ﷺ، وقد رد الله عنادهم وأفحمهم بأخصر طريق بسؤالهم عن المسلمات عندهم وهي من نوع ما ينكرون ولذلك سألهم عن الكتاب الـذي جاء به موسى عن من أنزله عليه ؟

وحينما يبدأ المعاند في إنكار المسلمات بإلقاء شبهه عليهـا، نجـد القـرآن الكريم لأن قصده الحق يأتي بطريقة تعرف " الانتقال " حيث يترك ما ألقيـت عليه شبهه الخصم وينتقل إلى ما لا شبهه فيه، وذلك كقوله تعـالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فإن النمرود قد جادل في الأمور المسلمة وادعى قدرته على الإحياء والإماتة، وبرغم بطلان ادعائه، فإن إبراهيم ﷺ لا يناقشه فيه، بل ينتقل إلى استدلال آخر لا يجد الملك فيه وجهاً يتخلص به منه فقـال ﷺ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ وفى هذا إفحام وإلزام للملك المعاند المكابر لأنه لا يظنه أن يقول أنا الآتي بالشمس من المشرق لأن من أسن منه يكذبه[2].

ومن هذا الانتقال قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وفى هذه الآية إفحام للمنافق ورد لقوله الذي يزعم عزة المنـافقين وذلـة المؤمنين، إذ تثبت عزاً وذلاً، ولا تنكرهما لكنها تجعل العزة للمؤمنين والذلـة للمنافقين وبعد ما تصحح المفهوم السليم يصدق قولهم ليخرجن الأعز منها الأذل أما أن كان الخصم سهلاً ليناً فإن الجدل يلين معه في المناقشة، ويرده إلى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٢) من بلاغة القرآن صـ٣٧٥ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٨ .

أمور مسلمة ابتداء وذلك كقوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ فقد استدل سبحانه وتعالى على بطلان أن يكون له ولد بأمر معروف مألوف لا يماري فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة، ولم يدع أحد أن له صاحبة فيجب أن لا يكون له ولد [١].

وأما إن كان الخصم من المكابرين الذين لا يستفيدون مطلقاً فإن الجدل يضع معهم حداً حتى لا يخرج الجدل عن الحسنى التى أمر الله أن يتحلى بها جدل الدعوة وذلك كقوله تعالى للكافرين ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ فقد وضع هذا الجدل حداً للنقاش مع هؤلاء الكافرين المكابرين يقول الإمام الخازن : والمخاطبون بهذه السورة كفرة مخصوصون قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون [٢].

ولذلك أمر الله رسوله أن يترك الجدل معهم ويعرفهم أن له دينه ولهم دينهم والأمر لله بعد أن أوضح الحجة وألزمهم المحجة .

٤) الترغيب والترهيب :

يراعي الجدل القرآني هذا النوع في الخطاب لأن الإنسان يحب الخير ويسعى إليه ويكره الألم وينفر منه، ولهذا الغرض يسوق القرآن حواراً يجرى بين أهل الجنة وأهل النار فيقول تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] والوعد المسئول عنه أشياء جاءت على ألسنة الرسل تظهر في الآخرة كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، ومجرد اعتراف الكفار بوقوع الوعود به يثير وجدان الكافرين ويجعلهم يرهبون مصيرهم، بسبب الكفر ويحاولون النجاة .

ويقول تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ

---

(١) تاريخ الجدل صـ٦٩ .

(٢) لباب النقول جـ٤ صـ٤٦١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٤ .

أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

هذه الآية تبين أن الجنة فوق النار وأن ماءها العذب ورزقها اللذيذ كثير فيه فيض وسعة، إلا أنه مع كثرته محرم على الكافرين الذين أهملوا الرسالات واتبعوا الهدى وجهلوا أن لهم هذا اليوم الموعود .

وهكذا يقدم الجدل القرآني صوراً متعددة من مناقشة الخصوم مما جعله أسلوباً ناجحة للدعوة تملك التأثير في الناس وهدايتهم إلى الصواب .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٠ .



الفصل السادس

منهجية الأساليب في إطار الحركة بالدعوة

تمهيد :

من دراستنا السابقة نلاحظ التزام الأساليب لمنهج واحد ذلك أنها قد تختلف في التركيب اللفظي والتوضيح البياني إلا أنها في الحقيقة لا تتخطى هذا المنهج ولا تتعداه .

وهو منهج مرن قابل للتطبيق في كل آن ومكان، ذلــك أن تجربتــه فـــي العصر الأول تعتبر تجربة ناجحة تؤكد فائدته وتبين صلاحيته، لإبلاغ الــدعوة دائماً .

وحين نعلم أن هذه الأساليب هي كلام الله تعالى، علينا أن نتيقن تماماً أنهــا هي الحق، وأن تأثيرها في القلوب والعقول دقيق ... وعلينا أن ندرك فضل الله تعالى على الناس إذا نزل إليهم دينه، وحببه إليهم بمزاياه، وزينه فـــي قلـــوبهم وعيونهم، ومشاعرهم بأدلته المقنعة، وأساليبه المعجزة، وبيانه البليغ الواضح .

وكما أفادت أساليب القرآن الكريم الإسلام أولاً يمكنها أن تستمر في إفادتها المحققة .

إن الأمر يحتاج إلى إحاطة تامة بأساليب القرآن الكريم، ومعرفة تفــصيلية بجوانب التأثير، والإقناع المبدع للأخذ بها والسير على منوالها .

ومن هنا ....

فإننا بعد دراسة الأساليب القرآنية يمكننا أن نستخلص أسس هذا المنهج التي سارت عليها، وأعطتنا خطة واقعية تعتمد على الأسس التالية :

المبحث الأول
تفهم طبائع الناس

تختلف طبائع الناس، وتتنوع عقائدهم، وتتعدد ميولهم، وتبعاً لذلك انقسمت الإنسانية إلى اتجاهات وجماعات، والطريقة المثلى لتحقيق اتصال مع هؤلاء الناس هو إتيانهم من حيث اهتمامهم، ومشاركتهم في خصائص حياتهم ومعايشهم.

والدعوة الإسلامية عامة ودائمة، وعليها أن تستوعب الناس علماً بطبائعهم وتفهماً لاهتماماتهم، حتى تتمكن من تحريك داعية النظر عند كل جماعة على حدة، وحتى تستطيع إبلاغ الإسلام إلى الجميع، ومن هنا ملكت الدعوة أمثل الطرق في تحقيق الاتصال بالناس عن طريق الأساليب التي تميزت بتضمنها الفهم الدقيق لحقائق الناس.

وقد سبق أن بينا كيف أنها أشارت إلى اختلاف البشر أمام الحق حيث يقترب منه الضعفاء، ويعارضه المستكبرون استعلاء وعناداً.

وتفهمت كذلك طبيعة الترف ودور المترفين أمام الدعوة حيث يقفون منها موقفاً معارضاً كي يحافظوا على أوضاعهم المكتسبة من الترف والتي يخافون ضياعها.

وأحاطت كذلك بثقل الموروثات على المدعوين .

وبينت أن الكفار المعاندين مع اختلاف اتجاهاتهم يتوحدون أمام الدعوة من أجل محاربتها وهدمها.

ثم إن الأساليب كذلك تبين تعلق الإنسان بالمادة وأنه من أجلها ينسى نفسه وعقيدته، لا عن جهل بنعم الله وخيراته، بل على معرفة تامة بها، ولكنها معرفة غير مفيدة، لأن الإنسان يعرفها وينكر الواجب عليه في مقابلة شكر هذه النعم.

وتعرف أن طبيعة الإنسان تهوي الجدل والمعارضة والمخاصمة، خاصة حينما يترك الإنسان مسئوليته ويتعلق بالدنيا مع ضآلتها وحقارتها.

وتبين الأساليب أن العقيدة الدينية الخاطئة تعطي لأتباعها نوعاً من الأخلاق الفاسدة كاليهود حيث غمرتهم بالمادية وحب القتل والاضطهاد لغيرهم، والنفاق يعطي الكذب والخداع والتضليل .

ومن دقة الأساليب في الإحاطة بطبائع الناس أنها تبين الخصائص العامة التي تدور مع كل الأمم سواء اختلفت عملاً أو مكاناً أو زماناً، وخاصة ماله علاقة بالدعوة السماوية، وهي في الوقت نفسه خصائص شاملة لكل النوع الإنساني من الرجال والنساء والكبار والصغار، وهي واعية كذلك إذ تراعي وضعية الناس وطبقاتهم .

ولعل الأساليب وهي تعرفنا بطبائع الناس من خلال مناقشتها لهم تمدنا في الوقت نفسه بالنموذج الأمثل في دعوة كل فريق حسب طبقته وطبعه، وعن طريق الاستعلاء بغرائزه .

ومن دقتها كذلك إحاطتها بعقائد البشر مع تنوعها، فتجدها تعرف باليهود واليهودية والمسيحيين والمسيح، وتشير إلى المجوس والصائبة وعبدة الكوكب، والأشخاص، والأصنام والأوثان وإلى الدهريين الذين لا يؤمنون بالله ما ، وهي لا تعرف أصحاب العقائد وفقط وإنما تناقشهم بعدما سهل الله ذلك بأن جعل في الجزيرة العربية نموذجاً لكل العقائد حتى تكون مجابهة الأساليب شاملة وعامة من أول ظهورها .

والأساليب وهي تحيط بالناس تأتي مناسبة لهم، فتتنوع خطاباتها من أجلهم ولذلك جاءت على شكل قصة أو جدل، ومن هنا قدمت بحق تطبيقاً واقعياً صادقاً لقوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1] حيث كانت الحكمة للخاصة من الناس والموعظة للجمهور والعامة والمجادلة للمعاندين .

وقد رأينا النواحي الفنية في الأساليب، ومدى تأثيرها المعجز، وتناسبها الكامل مع المدعوين .

والقرآن الكريم لأنه كتاب الدعوة، ودستورها، وطريقها راعى دائماً هذه المناسبات فكانت أساليبه، وفق ما أرد الله له، بل إن هذه الأساليب قد غاير المكي منها المدني مثيله حتى تكون دقة التناسب وافية، ففي القرآن المكي نرى

---

(١) سورة النحل الآية١٢٥ .

الاختلاف واضحاً بين أهداف سورة وأهداف السور المدنية، وذلك لأن أهل مكة كانوا على ضلال في العقيدة وكانوا أهل سيادة ورياسة ديدنهم العناد، وخلقهـم الجفاء، وغريزتهم الجدل والجمود والكبرياء .

ومن هنا لم تخرج موضوعات السور المكية عن بيان الفساد في الـشرك والكفر، ورد المفتريات الباطلة التي يعتقدها أهل مكة، وبيان أصول الإسلام من عقيدة تؤمن بإله واحد، وتصدق بالرسول المبشر، وتسلم بالعبث والجزاء فـي يوم القيامة، ومحاولة نشر أخلاقيات جديدة تناسب العقيدة السليمة .

ومن هنا انتشر في الأسلوب المكي الإنذار والتخويف، في قصة أو قسم أو جدل أو مثل، وأيضاً كثر في السور المكية حديث التسلية للنبي ﷺ والمـؤمنين •معه، ودعوتهم إلى الصبر والتحمل .

أما أهل المدينة فكانوا طوائف من المسلمين واليهود والمنافقين، ومن هنـا جاء القرآن المدني يخاطب هذه الطوائف ويجادلهم، ويشرع للمسلمين في كافة الأحوال ويوجه المشركين إلى الخير، ولذلك من أراد أن يعرف اليهود فعليـه بسورة البقرة والنساء والمائدة، وكلها مدنية، ومن أراد دراسة النصارى ففـي سورة آل عمران والنساء والمائدة ومن أراد دراسة المنـافقين فعليـه بـسورة النساء والمنافقين والأحزاب .

والأسلوب المكي يغاير هو الآخر الأسلوب المـدني لأن المكـي قـصير الجمل، كثير التكرار والتأكيد مليء بالقصص والأقسام، فيه مناسبة الفواصـل ورنين السجع الكثير، أما المدني فقل أن تجد فيه شيئان من هذا يقول صـاحب كتاب القرآن وعلم النفس: والعالم النفسي في ذلك أن القوم في مكة كانوا غيـر مستقرين، بل كانوا مطاردين قلقة نفوسهم، غير مستعدين لتشريع أو تفـصيل والمشركون أيضاً كانوا منصرفين عن سماع القرآن متأثرة نفوسهم بأدبهم قريباً عهدهم بخطبهم المثيرة لوجدانهم.

والتشريع يحتاج إلى هدوء ورزانة في العقل وترو فـي المنطـق وتقبـل للإرشاد ورغبة في التطور والإصلاح وطاعة للأمـر واستجابة للداعي، وكل

هذه الحالات النفسية غير متوفرة في الحياة المكية.

ويقول : إن الطول وعدم السجع في القرآن المدني أغلبي فقد يوجـد فـي بعض الآيات المكية طول أو قصر منوط بموضوعها حسبما تقتضيه البلاغـة، فالسور والآيات التي يراد بها الوعظ والزجر يحسن فيها أن تكون أقصر مـن آيات الأحكام وهي تكثر في القرآن المكي لأنه هو المناسب لحال المخاطبين من المشركين لجمودهم وعنادهم وطول باعهم في البلاغة [١].

إن مراعاة المناسبة مع سائر المدعوين هي التي مكنت الأساليب من هدفها وقد رأينا كيف أدت دورها في فنية مؤثرة وشمول دقيق .

إننا بالنظر في أساليب القرآن نلحظ سهولة تطبيقها في العصر الحديث ذلك أن الداعية الكفء سواء كان محاضراً أو خطيباً أو مدرساً أو مشرفاً على ندوة أو مناظراً، يمكنه أن يستفيد بالوسائل فيفهم منها كيف يعامل أجنـاس النـاس، وبعد فهمه للمدعوين يمكنه أن يحدد منهج دعوتهم فيذكر قصة أو قسماً أو مثلاً، وهكذا .. ويورد في منهجه مع المدعوين ما يلمس شغاف قلوبهم ويحرك داعية النظر لديهم .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم محفوظ كما أنزله الله، وما زال يملك حيويته ومرونته وتأثيره كيوم نزل إلى الأرض، وما زالت وسائله تملك خصائـصها، وفنيتها في التبليغ، والداعية الناجح يدرك أن نجاحه موقوف على مدى تفهمـه وإحاطته بوسائل القرآن الكريم .

---

(١) القرآن وعلم النفس صـ٢٩ .

المبحث الثاني
تفهم الدعوة

وكما تحيط الأساليب بالناس وعقائدهم تفهم الدعوة بأصولها وفروعها وتعلم أن الإيمان بالأصول مقدم على غيره بل إن من الأصول ما يستتبع غيره بالضرورة كالإيمان بالله والتصديق بالرسول فإنهما يستتبعان باقي الأصول والفروع .

والوسائل بفهمها للدعوة تتمكن من تحديد الهدف الذي تدعو إليه وتتجه إلى غاية معروفة محددة، وهو فهم دقيق يميز الدعوة عن غيرها من الدعوات ويجليها بخصائصها التى انفردت بها من بين سائر العقائد، ذلك أن الدعوة تتكون من ثلاثة أشياء :-

الأول : العقيدة المشتملة على أصول الدعوة وهي عبارة عن الإيمان بالله وبالرسول وبالملائكة وبالكتب المنزلة وباليوم الآخر .

الثاني : الشريعة المتكونة من فروع الدعوة وهي العبادة المحددة بأوقات ومقادير على وجه الضرورة، أو غير المحددة وتسري في سائر الأعمال والأقوال .

الثالث : الأخلاق وهي النتاج الضروري للعقيدة والشريعة وهي مجموعة من المحاسن النفسية وتظهر بآثارها في الأقوال والأعمال .

وهذه الأمور الثلاثة لا انفصال بينها لأنها تكوّن الإسلام فلابد من اتحادها على أن تكون العقيدة أصلاً يدفع إلى الشريعة وتكون الشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة وبعد استقامة العقيدة والشريعة تكون الأخلاق رمزاً لهما وعنواناً على صدقهما عند صاحبهما .

ونلمح من الأساليب أنها تفهم الدعوة بشمول، وتعرف العقيدة والشريعة والأخلاق وتقدرها تماماً وتعلم كيف تبدأ بأي جزء من الدعوة حين تبلغها للناس.

وقد لاحظنا هذا الفهم عند دراستنا للأساليب القرآنية من قصة وقسم وغيرها كما علمنا مدى إحاطة الأساليب بكافة جوانب الدعوة .

المبحث الثالث
حسن عرض الدعوة على الناس

بعد تفهم طبائع الناس وحقيقة الدعوة كان على الوسائل أن تقوم بدورها في الإبلاغ على وجه يضمن نجاحها في الغالب، وهذا الضمان ضرورة عرفها الله سبحانه وتعالى لرسول ﷺ وهو يأمره بقوله ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[١] وبقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[٢].

وهكذا عرف الله رسوله أن يتخذ المناسبة الحسنة فيذكر حين يغلب على ظنه أن الذكرى ستنفع، ويترك القوم حينما يلقاهم يعبثون بآيات الله لأنهم لا يسمعون ساعتئذ وسيعرضون عن الدعوة إذا عرضت عليهم .

ومن الأساليب ذاتها نعرف كيف نعرض الدعوة في حسن وجمال .

وعرضها الحسن يتطلب شقين شقاً يتعلق بالدعوة وشقاً يتعلق بالناس .

أما الشق الذي يتعلق بالناس فهو يتكون من نقاط تلاحظها الأساليب فيما يلي :-

أولاً : تقدير الإنسان :

حيث أعطى الله للإنسان كثيراً من النعم وسخر له الكون كله، ورزقه العقل ليفهم الأمور ويتدبرها، فلما جاءت الدعوة لم تنقص الإنسان شيئاً بل أعلنت محافظتها على كثير من المسائل الفطرية إذ بينت :

أنه لا إكراه في الدين، لأن الإكراه لا يتفق مع طبيعة الدين الذي يحتاج إلى إخلاص شامل للظاهر والباطن معاً، ولو تصورنا أن الإكراه يفيد مع الظاهر فإنه لا يمكن تصوره مع الباطن، مطلقاً ومن هنا كانت الحرية الدينية من ضرورات الدعوة .

وبينت كذلك أن الناس جميعاً سواء، فهم لا يتمايزون بسبب النسب أو

---

(١) سورة الأعلى الآية ٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٨ .

الجاه، إذ ينتمي الجميع لأب وأم واحدة فهم متساوون في الحقوق والواجبات ومعيار محاسنهم عند الله هو دينهم وتقواهم فقط، وما الدرجات المختلفة للناس إلا تفاوت في المال وطبيعة العمل وهذا لا يستتبع تفاوتاً في الكرامة والحقوق .

وحافظت الدعوة كذلك على عقل الإنسان ونادت بضرورة ضمان الحرية له وحاربت كل ما يؤدي إلى هدم الحرية، وتعطيل العقل، وإيقاف نظره وتدبره .

وبينت كذلك أن الإنسان عليه أن يبذل كل قواه ليسخر الطبيعة المذللة له ويستولى على الكون كله، وبذلك يكون بحق هو خليفة الله في الأرض .

ومن هذه النظرة للإنسان انطلقت الدعوة ولم تخالفه أبداً، ولعل الوسائل والأساليب التي تبلغ بها الدعوة أكبر دليل على تقدير الإنسان لأنه لا إكراه فيها، وتدعو الجميع على قدم واحدة، وتخاطب الإنسان وحده، وتساعده على أن يصل إلى السعادة والسلام .

ثانياً : ملاحظة التنوع البشري :

وتلاحظ الوسائل تنوع الناس أمام الأدلة وقد رأينا كيف أن العلماء أجمعوا على أن من الناس من تكفيه الأدلة الخطابية ومنهم من تكفيه الأدلة البرهانية اليقينية ومنهم المجادل اللدود، ومن هنا أتت الأساليب مراعية هذا التنوع، فجاءت المواعظ الحسنة والحكمة، والجدل بالحسنى لتتناسب مع كافة الطوائف.

ثالثاً : ملاحظ التنوع الغريزي :

ومن المعلوم أن الجبلة البشرية تنطوي على مجموعة من الصفات لا يمكن أزالتها بالكلية، وقد لاحظ النبي ﷺ هذه الجبلة في الناس فلم يحاول هدمها وإنما ترقي بها، فهو في المال يعطي رجالاً لا لحاجتهم وإنما لشدة حبهم للمال ويبين ذلك ﷺ بقوله (**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ**) [١].

وفي الفخر يعطيه لأبي سفيان يوم فتح مكة ويقول (**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**) [٢].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه جـ١ صـ٩١ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة حديث رقم ٣٣٣١ .

وهكذا ترقى النبي صلى الله عليه وسلم بغريزة هؤلاء، فأعطى رجاء الجنة وسمح للمؤمنين أن يدخلوا دار أبي سفيان إعلاناً عن إسلامهم وضماناً لأمنهم .

ومراعاة هذه الغرائز ضرورة للنجاح، ومن هنا راعت الوسائل غرائز الناس وخاطبتهم على أساسها .

فمن أجل غريزة التقليد والمحاكاة قصت عليهم طريقة نجاح الدعوات السابقة، ومن أجل تعصبهم عرفتهم بالمساواة وشاركتهم في الإيمان بكل ما فيه من خير أو مصلحة، ومن أجل غريزة بقاء النوع واكتساب الخير عرفتهم أن الإيمان يحقق ذلك كله والكفر يضيعه عن طريق ما عرف من الأساليب بالترغيب والترهيب .

وهكذا لاحظت الأساليب قيمة الإنسان وتنوعه وغرائزه .

أما الشق المتعلق بالدعوة فهو يتمثل في النقاط التالية :

١- تقدير الدعوة :

تبدأ الأساليب في مناقشة عقائد الناس مبينة فسادها من واقع فكر الناس أنفسهم، وقد رأينا كيف جادل سيدنا إبراهيم الناس في ألوهية الأصنام والكواكب والأشخاص وكيف بينت القصة ضلال الكافرين والمشركين وإنما بدأت الأساليب بذلك حتى لا تترك الناس في ضلالهم لكي تدعوهم بالحق بعد تخليصهم من الباطل .

٢- تجزئة الدعوة :

وتدعو الناس على مهل وتجزئ للناس دعوتها، فلا تقدمها لهم جملة حتى لا تثقل عليهم وتلاحظ استعداد الناس للجزء الذي تقدمه لهم، ومن هنا استمر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو مدة طويلة إلى التوحيد وهو في مكة، ولم ينتقل إلى غير التوحيد لأنه أراد أن يلمس أسس الدعوة ويعرضه لهؤلاء المشركين فمكث ﷺ يدعو بالتوحيد حتى شرعت الصلاة قبيل الهجرة .

ويلاحظ أن الدعوة كانت تقدم الأهم على المهم، ولذلك قدمت التوحيد وإثبات الرسالة على سائر تعاليمها لأنهما الأصل، وقد سبق أن بينا أن أنها

كلها كانت تركز على هذين الأصلين الهامين .

٣- تكرار الدعوة :

ومن خلال الأساليب يظهر التكرار واضحاً للدعوة لما في التكرار من فائدة فهو يشعر بالأهمية، ويحرك العقل والوجدان وقد سبق أن بينا ما للتكرار من أهمية وفائدة .

٤- بيان الغاية من الدعوة :

تحديد أي شئ هو مقدمة نجاحه، وبيان فائدته أقوى دليل على خلوده ولقد اهتمت الأساليب بادئ ذي بدء، ببيان أهداف الدعوة، فعرفت أن الإيمان بالدعوة يحقق في الدنيا النجاة من الضرر والتمكين في الأرض، والنصر والفوز ويحقق في الآخر السعادة والأمان، بل إن سائر تعاليم الدعوة هادفة إلى حفظ الضرورات الخمسة التى تحقق سعادة الدنيا والآخرة .

٥- الدليل المناسب :

وتحقق الأساليب بأدلتها فائدة عظمى، ذلك أنها تلاحظ نوعية المدعوين ومدى تقدمهم وتأتي لهم بالأدلة المناسبة، فمثلاً تكون الأدلة بالمحسوسات أحياناً، وبالمعنويات أحياناً أخرى، وبهما معاً أحياناً أخرى، وذلك يحقق لها الوصول إلى أفهام الناس أجمعين والدعوة تستطيع أن تنوع دليلها وتصنعه في شكل قصة أو مثل وهكذا تبعاً لطبيعة من تخاطبهم خاصة وأنها أحاطت بهم، ومن الأولى أن تكون الأدلة مستنتجة من نعم الله الكاملة، ففيها العناية وكلها لها غاية وهذا خير من جدل الفلسفة وأدلتها .

الباب السابع

أمة الإسلام
بين الدعوة والإجابة

تمهيد :

الإسلام دين عالمي، أنزله الله تعالى ليؤمن به كل إنسان مكلف ظهر أو يظهر على وجه الأرض بصورة مستمرة إلى يوم القيامة، فلقد ختم الله به الأديان وجعله صالحاً لكل زمان ومكان .

إن الأديان جميعاً نزلت من عند الله تعالى، وبلغها للناس رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، ولذلك نراها تلتقي في أصول واحدة، وتدعو لسمو خلقي، ونبل في الطباع والمعاملة ... وما اختلافها التشريعي إلا لحيثيات اقتضتها أوضاع الناس الحضارية وتقدمهم في الثقافة والمدنية .

إن الأديان الإلهية تنبع من معين واحد، وتهدف لغاية واحدة، وتسير في خط مستقيم واحد، تتعدد حلقاته وتترابط جزئياته في تناغم، وتناسق، ووئام .

ومعنى ذلك أن يسلم كل دين الأمانة لمن بعده، ليحمل الأمانة آخرهم، ونقوم بالدور الذي من أجله وجد الجميع .

إن الإسلام ختم الأديان ولذلك نراه يعترف بهم، ويعتمد أصولهم ويجل رسلهم وكتبهم، ويأتي بالجديد الذي يحتاج إليه الناس .

وهو دين عالمي كذلك، ولذلك نراه يحدد للثوابت أحكاماً لا تتغير لأنها في حقيقتها في ذاتها ومع الناس لا تتغير ... وبالنسبة للمتغيرات في عالم واسع عريض ممتد على الزمن كله نراه يضع المبادئ الكلية والقواعد التي تضبط هذه المتغيرات وبذلك كانت التعاليم التي تستوعب الجديد وتحدد المسار المشروع ... ومع الاختلافات نرى الصورة الإنسانية الراقية مقررة في الإسلام دين الله الحنيف

وعلى هذا فإن العالم كله هو أمة الدعوة إلى دين الله تعالى لأن الإسلام يجب أن تتجه دعوته إلى كل إنسان في العالم كله حتى لا يكون لواحد من الناس عذر أمام الله تعالى، وهو يحاسبه عن تفريطه، وعدم إسلامه وبعده عن الإسلام دين الجميع إلى يوم القيامة .

لقد جاء الإسلام للناس أجمعين، والكل ملكف به، وللتفرقة بين العالم كله، وبين المسلمين فيه ذهب العلماء إلى أن الأمة في نظر الإسلام أمتان هما :

الأولى : أمة الدعوة :

وهي العالم كله في كل زمان ومكان وسموا بأمة الدعوة لأنهم مجال حركة الدعوة وإيصالها إليهم واجب شرعي لكل فرد في العالم كله، ذكراً كان أم أنثى، أسلموا أو لم يسلموا .

الثانية : أمة الإجابة :

وهم الذين دخلوا في الإسلام، واستجابوا للدعوة، وتحملوا مع سائر المسلمين أمانة التكليف ومسئولية البلاغ .

وعلى هذا فأمة الإجابة فريق خاص من الناس وهم الذين أسلموا، وأمة الدعوة هي البشر أجمعون مناط الدعوة، ومجال تحركها .

ونظراً لأن الخطة الصحيحة تقضي بمعرفة المدعوين قبل التوجه إليهم فقد عقدت هذا الباب عن المدعوين للتحدث عن أمة الإجابة وأمة الدعوة وذلك في فصلين متتابعين، والله الموفق ،،

الفصل الأول

أمـــة الإجـابة



تمهيد :

المسلمون هم أمة الإجابة وذلك أمر مقرر بعد إسلامهم واستجابتهم لنداء الحق والدخول في دين الله تعالى .

ولقد بلغ رسول الله ﷺ الإسلام، ولم ينتقل ﷺ إلى ربه إلا بعد أن أوصل الإسلام إلى العالم المعروف يومذاك، وأرسل رسله، وكتبه إلى كل ملوك وسلاطين الدنيا ... وبعدما أوجد للإسلام قاعدة بشرية تتحمل مسئوليتها تجاه الدعوة تتمثل في أبناء الجزيرة العربية .

وقد قام الصحابة والتابعون من بعدهم بواجبهم، وشعروا بثقل الأمانة التي تحملوها، فشمروا عن سواعدهم، وانطلقوا إلى كل مكان أمكنهم أن يصلوا إليه داعين إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن .

وقد رأينا حين دراسة أساليب الدعوة مدى إحاطة الأساليب بنفسيات المدعوين، وميولهم، وغرائزهم، والتعامل معهم.

وفى العصر الحديث اتسع نطاق الكون، وتعددت أوطان المسلمين وتحقق في عالم الواقع ما لا يرضاه مسلم مخلص لدينه، حيث بان ضعف المسلمين، وظهر تخلفهم في كل أمور الدنيا، وصاروا عالة على غيرهم من الناس.

إن اليد العليا خير من اليد السفلى، ومن سنن الحياة أن الضعيف يجد نفسه مضطراً لخدمة الأقوى ... والجاهل مجبول على أن يمشي في ركب العلماء، وذلك أمر فطري وضع المسلمين في مؤخرة الناس، الأمر الذي أثر في حركة الدعوة وشجع الأعداء على الهجوم .

وفي هذا الفصل سأتحدث عن أمة الإجابة المعاصرة من عدة نواحٍ حتى تتمكن الدعوة من النهوض والتقدم وأداء الواجب بصورة صحيحة وذلك في المباحث التالية :

المبحث الأول
التوزيع الجغرافي للمسلمين

يقترب عدد المسلمون اليوم من المليارين ، يتوزعون في أقاليم العالم المختلفة، بعضهم يمثل الأكثرية في دول إسلامية، وآخرون هم الأقلية في دول أخرى .

وانتشار الإسلام بدأ ببعثة النبي ﷺ وهو مستمر حتى الآن .

فلقد بدأ بالدعوة سراً في مكة، ثم كان الجهر بها، وبعد الهجرة كانت الغزوات والفتوحات حتى وصل للعالم كله .

وهكذا ...

ظهر الإسلام في جزيرة العرب، ومن مكة والمدينة كان انطلاقه، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وقد أسلمت الجزيرة العربية كلها، ودخلت في دين الله تعالى جميعاً وبعدها قال الرسول ﷺ (**لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**)[١].

وفي نفس الوقت وصل البلاغ إلى أقاليم العالم بواسطة الرسائل، والوفود، وحركة التجار، وانتشار أخبار الإسلام والمسلمين بما فيها من مزايا ومحاسن .

ومن الجزيرة العربية بدأ انطلاق الفاتحين، ففتحوا بلاد الشام ومصر اللذين مثلا نقطتي الانطلاق لنشر الإسلام شرقاً وغرباً .

ومن مصر تحرك المسلمون بإسلامهم في موجات متتابعة إلى جهات ثلاث بواسطة الدعاة والفاتحين .

فمن مصر اتجهت الانطلاقة الأولى إلى الشمال الأفريقي، وتم فتحه، فدخلت ليبيا، وتونس، والجزائر والمغرب، وموريتانيا في الإسلام، ومن الشمال الأفريقي امتد الإسلام إلى الأندلس والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن مصر أيضاً كانت الانطلاقة الثانية إلى الجنوب، وتم فتح بلاد النوبة، والسودان وتشاد، ووقفت عند حدود الصحراء الكبرى .

---

(١) موطأ مالك الكتاب الجامع باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة رقم ١٦٥١.

ومن مصر كذلك كانت الانطلاقة الثالثة إلى الشمال، حيث ركب المسلمون البحر الأبيض وفتحوا أهم جزره مثل تكريت، وصقلية، وغيرها .

وباستقرار الإسلام في السودان صار السودان مركزاً رئيسياً للدعاة والعلماء بالنسبة لأفريقيا، وأصبح السودان البوابة الشرقية لأفريقيا، ومنه تمتد طرق عديدة لكل البلاد الأفريقية، وأبناء السودان بسبب تقاليدهم، وعاداتهم، ولون بشرتهم، أقرب الناس إلى قلب وعقل الرجل الأفريقي(١)، وقد استفادوا بهذه المزايا حيث وصلوا بالإسلام إلى الشرق، ونشروه في الحبشة والصومال وإريتريا .

وقد ساهم عرب الجزيرة في مساعدة السودانيين في إيصال الإسلام إلى شرق أفريقيا، فركبوا البحر الأحمر إلى قارة أفريقيا، وتمكنوا مع السودانيين والأحباش في نشر الإسلام في أوغندا، وكينيا، وزيمبابوي، ومدغشقر، وجزر القمر، وتنزانيا، وغيرها .

وبواسطة السودانيين وبمساعدات ومساهمات من عرب الشمال الأفريقي وصل الإسلام إلى غرب ووسط أفريقيا، فدخل الإسلام إلى السنغال، وجامبيا، وغانا، وغينيا، والنيجر، ونيجيريا وغيرها .

وهكذا وصل الإسلام إلى كل أفريقيا في القرون الأولى، لظهور الإسلام ما عدا جنوب أفريقيا فقد وصلها الإسلام متأخراً مع المهاجرين المسلمين، الذي جاءوا من الهند، وبلاد الغرب، وأفريقيا .

والخلاصة فإن أفريقيا تعد قارة الإسلام الكبرى، ومجال الدعوة فيها حسن، إلا أنها تحتاج في الدعوة إلى جهد وتضحية .

ومن بلاد الشام الجناح الشرقي للإسلام وصل الإسلام إلى بلاد فارس " إيران " ومن إيران تحرك الإسلام جنوباً إلى الهند، وشرقاً إلى بلاد التركستان، وأفغانستان.

ومن بلاد التركستان انطلق الإسلام إلى الصين، وقد قـــام عرب الجـــزيرة

---

(١) لعل هذه الوضعية للسودان هي التي تؤلب عليه قوى العالم المعاصر لإضعافه وإبعاده عن واجبه الإسلامي .

بركوب البحر إلى الجنوب الذي كانوا يذهبون إليه تجاراً يحملون الإسلام في سلوكهم ونشاطهم، وتمكنوا بذلك من نشر الإسلام في الجزر، وأشباه الجزر، الموجودة في المحيط الهندي وبذلك دخل الإسلام في الملاوي، وإندونيسيا، والفلبين، وماليزيا، وسيلان .

ولما استقر الإسلام في وسط وجنوب آسيا اهتم أهل هذه البلاد بالإسلام فانطلقوا به إلى الشمال عكس اتجاهه السابق ونشروا الإسلام في تركيا، وبلاد الأناضول، وشرق أوربا.

وهكذا انتشر الإسلام في قارات العالم في القرون الأولى .

وفى العصر الحديث أوصل المسلمون دينهم إلى العالم كله، بواسطة الهجرة، والسفر والتجارة، فوصل إلى الأمريكتين، واليابان، واستراليا وشمال وغرب أوربا .

وهكذا يكون للإسلام وجود في كل مكان ، مع توجه جميع المسلمين إلى موطن الدعوة الأول حيث الكعبة في مكة المكرمة، ومسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، وحيث الأمة العربية المسئولة الأولى عن تبليغ الإسلام للعالم كله وفى جميع الأوقات .

ومع هذا الانتشار الواسع للإسلام نلاحظ ما يلي :

أ- استمرارية هذا الانتشار وتوسعه في العصر الحالي دليل على أن الإسلام لم يستعمل القوة أو القهر في انتشاره وإنما كان يكتفي بالدعوة البيانية، والعملية التي أقنعت الناس به، والمسلمون الآن هم أضعف الناس في عالم اليوم ولو كان انتشار الإسلام بالقوة، لاستغل المقهورون ضعف المسلمين، وانقلبوا على الإسلام والمسلمين لكننا نرى الانتشار المستمر للدعوة وسط هذا الوضع الهين للمسلمين .

والحركة بالإسلام تؤكد حرية المسلمين في اعتناق الإسلام لأن أغلب المسلمين الجدد كانوا يتحولون بمجرد إسلامهم إلى جند ودعاة للإسلام، يبلغونه إلى من وراءهم، وذلك واضح في حركة انتشار الإسلام .

ب- يصل الإسلام دائماً إلى الناس قبل الفاتحين، يفسر ذلك أن الفاتحين في أغلب البلاد لم يلقوا مقاومة، وإنما كانوا يجدون أقواماً يسارعون في إعلان إسلامهم والترحيب بهؤلاء القادمين .

ج- هناك أماكن عديدة في أفريقيا وآسيا لم يصل إليها الفاتحون، كالجزر الأندونسية والماليزية والملاوية وغيرها في جنوب أسيا وأعالى الجبال في آسيا وأواسط الغابات في أفريقيا، ومع ذلك وصل الإسلام إليها، ولا تفسير لذلك إلا اقتناع الناس بالإسلام بعد معاشرتهم للتجار، وسماعهم دعوة العلماء فلقد أسلموا ولم يصل إليهم فاتح .

د- لم يحدث أن ارتد شعب عن الإسلام بعد أن آمن به، وإنما حدثت إزاحة للمسلمين من بعض أوطانهم بالقوة، وإحلال غيرهم مكانهم، كما حدث في الأندلس، وفلسطين وبعض بلدان شرق آسيا في إطار الاستبداد الشيوعي الروسي .

ويكفي معرفة مدي ما في الإسلام من إقناع، وخصائص ذاتية تدفع إلى الإيمان به، وما نراه اليوم من دخول العقلاء، والعلماء، في الإسلام بصورة معروفة ومعلنة في مختلف بلدان العالم مع أن أضعف الأمم اليوم هم المسلمون.

المبحث الثاني
أحوال المسلمين اليوم

لا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ليقف على أحوال المسلمين الآن في كل المجالات، فلقد خيم التخلف بظلاله على العالم الإسلامي كله، حتى بدا عالة على غيره في كل جوانب الحياة .

إنه في الجانب الاقتصادي، والعلمي، في المؤخرة بعد عدة دول عديدة من الدول النامية .

وقد أدى تخلفه المادي إلى الضعف، والعجز، فاندفع إلى تقليد الأغنياء الأقوياء، في أنشطتهم الاجتماعية، والفكرية، والخلقية، وصدق فيهم قول النبي ﷺ (**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا.**

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟

قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ .

قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ ؟

قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[1].

إن عوامل إضعاف المسلمين بدأت مبكرة، وقد تمكن أعداؤهم منهم فكان الاستعمار العسكري، والغزو الفكري، وأخيراً رحل الجنود وبقي الفكر، واستمر الضعف والهوان .

والذي يعنينا ونحن نبحث في شأن الدعوة المعاصرة هو أن نقف على الأحوال المذهبية والدينية والعقائدية للمسلمين لأن هذه الأمور هي ألصق القضايا بحركة الدعوة ونحن نجملها فيما يلي :

<u>١) ضعف الاعتقاد :</u>

ضعفت عقيدة المسلمين الدينية بوجه عام، فلم تعد شهادة التوحيد تملأ القلوب، وتحركها للعبادة والطاعة، وتحولت العبادة إلى أداء تقليدي لا أثر له .

---

(١) مسند أحمد كتاب باقي مسند المكثرين باب ومن حديث ثوبان رضي الله عنه رقم ٢١٨٩١ .

وخلت حياة المسلمين من العمل الجاد للدنيا، ولم يربطوا العمل نفسه بالله وبالآخرة .

وانقلبت النظم الفردية والجماعية للمسلمين، وتحولت إلى نقل دقيق لمناهج الآخرين، بلا ربط الإسلام بالنظم، وحدث انفصام صحيح بين العقيدة والحياة الإسلامية .

واهتم المسلمون بملء الحياة بما يشتهون، ويرغبون، لا بما أحل الله لهم .

<u>٢) طغيان المادة في حياة المسلمين :</u>

تضخمت معدة المسلم المعاصر حتى صار لا يشبعها إلى الجشع، والأنانية، وحب الذات وحمل الكثيرون جهنم في قلوبهم، لعدم الفصل عندهم بين الحلال والحرام، وعلامة ذلك إن الإنسان العصري يمجد الثراء، والجشع، ويعظم أمور الفساد والهوى، ويتجاهل القيم، والخلق الكريم ومن هنا أهملت الحقوق كافة، وعاش الناس حياة الترف والفساد وهم راضون .

<u>٣) الانقسام المذهبي :</u>

المتأمل لأحوال العالم الإسلامي يرى الانقسامات المذهبية بوضوح .

ولا أقصد المذاهب الفقهية، لأن الاختلاف في فروع الشريعة اجتهاد يثري الفكر، ولا يوصل إلى التعارض والانقسام، لأنه اجتهاد يقوم على الأصول الإسلامية، ومع كل اتجاه دليله، ومن حق كل مسلم أن يأخذ بأي رأي فقهي، فالكل أخذ من رسول الله ﷺ والذي أقصده هو الانقسام العقائدي لما فيه من خطورة على الوحدة الإسلامية فوق ما فيه من تعارض مع الثوابت الإسلامية .

إن الاختلافات في أصل الاعتقاد هو أساس تعدد الأديان والملل .

وبظهور الانقسام المذهبي بين المسلمين انقسمت الأمة، وأصبحت فرقاً، كل فريق يرى نفسه مؤمناً بالإسلام الصحيح، وغيره ليس كذلك، فاختلف المسلمون، وصارت الأمة شيعاً وأحزاباً، متضاربة يعادي بعضها بعضاً .

ويكفي لأي متسائل أن ينظر في خريطة العالم الإسلام مذهبيا ليرى المذاهب التالية :

السنة باتجاهاتها، والشيعة بمختلف فرقها، والصوفية بتنوع طرقها، والقاديانية وكثرة مزاعمها، والبابية والبهايية بزيفها وضلالها، وأهل البدع وما يلقونه في العقول ويزينون به إفكهم، واتجاهاتهم .

إن العالم الإسلامي ينقسم مذهبيا إلى أكثر مما أشرت إليه وقد تأثرت الدعوة بهذا الانقسام حيث لكل فريق دعوته ودعاته، والكل يخطئ الآخر، ويعارضه، الأمر الذي شوه دعوة الجميع، وأضعف صورة الدعوة إلى الإسلام دين الله تعالى.

إن هذا حال الأمة المذهبي اليوم، ويجب أن يكون واضحاً أمام المخلصين الصادقين ليعملوا على إنقاذ الأمة منه .

٤) الأمية الدينية :

يعيش المسلمون بصورة عامة أمية ثقافية فأغلبهم جاهل بأمور الحياة، قاصر في تصوراته، لا يعرف شيئاً عن الماضي، ولا عن الحاضر، ولا عن المستقبل، ضحل في المعرفة، عديم العلم .... ولعل سبب ذلك ما يعيشه العالم الإسلامي من فقر وجهل ومرض .

وقد أثرت الأمية العامة في المعرفة الدينية التي يجب على كل إسلامي أن يحيط بها، ويعرفها حتى صار المسلم – إلا من رحم الله وهم قلة – لا يعرف من أحكام دينه شيئاً، وأصبح يؤدي نسكه تقليداً وعادة فقط .

لو أخذنا نسأل في المسلمين عن من يتقن معرفة فرائض الوضوء وواجباته وسننه، ومستحباته ؟؟

ولو أخذنا نكرر نفس السؤال مع الصلاة، وباقي العبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية وغير ذلك ؟؟

لو أخذنا نسأل لنعرف لانكشفت أمامنا حقيقة مرة تؤكد وجود أمية مطبقة في المعرفة الدينية .

ويا ليت هذا الحال يدفع الناس إلى البحث والمعرفة، ويحفز الدعاة على التعليم والاجتهاد في دعوة الناس، والعمل لمواجهة هذا الواقع، ليت ذلك حدث

أو يحدث ... إلا أنه على كل الأحوال يجب أن يحدث مع الأمية الموجودة .

٥) الضعف العام :

تحتاج الحقيقة إلى قوة تسندها، لتعيش مرهوبة الجانب، يحترمها الغير، ولا يجترئ على العدوان عليها .

ومن المعلوم أن الضعيف يعجز عن حماية حقه، ويعيش تابعاً للأقوياء .

وعلى مدد طويل من الزمان تحولت الأمة الإسلامية، إلى ضعف مطلق لا قوة لها البتة، ويكفي دليلاً انقسامها إلى أوطان عديدة، وتحولها إلى دول شتى، تمكن الفقر والحاجة منها جميعاً .

وقد أدى بها الوضع المادي الهزيل إلى التنازل عن كثير مما كانت تملكه.

إن العالم الإسلامي الآن يبحث عن لقمة العيش يأخذها هبة وعطاء من غيره .

وهو الآن يحتاج إلى غيره في كافة جوانب الحياة، في الصناعات على تعددها، وفى الزراعة مع تطورها، وفى التجارة وتعدد وسائلها، حتى في المعرفة والثقافة والتعليم أصبح محتاجاً إلى خبرتها وخبرائها .

هذا الضعف هو سمة العالم الإسلامي المعاصر ويجب أن نعترف بذلك .

ومع هذا الحال .....

لابد أن تستمر الدعوة ويجب أن تتجه إلى الواقع بمنهجية تلائمه لتتمكن من علاج حال الأمة ودعوة الآخرين في نفس الوقت .

المبحث الثالث
حركة الدعوة بين المسلمين المعاصرين

المسلمون اليوم أحوج الناس إلى اكتشاف حقيقة الإسلام مرة أخرى بعدما عم الجهل بالإسلام، وتحول عند البعض إلى ثقافة فكرية لا تأثير لها في واقع الحياة، وامتلأ نشاط المسلمين بنظم وأنشطة غير إسلامية لدرجة أن من ينظر إلى أحوال الناس يتخيل نفسه في مجتمع لا إسلام فيه .

فالنساء في الطريق عاريات مائلات مميلات، والخلاعة والمجون سمة الشباب، ودور اللهو والعبث تستقبل روادها ليل نهار .

والإعلام بصوره جميعاً خلط بين الجد والهزل، وصوت الباطل فيه أعلى من الحق في كثير من الأحيان .

والمؤسسات الدينية تعمل بلا خطة منتظمة، وبعيداً عن هدف مقصود .

والدعوة في جملتها تحتاج لتخطيط وتنظيم، وإشراف ولابد من مضاعفة الجهد، وتنشيط العمل على كل من يريد العمل لله، بصدق وإخلاص .

إن تبيلغ الدعوة واجب على كل مسلم ومسلمة كل بقدر ما يستطيع .

الأب مسئول عن أبنائه يعلمهم ما يعلمه من الإسلام، ويصاحبهم في التطبيق والعمل، ويبعدهم عن رفاق السوء ومناط العصبية .

والأم مسئولة عن نفسها وبيتها، تتمسك بالطهر والعفة وتعود أبناءها الخلق الطيب، والسلوك الحسن، وتحول بيتها إلى مدرسة تخرج الصلاح والاستقامة.

وكل مسلم ومسلمة مسئول عن أخيه، وجاره، وصديقه، وبذلك يتحول المجتمع المسلم إلى خلية تعمل لله ورسوله، وتحقق الدعوة داخل المجتمع الإسلامي .

ومن الممكن الاستفادة بالعلماء والأئمة الموجودين داخل المجتمع .

ومن الممكن تنظيم تجمعات أسرية، مهنية واجتماعية لتعليم الإسلام، وتعلمه .

إن اهتمام المسلم بأخيه المسلم واجب ديني يتضمن النصح والتوجيه والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى .

يقول تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[2].

ويقول تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[3].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[4].

ولو صدقت النوايا، وأخلص المسلمون لدينهم لتعلم المسلمون من العلماء، والمؤلفات والكتب الإسلامية، ولتمكنوا بعد ذلك من تعليم أهليهم وذويهم، ليكون التطبيق الإسلامي بعد ذلك صحيحاً .

ومن السهل الاستفادة بأساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، ومراجعتها، والتأثر بها .

يجب أن يمتلئ قلب المسلم بحب الله ورسوله، وباليقين في صدق الإسلام وأحقيته، ومن الضروري أن يتحول المسلم إلى صورة الإسلام العملية في القول، وفى العمل، وفي السلوك ... ولن يفلت المسلمون من حساب الله وعقابه إن فرطوا في دينهم الذين حملوا أمانته .

والإنسان يتساءل ....

ما الذي يبعد المسلم عن دينه ؟

ألم يعلم المسلم أن الإسلام عقيدة وعمل ؟

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٣) سورة العصر الآية ٣ .

(٤) سورة البلد الآيتان ١٧ ، ١٨ .

أفي الله شك وهو الخالق العظيم ؟

وهل يرضى المسلم أن يكون محارباً لدينه، عونا لأعداء الله ؟

وهل هناك إنسان مخلد ؟

وهل يفلت أحد من السؤال ؟

أم ماذا ؟

إني أنادي كل مسلم وأرجوه وأقول له : عد إلى ربك واعلم أن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير .

هذا عن المسلمين فيما بينهم .

وبالنسبة لغير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين فمن الواجب إحسان معاملاتهم، وإبراز الإسلام في الخلق والسلوك معهم لأن ذلك يعد دعوة عملية.

ويمكن تعريفهم بالإسلام بالحسنى ليعلموا الحقيقة ... ويختاروا لأنفسهم .

وبالنسبة للمسلمين والأقليات الإسلامية في العالم فإن دعوتهم تتم بإرسال دعاة لهم، يعلمونهم الإسلام بلغاتهم، ويردون على تساؤلاتهم، وينقضون ما يقال لهم عن الإسلام من كذب وافتراء ... وليكن واضحاً أن التطبيق الإسلامي في المجتمع المسلم هو الرصيد المتين لحركة الدعوة في العالم كله .

الفصل الثاني

أمة الدعوة



تمهيد :

أغلب العالم اليوم على غير دين الإسلام مع أنه مكلف به .... والمسلمون يحملون أمانة إيصال الإسلام للعالم كله بالحسنى، والبيان .

وتكليف المسلمين بمسئولية تبليغ الإسلام للعالم كله، ومحاولة إدخال الجميع فيه جزء من الحضارة الإسلامية العالمية التي يتشبه بها عالم اليوم .

إن العالم اليوم صار قرية صغيرة، لا يختفي فيه أمر، وكل حدث فيه ينتشر في لحظات قليلة .

وقد توصلت الحضارة المعاصرة إلى ضرورة رعاية القوى للضعيف، وإعانة الغني للفقير، وأهمية التعاون والمساندة في كل جوانب الخير والتقدم، لقد ظهر الإسلام في زمن لم يتوصل الناس إلى هذه المفاهيم من التوحد والتعاون ومع ذلك فقد نادى بهذه الروح العالمية الواحدة، وكلف المسلمين بالعمل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ودعوة الخلق لله رب العالمين .

وقد استجاب المسلمون لأمر الله، وحملوا الإسلام إلى كل مكان أمكنهم الوصول إليه ... وتركوا بذلك حقيقة يجب أن تبقي واضحة ظاهرة وهي دعوة الإسلام إلى العالمية، والتوحد في الخير، والتعاون على البر والتقوى من الحقائق الثابتة الدائمة .

وحمّل الإسلام أتباعة مسئولية إيجاد هذه الحقيقة وكلفهم بها فقاموا بها خير قيام .

واليوم ... ضعف المسلمون ... وهانت الأمة الإسلامية في نظر غيرها، وأدي الضعف بها إلى العجز عن القيام بما وجب عليها، إن غير المسلمين اليوم على أديان ومذاهب مختلفة، وواجب على كل مسلم أن يعرف حقيقتهم، ويستعد للقيام بدوره معهم على قدر طاقته .

وفى هذا الفصل سيدور البحث عن أمة الدعوة وهم غير المسلمين في العالم كله .

المبحث الأول
المسيحية والمسيحيون

المسيحية دين عيسى ﷺ التي بعث بها إلى بني إسرائيل، وقد حولها بولس الرسول والإمبراطور قسطنطين إلى دين عالمي، ليتمكنوا بواسطتها من إخضاع الناس باسم الدين ، وقد تمكنا من نشرها في كل ولايات الإمبراطورية الرومانية .

وعدد المسيحيين اليوم يزيد عن ثلاث مليارات، ولهم وجود في العالم كله.

والمسيحيون ليسوا على مذهب واحد، فمذاهبهم تقرب من المائة، وقد أدى اختلاط السياسة بالمسيحية إلى هذا التعدد حيث تتباين المذاهب عن بعضها تبايناً واضحاً .

ومن أجل معرفة واقع المسيحية المعاصرة، والوقوف على اتجاهات اتباعها، وتبين أهم أنشطتهم بصورة عامة، ومع المسلمين والإسلام بصفة خاصة .

نتناول بالبحث النقاط التالية :

١- انتشار المسيحية في العالم :

تشغل المسيحية قدراً واسعاً من سكان المعمورة، بعد أن نشرها قسطنطين في سائر الولايات، وانتقل بها الأوربيون إلى الأمريكتين، وبشر بها الرهبان في أماكن كثيرة في عالم اليوم .

والمسيحيون يمثلون دول أمريكا الجنوبية، وأمريكا الشمالية، وكندا، وسائر دول غرب أوربا ما عدا ألبانيا، وبعض الدول في شرق أوربا وأفريقيا وأسيا .

والمسيحيون قلة في كل الدول التي تدين بأديان أخرى، ما عدا دول الجزيرة العربية فهي إسلامية خالصة، وما يسكنها الآن من نصارى، وبوذيين، فهم وافدون إليها، يقيمون فيها إقامة مؤقتة، ولمدة معينة، يعودون بعدها إلى بلادهم وأوطانهم .

٢- امتلاك القوة المادية :

بعد انكسار الكنيسة أمام العلم والعلماء، أخذ المجتمع الأروبي يتشكل في ثوب جديد، متأثراً بتراثه القديم الذي ورثه من الإغريق والرومان .

فمن الإغريق أخذ ضرورة التفكير في كل شيء، وأهمية استخدام العقل في سائر القضايا، وقد تأثر بهذا العامل لدرجة كبيرة صرفته عن كل مصادر المعرفة، وأبعدته عن كل ما جاءت به المسيحية ... ومع أن الفكر العقلي لا يتجرد عن الحس، فقد رضي الأوروبي بذلك، وآمن به حتى جعل العقل إلها يتحكم في كل شيء ولو في الدين، وتصوره وما يجب أن يكون عليه .

ومن الرومان أخذ المسيحيون أهمية المادة، وضرورة الجمال، ومدى الحاجة لحياة طبيعية يتمتع فيها الجسد بما يرضي شهواته، وغرائزه .

وعلى أساس من تقدير الحس، والعقل، والجسد، والجمال، انطلق العلماء في صناعة النهضة الأروبية بعيدة عن الكنيسة، وتعاليمها .

وصارت العلمانية أساس النهضة، وبداية الحركة والتقدم، ولابد أن نقرر الإيجابيات والسلبيات، التي أنتجتها النهضة، وما زالت آثارها حتى اليوم .

لقد نجح العلماء في مجال العلوم الطبيعية، واستفادوا بالمنهج التجريبي، وأبدعوا في الطب، والكيمياء، والفلك، والفيزياء ... إلخ، ووصلوا إلى نتائج تطبيقية مذهلة ومخترعات العصر تشهد بذلك .

أما الدراسات الإنسانية فقد جاءوا معها بالمنهج التجريبي، وصنعوا النظريات النفسية والاجتماعية، فلم يحققوا معها النجاح الذي حققوه مع العلوم الطبيعية .

وكان الفشل الذريع في المجال الديني فقد أخضعوه للمنهج التجريبي فوصلوا إلى إهمال حق الله في التشريع والتوجيه، ورضوا لعقلهم بالسيادة والسلطان .

وانتهى الأمر إلى تملك المجتمعات الغربية إلى القوة المادية، وأخذوا يبتكرون فيها كل يوم، وأصبح العصر هو عصر المخترعات العلمية العجيبة.

٣- الدعوة للمسيحية :

تهتم الكنائس المسيحية بدعوة غير المسيحيين إلى المسيحية ويساعدهم الأمراء والرؤساء، ولتحقيق هذه الغاية يبذلون الوفير من المال، والكثير من الجهد، وقاموا بتأسيس كثير من المدارس التبشيرية، لتخريج جيل من المبشرين " الدعاة " واهتموا بوضع المناهج التي تساعدهم في تخريج شخص يتقن لغة من سيرسل إليهم، ويعرف العادات والتقاليد الخاصة بهم، ويتدرب على معايشتهم والتعامل معهم .

ورصدوا الميزانيات الضخمة التي تساعد المبشر على أداء مهمته، مدعوماً بالمال والسلطان والعلم .

وقد تسابقت الكنائس في هذا المضمار، فلكل كنيسة مبشروها، يدعون لمذهبها ويتصلون بها دائماً، للمتابعة، والتخطيط، والتوجيه، والرعاية .

وقد تمكنت الكنائس من تربية مجموعات للتبشير من الشباب، والشابات من كل دول أوربا لينشروا المسيحية في مجاهل أفريقيا، وجزر إندونيسيا، ومختلف الجهات التي يصعب الوصول إليها .

فهم يذهبون إلى الأماكن الشاقة، ويتحملون مختلف المصاعب إرضاء للمسيح عليه السلام كما يعتقدون .

وكم رأينا رجالاً ونساءاً، جاءوا من بلاد الغنى والرفاهية، وعاشوا في أماكن لا يرضاها الإنسان العادي .... وما ذلك إلا لأداء الواجب الذي تربوا له، وجاءوا من أجله، والمبشرون في دعوتهم يقيمون المستشفيات لعلاج المرضى، ويمدون المزارعين بالآلة والبذور، ويعطون المال للمحتاجين، وذلك كله من بركات الرب ليتبعهم الناس .

لقد نجح المبشرون في البيئات الإلحادية، ولم يحققوا نجاحاً في البيئات الإسلامية حتى الآن .

ونظراً لأن مذاهب الكنائس ليست واحدة فقد قاموا بتخصيص منطقة لكل كنيسة، منعاً للتضارب أمام الغرباء .

وهم يسمون عملية التبشير باسم " الكرازة " ويسمون دعاتهم بالمبشرين، لأنهم في رأيهم يحملون الأخبار السارة، ويوجهون الناس إلى النافع المفيد، وفى ذلك ما فيه من التمويه والتدليس .

والعقل يتساءل ؟؟!!

- ماذا يريد هؤلاء من التبشير بدينهم وقد أهملوه فيما بينهم ؟

- والسؤال مهم، يعرض لأي عاقل يفكر، لأن الإنسان بصورة عامة لا يتحمس إلا لما يؤمن به، ولا يخلص إلا لما يرضيه ويقتنع به .

والمسيحيون بصورة عامة تركوا حقيقة النصرانية، واكتفوا بقشورها، ومع ذلك يهتمون بالتبشير، والدعوة لها .

وأرى الجواب كما أتصوره .

في أن علمية التبشير لا يقصد بها إلا التمكين للسيطرة السياسية، وتحقيق الاستقرار للمستبدين من الحكام .

إن نشر المسيحية، وتحويلها إلى دين عالمي مكن للإمبراطور " قسطنطين" من السيطرة على الولايات المتباعدة .

وأيضاً، فإن عملية التبشير هي الأسلوب الأمثل لاستسلام الشرقيين لأنهم دائماً يأنفون من الخضوع لبشر، أما خضوعهم لفكرة دينية فأمره سهل، وها هم المصريون القدماء فرقهم تنازع الأشخاص ولكنهم توحدوا مع دعوة التوحيد التي نادى بها إخناتون .

وأيضاً، فإن بعض الغربيين المحافظين ما زالوا يؤمنون بما كانوا يعملون، ويحنون لماضيهم وتراثهم، ولذا فالتبشير بالمسيحية يرضيهم، ويجعلهم يشعرون باستمرار المسيحية، وبان البابا والرهبان ما زالوا في خدمة المسيحية والكنيسة.

وأيضاً، فإن قادة أوربا رغم انسلاخهم عن المسيحية وبعدهم عن تشريعاتها، يتصورون أن مجــرد التبشير يصلهــم بالمسيحية، ويرضي الرب والمسيح ﷺ عنهم .

٤ – الانهيار الخلقي :

في مرحلة نفور الأروبين من سلطان الكنيسة، وتمردهم على دين الإمبراطور، ونجاح الثورة الصناعية، برزت روح النفعية المادية في السلوك العام، وكان لها الأثر الشديد في المجال الأخلاقي، إذ استغل بعض المفكرين الواقع المهيأ للتغيير، ووضعوا النظريات التي تهدم الأخلاق، وصبغوها بصبغة العلم، وقدموها للناس .

ومن أهم هذه النظريات :

١) نظرية دارون :

وهي نظرية النشوء، والتطور، والارتقاء، وهي نظرية تؤكد ضرورة التغيير، وعدم الثبات في كل شيء، فكل شيء يتطور، مادة كان أو معنى، والأخلاق نفسها تتطور، والقيم والمبادئ تتغير، وهكذا لا بقاء لشيء ما وإن كان حسنا .

٢) نظرية فرويد :

وهي نظرية تؤكد أن الإنسان تملكه غريزة الجنس منذ صغره، ولابد من إشباع هذه الغريزة حتى لا يصاب بالعقد، والأمراض النفسية، وذلك بإباحة الاختلاط، وفتح باب الحرية المطلقة للرجال والنساء، وإهمال القيود الدينية في هذا المجال حتى لا توضع العوائق أمام تحرر الإنسان، ولتجعله يعيش آمناً سعيداً .

٣) نظرية ماركس :

وهو يرى أن الصراع بين الناس يدور حول المرأة والمال، ولذا فهو ينادي بنظرية الشيوعية، التي تجعل المال مشاعاً بين الناس، وتجعل المرأة مشاعة بين الرجال ... وحتى يتمكن ماركس من تحقيق هذا الشيوع نجده يهدم الدين، ويرفض الأخلاق الموروثة، وينادي بعقد اجتماعي جديد يعتمد على الشيوعية التي ينادي بها .

هذه النظريات أخذت صورة البحث العلمي، والمنهج الوضعي، فرحب بها

الأوربيون فراراً من تعاليم الكنيسة التي أذاقتهم كثيراً من الأذى .

وقد أدى التطبيق العملي لهذا الفكر إلى انهيار تام للأخلاق في العالم المسيحي.

وألف الناس هذا الوضع الأخلاقي، وأصبح عادة ومسلكاً واليوم نرى المسيحيين لا يعارضون الاختلاط، ويرحبون بوجود الأسر غير الشرعية، ويؤسسون نوادي العراة ويبيحون الزواج المثلي ويرحبون بكل صور الشذوذ، وهكذا عادتهم وأخلاقهم .

٥- التمسك الواهي بالمسيحية :

انحرف النصارى بعد انتشار العلمانية في حياتهم عن المسيحية كثيرا، وجعلوا نشاطهم وعملهم تحت سيطرة العقل، وفى إطار المناهج الموضوعة بعيداً عن سلطان الله في كل شيء.

ومع ذلك لم يتخلصوا من المسيحية تماماً، وقالوا : الدنيا لنا، والدين لله، وخصوا رجال الدين بشيء من التقدير ، ورضي الجمهور بذلك، وانعزلت المسيحية تماماً عن النشاط العام، وحصرت نشاطها في أيام الأحاد، وداخل الكنائس، لإلقاء المواعظ، ومباركة أعمال المجتمع الديني، ونيل المغفرة، والرضوان برضا الكاهن عنهم .

ولهذا تعيش المسيحية الآن بين أبنائها غريبة، والرباط بينهم واه ضعيف.

ومع هذا الوضع المعروف للجميع تقوم الكنيسة بدور نشط بالتبشير بين غير المسيحيين يحوطها المتحمسون، ويساعدهم المتعصبون بالمال، والقوة والسلطان .

٦- حب السيطرة والاستعلاء :

أدت القوة المادية، والنهضة الصناعية التي وصل إليها العالم المسيحي إلى الرغبة في السيطرة على غيرهم من الأمم، وأصحاب الأديان، وقد استغلوا التفكير العلمي للوصول إلى ما يريدون، فأوجدوا أولاً حركة الاستشراق حيث ظهر علماء من كل بلدان أوربا يهتمون بعلوم الشرق، وعاداته، ولغاته ويتقنون معرفتها، ويسجلون مؤلفاتهم في أبحاث علمية هادفة .

كما شجعوا حركة التبشير لدعوة الناس إلى الدخول في المسيحية، وبيان أنها طريق الخلاص في الدنيا، ومنهج السعادة في الآخرة، ويســتدلون بواقع التقدم الأوربي على أن سبب ما فيه من نهضة هو الدين المسيحي .

وبعد الاستشراق والتبشير كان الاستعمار الممثل للقوة العسكرية الحاكمة .

وبهذه الحركات الثلاث تمكن العالم المسيحي من السيطرة على العالم كله، وأخذ ينهب الخيرات، ويعمل على تنصير الناس .

وقد هب العالم كله ضد الاستعمار العسكري، وتمكن من طرد المستعمرين، إلا أن أثار الاستشراق، والتبشير موجودة في العالم حتى اليوم، وهو ما يعرف بالغزو الأوربي للفكر والأخلاق .

وعلى الأمم الواعية أن تتخلص من سائر أثار الاستعمار، وتعود إلى تراثها ومبادئها، وتقيم حياتها على أسس متينة من قيمها ودينها .

والأمة الإسلامية أولى الأمم في هذا المجال، لأن الإسلام منهج متكامل، محفوظ، ثابت، يعيد الأمة لمجدها العظيم، ويجعلها مرة أخرى خير أمة أخرجت للناس .

المبحث الثاني
اليهود

اليهود هم أتباع موسى ﷺ وعددهم قليل فهم لا يتجاوزون خمسة عشر مليون نسمة .

ومع قلة عددهم فإننا نراهم يسيطرون اليوم على مقدرات العالم المادية، والإعلامية والسياسية وهكذا ...

وسبب هذا التفوق يرجع إلى أسباب معقولة، فهم بين الناس أقلية قليلة، وأراد الله لهذه الأقلية أن تعيش ولا تفنى في غيرها .

وأخذت الشعوب المختلفة تكره اليهود، وتضطهدهم .

أمام هذا الواقع رأى اليهود ضرورة العيش منعزلين بعيداً عن الناس، مع الاهتمام بالتعليم، والتفكير في كل ما يجد لهم، والاستعداد لاقتناص الفرصة المناسبة حين تواتيهم، والظهور بمظهر الضعيف المستكين كسباً لعطف الأقوياء.

هذا التصرف تسلكه الأقليات الضعيفة دائماً ... وقد عاشه اليهود بذكاء.

لقد عاش اليهود في يثرب وعددهم قليل، ولذلك كانوا يأملون في الإيمان برسول يظهر، ليسيطروا به على العرب وقد صرحوا بذلك للأوس والخزرج، فسبقهم الأوس والخزرج إلى الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في الإسلام .

هذه الحادثة تفسر المنهج الذي يسيرون عليه مع سائر الأحداث، ولئن صرحوا به للأوس والخزرج فلن يصرحوا به لغيرهم .

عاش اليهود مضطهدين في العصور الوسطى، فلما بدأت النهضة كانوا من قادتها، وهم واضعوا نظريتها، والمتحمسون للعلم التجريبي، والفكر الوضعي.

وأحس اليهود مبكراً بأهمية الجماهير، فأخذوا يوجهون أبناءهم، وأموالهم إلى الأنشطة التي سوف يحتاج لها الناس، والتي لها في المستقبل تأثير كبير .

بدأت الأعمال بسيطة، وأخذت تكبر شيئاً فشيئا، حتى صارت اليوم تملأ العالم كله، فاليهود في عالم اليوم، هم أصحاب الأموال الضخمة، وهم مالكوا

البنوك الكبيرة، وهم في دنيا الإعلام المسيطرون على وسائلها يبثون من خلاله فكرهم وأهدافهم وهم تجار السلاح، ومثيرو الحروب .

وهم صانعوا أزياء المرأة، وتجار أدوات الزينة، والجمال، وهم تجار اللهو، واللعب وأصحاب الهوى .

وهم مؤسسو هوليوود، ومنتجو الأفلام ...

وهكذا ... حتى تمكنوا من السيطرة السياسية والتحكم في الرأي العام الغربي، كما تمت لهم السيطرة الجماهيرية، فأخذوا في توجيه الشباب، والمرأة وسائر الطبقات إلى نحو ما يريدون بذكاء عجيب، وإمكانيات عقلية فريدة .

المبحث الثالث
الوثنيون

إن كانت الأديان الثلاثة تمثل خمسة أسداس العالم، فإن السدس الباقي أديان وثنية، سواء أنكرت الإله، أو اتخذته من مظاهر الطبيعة وكائناتها، كالبوذية والوثنية، وغيرها .

وهؤلاء الوثنيون موجودون في عدد من بلدان العالم بأعداد قليلة، إلا أنهم يتركزون في بلاد ضخمة العدد مثل الهند، واليابان، والصين، وبورما، وجنوب السودان، وفى بعض الدول الأفريقية .

ويوجد كثير من الأفراد منتشرون في العالمين يعيشون بلا دين، ويتمتعون بالحياة المادية، والهوى العابث .

والكنائس العالمية تهتم كثيراً بهؤلاء الوثنيين، وتحاول إدخالهم في النصرانية بوسائل عديدة، فهى تنشئ المدارس، وتؤسس المستشفيات، وتساهم في إصلاح شئون الحياة وإمدادهم بالأموال والمعونات المادية العديدة ... ومع كل هذه المساعدات التي يحتاج إليها الناس يوجد رجل الدين المبشر ليقوم بدوره الممهد، ويعمل على إدخال هؤلاء الناس في النصرانية، ويمكن للمسلمين أن يقوموا بدور كبير لخدمة دينهم وسط هذه المجتمعات .

والمجتمعات الوثنية مجال خصيب للدعوة إلى الدين الحق، لولا أن القائمين على شئون هذه المجتمعات لا يسمحون لغير رجال أديانهم بالاتصال بالناس .

وفى العصر الحديث أجبرت الأوضاع الاقتصادية اتباع هذه الأديان إلى السفر، والاختلاط بالمسلمين، الأمر الذي أدى إلى دخول الكثير منهم في دين الله تعالى وتأسيس مراكز إسلامية بين الوثنيين، وتلك فرصة نحتاج إلى تنميتها وتقويتها .

المبحث الرابع
العلاقة بين أديان العالم اليوم

اليهود قابعون على مناسكهم، لا يعملون على نشرها، والدعوة إليها لأنهم يرون أنفسهم الشعب المختار أتباع موسى ﷺ خاصة ولذلك يحافظون على ذواتهم ... ويحاولون استقدام كل يهود العالم لإقامة مملكة اليهود في أرض الميعاد ويقصدون بها دولتهم الكبرى من النيل إلى الفرات .

وقد تمكن اليهود من تحقيق كثير من أحلامهم فسيطروا على كثير من مقدرات العالم الاقتصادية والسياسية والإعلامية .

واليهود قوم لا يريدون انتشار دينهم لأنه في نظرهم خاص بهم، ولذلك نجدهم يتعاونون مع المسيحيين ومع غيرهم ضد المسلمين والإسلام حتى لا يتوسع بينهم ويضمهم إليه .

أما المسيحية فهي تعمل على الانتشار في سائر الأمم بواسطة المبشرين المنتشرين في العالم كله .... وبرغم تعدد المذاهب المسيحية، واختلافها فيما بينها، إلا أنها تلتقي في هدف واحد وهو إضعاف المسلمين وإدخالهم في النصرانية، والعمل على إلهاء المسلمين وإبعادهم عن دينهم بقدر المستطاع.

والوثنيون يدعون لعقيدتهم في نطاق ضيق وبصورة عنصرية .

والمسلمون وهم أمة الدعوة يبذلون قصارى جهدهم في خدمة دينهم إلا أنهم يحتاجون إلى التنظيم، والدعم، والإخلاص .

إن المسلمين يجدون أنفسهم في مواجهة واحدة مع أصحاب الملل والنحل الأخرى حيث يرون الواجب عليهم، ويعلمون أن دعوة الجميع إلى الإسلام أمانة يتحملها كل مسلم وذلك يدعونا إلى ضرورة تحسين العمل، ومضاعفة الجهد في سبيل الله تعالى .

المبحث الخامس
حركة الدعوة بين غير المسلمين

أغلب العالم على غير دين الإسلام، والواجب تبليغهم الإسلام على الوجه الذي نزل به، وتنفيذ هذا الواجب يحتاج إلى ما يلي .

أولاً : إيجاد الداعية الكفء :

إن الداعية الكفء سيتحرك وسط هؤلاء الناس في العالم كله وواجبه أن يكون كفؤاً وهو يدعوهم ولابد له من إتقان لغة من سيدعوهم، ولابد من معرفة عاداتهم وتقاليدهم، ومذاهبهم على نحو ما ذكرنا قبل ذلك .

ثانيا : توضيح الأباطيل الموجهة ضد الدعوة :

العالم اليوم ملئ بالدعوات العقائدية المختلفة والكل يحاول معارضة الإسلام ببث الشبه ونشر الدعايات المضللة الظالمة .

وأغلب الشبه دونها المستشرقون، وكتبها المبشرون، وتحدث عنها العلمانيون، ويثيرها اليوم المتنورون وأعداء الإسلام في كل مكان يوجدون فيه، والإحاطة بها أمر ميسور .

ومن الممكن تناول هذه الشبه بالتحليل والرد عليها بطريقة علمية هادئة، وإثبات الحق في كل مسألة .

ويمكن الاستفادة بمؤلفات العلماء، وأبحاث الدراسين الإسلاميين، وتوجيههم نحو هذا المجال الهام .

إن المستشرقين بذلوا جهوداً ضخمة وأخرجوا مؤلفات عديدة بمساندة المراكز العليمة التالية :

١) **كراسي اللغات الشرقية :** التي أنشئت في سائر الجامعات الأوربية تضم أعداداً غفيرة من الأساتذة، والمحاضرين، والمعيدين .

٢) **المكتبات الشرقية :** وهي تضم المؤلفات والمخطوطات باللغات الشرقية، وقد تنوعت هذه المكتبات، فمنها ما هو تابع للحكومات، ومنها ما هو تابع للجامعات ومنها ما هو تابع للعلماء، ولجميع هذه المؤلفات فهارس شاملة.

٣) الجمعيات الأسيوية والشرقية : وهي نواد للعلماء المهتمين بالعلـــوم الشرقية، وتصدر المجلات الدورية، وتنشر مؤلفات الأعضاء .

٤) وللمبشرين أيضاً مؤسساتهم الضخمة فالكنيسة لها دعاتها، وبابا الفاتيكان رئيس دولة مستقلة تشرف على الكنائس وتوجه المبشرين .

والمجامع المسيحية قديماً وحديثاً لها نشاطها الكبير في خدمة التبشير والمبشرين .

هذه المؤسسات الضخمة للمستشرقين والمبشرين تحتاج إلى جهد يكافئها، ليقف الدعاة المسلمون أقوياء بدينهم الحق، وبالتدعيم الذي يساندهم لقد تكلم المستشرقون في كل جزئية إسلامية، والواجب أن تكون الردود شاملة، وقوية، وبخاصة أن وسائل الاتصال لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبثتها في العالم كله.

والكناس العالمية اليوم تقوم بحملات تبشيرية منظمة، وتبذل الكثير من أجل التنصير، وتنتهز الفرص لتحقيق غاياتها ... وتعتبر النكبات التي تنزل بالناس فرصة يستغلونها في التبشير .

ثالثاً : كشف مناهج الدعوات المضادة :

للدعوات المضادة للإسلام مناهج خاصة، ولهم وسائلهم التبشيرية، فهم يتخذون الطب، والتعليم، والزراعة، ويستعملون القوة للوصول للناس، والمناهج ليست غامضة فهي مدونة، ومطبقة، والوصول إليها شيء ميسور .

والدعاة المسلمون عليهم مواجهة أساليب هؤلاء الناس، والرد عليها بالحسنى، ولن يتمكنوا من ذلك، إلا إذا علموا المناهج، والوسائل التي يستعملها الآخرون، كما أن هذا العلم يمكنهم من عرض دعوتهم متضمنة تفنيد هذه الشبه وفق خطة متكاملة توازي ما عند الآخرين وبذلك يحمي المسلمون دعوتهم بصورة تلقائية، وحتى لا تكون دعوتهم رد فعل لمقالات الآخرين وهجومهم .

رابعاً : التوجيه والإشراف على عملية الدعوة :

على الهيئات المشرفة على حركة الدعوة في العالم أن تقوم بإمداد الدعاة بأبحاث دقيقة نوضح ما يلي :

- التعريف بواقع الإقليم الذي توجه إليه الدعوة .
- حصر الشبه المثارة والرد عليها .

وبعد ذلك تكون الظروف مهيئة أمام نجاح الدعوة، وليس معنى ذلك انتهاء مهمة مؤسسات الدعوة، بل إنها تبدأ في المرحلة الأهم، وهي مرحلة توجيه الدعاة بطريقة سليمة، حيث تحدد لهم القضايا الأولى في دعوة الناس، وترسم المنهج الملائم لكل قضية، وتوجه الدعاة إلى معرفة رد الفعل الذي يبدو بين الجماهير .

إن على الجهات المشرفة أن تحدد لكل داعية الأمراض الاجتماعية التي توجد في حياة من يقوم بدعوتهم، ليعالجها بالمنهج الذي يوجه إليه .

إننا في عالم تكثر فيه الأحداث، وتتوالى خلاله المستجدات، وتقع فيه الغرائب، وتظهر فيه المثلات، والإسلام لا يعيش منعزلاً، لأنه نزل لصنع الحياة، ومواجهة كل حدث، ولذلك يحتاج الدعاة إلى التنبيه المستمر، والتحذير المبكر ليصلحوا الأحداث بحكم الإسلام .

والرسول ﷺ هو القدوة في توجيه الدعاة، والإشراف على الدعوة، وقد وضع كل شخص في موضعه الصحيح .

قرب الرسول ﷺ إليه أبا بكر وعمر ﷺ وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلقبونهما بالوزيرين، ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس، وهو ما رجح اختياره الخليفة الأول، وبعده كان عمر الخليفة الثاني، وكان ما كان منهما من حسن السياسة، وعدالة الحكم، ورعاية الدنيا، وحماية الدين .

خامساً : متابعة أعمال الدعوة وتقييمها :

يعمل الناس، ويجتهد المجتهدون كل يبغي تحقيق ما يريد، والدعاة المخلصون هم أحرص الناس على انتشار الإسلام، وتعبيد الناس لرب العالمين،

وهذا عبء ثقيل .

ولتخفيف العبء عنهم لابد من متابعة أعمالهم ومعرفة النتائج التي يتوصلون إليها، ومن الأفضل أن تكون هذه المتابعة دورية ليستمر الدعاة على الأسلوب المفيد، ويتركوا ما لا فائدة فيه .

والإنسان لا يعرف نتائج عمله بنفسه عادة، ولا يمكنه أن يصل إلى أعماق مستمعيه، ولذلك نرى النظريات الحديثة تضع طرقاً عديدة لقياس رد الفعل، مثل الاستفتاءات، وجمع البيانات، وقياس الرأي العام، والأسئلة المباشرة للوكلاء والمندوبين الإعلاميين .

والهيئات المشرفة على الدعوة يمكنها ذلك، ولذا كان من عملها متابعة حركة الدعوة لتبقى في مسارها الصحيح .

إن بعض الدعاة قد يتأثرون عاطفياً ببعض الأحداث التي لا يعرفون حقيقتها، وهنا تقوم المتابعة بتوضيح الحقيقة، وضبط حركة الدعوة حتى لا تنحرف عن مسارها الصحيح .

إن الداعية جندي مخلص، يطيع قادته، ويثق فيهم، ولذلك فهو يستفيد من الإشراف الذي يتابعه ويوجهه .

سادساً : إصدار الرسائل التي لا يقدر عليها الأفراد :

التوجيه والإرشاد في عالم اليوم له رسائله، وقد تنوعت طرق الاتصال، وكثرت المناهج وتعددت الرسائل وأصبح من الضروري أن تستفيد الدعوة بهذا الجديد الذي أشرت إليه حين الحديث عن الوسائل المعاصرة .

الخــــاتمة

أحمد الله تعالى أن أعانني على إتمام كتابي هذا في طبعته الجديدة، والذي حاولت فيه التعريف بأركان الدعوة وعلومها المختلفة في صورة تامة، وأرجوا الله تعالى أن يحقق ما أملت فيه ويوصل إلى القارئ الأساسيات التالية :

١) التعريف بأساسيات الإسلام وأصوله بصورة عامة، وتوضيح اشتمال الإسلام على عقيدة تامة، وشريعة كاملة وخلق كريم .

٢) بيان أن الله تعالى أحاط الإسلام بما يؤكد توافقه مع البشر جميعاً في كل زمان وفى كل مكان، وبما يجعله صالحاً لزمن ظهوره ولكل الأزمنة وذلك فضل الله تعالى وحكمته .

٣) توضيح صلة الإسلام بسائر أديان الله تعالى حيث جعله الله مصدقاً بها مشتملاً لها، مهيمناً عليها، كما جعله خاتم الأديان وللناس أجمعين .

٤) بيان أهمية تبليغ الإسلام وضرورته لصيانة حقوق الناس، والمحافظة على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، مع إظهار مسئولية المسلمين في تبليغ الإسلام.

٥) التعريف بوسائل الدعوة، وبيان تنوعها واشتمالها على كل جديد مقيد يتسم بالمشروعية الإسلامية .

٦) بيان أهم أساليب القرآن الكريم وتوضيح اشتمالها على الأسس الرئيسية للأسلوب الهادف من ناحية تمتعها برضا الداعية، وتفهيمه معاني الأسلوب، وفنية التأثير فيه .

٧) الداعية ركن أساس في عملية الدعوة الإسلامية، والواجب العناية بتكوينه، والاهتمام بإيجاده متصفاً بصفات تمكنه من الدعوة الجادة، وإمداده بكل ما يحتاج إليه من مال وجاه وعون .

٨) بيان أن الإسلام دين الناس أجمعين دخلوا في الإسلام أو لم يدخلوا فيه بعد ... والواجب العمل لإظهار هذه الحقيقة بالحكمة واللين والاقتناع .

هذا ما أملت إظهاره، وأرجو أن يوفق الله القارئ إليه ... وأرجو أن يهتم العلماء الأجلاء بما كتبت فيثرونه بالنقد والإضافة، ويعينوني بالنصح والتوجيه.

إن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى كل جهد ممكن من أجل أداء الأمانة والقيام بواجب المسئولية التي يتحملها المسلمون أجمعون .

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1].

والحمد لله رب العالمين

د / أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(١) سورة هود الآية ٨٨ .

الفهـــرس

فهرس الموضوعات

الباب الأول

الإسلام والدعوات الإلهية السابقة

الفصل الأول

الإسلام دعوة الله تعالى

الفصل الثاني

أصول الدعوات الإلهية السابقة

الباب الثالث

خصائص الإســـلام

الفصل الأول

الإسلام دين تام

الفصل الثاني

الإسلام خاتم الأديان

الفصل الثالث

الإسلام دعوة عالمية

الباب الرابع

تبليغ الدعوة الإسلامية

الفصل الأول

أهمية تبليغ الإسلام

الباب الخامس

تبليغ الإسلام بين الوسائل والدعاة

الفصل الأول

وسائل الدعوة

الفصل الثاني

الداعية

الباب السادس

أساليب الدعوة في القرآن الكريم

الفصل الأول

الملامح الواحدة في أساليب الدعوة

الفصل الثاني

القصة القرآنية أسلوب للدعوة

الفصل الثالث

القسم أسلوب للدعوة

الفصل الرابع

المثل أسلوب للدعوة

الفصل الخامس

أسـلوب الجـدل

الباب السابع

أمة الإسلام بين الدعوة والإجابة

الفصل الأول

أمـــة الإجـــابة

الفصل الثاني

أمـــة الدعـــوة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

